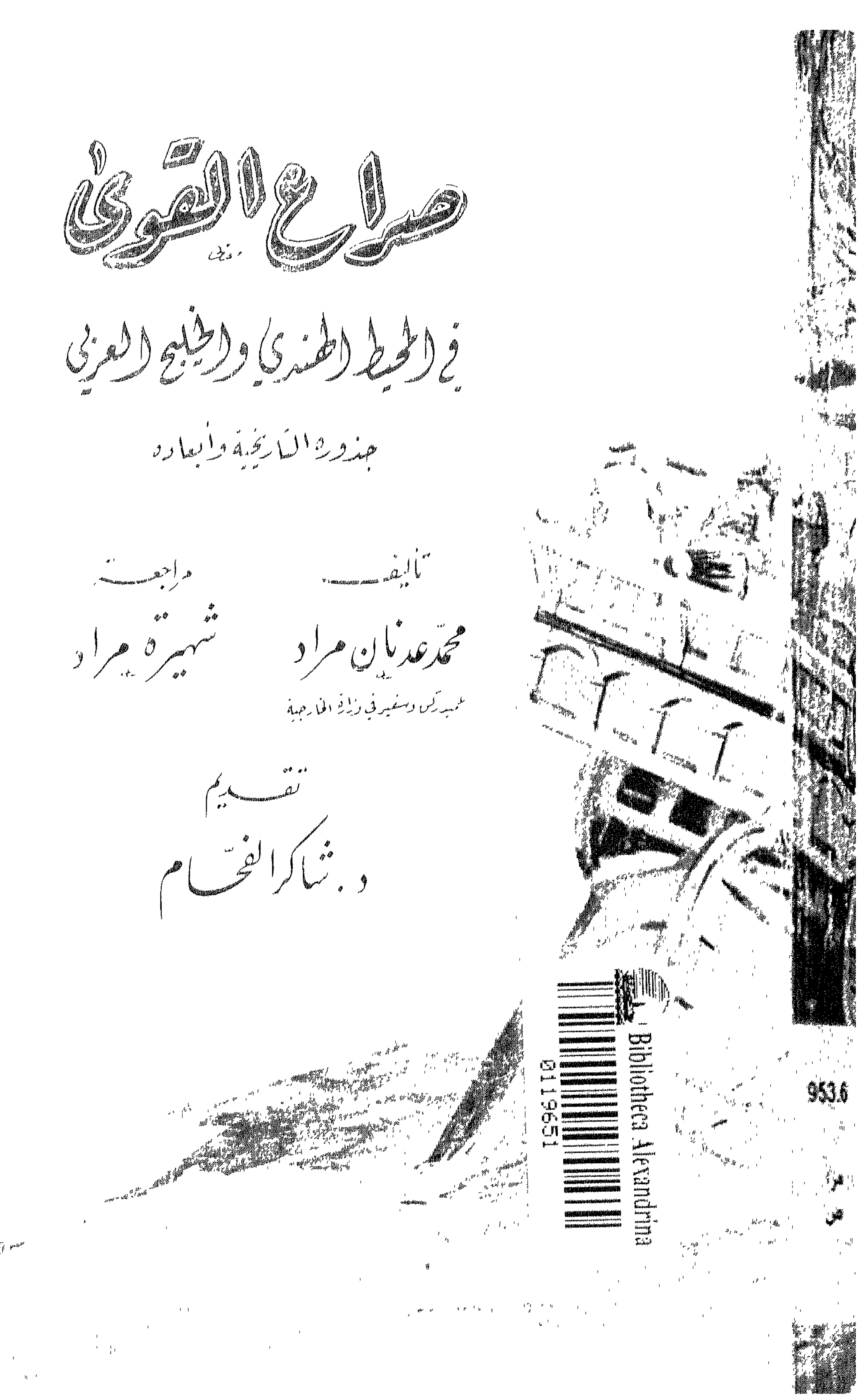


صراع القوى

في المحيط الهندي والخليج العربي

جذوره التاريخية وأبعاده

تأليف

محمد عدنان مراد

عميد ركن وسفير في وزارة الخارجية

مراجعة

شهيرة مراد

تقديم

د. شاكر الفحام



صراع القوى

في المحيط الهندي والخليج العربي

جذوره التاريخية وأبعاده

تأليف

محمد عدنان مراد

عميد ركن وسفير في وزارة الخارجية

مراجعة

شهيرة مراد

تقديم

د. شاكر الفحام



١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤

رقم الموافقة : ٩٥٨٩
تاريخ ٢٦/٧/١٩٨٢



دمشق - شارع بور سعيد - هاتف ٢١١٠٤٨ - ٢١١٠٢٢
بيروت - الحمراء - شارع المقدسي - بناية يونس - ص.ب ١٤٥٢٩٩

الإهداء

إلى أخي الكبير عبد الرحمن الذي وضع في يدي أول كتاب للمطالعة
وإلى زوجتي التي كان لها الفضل في تشجيعي على إصدار هذا الكتاب
وتهيئة الظروف المناسبة للكتابة



الفهرست العام



فهرس الأبواب والفصول

الباب الثامن ٤٥٩ ـ ٥٦١

الحرب العالمية الثانية ونتائجهـا واثرهـا على الأوضـاع العامـة في المحيط الهندي والخليجح

تقديم

كتاب «صراع القوى في المحيط الهندي والخليج» الذي وضعه الأخ الصديق الأستاذ محمد عدنان مراد من الكتب المفيدة الممتعة حقا . نعمت بقراءته وأنست بصحبته أياماً وليالِيَ فكان نِعْم السمير ، يقصُّ عليك في أسلوب يسير سهل قصة الخليج العربي وما يتصل به من بلدان المحيط الهندي على مر العصور ، يتنقل بك من أقدم المراحل التاريخية حتى يصل إلى العصر الحاضر .

وقد أحسن المؤلف تنسيق كتابه ، فوطّأ لغرضه بمقدمة بين فيها حدوده وأهميته ، ثم فصّل في أبواب ثمانية مسيرة الخليج وما يرتبط به ويدنو منه ، فعرض لنا العرض الموجز الأخّاذ تلك الصورة الزاهية لأبناء الخليج في أيام سيادتهم وسلطانهم وازدهار دولهم ، وما قدموه من مشاركة طيبة في حضارة الانسان وتقدمه ، وفي إقامة التعاون المنتج والتبادل المثمر بينهم وبين جيرانهم وخلطائهم ، يسود علاقاتهم التسامح وحرية الأخذ والعطاء ، لا يحتكرون المعرفة ، ولا يخفون أسرار العلم ، ولا يستأثرون بما انتهوا اليه من تطبيقاته وتقنياته . ومضى المؤلف بعد ذلك فبسط قصة القوى الاستعمارية الغربية ، التي قدمت من أرض بعيدة غريبة ، تنشر الرعب والدمار (ما تذر من شيء أتتْ عليه إلا جعلته كالرميم) ، لا همَّ لها الا استنزاف الثروات ، وسلب الخيرات ، وتحقيق أطماعها الجشعة ، واحتجان كل شيء لها ، تقترف في سبيل ذلك أشنع الجرائم ، وتصطنع لبلوغ أهدافها أنواع المكر وأخسَّ المكايد ، لا وازع لها من خُلُق ولا رادع ، قد بعثت الفتن بين السكان الآمنين ، وحرَّضت وحرَّشت بين الأقرباء والجيران ، وأثارت الحروب والمنازعات الداخلية ليصفو لها الجو ، وتتفرَّد بالسيادة والتسلط .

تلك كانت خطة القوى الاستعمارية التي انتهجتها على اختلاف منازعها ، وإن تغايرت أساليبها في الإخراج والتنفيذ ، ومرماها أن يكون لها وحدها الغلبة والسلطان ، وساتعباد المواطنين الأحرار واستغلالهم ، والاستئثار بكل خيرات البلاد . ولقد بينّ المؤلف في أكثر من مناسبة أن من بين الأسباب الأساسية التي مكنت للاستعمار أن يحقق مآربه تلك الفرقة وذلك النزاع والتخاصم بين الشعوب المغلوبة على أمرها ، وأن الأستعمار قد باء بالخيبة والهزيمة في كل مرة استبسل فيها الذين يعاندونه دفاعاً عن أرضهم و ديارهم موحدين متكاتفين ، لم يتسرب الوهن الى صفوفهم .

تطالعك في الكتاب صورة الاستعمار البرتغالي بوجهه البشع القبيح ، وجشعه الذي لا حدود له ، يحتكر كل شيء ، ويُسدل على تحركاته وأعماله وتصرفاته حجباً وأستارا حتى يخْفيها عن عيون الآخرين ، خشية أن يشاركوه في غنائمه وأسلابه . ثم يقصُّ عليك الكتاب ما أعقب الاستعمار البرتغالي من عدوان المستعمرين الهولانديين والفرنسيين والانكليز الذين جاسوا خلال الديار ، فعاثوا فساداً ، وهدموا حضارة، وأورثوا خرابا ، وخلّفوا الجهل والفقر والمرض ، وأجّجوا العصبيات الغافية ، وبعثوا المنازعات والأحقاد التي كانت دفينة .

ويجلو لك المؤلف في كتابه نزاع هذه القوى الاستعمارية فيما بينها ، ودوافعه الاقتصادية ، وما كان يكمن وراءه من قوى المال والمصارف والشركات ، ثم ما أسفر عنه من هيمنة الانكليزعلى هذه المنطقة الهامة من العالم ، وقيام الامبراطورية الهندية البريطانية ، وبلوغ الاستعمار البريطاني ذروة عنفوانه ، وقمة تسلطه ، ويعود فيقود خطاك في تؤدة ، يعرض لك الوقائع ، ويبين تلعب الاستعمار بمصاير الشعوب حتى يبلغك العصر الحاضر ، ويظل يرافقك يبسط لك الأحداث الراهنة وأخبار الساعة ، موضحاً ما أسفرت عن الحرب العالمية الثانية من تغير موازين القوى الاستعمارية ، وتقهقر الهيمنة البريطانية ، وبروز الولايات المتحدة وتسلمها الزمام ، تتصدر قوى الامبريالية والاستعمار في العالم ، تندفع شرسةً عاتيةً شريرة تريد أن تفرض سلطتها وهيمنتها على العالم ، ويكشف لك المؤلف عن مظاهر

تلك الهيمنة التي تبدت في منطقة الخليج ، تنتزع ثرواته ، ولا سيا النفطية ، وتستأثر بخيراته ، لا غاية لها إلا زيادة الهوة الفاضلة بين الشمال والجنوب ، ليزداد الأغنياء غنىً ورفاهية ، ويزداد الفقراء فقراً وبؤساً وتعاسة .

ومما يحمد للمؤلف أنه سطّر لك تلك الملحمة البطولية التي خاضها ابناء الخليج دوراً عن حريتهم ووطنهم أمام تلك القوى العاتية الظالمة التي انصبّت عليهم ، وقصّ عليك ما قدّموه من تضحيات جسام ، وما عانوه من نكبات الاستعمار الغاشم الذي لا يرحم . إنها الصورة التي أراد الاستعمار أن يطمسها ، ويزوّر في ملامحها وسماتها ، ليخفي دوره اللئيم في إذلال الشعوب واستعبادها .

وهل عرفت الدنيا في مختلف عصورها نظاماً أشرس وأقسى من النظام الاستعماري : استنزف ثروات الأمم التي استعمرها ، وقتل خيرة أبنائها ، وأثار الخلاف بين مواطنيها ، وعمل جاهداً لتمزيق وحدتها ، وحاول أن يدمّر بنيتها ، وأن يسلبها هويتها وشخصيتها وكرامتها ، وفرض عليها كل أنواع التخلف ، وبذر فيما بينها بذور الفرقة والتشتت ، يريد لها ألا تنهض أبدا .

ويروعك في الكتاب نظرة المؤلف المحيطة المستوعبة للأحداث المتزامنة المتداخلة في العالم . إنه لا ينسى مثلاً وهو يتحدث عن مواقف بريطانيا في الهند ، مشكلاتها الأخرى التي كانت تواجهها في إبان ثورة الولايات المتحلبة عليها ، وما كان لذلك كله من أصداء في الأحداث الجارية ، مما مكّن له ، وقد استجمع في موضوعه شتى الأسباب ومختلف الدوافع من أن يكون حكمه أدنى الى الصواب ، وتعليله أقرب الى الحق والواقع .

وأراد المؤلف أن يكون كتابه في متناول جمهرة الناشئة العربية ، وأن يقرأه الخاصة والعامة ، فاختار الأسلوب السهل القريب ، وعرض الوقائع والوثائق مبتعداً عن التعقيد والاغراق في الارقام والاحالات ، مما يسرّ للقارىء أن يتابع موضوعه دون أن يوقفه تشابك في الأفكار ، او التواء في العبارة ، وتلك حسنة

تضاف الى حسنات المؤلف . وقد أدّى به ذلك إلى أن يتخفف من الاشارة الى المراجع في حواشي الكتاب حتى لا يشغل بها قارئه ، واكتفى بسردها في ثبت خاص في ختام كتابه .

وتلوح في الكتاب ، الى جانب ثقافة المؤلف التاريخية الواسعة ، خبراته الأخرى التي ثقفها ، فقد درس المؤلف الفن العسكري دراسة معمقة ، تتبدى لك في تحدثه عن المعارك وبيان أسباب الظفر والخذلان . والمؤلف سفيرٌ مثَّل بلده في دول عدة ، واكتسب ما يكتسبه من يشغل مثل هذا المنصب ، فهو يتحرى الوثائق بدقة ، ويقرأ ما بين السطور ، ويستشفُّ ما جرى في الغرف الخلفية ، ويعرض لك العرض الرفيق ، بكياسة وتلطف ما انتهى اليه درسه ، وأداه اليه اجتهاده .

لا أملك الا أن أهنّيء الأخ الصديق الأستاذ محمد عدنان مراد ، لما بذل من جهد ، وما أنفق من وقت ، حتى استقام له كتابه على نحوٍ رضي عنه وأرضانا به ، وأرجو لكتابه الذيوع والانتشار تنتفع به الأجيال العربية ، وتعرف من أمر الخليج وقضاياه أشياء وأشياء كانت خافية ، حتى قُدّر لها اليد الصناع التي يسرّت سبيل الاطلاع عليها . إني لأعدُّ هذا الكتاب مشاركة جادّة في التاريخ لجزء عزيز من أجزاء الوطن العربي الغالي ، يستحق صاحبه كل التقدير والثناء .

دمشق ١٠ محرم الحرام ١٤٠٤ هـ

١٦ تشرين الأول ١٩٨٣ م

الدكتور شاكر الفحام

مقدمة المؤلف

تعود علاقتي في المنطقة التي تدور فيها احداث هذا الكتاب الى عام ١٩٦٢ عندما عينت مديرا لادارة الوطن العربي في وزارة الخارجية العربية السورية . وكان يطلق عليها في ذلك الوقت ادارة شؤون البلاد العربية . وكانت تضم عدا شؤون البلاد العربية شؤون الجامعة العربية ومؤتمراتها ونشاطاتها وادارة فلسطين . وكان علي انا الضابط السابق خريج الكليات العسكرية أن أكون مستعدا لاجابة الوزارة عن كل سؤال يطرح على الادارة في هذه المجالات الواسعة وبخاصة ان وثائق وزارة الخارجية السورية كانت قد نقلت خلال الوحدة الى مصر . وقد مرت علي خمس سنوات متواصلة في تلك الادارة رغم تبدل نظام الحكم في سورية وكان الوطن العربي يغلي من اقصاه الى اقصاه فبالاضافة الى قضية فلسطين كان الاحتلال الامريكي لليبيا والبريطاني لجنوب اليمن وعمان والخليج والاحتلال الفرنسي لدول المغرب والثورة الجزائرية . وفي المشرق الثورة العمانية ضد السلطان سعيد بن تيمور وثورة ظفار وثورة جنوب اليمن والحرب الأهلية اليمنية وقلاقل جنوب السودان والثورة الاريترية ومشاكل الصحراء الغربية والخلافات بين الدول العربية والتغيير في انظمة الحكم . . . الخ من المشاكل العربية وكانت اكثر المناطق غموضا منطقة الخليج بسبب الستار الحديدي الذي كانت تفرضه بريطانيا عليها ، وكانت مصادرنا الرئيسية الصحف والمجلات العربية والأجنبية والوثائق التي كانت الحركات المناهضة للانكليز تزودنا بها بالاضافة الى الاتصالات الشخصية مع الذين قدر لهم العيش هناك او مروا فيها وكانوا قلة بسبب صعوبة العيش في ذلك الوقت وعدم وجود الحوافز ، وقد قدر لي ان اعين سفيرا لسورية في الصومال في عام ١٩٦٦ وهناك تسنى لي الاطلاع على العلاقات القديمة والحديثة بين العرب والصومال وزرت الجاليات العربية والمدن الساحلية التي كان لها دور كبير في مقاومة الاستعمار البرتغالي . كما زرت خلال اقامتي في الصومال المناطق المجاورة ككينيا واوغندا

وتنزانيا كما زرت حضرموت ويمكن ان اكون اول سوري يدخل تلك البلاد بعد حصولها على الاستقلال . وبعد عودتي من الصومال عدت الى استلام ادارة الوطن العربي في بداية السبعينيات وتسنى لي بذلك معاصرة مشاكل الاستقلال ودعمها في الخليج العربي وعمان والهدف هو اخراج الاستعمار بدون النظر من سيكون الحاكم او نوع نظام الحكم وحماية الخليج من أطماع القوى الاستعمارية وقد قمت بزيارة الخليج مرارا . وكنت في استقبال أغلب الحكام والشيوخ والشخصيات الكبيرة الخليجية عند زيارتهم لدمشق وضمن هذه الظروف تجمعت لدي معلومات كثيرة عن المنطقة .

كان اول ما كتبته عن المنطقة المذكورة دراسات ضمن وزارة الخارجية وباعداد محدودة واطولها دراسة عن (عدن والمحميات) ودراسة مطولة عن (عمان والخليج العربي) والتي اصبحت مرجعا للوزارة خلال مناقشة القضية العمانية في الأمم المتحدة . وفي بداية السبعينات اعدت كتابة هذه الدراسة بعد تنقيحها وزيادة ما استجد فيها من امور واصدرت كتاب «الخليج العربي في الماضي والحاضر» وكانت هذه الدراسات وهذه الكتب القاعدة التي بنيت عليها اسس الكتاب الجديد «صراع القوى في الخليج العربي والمحيط الهندي» وذلك بعد عودتي للكتابة بتشجيع من كثير من الأصدقاء في وزارة الخارجية ، ولن أدعي بأني وفيت هذا الموضوع حقه وبخاصة في هذه المرحلة الهامة من تاريخ هذه المنطقة بعد انتقال مركز ثقل الأحداث اليها وبعد سقوط الشاه ودخول السوفييت افغانستان والحرب العراقية ـ الايرانية والحرب الحبشية ـ الصومالية . . الخ وزاد في سخونتها الاعلان عن تشكيل قوات التدخل السريع الأمريكية واهدافها مما يعيد الى الأذهان سياسة الاستعمار البريطاني والعودة الى سياسة شرق السويس الفاشلة .

لقد حاولت قدر المستطاع ان اجعل الموضوع سهلا بعيدا عن التعقيد رغم تشابك الأحداث فقد انتقلت من مرحلة الى اخرى مع دراسة مختلف الأحداث التي وقعت في تلك المرحلة لتسهل قراءته حتى على المثقف العادي الذي يشكل الغالبية في الوطن العربي وهدفي القاء الأضواء على اهمية المنطقة بالنسبة للوطن العربي والأخطار المهددة لها لئلا نجد في (غفلة من الزمن) خنجرا آخر في جسم الشعب العربي كخنجر اسرائيل .

دمشق ١/ تشرين اول ١٩٨٣ — محمد عدنان مراد



تمهيد ومقدمة عامة

يقع مسرح الأحداث موضوع كتابنا هذا في قلب العالم القديم ويشمل المنطقة الواسعة ما بين الهند شرقاً وجمهورية مصر العربية غرباً ومن البحر الأبيض المتوسط شمالاً الى المحيط الهندي جنوبا وتطل عليه سواحل افريقية الشرقية والهند الغربية وسواحل الجزيرة العربية وايران وتضم المحيط الهندي الواسع وما يتفرع عنه من بحار وخلجان كالبحر العربي والأحمر وخلجان عدن وعمان والعربي وخليج بومباي وتهيمن على مضائق ملقا ـ باب المندب ـ وهرمز . وفي هذا المسرح تقع الجزر الستراتيجية كجزيرة بريم (ميون) التي تتحكم في مدخل البحر الأحمر . وجزيرة سقطرى التي لا تبعد سوى ستمائة كيلومتر من السواحل العربية ثم جزيرة مصيرة الواقعة قبالة ساحل عمان . وارخبيل جزر سيشل ، وجزر موريشوس وارخبيل شاكوس الذي تقع فيه جزيرة (ديغوغارسيا) وجزر سيرالانكا (سيلان) وارخبيل جزر كالديف ومالديف ، وارخبيل البحرين الذي يقع في الخليج العربي وجزر طنب الكبرى والصغرى وابو موسى وتسد هذه الجزر مداخل الخليج مع جزر قشم وهرمز التي تقف على باب الخليج وسمي المضيق باسمها .

ومند القدم ارتبطت هذه المناطق مع بعضها بروابط تجارية وهجرات عرقية يشبه ما حدث في البحر الأبيض المتوسط فشعوب المحيط الهندي لها نفس روابط شعوب المتوسط وقد ظلت فترة طويلةمن الزمن تهيمن عليهاالعربية والعرب حتى السيطرة البريطانية التي استطاعت الحلول لفترة طويلة محل العرب في تسيير دفة المنطقة ولا تزال الهجرات متواصلة وخاصة الى البلاد التي تظهر فيها الطاقة البترولية واغلب الهجرات تخرج من الهند والباكستان وبعض المناطق الافريقية .

واهمية المنطقة تنبع من كونها واسطة الاتصال الرئيسية بين الشرق والغرب ان كان في البحر او البر او الجو منذ القدم وفي العصر الحديث وقد زاد في اهميتها ظهور البترول في مناطق متعددة منها .

وحتى الحرب العالميةالثانية كان يطلق على هذه المنطقة الشرق الأدنى وكانت تشمل اجزاء كثيرة من الامبراطورية العثمانية وغالبية سكانها ينتمون للأصول العربية ، وفي الحرب العالمية الثانية اطلق الحلفاء اسم الشرق الأوسط على المنطقة العسكرية التي كان مركزها القاهرة وكان يقيم فيها آنذاك وزير دولة بريطاني

لشؤ ون الشرق الأوسط وكذلك القائد العام للقوات الحليفة في الشرق الأوسط وقد نقلت هذه القيادة من القاهرة الى عدن ثم انتقلت الى قبرص بعد استقلال جمهورية اليمن الديمقراطية . وتستخدم حالياً وكالات الأنباء ومؤ سسات الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة هذه التسمية للدلالة على احدى المناطق الواقعة ما بين افغانستان والمغرب ويضم لها بعضهم الباكستان والسودان وافغانستان وخلال الحرب كان المحيط الهندي يخضع الى قيادة مسرح العمليات في المحيط الهندي وتتبع قيادة القوات البريطانية في الهند وفي نهاية الحرب شكلت فرنسا مسرح عمليات المحيط الهندي وكانت قيادته تتمركز في مدينة جيبوتي وقد الغي هذا المسرح بعد استقلال جيبوتي .

ويشغل الوطن العربي برقعته الكبيرة موقعاً هاماً ورئيسياً في هذه المنطقة أهله منذ القدم لأن يلعب دوراً كبيراً في تاريخ البشرية ولم يقتصر هذا الدور على العصور القديمة بل كان ولا يزال له نفس المكانة والدور الهام وزاد في اهميته ما حوت ارضه من ثروات طبيعية ضخمة واحتياط كبير للمواد الستراتيجية الهامة كالبترول والفوسفات والكبريت والغاز الطبعي والحديد والذهب . . . الخ ولا شك أن الثروة البترولية تأتي في المقدمة بسبب تأثيرها الحساس على الاقتصاد العالمي ولا يوجد بلد على مدار التاريخ القديم والحديث ارتبط العالم به قدر ارتباطه بالوطن العربي وثروته فهو يحوي في باطن ارضه ثلثي الاحتياط العالمي من النفط ويغذي العالم الصناعي في مختلف انحاء العالم بمادة الحياة اللازمة لتسييره وسيظل العالم مرتبطاً بالوطن العربي طالما كان هناك آلة وطالما تقدم حقول النفط ما في باطنها من ذهب اسود ازدادت مشتقاته على آلاف الأصناف الهامة والتي تغزو الحياة الصناعية والعامة .

ويسيطر الوطن العربي في هذه المنطقة على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والعربي وخلجان عمان والعربي وعدن ويسيطر على المضائق الرئيسية العالمية كمضيق جبل طارق وقناة السويس وباب المندب ومضيق هرمز وهو ليس ببعيد عن مضائق البوسفور والدردنيل وملقا .

ويقع المحيط الهندي على الطرف الجنوبي والغربي من اسيا بمساحته الواسعة التي تبلغ (٧٣) ملون كم وكان منذ القدم ممراً للتجارة ما بين السواحل المحيطة به وهمزة اتصال بين الشعوب التي تعيش على هذه السواحل والتي تقع في افريقيا وشبه

الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية وتعيش في هذه المنطقة الواسعة شعوب مختلفة كالعرب والهنود والفرس وعدد كبير من الشعوب الافريقية اهمها الشعب المعروف بالسواحلي وكذلك الشعب الصومالي كما اصبح المحيط الهندي الطريق الى سواحل شبه القارة الهندية والشرق الأقصى عندما ابتدأت الأمم الاوروبية ترتاده للوصول الى ثروات الشرق خاصة التوابل والأفاوية وفي مياهه العميقة وعلى سواحله تنافست الأساطيل الأوربية مدة طويلة ـ بعد أن قضت على اساطيل الأمم الموجودة على سواحله كالأسطول العربي والهندي ـ وذلك للسيطرة على التجارة والمراكز التجارية والبحرية وادى ذلك الى ظهور الامبراطوريات الاستعمارية واهمها الامبراطورية الهندية ـ البريطانية والهولندية ثم الامبراطورية الفرنسية اما الامبراطورية البرتغالية المشهورة والتي فتحت ابواب المنطقة للجميع فقد زالت بعد فترة من ظهورها ولم يبق لها سوى اجزاء قليلة على الشواطىء الافريقية لم تلبث هذه البلدان كموزامبيق ان اخرجت البرتغاليين من بلادها .

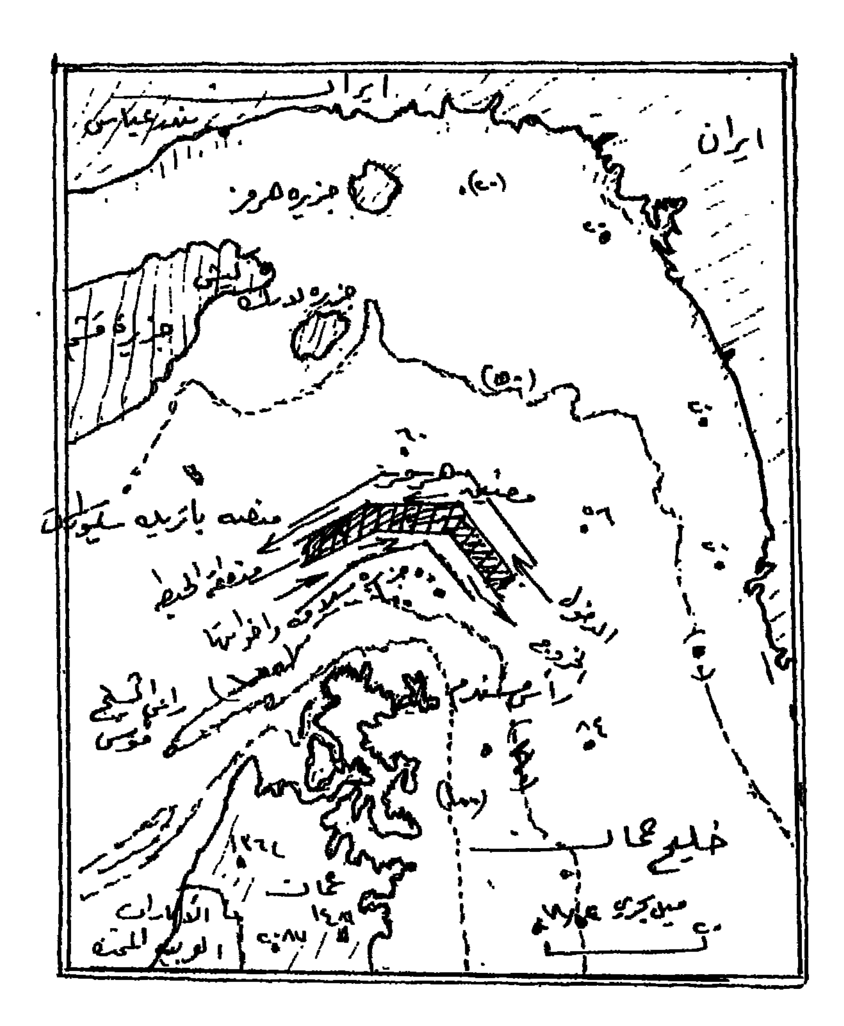
وكما كانت المراكب الشراعية الضخمة تروح وتجيء حاملة توابل الشرق وصناعته الى اوربا تسير ناقلات النفط متهاوية على مياهه متثاقلة في ابحارها بسبب ضخامة الكمية التي تحملها والتي تصل الى مئات الألوف من البراميل . وفي حركة دائمة لا تفتر ليلاً ونهاراً تحمل مادة الحياة الى المراكز الصناعية العالمية . وهناك احصاء يقول بأنه لو نظرنا من احدى الأقمار الصناعية للطريق البحري ما بين الخليج واليابان لوجدنا خطين متوازيين من ناقلات البترول تسير على طريق عريض لا يفصل الواحدة عن الأخرى سوى مائة كيلومتر يبدأ من الخليج وينتهي باليابان والعكس بالعكس كما ان هناك طريقاً عريضاً آخر يتجه نحو اوربا قسم منه يمر عبر قناة السويس والقسم الآخر يدور حول الرجاء الصالح الى اوربا والولايات المتحدة وافريقية .

ومنذ ان فتحت قناة السويس ازدادت اهمية البحر الاحمر كطريق تجاري بين الشرق والغرب وفقد طريق (رأس الرجاء الصالح) اهميته الحيوية التي عمل البرتغاليون سنين طويلة للتعرف عليه والوصول الى الهند والدوران حول القارة الافريقية كما ازدادت اهمية الخليج العربي ليس من الناحية التجارية كطريق للمواصلات بين البحر الأبيض المتوسط والهند. بل بسبب الثروة البترولية الموجودة في باطنه وعلى سواحله .

والخليج العربي والبحر الأحمر متساويان في اهميتها الستراتيجية بالنسبة للمنطقة والوطن العربي فهما واسطتا الاتصال بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي وهما بوابتا الوطن العربي الخلفيتان نحو الشرق ومياهه الدافئة وهما يشكلان ذراعين يحتضنان شبه الجزيرة العربية ويجعلان سواحلها مراكز تجارية نشيطة على مر العصور والتنافس بين الطريقين قديم يصل الى الايام التي استطاع فيها الرومان معرفة اسرار الرياح الموسمية واستخدام البحر الأحمر للوصول الى افريقيا وثرواتها .

وتزداد اهمية المنطقة ـ التي نحن بصددها في الوقت الحاضر فبالاضافة الى ثروتها البترولية يعتبر موقعها الحساس ذا اهمية كبرى بالنسبة للدولتين الأعظمين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي فمياهها الدافئة تشغل بال الستراتيجيين السوفييت كما شغلت من قبلهم ستراتيجيو القياصرة فالوصول الى المحيط الهندي معناه الوصول الى المياه الدافئة والاتصال مع افريقيا والعالم والبحار المفتوحة . وليس القادة الغربيون خاصة القيادة الامريكية بأقل اهتماماً من زملائهم السوفييت فالخليج اقرب ما يكون لقلب الاتحاد السوفييتي ومراكزه الصناعية ومحطات الطاقة الكهربائية فيما وراء الأورال وسيبيريا وقد لعبت المنطقة دوراً هاماً في الحرب العالمية الثانية عندما اصبحت طريق الاتصال بين الاتحاد السوفييتي وحلفائه الغربيين عن طريق ايران ولذلك اطلق على هذا الطريق جسر النصر . واليوم وبعد انتقال الثقل من البحر الأبيض المتوسط وظهور قوات التدخل السريع الامريكية اصبحت المنطقة أكثر المناطق سخونة بين الجبارين الكبيرين .

وقد استطاع العرب لفترة طويلة من الزمن السيطرة على المنطقة منذ اقدم العصور حتى وصول البرتغاليين وقضائهم على البحرية العربية بسبب التفوق التكنولوجي الذي كان لدى البرتغاليين خاصة استخدامهم للمدافع على ظهر السفن وقد عادت البحرية العربية لفترة قصيرة الى بهائها ومجدها في القرن الثامن عشر الا ان السيطرة عادت لبريطانية التي تغلبت على جميع الأساطيل المحلية والأجنبية وفرضت سيطرتها على المنطقة حتى الحرب العالمية الثانية . وخلفتها الولايات المتحدة التي تحشد كمية كبيرة من السفن وحاملات الطائرات لتدعيم النفوذ الامريكي في المنطقة وحماية آبار البترول .



مضيق هرمز

وقد اطلق المؤ رخون على الخليج العربي منذ القدم اسماء كثيرة مثل الخليج الفارسي وخليج العجم او بحر القطيف وسمي في بعض الأوقات البحر الأدنى او بحر المر حيث ظهر ذلك في النقوش الأكادية واطلق عليه هرودوت اسم البحر الأحمر عندما تحدث عن هجرة الفينيقيين الى سواحل سورية كما كان يسمي ارض الله او ارض البحر اما العثمانيون فكانوا يطلقون عليه اسم خليج البصرة . ويطلق عليه حالياً اسم الخليج العربي وبعض الأوربيين يحلو لهم تسميته بالخليج العربي الفارسي .

ويقع الخليج العربي في جنوب غرب القارة الآسيوية وفي الطرف الجنوبي الشرقي للوطن العربي وتمتد مياهه في اتجاه جنوبي شرقي لمسافة (٨٠٥) كم من نهاية شط العرب (الفاو) حتى شبه جزيرة مسندم وتبلغ مساحته (٢٤٠ الف كم) ويختلف عرضه ما بين ٨٠ كم الى ٣٢٢ كم في اوسع مكان فيه ويصل الى ٤٧ كم عند مضيق هرمز اذا حسبنا المسافة الملاحية فقط وينفتح فيما وراء المضيق على خليج عمان الواسع الذي يشكل جزءاً من بحر العرب ويمتد من راس الحد على ساحل عمان بطول ٥٥٠ كم .

وقد تأثر الخليج العربي بنهري دجلة والفرات بشكل واضح حيث يغرق شط العرب الذي يتشكل من اجتماع النهرين بالطمي الى مياه الخليج مما يجعل اليابسة تتقدم بمعدل ٢٥ م في كل عام أي ما يعادل ٢,٥ كيلومتر في القرن الواحد ، ويعتقد بعضهم ان الخليج العربي كان يمتد الى ما وراء بغداد مسافة ٦٤ كم في تاريخ يسبق الميلاد بحوالي ٤٠٠ عام وكان نهر قارون في ذلك الوقت يصب في الخليج وهو الآن يصب في شط العرب .

ومنذ القدم كانت ولا تزال، وديان دجلة والفرات والنيل تقدم الغذاء اللازم لمناطق واسعة في العالم وكل ما ينعم به العالم في الوقت الحاضر من مأكل ومشرب يعود الفضل به الى حد كبير للفلاح الذي عاش في تلك ا لمناطق فهو الذي دجن الحيوان وأنبت المزروعات الصالحة للأكل وهجنها وأكثر من انواعها ويصفها المؤ رخ (فيليب حتي) في كتابه خمسة آلاف من تاريخ الشرق الأدنى «بأنها مهد الحضارة ويقول ان العلماء لا يختلفون على ذلك بالرغم من اختلافهم حول مهد الجنس البشري» .

والتاريخ السياسي لهذه المنطقةليس ببعيد فقدابتدأ مع بداية الحرب العالمية الثانية حيث كانت بريطانيا تهيمن على المنطقة منذ ثلاثة قرون تقريبا عدا فارس التي كانت مستقلة بامورها الخاصة رغم المصاعب الداخلية التي كانت تمر فيها وقد افادت جدا من الصراع الاستعماري الروسي - البريطاني واستطاعت الاحتفاظ بنوع من الاستقلال رغم وجود النفوذين الروسي والبريطاني .

ففي الهند قضى البريطانيون على امبراطورية المغول الكبار ووخلفوا امبراطوريتهم المعروفة باسم الامبراطورية الهندية - البريطانية ، وظل الحال على ذلك حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حيث حصلت الهند على استقلالها بعد نضال طويل في عام ١٩٤٧ ولكن الاستقلال لم يكد يتم الا وتجزأت القارة الهندية الى دولتي الباكستان والهند .

اما في الخليج وما حوله فعندما سقطت الخلافة العباسية على يد هولاكو وقعت المنطقة كلها حتى شمال سورية تحت السيطرةالمغولية ولكن بعد عودة هولاكو الى بلاده تجزأت امبراطوريته وظهرت حكومات شتى بزعامات مغولية في فارس والعراق وكان الخليج في جملة من وقع تحت السيطرة المغولية ولكن في الاكثر الاحيان لم تستطع ان تهيمن على كل اجزائه حكومة واحدة ، ولم تكن هناك مقومات يمكن ان تجعل منه دولة واحدة ومنذ ذلك التاريخ المؤلم اصبحت سواحل الخليج الشرقية والشمالية نهبا للدول الاجنبية وتوالت على هذه السواحل سلطات مغولية وفارسية وتترية وعثمانية اما السواحل الغربية اي ما يسمى بساحل عمان فقد ظل بعيدا عن كل تأثير بسبب الصحارى المهلكة التي كانت حوله .

وبعد وصول الاوروبيين الى مياه الخليج من برتغاليين وفرنسيين وهولنديين وبريطانيين استطاع هؤلاء فرض نفوذهم على المنطقة وكان الاستعمار التركي قد استقر في العراق ، ومنذ الحرب العالمية الثانية ابتدأ عهد جديد حيث استقلت الامارات الصغيرة واستطاعت التخلص من النفوذ البريطاني وحصلت على استقلالها واقام كل منها دولة لها حدودها وعلمها وحكومتها ودخلت الجامعة العربية والامم المتحدة .

وقد ظهر معظم هذه الامارات الصغيرة في بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر اثر انهيار السيطرة البرتغالية في البحار الشرقية وقد حققت هذه الامارات في القرنين السابع عشر والثامن عشر قدرا كبيرا من الاستقرار والتماسك والتجمع وقد

- ساعدت السيطرة البريطانية التي حلت في المنطقة على تكريس التجزئة وشجعت على ظهور امارات ومشيخات اصبحت اساسا للدول الحالية .

وتتشابه هذه الدول في تكوينها السياسي والاجتماعي فكل منها نما حول (نواة) صغيرة ربما كانت موقعا للصيد على الشاطىء الذي يكاد ان يكون مهجورا واستقرت النواة والتف حولها عدد من السكان كانوا في الغالب من قبيلة واحدة وانتقلوا من كونهم قرية الى اعتبار انفسهم دولة نمت وازداد عدد سكانها بما ورد عليها من مهاجرين عرب واجانب .

وبعد ظهور البترول تدفقت الثروات الضخمة على فئات كثيرة من المجتمع مما ادى الى تغيير كبير في التكوين الاجتماعي والطبقي في كل من فارس ودول الخليج والعراق خاصة دول الخليج الذي مضى على مدة طويلة بالاضافة الى الاثار التي خلفتها اضمحلال صناعة وتجارة اللؤلؤ بعد ان طغى عليه اللؤلؤ الصناعي في اواخر العشرينات من هذا العصر . واستقبلت المدن ايضا عددا كبيرا من الوافدين العرب والاجانب وتشكلت طبقات وجاليات ذات مشارب واتجاهات مختلفة من كافة النواحي .

اما ما حدث من تغيير في مناطق الخليج في العادات واسلوب العيش فنترك ذلك للمؤلف محمد جابر الأنصاري ، في كتابه لمحات من الخليج العربي الذي يصف ما حدث من تغيير في هذا المجال فيقول «إن حياتنا المعاصرة وسط المدن الحديثة المتنامية بين منشآت النفط وما توحيه من حياة صناعية سريعة اخذت تحجب عن ذاكرتنا وحتى عن ذاكرة آبائنا صور الحياة الشعبية البسيطة التي كانت مألوفة وعادية الى ما قبل عشرة او حتى خمس عشرة سنة في سائر انحاء الخليج العربي من الكويت الى الساحل الشرقي من المملكة العربية السعودية الى قطر الى بلاد عمان وتأتي هذه المخترعات ذات الضجيج الهائل من تلفزيونات وسيارات وطائرات ووسائل الراحة الأخرى لتملأ آذاننا بصخب الحضارة الجديثة المعقدة وتبعد عن اسماعنا رويداً رويداً اصداء غناء الغواصين وهدوء السفن الشراعية وهي تنساب برفق على صفحة الخليج» .

تعرض الخليج العربي عبر التاريخ ولا يزال يتعرض الى انواع مختلفة من الهجرات البشرية من هنا وهناك قدمت اليه لأسباب وغايات شتى وهناك عوامل كثيرة جعلت من الخليج يصبح هدفاً لهذه الأنواع من الهجرات رغم جفاف ارضه

ومناخه اللاهب والتي كانت تتغير حسب الزمن وعوامل الجذب وأهم هذه العوامل فرص العمل المتوفرة والنقص السكاني في مكان العمل والفائض السكاني في الأماكن القريبة .

كما أن وقوع الخليج على ملتقى الطرق التجارية القديمة وموقعه المتوسط بين الشرق والغرب وقربه من مراكز الانتاج في الهند والصين جعله نقطة اتصال بين قسمي العالم المعروف انذاك وساعد على ذلك مياهه الهادئة التي تسمح بالرسو امام السواحل بعيدا عن عواصف وتيارات المحيطات خاصة المحيط الهندي الذي اشتهر بأمواجه العالية فظهرت المحطات التجارية التي غصت بأخلاط كثيرة من البشر قدموا اليها من نواح متعددة للعمل والربح وامتلأت مياه هذه المحطات بالسفن حتى وصفت بعضها بأنها بابل الشرق وكانت ذروة النشاط التجاري في العصر الذهبي للخلافة العباسية عندما اتصلت المنطقة مع بعضها وبالصين والهند بخطوط ملاحية منتظمة ، كما شهدت مياه الخليج وشواطئه خاصة الشمالية منها في العصر العباسي هجرة من نوع اخر وصلت اليه من السواحل الافريقية وتميزت بوصول العناصر السوداء التي استقدمت خلال سنين طويلة للعمل في المزارع الكبيرة في جنوب العراق وساحل عربستان وتكاثر عددهم وهددوا الخلافة العباسية بثورتهم المعروفة بثورة الزنج في التاريخ العربي .

في احصاء جرى عام ١٩٧٥ (لمجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية) اصبح عدد المهاجرين بالنسبة للسكان الأصليين في دول الخليج على الشكل التالي :

عدد السكان

الدولة	الاصليين	النسبة	عدد الوافدين	النسبة
الكويت	٤٧٢,٠٨٨	٤٧,٤٪	١٢٢,٧٤٩	٥٣,٦٪
قطر	٥٢,٤٢١	٣١٪	،١٧,٢٧٩	٦٩٪
دولة الامارات	١٥٧,٠٠٠	٢٣,٩٪	٩٩٩,٠٠٠	٧٦٪
البحرين	١٧٨,١٩٣	٨٢,٤٪	١٧٩٨٥	١٧,٦٪

تعتبر الثروة النفطية اهم الثروات في الخليج بل هي الثروة الوحيدة التي تدر على دول المنطقة كل ما يدخل ميزانيتها من مال ودخلها القومي متوقف على هذه الثروة رغم وجود بعض الثروات الأخرى المتوفرة في المنطقة .

وقد ابتدأ التنقيب عن البترول في مناطق الخليج قبل الحرب العالمية الأولى وأول ما ظهر البترول في الساحل الشمالي الشرقي من الخليج وفي امارة المحمرة عام ١٩٠٨ وفي اثناء الحرب توقف التفتيش عن النفط ولكن ما ان انتهت الحرب حتى ابتدأت الشركات تتنافس على الحصول على امتيازات التنقيب وكانت اغلب مناطقه ان لم يكن جميعها تقع تحت السلطة البريطانية عدا امارة المحمرة التي احتلتها ايران واصبحت تحت سيطرتها وكانت جنسية الشركة المنقبة بريطانية ، وقد ظهر ان البترول موجود في حوض يمتد من جبال طوروس في شمال سورية حتى البحر العربي وخليج عمان ومن المرتفعات الجبلية في غرب ايران الى وسط الجزيرة العربية وتضم هذه المنطقة وديان دجلة والفرات والسواحل القريبة العربية للخليج والسهول الواقعة خلف جبال عمان وهذا الحوض الكبير الذي يشبه المحيط في اتساعه هو المصدر الرئيسي للموارد البترولية لبلدان المنطقة الواقعة فيه واما حقول البروز الايرانية الواقعة بالقرب من مدينة (قم) جنوب طهران والتي اكتشفت عام ١٩٥٦ فهي من حوض آخر يمتد الى شمال ايران ولكن صعوبة النقل جعلته لا يشكل مصدراً هاماً للتصدير .

ان اول بئرتم اكتشافها في خوزستان (عربستان) عام ١٩٠٨ في بئر مسجد سليمان وقد تأخرت عمليات الاستفادة منه تجارياً بسبب الحرب العالمية الأولى ما بين عام ١٩٥٨ - ١٩٣٨ واصبح هذا الحقل ينتج ٩٥٪ من الانتاج الايراني وتلاها اكتشاف حقول: لالي - نفط سعيد- هافت جبل - جاش ساران . . . الخ اما حقول العراق الجنوبية فقد تأخر اكتشافها حتى عام ١٩٤٩ حيث تم اكتشاف آبار الزبير ثم الرميلان عام ١٩٥٢ وعلى الساحل العربي مع بعض النقاط التي ظهر فيها البترول عام ١٩٣١ ، ويمكن القول بأن حقول البحرين اول حقول اكتشفت بعد الحرب العالمية الأولى وكان الاعتقاد بأنها غزيرة ولكن لم يتم اكتشاف غيرها في الجزر وبعد ذلك ظهرت اكتشافات هامة ادت الى زيادة سريعة في الانتاج مع استمرار التنقيب الذي امتد الى مياه البحر وقد اكتشف في المنطقة الواقعة ما بين الكويت حتى ساحل عمان والبالغ طولها أكثر من سبعمائة ميل حوالي ١٢ منطقة نفطية وفي الكويت ظهر

الزيت في حقل البرقان عام ١٩٣٠ ولكنه لم يستثمر حتى عام ١٩٤٥ وبعد ذلك اكتشفت حقول الأحمدي والروضتين بالقرب من الحدود العراقية اما حقل الوفرة فيقع في المنطقة المحايدة واكتشف عام ١٩٥٣ وتتقاسم الكويت والسعودية انتاجه مناصفة وقد ظهر البترول على الساحل السعودي في منطقة الاحساء وتم اكتشاف آبار الفوار- عين الدار- صرار في عام ١٩٤٨ ثم ابار شدقان - العثمانية عام ١٩٥١ ولسبب قرب هذه الحقول من بعضها فقد اصبحت حقلاً واسعاً يغطي أكثر من خمسة آلاف كيلومتر اما في منطقة الدمام فقد اكتشفت ابارها عام ١٩٣٦ ثم آقبيق عام ١٩٤٠ . القطيف عام ١٩٤٥ ثم توالت الاكتشافات ولا تزال تكتشف آبار جديدة في المملكة العربية السعودية وفي قطر تم اكتشاف آبار منطقة (دخان) عام ١٩٤٠ ثم تلاها اكتشاف اخر في الستينيات وتم اكتشاف حقول ام شيف ومربن في عام ١٩٦٣ في دولة الامارات وتلته اكتشافات جديدة في دبي والمناطق البحرية في جزيرة ام موسى وكذلك في عمان عام ١٩٦٤ في منطقة فهود ثم حقول مرمول وغيرها عام ١٩٦٩ وقد رافق اكتشاف هذه الحقول مد انابيب النفط الناقلة للبترول الى موانىء التصدير كما أقيمت المصافي في كل من عبدان والبحرين وهكذا اصبحت منطقة الخليج من اهم مناطق العالم اهمية خاصة لدول اوربا واليابان كما أن أمريكا تعتبرها مركز احتياطيها الأول فيما اذا ازداد استهلاكها للبترول وقل انتاجها خاصة في ايام الحروب لذلك سيكون الصراع عنيفاً للسيطرة على آبار بترول المنطقة في حروب قادمة مثلما كان الصراع حامياً بين القوى الأوربية المتجهة نحو الشرق للسيطرة على المراكز التجارية والممرات الرئيسية فيها ومن الضروري ان يكون للعرب وخاصة سكان المنطقة الدور الرئيسي في الحفاظ على بلادهم وثروتهم وأن لا يترك الأمر لغيرهم كما حدث خلال الصراع الدامي الاستعماري على الطرق التجارية والسيطرة على ثروات المنطقة .



الباب الأول

التاريخ القديم

المراحل التاريخية التي مرت على الخليج وما حوله حتى وصول الأسلام

- الفصل الأول : المراحل التاريخية حتى الفتح المقدوني
- الفصل الثاني : من الفتح المقدوني حتى ظهور الاسلام .
- الفصل الثالث : المراكز والطرق التجارية في عهد الاسكندر وما بعده واهمية الخليج

الباب الأول

الفصل الأول

المراحل التاريخية حتى الفتح المقدوني

ـ نشوء الحضارة في منطقة الهلال الخصيب ـ حضارة ما بين النهرين ـ ظهور الانسان الأول ـ المنطقة واهميتها ومستقبلها ـ ماضي الجزيرة العربية الجغرافي والمناخي ـ الجفاف وأسبابه ـ شعب العُبيد ـ السومريون وحضارتهم ـ الساميون ومواطنهم ـ الأكاديون وثقافتهم ـ الغزو الكوتي ـ العمالقة العموريون ـ حمورابي ـ الأقوام الكاشية ـ الأشوريون ـ الكلدانيون (البابلية الحديثة) واصولهم وحضارتهم ـ سبي اليهود ـ زوال الدولة البابلية الحديثة ـ دولة الفرس الأخمينيين ـ الفتوحات ـ الحرب بين الأخمينيين والأغريق ـ الكنعانيون والقبائل السامية ـ الأراميون ـ الفينيقيون ـ سكان الجزيرة العربية ودورهم في المجال التجاري ـ القوافل التجارية ـ الطرق التجارية بين الشرق والغرب

الفصل الاول

المراحل التاريخية القديمة حتى الفتح المقدوني

يجمع علماء الاثار والاجناس والمؤ رخون على ان المنطقة الواقعة بين بلاد الهند وشمال افريقيا هي مهد الحضارة الانسانية وفيها ابتدأت اولى الخطوات الحضارية عبر تاريخ طويل من التجارب استندت اليها المدنية الحديثة وبنت على قواعدها المتينة الاسس الثابتة التي اوصلتها الى ما هي عليه من رونق وبهاء وروعة ، ولا شك ان هذه المنطقة المعزولة الى حد ما ولا تقدم حاليا شيئا ما للحضارة كانت تحوي كل ما كان في العالم من حضارة ، عدا حضارات الصين والهند وبعض المجتمعات الامريكية التي جاءت متأخرة بالنسبة لحضارتنا هذه .

في هذه المنطقة ذات الطبيعة الملائمة ظهرت اولى المراحل في تشكيل المجتمعات الانسانية وكان فيها اول تنمية للعلوم والفنون والمعارف الاخرى وفيها ظهر ما يسمى بالحياة الاجتماعية وفيها ابتدأت المهارات الانسانية بوضع الحلول الذكية للمسائل الحياتية ومنها خرج الانبياء والمصلحون فهي مهد الديانات الثلاث التي تعبد الاله الواحد وفيها توصل الانسان الى اقدم المكتشفات واعظمها وابعدها اثرا في تقدم الحضارة الانسانية .

ويمكن القول بان اولى الحضارات ظهرت في بلاد ما بين النهرين وفي ازمنة مفرقة في القدم وقد وصلت الى مستوى عال ، وخلال تلك العصور القديمة كان هنالك نظم الري وانظمة تحدد العلاقات الاجتماعية وخلال مراحل التاريخ الطويل ظلت بعض المدن محتفظة بازدهارها حتى الغزو المغولي ، وفي هذه الكارثة التي لا يماثلها كارثة ، تحل بمنطقة ، بعمق آثارها ، وسوء نتائجها ، قضى على معالم الحضارة في المنطقة وبخصة نظام الري ولم يعد الى ما كان عليه حتى الان ومنذ ذلك الوقت ابتدأ لهبوط التدريجي ووصل الى ما وصل اليه من انحطاط .

وكان لموقعها المتوسط اثر كبير حضاري على العالم فهي تتصل بالبحار المفتوحة من كل اتجاه ، وقد لعب الخليج العربي دورا كبيرا في هذا المجال لانه كان واسطة الاتصال الرئيسية التي ساعدت على تمازج حضارات المنطقة وكان سبيلا لتبادل المنتجات وتسهيل طرق التجارة ولا يوازيه في اهميته ودوره سوى البحر الاحمر وكلاهما يقع في هذه المنطقة الحضارية .

وبالرغم من شكوك كثير من المؤ رخين والباحثين يعتقد ايضا بان اول انسان عاش كان في هذه المنطقة ، ومن الناحية الدينية هنالك تأكيد جازم على ذلك فعلى جبل عرفات يقف المؤ منون كل يوم يحيون ذكرى اللقاء بين ابينا آدم وامنا حواء بعد ان هبطا من السماء وبجانب مدينة دمشق يوجد مزار يقال له قبر النبي هابيل (او قابيل) أحد أبناء آدم وهنالك قبر طويل من الحجارة بجانب مدينة المعرة يقال له قدم نوح عليه السلام الى غير ذلك من الاثار التي تدل على ان الانسان الاول ابتدأ العيش هنا ومنها تفرق الى انحاء العالم ، ويعتقد العلماء والمحققون بان شواطىء الخليج كانت مأهولة منذ عشرات الالاف من السنين منذ بداية العصور الاولى وقد هيأت اراضي المنطقة الخصبة ومناخها الملائم وموقعها المتوسط المقومات الرئيسية ليبدأ الانسان الاول حياته فيها وقد عثرت احدى البعثات الاثرية برئاسة الاستاذ / رالف سوليكي/ المختص بالدراسات القديمة عند تنقيبه في كهف / شانيدر/ في شمال العراق على هياكل عظمية لانسان (النيا ندرتال) منها ما يرجع تاريخه الى خمسين الف عام ومنها ما يرجع الى ثمانين الف وتوصل ايضا في تنقيبه على مقربة من ذلك الكهف على اقدم قرى ما قبل التاريخ وتوصل الى الكشف عن الحياة الزراعية الاولى* التي مضى على ظهورها حوالي عشرة آلاف عام وتم اكتشافها ما بين عامي ١٩٥١ - ١٩٦٠ كما اكتشفت بعض الاثار في هذه الكهوف تدل على وجود نوع من الحضارة في تلك المنطقة في الوقت الذي كانت فيه بقية العالم يعيش بجهالة وظلام .

ان تاريخ هذه المنطقة المسجل عبارة عن حقل لتجارب الماضي من المآسي والافراح وهو شريط اخباري لظهور امبراطوريات وممالك وأمارات ومدن رفعها الزمن الى اعلى وانزلها الى الحضيض / شعوب نهضت وشعوب ابيدت ، ومصلحون وصعاليك ومتوحشون قادوا بلادهم للنصر كما قاد غيرهم بلاده للخراب ، وهنالك مراحل تاريخية طويلة عاشت فيها بعض الدول والامبراطوريات قرونا طويلة واتسعت لتمثل العالم القديم ثم شاخت وتهدمت على ايدي شعوب فتية وتوالت على المنطقة اقوام وشعوب وديانات تمازجت وتفاعلت ثم ابتدأت بالهبوط في الوقت الذي كانت فيه اقوام اخرى تبدأ مسيرتها نحو القوة ، ولا يوجد مكان في ارض هذه المنطقة الأبية إلا وفيه آثار انسانية فتاريخها تاريخ العالم وكما قال فيلسوفنا المعري . .

صاح هذه قبورنـا تمـلأ الرحب فاين القبـور من .عهـد عاد
خفف الـوطء ما اظـن اديم الارض الا من هذه الاجساد

وبالرغم من هذا التاريخ الحضاري الطويل وعندما ابتدأت اوروبا تتقدم بسرعة وتكتشف وتستوطن اراضي جديدة وتفتح افاق جديدة للمعرفة لم يستطع شعب هذه المنطقة من ان يساهم مساهمة ملموسة في مسيرة الحضارة وتعاونت عليه عوامل كثيرة زادت في عوامل تأخره وانحطاطه من كوارث طبيعية وحروب داخلية واستعمار اجنبي اوقف الانتاج والمعرفة وسلب المال الذي بني فيه مدنة وقصوره وحضارته .

والان وشعب المنطقة يملك من الموارد الاقتصادية ما يؤ هله من ان يلعب دورا كبيرا في مسيرة الحضارة العالمية فقد امنت له الثروة كل ما يصبو اليه ويفكر به وما عليه الا السير ليخلق العلماء والمهندسين وكبار المخترعين . . الخ ويبني للاجيال القادمة اسس حضارة متينة تعيده الى ماضية المجيد وتفتح له ابواب المستقبل السعيد .

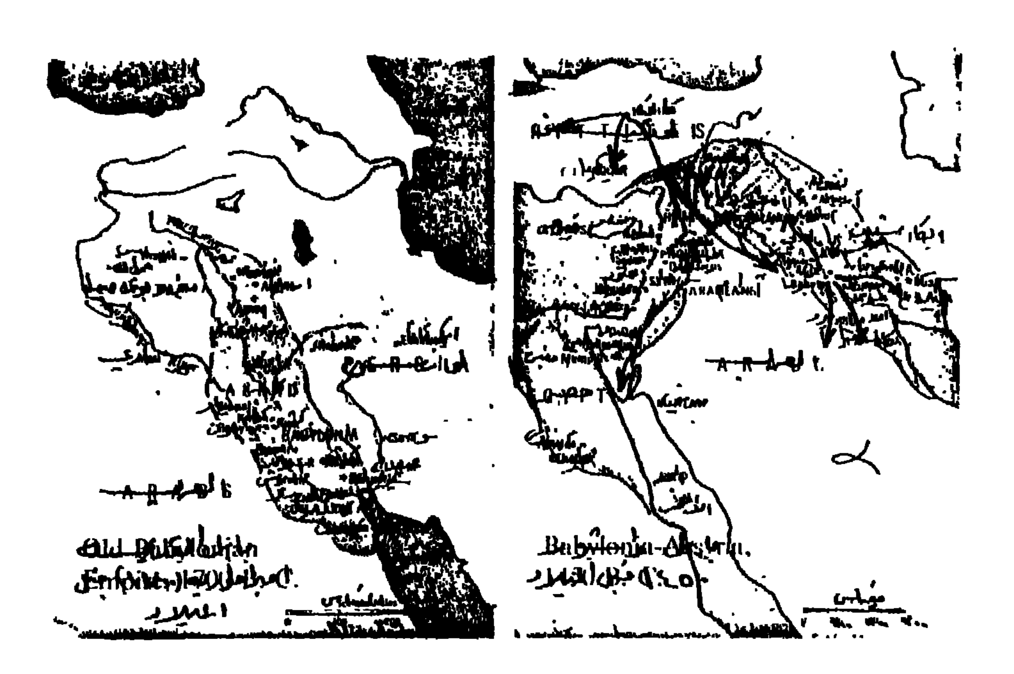
منذ عشرة آلاف عام كان فيها اجدادنا يحصلـون على معاشهـم بالصيد ويستخدمون الصوان والاحجار القاسية والاخشاب لعمل اقواسهم وسهامهم ، وقد عاشوا في مرحلة ما عندما كان فيها اغلب اوروبا وقسم كبيرا من الشرق الاوسط وافريقيا الشمالية يقع تحت البحار الجليدية وكانت الاراضي جنوب هذه البحار مغطاة بالعشب والمياه الجارية وتسير فيها الأنهار العظيمة ، و قسم من اراضيها مغطاة بالبحيرات الواسعة وكان مناخها معتدلا ويعيش فيها البشر في رغد وسعة عيش ، وحدث ان طرأت تغيرات جيولوجية وطبوغرافية وجوية - وربما تكون تدريجية - فتراجعت البحار الجليدية وانحسرت عن اوروبا واخذ الجو يفقد رطوبته في البلاد العربية ، وافريقيا الشمالية ، واختفى العشب الاخضر ، ليصبح صحراء قاحلة وظهر الحزام الصحراوي الممتد من الجزيرة العربية الى جبال مراكش وذهبت الجنان الهائلة التي اوحت لمخيلات الروائيين بجنة عدن وغاصت الانهار وتركت آثارها ظاهرة في الوديان الكبيرة مثل وادي السرحان - الرمة - الدواسر - في نجد ، ووادي المسيلة في حضرموت وحلت محلها كتل الرمل المتنقلة ، واضطر السكان ، لتغير نمط حياتهم . ومن المحتمل ان تكون هجرة الاقوام التي كانت تقطن الجزيرة العربية ،

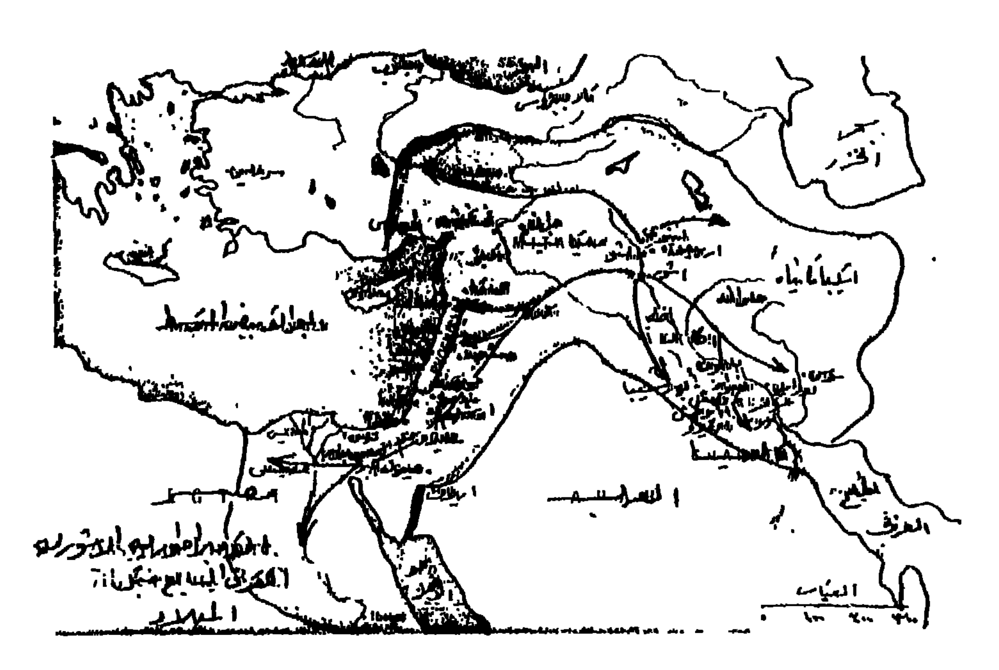
قد اتجهت نحو الاماكن التي ظلت وافرة المياه في الاطراف الشرقية والشمالية لشبه الجزيرة العربية واذا لم تكن هذه الشعوب على مستوى عال من الحضارة لتترك لنا اثارا تدل على ما كانت عليه الجزيرة العربية من الناحية الجغرافية والانسانية الا ان الشعوب التي كانت تقطن جنوب البحار الجليدية في شمال افريقية ، اي في الصحراء الكبرى الحالية تركت آثارا مصورة رائعة عن حياتهم ، قبل هجرتهم ، من بلادهم ، بعد تعرضها للجفاف كما حدث في الجزيرة العربية ، فهناك الاف الصور المحفورة على صخور جبالالحجارة (الهوجار) في الجزائر تعبر عن نوع الحياة الرغيدة التي كانت تعيشها تلك الشعوب .

ويعتقد بعض الباحثين ان جزيرة العرب تعرضت لاخر مرة في احدى فصول الشتاء قبل سبعة آلاف عام لمطر غزير جدا ولفترة طويلة وامتلأت الانهار وفاضت الوديان واندفعت من شمال وشرق منخفض / الطويق/ في الهضبة العربية ، ودفعت معها الحجارو الصخور الكبيرة الى سهول السافانا وملأت فيها السبخات والبحيرات التي كانت موجودة قبل هذا السيل ولم يكن هنالك تغير خلال الالفي سنة التي سبقت ، ولكن كان الجفاف يزداد تدريجيا سنة عن سنة . اجيالا بعد اجيال من الصيادين كانت تحكي عن مواسم الصيد الجيدة والتي لم يعد لها وجود وعن الاعشاب الطويلة والبحيرات الواسعة وخلال ٥٠٠ عام والمطر يخف حتى انقطع نهائيا وجفت الانهار ولم يعد يظهر منها سوى وديان عريضة من الرمال والحجارة ، وجفت البحيرات الكبيرة التي كانت مكان ما يعرف حاليا بالربع الخالي وبدأت الهجرات تتوالى هنا وهنالك وقد اكتشف مؤخرا جرار فخارية ملونة في مكان يسمى / عُبَيْد/ في جنوب ما بين النهرين وقد ساعدت هذه الانية الفخارية على اكتشاف اقدم ثقافات العصر الحجري الحديث في الشرق الاوسط وقد سميت بالثقافة العُبيدية نسبة لاسم المكان الذي اكتشفت فيه اول الآنية الفخارية وبعد عشر سنوات من ذلك الاكتشاف تم اكتشاف أول آنية فخارية اخرى على شواطىء الخليج بعيدا اربعمائة كيلومتر عن الاكتشاف الاول ، وقد وجدت اكتشافات في انحاء كثيرة اكدت للباحثين ان ثقافة العُبَيْد (او شعب العُبَيْد) كانت تمتد من بلاد ما بين النهرين حتى الربع الخالي وان شعب العبيد كان يعيش في هذه المناطق قبل ان يصل السومريون الى ما بين النهرين ويبنون المدن وفي حين ان شعب العبيد كان يعيش في

مستوطنات كثيرة على الساحل وداخل البلاد ، ويعتقد انه آت من مناطق البحيرات الجافة اي الربع الخالي وعدا انه كان ذا ثقافة عالية وحضارة كان لديه نظامه الاقتصادي وعلاقاته السياسية مع شعوب المنطقة ، وقد وجدت في / عين الكناس/ في واحة / جبرين/ وتقع في منتصف الطريق ما بين عبيد والربع الخالي اوان فخارية كثيرة ووجدت ادوات صوانية تعود الى حوالي ٤٩٣٥ ق . م ، وحسبت بطريقة الكربون وكانت هذه الادوات تخص سكان سواحل البحيرات الذي كانوا يتكلمون اللغة العربية ويعتقد انهم يمثلون اقدم ثقافة سامية ويختلفون عن السومريين والعيلاميين وهم من شعوب آسيوية وقد وصل السومريون الى مناطق ما بين النهرين بعد شعب العُبيد وبنوا حضارتهم على بقايا ذلك الشعب الذي اختفى او ذاب في المنطقة ، ومنذ ظهور السومريين بدأت الدول والامبراطوريات تتوالى على هذه المنطقة من العالم وظهرت السلالات الحاكمة وتداخلت هذه الدولة فيما بينها حتى انها كانت تظهر في بعض الاحيان كانها دولة واحدة حتى ظهور الاخمينيين .

وقد استوطن السومريون جنوب العراق حيث التقاء كل من دجلة والفرات بالخليج العربي وكان ظهورهم على مسرح التاريخ في منتصف الالف الرابع قبل الميلاد غير ان تاريخهم المضبوط والمدون بدأ في بداية الالف الثالث قبل الميلاد وسميت بلادهم / سومر/ وقد دلت الحفريات التي اجراها العالم الدانمركي / جيوفري بيبي/ قبل خمسة وعشرين عاما في البحرين ان السومريين قدموا من البحرين وكانت تعرف باسم / دلمون/ وكانت بالنسبة اليهم ارض الخلود والالهة ، وقد انشأوا مدنا عظيمة منها / اوروك/ المعروفة عند العرب / بالوركاء/ وهي اقدم المدن السومرية وآثارها قرب مدينة السماوة من الفرات الاسفل ثم مدينة / لكش/ المعروفة باسم (تلو) (وكيش)المعروفة اثارها / بتل الاحمر/ قرب مدينة الحلة/ واور/ و/ نيبور/ و/ واريدو/ قرب اور ثم مدينة (سمر) وهي التي حملت اسم السومريين في القرون الوسطى الى غير ذلك من المدن العظيمة ، وقد دمر اغلب هذه المدن اما بسبب الحروب بين بعضهاالبعض او من قبل غزوات خارجية ، وقد توصل السومريون الى خلق دولة متقدمة ويظهر ذلك بنظام الري واتساع التجارة واستخدام العملة المعدنية وسن القوانين وكانوا يكتبوا على الطين الرطب بقلم يشبه المسمار يأخذونه من القصب او من المعدن لذلك سمي خطهم ذو الحروف المستقيمة بالخط





/ المسماري/ وبه دونوا تاريخهم وشؤ ونهم ونذورهم واعمالهم ومعاملاتهم وقد اثرت كتاباتهم على ما تلاها من كتابات ، واهتموا بالفلك ، ومعارفهم بالنجوم بالاضافة الى معارف من تلاهم من البابليين واليونان والعرب هي التي اوجدت علم الفلك الحديث واستخدموا الاعداد وقسموا الساعة الى ستين دقيقة والدائرة الى ٣٦٠ درجة كما استخدموا العربات ذات الدواليب وابتدعوا بناء القبة المعقودة بالاجر واللبن وانحناء الاقواس ، ولعدم وجود الحجارة جعلهم / كما هو الحال بالنسبة الى سكان العراق الحاليين/ يلجأون الى طمي النهر يشوونه ويجعلون منه آجرا (الطابوق) بنوا فيه القصور والدور والمعابد وغطوا جدرانها بالفسيفساء وبرعوا بالنحت والنقش والصياغة ، وكانوا ينقشون رواسم (اختام) اسطوانية ، عليها اسماؤ هم ، ومناظر من اراضيهم وبساتينهم وقد استخدموا العربات في الحرب وصنعوا آلات الحرب على اختلاف انواعها من النحاس الاحمر ، وان جميع ما عرف من تاريخ السومريين السياسي يعتمد على الاثار ذات السجلات المكتوبة وقد سجلوا فيها كل شيء مثل حادث الطوفان ، ولا تزال آثار المعابد المبنية على شكل صروح مدرجة تعرف باسم / الزقورة/ وتبلغ في بعض الاحيان سبع طبقات شاهدة على عظمة ذلك الشعب ، وكان لكل مدينة ملك ومن اشهر ملوك / لكش/ الملك / اورا كاجينا/ وكان من الملوك المصلحين ثم / تموز/ ملك الوركار وهو احد الالهة عند السومريين ومنهم / اناتم بو اكوركال/ ملك لكش (حدود عام ٢٨٥٠ ق . م) وقد سيطر هذا على شرقي سومر وصد العيلاميين من الجهة الشرقية ، ويقول العالم الأثري المعروف ليوناردوا وولي الذي توفي عام ١٩٦٠ وهو من المتخصصين بالاثار السومرية (لقد كانت حضارتهم التي اثارت العالمين الذين كانوا في غياهب الوحشية هي السبب في نشوء الحضارة وبالكشف عن حضارتهم بطل القول الذي يرد اصول جميع الفنون الى اليونانيين ويعدهم مبدعين لها من غير تقليد او اقتباس ، لقد علمنا الان ان حضارة اليونانيين تتصل في الاصل بشجره امتصت ريقها من ارض الليديين والحيثين وارض الفينيقيين وجزيرة كريت وبابل ومصر وان جذور تلك الشجرة رسخت في ارض السومريين اقدم هذه الامم) .

خلال حكم السومريين تعرضت بلاد ما بين النهرين الى الغزوات السامية ويقال انهم من نسل شيم (حام) بن نوح وهم على العموم جغرافيا وتاريخيا مرتبطون

بالجزيرة العربية واراضي الهلال الخصيب في شمال سومر ، وكانت هذه القبائل تعيش من زمن بعيد عيشة الترحال ما بين سورية والصحراء العربية ثم تسربوا في وقت واحد الى وسط وشمال ما بين النهرين وكانوا محاربين اكثر من السومريين وتدريجيا بنى الساميون مدنهم التي كانت كل منها دولة مستقلة مثل / كيش/ . و/ ماري/ واشهر هذه القبائل السامية هم الاكايون الذين كانوا يعايشون السومريين في جنوب العراق ويبدو انهم نزحوا من جزيرة العرب الى هذه البلاد في بداية الالف الثالث قبل الميلاد ان لم يكن قبل ذلك وقد توجهوا نحو بلاد الرافدين بعد موجات الجفاف التي اصابت بلادهم ، فسكنوا اطراف العراق الغربية الجنوبية قبل الالف الرابع ق . م ثم بدأوا يتسربون الى العراق ويزاحمون السومريين بكثرتهم وفي معايشتهم على انهم تحضروا بحضارة السومريين واقتبسوا خطهم المسماري وتعلموا اصول معاملاتهم التجارية واقيستهم واوزانهم ومكاييلهم والسياسة المدنية المعروفة اليوم بالبلدية وعند العرب بالاحتساب وتعلموا منهم جميع الفنون واخذوا عنهم عددا كبيرا من كلماتهم ، وقبل ذلك كان الاكاديون رعاة لم يعتادوا على الزراعة وانشأوا المدن الكبيرة كمدينة / آكاد/ التي اصبحت عاصمتهم واهتموا بالتجارة وتوسيع افاقها مع البلاد الاخرى وجلبوا المواد الاولية للصناعة وابتدعوا نظام الامبراطورية وذلك بتعيين حكام في المناطق يحكمون فيها باسم الدولة الاكادية وقد سبقوا الامم الى ذلك فهم منشؤ وا نظام الحكم الدولي المعروف المتبع الى اليوم في العالم . وقد استجلبوا الى العراق الاشجار الغريبه كشجرة التين والكروم والورود واقاموا الاتصالات الجارية ، وبعد استقرارهم في العراق نسوا حياتهم البدوية الاولى والسكن في الخيام وابتنوا المساكن والقصور من الآجر (الطابوق) وقد عايش الاكاديون السومريين معايشة المسالم المضطر سنين طويلة ولما توفرت اعدادهم ورأوا في انفسهم القوة ثاروا على السومريين حوالي ٢٣٨٠ ق . م بقيادة زعيمهم الاكبر / سرجون الاكادي/ الذي اهتز لذكره التاريخ وكان ساقيا للملك السومري / اور - البابا/ ملك / كيش/ ثم ثار على سيده ونجحت ثورته واستولى سرجون على كيش في اواسط الالف الثالث قبل الميلاد ، وساعد على ذلك اختلاف الامراء السومريين ، كما تغلب على دويلات سومر واسس فيها مملكة موحدة قوية شملت كافة العراق وتلقب بملك / سومر واكاد/ صاحب سلطان الدنيا واسس مدينة / اكاده/ وجعلها عاصمة لامبراطوريته التي تعتبر اول امبراطورية عرفها التاريخ وظهرت في المنطقة

التي عرفت فيا بعد باسم / بابل/ ووصلت حدود الامبراطورية الاكادية الى بلاد عيلام شرق بلاد سومر (ايران حاليا) والى البحر الابيض المتوسط ، وقد اثّر الاكديون في الشعوب التي عاشت في منطقتي ما بين النهرين والمنطقة العربية ، ولكن الثقافة السومرية كانت هي الاساس التي بنيت عليه الدولة التي جمعت كل من آكاد وسومر ومدينة / اور/ القديمة وظلت اسرة سرجون الاكدي تحكم حوالي قرن ونصف ثم انتهى امرها بالطرد من البلاد وتوحد السومريون مع الاكاديين ضد غزوة الكوتيين وكانت الرياسة للسومريين وخاصة لمدينة / اور/ ورضي الاكاديون بان يكونوا في الصف الثاني وساهموا في تنظيم البلاد التي اصبحت تدعى (سومر واكاد) وتلقب ملكهم بملك (سومر واكاد) وازدهرت البلاد وحقق اجتماع الشعبين ما سمي بعد ذلك (بالحضارة البابلية) ولم يكن الاتحاد مقصورا على الاكديين والسومريين بل انضم اليهم بقايا الكوتيين الذين غزوا البلاد من الشمال ويقال انهم اسلاف الاكراد وبقوا في بلاد سومر وأكاد يحكمونها خلال مائة عام تقريبا قبل وحدة السومريين والأكاديين للقتال ضدهم .

بين عامي ١٨٣٠ - ١٥٣٠ ق . م ظهرت دولة العموريين في بابل التي اسسها الملك (سومر ابوم) وهم من الشعوب السامية قدموا من الجهة الغربية واستطاعوا ان يسيطروا على عدد من المدن البابلية والاشورية واخضعوا الاكاديين رغم كثرة عددهم . واستطاع العموريون تقوية دولتهم الصغيرة وجعلها دولة عظيمة وكان حمورابي المصلح المعروف الملك السادس لهذه الدولة وحكم حوالي ١٧٢٨ - ١٦٨٦ . واتخذ بابل عاصمة له عام ١٧٠٠ ق . م وهو صاحب القوانين المعروفة باسمه واعظم ما خلد مجده واطار شهرته المسلة القانونية العظيمة التي سمكها ثماني اقدام وهي من حجر اسود نقش عليها بالخط المسماري جميع الشرائع السومرية القديمة فاستوعبت ثلاثة الاف سطر باللغة البابلية وهي موجودة حاليا في فرنسا / في متحف اللوفر/ واصبحت بابل في زمن حمورابي وقبل ما يقارب الفي سنة من ميلادالمسيح من اغنى المدن والعواصم التي عرفها تاريخ العالم قديمة وحديثة وانشأ جيشا قويا حافظ على حدود الدولة واتسعت المملكة البابلية السامية حتى دخل في حكمها بلاد الدولة الآشورية ومات حمورابي بعد ان حكم اثنين واربعين سنة وخلال حكم ابنه تأسست سلالة جديدة مستقلة على شواطىء الخليج العربي وهي

سلالة الأمراء التي عرفت بسلالة القطر البحري او ارض البحر ثم بالدولة الكلدانية ، وقد ظلت متحدية ملوك بابل واشور مدة الف سنة من ذلك العصر ، وفي زمن الملك الحادي عشر من ملوك العموريين عام ١٦٣٠ ق . م تعرضت البلاد لهجوم الحثيين الذين قدموا من المناطق الجبلية في آسيا الصغرى وبعد ان استولوا على مدينة حلب ساروا على محاذاة نهري الفرات ودجلة حتى احتلوا بابل واستباحوها ونقلوا ما غنموه الى بلادهم وقد قضوا على آخر ملك من نسل حمورابي ولما ارتدوا عن بابل ـ وكان ذلك في حدود ١٧٥٠ ـ لم تجد الاقوام الكاشية صعوبة في السيطرة على بلاد بابل وكان انتصارهم ايذانا بزوال تقدم البابليين في حضارتهم وهكذا انتهى اول الفصول العظيمة في بلاد ما بين النهرين .

ظلت الأقوام الكاشية قائمةمابين ١٥٣٠-١١٦٠ق. م وهم من اخلاف الكوتيين ويعودون باصولهم الى الامم الهندية الاوروبية وجاءوا الى البلاد من مواطنهم الاصلية في جبال / زاغروس/ وظلت بابل تحت حكمهم حوالي اربعة قرون ، وكان الكاشيون جفاة ولكنهم بعد ذلك اقتبسوا حضارة البلاد البابلية وتخلقوا باخلاقها .

اما عن الاشوريين فهم من نفس اصول البابليين والعموريين / اي من الشعوب السامية/ وكانوا يقطنون منطقة آشور وهي المنطقة التي يحدها نهر دجلة من الشرق وتشرف على الصحراء في الغرب والجنوب واسم آشور مأخوذ من اسم الالة الآشوري / آشور/ رب الحرب الاعظم وسميت عاصمتهم الاولى باسم آشور ، واكثر المؤ رخين يقولون ان الاشوريين هم من الاقوام السامية الذين كانوا في جزيرة العرب ثم طلعوا في حدود الالف الثالث قبل الميلاد الى هذه البلاد التي نسبت اليهم قديما ، وقد اسسوا مملكة صغيرة واتخذوا من اصول الحضارة السومرية اشياء لاءمت معيشتهم المستقرةثم نقلوا عاصمتهم من آشورالى نينوىوالآشوريون شعب نشيطذو حس تجاري واسع لذلك سهلوا التعامل والمبادلات التجارية وصكوا العملة الفضية لهذه الغاية واستخدموا الاوراق المالية والصكوك والسندات وكانوا يعيرون عملهم الى جيرانهم بفائدة ٢٠ ـ ٣٠٪ .

وقد تأثرت الثقافة الاشورية بالثقافات البابلية التي ورثت ثقافة السومريين وقد اقام الاشوريون المكتبات الضخمة والغنية بالوثائق ، وفي قصورهم الملكية وفي

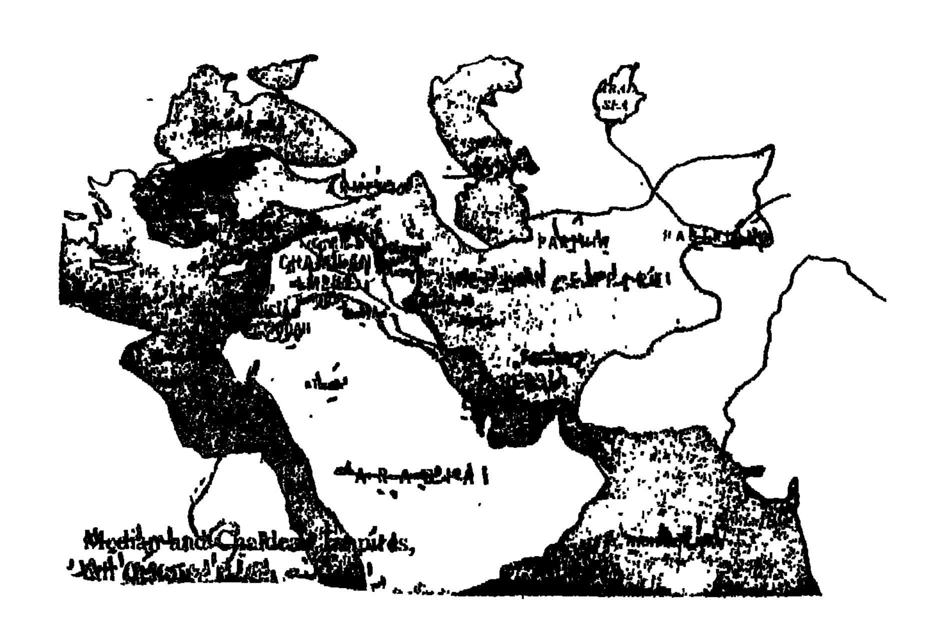
المعابد اقاموا ما يشبه المتاحف في الوقت الحاضر ، وكان الشعب الاشوري بالاضافة الى ذلك شعب محارب استخدم في حروبه الاسلحة المصنوعة من الحديد، و .
التعاون ما بين حملة السهام وجنود المشاة الثقيلة والخيالة واصبح الجيش الاشوري اقوى جيش في العشر الاول من القرن السابع للميلاد ، وامتدت الامبراطورية الآشورية حتى غطت البلاد الواقعة بين العراق ووادي النيل بما فيها مصر ، وخلال حكمهم طبقوا مبدأ نقل الشعوب المغلوبة من منطقة الى اخرى عندما سبوا اليهود .
ومن اشهر ملوكهم /آشور ناصر بال/ الثاني الذي كان من اوائل الملوك الفاتحين وحكم بين سنة ٨٨٣ - ٨٥٩ ق . م وانحدر من زعامته سيل الطموح العسكري بعنف وبطش واتصف هؤلاء بالقوة والشدة بحيث صاروا مثلا للشراسة والقسوة والعنف ، واستولى آشور ناصر بال على اثني عشر دولة صغيرة وعاد من حروبه بغنائم كبيرة وكثيرة وسمل بيديه عيون خمسين اميرا من الاسرى واستمتع بنسائهم ومات ميتة شريفة حسب قوله .

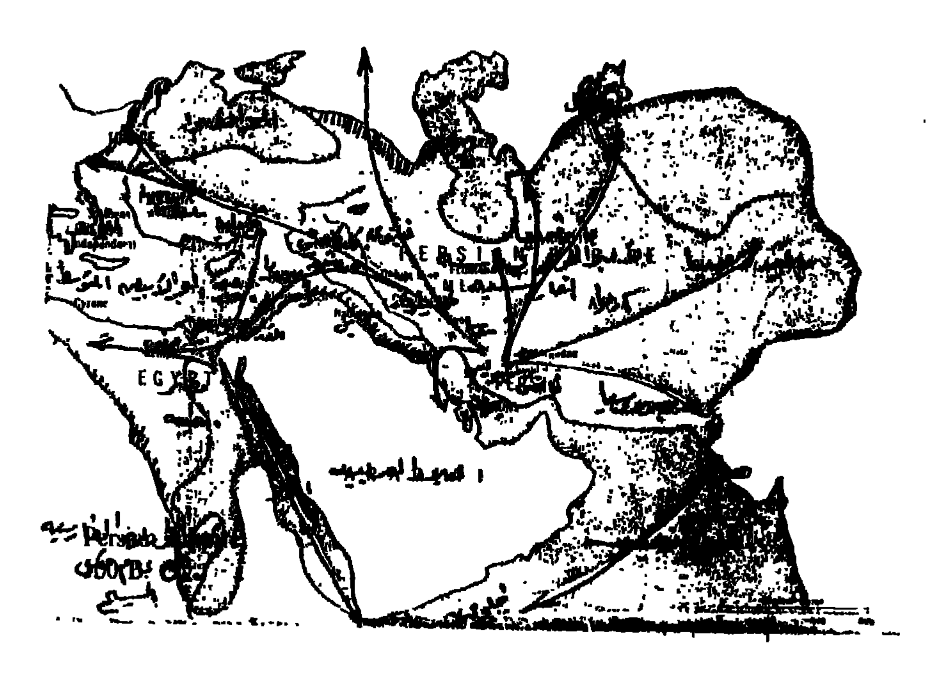
واخيرا وفي عام ٩١٢ ق . م نجح تحالف كبير ضم البابليين والميديين والفرس وقضوا على الدولة الاشورية وهي في عز قوتها ودمرت عاصمتهم نينوى وتم اكتشاف خرائبها عام ١٨٥٢ - ١٨٥٤ ، واكتشف قصر بانيبال (حكم عام ٦٩٨ - ٦٢٦ ق . م) آخر ملوكهم ووجدت قبة مليئة بالاثار من اهم ما خلفه الاقدمون .

لعب الكلدانيون سكان القطر البحري بزعامة ملكهم نيوبلسر دورا كبيرا في القضاء على الدولة الآشورية وأسس سلالة ملكية دامت سبعين عاما بعد سقوط نينوى في المناطق الجنوبية من العراق ، ويرجع نسب هؤلاء الى السلالة البحرية من الساميين ومن قبيلة كلدى وكانت هذه القبيلة الصحراوية قد شرعت منذ عدة قرون وربما كان ذلك منذ النصف الثاني للألف الثاني قبل المسيح في الاستقرار التدريجي حول رأس الخليج وفي الاقامة على شواطئه وفي سفوح الجبال الشرقية وكانوا من البدو أخذوا يقومون بنفس الدور الذي قام به الأكديون والعموريون ، ويطلق المؤرخون عليهابالدولة الكلدانيةالبابلية الحديثة . وبالرغم من ان تاريخ هذه الدولة قصير جدا (٦٢٦ - ٥٣٩ ق . م) الا انه رائع جدا ومن اعظم ملوكهم نبوخذ نصر الثاني (بختنصر) ٦٠٤ - ٥٦١ ق . م (وقد لقب بالثاني لأن الأول هو نبوخذ نصر الذي استعاد استقلال بابل أيام حكم الآشوريين) دام حكمه ثلاثة واربعين عاما أظهر فيها للتاريخ انه اعظم الملوك الكلدانيين قاطبة وقد عد جماعة من المؤرخين

عهده من العهود المجيدة في التاريخ البشري فانه بالرغم من الحروب التي خاضها لم تسجل الكتابات الأثرية التي تركها الا اخبار البناء والتشييد والتعمير والتجديد وقد استطاع هذا الملك وهو امير ان ينتصر على الآشوريين والمصريين (الفراعنة) قرب قرقميش (جرابلس) وفتح سورية وفلسطين حتى حدود مصر ثم عاد الكرة وهو ملك وقضى على دولة اليهود (مملكة يهوذا) سنة ٥٩٦ بعد ان رفضوا دفع الجزية له بالرغم من تحذير النبي أرميا لهم وفتح القدس (أورشليم) وجلب معه الى العراق سبعة الاف مقاتل والف عامل مكبلين بالحديد ومعهم الملك (يوياخين) وهو السبي الأول وأما السبي الثاني تم سنة ٥٨٧ ق . م وقد سبي (بختنصر) منهم زهاء اربعين الف مقاتل بعد ان قتل الملك (صدقيا) وحاشيته وهدم هيكل سليمان . وبختنصر هو الذي اعاد بناء مدينة بابل وشيد الحدائق المعلقة ، وتابع علماء الفلك الكلدانيون دراساتهم في علم الفلك قروناً طويلة بعد سقوط امبراطوريتهم وعلم الفلك الحديث مدين لهم . واشتهر الكلدان البابليون ببناء الجدران الضخمه والأسوار العريضة التي يمكن لعربة ان تسير عليها والقصور الضخمة والحدائق المعلقة التي كانت تعتبر احدى عجائب الدنيا السبع في العهود القديمة ، وفي القرن الخامس قبل المسيح كتب المؤرخ اليوناني هيرودوت عن مدينة بابل وحياتها بتفاصيل دقيقة ووصف الزوارق المدورة التي لا يزال سكان تلك المناطق يستخدمونها لاجتياز النهر ووصف ايضا نظام الري المدهش وقال لا يمكن لأنسان ان يصدق بوجود مثله أبدا .

بعد بختنصر خلفه على العرش في بابل ملوك لم يكونوا بكفاءته فازدادت الاضطرابات في انحاء الامبراطورية وحدث خلاف كبير بين الملوك والكهان فابتدأ الضعف يسري في جسم الامبراطورية وساعد هذا الضعف ملك الفرس (الأخمينيين) كورش على التوجه نحو بلاد الكلدان بعد ان احتل (ليدية) ووحد بلاده وانتصر على جيوش الكلدانيين التي كانت بزعامة ولي العهد (بيلشاصر) قرب المدينة التي صارت تعرف ب (سلوقية ـ طيسفون) أي سلمان باك الحالية ودخل كورش بابل في تشرين الأول عام ٥٣٩ بدون قتال فعال بعد حصار قصير وهكذا سقطت عاصمة العراق العظيمة الثانية بعد نينوى وكان ذلك علامة لتوقف الحضارة البابلية ، كما انهارت بدخول الفرس الزعامة السامية وحلت محلها زعامة آرية وانحطت البلاد التي كانت حتى ذلك الزمن وحدة سياسية وجغرافية وتردت الى حال صارت فيها ولاية تابعة لسيطرة دولة أجنبية .





دامت دولة الفرس الاخمينيين ما بين (٥٥٠ ـ ٣٣١ ق . م) وابتدأت بكورش الذي فك أسر اليهود عام ٥٣٩ فعاد قسم منهم الى فلسطين والقسم الأكبر بقي في المنطقة ولقد كون كورش من بعد ضمه بلاد الماذيين الى مملكته ، امبراطورية عظيمة شملت معظم العالم القديم المعروف من الهند حتى بحر ايجة ومن البحر العربي حتى بحر قزوين ، واصبحت مدينة بابل عاصمة شتوية للأخمينيين ، وكانوا يتبعون ديانة خاصة بهم تسمى (الزردشتية) نسبة الى المتنبىء (الماذي) (زرادشت) الذي ظهر بعد قرن من خراب نينوى فبنى ديانته على وجود الصراع بين الخير والشر في هذا العالم وقد انتشرت ديانته انتشارا واسعا بين الايرانيين حيث تزعم عبادة النار التي هي ديانة المجوس وقد عاصر كورش زرادشت مدة من الزمن حتى قتل بعد تسع سنوات من فتحه لبابل وكان قتله في احدى حروبه مع القبائل الشمالية البربرية خارج العراق سنة ٥٢٩ ق . م وقد خلف جيشا مدربا تدريبا ممتازا وبخاصة الحرس الامبراطوري الذي كان يتألف من عشرة الاف جندي من الدائمين مع قادة متفوقين عسكرياً مما أمن للأخمينيين النصر لمدة طويلة .

وقد امتدت امبراطورية الأخمينيين الى مصر حيث تم افتتاحها من قبل قمبير أبن كورش (٥١٩ق. م ـ ٥٢١) بعدان عبر الصحراءبجيوشه ثم حاول التقدم نحو الغرب للقضاء على الدولة الفينيقية في قرطاجة بعد ان رفض الفينيقيون الذي كانوا يزودونه بالمراكب مهاجمة احدى مستوطناتهم ولكنه لم يستطع التقدم بل اتجه نحو القارة السوداء وحكم قمبيرامبراطورية امتدت من الحبشة الى الهند . وقد خلفه على سدة الحكم ابنه داريوس الأول (٥٢٢ ـ ٤٨٦) وكان عليه ان يقمع في بداية حكمه ثورات داخلية نشبت في مختلف ارجاء امبراطوريته الواسعة ثم تابع فتوحاته الى ما وراء نهر الهندوس ، وكان هذا محبا للعمارة وقد بنى قصرين أحدهما في سوسا والثاني في برسيبوليس لا تزال اثارهما شاهدة على ارتفاع مستوى فن العمارة في دولته وكان داريوس يحاول مجاراة قصر نبوخذ نصر في بابل وقد ساعد وجود امبراطورية واحدة تضم اغلب ما يعرف بالعالم القديم على تنظيم سبل التجارة بين مختلف انحاء المملكةوقد مهد داريوس الطرق وعبدهاالتربط مابين المدن واقام اتصالات بريدية فيما بينها وحاول ربط الهندبمصر عن طريق البحر عندما أرسل اسطولا بقيادةاحد اليونانيين ويسميه هيرودوت سكيتلاكس الكريندي) لأكتشاف هذا الطريق وابتدأ من نهر الهندوس وطاف حول الجزيرة العربية ثم البحر الأحمر حتى وصل الى مصر ثم

حفر قناة جديدة متتبعا اثر قناة قديمة تربط بين البحر الأحمر والنيل وفي عهده ساد الأمن والاستقرار في البلاد وازدهرت التجارة بين اجزاء الامبراطورية المترامية الأطراف ، ونظم الأخمينيون امبراطوريتهم الواسعة واقاموا حكومة مستقرة واستخدموا اللغة البابلية (السامية) الآرامية كواسطة تخاطب بينهم وبين مقاطعات البلاد بالرغم من ان لهم لغة خاصة (آرية) كما استخدموا الحروف المسمارية لكتابة لغتهم الخاصة وكانت اللغة السامية فقط للمراسم . ولكن الدولة في زمن خلفاء داريوس بالرغم من مرور عدد من الملوك الأقوياء الطموحين بدأت بالتفسخ وظهرت الثورات تتوالى في مختلف انحاء البلاد بالاضافة الى الخلافات المستمرة بين العائلة المالكة حيث مات عدد كبير من الملوك بالسم ، كما انشغلت الامبراطورية بالحرب الطويلة مع الاغريق الايونيين التي كانت سجالا بين الطرفين حتى وصول الاسكندر وقد حدثت معارك كثيرة كانت ذروتها معركة الماراثون (٤٩٠ق. م) التي انتصر فيها اليونانيون على الفرس ثم معركة ثرموبولي (٤٨٠ق. م) التي خلدت ابطال اليونان مثل ليونيداس ولا يزال تمثاله مرتفعاً في ميدان المعركة حيث ضحى هو ورجاله بأنفسهم للدفاع عن اثينا وقد سقطت هذه بيد داريوس وأحرقها ولكن اليونانيين انتصروا على الأسطول البحري الفينيقي في معركة سلاميس البحرية ودامت الحروب مدة طويلة في زمن احشورش بن داريوس ، وقد بدأ بهذه الحروب الصراع بين اوروبا وآسيا وقد ظهر غزاة كثيرون للشرق كان آخرهم اللنبي وغورو . وقد خلد الشعراء اليونانيون الحروب مع الفرس بأشعارهم ووصفها هيرودوت وصفا دقيقا . ويعتقد ان الخراب الذي احدثته الجيوش الفارسية اثناء تقدمها في بلاد اليونان هو الذي الهب حماس المقدونيين واليونانيين بزعامة الاسكندر للثار من الفرس وفي حفلة الشراب التي اقامها الاسكندر في قصر برسيبوليس لتتويج انتصاره أثار بعضهم ذكريات الحروب الفارسية اليونانية فأقدم الجميع وعلى رأسهم الاسكندر تدفعهم نشوة الظفر باحراق القصر العظيم وكان ذلك عام ٣٣٠ق. م وكانت الحرب الفارسية ـ الاغريقية اول نكسة حلت بالقوة العسكرية الفارسية .

أقوام أخرى لعبت دورا كبيرا في حضارة المنطقة ، وكانت حضارتها متلازمة مع الحضارات التي ظهرت في بلاد ما بين النهرين وان كانت متأخرة عنها قليلا وهذه الأقوام هي الأخرى سامية المنشأ وتعتبر الفرع الجنوبي للعمالقة العموريين الذي جاء ذكرهم . وقد أطلق عليهم الكنعانيون وتوطن هؤلاء في جنوب سوريا الطبيعية التي

كانت تسمى أرض كنعان وهي فلسطين الحالية وأقام هؤ لاء حضارة راقية وسيطروا على طرق التجارة الواصلة ما بين شمال الجزيرة العربية وجنوبها . وفي القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد اجتاحت اراضيهم جموع من ا لقبائل السامية فيهم الآراميون الذين توطنوا في باديء الأمر على ضفاف نهر الفرات الأوسط قبل منتصف الألف الثاني قبل الميلاد واسسوا لهم مملكة في حران . وفي القرنين الرابع عشر والثالث عشر نزحت القبائل الآرامية واتجهت جنوبا الى داخل سوريا ووصلوا جبال لبنان وتوقفوا عندها وحوالي عام ٢٠٠ ق. م أصبحت دمشق عاصمة لهم ومن المحتمل ان يكون ابراهيم الخليل وقومه قد رافقوا الأراميين في هجرتهم ، وقد توطن الفلسطينيون الذين هم من الشعوب الآرية في فلسطين .

خلال زحف هذه الشعوب على ارض كنعان هجر قسم من السكان غربا الى البحر وهم الفينيقيون واجتازوا جبال لبنان وتوطنوا على السواحل وأداروا ظهرهم للجبل وركبوا البحر وأصبحوا أشهر الأقوام في التاريخ برحلاتهم ا لبحرية واستكشافاتهم البعيدة في ساحل البحر الأبيض المتوسط وخارجه ووصلوا الى بريطانيا وغرب أفريقيا وأقاموا المستوطنات في كل مكان يصلونه وأشهر هذه المستوطنات كانت قرطاجة على الساحل التونسي وعن طريق البحر الأحمر اكتشفوا السواحل الأفريقية الشرقية ولعبوا دورا مهما في تنمية التجارة مع سواحل البلاد العربية وأفريقية والهند ، وهم الذين اخترعوا حروف الكتابة وصنعوا الزجاج والبرونز واشتهروا بالنسيج الذي كانوا يصنعونه ويلونه الأرجواني حتى انهم كانوا يلقبون بالأرجوانيين الحمر وقد استخدمهم الأباطرة والملوك في مد نفوذهم البحري . مثل ذلك سنحريب الأشوري (٧٠٥ - ٦٨١) عندما استخدمهم للقضاء ثورة مملكة البحر واستخدم الفرس للوصول الى مصر كما استخدمهم الملك سليمان لجلب النحاس من أوفير الأسطورية وقد ظلت البحرية الفينيقية مسيطرة على البحار قرونا طويلة وكان لهم أثر كبير في مسيرة الحضارة العالمية .

خلال هذه المرحلة التاريخية الطويلة كان لشعب الجزيرة العربية هو الآخر دوره الهام في مسيرة الحضارة وتميز بما كان يردف به جيرانه من دماء جديدة (خام) تعيد لهم حيويتهم وتجدد نشاطهم ، وفي داخل القارة الصحراوية وكانت له مراكزه الحضارية القديمة في الواحات والمدن القديمة وكانت ولا تزال حتى الآن مراكز للثقافة

والتجارة والرياسة ايضا ، وكانت الصحراء مأهولة بالبدو ولا زالت حتى الان وخلال هذه المرحلة الطويلة وحتى تاريخ غير بعيد كان الرحل من سكان الصحراء يرتادون أرض الهلال الخصيب المجاور . وكانوا لا يتورعون عن الدخول الى داخله واحتلال مدنه وقراه ومراكزه الحضارية عندما كانوا يجدون في انفسهم ا لقوة وتتوفر لديهم الزعامة الجريئة وكانوا ينقلون معهم طريقة عيشهم البسيطة وأخلاقهم الفطرية وعاداتهم ا لصحراوية وكثيراً ما كانوا يقومون بالزعامة ويشكلون المجتمعات الجديدة المستقلة . وكانوا حضاريون رغم بداوتهم .

ويبدو أن قسما من هؤلاء الصحراويين رافقوا في وقت ما جموع الساميين في هجراتهم نحو الخليج العربي وبلاد الهلال الخصيب وفي وقت ما من القرن الثامن قبل الميلاد استطاع قسم منهم احتلال وادي النيل وفرضوا عليه سلالة ملكية جديدة تعرف باسم الهكسوس ودام حكمهم حوالي مائتي عام وقد قدر لسكان الصحراء ان يكونوا أول من حمل راية الاسلام ويفتحوا القسم الأكبر من العالم القديم وانتشروا ما بين الهند واسبانيا .

ولكن أهم دور لعبه سكان الجزيرة العربية في مسيرة الحضارات التي ظهرت في بلاد ما بين النهرين ووادي النيل هو دورهم في المجال التجاري . فهم نقلة التجارة ما بين الشرق والغرب وفي جنوب الجزيرة العربية او ما كان يطلق عليه في ذلك الوقت بالعربية السعيدة (فيليكس أرابيا) (اليمن الطبيعية) ازدهرت التجارة وكان هؤلاء يحملون ا لبخور واللبان وعود المرالي مصر وبلاد البحر الأبيض المتوسط ليحرق في المعابد وخاصة معابد الإله آمون لاعطاء الصلاة جوا سحريا ويظهر ان هذه المواد كانت مرتفعة الأسعار حتى انتقد بعضهم الأباطرة بحرقهم البخور الغالي على ارواح الموتى ويظهر ان من جملة اسباب تسميتها بالعربية السعيدة لأنها كانت مصدر هذه التجارة الثمينة بالاضافة الى الذهب والفضة وعندما حاول ايلوس غالوس القائد الروماني اثبات وصوله الى مأرب في حملته المعروفة لقطع طرق التجارة واحتلال مراكزها في مأرب سأله أحد الشيوخ الرومان.ولكن أين الذهب والفضة ؟ ولا يزال اللبان والصمغ العربي يجمع من اشجار ووديان جبال ظفار وكانوا ينقلون التوابل والحرير والعاج والطيور والأفيال من الهند وافريقية كما كانوا ينقلون الى الشمال الذهب والنحاس والمعادن الأخرى التي كانت تستخرج من البلاد العربية نفسها بعد أن دجنوا الجمل حوالي ٤٠٠ ق . م قبل المسيح .



وكانت القوافل التجارية ذات الأعداد الكبيرة من الجمال والخيول والتي تصل الى الآلاف ـ وحتى وقت قريب ـ تنقل البضائع من الجنوب الى الشمال عبر طريقين وكانت تتأرجح كفةأحدهم عن الآخر وبالعكس عندما كان يعكر صفو الأمن إن كان في البر او البحر سبب ما في أحد الطرقات .

والطريق الأول وهو الطريق الغربي يمتد من موانيء ما يعرف حاليا باليمن الديمقراطية من حضرموت وظفار تبدأ القوافل مسيرتها حاملة ما كان يصلها من البحر من افريقيا والهند وظفار نفسها ومن عمان قسم منها كان يتجه نحو الخليج العربي مارة خلف جبال عمان ، والقسم الآخر يتجه نحو شبوه (التي يقال انها ارم ذات العماد حيث كانت مأهولة من قبل العماليق طسم وجديس) ، وتمر على مأرب ومنها الى الجوف ثم الى نجران ومكة والمدينة ومن بعدها البتراء ثم إلى مصر او سورية ، وكانت مأرب بسدها الضخم الذي لا تزال اثاره باقية من اعظم الآثار الهندسية وتدل على ما كانت عليه الممالك التي تعاقبت هنالك مثل سبأ وغيرها من مستوى حضاري عال وثروة كبيرة ، وحادثة اللقاء بين الملك سليمان وملكة سبأ المعروفة وكانت ملكة سبأ تحاول مع الملك سليمان عقد اتفاقية تجارية لحماية طريق القوافل ، وقد خفت أهمية هذا الطريق في عهد البطالسة والرومان بعد ان استطاع هؤ لاء تنظيم الملاحة في البحر الأحمر وتعرفوا على اسرار الرياح التجارية (الموسمية) واتصلوا بأفريقية عن طريق ميناء عدن الذي كان يسمى (دايمون) . ومن المحتمل ان الاهمال الذي حدث في الاعتناء بسد مأرب ادى الى خرابه كان سبب ضعف الامكانيات لدى السكان بعد ان توقفت مواردهم عن تجارة الترانزيت ويمكن ان تكون الهجرات السكانية ابتدأت قبل خراب السد ثم تلتها هجرات بعد خرابه .

أما الطريق الثاني فكان يبدأ من الخليج ومنه الى وديان دجلة والفرات ثم الى سورية او الأناضول نحو البحر الأسود وأوربا او من الموانيء السورية على البحر الأبيض المتوسط . ويقابله الطريق القادم من أوروبا عبر البحر المتوسط ويتجه نحو العراق ومنها الى ايران ثم الشرق والذي أصبح يعرف فيما بعد باسم طريق الحرير المشهور ، وقد ذكر هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد أن السكان (سكان جنوب روسيا) كانوا يحرقون البخور في عباداتهم .

ومن الطريف ان تعود هذه الطرقات حاليا للعمل فالسيارات الضخمة الناقلة للبضائع والمواد الغذائية القادمة من أوروبا أصبحت تصل الى عمان عن طريق العراق والخليج وكذلك تصل الى عدن عن طريق سوريا والأردن والمملكة العربية السعودية واليمن . وقد سهلت الطرقات السريعة وصول المواد الغذائية وغيرها من البضائع الى اماكن التصدير بدون الالتجاء للبواخر وما يتبعها من تأخير في الموانىء والغرامات المفروضة. .

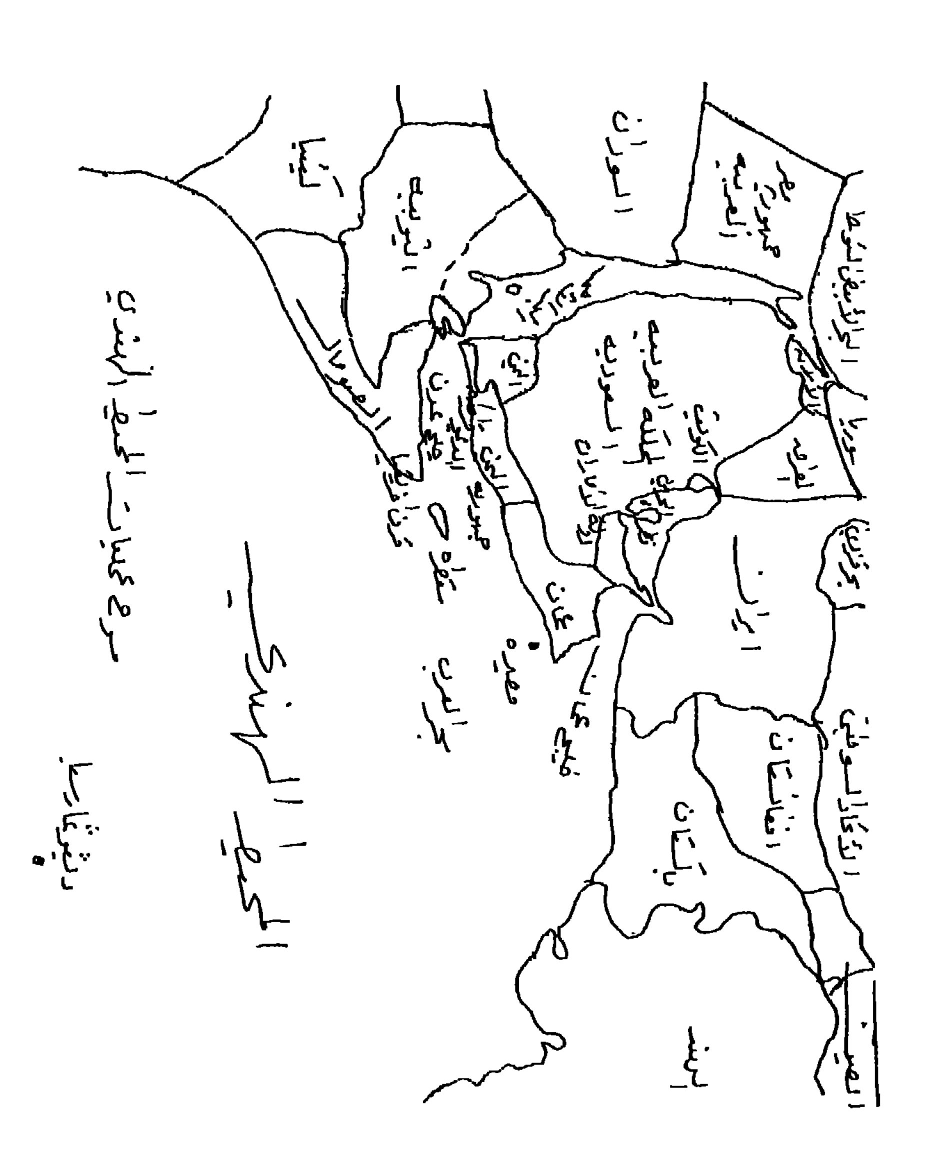
ان الاتصال السهل بين الخليج وبلاد ما بين النهرين ساعد دائما على ان يبقى هذا الطريق التجاري مفتوحا فالخليج متفتح على سهول ما بين النهرين في حين ان الجبال العالية في المناطق الشرقية مثل جبال زاغروس والباختياري تجعل المواصلات صعبة وحتى فترة قصيرة من الزمن كانت الكويت احدى المحطات التجارية للاتصال بين الهند والبحر المتوسط وكانت هنالك الأعداد الكبيرة من الجمال تنقل البضائع بين الكويت وحلب .

وتتحدث النقوش السومرية والأكادية التي ترجع الى الألف الثالث قبل الميلاد عن الصلات البحرية بين أرض الجزيرة ودلمون (البحرين) ، وماجن (عمان) وملحا التي لا يعرف مكانها الان ومن دلمون كانت تجلب اللآلىء ومن ماجن النحاس وملحمة جلجامش ـ ذكرت بأن دلمون هي ارض الخلود ويعتقد ان السومريين قدموا من دلمون التي ظلت لفترة طويلة من أكبر المراكز التجارية ومخلفات معابد (أور) تذكر تفاصيل الرحلات البحرية الى دلمون والسلع التي كانت تحملها من الصوان والصوف والنحاس والذهب .... الخ .

الفصل الثاني

من الفتح المقدوني حتى ظهور الاسلام

ـ الملك فيليب وتوحيد اليونان ـ ظهور الاسكندر ـ توحيد اليونان والقضاء على سبارطه ـ الاسكندر وفارس ـ معركتي سوس غوغامليش ـ فتوحات الاسكندر في مصر والهند وسقوط الدولة الفارسية الاخمينية ـ موت الاسكندر ـ خلفاء الاسكندر ـ السلوقيون وتأسيس مدينة سلوقيه ـ ثورة آرشاق في بارتيا ـ تأسيس دولة البرت وملوكهم ـ تأسيس طيسفون (المدائن) ـ الصدام بين البرت والرومان ! الانتصار البارتي على الرومان ومقتل كراسوس (معركة كارهاي) واثرهما البعيد ـ الاتفاقية السلمية بين البرت والرومان ـ نهر الفرات الحد الفاصل ما بين الدولتين والثقافتين ـ وصول تراجان الى الخليج وتراجعه ـ ثورة اردشير الساساني انتصاره على دولة بارثيا ـ زوال الثقافة الهلنستيه ـ كسرى انوشروان ـ الحروب بين الرومان والفرس ـ الانتصار الفارسي ـ ظهور هرقل ـ التراجع الفارسي ـ المدنة الجديدة ـ الملك ابرويز ـ اهمية الدولة الساسانية ـ التفاعل الحضاري .


البحر الأبيض المتوسط
سوريا
بحر قزوين
الاتحاد السوفيتي
الصين
جمهورية مصر العربية
العراق
إيران
أفغانستان
الكويت
المملكة العربية السعودية
السودان
باكستان
الهند
دولة الإمارات
خليج عمان
عمان
مصيرة
اليمن
جمهورية اليمن الديمقراطية
سقطرة
بحر العرب
خليج عدن
القرن الأفريقي
أثيوبيا
الصومال
كينيا
المحيط الهندي
مسرح عمليات المحيط الهندي
دييغو غارسيا

الفصل الثاني

من الفتح المقدوني حتى ظهور الاسلام

كان الملك المقدوني فيليب الثاني - قبل اغتياله - يسعى جاهدا لتوحيد بلاد اليونان في دولة واحدة تحت رايته والانطلاق نحو الساحل الاسيوي وتحرير المستعمرات اليونانية من الخطر الفارسي الذى كان يهددها وكانت ذكرى الحروب القاسية بين اليونانيين والفرس تدفعه دائما لتحقيق هذا الحلم . وقد استطاع التغلب على المدن اليونانية الواحدة تلو الاخرى عدا اسبارطه وحقق له جيشه المدرب تدريبا عاليا كل ما كان يصبو له وكان فيليب نفسه يتمتع بميزات قيادية فذة وفي وسط الطريق لتحقيق القسم الثاني من الحلم اغتيل وخلفه ابنه الاسكندر الذي لم يكن يبلغ الحادية والعشرين من العمر وقد ورث عن ابيه الارادة والعزم والقيادة الحكيمة يساعده على ذلك قوة جسمانية خارقة وطاقة هائلة لا تعرف الكلل ولا الملل ، وكان يشعر بان عليه واجبا مقدسا وهو تحقيق حلم والده والسير على خطاه وابتدأ مسيرته الظافرة خاض خلالها سلسلة من المعارك مع شعوب كثيرة انتصر فيها بعبقريته الفذة واهليته لان يكون او يعتبر اعظم القادة العسكريين في التاريخ وساعده على ذلك قادة ماهرون افذاذ وجنود مدربون احسن تدريب بالاضافة الى نظريات جديدة في اسلوب القتال والتسليح .

بعد ان قضى الاسكندر على معارضة سبارطة توجه لقتال الاخمينيين ، وفي ربيع عام ٣٣٤ ق . م اجتاز الدردنيل على رأس جيش قوامه ثلاثون الفا من المشاة وخمسة آلاف فارس ، ومن الدردنيل ابتدأ رحلته الطويلة التى لم يعد منها ووصل حتى نهر الهندروس .

وفي معركتي سوس ٣٣٣ ق.م وغوغاميلش تقرر مصير الامبراطورية الاخمينية وهزم ملكها دارا الثالث وانسحب الى داخل بلاده وعوضا من ان يتبعه الاسكندر فقد توجه الى مصر عبر سوريا وقضى على مقاومة الفينيقيين في صور واحتل مصر ووصل الى واحة سيوه مركز عبادة الاله آمون مفتشا عن الكنوز الذهبية . ثم ارتد الاسكندر الى الشرق حيث التقى بدارا الثالث للمرة الثالثة وانتصر عليه ووقعت في يده جميع كنوز أكاسرة الاخمينيين وعدد كبير من العائلات

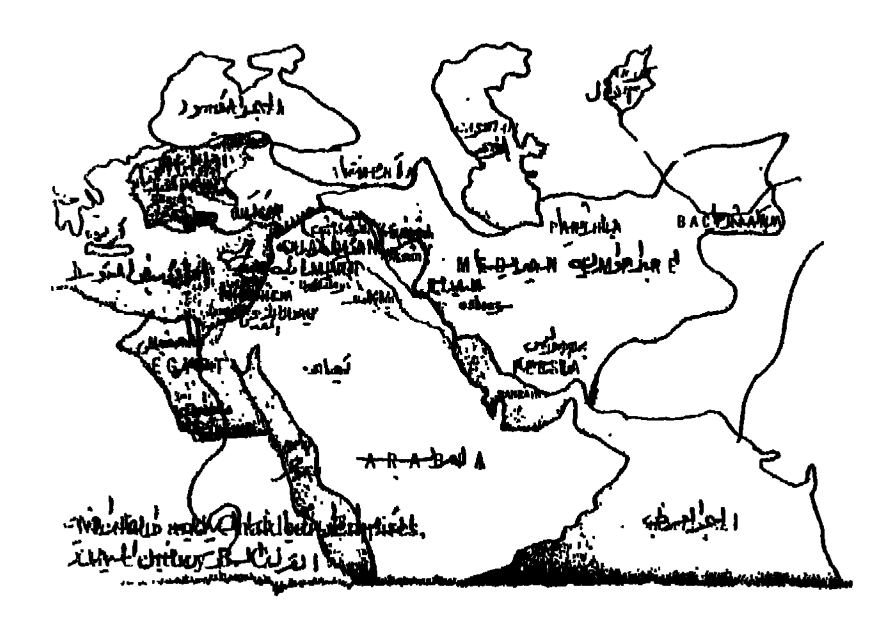
الفارسية النبيلة بما فيهم ابنه دارا وواصـل الاسكنـدر تقدمـه بعـد انهيار المقاومـة الفارسية وتفتحت ابواب الشرق لهذا الغازي الغربي / ويعتبر اول غزاة الشرق من الغربيين/ لتبدأ مرحلة تاريخية جديدة انتهت بالاحتلال العربي ودخـول السـكان بالاسلام .

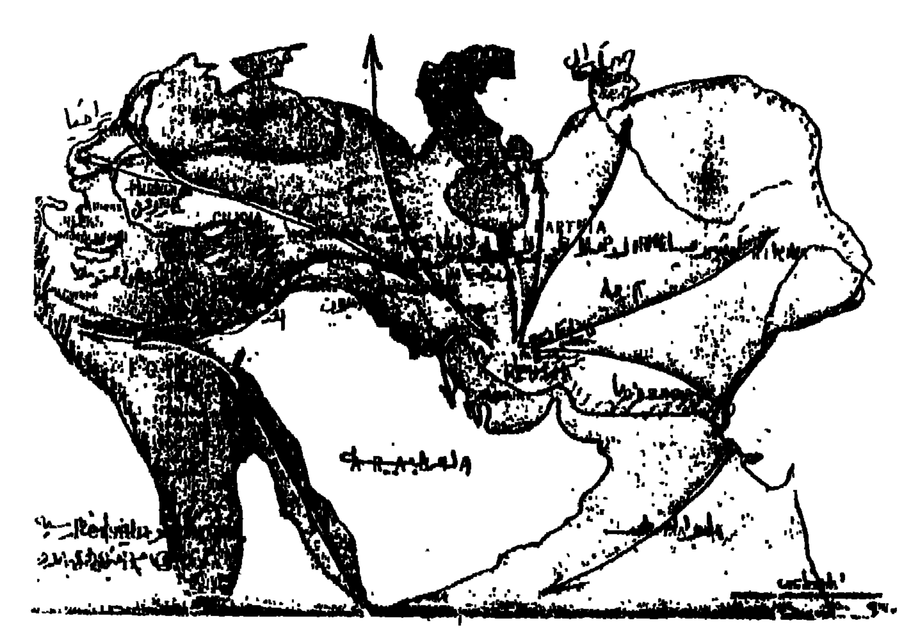
اضطر الاسكندر للعودة الى العراق بعد ان وصل الى مدينة / بخاري/ وعبر نهر اموداريا (جيحون) وكان ذلك بضغط من قادته وجنوده بعد ان انهكهم التعب واستنفذت قواهم المعارك الكثيرة وكان ذلك عام (٣٢٦ ق.م) وعلى طول طريق الفتح بنى الاسكندر المدن وسماها جميعا باسمه وفي قصر نبوخذ نصر في بابل توفي الاسكندر عام ٣٢٦ ق .م اثر مرض لايزال مجهولا .

بموت الاسكندر تجزأت الامبراطورية الواسعة وتقاسمها قواده ووقعت المنطقة ما بين سوريا الى الهند تحت حكم سلوقس الاول الذي حكم ما بين ٣١٢ ـ ٢٨٠ ق . م وسار هو الاخر على منوال سيده فاخذ ببناء المدن وانشأ على الضفة اليمنى من دجلة في ارض المدائن مدينة اسماها / سلوقية/ (تل عمر) وحولها عاصمة له ونقل الادارة من بابل فتهافت الناس عليها حتى ضارت في عهده وعهد خلفائه من بعده اعظم المدن لموقعها المتوسط واصبحت مركزا مهما للتجارة ومهدا للعلوم والفنون .

وقد استطاع سلوقس الكبير الدفاع عن حدود بلاده والقضاء على الثـورات وتوحيد البلاد تحت امرته ودخل في صراع طويل مع البطالسة الذين حكموا مصر .

بعد موت سلوقوس تدرجت الدولة من القوة الى الضعف وبـدأت تنفصـل عنها المقاطعات البعيدة وبدأت الدولة تتجه شيئـا فشيئـا للانحسـار ، وفي عهـد انطيوخس الثاني ٢٦١/٢٤٧ ق . م استقلت المقاطعات البعيدة في المناطق الشمالية الشرقية واعلنت استقلالها ففي عام ٢٤٩ ق .م قام احد الزعماء ويسمـى آرشـاق بالثورة ضد السلوقيين في المنطقة المعروفة حاليا باسم خراسان وكانت تسمى بارثيا واعلن نفسه ملـكا على تلك المنطقـة البعيدة ودام حكمـه حتـى عام ٢٤٧ ق . م وسميت دولته بالدولة الارشاقية وفيما بعد اصبحت تسمى / بارثيا/ وفي الوقت ذاته ظهرت دولة اخرى في باكتريا بزعامة احد اليونانيين ويسمى ديودوتوس ، وقد حاول انطيوخوس الثالث الملقب بالكبير اعادة النشاط لامبراطوريته والقضاء على الـدول الخارجة عن طاعته ولكنه لم يستطع واضطر للاعتراف باستقلال الدولتين وقد لعبت


A R A B I A



الدولة البارثية التي (حكمت ما بين ٢٤٧ ق .م الى ٢٢٤ ق .م ثم سقطت بيد الساسانيين) دورا مهما في تاريخ المنطقة .

في عهد متراداتس الاول ١٧١ -١٣٨ ق .م احتلت الدولة البارثية مقاطعات واسعة من الممتلكات السلوقية وفي زمن ميثراداتس الثاني ١٢٤ - ٢٢٨ ق . م وصلت الدولة الى اكبر اتساع لها وامتدت الى ما بين النهرين وارمينيا واجزاء من الهند وبذلك ضمت اليها ممتلكات الاخمينيين وبعد اصطدام البارثيين بالرومان نقلوا عاصمتهم الى ما بين النهرين حيث بنوا مدينة قبالة سلوقية على نهر دجلة وسميت تيسفون (المدائن) وتلقب ملكهم بلقب ملك الملوك وكانت دولتهم ملكية فيدرالية ففي كل مقاطعة كان هناك ملك وعائلة مالكة وتخضع جميعها لملك الملوك ومن هذه الممالك كانت امارة الحيرة وهي الامارة العربية التي اسسها عمرو بن عدي بن نصر اللخمي .

صادف ظهور دولة البرت وتقدمها غربا ظهور الدولة الرومانية التي كانت تتسع هي الاخرى شرقا وكان لا بد لهاتين القوتين من ان تتصادما . ويحق للبارثيين ان يفخروا بانهم اوقفوا تقدم الرومان نحو الشرق ووقفوا حائلا بينهم وبين بلوغ غايتهم . وقد حدثت معارك طويلة بين الطرفين بعد سنة ٦٤ ق . م بسبب الخلاف على ارمينيا التي كانت تدين بالولاء لملوك البرث . وتم اتفاق على جعل نهر الفرات حدا فاصلا بين الدولتين ، ولم يفكر البرث من الدخول الى سورية فقد كانوا بداة لا يعرفون حصار المدن ولم تكن لديهم الامكانيات لذلك اكتفوا بالدفاع عن امبراطوريتهم ومحاولة القتال مع الخصم في الارض المكشوفة . وفي عهد القائد الروماني كراسوس الغيت الاتفاقية من قبل الرومان وفكر القائد المذكور احتلال بلاد البرث ليحرز الانتصارات العسكرية مجاراة لزميله يوليوس قيصر الذي كان في الغرب يضم بلاد الغال وبريطانيا الى بلاده ، ففي سنة ٥٣ ق . م اجتاز كراسوس نهر الفرات مصمما الوصول الى سلوقية ولم تكن تيسفون قد بنيت بعد فانذره ملك البارثيين الجديد اورديس الثاني بالرجوع فرفض هذا انذار الملك البارثي ، وحدثت بين الفريقين معركة (كارهاي) انتصر فيها البرث بقيادة سوريناس انتصارا باهرا وحاسما حيث استطاع هذا بجيشه المؤلف من الفرسان القضاء على سبعة فرق رومانية وقتل كراسوس وابنه ونقل الاسرى الى آسيا ، ولم ينصف المؤرخون هذه

المعركة التي يبدو انها معركة نموذجية ، وكان لها تأثير عميق من مختلف النواحي حيث اوقفت اندفاع الرومان نحو الخليج العربي والشرق واغلقت الى الابد في وجوههم ابواب الهند والصين واضطر الرومان مرة ثانية للاعتراف بنهر الفرات كحد فاصل بين البلدين ومن ثم اصبح هذا الخط حدا فاصلا بين الحضارة الهلنستية - الآرية وحضارة الرومان اللاتينية وخلال القتال توحد يونانيو آسيا والآريين ضد الغزو الروماني ، وقد اعطى الانتصار الهيبة والاحترام للبارثيين وملوكهم الآرشاقيين وهابتهم كل الشعوب التي تقطن المنطقة الواسعة حتى حدود الهند كا فقد الرومان الاحترام من شعوب المنطقة وثارت بوجههم الثورات المختلفة .

حاول يوليوس قيصر بعد عودته من غزواته الكبرى الثأر لكراسوس واخذ في حشد الجيوش وتكديس الاسلحة ولكنه قتل عام ٤٤ م على درج مجلس الشيوخ ، وخلفه مارك انطونيو وحاول تحقيق الهدف الذي اراد يوليوس قيصر ولكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك حيث هزمت الجيوش الرومانية المرة تلو الاخرى ، واضطر هؤلاء للرضوخ للامر الواقع بعد ان شعروا بقوة البارثين وتفوقهم في الحرب لذلك عندما استلم اوكتافيوس (اوغست) الحكم بعد قضائه على مارك انطونيو وعلى كليوبترا ملكة مصر اقر بالاتفاقية القديمة وحل سلام طويل بين البلدين ثم جاء الامبراطور تراجان وصمم القضاء على دولة البارثين وهاجمهم فجأة واحتل مدينتي بابل وطيسفون عام ١١٤م ووصل الى الخليج العربي .

ولكن تراجان عاد فجأة الى سورية ومعه التاج الذهبي وابنه ملك البارثين ولكنه مات في الطريق وخلفه هادريان الذي سحب جيشه من البلاد المفتوحة بعد ان ظهرت الاضطرابات في كل مكان وهددت مؤخرة جيشه وقطعت خطوط تموينه بعد ان تجمع امراء وملوك البارثين وتوحدوا ضد الخطر الروماني وعاد الطرفان للصلح وعادت الاوضاع الى ما كانت عليه قبل الحرب وظل الفرات الحد الفاصل بين الامبراطوريتين .

كانت فارس احدى المقاطعات الواقعة تحت حكم البارثين الذين كانوا يدعون النسب للعائلة الاخمينية التي قضى عليها الاسكندر ، وفيما كان البارثيون يصرفون جهودهم لرد الرومان عن اراضيهم ، بدأ الضعف الداخلي يتسرب في جسم المملكة المترامية الاطراف ، وكانت الدولة تحكم من قبل مجموعة ملوك اصبح كل منهم

يتصرف بعد مدة من الحكم الموروث وكأنه مستقل وظهرت الثورات وكان اكبرها ثورة القبائل الفارسية التي اندفعت من الهضاب الواقعة غرب ايران بزعامة اردشير ابن بابك الساساني الذي صمم على القضاء على دولة البارثين التي دام حكمها حوالي خمسة قرون وظلت معتبرة غريبة عن المنطقة وكانت تدين بديانة غير التي كان يدين بها الفرس الزرداشيون ويعتبر انتصار الفرس انتصارا للديانة الوطنية على الديانة البارثية المازدية .

بذل البارثيون كل ما وسعهم للقضاء على اردشير ولكنه استطاع بعد نضال طويل الانتصار عليهم وقتل ارطبان الخامس ملك البرث عام ٢٢٦ واحتل العاصمة تيسفون ، وبذلك انقرضت امبراطورية اخرى اضيفت الى قائمة الامبراطوريات التي اضنى عليها الدهر واسدل التاريخ عليها استاره وكانت الدولة البارثية آخر الدول التي تدين للحضارة الاغريقية الذين كان ملوكهم يلقبون انفسهم باصدقاء الاغريق ، وكان تدمير سلوقيه الضربة القاضية للحضارة الاغريقية . شرق الفرات لتحل محلها حضارة آرية كما ان الصراع الفارسي الروماني الذي خلف الصراع الاخميني - الاغريقي كان في الواقع صراعا بين الديانتين الزردشتية والمسيحية التي بدأت تنتشر في ارجاء البلاد حتى وصلت فارس نفسها .

كان كسرى انو شروان اعظم الملوك الساسانيين . واستلم الحكم سنة ٥٣١ م وتجددت به الدولة بعد مرحلة الضعف وفي زمنه احتل الفرس اليمن وتغلب خلفه كسرى ابرويز على الرومان البيزنطيين واقتطع كثيرا من بلادهم ووصل مصر ونقل الصليب المقدس ، ولكن هرقل قيصر الروم الجديد (٦١٠ - ٦٤١ م) استطاع صد الفرس وهزمهم في سلسلة معارك اوصلته الى مدينة نينوى ووصل الى نهر الزاب الكبير ثم تقدم حتى وصل نهر دجله جنوب بعقوبه . واثر ذلك خلع الفرس ملكهم (ابرويز) ونادوا بابنه شيرويه ملكا عليهم عام ٦٢٧ م فدخل هذا في مفاوضات الصلح مع الرومان ، وتم الصلح بين الطرفين على اساس بقاء حدود الدولتين كما كانت عليه في السابق وقد ذكرت هذه الحروب في القرآن الكريم الذي بشر بانتصار الرومان المسيحيين على الفرس الزارادشتين وابرويز هذا هو الذي وصله كتاب الرسول عليه السلام يدعوه للاسلام فمزق الكتاب وقتل الرسل ودعا عليه الرسول عليه السلام بتمزيق ملكه وكان آخر ملوك الفرس هويزدجرد الذي تلقى صدمة

المسلمين وسقطت بسقوطه الدولة الساسانية بعد معركتي القادسية ونهاوند ودخلت المنطقة كلها في مرحلة جديدة ابتدأت مع الاسلام .

لا شك ان الدولة الساسانية كانت من أعظم الدول التي ظهرت في العالم القديم وتركت آثاراً كثيرة في فن العمارة والبناء والثقافة ، وقد فاقت السلالة البارثية التي سبقتها من حيث الروح الوطنية والنشاط السياسي والروح العسكرية الحربية ، وفي ظل الساسانين استعادت البلاد انتعاشها الاقتصادي وحيويتها وازدهرت التجارة . وكانت كل من الدولة الاخمينية البارثية والدولة الساسانية تمثل المد الآري في هذه المنطقة منذ سقوط بابل والدولة البابلية الحديثة (الكلدانية) وقد اعادت الفتوحات العربية فيها الزعامة السامية الى سابق عهدها وصدارتها في المنطقة حتى الوقت الحاضر .

بالرغم من قصر المدة التي عاش فيها الاسكندر وامبراطوريته الا ان الفتوحات التي قام بها كان لها اثر عميق في مختلف انحاء العالم القديم الذي دخل في مرحلة جديدة تختلف عن ما سبقها من مراحل تاريخية ، كما كانت افكار الاسكندر واحلامه التي حاول تطبيقها وسار عليها خلفاؤه السلوقيون ابعد تأثيرا من فتوحاته وكان يعتقد في نفسه الالهام وانه آخر الالهة .

بنى الاسكندر اكثر من سبعين مدينة سميت كلها باسمه واكثرها حتى الان موجود ولو كان باسماء اخرى ومنتشرة في مختلف البلاد التي كانت تتألف منها امبراطوريته الواسعة التي امتدت من الهند الى شمال افريقيا وضمت الاكبر من العالم القديم . وقد تم اختيار هذه المدن في الاماكن الاستراتيجية لتحقيق عدة اهداف كانت في مخيلة هذا الشاب العبقري الذي كان يخطط ليحكم العالم هو وقومه والى الابد . فكانت المدن تبنى في اماكن التقاء الطرقات التجارية وفي اماكن حصينة ليسهل الدفاع عنها وبامكانها السيطرة على هذه المدن بالاضافة الى صلاحيتها للاستيطان وقد بنيت الموانيء البحرية للسيطرة على الطرقات البحرية التجارية والحربية وقد امتدت هذه المدن من بحر مرمره الى نهري امودار يا والهندوس ، وقد هيئت لتكون مراكز انتشار للثقافة اليونانية الهلنستية كل ذلك ضمن مخطط استراتيجي عام يستهدف ربط الشرق بالبحر المتوسط واليونان بالصبغة الاغريقية ودمج التفكير الاغريقي بالتفكير الاسيوي وخلق شعب جديد مزيج يحكم العالم

عن طريق التزاوج لذلك تزوج من روكسانا ابنة دارا الثالث وتشجع قواده وجنوده بالتزاوج من الفارسيات وتزين هو بالزي الفارسي .

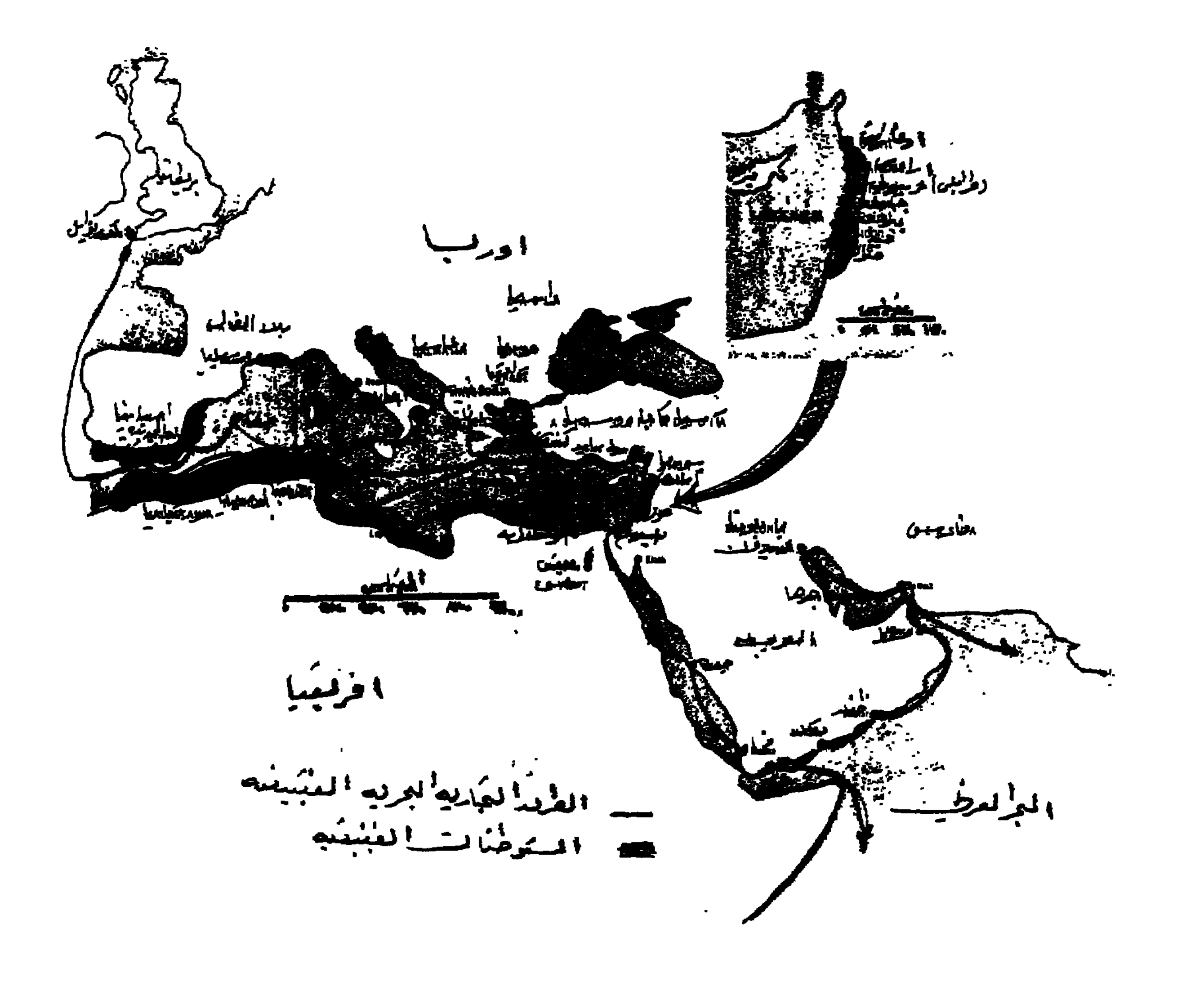
وكان يعمل ليس لخلق ظاهرة تاريخية فقط بل لخلق نظام اقتصادي عالمي يعتمد على امبراطورية عالمية موحدة وقام باصدار العملة الفضية المعروفة باسم الدراخمة بكميات هائلة وعملة مورقة وظلت هذه معمول بها لمدة طويلة اكثر من اي عملة اخرى ، وترك للبلاد المفتوحة حرية العبادة ونوع الحكم والادارة ولكن اليونانيين كانوا يتسلمون المراكز السياسية والعسكرية فيها .

وقد اسفر التفاعل الحضاري بين الحضارة الاغريقية والحضارات المحلية وخاصة الحضارة السامية التي بدأها الاسكندر المقدوني بفتوحاته وسار على خطاها السلوقيون في سوريا والبطالسة في مصر على نشوء حضارة جديدة عرفت بالحضارة الهلنستية وتقابلها الحضارة الهلينية او الاغريقية الخاصلة وظهرت هذه الحضارة في المدن اليونانية التي نشأت في مختلف المناطق كما ذكرنا ومع ذلك ظلت الحضارات القومية الاصلية موجودة خارج هذه المدن . وكانت هذه المدن اغريقية بسكانها ولغتها وقد فتحت فتوحات الاسكندر عيون اليونانيين على ثروات الشرق فتهافتت اعداد كبيرة منهم من مناطق المستعمرات على البحر ومن داخل اليونان نفسها ، وبدأت تستوطن المدن التي انشأها الاسكندر وخلفاؤه واول من سكنها الجنود الاغريقيون والمرتزقة والتجار والفنانون والعلماء والادباء وتزوجوا من النساء الوطنيات بصورة متعمدة في باديء الامر ثم ابتدأت بصورة عفوية . وقد تركت لهذه المدن الحرية بوضع قوانينها بنفسها وكانت تنعم بامتيازات خاصة وبحقوق وبقسط كبيرمن الديمقراطية والاستقلال المدني ، كما كان بناؤ ها على النسق اليوناني ، لقد ظلت الحضارة الهلنستية التي كانت تغلفها حضارتان اصيلتان السامية السابقة والحضارة العربية الاسلامية (اللاحقة) قوة موجهة ذات اثر عميق طوال الف سنة في هذه المنطقة وخلفت تراثا فكريا دائما ولم يكن اثر الهلنستية في بلاد فارس باقل منه في سوريا ومصر واما في آسيا الصغرى فان اثرها كان ابعد واعمق . .

الفصل الثالث

المراكز والطرق التجارية في عهد الاسكندر وما بعده واهمية الخليج

التجارة بين الشرق والغرب ومكاسبها - حملة نيارخوس - الاسكندر والبحر - السلوقيون والتجارة في الخليج - مدينة دورا اوريوس (الصالحية) - البتراء - مدينة سلوقية - الجالية اليونانية في فيلكه - العلاقات بين المستوطنات الاغريقية وتجار المنطقة - الاتصال مع مدينتي الزاج والحنة - جرها عاصمة التجارة - ثروات الجرهانيين والسبأيين - اصل اهل جرها وتجارتهم مع العالم - البارثيون والتجارة - ميناء خاراكس (الابله) - مدينة تدمر واهميتها والقضاء عليها من قبل الرومان - الساسانيون والبحر - اهمية الخليج التجارية في ذلك الوقت - العلاقات بين اليونان والرومان - اكتشاف الرياح الموسمية - طريق البحر الاحمر - الرومان يشجعون الاحباش للانضمام اليهم - اقوام الخليج ودورهم التجاري .


اوربا
افريقيا
البحر العربي
الطرق التجارية البحرية الفينيقية
المستوطنات الفينيقية

الفصل الثالث

المراكز والطرق التجارية في عهد الاسكندر وما بعده حتى وصول الاسلام

كانت التجارة بين الشرق والغرب مصدر ربح كبير للفاتحين لها مهما اختلفت اجناسهم ، وفي القرن التاسع عشر الميلادي استطاع الانكليز تحقيق ارباح طائلة من احتكارهم للتجارة مع الهند واحتلوا البلاد واقاموا القلاع المحصنة على طول الطريق البحري مع اوروبا لحماية هذه الطرق ، وقد سبقهم بالتفكير وعلى نفس النموذج الاسكندر الكبير المقدوني وخلفاؤه من بعده فقد ظل حوالي تسعة سنين هو وجيشه يقاتل ويفتح البلاد ويسهل الطرقات ويقيم المدن لتحقيق مخططه العالمي لربط الشرق بالغرب وقد سبقه الى تحقيق مثل هذه الاحلام كل من الملك سليمان وفرعون مصر وسنحاريب ملك آشور وكذلك داريوس الفارسي عندما ربط بين الهند ومصر عن طريق البحر وحفر قناة تصله بالنيل وقد تبعه في ذلك الاسكندر الكبير بعد (١٨٠) عام من بعثة داريوس عندما ارسل اسطولا ابتدأ من نهر صغير بجانب ما يسمى حاليا كراتشي وكان بقيادة الاميرال اليوناني نيارخوس الذي حمل قسما من جيش الاسكندر عائدا بها الى الخليج العربي وكلف باستكشاف السواحل الشرقية لخليجي عمان والعربي وسار هذا على طول السواحل ولم يبتعد عنها كثيرا ودامت رحلته حوالي اربعة اشهر من تشرين الثاني ٣٢٧ ق .م الى شباط ٣٢٦ ق .م مع استراحة قصيرة في جزيرة هرمز على مدخل الخليج لكي يلتقي بالاسكندر الذي عاد ببقية الجيش عن طريق البر، وقد اورد نيارخوس في تقريره كثيرا من المعلومات عن الساحل وممراته والاقوام التي كانت تعيش على شواطئه وما اظهرته من عداء .

وعندما وصل نيارخوس الى اعالي الخليج كان تفكير الاسكندر متجها لكشف السواحل الغربية للخليج استعدادا للدوران حول الجزيرة العربية والوصول الى مصر لذلك امر ببناء مدينة تكون قاعدة لهذه الرحلات المزمع اجراؤها وسماها الاسكندرية وهي حاليا مدينة المحمرة وسميت فيما بعد باسم سباسينوثياركش واستقدم العمال لبناء السفن التي نقلت اخشابها من الشمال كما تم نقل القسم الاكبر من المراكب من فينيقيا ونقلت قطعة قطعة واستأجر للملاحة والعمل في هذه المراكب

البحارة الفينيقيين كما حاول النهوض بميناء بابل وتحسين الملاحة في نهر الفرات وعندما اصبح مستعدا ارسل بعثة بحرية طافت حول شبه جزيرة قطر واستكشفت (دلمون) البحرين وشاهدت مصائد اللؤلؤ ولكن هذه البعثة لم تتجرأ وتخرج من الخليج ابعد من شبه جزيرة مسندم وقد توقفت الاستعدادات بعد موت الاسكندر .

لم يواصل السلوقيون تحقيق حلم الاسكندر بالوصول الى مصر التي كانت خاضعة للبطالسة اعدائهم التقليديين بل وجهوا نشاطهم لتنمية التجارة في الخليج والقضاء على القراصنة وفتح طرق التجارة وانشأوا اسطولا قويا لهذه الغاية ونظموا تجارة الخليج وشكلوا الشركات البحرية وعملوا على ربط الشمال بالجنوب الذي اصبح جميعه خاضعا لهم من البحر المتوسط الى الخليج العربي وظهرت في ذلك الوقت مدينة / دورا اوريوس/ الصالحية كمحطة متوسطة تقع في منتصف الطريق بين العراق وسوريا وتقابلها مدينة البتراء كقاعدة اتصال للطريق الغربي كما حاولا جعل مدينة سلوقية العاصمة الجديدة اهم ميناء نهري وقد تعاون السلوقيون ايضا مع عرب الجنوب وتمت التجارة بينهم وحدث اتصال بينهم وبين تجار ما بين النهرين وبدأت مشاركة مزدوجة للطرفين . وقد اقام الاغريق جالية تجارية في جزيرة فيلكه واخذوا يتصلون بجزيرة العرب ، ولقد وجد الفرس بين شواطىء الجانب الشرقي من البحر المتوسط وسواحل خليجي المحيط الهندي ولكن الفتوحات المقدونية كانت عظيمة الى حد بعيد فقد زاد اليونانيون من استغلال منافع هذه الوحدة الاقتصادية وبدأوا بحبهم للاستطلاع ازالة الظلام الذي كان يكتنف الجزيرة العربية . وقد اقام الاغريق علاقات وثيقة مع المدينة العربية (زاج) وتقع على ساحل الاحساء وهي مكان مدينة / جبيل/ الحالية وكانت مساحتها اكثر من خمسمائة أكرا وكذلك مدينة / الحنة/ التي تبعد عنها بعشرة اميال وكذلك مع مدن اخرى كانت موجودة على الساحل الشرقي للجزيرة العربية ولكن اهم مدينة تجارية ظهرت في ذلك الوقت هي مدينة / جرها/ عاصمة التجارة في الساحل الشرق لشبه الجزيرة العربية . وثروة جرها وغناها كان منتشراً بين اليونانيين بصورة اسطورية . وفي القرن الثاني قبل الميلاد وصف الجغرافي اغاثارخيدس مدينة / جرها/ وثروتها التي وصلتها عن طريق التجارة مع السبئيين في جنوب الجزيرة العربية وانهم اغنى كل القبائل ، كانوا يملكون قدرا كبيرا من المصنوعات الذهبية والفضية مثل المراجل والاطشات وكاسات

الشرب ومن الضروري ان أذكر ايضا بيوتهم الجميلة . وابواها وحيطانها والرفوف التي فيها والتي كانت مطعمة بالعاج والذهب والفضة والاحجار الكريمة ويكاد لا يصدق من قول احد الجغرافيين بان المدينة كانت بقطر خمسة اميال (وهو بليني) الذي كتب ذلك حوالي ٥٠ عام بعد الميلاد وقد حدد مكان هذه المدينة ذات الابراج الكبيرة المبنية من كتل الملح (بليني ايضا) وقال انها امام / تيلوس/ وهي البحرين ومن البر كانت تبعد ٥٠ ميلا من منطقة / اتين/ ومن المحتمل ان تكون هي منطقة الاحساء .

والجرهانيون قبيلة عربية هاجرت من اواسط الجزيرة العربية فاقامت على الساحل (شاطىء الاحساء) وعندما وصلوا الى تلك المنطقة بنوا على الساحل مدينة جرها في مكان قريب من ميناء العقير الحالي وبعضهم يعتقد بانه ميناء العقير هو نفسه جرها وقد ذكر بعضهم بانها مدينة كلدانية ولكن اكثر سكانها من العرب ويمكن ان تكون بلدا عربيا فيها كلدانيون .

وكان اهل جرها يتاجرون مع جنوب الجزيرة العربية ارض البخور واعواد المر واللبان ولكن اريستوبولوس يذكر بان اهل جرها كانوا يتاجرون برا وبحرا وغالبا ما كانوا يحملون العطور وغيرها الى بابلونا وسلوقية بسفنهم البحرية الى اعالي دجلة او الفرات ثم ينقلون البضائع برا الى البحر الابيض المتوسط وسورية عن طريق الصالحية وفيما بعد مدينة تدمر وقد اثار هذا حسد السلوقيين وادى الى قيام انطونيو خوس الثالث بشن هجوم عليهم حوالي ٢٠٥ م ولكن اهل جرها استرضوا الملك بمقادير كبيرة من الفضة واللبان والمر . . وانهم سألوا الملك بان لا يقضي على ما اعطتهم الالهة من سلام وحرية خالدين .

ولم تقتصر تجارة الجرهانيين على جنوب الجزيرة العربية ولكن اريستوبولوس يذكر بان اهل جرها يتاجرون بحرا وبرا حاملين البضائع القادمة من عمان والهند وفارس الى جنوب اليمن والعكس بالعكس وكان طريق القوافل من جرها الى حضرموت يتطلب اربعة ايام مما يدل على ان الطريق بين المنطقتين كانت مأهولة .

كانت هذه التجارة الرابحة سبيلا لتدفق الاموال على السبئيين والجرهانيين وتكديس الاموال الطائلة . واصبحوا اغنى امم الارض ويمكن تشبيه هذه المدن التجارية بمدن البندقية وجنوا الايطاليتين اللتين في وقت ما سيطرتا على البحر الابيض

المتوسط . وكانت السلع المتبادلة تشمل على الذهب والفضة والملابس والتوابل والعقاقير والبهارات والمواد ذات الرائحة الجميلة .

عندما استوى البارثيون على الاقسام الشرقية من الامبراطورية السلوقية كان الرومان يجهزون شيئا فشيئا على الاقسام الغربية منها وتصادمت القوتان على ساحل الفرات وبعد صراع طويل اعترف بنهر الفرات ـ كما ذكرنا سابقا ـ كحد فاصل بين اوروبا الرومانية وآسيا البارثية وابتدأ السلام وعادت معه الحياة الى التجارة. ولكن البارثيون لم تكن لديهم الرغبة في التجارة البحرية لذلك شجعوا التجارة البرية التي تمتد عبر ملكهم الى الهند والصين ، ولم يساعدوا تجار اليونان والرومان على فتح الطريق البحري وجمعوا من احتكار التجارة البرية اموالا طائلة ومع ذلك فكان هناك اتصال طبيعي ودائم مع الخليج العربي والمدن التجارية التي كانت هنالك وكانت تقوم بدور الوساطة بين الرومان وتجارة الهند وغيرها وكان العرب يشكلون في هذه الوساطة دورا مهما ، ومن اهم المدن الوسيطة خاراكس التي كان اسمها الاسكندرية باسم بانيها وقد اعاد بناءها احد الملوك السلوقيين ثم اعيد بناؤ ها من قبل ملك عربي (وهو ملك العرب المجاورين) واسمه سباستينو خاراكس وعلى هذا الاساس اصبح اسمها خاراكس وتقع مكان مدينة المحمرة والتي اعاد تسميتهاالايرانيون باسم جديد هو(خورم شهر) . ومدينة ثانية ظهرت ايضا وكانت قريبة من خاراكس وسميت ابولو جوس (الابلة) وقد وصفها مؤ لف كتاب البيريبلوس (او الطواف حول البحر الارتري) بانها مدينة من الاسواق في بارثيا (فارس) ووصف صادراتها الى اليمن التي تحوي على اللؤلؤ والارجوان والتمر والبلح والذهب والعبيد حوالي ٥٠ ـ ٦٢ م وهذا يدل على انها كانت على اتصال مع افريقيا الشرقية . وكان اتصال هاتين المدينتين مع مدينة تدمر في الصحراء السورية والتي تقع على متلقى الطرق التي تمر عبر الصحراء ، وقد افسحت التغيرات على الطرق التجارية الرئيسية المجال لهذه المدينة لتنمو وتزدهر بعيدا عن غزوات الرومان وفرسان البارثيين ، ولم يمض وقت طويل حتى صارت من اكبر المراكز التجارية التي تربط البحر الابيض المتوسط بالخليج العربي وبخاصة في زمن مليكها اذينة وزوجته الزباء ، ولكن الرومان خافوا من زيادة قوة هذه المدينة فهاجموها واستطاعوا التغلب على ملكتها زنوبيا (الزباء) بعد مقاومة عنيفة ونقلوها الى روما اسيرة . ويبدو انه كان بين الدولتين الرومانية والبارثية اتفاق ضمني على الحفاظ على النظام التجاري وحماية

الطرق التجارية لم يحاول الرومان تغييره الا في فترة واحدة عندما حاول الامبراطور (تراجان) الوصول الى الخليج العربية .

كانت الرحلات البحرية نحو الشرق تبدأ من مينائي الابلة وخاراكس ، من هذه الرحلات ما كان يتجه نحو الطواف حول الجزيرة العربية ليصل الى عدن والبحر الاحمر وافريقيا ومنها ما كان يتجه نحو الهند وقد لعبت المدن العمانية وجزر البحرين (دلمون) دورا رئيسيا في تسهيل الحركة التجارية مما ساعد على ازدهارها الذي كان مرتبطا بسوء الاحوال على الطرق البرية خلال الغزات التي كانت تتعرض لها بلاد ما بين النهرين ، وقد نجح الساسانيون خلال حكمهم الطويل من توحيد مناطق الخليج فقد ذكر المؤ رخ اللاتيني (اميانوس ماركلينوس) الذي عاش في اواخر ذلك العصر بان الخليج كان يعج بالملاحة في ذلك الوقت . كما ازدادت اهمية الخليج خلال الحروب الفارسية ـ الرومانية التي سببت تحول الطرق التجارية البرية الى البحر . وفي خلال هذه الفترة كان التفوق للبحر الاحمر على الخليج ومن المحتمل ان يكون احتلال الفرس لليمن جاء في محاولة لقطع طريق البحر الاحمر على التجارة الرومانية ـ اليونانية وايقاف المد الحبشي بعد محاولاتهم للاشتراك في الحرب بجانب الرومان . وقد ضعفت علاقات الرومان واليونان في هذه المرحلة بالديار الهندية وتوجهوا نحو افريقيا بعد اكتشافهم لاسرار الرياح الموسمية مما ادى الى انحسار التجارة العربية البحرية ، وقد حاول الرومان دفع الاحباش للتجارة مع الهند خاصة تجارة الحرير الذي كان يجلب من الهند وسيلان (سرنديب) ولكنهم فشلوا فشلا ذريعا لوجود عدد كبير من التجار العرب والفرس يحتكرون التجارة والنقل على هذا الطريق بالاضافة الى الهنود والصوماليين وحتى من اليونان ، وعندما وصل المسلمون الى شرق الجزيرة العربية وجدوا اناسا من كل الاجناس والعقائد في تلك المنطقة مسيحيين ـ مجوس ـ يهود ـ بدو ـ عرب وثنيين ـ نساطرة ـ ويعقوبيين وكان الحاكم المحلي للمنطقة عربيا مسيحيا اسمه (منذر بن سامرا) .

لا يمكن ف يالواقع تجزئة تاريخ التجارة وطرقها في هذه المنطقة فهو تاريخ طويل ابتدأ مع ركوب الانسان البحر ، والتجار عادة ـ ولا يزالون ـ لا يهتمون كثيرا بالمنازعات المحلية ولا حتى بالمنازعات الخارجية وكانوا يعرفون السبل الكفيلة لحماية تجارتهم واستمرارها . وقد لعب التجار العرب في كل العصور خاصة من سكان

الخليج وجنوب اليمن وعمان وحضرموت دورا رئيسيا في التجارة العالمية ووصلوا الى الهند واندونيسيا وتوغلوا في غابات افريقيا وازداد تأثيرهم بعد ظهور الاسلام فحملوا رايته ونشروه في تلك المناطق التي تشمل المنطقة البحرية الواسعة من سواحل افريقيا الشرقية الى جزر الفيليبين وجنوب بلاد الصين . . ومنـذ وصـول الاسـلام عادت الصدارة للطريق التجاري من الخليج الى الهند وبالرغم من ان اهمية البحر الاحمر لم تنخفض في تلك الفترة فالدولة العربية وحدت المنطقة من الهند الى بحر الظلمات وتحققت احلام التجار في نقل البضائع ما بين الشرق والغرب وبالعـكس بحـرية وامان مثاليين .

الباب الثاني

العهود الذهبية والسيطرة البحرية العربية

الخليج العربي وما حوله في العهود العربية ـ الاسلامية حتى وصول الاوروبيين

ـ الفصل الاول : من الفتح العربي حتى نهاية الدولة الاموية .
ـ الفصل الثاني : الخليج العربي في زمن العباسيين حتى سقوط بغداد .
ـ الفصل الثالث : الخليج العربي منذ سقوط بغداد حتى وصول الاوروبيين .

الفصل الأول

من الفتح حتى نهاية الدولة الأموية

ـ الأوضاع العامة في المنطقة عند ظهور الاسلام ـ الفتح العربي الاسلامي وسقوط الامبراطورية الساسانية ـ فتح بلاد السند ـ الوضع العام في العهد الأموي واثر الفتوحات العربية ـ العرب والبحر ـ الطرق التجارية ـ اهمية الخليج

الفصل الأول

من الفتح العربي حتى نهاية الدولة الاموية

عندما ظهر الاسلام وابتدأ الرسول الأعظم ببث دعوته الخالدة كان العالم القديم مقسماً تقريباً بين الامبراطوريتين (الرومانية ـ البيزنطية) والساسانية الفارسية وكان لكلاهما حدود وعلاقات مع جزيرة العرب وشعبها . لذلك كان للحروب التي كانت تنشب بين الدولتين اثارها البعيدة والعميقة في الجزيرة العربية ، فلم تكن هناك دولة عربية بل كانت القبائل التي تعيش بقرب حدود الدولتين تتأثران بهما حتى اتى الاسلام فوحدهما ووجهها الوجهة الصحيحة .

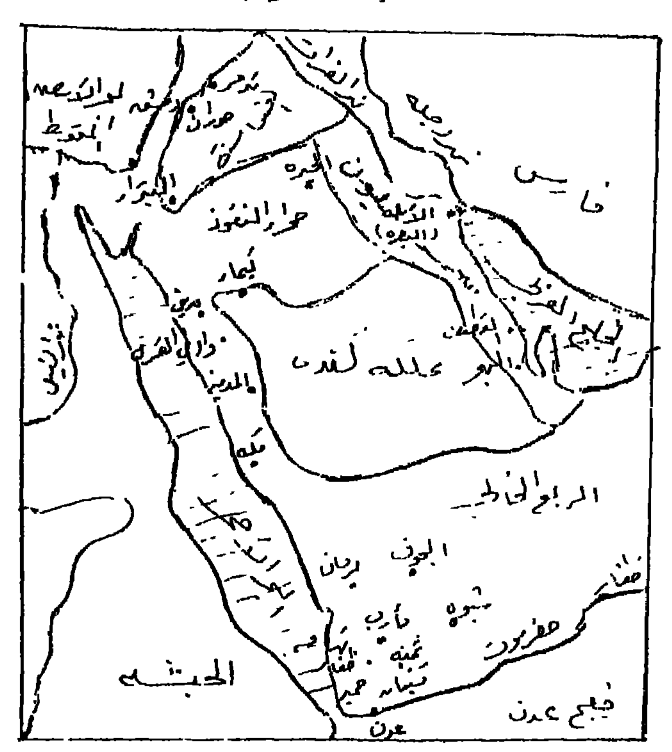
كانت الامبراطورية (الرومانية ـ البيزنطية) تحتل مصر وسورية والأناضول وكثيرا ما كان نفوذها يمتد الى شمال افريقيا في حين كانت الامبراطورية الرومانية ـ اللاتينية في روما تسيطر على حوض البحر الأبيض الغربي وقد حدث الانقسام في الامبراطورية الرومانية في زمن الامبراطور قسطنطين الأول الذي اعلن انفصاله عن روما واعتنق الديانة المسيحية وحكم ما بين ٣٢٤ ـ ٣٣٧ م وبنى مدينة القسطنطينية وكان الرومان الشرقيون يتخذون اللغة الاغريقية كلغة رسمية وتركوا اللغة اللاتينية التي كانت اللغة الرسمية للامبراطورية الرومانية السابقة . وكان هؤلاء اقرب للشرق منهم للغرب لذلك انصبت اهتماماتهم نحو الشرق وحضارته الهيلنستية وتقاليدها المحلية القديمة .

أما الامبراطورية الساسانية فكانت تمتد ما بين الهند ونهر الفرات ووصل نفوذها الى اليمن وكانت عاصمتها مدينة تيسفون (المدائن) الواقعة على نهر دجلة وقد تميزت سلالتها الحاكمة بالقوة والحماس فاق معه حماس البارثيين الأشداء من حيث الروح الوطنية والنشاط السياسي والروح العسكرية . وكانت تدين بالزرداشتية ، وقد ازدهرت البلاد في عهد الساسانيين وانتعشت واستعادت نشاطها الاقتصادي وحيويتها .

كانت الامبراطوريتان تحيطان بالجزيرة العربية من الشمال والشرق باطار يمتد من البحر الأحمر الى الخليج العربي وهذا ما جعلها في احتكاك دائم ومباشر مع شعب الجزيرة العربية وقبائله الذي كان يتحدى الامبراطوريتان ويسبب لهما التعب

الممالك العربية

القديمة في الجزيرة العربية



والازعاج بسبب مهاجمته للحدود لذلك شجع كلاً من الامبراطوريتين القبائل القريبة للانضمام اليها واقامة دويلات مرتبطة بها لتكون حاجزا يقف بين عرب البادية وسكان الشام والعراق بما يعرف حاليا بالدول العازلة . وكانت دولة اللخميين أول الدول العربية التي ظهرت بعد سقوط تدمر بيد الرومان (٢٧٣ م) . وكان التدمريون والنبطيون يسيطرون على المناطق الشمالية من شبه الجزيرة العربية وكانت سلطتهم تمتد الى وسط البلاد ايضاً وكانوا أغنياء بسبب سيطرتهم على الطرق التجارية التي كانت مصدر ثروتهم . وقد أزيلت دولة النبطيين على يد الرومان واصبحت بلادهم مقاطعة رومانية تحمي مصر من الغزو البري ، وقد ادى سقوط تدمر بعد ذلك الى تغييرات جذرية ، في سياسة كل من الفرس والرومان على حد سواء في الصحراء السورية . وقد شجعت فارس اللخميين الذين كانوا يقطنون حوران والأردن الحالية في القرن الرابع على دخول العراق ومن المحتمل ان يكونوا قد اتفقوا مع ملوك الفرس لاحلالهم محل القبائل التنوخية التي كانت تعيش على الحدود الصحراوية لما بين النهرين . وقد وجد الفرس ان توطين هؤ لاء يجعلهم يتقون خطر الهجمات البدوية ، وعلى هذا الأساس ظهرت دولة اللخميين في الصحراء الجنوبية لما بين النهرين في القرن الرابع الميلادي ، وقد اعترف بدولتهم الروم والفرس على حد سواء واتخذ اميرهم لقب ملك الملوك وامتد حكمهم الى جنوب الجزيرة العربية . وعلى مر السنين اصبح للخميين تأثير كبير على سياسة فارس وبلاطها وكان يؤ خذ رأيهم في انتخاب المرشح على العرش . وكان بلاطهم يعج بالشعراء والعلماء والتجار . وقد اشترك اللخميون في بداية القرن الرابع في الحرب ضد الفرس وانحازوا للامبراطوري الروماني جوليان عام ٣٦٣ وكان لا يزال وثنياً . واللخميون هم اول من استخدم اللغة العربية كلغة رسمية وكتبوها بأحرف نبطية ومنها انتشرت الكتابة في حين كان التدمريون والنبطيون يعتبرون اللغة الآرامية لغتهم الخاصة . ولما اختلف اللخميون مع الرومان اجلوهم هؤ لاء عن سورية واستقدموا قبيلة (قضاعة) التي كانت عبارة عن اتحاد كبير للقبائل في الصحراء السورية شمال وشرق الجزيرة العربية واصلهم من اليمن . اما في غرب الجزيرة فكانت تنتشر مجموعات قبائل الأزد وتتحكم في المنطقة حول مدينة يثرب (المدينة المنورة) وفي القرن الخامس اصبح (قصي بن كلاب) جد النبي اميراً على مكة ، ومن المحتمل ان تكون له علاقات قوية ودعم من قبل اللخميين . وبمساعدة قضاعة والبيزنطيين

اصبحت قريش جميعها تحت حكمه وسيطر على الطرق التجارية التي اخذت تزدهر في القرن السابع خاصة عندما اصيبت تجارة الشمال بالحرب المستديمة بين الروم والفرس . وكانت الحياة الدينية مركزة حول الكعبة التي رفع بناءها ابراهيم ومن بعده ابنه إسماعيل وكان يفد اليها الحجاج من كل انحاء الجزيرة العربية . وهنا في مكة ظهر النبي العربي العظيم وكان مولده عام ٥٧٠ م وفي عام (٦١٢) ابتدأ بتلقي الرسالة ثم هاجرت اول جماعة اسلامية الى المدينة لتصبح عاصمة الامبراطورية العربية .

بعد قضاعة جاء الغساسنة في نهاية القرن الخامس وهم من الأزد وقد نزحوا شمالاً من غرب الجزيرة وقد تعاون هؤلاء مع قبائل كندة ضد اللخميين ، وعندما قضى اللخميون على كندة عام ٥٢٨ م قام الملك الغساني (الحارث بن جبله) وهاجم الملك المنذر اللخمي وانتصر عليه ، لذلك اعترفت بيزنطة بمملكته وكانت بصرى عاصمة الغساسنة التي كانت تهيمن على كل الصحراء السورية حتى ضواحي يثرب وكثيراً ما كانوا يتداخلون في سياسات المدن التجارية كمكة والمدينة وكانت صلاتهم قوية بها . وكانوا يعتبرون اللغة العربية لغتهم الرسمية ، ثم اعتنقوا الديانة المسيحية وعمد احدهم وهو الحارث الغساني بطريركا من قبل الامبراطور (جوستنيان) ولعبوا دوراً كبيراً في الحروب الأهلية بين الكنائس الدينية ، وقد امتدحهم كثيراً شاعر الرسول حسان بن ثابت الذي كان يزورهم في الجاهلية .

وحوالي نهاية القرن السادس تجزأت دولة الغساسنة الى اجزاء صغيرة قسم منها اصبح تحت حكم الفرس في حين خرج! اللخميون عن طاعة الفرس بسبب اعتناقهم للديانة المسيحية . وقد لحق اخر الغساسنة بالاسلام وهو جبلة بن الأيهم ولكنه بعد ذلك ارتد ولحق بيزنطة وهناك توفي .

وعندما ازدادت الحرب ضراوة بين الفرس والرومان اصابت كلا من اللخميين والغساسنة . وكان المفروض ان يغتنم هؤلاء مثل هذه الفرصة ليوحدوا صفوفهم ويشكلوا دولة قوية ترفع عنها نير السيطرة الأجنبية وقد انتهى امر هاتين الامارتين بوصول الاسلام .

في وسط الجزيرة العربية كان هناك تجمع قبلي كبير . ظهر في القرن الرابع الميلادي ويعرف باسم دولة كندة وكان لها علاقات مع كل من الفرس والرومان وكان

لها ايضا علاقات مع الحميريين وتقول الرواية ان الهجر وهو عامل للحميريين في منطقة قريبة من مدينة الرياض الحالية زوج ابنه من ابنة أخ ملك الحميريين في اليمن وعندما توفي الأب ورث الحفيد المملكة بعد جده واضاف الى دولته اراضي جديدة حتى امتدت مملكته بين البحر الأحمر والخليج . وكانت (كندة) دولة بدوية تعتمد على دخلها من حماية تجارة الترانزيت بين اليمن وشمال الجزيرة وبلاد ما بين النهرين لذلك اقامت القلاع والحصون على طول الطريق لحماية القوافل ويعتقد ان عاصمة كندة هي مدينة (الفاو) التي اكتشفت اثارها حديثا في وسط الجزيرة (وكانت تقع على نهر جار اما الآن فتقع على نهر من الرمال) .

اما في الجنوب فقد كان الوضع مختلفا بسبب العلاقات القوية بين الأحباش والرومان . وكان الأحباش قد اعتنقوا الديانة المسيحية (الكنيسة الأرثوذوكسية) . ومنذ عهد الامبراطور الروماني (اوكتافيوس) كانت هناك علاقات بين الطرفين عندما حاول الرومان السيطرة على الطرق التجارية البحرية في البحر الأحمر بعد كارثة الحملة الرومانية التي قادها (ايليوس غالوس) ٢٥ ق م للوصول الى اليمن والسيطرة على تجارة التوابل والبخور والذهب وفي عام ٥٢٥ ، اجتاز الأحباش البحر واحتلوا اليمن وبعد ان ثبتوا حكمهم هناك اتجهوا نحو الشمال تدفعهم غايات عدة كالسيطرة على الطرق التجارية والاتصال مع الرومان لمساعدتهم ضد الفرس ونشر الديانة المسيحية والقضاء على عبادة الأوثان التي كانت منتشرة في مكة والمدينة . وقد وصل الأحباش بقيادة ابرهة الأشرم الى ابواب مكة حوالي عام ٥٧٠ م ومعهم الفيلة ولذلك سمي هذا العام بعام الفيل وهو عام مولد الرسول الأعظم وقد قضي على الحملة في الحادثة المعروفة بالقرآن وعاد ابرهة الى اليمن بعد فقد جيشه وهناك توفي ثم تعاون اليمنيون مع الفرس وأخرجوا الأحباش من بلادهم عام ٥٧٥ م .

اما دولة كندة فقد استغلت الحروب بين البيزنطيين والرومان واخذت في التوسع واستطاع الحارث الكندي اخراج اللخميين من الحيرة وتوحيد الجزيرة العربية ولكن الأوضاع القلقة في الجزيرة اضعفت كندة فقد توقف مرور القوافل بسبب الحروب الفارسية - الرومانية والحملة الحبشية - ولم يعد بامكان ملوك كندة من السيطرة على قبائلهم بعد ان فقدوا الدعم المالي لذلك اغتنم اللخميون الفرصة

واستطاعوا قتل الحارث الكندي عام ٥٢٩ م والقضاء على كندة وتفرقت قبائلها ، وقد حاول ابنه امرؤ القيس اعادة الاتحاد القبلي فلم يستطع وقد سجل قصتـه في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

سما لك شوق بعدمـا كان اقصرا وحلـت سليمـى بطـن قو فعرعرا

وقد ساعد الفرس المنذر بن ماء السماء على القضاء على كندة مما جعل امرؤ القيس يحاول الاتصال بالرومان ويطلب منهم المساعدة ولكن الحروب كانـت قد هدأت بين الطرفين وتوفي امرؤ القيس في بلاد الروم وهو ينتظر مساعدة الروم وتعتبر مملكة كندة اول دولة عربية ظهرت في الجزيرة العربية التي لم يكن لها اتصال مع القوى الخارجية وبقيت ذكرى في مخيلة الرواة والمؤ رخين .

في عام (٣٠٩ م) تولى سابور الثاني (شاهبور) الحكم وكان صغيراً فاختلت شؤ ون المملكة واضطربت احوالها الداخلية وظهـرت فيهـا الثـورات . وفي هذه الأثناء عبرت القبائل العربية الخليج العربي وفرضت سيطرتها على المنطقة وتوطنت في منطقة ميسان وخوزستان في الوقت الذي كانت فيه قبيلة اياد تغـير على مناطـق السواد في العراق وادى هذا الى الحرب بين العرب والفرس وذلك عندمـا استلـم شاهبور الحكم وقد حارب المذكور العرب حربـاً قذرة حيث كان يهاجـم القبائـل العربية ويفتك بها فتكا ذريعاً وكان ينزع اكتاف الرؤ ساء العرب الذين كان يظفر بهم لذلك سمي (ذا الأكتاف) ثم اصدر امراً بعدم دخول العرب الى عاصمته بدون اذنه ومن خالف ذلك كان يفتك به ثم اجلى قبيلة اياد واستولى على مدينة (الحضر) عاصمة دولة الضجاعم (من قضاعة) . ولكن القبائل العربية لم تقف بدون حراك وظلت تهدد الوجود الفارسي في العراق عندما حاول (ابرويز) التقدم داخل الجزيرة العربية اصطدم بالقبائل العربية في موقعة (ذي قار) التي هزم فيها الفرس لأول مرة امام القبائل العربية ومنذ ذلك الوقت لم يهزم العرب مطلقا امـام الفـرس بل على العكس هزموهم في القادسية ونهاوند . . . الخ بعد نشوء الدولـة العـربية في ظل الاسلام ، ولم تكتف الجويش العربية بهزيمة الفرس بل هزمت جيوش الـروم في اليرموك واستعادت سوريا .

بعد معركتي القادسية (٦٣٦ - ٦٣٧ م) واليرموك تقرر مصير المنطقة وابتدأت مرحلة جديدة في تاريخها كما قررت معركة نهاوند (٦٤٢ م) التي يطلق عليها العرب

(فتح الفتوح) في واقع الأمر مصير المنطقة الشاسعة الممتدة من العراق الى اسوار الصين وقلبت تاريخها وحياتها وفتحت فيها صفحة مشرقة من الحضارة العربية ـ الاسلامية ونشرت لواء الاسلام فانحسرت عنها الديانات القديمة كالزرادشتية والبرهمية والبوذية وانقلبت شعوب المنطقة من شعوب ناصبت الاسلام العداء مدة طويلة الى شعوب حملت باخلاص لواء الاسلام واصبحت الرابطة الدينية متينة بين شعوب المنطقة التي دخل عليها العنصر العربي بدمائه الشابة والحارة فهز الشعوب القديمة واعاد لها شبابها وادى الى ظهور الثقافة العربية الاسلامية التي انتجت عبر العصور حضارة عالية بفضل مفكريها وفلاسفتها وعلمائها ومصلحيها وظلت قرونا طويلة تزيد في عمق المعرفة الانسانية وادت الى مسيرة الحضارة العالمية افضل الخدمات .

وبالرغم مما يقال عن ضعف الدولتين الكبيرتين الفارسية والرومانية بعد الحروب المتواصلة بينهما والذي ساعد العرب على الانتصار عليهما الا ان هناك عوامل كثيرة ادت الى هذه الانتصارات العربية الرائعة التي لم يشهد العالم مثلها . فقوة الصدمة والسرعة التي كان يتم فيها تحريك الجيش والقيادة العبقرية كان لها الفضل الأكبر في جعل كل هذه المعارك حاسمة لم تترك للخصم اية فرصة للعودة للقتال . وكانت المعنويات العالية التي كانت الجيوش العربية تتمتع بها واعتمادهم على اساليب جديدة في الحروب وهي حروب الحركة سبباً رئيسياً في النصر ، فقد مكن استخدامهم للمزدوج الحصان والجمل السرعة في التنقل ، فالجمل كان للأحمال الثقيلة والسير المديد وكان الحصان للمعركة الخاطفة بالاضافة الى استخدام (الركابة) التي جهزت بها سروج الخيل ، وكان العرب اول من استخدمها مما جعل فرسانهم اثبت على البقاء على صهوة الجواد من غيرهم الذين كانوا يقعون لأول صدمة . ولا شك ان الدين الجديد قوي في انفسهم ارادة القتال وجعلهم يسخرون من الموت ويحتقرون الحياة للفوز بالنعيم ، وقد عبر شاعر عربي في بيتين من الشعر كيف تم دحر الامبراطوريتين الكبيرتين بقوله :

وانـي من النفـر الـذين جيادهم　　طلعـت على كسرى بريح صرصر
فسلبـن تاج الملك طعنـاً بالقنى　　واجتـزن باب الـدرب لأبـن الاصفر

في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تم فتح القسم الأكبر من فارس ولم يتقدم المسلمون اكثر من ذلك حتى حدود مكران ، فالخليفة العظيم كان يخاف على المسلمين من اندفاعهم في ارض فارس وكان يقول (ليت بيننا وبين فارس جبل من نار) . وفي زمن الخليفة عثمان وصلت الفتوحات الاسلامية الى مدينة (كابول) في الأفغان ولكنها ارتدت عنها عدة مرات ، وفي زمن الخليفة معاوية وخلفائه استطاع القادة المسلمون العظام كقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم ، وجنيد البري ، وعمر بن محمد القاسم وغيرهم من الأبطال مواصلة الفتح ونشروا الاسلام في خراسان وما وراء النهر ودخلوا حدود الصين .

لقد وقع الخليج العربي ضمن الممتلكات العربية الاسلامية واستخدمت سواحله للقضاء على القرصان طيلة حكم الدولة الأموية ، ولم يركبوا البحر اما في البر فقد وصلوا في بادىء الأمر الى مكران كما رأينا واكتفوا بذلك ولكن الحجاج ولسبب ما بدأ يرسل البعوث لاحتلال المنطقة جميعها ، وتقول الرواية ان سبب ذلك هو ان عرب قبيلة (العلافين) قتلوا عام ٧٠٣ م والي مكران (سعيد بن سلم الكلابي) وفروا ملتجئين الى امير السند . فأسند الحجاج الولاية لمحمد بن هارون وطالبه بمعاقبة القتلة فتعقبهم مدة خمس سنوات وتوصل الى القضاء عليهم دون اظهار العداء لأمير السند ، ولكن حدث ان اعتدى أحد القراصنة على سفينة للمسلمين آتية من سيلان وهي في طريقها للعراق فسلبوها ما تحمل من الحرير فكتب الحجاج لأمير السند يطلب منه معاقبة المجرمين والتعويض على اصحاب السفن وقد اعتذر هذا بحجة ان لا سلطة له على القرصان ، ولذلك استأذن الحجاج الخليفة عبد الملك بن مروان في فتح السند فأذن له . وعهد الحجاج الى عبد الله بن نبهان بهذه المهمة فلم يوفق فعزله وولى مكانه (بديل البجلي) الذي قتل في معركة مع اهل السند ثم عهد بالمهمة الى ابن اخيه الفتى محمد بن القاسم الثقفي الذي كان في السابعة عشرة من عمره فنهض بالمهمة بعزيمة الشباب وحكمة الشيوخ ويقال انه درس لفترة طويلة كافة الأساليب التي تساعده على النصر وخاصة مشكلة حفظ المياة ، وقد استولى محمد بن القاسم على السند واتجه شمالاً حتى وصل الى حدود كشمير بعد ثلاث سنوات من القتال ، وقد تضاءلت امام اعماله الحربية والسياسية عظمة الأسكندر وفتوحاته في تلك البلاد .

سيرة الفتوحات العربية في فجر الإسلام
ما بين القرنين السابع والثامن بعد الميلاد

الفرنك
الخزر
الأندلس
المغرب
افريقيا البربر
فزان
مصر
البحر الأبيض المتوسط
البحر الأسود
الحبشة
البحر العربي
المقياس
سمرقند
خراسان
البنجاب
فارس
ملتان
السند
مكران
عمان
اليمامة
مكة

مصور أ الحدود الشمالية للامبراطورية العربية الإسلامية

حتى ذلك الوقت وطيلة فترة الحكم الأموي لم يكن هناك اهتمام كبير بالطرق التجارية واستخدام البحر بصورة خاصة في المناطق الجنوبية وفي الخليج وكان النشاط البحري منصرفا الى البحر الأبيض المتوسط بسبب الحرب الدائمة بين العرب والروم ويعزو بعض المؤرخين الى الخوف من البحر في عدم استخدام العرب له وكان الخليفة الفاروق لا يحب ركوب البحر ولم يكن ليسمح لقادته بركوبها ، وربما كان الخوف من البحر مقتصراً على سكان المناطق الوسطى والقريبة من الجزيرة العربية حيث ظهر الاسلام بسبب عدم حاجتهم لاستخدامه وبعدهم عنه وكانت الطرق البرية تؤمن لهم حاجاتهم ولم تكن بلادهم ذات شجر ليبنوا المراكب ويعتادوا ركوب البحر ومع ذلك فقد اجتازوا في زمن الرسول البحر والتجأوا الى الحبشة اما سكان السواحل العربية في الجنوب والخليج فكانوا يعرفون البحر واسراره ويركبونه كما كانوا يركبون الجمال ، وعندما هاجم الحجاج عمان للقضاء على الحركة الأباضية واجتاز جبال عمان ووصل الشاطىء لم يجد امامه احداً منهم لأنهم ركبوا البحر الى افريقيا ولم يكونوا يستطيعون القيام بهذا العمل الدرامي بدون ان تكون لهم دراية ومعرفة سابقة او ان يكون لديهم المراكب الكافية والقوية لوصولهم .

وعلى العموم فبعد هدوء الأحوال واستقرار الفتح العربي بدأت الطرق التجارية من بحرية وبرية تعود الى سيرتها الأولى من الازدهار وابتدأت الرحلات للهند والصين وشرق افريقيا يقوم بها العرب والفرس المستعربون وغيرهم من شعوب المنطقة .

الفصل الثاني

الخليج العربي في زمن العباسيين حتى سقوط بغداد

- الفتوحات العربية واثرها على الطرق التجارية
- الملاحة العربية في زمن العباسيين واثرها على بناء بغداد
- الطرق البحرية بين الخليج والشرق الاقصى وشرق افريقيا
- التطور السياسي في الدول العباسية ـ الخلفاء الاوائل ـ هارون الرشيد ، الخلاف بين الامين والمأمون واثره على العرب ـ المعتصم والاتراك .
- تجزئة الامبراطورية ـ ثورة الزنج ـ ثورة القرامطة واثر ذلك على ضعف الدولة العباسية ـ دولة بني بوية والسلاجقة ـ عودة السلطة للخلفاء ـ الخليفة الناصر ـ الخليفة المستعصم وسقوط بغداد واثره على الامة العربية .



الفصل الثاني

الخليج العربي في زمن العباسيين حتى سقوط بغداد

تركت الفتوحات العربية آثارا ونتائج متعددة في طرق التجارة البحرية والبرية على حد سواء فقد امتدت المناطق التي يسيطر عليها المسلمون من نهر الهندوس واسوار الصين حتى اسبانيا وجبال البيرنة واصبحت هذه الرقعة الواسعة امبراطورية واحدة لم يسبق لاية امبراطورية ان وصلت لمثل اتساعها ، وكان امتدادها الاكبر باتجاه الشرق والغرب ولكنها وقفت في الشمال على حدود البحر الابيض المتوسط وجبال طوروس ، ورغم محاولات خلفاء بني امية للامتداد شمالا واحتلال القسطنطينية الا انهم فشلوا رغم الانتصارات البحرية التي حققوها خاصة في معركة ذات الصواري المشهورة التي حصرت النشاط البيزنطي البحري في بحر ايجه فقط . لذلك اصبح البحر الابيض المتوسط حدا فاصلا بين العرب والروم وتحطمت وحدته التي كانت تضم الشواطىء الاوروبية والاسيوية والافريقية في زمن الرومان ، واصبح ميدان حرب وليس منطقة سلام ، وامن ، ومثل هذا الوضع لا يساعد على الحركة التجارية المنظمة .

في الوقت ذاته توحد الخليج العربي والبحر الاحمر واصبحا منطقة سلام بعد ان كانا يخضعا لدول مختلفة . وبعد ان وصلت الجيوش العربية للهند تم توحيد سواحل الخليج العربي والمنطقة جميعها تحت ظل دولة واحدة ، بعد ان فقدت وحدتها منذ موت الاسكندر الكبير المقدوني وقد حلت الدولة العربية الجديدة محل كل من الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية . ولم يعد هناك تنافس بين الطريقين الرئيسيين للتجارة العالمية في ذلك الوقت ، وعلى العكس اصبح الربط بينهما اساس التجارة العربية ، يضاف الى ذلك سيطرة العرب على الطرق التجارية البرية داخل الجزيرة العربية وكذلك على الطرق في ما وراء جبال زاغروس ، وبهذا نجح العرب في احلال الوحدةوالسلام على مختلف الطرق التجارية بين الشرق والغرب والتي عجزت عن تأمينها الامبراطوريات السابقة . وعلى هذا الاساس فتحت امامهم كل المجالات للقيام بالعملياتالتجارية البرية والبحرية ، فاستغلوها بحماس ونشاط لان التجارة احدى المجالات التي يحبها العربي والروح التجارية

تسري في دمائه منذ الازل . لذلك نشط العرب في كل اتجاه وتناول نشاطهم الحروب والرحلات ، وكذلك كتب الرحلات والجغرافيا والتاريخ . وقد سهل الامر على العرب الفاتحين وجود القبائل العربية التي تقطن في اعالي الخليج وما يعرف حاليا (بعربستان) حيث وصلت هذه القبائل الى هناك قبل الأسلام (حوالي ٦٤١ م) وجاء هؤ لاء من الفرات ونجد ومن سواحل الخليج الاخرى ، وقد ظلت هذه القبائل التي تنتمي الى ربيعة وطي وبني كعب . . الخ متمتعة بنوع من الاستقلال الذاتي تحت حكم شيوخها وامرائها خلال العهدين الاموي والعباسي . وقد عرف الخليج العربي عصرة الذهبي في العهود الاولى للخلافة العباسية ومما ساعد على ذلك انتقال الحكم من بلا دالشام الى العراق القريبة من الخليج وزاد في ذلك بناء مدينة بغداد التي حلت محل العواصم القديمة للامبراطوريات السابقة مثل سلوقية ، وبابل وطيسفون (المدائن) . وقد اهتم العباسيون بتطوير عاصمتهم وتطوير المواصلات بينها وبين مختلف الامصار وتناول ذلك الطرق النهرية والبحرية بخاصة الملاحة في نهري دجله والفرات والأنهار الاخرى لكي يتم الاتصال بين بغداد والبحر والعالم الخارجي . وقد ادى ذلك للاتجاه الكبير في تحويل النشاط التجاري نحو الخليج وانعكس ذلك على اسواق بغداد والبصرة وارتبط التجار في مناطق الخليج بوسط العراق المزدهر عن طريق البحر .

ومما لا شك فيه ان اختيار المكان الذي بنيت فيه مدينة بغداد قد درس من كافة النواحي العسكرية والاقتصادية والتجارية فبالاضافة الى سهولة الدفاع عنها تقع في منطقة زراعية خصبة وغنية تستطيع ان تؤ من لسكانها رغم ازدياد عددهم التموين والغذاء الكافيين ، وكان موقعها المتوسط في العراق وقربها من الصحراء وشمال سورية وانفتاحها على بلاد الفرس جعلها ملتقى الطرق التجارية القادمة من الحجاز ونجد والبحر الاحمر ومصر وسورية وفارس يضاف الى ذلك اتصالها بالبحر عن طريق النهر وبعدها عن البحر يمنع عنها هجمات وغارات القراصنة اذا حدثت . وقد وصف مكانها واهميته الخليفة ابو جعفر المنصور الذي بناها فقال « والا فجزيرة بين دجلة والفرات مشرعة للدنيا كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والابلة والاهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين ، وما يتصل بذلك فاليها ترقى وبها ترسي وكذلك ما يأتي من الموصل وديار بكر وربيعه واذربيجان وارمينيه مما يحمل في السفن

في دجله وما يأتي من ديار مضر والرقة والشام ، والثغور ومصر والمغرب ، وما يحمل في السفن في الفرات ، فيها تحط وتنزل ، ومدرجة اهل الجبل واصفهان وكور خراسان » .

ومهما يكن من صحة نسبة هذا القول للمنصور او غيره عن رواية اليعقوبي المؤرخ العربي الكبير ، فان الخليفة المنصور ذو العقلية الستراتيجية شرح بكلماته هذه اهمية المركز الذي تشغله عاصمته الجديدة من كافة النواحي التجارية والعسكرية والذي يؤهلها لتكون نواة هذه الامبراطورية الواسعة فمنها تبدأ الطرقات تحمل البضائع واليها تتجه القوافل من كافة انحاء العالم لمعرف آنذاك تحمل منتجاته وخراجه فهي بابل الحديثة التي فامت ما عداها من مدن وعواصم . واهم ما كان فيها هو شبكة الطرق النهرية التي تربطها بشمال العراق وسورية ، وبجنوبه والبحر عن طريق دجله والفرات ، والى داخل ايران عن طريق نهر قارون وغيره ، وتبذلالدول حاليا مجهودا كبيرا لربط داخل بلادها بالبحر عن طريق الاقنية والانهار لنقل البضائع مما يساعد على التخفيف من التكاليف خاصة للاحمال الثقيلة والاسعار الغالية كالفحم والحديد والفوسفات والبترول .

وقد طبق العباسيون نظام التجارة الحر لتسهيل التبادل التجاري بين مختلف البلاد التي كانت واقعة تحت سلطتهم ، وكان هذا النظام ذا تأثير كبير على بناء الحضارة العربية في العهد العباسي ونقطة انطلاق مهمة في مجال العلاقات التجارية والاقتصادية بينهم وبين مختلف انحاء العالم المعروف ، ويدل ايضا على تفهمهم لاهمية الخليج الملاحية واهمية التجارة في بناء عظمة الدول . وقداتاح هذا الانفتاح والاستقرار فرصا قوية وجديدة للناس تكشف قدراتهم الخلاقة وتطورهم الحضاري . وقد شبههم المؤرخ العربي المعروف الدكتور جورج فاضلو حوراني في مؤلف كتاب لعرب والملاحة في المحيط الهندي باهل اثينا القدماء بعد غارات الفرس عليهم او بشعوب اوروبا الغربية منذ النهضة وقد اظهر العرب طوال عدة قرون نشاطا غير مألوف في جميع ميادين الحياة » ، وقد سارت اللغة العربية مع البحارة في كل مكان واصبحت اللغة التجارية لذلك العصر كما هو الحال بالنسبة للغة الانجليزية ، وبالرغم من وجود عدد كبير من الفرس والهنود يعملون بالملاحة التجارية الا ان هؤلاء تعربوا لسانا بعد اعتناقهم للدين الاسلامي . ومع ذلك لا بد

من الاعتراف بدور الفرس في الحياة البحرية لتلك الفترة قبل ان يتغلب عليهم التجار العرب ويصبحوا سادة المحيط الهندي .

كان العالم الاسلامي في العهود الوسطى الاسلامية ذا اكتفاء اقتصادي ذاتي - لم تكن هناك سوى بعض المواد الثمينة تستورد من الخارج كالفرو الذي كان يجلب من سيبيريا والتوابل والطيب والمنتجات الاستوائية من المناطق الشرقية واما الأرقاء فكانوا يستقدمون من اسيا الوسطى . واما السود فكانوا يجلبون من افريقية . وكان الاقتصاد الاسلامي يتركز في العواصم الاسلامية كالقاهرة ودمشق وبغداد وقد اصبحت هذه المدن تغص بالسكان فكبرت مساحتها وعرفت منذ ذلك الوقت الازمة السكانية . وقدازدهرت الزراعة في وديان دجلة والفرات والنيل وفي مايعرف حاليا ببلاد الهلال الخصيب وكذلك في واحات شمال افريقيا . مما ساعد على نمو التجارة الداخلية والخارجية وقد اصاب الازدهار اكثر ما يكن سواد العراق . ومما يذكر ان المأمون استغرب من ادعاء فرعون الالوهية على اساس وجود نهر النيل «اليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي» ويقول المأمون «لعن الله فرعون فكيف لو رأى سواد العراق» وقد عم الرخاء وازدادت العلاقات والتبادل التجاري اتساعا حتى شمل مختلف انحاء العالم مما دعا الخليفة هارون الرشيد من ان يخاطب السحابة المارة التي لم تمطر «مطري اين تشائين فخراجك سيأتي لي» .

وقد رافق الاستقرار السياسي استقرار امني واصبح الخليج العربي واسطة الاتصال بين غرب آسيا وشرقيها وكذلك مع السواحل الافريقية ومنه كانت تنطلق المراكب الى الهند والصين والى كينيا والصومال وجزر القمر ومدغشقر تحمل صناعة العراق ومنتجاته الى تلك البلاد وتسورد منها صناعتها ومنتجاتها كما هو الحال الان . فناقلات البترول الضخمة تبدأ رحلتها من الخليج متوجهة نحو الشرق الاقصى واوروبا وامريكا ، وتتلاقى مع البواخر القادمة من مختلف انحاء العالم متجهة نحو الخليج تحمل المواد الغذائية والمواد المصنوعة والاليات والسيارات في حركة دائمة لا تفتر لا ليلا ولا نهارا . ومن المفارقات ان تحمل المراكب في تلك الايام جميعها تقريبا الشارات والاعلام العربية لتدل على هويتها العربية او نحتمي بهذه الاعلام اما الان فالموانىء العربية تستقبل مختلف البواخر التي تنتمي الى دول كثيرة وتحمل اعلام هذه الدول . ولكن اقلها البواخر التي تنتمي للبلاد العربية . وكان

التاجر العربي يحمل على مراكبه الخاصة تجارته متجها نحو البلاد البعيدة يحمل المنسوجات الغالية المصنوعة من القطن والصوف والحرير (الموسلين) نسبة للموصل والدامسكو نسبة الى دمشق والسجاجيد الصغيرة والمصنوعات المعدنية وخام الحديد والنحاس وسبائك الذهب والفضة ، وكان يبدأ رحلته من البصرة او الابلة ، في نهاية الخليج او من سيراف خارج الخليج وكان امامه طريقان للهند الاول في اعالي البحار ويبدأ من صحار او مسقط وهما ميناءان عمانيان وتتزود هذه المراكب بالماء والغذاء وربما بالبحارة ولتنقل معها الركاب والمسافرين الى الهند والصين وقد ركب في مثل هذه المراكب الرحالة « ابن بطوطة » ومن المراكب ما كان يسير مباشرة الى (كويلون) في جنوب شبه جزيرة ملايار وهذا الطريق الذي يصفه كتاب اخبار الصين والهند وكانت تسلكه المراكب التي تستطيع قطع الرحلة الطويلة الى الصين واما الطريق الثاني وهوالذي كان يسير على طول السواحل مارا بجزيرة قيس وهرمز ومدن مكران والديبل والمنصورة وغيرها من موانىء السند وكانت هذه الطرق محفوفة بالاخطار بسبب القراصنة . وعندما كانت السفن تتخطى السند تكون قد غادرت المياه الاسلامية وتمر بجزيرة سيلان (سرنديب) والجزر الاندونيسية ويمكن ان تدوم مثل هذه الرحلات السنتين وعند العودة كان البحارة والملاحون يقصون على ذويهم واصحابهم القصص الخيالية وعما رأوه من العجائب الحقيقية او الكاذبة وقد اوحت هذه لكتاب في ذلك الزمن لينسجوا في كتبهم قصصا وحودث كما هو الحال بالنسبة لكتاب عجائب الهند والتي حورت وانتجت قصة رحلات السندباد المعروفة وكانت السفن تحمل في عودتها المنسوجات الحريرية خاصة والتوابل والكافور والمسك والبخور . . الخ . . وتتبع نفس الطريق الذي قدمت منه وكانت مدينة كانتتون في الصين اول ميناء للوصول للشرق الاقصى .

اما الطريق الى شرق افريقيا فكان يتبع السواحل ويمر في موانىء عمان وحضرموت كالمكلا والشحر والشحير وعدن او الى سقطرى ومنها الى السواحل الصومالية وتنحدر جنوبا على طول الساحل الى زنجبار وسفالة في موزامبيق ومن المراكب ما كن يتجة من عمان مباشرة الى زنجبار متبعا في ذهابه وايابه الرياح الموسميه ـ وقد اقام العرب المحطات والمدن التجارية للتعامل مع السكن داخل افريقيا واهم هذه المدن مقدبشو ، وبراوه في الصومال ، وممباسا في كينيا وكذلك

ماليندي وكلوه وزنجبار في الجزيرة المسماة باسمها ثم دار السلام وقد اقاموا مراكز داخل القارة كمدينة تابوره في وسط تنزانيا على الطريق بين بحيرة فكتوريا والساحل ولا يزال الطابع العربي ظاهرا على هذه المدن وفي طريق العودة كانوا يحملون معهم الرقيق الاسود والعاج والعنبر والريش والمنتجات الاستوائية ، ولا يعرف في اي وقت وصل العرب للشرق الافريقي فسكان جزرالقمر وصلوااليها قبل الاسلام كما وصل المنطقة قسم من سكان عام عام ٦٩ هـ هربا من الحجاج ويقال ان قسما من سكان شيراز وسيراف وصلوا في القرنين التاسع والعاشر ولا يزال احفادهم يعرفون بالشيرازيين وهناك رواية عن وصول الحسن البصري واولاده الاثني عشر الى الساحل الافريقي واستقر كل منهم في مدينة ولعبت هذه المدن دورا كبيرا في تنمية التجارة بين بلاد الزنج والبلاد العربية وكان سكانها من العرب اول من التقى بالبرتغاليين بعد دورانهم حول القارة الافريقية .

لم يدم الاستقرار السياسي في الخلافة العباسية طويلا بعد ان وصلت في عهد الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦ م) الى اقصى ذروتها في الامتداد الجغرافي والمستوى الحضاري وقام هذا بعدة حملات في الأناضول اوصلته الى شواطيء البوسفور كما اقام علاقات وثيقة مع شارلمان امبراطورية الفرنك وزدهرت في عصره مختلف انوع الفنون والعلوم وانصبت الثروات على بغداد وزاد الرفاه حتى نسجت حول شخصيته الاساطير مثل كتاب الف ليلة وليلة وغيرها ، وقبل وفاته أوصى بالخلافة من بعده لابنه الامين على ان يحكم الاقسام الشرقية اخوه المأمون وبذلك كرس قبل وفاته الخلاف بين اولاده لذلك ما ان توفى حتى حدث الخلاف بين الاخوين وانقلب الخلاف الى صراع بين الارستقراطية العربية والارستقراطية الفارسية على الحكم وانتهى الامر بانتصار المأمون وبذلك انهارت الارستقراطية العربية الحاكمة وحلت محلها الارستقراطية الفارسية الشعوبية ، وقد حكم المأمون البلاد ما بين ٨١٣ - ٨٣٣ وكان عصره امتدادا لعصر ابيه الذهبي ثم اتى المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢ م) ليزيد الطين بلة وقرب الاتراك ضد الفرس / كمن يستجير من الرمضاء بالنار/ وبنى لهم مدينة (سامراء) ولكنهم بعد ذلك اصبحوا وبالا على الدولة واخذوا يتلاعبون بالخلفاء وقتلوا المتوكل الذي خلف المعتصم بتشجيع من ابنه وتولى بعده خلفاء ضعاف ساروا بالدولة نحو الانهيار مما ادى الى استقلال عدة مناطق وتأسست

سلالات حاكمة اغلبها غير عربي عدا الدولة الحمدانية ، ومما يؤسف له ان الخلفاء والملوك العرب يحاولون دائما الاعتماد على الاجانب لتوطيد سلطتهم عوضا عن الاعتماد على ابناء جلدتهم العرب. وقد استطاع هؤلاء الاجانب الوصول الى مكانة الصدارة ونصبوا انفسهم حكاما وامراء وملوك . لذا ابتليت الامة العربية بالفرس والاحباش والاتراك في الخلافة العباسية والصقالبه في الخلافة الاموية الاندلسية ثم بمماليك مصر وزنوج المغرب واليمن ، وبسبب هذه الغلطات التاريخية ابتعد العرب عن الحكم وعن الجهاد ايضا فخمدت فيهم الحماسة الحربية منذ ذلك التاريخ ، حتى العثمانيين ابتلوا بالاسلوب العربي فجاءوا بالانكشارية ليكونوا جنودا يقيمون لهم الفتوح ولكنهم بعد فترة اصبحوا معولا هداما في جسم الدولة .

في مصر ظهر احمد بن طولون ، وفي ايران ظهر يعقوب الصفاري وقامت ثورة الزنج عام (٨٦٩ م) وفي جنوب العراق وبعد مجهود دام اربعة عشر عاما استطاع الموفق وابوه الخليفة المعتمد (٨٧٠ - ٨٩٢ م) القضاء على ثورة الزنج وابعاد خطر الصفاريين عن العراق واعاد للخلافة نوعا من الهيبة ولكن البلاد خرجت من هذه الدوامة منهكة القوى ، ودمر نظام الري وفرغت خزانة الدولة ، كما تأثرت الطرق التجارية بشكل كبير لوقوع الثورة في جنوب العراق وعلى سواحل الخليج ولم تكن ثورة الزنج كما تظهر حركة اجتماعية لتحسين احوالهم بل ان الزنوج انفسهم كان لديهم عبيد ارقاء يتحكمون بهم .

بعد ذلك ظهرت الحركة القرمطية في البحرين ، والقرامطة جماعة من الطائفة الاسماعيلية المتطرفة وان كان لهم كثير من الخصائص الذاتية وكان ظهورهم في القرن التاسع واول حكامهم (ابو سعيد الجنابي) الذي استطاع احتلال مكة عام (٩٣٠ م) وقتل من الحجاج عددا كبيرا ونهب اموالهم ونقل الحجر الاسود الى الاحساء حيث كانت عاصمته (المؤمنية) وقد حكموا المنطقة حوالي قرن ونصف (القرنين التاسع والعاشر) وقد استفادت المنطقة منهم بعد ان اصبحت مركز امبراطورية واسعة الا ان المناطق الاخرى لقيت منهم الامرين خاصة بلاد الشام والعراق حيث وصل القرامطة الى حدودهما وتوغلا في البلدين . وقد اتصف حكمهم بالشدة والقسوة في جباية الاموال وابتزاز الناس ، وقد استفادت جزر البحرين منهم فقد ارسلوا لها المجرمين والاسرى للعمل في مزارعها واقاموا فيها محطة للجمارك كانوا

يأخذون منها رسوما على الملاحة بالاضافة الى حصولهم على نصف دخل تجارة اللؤلؤ .

وحوالي ١٠٥٨ م ثار أبو بهلول من البحرين ضد القرامطة واستطاع هزيمتهم ونصب نفسه اميرا على البحرين وطلب مساعدة الخلافة والاعتراف بحكمه لكن حاكم القطيف (يحيى بن عباس) هاجم البحرين وطرد ابن بهلول ونصب نفسه حاكما عليها ثم اصطدم بحاكم الاحساء عبد الله الايوني الذي خلف القرامطة فيها بعد تفكك دولتهم فانتصر عبد الله على يحيى واحتل البحرين وحكمها هو واسرته زمنا طويلا . وخلال هذه الفترة ظهر عدد من الاسر العربية القوية والفارسية ايضا واسست دولا في المدن الساحلية وجزر البحرين .

بين اعوام ٩٣٤ - ٩٤٠ م تولى الخلافة الراضي بن المقتدر بعد ان سبقه عدد من الخلفاء الضعاف ، فاستدعى التركي (محمد بن رائق) وكان واليا للبصره ونصبه اميرا للامراء نظرا لنفوذه وقوته وقد ادى الى اتساع الصراع بين القادة والمتنفذين في البلاد ولم يعد للخليفة اي قوة سوى القوة المعنوية واصبحت بغداد نهبا للاقوياء ، وازدادت التجزئة في اقطار الامبراطورية في القسم الغربي من فارس كان بيد الديلم واما شمال العراق وشمال سوريا فكان بيد الحمدانيين اما مصر وجنوب سورية فكانتا بيد الاخشيديين واما جنوب العراق وخوزستان فكانتا بيد حكام محليين . واخيرا تغلب الديلم بقيادة كورتكين قائد المتقي بالله وبدأت الدولة بالتدهور واضطراب حبل الامن مما جعل اهل بغداد يطلبون مساعدة (احمد بن بويه : فسار هذا بجيشه ودخل بغداد وحالفه التوفيق واسس فيها الدولة البويهية .

كان دخول البويهيين لبغداد ايذانا للسيطرة الفارسية على سدة الحكم ودام حكمهم ما بين اعوام ٩٤٥ - ٩٨٣ كان فيها الخلفاء يملكون ولا يحكمون وقد استطاع احد امرائهم وهو (عضد الدولة (٩٤٩ - ٩٨٣) القضاء على الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ، وفي عهده قوي امر عمران بن شاهين في البطيحة وهي اراض واسعة كثيرة الاهوار بين واسط والبصرة واسس الدولة الشاهينية ثم خلفهم بنو ابي جبر الليثيين وفي عهد بهاء الدولة (٩٨٩ - ١٠١٢ م) اسست الدولة العربية العقيلية في الموصل ، كما ظهرت في جنوب العراق الدولة العربية الاسلامية المزيدية ، وهكذا تجزأت البلاد الى حلول واقاليم حتى ظهور السلاجقة ودخولهم بغداد بقيادة طغرل بك عام ١٠٥٥ .

عندما استتب الامر للسلاجقة عاد طغرل بك الى مدينة الري التي جعلها عاصمة ملكه وابقي في بغداد ممثلا له يسمى العميد ، وقد تعاقب على البيت السلجوقي عدد من الملوك وحدثت الحروب ما بينهم مما ادى إلى عودة الخراب الى البلاد ، وكان الخلفاء العوبة بايديهم حتى ظهور المسترشد بالله وحاول اخراج السلاجقة ولكن السلطان مسعود السلجوقي انتصر عليه وقتله وحاول ابنه مواصلة الكفاح ولكن مسعود خلعه وتولى مكانه ابن اخيه المكتفي بعض المكتفي ١١٣٦ - ١١٦٠م فاستطاع اخراج السلاجقة بعد موت السلطان مسعود وطرد ممثلهم المعروف باسم (الشحنة) ثم جند الجند واستطاع استعادة اجزاء كثيرة من البلاد وخلف المكتفي بعض الخلفاء الذين ساروا على غراره واعادوا للدولة هيبتها وقوتها بعد فترة طويلة من الضعف .

وخلال هذه الفترة انقرضت الدولةالفاطمية وظهرت الدولة الايوبية ، ثم تولى الخلافة الناصر لدين الله ابن المستضيء (١١٨٠ - ١٢٢٥) فعزز جيشه واوقف السلاجقة الذين حاولوااسترجاع بغدادثم اوعز للسلطان خوارزم شاه تكش ملك ما وراء النهر لتأديب السلاجقة فسار هذا الى فارس وقضى عليهم وقد حاول خوارزم شاب مد سلطته الى بغداد وانيخطب باسمه فرفض الناصر وعندها هدده بالهجوم عليه بالفيلة فكان جواب الناصر (الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل) فرجع هذا عن مشروعه الهجومي ، ويعتبر الناصر آخر مظهر من مظاهر القوة في الخلافة العباسية وخلال هذه الفترة عظم شأن المغول وقويت شوكتهم بقيادة جنكيز خان وقضوا على الدولة التركية في اواسط وجنوب آسيا وتمكنوا من سحق كل من وقف في وجههم حتى وصلوا بغداد واحتلوها في عهد المستعصم بقيادة هولاكو بن جنكيز خان عام ٦٥٦ هـ الموافق ١٢٥٨ ودمروها وخربوا العراق وانهارت الحضارة التي دامت مئات السنين على يد هؤ لاء البرابرة الذين ملأوا دجلة بالكتب وجثث القتلى .

الفصل الثالث

الخليج العربى بعد سقوط بغداد وحتى وصول الاوربيين

- سقوط بغداد وآثاره البعيدة والمباشرة .
- التطور السياسي في المنطقة بعد الغزو المغولي الدولة الاليخانية الدولة الجلايرية - دولة قره قونيلي - دولة آق قونيلي - ظهور القوى الفارسية - الصفويون - نادرشاه - الصراع بين الاتراك والفرس .
- الخليج العربي والبحرية العربية - البحار احمد بن ماجد وصول البرتغاليين واثره على مسيرة الحضارة العربية .

الفصل الثالث

منطقة الخليج منذ سقوط بغداد حتى وصول الاوربيين

طويت بسقوط بغداد على يد المغول صفحة رئيسية وهامة في التاريخ العربي وتاريخ الحضارة العربية الاسلامية وكان لهذه الكارثة ابعادا عميقة وشاملة عمت المنطقة من حدود الصين حتى المحيط الاطلسي ، وظلت آثارها ماثلة على شعوب المنطقة خاصة الشعب العربي حتى الحرب العالمية الثانية . ويمكن تشبيه سقوط بغداد على يدالمغول بسقوط القسطنطينية على يدالاتراك العثمانيين من الناحية التاريخية ولكنها تختلف اختلافا كليا من ناحية النتائج فسقوط القسطنطينية انهى مرحلة القرون الوسطى بظلامها الدامس في حين كان سقوط بغداد ينهي مرحلة مشوقة في تاريخ الحضارة عامة والحضارة العربية الاسلامية خاصة فقد دخلت المنطقة بعدها في مرحلة مظلمة في الوقت الذي بدأت فيه الحضارة الاوروبية تظهر للنور وابتدأت بالتراجع الى ان وصلت الى مرحلة من الضعف والفرقة لم تمر على امة من الامم واطمع فيها كل مغامر ووضيع .

لقد فقد العرب بسقوط الخلافة زعامتهم الدينية بعد ان فقدوا زعامتهم السياسية وكانت هذه الاثر الوحيد المتبقي لهم من ايام المجد والنصر في اليرموك والقادسية وذات الصواري . وبالرغم من تسلط الاجانب على الخلافة قبل سقوطها الا ان سقوطها فتح الباب امام اقوام بدائية للتحكم في المنطقة فاوقفت مسيرتها الحضارية وعادت بها للوراء قرونا طويلة لا تزال تئن من ذكراها فقد زعزع التخريب الشامل مجتمعاتها وافقدها مواردها الاقتصادية والزراعية ودمر صناعتها وكل مقومات القوة والمنعة وكان اشد ما اصاب العرب تسلط الاجانب عليهم وابتلي الشعب العربي بطبقة من الحكام لا تمت له بصلة او نسب ولم يكن همها سوى جمع المال مما اضعف قدرته الانتاجية بعد ان فقد قدرته القتالية حتى انهم كانوا يضنون عليه المشاركة في الدفاع عن الوطن فقد منع عنه السلاح والتدرب وتجزأت المنطقة شيئا فشيئا واصبحت دولا وطوائف مختلفة يحارب بعضها بعضا فيزداد ضعفها على ضعف وعندما سقطت الاندلس لم تجد احدا لينقذها كما انقذها يوسف بن تاشفين ولم نكن لتتخلص بلد من نير اجنبي الا لتقع تحت رحمة آخر . وفي خضم هذه

الفوضى السياسية ضاعت التقاليد العربية الاصلية ولم يصلنا من تلك التقاليد الا ما نقرأه في الكتب حتى اللغة اصابها الضعف ولولا القرآن لتفككت واصابها ما اصاب اللغة اللاتينية من تمزق واصبحت لغات شتى واسوأ ما خلفه هؤلاء الحكام هو تخريب الفكر والمعرفة لعدم وجود خلفيات حضارية لهم . وكانت ابعد اثرا في زيادة الضعف من تخريب المدن والقرى وزهق الارواح . وحتى الدين فقد انتشرت فيه الشوائب والطقوس الوثنية والبدع والجمود حتى قالوابانه معيق للحضارة والتقدم مع انه حضارة وثورة .

بعد ان خضع هولاكو بقية المناطق وقضى على كل مقاومة جلس في بغداد اربعين يوما نظم خلالها ادارة البلاد وجعلها بيد عدد من السياسيين القدامى الذين كانوا في سدة الحكم زمن الخلافة ومنهم الوزير ابن العلقمي اما نيابة السلطنة (الشحنة) التي كان قد ابتدعها السلاجقة وقيادة حامية بغداد فقد جعلت تحت قيادةقائدين من قواده. ثم اتجه هو نحو بلاد الشام وآسياالصغرى لاستكمال الفتح وفي هذه الاثناء بلغه خبر وفاةاخيه فاضطر للعودةالى بلاده ولم يعد بعدها. وكانت خطة هولاكو اتخاذ فارس قاعدة لتحركاته العسكرية لمد الامبراطورية المغولية والى افريقيا واحتلال سواحل البحر الابيض المتوسط وربما كان في نيته الاتصال بالصليبيين وباباوات روما الذين كانوا يحاولون الاتصال بالمغول للقضاء على المسلمين، وقد حاول القائد المغولي كتبغا الذي كان يدين بالمسيحية التقدم نحو مصر ولكنه هزم في عين جالوت من قبل المماليك وتوقف عندها الزحف المغولي بانتظار عودةهولاكو الذي ذهب الى بلاده ولم يعد، وبعدموت هولاكو ظهرت في فارس اول دولة مغولية منفصلة عن الام وتعرف بالدولة الاليخانية وكانت عاصمتها مدينة تبريز ثم نقلت الى مدينة السلطانية بعد بنائها في القرن الرابع عشر . ثم ان احد الخانات التي تولوا حكمها والمسمى محمد كازان ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤ اعتنق الدين الاسلامي وتلقب بامبراطور الاسلام ، وحاول القيام باصلاحات كثيرة في البلاد ويعتبر من افضل الحكام الذين مروا على المنطقة ثم دب الضعف فيها بسبب الخلافات الدائمة على وراثة العرش ، وفي زمن السلطان آبا سعيد آخر ملوكها وصل الرحالة الشهير ابن بطوطة والتقى بالسلطان ثم انتقلت السلطة الى عائلة مغولية اخرى وهي العائلة الجلايريه (١٣٣٦ ـ ١٤٣٢) وظلت في الحكم حتى وصول القائد التتري المشهور تيمورلنك الذي كان من احفاد جنكيز خان وقد احتل

هذا بغداد واعمل السيف في اهلها وخرب المدن والقرى واعاد للاذهان سيرة اجداده المغول ، وقد تنازل اخر سلاطين الجلايريين الى شاه محمد بن قره يوسف التركماني الذي اسس الدولةالمعروفة باسم (قره قونيلي) اي (الخروف الاسود) وقد استطاع هذا الذي حكم مابين ١٤٣٨ - ١٤٤٩ ، السيطرة على كل المناطق التي وصل اليها تيمورلنك وضم اليه دولة (آق قونيلي) اي الخروف الابيض التركمانية وقضى عليها وظلت هذه المملكة تحكم البلاد الفارسية حتى ظهور الصفويين ما بين اعوام ١٥٠٢ - ١٧٣٦ .

كان ظهور الصفويين في بلاد فارس وكردستان قد حاولوا التوسع خارج فارس فاصطدموا بالاتراك في زمن السلطان سليم الذي انتصر عليهم في معركة جالبدران وجمد نشاطهم لفترة طويلة وفي زمن الشاه عباس الاول عام ١٥٧٨ - ١٦٢٩ سقطت مدينة بغداد وظلت تحت حكمة ستة عشر عاما وقد استعادها منهم السلطان التركي مراد الرابع الذي قاد الحملة بنفسه ومن ذلك الوقت وحتى الحرب العالمية الاولى ظلت بغداد تحت الحكم التركي . وقد دفع الاتراك عنها خاصة ضد الصفويين وشاهات الفرس ولم يتمكن هؤلاء من احتلال المدينة رغم محاولتهم عدة مرات احتلالها وكسر شوكة الاتراك .

اما في المحيط الهندي فقد استطاعت البحرية العربية منذ قيام الدولة العباسية منافسة البحرية الهندية والتفوق عليها . وكانت هذه منذ فجر التاريخ تهيمن على المحيط الهندي وتعرف اسراره وتتوغل غربا حتى موانىء البحر الاحمر ، قبل ان يكتشف الرومان على يد هيپالوس اسرار الرياح الموسمية بزمن طويل وكان الملاحون الهنود يعرفون اسرارها وطريقةاستخدامها وعن طريقها وصلوا باب المندب والسواحل الافريقية ، وقد حملت مراكبهم تجارة الهند والبلاد الشرقية وخاصة التوابل والافاوية وهي في طريقها الى البحر الاحمر عن طريق باب المندب ومنها الى اوروبا . وكان العرب يتبعون نفس الطريق وربما كانت هناك مرحلتان مرحلة اولى تتكفل بها المراكب الهندية بين الهند والبلاد العربية والمرحلة الثانية التي يتكفل بها البحارة العرب من بلادهم الى مصر وعن طريق برزخ السويس كانت تصل البضائع الى البحر الابيض المتوسطولولا اهمية هذا الطريق لما حاول كل من قمبيز والخلفة عمر فتح قناة تصل البحر الاحمر بالابيض عن طريق النيل ، وكان تجار من اهل البندقية يحملون هذه البضائع الثمينة الى اوروبا والتي كانت مصدر حسد المدن

الايطالية الاخرى وهذا مما دعى أهل جنوا للتفتيش عن مكان غير هذا الطريق للوصول الى الهند وكسر الاحتكار الثنائي المتفق عليه من حكام مصر والبنادقة . كما كانت هناك محاولات من الدول التي كانت تسيطر على فارس لجعل الطريق البري مأمونا واهمال الطريق البحري ومما يذكر انه في الوقت الحاضر وبسبب عدم الاستقرار الامني على الطرقات التركية التي تربط اوروبا بالخليج العربي والمملكة العربية السعودية برا ظهرت فكرة نقل السيارات حاملة البضائع بحرا عن طريق (الفير بوت) بين اليونان وسوريا ولبنان . وفي العقد الاخير من القرن الثالث عشر اقترح الجنويون على الخان الاليخاني (ارغون) الذي كان يحكم فارس والعراق التعاون واقترحوا عليه خطة يرمون من ورائها تحويل تجارة الافاوية والتوابل من ملبار الى الخليج العربي (بدلا من البحر الاحمر) ومن ثم تحمل برا الى موانىء شرق البحر الابيض المتوسط الشرقية التي كانت تقع تحت النفوذ التجاري الجنوي وابدوا استعدادهم للحصول على موافقة اباطرة بيزنطة وكان من جملة الخطة اقتراح بناء اسطول بحري في الخليج العربي واغلاق البحر الاحمر في وجه التجارتين العربية والهندية . وقد فشلت كل هذه الاقتراحات نظرا للتفوق العربي البحري في تلك المناطق حيث كانت للعرب والهنود السيطرة على المحيط الهندي من الصين حتى افريقيا . وفي السواحل العربية المطلة على المحيط الهندي ظهر كبار الربابنة العرب الذين اغنوا الفن الملاحي بالكتب والتأليف عن البحر واحواله والظواهر الفلكية والرياح ومواسمها . . الخ ، بالاضافة الى كتب القصص البحرية التي كان القصاصون يتتابعون في رواياتهم هم واحفادهم . وقد ظل الوضع العام في المنطقة على هذا الحال حتى وصول البرتغاليين الذين انتزعوا من العرب والهنود السيادة البحرية التي لم يعد لها قائمة الا ما كان في عهد اليعاربة العمانيين (كما سيمر معنا) ولكن لفترة قصيرة بسبب وصول الامم الاوروبية الاخرى للمنطقة .

ومن اشهر من عملوا في البحر في ذلك الوقت الربان والمرشد المشهور (شهاب الدين احمد بن ماجد) الذي ظهر في نهاية القرن الرابع عشر وهو الذي التقى بفاسكو دي غاما البرتغالي في مدينة مالندي في ١٥ آذار ١٤٩٨ الواقعة على الساحل الشرقي لافريقية . وقد دهش دغاما لسعة اطلاع البحار العربي وبخاصة عندما رأى معه خريطة للساحل الهندي كله وعليها خطوط الطول والعرض بالتفصيل وبدقة ، كما شاهد لديه ادوات بحرية على مستوى عال لم يكن فاسكو

دغاما قد عرف بمثلها وخاصة آلة كانت من اختراعه مؤلفة من ثلاث لوحات وبعد ان عرف دغاما قيمة هذه الالة بعد ان شرح ابن ماجد لها دعاه للتعاون معه . وقد قاد احمد بن ماجد الاسطول البرتغالي من السواحل الشرقية لافريقيا الى الهند مباشرة (فاجتاز البحر وطوله ٦٠٠ فرسخ في ٢٢ يوم دون ان يلقى في طريقه اي عقبة او مشقة بفضل ارشادات ، بن ماجد ، حسب قول المؤ رخ البرتغالي (كستا نهيدا) الذي اعترف بفضل بحار الخليج على حركة الملاحة الاوروبية وعلى الفتوحات البحرية والبرتغالية .

وقد ولد ابن ماجد حوالي عام ٨٣٦ هـ (١٤٣٢) في بلدة جلفار (رأس الخيمة حاليا) وقد عمر طويلا وقيل انه تجاوز المئة سنة او تزيد . وقد نشأ هذا في بقعة ذات شهرة تجارية وبحرية معروفة ويقول عن نفسه « كان جدي نادرة في معرفة اطوال البحر واستفاد منه والدي وقد اخذت انا علم الرجلين مع كثرة التجربة » وكانوا يلقبون والده « بربان البرين » « وقد نظم الارجوزة الحجازية » ويقول ابن ماجد انها كانت فوق الف بيت ومع ذلك كله قد اصلحنا له منها ما رأينا فيه الخلل وكانت ارجوزة الوالد خيرا لي من جميع ميراثه الذي تركه لي كله » وقد لقب ابن ماجد بامير البحر ومن هذه الكلمة ظهرت كلمة اميرال اي امير الماء ، وقد كتب ابن ماجد حوالي اربعين ارجوزة ورسالة في علوم البحر وفنون الملاحة والمعارف الجغرافية ، وقد توخى البساطة والسهولة في اسلوبه حتى يفهم البحار ما يكتب ويستفيدون منه ومن ابرز كتبه « الفوايد في معرفة علم البحر والقواعد » وهو موجود في مكتبة المجمع العلمي في دمشق ومن رسائله حاوية الاختصار في علم البحار . وكل ما كتبه في مجال البحر والفلك قد استفد منه البحارة والربابنة من شرقيين وغربيين واهمها العرب .

وترجمت مؤلفاته الى عدة لغات ، وترجمها للفرنسية المستشرف الفرنسي المعروف (غابرييل فرانس) وصدرها بهذا القول « مؤلفات ابن ماجد الملقب باسد البحر الهائج ، ربان (فاسكودغاما) الذي طاف حولالارض » كما كتب عنه عدد كبير من المؤ رخين الاجانب والعرب .

وبالرغم من فخرنا بالربان ابن ماجد واعتزازنا بهذه الشخصية العبقرية الفذة الا ان من يشاهد آثار الدمار التي خلفها البرتغاليون في حربهم المسعورة والحاقدة ضد العرب على طول السواحل العربية والافريقية واثار الخراب في كثير من المدن

الساحلية الهندية التي كان يعيش فيها مسلمون والتي لا تزال آثارها ظاهرة للعيان لا يسعه الا ان يتول يرحمك الله يا امير البحر لقد كنت كريما اكثر من اللازم ولم تعرف ماذا جنت يداك التي كانت تقود دفة سفينةالقيادة البرتغالية » وربما كان ابن ماجد يعتقد في ذلك الوقت انه يقدم المساعدة لهؤلاء الضيوف على حد تعبير العربي دون ان ينظر الى ما كان يخفيه الضيف من حقد وكره لامته العربية الاسلامية فقاد الثعلب الى كرمه وربماكان ابن ماجد يعتقدان البحر فسيح ملك الله فلا احد يحتكره وان التجارة حرة لجميع الناس كما هو الحال بالنسبة لما كان يجري مع البحارة الاخرين في تلك المنطقة ، ولم يكن يدري ابن ماجد ان هؤلاء القادمين الجدد من طينة غير مألوفة في تلك البحار الدافئة التي توصي بالتسامح ولم يكن يدري ان تحت ثيابهم وحوش كاسرة في اجسام بشرية ولم يكن يدري ان هؤلاء برابرة متوحشون غلاظ القلوب تدفعهم روح الحروب الصليبية للقضاء على الاسلام عامة وعلى العرب خاصة وكانوا طليعة الشعوب التي ابتدأت تهيؤ نفسها لاستغلال شعوب الشرق ونهب ثرواتها والقضاء على حضاراتها القديمة بروح ماديةجشعة . وكم كان المؤرخ العربي (جورج فاضلو حوراني) صاحب كتاب العرب والملاحة في المحيط الهندي سديدا في قوله عندما قال « فكان من سخريات القدر ان ملاحا عربياً كبيراً ساعد على القضاء على الملاحة العربية اذ لم يستطع العرب ابعاد البرتغاليين ومن تبعهم من الشعوب الاوروبية الاخرى و منافستهم في الوقت الحاضر ، ويذكر قطب الدين النهراوني عن ابن ماجد في كتابه « البرق اليماني في الفتح العثماني « ان دليل البرتغال كان اللعين احمد بن ماجد » .

الباب الثالث

انهيار البحرية العربية وعصر الانحطاط
الهيمنة البرتغالية
الفترة ما بين ١٤٠٠م ـ ١٦٠٠ م

- الفصل الاول : المحاولات الاولى للوصول الى الشرق .
- الفص الثاني : حركة الاستكشاف البرتغالية وعواملها الدافعة .
- الفصل الثالث : الامبراطورية البرتغالية في المحيط الهندي .
- الفصل الرابع : الوضع العام في المحيط الهندي والخليج العربي في القرن السادس عشر .

الفصل الاول

المحاولات الاولى للوصول الى بلاد الشرق

ـ اهمية وصول فاسكو دغاما للهند وآثارها بالنسبة للاستعمار الاوروبي وبالنسبة لشعوب الشرق ـ الاتصالات القديمة ـ الطرق البرية ـ اتصال الرومان بالهند عن طريق البحر الاحمر ـ الحروب الصليبية ـ فتح القدس، وأثاره القريبة والبعيدة ـ الحملة الصليبية الخامسة واهدافها الاقتصادية الطرق القديمة والموانىء ـ التوابل واهميتها بالنسبة لاوروبا ـ محاولات الايطاليين للوصول الى مراكز الانتاج لفك الحصار العربي الاسلامي ـ البحر الابيض المتوسط واهميته التجارية ـ القباطنة الايطاليون الكبار ـ الصراع بين البندقية (فينيسيا) وجنوا . سيطرة سكان البندقية على التجارة البحرية في البحر الأبيض المتوسط ـ دور سكان جنوا في حركة الاستكشاف ـ رحلة جولينو دي فالدو ـ تضاؤل قيمة المدن الايطالية خاصة البندقية لصالح الدول الكبرى .

الفصل الاول

المحاولات الاولى للوصول الى الشرق

كان وصول البرتغالي فاسكو دغاما الى (قاليقوط) على الشاطىء الغربي للقارة الهندية في ٢٧ أيار ١٤٩٨ م عن طريق البحر ودورانه حول القارة الافريقية بدون ادنى ريب حدثاً بالغ الأهمية في التاريخ الحديث . وكان نقطة تحول في تاريخ اوربا والشرق . وكان فاسكودغاما اول غربي (اوربي) يصل الى تلك البلاد وما تثيره كلمة الشرق من خيالات تشبه الأساطير في أفكار الأوربيين . وفي حين أن الأوربيين يعتبرون هذا الحدث ذو اهمية كبيرة في تاريخهم الحضاري واول النجاحات التي حققتها مدنيتهم المادية الحديثة . إلا أننا في الشرق وخاصة نحن العرب نعتبر ذلك كارثة لم يسبق أن مني الشرق بمثلها والتي لا يزال يعاني منها حتى الآن . فقد تبع فاسكو دغاما المكتشفون من مغامرين وأفاقين ودخلوا في التاريخ الأوربي كفاتحين عظام وتحول هؤلاء الى تجار وتعاون التجار فيما بينهم وشكلوا الشركات الاستعمارية لامتصاص موارد الشرق وتحولت هذه الشركات لحكومات استعمارية جثمت على صدر الشرق زمناً طويلاً حتى الحرب العالمية الثانية . وقد بدأ الاستعمار مسيرته بوصول فاسكودغاما الى الشرق وتأسيس الامبراطورية البرتغالية وتبعتها الامبراطوريات الاستعمارية الأخرى كالاسبانية والهولندية والفرنسية والبريطانية ولم يكتف الاستعمار بالشرق بل استعمر في طريقه نحو الشرق القارة الافريقية وتوسع الى اوستراليا والقارة البولينيزية وقد تحولت موارد العالم وانصبت على القارة الأوروبية في الوقت الذي بدأ فيه اصحاب الثروة الحقيقيين يتراجعون حضارياً وثقافياً . وكم من حروب نشبت وكم من شعوب سحقت بخراب الجنود الأوربيين ففقد الشرق شخصيته العريقة وتحولت موارده الضخمة لرفاهية الآخرين . والواقع انه بعد فترة قصيرة من الزمن لم يبق مكان في العالم الا ووقع تحت المظلةالاستعمارية الأوربيةواصبح العالم يدار من اوربا وموارده موجهة نحوها ، وكان الشعب العربي من أكثر الشعوب تأذياً بحركة الفتح الأوربية خاصة من الفتح البرتغالي الذي دمر مناطق شاسعة من الوطن العربي في الوقت الذي كان فيه العثمانيون يجثمون على صدره ويشلوا حركته فلم يتمكن من الدفاع عن نفسه .

كان اول اتصال بين اوربا والهند والشرق الأقصى عن طريق البر ، وبالرغم من أن الحضارات القديمة التي كانت قائمة في منطقة الشرق الاوسط بخاصة بلاد الهلال الخصيب كان لها اتصالات واسعة مع الهند وبلاد الشرق إلا أن اوربا لم يكن لها اي اتصال مع ذلك العالم البعيد فقد كانت اوربا تمر في تلك العهود بأحلك عهودها المظلمة وكان الفينيقيون واسطتهم الوحيدة للاتصال مع الشرق . ومع ذلك فربما عرفت اوربا الهند عن طريق الجنود ود الذين كانوا يعملون تحت راية الأخمينيين (الفرس) اثناء محاولاتهم فتح اليونان واخضاعهم لبلادهم ولكن الاتصال الحقيقي هو الذي تم اثر فتوحات الاسكندر المقدوني الذي وصل الى البنجاب اثناء محاولاته لغزو الهند ٣٢٧ - ٣٢٥ ق م ، وبعد موته وتجزئة امبراطوريته الواسعة بين قواده ظهرت اول دولة يونانية في المنطقة عرفت باسم (بختريا) التي امتدت بين الأفغان والبنجاب على مفترق الطرق البرية المتجهة نحو الهند والشرق الأقصى واواسط اسيا وذلك في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي ، وقد ظلت الاتصالات التجارية قائمة بين الشرق والغرب في زمن السلوقيين ومن بعدهم البارثيون ، وفي ظلال الامبراطورية الرومانية حتى سقوط الأخيرة في القرن الرابع الميلادي ، وقد لعبت المدن الأغريقية التي اسسها الاسكندر دوراً رئيسياً في حركة الاتصال هذه بحراً وبراً كما عرف المؤ رخون والرواد الأغريقيون الهند والطرق التجارية اليها كما عرف الجغرافيون الساحل الهندي والأرخبيل الأندونيسي كما كانت السفن الرومانية تزور الموانىء الهندية وشرق افريقيا بانتظام منطلقة من قواعدها في مصر بعد اكتشاف اسرار الرياح الموسمية وقد اثبتت ذلك الحفائر التي جرت في (أريكا ميدو) وهناك شواهد كثيرة على قيام اتصالات واسعة بين الأقطار الاسيوية عن طريق منتجاتها وقد عرفت هذه الأقطار حضارة البحر الأبيض المتوسط عن طريق التجار وقد وجد في كريت اثار قبور سبئية يمنية وكان الاعتقاد دائماً أن جميع ما يرد اوربا كان من الهند مثل اللؤ لؤ والماس - والذهب والروائح العطرية والحيوانات المفترسة كالأسود والفيلة فضلاً عما كان يصلهم من روحانية وحكمة الحضارة الهندية .

بعد الفتوحات العربية سيطر العرب على المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط الشرقي واصبحت بيدهم الطرق التجارية وبذلك اصبح عن طريقهم يجري

الاتصال مع اوربا اما عن طريق البحر الأبيض الى اليونان ايطاليا اوعن طريق البحر الأبيض الى اليونان وايطاليا او عن طريق اسبانيا العربية (الأندلس) واخذت هذه الشعوب الأوربية تتعرف الى المنتجات الشرقية خاصة التوابل والأفاوية والأنسجة الحريرية وجاءت الحروب الصليبية (١٠٩٦ - ١١٩٩) لتصبح اوربا اقرب ما يمكن من الشرق وتتغير موازين القوى في البحر الأبيض المتوسط وفتحت ابواب الشرق لأوربا للاتصال التجاري خاصة بعد استقرار الصليبيين في فلسطين وسورية وتأسيسهم للدويلات المعروفة باللاتينية كما اصبحت التجارة البحرية في البحر الأبيض المتوسط بيد المدن الأيطالية وتزايدت اهتمامات اوربا بآسيا ويعتقد انه كان لدى كل من البندقية وجنوة خاصة معلومات تفصيلية عن احوال الشرق والهند حتى ان الهند كانت معروفة لدى البيوتات التجارية في مدينة انتورب (أنفرس حالياً) والموجودة في بلجيكا .

بعد استرداد الناصر صلاح الدين للقدس ١١٨٧ م وانحسار النفوذ الأوربي عن الشرق توقف الاتصال المباشر خاصة البري مع الشرق وانتهى بعد القضاء على بقايا الصليبيين على يد المماليك على السواحل العربية . وقد اصبحت الدولة الأيوبية ومن بعدها المملوكية حاجزاً بين اوربا والهند وكان الطريق يمر تحت سيطرتها ونفوذها : وقد شعر التجار الأوربيون بعظم خساراتهم بعد فقدهم لقواعدهم التجارية في سورية لذلك تحول العداء الديني للعرب والمسلمين الى عداء اقتصادي ضد تحكمهم في طرق التجارة ، وكان هذا سبباً رئيسياً للحملة الصليبية الخامسة التي اشترك فيها ملك فرانسا (١٢١٨ م - ١٢٢١ م) لذلك وجهت الحملة لمصر بدلاً من بيت المقدس باعتبار انها تقف حائلاً بين اوربا والبحر الأحمر ، وقد منيت الحملة كما هو معروف بالهزيمة ، وظل المسلمون يتحكمون في الطرق التجارية الخلفية والتي كانت تدر عليهم ارباحاً طائلة ومنذ ذلك الوقت توقف التفكير بالاتصال بالشرق عن هذا الطريق وابتدأ التفكير بالتفتيش عن طريق اخر يلتف حول الدول الأسلامية ويقضي على تجارتها من الخلف .

حتى عام ١٩٦١ م كانت الطرق التجارية القادمة من الشرق تنتهي في موانىء بحر الخزر والأسود والبحر الأبيض المتوسط كطربزون (ترويبزونيا) واستانبول وطرابلس وبيروت وانطاكية والاسكندرية ولكن اهم الاتصالات كانت تجري عن

طريق البحر الأبيض حيث كانت السفن الايطالية تتبادل السلع مع التجار المسلمين والهنود القادمين من الشرق خاصة التوابل والأفاوية التي ازداد الطلب عليها في اوربا بعد ان اصبحت ضرورية لوضعها على اصناف المأكولات لتجعل مذاقها طيباً واصبحت مادة اساسية في المطبخ الأوربي . وساعد هذا على زيادة ارباحها زيادة خيالية . مما جعلها من اعظم السلع جنياً للأرباح وهذه الأرباح اصبحت من اعظم العوامل الدافعة في التاريخ للقيام بالمغامرات للوصول الى مراكز الانتاج رغم الأخطاء التي كانت تعترض الطرق اليها ، ويقول احد المحدثين «لعله ليس للفلفل الآن اهمية كبيرة ولكن كان لهذه المادة في ذلك العصر اهمية كبرى حيث كانت تقف على قدم المساواة مع الأحجار الكريمة الغالية الثمن ، فالناس كانوا يجابهون مخاطر البحر ويقاتلون ويقتلون ويموتون في سبيل الفلفل» لذلك كانت هذه المادة وغيرها اقوى عامل بمفرده في استثارة التوسع الأوربي اثناء القرن الخامس عشر . وللمرة الأولى تتغير حمولات السفن القادمة من الشرق وافريقيا من المواد الثمينة فبعد اذ كانت تحمل من «أوفير» الأسطورية التي يقال انها كانت فيما يعرف حالياً بزيمبابوي واخرون يقولون انها بلاد ظفار او اليمن . او انها في بلاد الهند البخور ـ اللبان وعود المر وكذلك الماس والذهب اصبحت تحمل في المقام الأول التوابل والأفاوية وتأتي الحمولات الأخرى بعد ذلك . وفي الوقت الحاضر وللمرة الثانية تغير السفن الخارجة والقادمة الى البلاد العربية حمولتها واصبحت تحمل البترول وتدفع من اجله الأسعار المرتفعة ويظل الشرق دائماً في الصدارة في انتاج المواد الاقتصادية .

كانت محاولات الأوربيين خاصة الايطاليين متجهة دائماً نحو أماكن انتاج المواد الثمينة هل هو في الهند اوغيره وما هو الطريق للتخلص مما يفرضه التجار على المشترين من اسعار مرتفعة يصل الربح فيها الى ثلاثمئة بالمئة . وجاءت الفرصة السانحة وذلك عندما اجتاح جنكيزخان بلاد الشرق ووصل روسيا والبحر الأبيض المتوسط واصبحت الطرق مفتوحة الى الهند والصين امام التجار وحتى للمبشرين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وقد قام اثنان من الرهبان الفرانسيسكان جيوفاني دابيان ديل كاربين ، وليم أف بروكين برحلة طويلة الى بلاد الشرق بمهمة دينية للاتصال بملوك المغول والتعاون معهم على جعل العرب بين طرفي كماشة لضرب المسلمين من الخلف ، كما وصل الصين الرحالة الايطالي المشهور ماركو بولو

في عهد قوبلاي خان بن جنكيزخان وقد امضى هذا في بكين سبعة عشر عاماً ثم عاد الى البندقية وكتب قصته عام ١٢٩٥ . وقد حاول الجنويون في غمرة نضالهم ضد البندقية الاتصال بدولة الأليخانيين في فارس (قبل اعتناقهم الاسلام) للتعاون معهم على نقل منتجات الهند الى الخليج العربي ومنها عن طريق البر الى اوربا . وقد استطاع الايطاليون معرفة اماكن الانتاج واسعار السلع واستطاعوا تخفيض الأسعار . ولكن الطريق البرية سدت مرة ثانية بعد ظهور الأتراك . لذلك عاد التفكير لاكتشاف طريق للهند عن طريق البحر . والالتفاف حول الدول التي كانت تسيطر على البحر الأبيض المتوسط . وكان الرواد في هذا المجال تجار جنوة الذين كانوا يبذلون اقصى جهودهم للوصول الى الهند وازالة الوسطاء ما بينهم وبين الهنود وضرب الاحتكار البندقي .

قبل اكتشاف امريكا والطريق البحري الى آسيا كان البحر الأبيض المتوسط هو المركز الرئيسي للتجارة بين اوربا وبلدان الشرق ، وكان الايطاليون يملكون ناصية العمل فيه وقد خرج منهم كبار القباطنة مثل (كريستوف كولومبس) وجون كابوت ، وجيوفاني فيرازانو ، وكان البحر الأطلسي غير معروف في ذلك الوقت عدا بعض الجزر القريبة من السواحل وكان التنافس شديداً بين المدينتين الرئيسيتين جنوة والبندقية وظلا على هذا التنافس الحاد خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر وانتهى بفوز البندقية عام (١٣٨٠) فقد جمع البنادقة بين المهارة الدبلوماسية وروح المغامرة وبعد النظر وتركيز السلطة في يد واحدة وبذلك كسبوا ثقة المماليك حكام مصر التي كانت واسطة الاتصال بين الشرق والغرب وكانهناك تعاون وثيق بين الطرفين ادى الى احتكارهم التجارة بين الشرق والغرب عبر مصر وسيطروا على البحر الأبيض المتوسط ويحمون التجار من العرب والهنود والذين كانت لهم مستودعات كبيرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط خاصة الاسكندرية . وكانت الطرق البرية غير مأمونة وعرضة للتقلبات السياسية في الامبراطورية البيزنطية المشرفة على السقوط في الوقت الذي كانت فيه المناطق الآسيوية تخضع لهجمات تيمورلنك المدمرة وخلافات ابنائه من بعده . وعلى هذا فقد حصلت البندقية على امتيازات ومنافع كثيرة بسبب تعاونها مع التجارب العرب وجعلها تقيم حصراً على المنتجات الشرقية خاصة التوابل التي كان البنادقة ينقلونها الى الموانىء الأوربية او العربية على الساحل الاسباني ومن هناك تصل الى وسط وشمال اوربا وكذلك الى

بريطانيا لذلك لم يؤ د سقوط القسنطيطنية لأي أثار سيئة على البندقية في حين فقد اهل جنوا اتصالهم مع الشرق وحاولوا جاهدين الدفاع عن القسطنطينية دون جدوى مما أثار حماسهم للعودة للتفتيش عن طريق للهند بحري يسلكونه ومما يجدر ذكره ان اكتشاف طريق الهند البحري لم يقلل من اهمية الطريق عبر البحر الأحمر في بادىء الأمر .

لم يكن امام الجنويين في الواقع سوى العمل على الخروج من نطاق البحر الأبيض المتوسط ، ويصف هدسون الجهود التي بذلها هؤ لاء لاكتشاف طريق جديد للهند وكان اشدها اثارة للاهتمام رحلة (جولينودي فيغالدو) التي سار فيها حول الساحل الأفريقي ثم اضطر للعودة وكان بداية رحلته عام ١٢٩١ عن طريق جبل طارق . وأخيراً تمكن الجنويون عن طريق ملوك اسبانيا لاكتشاف أمريكا من خلال تفتيشهم على طريق الهند في الوقت الذي كان البرتغاليون يحضرون أنفسهم على يد الجنويين للوصول الى الهند ولم يتم هذا الاكتشاف، الا بعد خمس وسبعين عاماً على يد القباطنة البرتغاليين تلاميذ الجنويين .

الفصل الثاني

البرتغال وحركة الاستكشاف وعواملها الدافعة

- العوامل الدافعة - الموقع - الحروب ضد العرب ونتائجها - التعاون مع الجنويين ونتائجه - المراحل الأولى للاستكشاف - الأسباب الاقتصادية - الحماس الديني - هنري الملاح ودوره - تشجيع الباباوات للبرتغاليين - تقسيم العالم بين اسبانيا والبرتغال ومعاهدة ترويسلهاس - تطور الرحلات البحرية في عهد جان الثاني - الوصول الى رأس الرجاء الصالح - رحلة فاسكو دغاما وفتح الطريق الى الهند .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

البرتغال وحركة الاستكشاف وعواملها الدافعة

لعبت البرتغال دوراً رئيسياً في حركة الاستكشاف العالمية فهذه الدولة الصغيرة هي عمليا التي فتحت ابواب الشرق للاستعمار الغربي وظلت فترة من الزمن رائدة التوسع الأوربي في بلاد الشرق وقد اهلها موقعها الجغرافي وحصولها على الوحدة بعد خروج العرب للفوز في هذه المهمة . فانفتاحها على المحيط الأطلسي وضيق ارضها وعدم تمكنها من دخول البحر الأبيض المتوسط وحماسها لنشر المسيحية كانت عوامل رئيسية ودافعة جعلت من شعبها ينزع لركوب البحر واستكشاف المجهول للحصول على الثروة يضاف الى ذلك قربها من القارة الأفريقية فقد اصبحت منذ اوليات القرن الرابع مستودعاً تمر من خلاله تجارة افريقية من العاج والبلح واليد العاملة نحو اوربا .

لقد استطاعت البرتغال ان تخرج العرب من بلادها قبل خروجهم من اسبانيا بعد تشتت قوتهم وخضوعهم للدول العربية في شمال افريقيا مما اضعف امكانياتهم الدفاعية وقد استطاعت الشعوب البرتغالية التي كانت تقطن في شمال ما يعرف حالياً بالبرتغال من اخراج العرب بمساعدةالفونس السادس ملك ليون الذي كان يرفع راية الهجوم على الاسلام واستئصالهم من اسبانيا وشبه الجزيرة الايبيرية .. ويعتبر (الفونس الأول هنريك ١١٥٨ - ١١٦٦) اول ملك برتغالي ينفصل عن الأسبان . ثم اخذ في مهاجمة العرب واحتل مدينة (لشبونة) عام ١١٤٧ . وتابع حلفاؤه الحرب الصليبية ضد العرب ول يتورعوا من ارسال جنودهم قتال العرب في فلسطين مع الصليبين وقد استطاع البرتغاليون الانتصار على الموحدين وواصلوا حربهم حتى اخرج العرب من منطقة الجرف الواقعة في جنوب البرتغال والتي يحتلها البرتغاليون لأول مرة وكان ذلك في زمن الفونس الثاني (١٢٤٨ م - ١٢٧٩ م) ، وخلال هذه الفترة حدثت تغييرات جذرية في حياة البرتغاليين حيث اشتد ساعد الملكية التي تدعمها الطبقة المتوسطة وسقط النظام العشاري ، وعمت اللغة البرتغالية المعروفة بلغة (البورتو) وكانت منتشرة فقط في الشمال مما ساعد على الوحدة الوطنية وازداد النشاط التجاري وازدهرت الزراعة بعد الاستيطان البرتغالي في منطقة الجرف التي

اخلاها العرب وازدهرت الصناعة خاصة صناعة صيد السمك التي نمت في المزارعين البرتغاليين حياة البحر وحب الاستكشاف فوصل التجار البرتغاليون الى بورغوس في شمال اسبانيا والى لندن في بريطانيا يبيعون فيها السمك والملح والخمر والزيت والجلود والحبوب ، كما تم في عام ١٣١٨ م تطور كبير اعطى نتائج عميقة وهو تعيين احد النبلاء الجنويين اميرالا للأسطول البرتغالي واسمه (مانويل بسانيا) واصبح حكمه وراثياً وكان نشيطاً للغاية وذو افكار عالية فنهض بالأسطول البرتغالي ودخل مع سكان (جنوا) بعلاقات حميمة للتعاون على ضرب احتكار البندقية للتجارة مع الهند وتعاون الطرفان على خلق اسطول بحري برتغالي بقيادة عدد من النبلاء الجنويين وساعد على ذلك ظهور ملوك اقوياء خاصة الملك فرديناند الأول ١٣٦٧ - ١٣٨٣ م الذي وجه همه لسياسة التوسع الجغرافي بعد الهبوط الاقتصادي الذي اصاب اوربا في القرن الرابع عشر كما شجع صناعة الفن وسمح بقطع الأشجار من المناطق التابعة للحكومة بدون مقابل وانشأ صندوقاً للتامين واجبر المزارعين على زراعة ارضهم خوفاً من المصادرة ، ولكن البرتغال مرت بفترة عصيبة بعد حربها مع الاسبانين الذين كانوا يحاولون ضمها اليهم وقد قدمت بريطانيا المساعدة لهم للنضال ضد الاسبان . وفي خلال هذه الفترة حدث التطور العلمي في بناء السفن وتم اختراع الطاولة الفلكية والدفة الثابتة والمحاور الحديدية وبنيت سفن الكرافيل السريعة ١٤٣٩ - ١٤٤٠ وكانت من اكثر الاختراعات اهمية نظراً لتمكنها من الابحار في اعالي البحار وساعدت البحارة البرتغاليين على تخطي مصاعب الابحار فيها .

في زمن يوحنا الأول ١٣٨٥ - ١٤٧٣ ابتدأ البرتغاليون بالعمل على اكتشاف الأراضي الجديدة واستثمارها وساعدتهم تحسينات على الابحار على القيام بسفرات بعيدة وجريئة مع القرن الخامس عشر . كما ساعدت المشاكل الداخلية على حركة التوسع الخارجي بالاضافة الى ازدياد عدد السكان وعدم امكانية التوسع في القارة بسبب قوة دولة (الكاتالان) الاسبانية المتزايدة كما ظهر النقص في الحبوب وازداد الطلب على الأسماك والسكر والجلود والأصبغة . وكانت الحاجة ماسة لايجاد الأراضي الصالحة لزراعة القصب مما ادى الى زيادة الطلب على العمال ايضاً وادى الى التفكير بجلبهم من افريقيا للعمل في مطاحن السكر وفي زراعته في منطقة الجرف التي اخلاها العرب ولم يكن لدى البرتغاليين الذهب الكافي للتبادل التجاري مع

الغرب ، وفي هذه الاثناء استعمر البرتغاليون اغلب الجزر القريبة من سواحل شبه جزيرة ايبيريا والسواحل الافريقية وتم استيطانها وزراعتها ومنها اصبح الاتصال مع السواحل الافريقية سهلاً فأقيمت علاقات تجارية مع سوحل غينية وغيرها لاستيراد الذهب الذي كان يأتي من اواسط وغرب افريقية مع القوافل الصحراوية وقد حاول البحارة البرتغاليون التفتيش على فم نهر يمكنهم من الوصول الى وسط القارة فلم يوفقوا . ثم ظهرت العملة الذهبية البرتغالية عام ١٤٤٩ المسماة (كراوزارو) وخلال هذه الفترة ظهر الأمير هنري المعروف بهنري الملاح بالرغم من انه يقال بأنه لم يركب في حياته البحر وهو الذي اعطى للحركة الاستكشافية البرتغالية اهميتها وتنظيمها وهو الذي وضع البصمات الأولى لمخطط الرحلة الى الهند والدوران حول افريقيا يدفعه عاملان احدهما تجاري والآخر ديني .

فبالاضافة الى ما ورثه البرتغاليون من (اهل جنوا) من تقاليد بحرية عميقة . والتصميم على الوصول بحراً للهند للالتفاف حول البلاد الاسلامية من الخلف والقضاء على تجارتها ظهرت البرتغال في القرن الخامس عشر كنصيرة للمسيحية وراعيتها ضد الاسلام . ورغم خمود جذوة الحروب الصليبية الا انها بقيت مستعرة في شبه الجزيرة الايبرية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر . فبالرغم من ان الدول الأوربية كانت معبأة بروح الحروب الصليبية لكن ا لاسلام كان بعيداً عنها اماسكان ايبيريا من اسبان وبرتغاليين فكانوا يعتبرونه خطراً عليهم لأن قسماً من اراضيهم لا يزال بيد العرب والمسلمين مما جعل سكان شبه الجزيرة يعملون بحماس شديد للقضاء على الاسلام يدفعهما شعوران قومي وديني وقد اثر هذا الشعور على عقلية كل من الاسبان والبرتغال وخاصة هؤلاء الأخيرين وكان ظهنر واضحاً في تصرفاتهم القذرة اثناء احتلالهم لبعض المدن العربية والاسلامية اثناء بنائهم لامبراطوريتهم .

تجمعت هذه العوامل جميعها في شخصية الأمير هنري الملاح الذي يعتبره البرتغاليون احد كبار ابطالهم القوميين ، وكان الدون هنري (وهذا اسمه) الابن الثالث للملك يوحنا الأول (١٣٩٤ - ١٤٦٠ م) قد ربي متشبعاً بتقاليد الفروسية والشهادة التي ورثها عن البطل القومي البرتغالي (الفونسو لونو الفاريز) الذي انتصر على العرب وحاربهم حرباً لا هوادة فيها . كما غذي الأمير هنري منذ طفولته

بالأفكار الكهنوتية المسيحية وبالتدريب العسكري يخالطه بغض مرير للعرب والمسلمين ، لذلك منذ صغره حاول القيام بحملات ضد المسلمين واحتل مدينة سبته عام ١٤١٥ م ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن لا زالت مدينة سبته بيد الاسبان الذين ورثوها من البرتغاليين عندما وضعوهم تحت حكمهم ، ومما يجدر ذكره ان طارق بن زياد قد انطلق من هذه المدينة . وقد حاول الأمير هنري احتلال مدينة طنجة عام ١٤٣٧ ولكنه فشل في الهجوم عليها وقد اثر هذا الخذلان على مجرى حياته فقد افقدته هذه الخسارة حماسه القديم للقتال المحدود وبدأ بالتفكير في القيام بمشاريع كبيرة وبعيدة ، ويقال ان بعضاً من الهنود زاروه في قلعته وشجعوه على الوصول الى الهند لذلك اصبح هدفه الأول (١٤٣٧ م) وضع خطة استراتيجية كبرى او بالأحرى تنظيم حركة التفاف كبرى لتطويق الجناح الغربي للاسلام وحمل العالم المسيحي رأساً الى المحيط الهندي والوصول الى الهند وكان الاعتقاد لديهم بوجود ملوك مسيحيين فيها وقد اخذ هذا التفكير عليه كل مشاعره . وكان يعتقد بأنه تلقى امراً من الله باداء هذا الواجب وقد ساعده على مهمته الموارد التي كانت تملكها احدى الجمعيات الدينية والمسماة عقد رهبان المسيح وكان هنري رئيساً لها . لذلك جمع في قلعته الخاصة الرياضيين ورسامي الخرائط والفلكيين واستخدم الأسرى العرب من المغاربة الذين أطلعوه على معلوماتهم عن الجزر القريبة والبعيدة وكذلك عن القوافل التجارية الضخمة وطرقها والتي كانت تسير بين المحيط الاطلسي والبحر الأحمر عبر الصحراء الكبرى ثم اسس مدرسة بحرية نظامية للملاحين والقباطنة والبحارة وهي اساس الأكاديمية البحرية في (ساجرس) وجمع حوله العديد من المغامرين والمتعصبين ممن تهيأت أفئدتهم للقيام بغزو البحار وتذليل الصعوبات بروح الحروب الصليبية . ودفعهم للمغامرة والتوغل بعيداً في البحر وعلى السواحل الأفريقية بعد ان كان البحارة يرفضون تجاوز حدوداً معينة على السواحل الأفريقية بسبب الاعتقاد بأنهم سيصبحون زنوجاً وتصبح بشرتهم سوداء اذا قطعوا هذه الحدود وقد ادخل التحسينات الكبيرة على صنع السفينة المعروفة باسم الكارفيل حتى بلغ بها حد الاتقان وكانت هذه السفينة سريعة وخفيفة ولكنها قوية وقادرة على الابحار قريباً من السواحل وبامكانها دخول المستنقعات الساحلية ، كما ادخل التحسينات على صناعة السفن الثقيلة المعروفة باسم (الغليون) وبالرغم من انها كانت بطيئة لثقلها الا انها كانت تستطيع حمل المدافع .



وقد لقي هنري الملاح التشجيع من باباوات روما وخاصة البابا نيقولا الخامس الذي وصف هنري الملاح بأنه (دفع باسم الله الى أقصى البلاد وابعدها عن مجال ما نعلم كما ادخل بين احضان الكاثوليكية الفارين من اعداء الله واعداء المسيح مثل العرب . . . الخ) ثم اعطاه تفويضاً بملكية الأراضي التي يفتحها اذا تم على يديه إختراق المحيط ملاحة حتى بلادالهند والتي يقال انها هي الأخرى خاضعة للمسيح ، وان هو توصل الى انشاء العلاقات بينه وبين هؤ لاء الناس فإنه سيتمكن من حضهم على التضحية لبذل العون المسيحي والضرب على اعداء الدين وسيستطيع في الوقت نفسه ان يدخل الطاعة والخضوع بإذن من الملك جميع الوثنيين الذين لم تمسهم حتى الآن يد الاسلام ويدخل اسم المسيح في نطاق عملهم . .» «وقد رأينا بعد التأمل العميق وبعد ان وضعنا في حياتنا اننا برسائلنا الرسولية قد منحنا الملك الفونسو الحق الكامل المطلق في غزو وفتح وقهر جميع المدن الواقعة تحت حكم اعداء المسيح مسلمين كانوا او وثنيين فإننا نريد برسائلنا الرسولية هذه أن يقوم نفس «الملك الفونسو» والأمير وجميع حلفائهم منفردين دون غيرهم بكافة الحقوق في احتلال وامتلاك جميع الأجزاء المذكورة والموانىء والبحار المذكورة ادناه . كما انه محظور على جميع المسيحيين المخلصين دون اذن من الفونسو المذكور وحلفائه ان يقيدوا على مالهم من سيادة ، وستصبح جميع الفتوح التي تمت حتى اليوم او التي ستتم في قابل الأيام او الفتوح التي تمتد الى رأس (باجادور) ورأس نون حتى ساحل غينية وجميع بلاد الشرق على الدوام والى الأبد في المستقبل تحت سيادة الملك الفونسو .

في الثالث عشر من اذار عام ١٤٥٦ أكد البابا (كاليكستوس) الثالث بمرسوم بابوي المنحة التي وهبها البابا للملك البرتغالي الفونسو وللأمير هنري الملاح . وهكذا تمكن هذا من الحصول على كل شيء وهي أمور ذات اهمية كبيرة في القرن الخامس عشر لأنها اصبحت تعد حقاً مطلقاً لا سبيل الى منازعته . فضلاً عن اعلانه عن غاياته السياسية والدينية . ولم يفرق هذا المرسوم البابوي بين الدوافع الدينية والتجارية فالدافع الديني الداعي لفتح الأراضي الوثنية من اجل المسيح لا يختلف عن الحمية الوطنية المتعصبة بالدعوى الى توجيه الضربات الى جذور الاسلام وبمهاجمته من الخلف» وكان الهدف الأخير تجارياً بحتاً .

عندما توفي الأمير هنري كان البحار البرتغاليون قد وصلوا جزر الرأس الأخضر . وقد اكتشفت هذه عام ١٤٥٦ م وكذلك الى جزر الآزور وقد جعلت هذه الجزر كقواعد اولية للحملات القادمة التي قادت البرتغاليين لاكتشاف البرازيل قبل كولومبس كما وصل هؤلاء الى جزر (سان تومية) وآنوبوم وتم اجتياز خط الاستواء .

وبعد التوسع في الفتوحات في كلا الطرفين الأسباني والبرتغالي وازداد الصدام بينهما على المناطق المكتشفة تم الاتفاق بينهما في التاسع من حزيران عام ١٤٩٤ م على اقتسام العالم ووقع الطرفان اتفاقية (ترويسلهاس) المشهورة التي حددت خطاً يقع للغرب من جزر فردي بنحو ٣٧٠ فرسخ وجعلته حداً فاصلاً ما بين ممتلكات الأسبان وممتلكات البرتغال وقد بارك البابا اسكندر الثالث هذه الاتفاقية التي وضعت حداً للخصام بين الطرفين وجعلتهما يركزان جهودهما ، كل منهم في اتجاه ، لا يمكن أن يصطدم بالآخر لذلك اتجه البرتغاليون بكل قوتهم لفتح طريق الهند في حين كان ا لاسبانيون يستعمرون امريكا في الوقت الذي كانت فيه الحملات المنظمة على المبادىء التي وضعها هنري الملاح خاصة في عهد جون الثاني عام ١٤٨١ ـ ١٤٩٥ تنطلق نحو السواحل الافريقية وجعل الرحلات الاستكشافية دورية يقودها النبلاء الذين عارضوا مشاريعه في بادىء الأمر . فوصل المستكشفون الى الكونغو (زائير) ثم الى سانتا ماريا في انغولا ولم يكتف الملك ا لمذكور بدفع الحملات البحرية بل أرسل عن طريق البر عام ١٤٨٧ أحد العسكريين وهو (جوايرس دي كوافيلو) يرافقه (الفونس دي بينف) ليستطلعا المناطق الشرقية ويصلا الى الهند حيث يصبح كوافيلو سفير للبرتغال لدى البريسترجون (القديس يوحنا) ، وكان البرتغاليون يعتقدون خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر بوجوده على رأس دولة قوية في آسيا ثم قيل في القرنين الرابع عشر والخامس عشر انه ملك اثيوبية (أي الحبشة) . وقد وصل كوافيلو عام ١٤٨٨ الى الهند وزار ساحل المالبيار قبل وصول فاسكو دغاما بعشر سنين . وكان قد فصل عن اصدقائه في عدن فلبس اللباس العربي وزار في طريقه للهند جزيرة هرمز في الخليج العربي وكذلك زار مدينة سفاله على الساحل الشرقي لافريقيا . وكأنه كان يضع الأسس لامبراطورية البرتغال القادمة ثم عاد فاتجه غرباً حتى بلغ القاهرة وفيها ترافق مع الأب ابراهام من (بيجا) وكان هو الآخر قد ارسل من قبل الملك البرتغالي الى بغداد وفارس مع رائد اخر يقال له جوزف من

(لاميجو) وكان هذا قد أعدتقريرا عن جزيرة هرمز . وقد عاد كوافيلو مع رائد اخر الى هرمز ومنها الى عدن بمفرده ومنها انتقل الى الحبشة حيث لقي ملكها وهو يعتقد بأنه (البريستر جون).فاستقر كوافيلو في الحبشة بعد ذلك وتوفي فيها .

خلال هذه الفترة كانت الحملات الاستكشافية تسير على قدم وساق وكانت في كل مرة تتقدم الواحدة على الأخرى مستفيدة من تجارب الأولى في زيادة المؤ ن وتقوية تحمل السفن للعواصف وزيادة اتساعها حتى وصل بارتليمي دياز عام ١٤٩٧ الى رأس العواصف في اقصى الطرف السفلي للقارة الأفريقية وسماه رأس الرجاء الصالح ويعتبر (دياز) اعظم القباطنة البرتغاليين بعد ان اصبح طريق الهند مفتوحاً امامه في الوقت الذي كان كريستوف كولومبوس يعود من رحلته التاريخية بعد اكتشاف امريكا وهو يعتقد انه اكتشف الهند . وقد رفض جان الثاني قول كريستوف كولومبس ولم يعتقد باكتشافه الهند ، واصر على القول بأن الطريق الشرقي هو طريق الهند وعلى هذا دفع بحملة فاسكو دغاما وتم تجهيزها بأربع سفن وابتدأت رحلتها التاريخية في الثامن من حزيران عام ١٤٩٧ رغم معارضة النبلاء والمجلس بسبب مصاريفها الكبيرة على شعب صغير . وكان مع فاسكو دغاما عدد من ا لبحارة والقباطنة المدربين في مدرسة هنري الملاح البحرية وقد دار فاسكودغاما حول افريقية ووصل الى مالندي الواقعة على الساحل الشرقي للقارة الافريقية (تنزانيا) وتعرف على البحار العربي المشهور احمد بن ماجد فقاده هذا الى قاليقوط في الهند وكان وصوله في ٢٧ إ ايار ١٤٩٨ وهكذا انتهت اول مرحلة من مراحل تاريخ الاكتشاف البرتغالي. وكانت المنطقة التي وصل اليها فاسكو دغاما هي الأخرى تدخل في مرحلة تاريخية جديدة حيث انقلبت فيها الأوضاع رأساً على عقب بعد وصول البرتغاليين وسيرتهم السيئة . وكانت سفن دغاما اولى السفن الأوربية التي وصلت الهند في العصر الحديث ثم تتابعت السفن ولا تزال تسير حتى الآن مع التغير المتواصل في اشكالها ونوع حمولتها واهدافها .

الفصل الثالث

الامبراطورية البرتغالية
في المحيط الهندي وافريقيا

ـ وصول فاسكو دغاما الى قاليقوط واكتشاف طريق الهند ـ اهمية الاكتشاف بالنسبة لخطط البرتغاليين المقبلة ـ النفوذ العربي والتعاون بينهم وبين الزاموريين ـ حملة بدرو الفاريز كبرال ـ تعيين فرانسيسكو دالميدا حاكما للمستعمرات البرتغالية في الشرق ـ المعارك البحرية بين البرتغاليين والعرب والزاموريين ـ وصول تريستا وداكونها والبوكيرك الى الشرق ـ اهداف الحملة ـ اعمال البوكيرك الوحشية ضد العرب ـ احتلال هرمز وسواحل البحر العربي العمانية ـ رحلات البوكيرك السابقة ـ عداوته للعرب ـ تعيين البوكيرك حاكما عاما ونائبا للملك ـ ستراتيجية البوكيرك في تنظيم الامبراطورية البرتغالية ـ محاولة احتلال قاليقوط وهزيمة البرتغاليين ـ احتلال غوا ـ غوا تصبح عاصمة للامبراطورية البرتغالية ـ احتلال ملقا ونتائجه ـ القواعد الرئيسية للامبراطورية البرتغالية ـ احتلال هرمز ـ الاتصال مع الفرس ـ وفاة البوكيرك وصفاته العامة ـ اسباب التفوق البرتغالي على العرب ـ الامبراطورية البرتغالية وطريقة الحكم فيها ـ عوامل الضعف في الامبراطورية البرتغالية ـ النتائج الأولية للاكتشافات البرتغالية .



الفصل الثالث

الامبراطورية البرتغالية في المحيط الهندي وافريقيا

تسنى للبرتغاليين بوصول فاسكودغاما الى الهند عن طريق البحر ووصل (كوافيلو) وغيره عن طريق البر تحقيق حلمهم الكبير الذي كانوا يسعون اليه منذ اوائل القرن الرابع عشر وبذلوا في سبيل ذلك الجهد والمال والتضحيات الجسام . وهو الوصول الى الهند والسيطرة على مراكز التجارة والالتفاف حول القوى العربية المسلمة وضربها من الخلف والوصول الى مكة والمدينة وتدميرهما . والقضاء على الاحتكار التجاري القائم بين البندقية والعرب ، وها هو طريق الهند قد فتح وهذه هي الهند بلاد الغنى والثروه والأسرار وما عليهم الا تكملة الطريق ليصبحوا سادة العالم .

والواقع ان هذه الرحلة لم تحقق للبرتغاليين المجد والنصر فقط باعتبارهم اول امة اوربية وصلت الشرق واصبح ملوكها يلقبون بمباركة البابا في روما «اسياد الملاحة والفتح والتجارة ببلاد العرب وبلاد الحبشة وفارس والهند» ولكن احدثت هذه الرحلة ثورة ذات ابعاد عميقة في تجارة اوربا وكان لها نتائجها الكبيرة والبعيدة لفائدة اوربا والخسارة للشرق .

قد توفرت للبرتغاليين بعد عودة فاسكو دغاما الى لشبونة في ايلول ١٤٩٩ كل المعلومات الضرورية والهامة والأسس الرئيسية لوضع الخطط الستراتيجية لاستغلال الطريق استغلالاً كاملاً وفرض السيطرة البرتغالية على تلك المياه البعيدة بأسرع ما يمكن .

كانت اولى العلومات وهي التي اثارت دهشة فاسكو دغاما هو الوجود العربي في المحيط الهندي وها هو واصحابه يجدون العرب اعداءهم الألداء أمامهم وجهاً لوجه ويسيطرون على مختلف الطرق البحرية . وهنا ادرك القادة البرتغاليون ضخامة العقبات التي ستواجههم بوجود هؤلاء العرب خاصة والمسلمين عامة في تلك المنطقة . لذلك بدأت الخطط والتفكير وتنظيم القوى للقضاء عليهم والتخلص منهم بأي طريقة كانت .

ضمن هذاالتصميمظهر للبرتغاليين اهمية افريقية الشرقيةبالنسبةلخطط المستقبل كقاعدة انطلاق نحو الهند من الوجهة العسكرية اما من الوجهة الاقتصادية فكان وجود معدن الذهب بين ايدي السكان . فعندما وصل فاسكو دغاما الى سواحل افريقية الشرقية وجد امامه امارات ودول اسلامية عربية وسواحلية ولكنها كلها تدين للحكام العرب بالولاء وخاصةلحكام مصر من المماليك في ذلك الوقت، وقد اعتذر حاكم (اوجه) الواقعة شمال ماليندي عن دفع الجزية للقائد البرتغالي على اساس انه يتبع السلطان المملوكي في القاهرة ، كما رفض جميع الحكام التعاون مع فاسكو دغاما عدا حاكم ماليندي الذي كان يأمل بمساعدة البرتغال للتخلص من تبعيته لحاكم (كلوه) الذي استقبل فاسكو دغاما باطلاق النار على السفن البرتغالية . ومنذ ذلك التاريخ بدأت مرحلة من مراحل الصراع العنيف بين البرتغاليين وبين هذه الامارات التي تطل على الساحل الهندي، بحيث يمكن القول بأن حرباً صليبية اخرى قد انتقلت الى هذه المنطقةمن العالم في القرن السادس عشر وشملت المنطقة مابين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي وانتقلت معها جميع الفظائع التي تميزت بها تلك الحروب بالاضافة الى شراسة البرتغاليين وقسوتهم ، وحاكم ماليندي هذا هو الذي امد فاسكو دغاما اثناء عودته من الهند بالملاحين والرجال بعد ان فقد هذا اغلب بحارته فمن اصل ١٧٠ رجلاً لم يبق معه سوى (٥٥) رجلاً .

اما الذهب فكان ضروريا للتعامل مع الشرق لشراء التوابل فتجار الهند في ملقا لا يتعاملون الا بالذهب . وكان هذا المعدن الثمين يصل الى السواحل من مناجمه في زيمبابوي الحالية (روديسيا الجنوبية سابقاً) وكان العرب يعرفون هذه المناجم ويستفيدون منها وقد تعجب فاسكو دغاما من النفوذ الذي كان للعرب لدى الزامورين وهم حكام منطقة واسعة على ساحل الهند، وعاصمتهم (قاليقوط) اول مدينة شاهدها فاسكو دغاما في الشرق . ورغم انهم كانوا من الهندوس كانوا على صلة وثيقة بالعرب المسلمين وكانت بيدهم تجارة التوابل وكانت قاليقوط تعتبر المركز الرئيسي لتجارة التوابل في تلك الأرجاء بسبب بموقعها الممتاز كنقطة متوسطة ولم تكن التجارة قاصرة على الفلفل وحب الهيل (الهال) والمنتجات الأخرى في ساحل ملبار التي تقع فيها دولة (الزامورين) بل كانت تصل قاليقوط التوابل القادمة من جزر

المحيط الكبير وكان اتجاه الرياح الموسمية الملائم للوصل الى قاليقوط يزيد في اهمية قاليقوط كمركز تجاري هام لهذه التجارة الثمينة .

لقد كانت العلاقات وثيقة كما ذكرنا بين العرب والزامورين الهندوس رغم ان الهندوس كانوا في صراع قوي مع الاسلام القادم مع الممالك الاسلامية في الهند . ويعود ذلك الى التعاون التجاري القائم بين الطرفين خاصة مع مماليك مصر والبيوتات التجارية هناك منذ قرون ، وكان لتجار قاليقوط من الهنود والعرب مستودعات ووكالات تصل اليها بضائعهم خاصة في القاهرة والاسكندرية . وكذلك في مدينة (فاس) في المغرب الأقصى وكانت البضائع تصل عن طريق القوافل عبر الصحراء الكبرى من السودان ومن فاس كانت تسير القوافل الى الأندلس ومنها الى اوربا . ومن مصر كانت بحرية البندقية تنقل البضائع الى اوربا . وقد رأينا كيف ان احتكار البندقية للتجارة مع مصر أحد الأسباب التي دفعت البرتغاليين لركوب البحر نحو الهند بتشجيع من اهل جنوا .

اما الشيء الذي لم يكن بالحسبان هو عدم وجود اثر للمسيحية في الهند كما كان الاعتقاد السائد لدى البرتغاليين وحتى بابا روما نيقولا الخامس الذي كان يعتقد بوجود حاكم مسيحي في الهند حتى ان فاسكو دغاما دخل معبداً هندوكياً في قاليقوط ظانا منه بأنه كنيسة مسيحية وكانت وصية البابا التعاون مع هذا الحاكم المسيحي لضرب العرب .

وبعد تجمع هذه المعلومات الهامة تم اعداد الخطط والأسس التي يجب ان تسير بموجبها الحملات البحرية المتتابعة ، كما حددت اهدافها الاقتصادية والسياسية والجغرافية وتم اعدادها بدقة . وقد ساعد البرتغاليين على تحمل اعباء تمويل هذه الرحلات رجال المال في مدينة انفرس (انتورب) الواقعة على ساحل بحر الشمال البلجيكي وهي لا تزال اكبر ميناء في بلجيكا ، اذ كان هؤلاء قد ادركوا الفوائد الهائلة التي ستعود عليهم من حركة الاستكشاف هذه في مجال التجارة العالمية فسارعوا الى مد البرتغاليين بالمال بعد تأكدهم من الأرباح الطائلة التي ستصلهم .

تبع حملة فاسكو دغاما حملة بقيادة (بدرو الفاريز كبرال) الذي يوصل الهند ومعه ثلاثه وثلاثون سفينة تحمل الفاً وخمسمائة رجل ولم يلاق الترحاب الذي لقيه فاسكو دغاما من الزامورين بل رفضوا استقباله وقاوموه بسبب نواياه السيئة عليهم وكادوا ان

يفتكوا به بالرغم من قوة مدفعية سفنه فاضطر للانسحاب عائداً الى البرتغال . وتبعه مرة ثانية فاسكو دغاما على رأس حملة قوية ايضاً تضم خمسة عشر سفينة كبيرة مجهزة بمدفعية قوية واشرعتها مثلثية التي اقتبسها البرتغاليون من العرب وتحمل هذه السفن ثمانمائة جندي ، وما كاد فاسكو دغاما يصل الى السواحل الأفريقية حتى بدأ بأعماله العدوانية المريعة نحو سكان الشواطىء ليثبت سيادة مولاه (حسب اعتقاده) الملك على البحار ، كما اخذ للتعرض للسفن العربية والاسلامية خاصة التي كانت تحمل الحجاج ولقيت قوافل الحجاج الأمرين من الأسطول البرتغالي بقيادة فاسكو دغاما الذي كان يأخذ حمولة سفن الحجاج ويسبي النساء ويبيع الرجال كالعبيد ثم يحرق السفن وان لم يستطع كان يحرق السفن بمن فيها . وقد ركز فاسكو دغاما على تثبيت حكم البرتغاليين في شرق افريقية واجبر اهلها على دفع الجزية وبعد ذلك اتجه للهند وعندما وصل الى بلاد (الزامورين) وجدهم مستعدين للقائه بجيش واسطول كبيرين بعد سماعهم بأعماله المجرمة . وحدثت معارك بينه وبينهم واستطاعوا هزيمته بالرغم من مدفعيته وكانوا بقيادة احد امراء البحر العرب المعروف باسم امير البحر (قاسم) الذي اظهر براعة نادرة في المناورة للتخلص من قنابل الأسطول البرتغالي ، فاضطر فاسكودغاما لايقاف المعركة والهرب وكانت سفنه اسرع من سفن الهنود ومايجدر ذكره ان الموسوعات الأوربية العلمية والجغرافية تذكر فاسكو دغاما كأحد العظماء في التاريخ العالمي ولكنها تتغاضى عن اعماله السيئة والمشينة وعن قسوته تجاه كل من كان يصادفه من العرب ، بعد ذلك وصل الى المنطقة اسطول برتغالي آخر بقيادة (لوبو سواريس) فاستطاع هذا مفاجأة الزامورين ودمر سفنهم بمدفعيته وهنا ادرك الملك الهندي (الزامورين) ان سفنه غير متكافئة مع سفن البرتغاليين المجهزة بالمدفعية لذلك صمم على طلب المساعدة من العرب واستنجد بسلطان مصر فأمده هذا بأسطول كبير يحمل ١٥٠٠ جندي بقيادة (مير حسين) مع عدد من ا لمراكب المسلحة بالمدفعية الحديثة .

خلال هذه الفترة عين الدون فرانسيسكو الميدا حاكماً عاماً للمستعمرات البرتغالية في الشرق فاتخذ هذا جزيرة (كوتشين) عاصمة له (١٥٠٥ - ١٥٠٩ م) وكان هذا محبا للأساليب السلمية والسياسية في معاملة الشعوب بعكس القادة البرتغال الآخرين وكان يؤمن بضرورة التوقف ويعارض كل سياسة ترمي الى التوسع والفتح ، ولكنه كان يؤمن بضرورة حصول البرتغال على السيادة البحرية

لتأمين طرق التجارة، وعلى هذا الأساس استعد للقاء الأسطول العربي القادم من مصر الذي اخذ بالتحرك جنوباً بعد وصوله الى جزيرة (ديو) مع من انضم اليه من سفن (الزامورين) . وكان اللقاء الأول بين الأسطولين في منتصف الطريق وكان البرتغاليون بقيادة لورنزو الميدا ابن فرانسيسكو الميدا نائب الملك، وكانت معركة مدفعية بين الأسطولين وفشل البرتغاليون في محاولاتهم للصعود على ظهر السفن العربية المصرية وبعد يومين من القتال اخذ البرتغاليون يفكرون بالهرب خاصة بعد اصابة سفينة القيادة ومقتل ابن نائب الملك وقد حاول الميدا الأب جمع كل ما امكنه من سفن ورجال وانطلق نحو الشمال من كوتشين لملاقاة (ميرحسين) وكان معه ثمانية عشر سفينة والف ومائتا رجل ، وبلغ ديو في الثاني من كانون ثاني ١٥٠٩ واخذ ينتظر السفن العربية والهندية وساعده على ذلك (مالك أياز) وهو اوربي مسلم وكان يحكم (ديو) من قبل ملك جوجيرات . الذي انضم سراً الى البرتغاليين وحرم مير حسين من المدد والمؤ ن ومع ذلك صمم القائد العربي خوض المعركة بعشرة سفن والتي كانت الوحيدة التي تحمل المدافع في حين كانت سفن الزامورين غير مسلحة ولا يعرفون المدفعية ، وفي ٣ شباط ١٥٠٩ التقى الطرفان خارج (ديو) ولم تكن نتيجة الاشتباك حاسمة ولكن ميرحسين اضطر لترك المعركة بسبب النقص في المؤ من والزخيرة وانسحب الى مصر بسبب خيانة حاكم ديو وسلطان جوجيرات .

بالرغم من أن قوة الزامورين البحرية لم تهزم من قبل البرتغاليين وظلت تقاومهم مدة تسعين عاماً اخرى حتى عام ١٥٩٩ ، الا أن انسحاب الأسطول المصري بمدفعيته جعل من البرتغاليين سادة البحار الشرقية لأن المراكب الهندية لم تكن لتستطيع الابتعاد عن الشاطيء كثيراً وهذا ما جعل البرتغاليين احراراً في اعالي البحار ، واصبحت التجارة الهندية تحت رحمة البرتغاليين لمدة تربو على قرن من الزمن وكان الفضل لمراكبهم المسلحة بالمدفعية . والواقع ان اسطول الميرحسين كان اول واخر مقاومة قوية لقيها البرتغاليون لفترة طويلة من ا لزمن ، والتفوق كان ظاهرا لدى الميرحسين من ناحية القيادة والتسليح لولا خيانة صاحب ديو الزنديق .

بعد ذلك وصل (ترستاو داكونها) عام ١٥٠٦ الى الشرق على رأس اسطول ضخم كنائب للملك وحاكم للهند البرتغالية اي بعد سنة من تولي (دالميدا) منصبه ولم تكن مهمة (داكونها) على ساحل الملبار بل كان عليه أن يرتاد السواحل الافريقية

الشرقية وجزر المحيط القريبة من الشواطىء لبناء القلاع التي تحمي طريق الهند ثم سد منافذ المحيط الهندي الذي تصله بقلب العالم الاسلامي مثل مضيق هرمز في مدخل الخليج العربي ومضيق باب المندب على مدخل البحر الأحمر لمنع كل نجدات تصل من البلاد العربية التي كانت في ذلك الوقت تستطيع ان تقدم المساعدة للقوى الاسلامية الموجودة في المنطقة كما حدث بالنسبة للمير حسين . لذلك اهتمت حملة (داكوتها) باخضاع الامارات التي على الساحل الصومالي واعتمدت على تأييد حاكم مالنيدي الذي ظل على ولائه للبرتغال وقبل دخول البحر الأحمر طافت الحملة بمدن (لامو) (ويراوه) الواقفين على السواحل الكينية والصومالية وأخضعتهما . ويعتقد أن سكان براوه الحاليين من أصل برتغالي بسبب بشرتهم البيضاء وهم مسلمون ، وقد اصطدمت الحملة بحصون مدينة مقديشو (عاصمة الصومال) فقاومتهم مقاومة فعالة جعلتهم ينصرفون عنها بسرعة ، وقد ظلت محتفظة باستقلالها ولم يستطع البرتغاليون الاقتراب منها طيلة مدة بقائهم على السواحل الشرقية .

كان من جملة من رافقوا حملة (داكونها) الفونس البوكيرك الذي اشتهر اسمه فيما بعد وكان قائداً لخمس سفن . وكانت الخطة بناء قلعة في جزيرة سوقطرى يتابع داكونها سيره بعد ذلك الى الهند ويترك البوكيرك مع سفنه لمهاجمة موانىء البحر الأحمر ومضيق عدن وتدميرها ثم تدمير المدينتين المقدستين مكة والمدينة والقضاء على التجارة العربية كما كان يحمل اواصر سرية ليخلف الميدا كحاكم للهند . . وقد دب الخلاف بين القائدين حول الأفضلية في العمل واتجاه الحملة وكان رأي البوكيرك الاتجاه رأساً الى رأس جاردنوي (قرن افريقية) الواقع في شمال الصومال ثم احتلال سقطري قبل التوجه للهند واخيرا تم الاتفاق بين الطرفين بعد احتلالهم لجزيرة سقطرى التي لم تكن تهيؤ مكاناً ملائماً لاقامة قلعة وحامية بسبب جدبها ومناخها السيء وانقطاعها عن العالم فترة ستة أشهر تقريباً وبسبب صعوبة الاقتراب من الجزيرة طيلة فترة الرياح الموسمية . وكان الاتفاق يقضي باستلام البوكيرك للقسم الأكبر من السفن يتصرف كما يحلو له ويتابع كونها سيره . وقد توجه البوكيرك بسفنه الست الى البحر الأحمر بعد ان ترك احد قواده في سقطرى وحاول احتلال عدن وقصفها بالمدافع ثم اتجه الى مضيق هرمز عن طريق ساحل عمان مدمراً كل سفينة يصادفها في طريقه حتى وصل الى مدينة(قلهات) على الساحل العماني فاستقبله اهلها استقبالاً حافلاً. وفي ٢٢ آب

خرج من قلهان الى قريات فقاومه أهلها فاخضعها عنوة وأحرق سفنهـا والسفن التجارية الموجودة فيها واستباح المدينة وأسر عددا من الرجـال والنسـاء ثم أطلـق سراحهم بعد ان جذع انوفهم وصلم آذانهم . ثم توجه الى مسقط واحتلها وهـزم القوات المتجمعة في البر لمقاومته وأحرق المدينة واستسلمت له مدينة صحار بعد أن أخلاها اهلوها والتجأوا الى قلعة داخلية كبيرة . وتابع البوكيرك سيره الى خورفكان وتغلب على مقاومتها وأحرقها ثم توجه الى هرمز واحتلها وفرض الجزية على شيخها الذي اعلن تبعيته لملك البرتغال عام ١٥٠٧ . وقد بنى البـوكيرك في هرمـز قلعـة ضخمة وافتتح وكالة تجارية كدس فيها البضائع وأصبحت احدى القواعد الرئيسية للبرتغال في المنطقة .

أدت القسوة التي أظهرها البوكيرك الى خلاف مع ضباطه الذين طلبوا تحديد صلاحياته مما اضطره لترك هرمز بعد أن أصبح مقامه صعباً فيها . ومعه سفينتان فقط . . وقبل ابتعاده عنها قصفها ـ غاضباً ـ بالقنابل ، ولكن قبل اتجاهه للهنـد صمم على ارتياد السواحل الشرقية والغربية للخليج ونشر الذعر بين السكان وزار البحرين وشاهد مغاصات اللؤلؤ واشترى منها ثم توجه الى كوتشين ليتسلم الحكم فيها كنائب للملك وحاكم للمستعمرات ولكنه حتى ذلك الوقت لم يستطع تحقيق حلمه في فتح التجارة الفارسية مع اوربا . والقضـاء بشـكل كامـل على التجـارة العربية .

كان البوكيرك من طبقة النبلاء وقد حصل على تجارب حربية واسعـة خلال خدمته في افريقيا لمقاتلة العرب فيها بعد خروجهم من البرتغال وخدم في البحر تحت قيادة القائد (الفاريزكبـرال) ووصـل في عام ١٥٠٣ الى (كوتشـين) مع ابـن عمـه فرانسيسكو لتحكيم المدينة وتحصينها وبناء أول قلعة برتغالية في آسيا ووضع فيهـا حامية وفتح مركزاً تجارياً في (كويلون) ثم عاد الى لشبونة عام ١٥٠٤ واستقبل من قبل الملك عمانوويل الاول وأصبح من مستشاريه في وضع السياسة الخارجية . التي كانت تهيمن عليها روح صليبية ورثها هو ومليكه من جدهـم جون الثانـي وكان البوكيرك نفسه يكن حقداً لا فريد لـه للعرب وللمسلمين ولم يكن هناك تفرقة بين العربي والمسلم وكان همه القتل وعندما كلف بالحملات البرّية والبحرية نشر الذعر في كل المناطق الساحلية . وعندما احتل (غوا) فيا بعـد أبلـغ مليكه «بأنـه وضع

السيف على رقبة كل عربي حيثما أمكنه العثور على عربي وكان افلاته من يدي من المحال وقد ملأت بهم المساجد وأضرمت بها النار» .

عندما وصل البوكيرك الى / كوتشين/ بعد تركه / هرمز/ مطروداً من قبل جماعته لتسلم قيادة القوات البرتغالية في اول كانون اول عام ١٥٠٨ كان القائد الميدا في شغل شاغل بحروبه مع الزامورين والعرب بقيادة (مير-حسين) حيث هزم وقتل ابنه لذلك رفض تسليم السلطة للبوكيرك حتى ينتقم لولده من المصرين ووضع البوكيرك في السجن وبعد انسحاب المصرين بعد معركة (ديو) انتظر الميدا الأوامر التي وصلت من الملك تؤكد على تسليم القيادة الى البوكيرك . الذي تسلم قيادة المستعمرات (١٥٠٩م) ولديه رصيد كبير من التجارب كونت شخصيته كقائد من أعظم قواد العصر في نظر الأوروبيين ولكنه كان أسوأ انسان مر على تلك المناطق في التاريخ ولم يكن همه سوى القتل وتنفيذ مآربه الخبيثة بتدمير الاسلام والعرب . وكان أمامه الباب مفتوحاً لعدم وجود من يستطيع الوقوف في وجه هذه القوة الجديدة الحديثة التي تقابلها أساليب قديمة أكل عليها الدهر وشرب لذلك انهارت كل مقاومة امام هذا الشرس واخذ يحقق احلامه في السيطرة على التجارة العالمية وهو الذي وضع الأسس الستراتيجية التي بنيت عليها دوله البرتغال الهمجية .

كان البوكيرك يؤمن بالتفوق البحري وهو الذي يؤمن الحفاظ على الامبراطورية دون بعثرة جهود الشعب البرتغالي في ضم ممتلكات شاسعة لا يقوى على الاحتفاظ بها بسبب عدده المحدود والاكتفاء بالسيطرة على المنافذ البحرية كشرط ضروري لضمان التفوق البحري وحصر التجارة بيد البرتغاليين باعتبارها الهدف الاقتصادي الاول .

كانت النقاط الرئيسية التي حددها البوكيرك لتكون قواعد امبراطوريته الجديدة هي جزيرة هرمز للسيطرة على منافذ الخليج العربي ثم سوقطرى او عدن للسيطرة على مدخل البحر الأحمر الذي كان واسطة الاتصال مع اوروبا عن طريق برزخ السويس ثم ملقا للسيطرة على مضيق ملقا بحيث تتم مراقبة كل السفن الذاهبة او القادمة من المحيط الكبير والشرق الأقصى ثم سيلان وتكمل هذه القواعد ما كان لدى البرتغاليين من قواعد في شرق افريقية ولتحقيق المراقبة الفعلية والحماية

الضرورية كان لا بد من بناء قلاع دائمية تقيم فيها حاميات برتغالية وايجاد مستوطنات بقربها لتكون مراكز تجارية ومهمة هذه القلاع حماية المصالح التي يمثلها هذا المركز . ونشر النفوذ البرتغالي في البر .

كانت كوتشين صغيرة بالنسبة لأحلام البوكيرك لذلك فكر في احتلال مدينة قاليقوط لتصبح مركزه الرئيسي ، ولكن ذكريات البرتغاليين مع الزامورين كانت مؤلمة ومأساوية لذلك ارسلت البرتغال اسطولاً جديداً ليشد أزر البوكيرك ومساعدته على احتلال قاليقوط . وكان بقيادة المارشال الأعظم للبحرية البرتغالية وتوجه الأسطولان الى قاليقوط ، ولكن الزامورين استطاع التغلب على البرتغاليين اثناء محاولاتهم للنزول الى البر فقتل المارشال الأعظم مع عدد كبير من النبلاء وجرح البوكيرك نفسه واعيد للبحر ، وهكذا انتهت الحملة الأولى بكارثة مروعة خاصة ان قادة هذا الاسطول كانوا خير قادة وضباط البرتغال ، ولم تحاول بعد ذلك أية قوة اوربية خلال مائتين وثلاثين عاماً النزول الى البر الآسيوي ، وكانت نصيحة الجنرال ماك ارثر لحكومته في اثناء موته عدم النزول في البر الاسيوي خاصة الصيني . بعد هذه الهزيمة فكر البوكيرك باحتلال (غوا) وفشل في بادىء الأمر ولكنه استطاع بعد ذلك احتلالها في آذار (١٥١٠) م بمساعدة القرصان الهندي المشهور (تيموجا) . وكانت (غوا) تابعة لامبراطورية (عادل شاهي) الذي ارسل جيشاً لاخراج البوكيرك من المدينة ولكن البوكيرك عاود الهجوم على (غوا) في تشرين الثاني ثم احتلها . وكان هذا اول تعاون بين الهنود والبرتغاليين ضد المسلمين . وقد ساعد البوكيرك على احتلالها كون (غوا) تقع على اطراف امبراطورية عادل شاهي المسلم .

بعد هذا الانتصار على المسلمين اخذ الحكام الهنود يعتادون على وجود البرتغاليين فيما بينهم وجرى تعاون وثيق بين الطرفين ، فقد اخذ البرتغاليون يمدون الهندوس بالأسلحة والخيول وكان الهنود يمدون البرتغاليين بالمواد التموينية لذلك كانت هناك مصلحة في ابقاء البرتغاليين بالاضافة الى عداء الطرفين للدين الاسلامي .

خطط البوكيرك لجعل (غوا) عاصمة له وجعلها قاعدة اسطوله البحري لقتال المسلمين ومن جهة اخرى ستكون محطة تجارية كبرى والمركز الرئيسي التجاري

للبرتغال ، وجعل كل تجارة التوابل تمر عبرها ، واخذ يعمل على تكوين شعب خاص لها بالتزاوج بين رجاله ونساء ضحاياه واستدعاء المواطنين البرتغاليين للسكن فيها ، فازدهرت المدينة واخذ التجار يرتادونها حتى سميت ببابل الشرق وفي الوقت ذاته اصبحت مركزاً رئيسياً للدعارة والموبقات لم يشاهد مثلها في أي بلد آخر .

وبعد أن ثبت البوكيرك حكمه في (غوا) وعمل على تهيئتها اتجه لاحتلال ملقا في شبه جزيرة الملايو وكانت تعتبر بوابة الشرق الأقصى حيث يتم فيها تبادل المنتجات القادمة من الشرق الأقصى والقادمة من اوربا وكان احتلالها عام ١٥١١ م وبعد ان وضع فيها حامية ارسل السفن للتفتيش عن التوابل . ومن ملقا انطلق البرتغاليون نحو الشرق الأقصى وسواحل الصين واليابان واحتلوا مدينة (مكاو) على الساحل الصيني كما احتلوا نصف جزيرة تيمور، وعدا بعض الرحلات حول العالم التي قام بها ماجلان عام ١٥٢٢ والانكليزي فرانسيس درايك ما بين عامي ١٥٧٧ - ١٥٨٠ ظل البرتغاليون حوالي قرن من الزمن يعملون في الشرق بدون منازع .

باحتلال (ملقا) تركز صرح الامبراطورية التجارية البرتغاليةفمن قاعدته في (غوا) اخذ البوكيرك يحكم بشكل مباشر المنطقة الواسعة ما بين مضيق ملقا وساحل افريقية الشرقي وقسمت الى اربع مجموعات او مناطق يحكمها نائب له وهذه المجموعات هي ساحل افريقية الشرقية جزيرة هرمز وتوابعها على السواحل - جزيرة سيلان وملقة .

حاول البوكيرك بعد تثبيت حكمه في المحيط الهندي العودة الى البحر الأحمر والعودة لتحقيق حلمه بتدمير الكعبة وضرب المسلمين من الخلف . فحاول احتلال عدن عام ١٥١٣ ولكنه فشل امام دفاعاتها وحصونها القوية ثم حاول دخول البحر الأحمر ، فهبت عليه عواصف بقرب جزيرة (قمران) اليمنية فاضطر للرجوع الى البحر العربي والعودة الى (غوا) بعد أن احرق جزيرة (بريم) . ومرة ثانية حاول اخضاع قاليقوط وايضاً لم ينجح . وفي شباط عام ١٥١٥ عاد للهجوم عليها تصحبه ستة وعشرين سفينة ، وكانت الجزيرة في حالة هيجان شديد ساعده على احتلالها بسرعة . وهناك التقى بالسفير الايراني المرسل من قبل الشاه اسماعيل الصفوي ،

وعرض هذا عليه التعاون لقتال العرب والاتراك الذين بدأ ظهورهم في الخليج ، وطلب بعض السفن لتساعد الايرانيين على غزو البحرين ، والقطيف وقمع التمرد في مكران ، واقترح السفير عقد معاهدة تحالف مقابل السماح للبرتغاليين بالاقامة في جوادر ، ولكن البوكيرك مرض في ذلك الوقت فعين ابن اخيه (بيرو) قائداً لمرفأ هرمز ثم انه أبحر عائداً الى الهند ولم يمهله المرض فمات بالطريق قبل وصول سفينته الى (غوا) في ١٥ كانون اول ١٥١٥ . وهكذا انتهت حياة هذا القائد الكبير الذي طبع عصراً كاملاً بطابعه الخاص واتصف بالقسوة والشدة ، والعداء للاسلام ، وكان أسوأ مستعمر هو وخلفاؤه الذين ساروا على منهاجه فترة طويلة ، وكانت اعمالهم الرهيبة سبباً من اسباب سقوط امبراطوريتهم الكبيرة . واذا كان البرتغاليون يجعلونه بمصاف القديسين والأبطال القوميين الا انه بنظرنا ورغم تقديرنا لأهليته العسكرية هو سفاح شرير يملأ قلبه الحقد والكراهية لكل عربي مسلم وكانت شراسته مضرب المثل ولا شك ان ما قام به البوكيرك من تدمير البحرية العربية في المحيط الهندي يشبه ما قام به المغول والتتار في العراق والشام .

اسباب كثيرة ادت الى تفوق البرتغاليين على العرب في المحيط الهندي ، فقد وصل البرتغاليون الى الشرق تقودهم روح صليبية تدفعهم بحماس لمقاتلة العرب ، ورثوها عن آبائهم وأجدادهم الذين حاربوا ضدهم في اسبانيا والبرتغال . وكان كل برتغالي يعتقد بأنه يقوم بخدمة دينية في قتله العربي ، وقد توفر لهم القيادات المدربة والعناصر الشابة خاصة من طبقة النبلاء الذين كانوا يفضلون القيام بالمغامرات البعيدة عوضا عن البقاء تحت ظلم الملك ، وكان التفوق واضحاً في الصناعة البحرية ، ورغم كل التجهيزات العربية الفلكية المتقدمة الا ان صناعة السفن البرتغالية كانت في تطور فاق تطور صناعة السفن العربية ، خاصة المراكب المعروفة باسم (كرافيل) والتي جهزت فيما بعد بالمدافع فصناعتها كانت متقنة وازدادت سرعتها بعد تجهيزها بالأشرعة المثلثية التي اقتبسوها عن العرب . يضاف الى ذلك استطاعتها الابحار في البحار العالية ، وأكثر ما كان يسترعي انتباه المؤرخين ولا يزال سرعة تجهيز الحملات ، وادامة المعركة ، فلم تكن تخرج عمارة الى الشرق الا وتلحق بها عمارة اخرى كاملة التجهيز والعتاد وكان التناسق تاماً بين هذه العمارات البحرية ، والتوقيت دقيق ، لذلك كان البرتغاليون لا يستسلمون في حصار ما وكانوا يدافعون اطول مدة ممكنة وفي ذهنهن ان النجدة ستصلهم منذ خروجهم من

البرتغال ويعرفون عددها ومن هم قادتها ولا شك ان ذلك كان يرفع من معنوياتهم ويجعلهم يطيلون الحصار ويدافعون الدفاع المستميت بأمل وصول النجدات .

وفي الوقت ذاته لم يكن لدى العرب السفن القوية لكي تعمل في اعالي البحار ، وكانت المراكب العربية الأولى مربوطة برباطات الليف ومساميرها من الخشب لذلك لم تكن لتستطيع تحمل الأمواج الكبيرة . وقد جاء البرتغاليون بالمدافع التي ظهرت لأول مرة في المحيط الهندي . لذلك تفوقوا على سفن العرب والزامورين الخالية من الأسلحة النارية . ومن الطريف ان البرتغاليين تعلموا صناعة البارود والمدافع من العرب الأسبانيين ، واول السفن العربية التي وصلت بمدفعيتها كانت السفن المصرية التي قدمت مع مير حسين والتي فوجىء بوجودها البرتغاليين . واهم اسباب الضعف الحربي الفرقة التي كانت تجزئهم فلم تكن هناك دولة تضمهم فكل مدينة ساحلية كانت دولة قائمة بذاتها ولا تساعد المدينة الأخرى اذا اصابها مصاب . ولم يكن لهم اتصال وثيق مع الدول القائمة في جزيرة العرب ومصر ما وراء الصحراء (الربع الخالي) . وهكذا دائما وابدا لا يهزم العرب الا من الفرقة .

بالرغم من نظام الحكم الصارم الذي وضعه البوكيرك لامبراطوريته كان حكمها صعباً جداً ، فلم تكن امبراطورية بالمعنى الصحيح بل هي امبراطورية مائية ترتكز على نقاط فيها المراكز والمؤسسات التجارية ومبنية في مناطق استراتيجية من الناحية التجارية وكان نائب الملك في الهند وأركان حربه يعيشون في (غوا) وكان تحت تصرفهم عدد محدود من السفن البحرية متمركزة هناك بصورة دائمة وتقوم بدوريات منتظمة بحرية في اعالي البحار ليظل الطريق مفتوحاً للتجارة . وكان هناك ايضاً عدد محدود من الجنود البرتغاليين كاحتياط يعاونهم عدد آخر من الجنود المحليين المرتزقة وكانوا في بادىء الأمر يعتمدون على جنودهم فقط ولكن قلة عددهم اضطرتهم لاقامة علاقات جيدة مع دول المنطقة ويعقدون معها المعاهدات ويجندون منها جنوداً مرتزقة كمساعدين . وقد ظلوا لفترة طويلة يحاولون الابتعاد عن التعاون مع البحارة المسلمين ، وكانوا يستخدمون الهنود فقط ، ولكن في المدة الأخيرة تعاونوا مع البحارة المسلمين تعاونا كاملا ، وحاولوا ايضا التبشير بالدين المسيحي ولكنهم لم ينجحوا بشكل ملموس ، ولم يعتنق الدين المسيحي من الأفارقة

والأسيويين سوى عدد قليل في تلك ا لفترة .

لقد كانت اساليب البطش والقهر التي بنى عليها البرتغاليون دولتهم تحمل في طياتها اسباب ضعفها ، لذلك لم تقو على منافسة الدول البحرية الأخرى ، عندما بدأت اساطيلها تظهر في المحيط الهندي في أواخر القرن السادس عشر ، حيث ظهرت قوى عديدة اصطدمت بالبرتغاليين وعملت على تهديم دولتهم ذات السمعة السيئة لدى كل سكان المناطق التي احتكت بها ، وهذه القوى هي العثمانيون - الهولنديون - العمانيون - الفرنسيون واخيرا الانكليز والذي أجهز على بقايا الامبراطورية البرتغالية هم العمانيون (اليعاربة) والهولنديون . وكان عدد الشعب البرتغالي القليل الذي لم يكن يتجاوز المليون خلال القرن السادس عشر من اهم عوامل الضعف ، فلم يتمكن من الاحتفاظ بامبراطورية مترامية الاطراف بعدد قليل من الجنود ويحتاج الأمر الى اعداد كبيرة من الجنود موزعة على القواعد لحمايتها واضطروا في اواخر ايامهم للاعتماد على الرقيق والعناصر المحلية التي لم يكن لها نفس حماس البرتغالي في القتال فالأول كان يقاتل بهدف حماية امبراطوريته اما الآخرون فلم يكن لهم هدف للقتال من اجله وقد اساء للبرتغاليين كما قلنا سمعتهم ا لسيئة حتى على محاولاتهم لنشر الدعوة المسيحية ، وكانت الضربة القوية التي وجهت للبرتغاليين هي سقوط بلادهم بيد الاسبان عام (١٥٨٠) وفقدانهم لاستقلالهم الذي اثر بشكل ملموس على امبراطوريتهم الهندية التي فقدت الدعم من بلادها . واهم من ذلك هو عدم تطور البرتغاليين لذلك عندما ظهرت القوى الاوربية في الشرق كان لديها صناعة جيدة حاولت مبادلتها في المستعمرات بمنتجات محلية في حين ان البرتغاليين كان همهم الوحيد حصر تجارة التوابل بيدهم وفرض اسعارها من قبلهم .

- لقد ادى انفتاح اوربا على القارتين القديمتن اسيا وامريكا الى تغييرات كبيرة في الدول الأوربية خاصة اسبانيا والبرتغال صاحبتا السبق في هذه الاكتشافات ولذلك كانتا اول من لمس او بالأحرى أحس بهذا التغيير . فقد ظلت الحكومة البرتغالية فترة طويلة تجني الفوائد الجمة من تجارتها مع الشرق ، وحصل عدد كبير من الأفراد على ثروات كبيرة ، ولكن المواد والمنتجات الشرقية الممتازة كانت ذات تكاليف كبيرة بالنسبة للمصنوعات التي كانت تبادل بها البرتغال وكان الميزان التجاري دائماً في صالح البضائع الشرقية لذلك كان يدفع ثمنها نقداً من الفضة والذهب وادى هذا الى

تسرب كميات ضخمة منها الى الشرق من اوربا قدرت بمليار من العملة المتعارف عليها في ذلك الوقت ، ولم يؤ د هذا الى التضخم في الشرق بل ان هذه الأموال الذهبية والفضية دخلت في الصناديق الحديدية لكبار التجار والحكام ، ولم تكن الأسعار لتزداد بشكل يخلق طلباً على المنتجات الغربية التي بامكانها أن تستعيد قسماً او كل هذه الأموال التي دفعت ، لقد حصل البرتغاليون على القسم الأكبر من هذا المعدن الثمين لقاء التوابل التي كانوا يبيعونها في وكالتهم التجارية في ميناء (انفرس) كما اخذت تحصل عليه من افريقيا . ولكن كان هناك تسرب وعدم توازن بين ما يأخذه البرتغاليون وما يدفعوه لقاء البضائع وعلى مر الزمن اصبحت تجارتهم خاسرة ووجدت الحكومة البرتغالية نفسها عندما تولى جون الثالث الحكم مضطرة لاخلاء كثير من القواعد فيما وراء البحار كانت تمولها الحكومة ، والذي انقذ البرتغال من الانهيار في ذلك الوقت تدفق الذهب والجواهر من البرازيل بكميات ضخمة .

من النتائج الرئيسية لافتتاح طريق الهند التعرف على القارة الافريقية ثم استعمارها وكان البرتغاليون اول من فكر في استعمار القارة الجديدة بعد أن بدأوا يفقدون مرتكزاتهم الرئيسية في الشرق ، فبعد ان كانوا يكتفون من الممالك الاسلامية في ساحل القارة الشرقي بدفع الأتاوة السنوية او الجزية ، الا انهم أخذوا بالتفكير بدخول القارة متخذين نفس الأسلوب العربي اي بالدخول الى اعماق البلاد والوصول الى القبائل التي لديها الذهب بعد أن فشل اسلوبهم بانتظارهم على الساحل لذلك صمموا على ضم حوض الزامبيزي بأكمله الى امبراطوريتهم وفرض ادارة برتغالية على القبائل ، وهنا وجدوا امامهم ايضاً التجار العرب والمستشارين لدى رؤ ساء القبائل . وكان المبشرون قد سبقوا مشروعات البرتغال التوسعية وتسللوا الى داخل افريقيا لنشر الديانة المسيحية ، وقد استطاعوا فرض ارادتهم على القبائل بالقوة واخراج العرب منهاولكن دخولهم في المنازعات مابين القبائل أدى في النهاية الى اضطرارهم لترك داخل القارة بعد أن فشلوا في معرفة المكان الذي كان رجال القبائل يحصلون منه على الذهب . ومن الساحل اخذوا ينظمون القوافل الى داخل القارة واحتكروا تجارتها ، وقد ركز البرتغاليون مواقعهم في جنوب الممالك الاسلامية ، مما اضطر كثير من المسلمين والعرب لتركها لهم وكانت حدودهم تصل الى سفاله ولم يتخطوها وعندما استطاع العثمانيون من طرد البرتغاليين من الأقسام الشمالية ظلت بيد هؤ لاء الأقسام الجنوبية والتي عرفت فيما بعد باسم موزمبيق التي

ظلت تحت الحكم البرتغالي حتى السبعينيات حيث اخرجوا منها ومن انغولا ، والتاريخ يعيد نفسه فقد لقي هؤلاء البرتغاليون نفس المصير الذي اذاقوه للعرب عندما اخرجوهم من جنوب البرتغال وكانت تعرف باسم (الجرف) وكذلك في اصطدامهم معهم في شرق افريقيا والسواحل الندية ، لقد خرج البرتغاليون من انغولا وموزامبيق بعد حوالي خمس قرون من دخولهم اليها وجرت مذابح كثيرة وسالت دماؤهم وتشتت شعب انغولا وموزامبيق البرتغالي بين جنوب افريقية والبرتغال والبرازيل .

خلال هذه الفترة كان البحر المتوسط هو الآخر يشهد تطورات شتى فبالرغم من بقاء فينيسيا (البندقية) فترة طويلة طيلة القرن السادس عشر تقريباً صاحبة النفوذ خاصة بعد انتصارها على الأتراك في (ليبانتو) عام ١٥٧١ بعد تجمع اساطيل اسبانية وايطالية بقيادة دون جوان النمساوي ضد الأتراك بقيادة خير الدين بربروس . الا أن دولا اخرى دخلت البحر الأبيض المتوسط ولم تعد تشكل بلاداً خلفية بل ان دول الاطلنطي وجدت فيه المجال للتنافس والاقتتال وهذه الدول هي هولندا وفرانسا ثم انكلترا واخذ هؤلاء يحلون محل الدول العائدة للمدن الايطالية فلم تعد هذه المدن تستطيع الوقوف امام الدول ذات التعداد السكاني الكبير فقد ابتدأ عصر الدول والامبراطوريات في البحر المتوسط ودالت دولة المدن فاضمحلت البندقية شيئاً فشيئاً هي وغيرها من المدن الايطالية منذ القرن السابع عشر بسبب اوضاعهم غير الطبيعية .

الفصل الرابع

الوضع العام في المحيط الهندي والخليج وما حوله في القرن السادس عشر

ـ البرتغال بعد وفاة البوكيرك ـ الحلف التركي الهندي ضد البرتغال ـ الصدام بين العرب والبرتغال ـ عودة الصدام بين الأتراك والبرتغاليين ـ الأيرانيون والبرتغال ـ الصراع بين العرب والبرتغال في شرق افريقية ـ المحاولات التركية وهزيمتهم ـ خطأ الستراتيجية العثمانية ـ الوضع العام في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر ـ التسلل الانكليزي

الفصل الرابع

الوضع العام في المحيط الهندي والخليج في القرن السادس عشر

عندما توفي البوكيرك عام ١٥١٥ كانت للبرتغاليين السيطرة الكاملة على المحيط الهندي وسواحله في اسيا وافريقيا في الوقت الذي كانت فيه الحملات البرتغالية تتجه نحو شرق اسيا وجزر المحيط الهندي وتتصل بامبراطورية الصين وتسيطر على تجارة الجزر الأندونيسية وقد خلف البوكيرك في غوا كحاكم للمتلكات البرتغالية ونائب للملك القائد (لويز سواريز) الذي اتبع سياسة تخالف سلفه القائمة على البطش والتنكيل ودخل في علاقات مع كثير من الأمراء المحليين وبخاصة في الهند وظل البرتغاليون طيلة القرن السادس عشر تقريباً لوحدهم بلا منازع وبخاصة في اعالي البحار وصار احتكارهم لتجارة التوابل وغيرها راسخاً ووطيداً بالاضافة الى سيطرتهم على تجارة الحرير الايراني ، وكانت هرمز الواقعة في مدخل الخليج العربي من اهم قواعدهم التجارية التي كان لها اتصال تجاري مع كثير من انحاء العالم المعروف .

كان ملوك الساحل الهندي (ساحل ملبار) المعروفين باسم الزامورين الوحيدين الذين لم يخضعوا للبرتغاليين ورفضوا التعاون معهم وشنوا عليهم حرباً لا هوادة فيها لأنهم والعرب كانوا اشد الشعوب في المنطقة تضرراً من البرتغاليين . وخلال هذه الفترة ظهر امل جديد لهؤلاء بالتغلب على البرتغاليين عندما ظهر الأتراك العثمانيون وضموا الى امبراطوريتهم جميع البلاد العربية وكان الوطن العربي في ذلك الوقت يتعرض من طرفيه الشرقي والغربي الى الأخطار الوخيمة على يد الاسبان والبرتغاليين كان الأتراك يحلون محل العرب في قيادة الأمة الاسلامية ويتلقب سلاطينهم بخلفاء المسلمين تدفعهم مصالحهم الخاصة ويقودهم تفكير يختلف عن التفكير العربي في الدفاع عن الأمة الاسلامية الذي كان يتصف بالتضحية ونكران الذات في سبيل الدين . فبالرغم من ان السلطان العثماني سليمان القانوني كان يسيطر على اكبر قوة عسكرية في العالم في ذلك التاريخ لم ينجد عرب الأندلس في نكبتهم بل ارسل لهم السفن لنقلهم الى افريقية عوضاً عن ان يقدم لهم المساعدة العسكرية . اما بالنسبة للمحيط الهندي فيبدو ان السلطان المذكور ادرك فداحة

الأضرار التي لحقت بالتجارة العربية واثرها على ميزانية الدولة وخاصة مصر التي فقدت دخلها من التجارة بعد تحولها الى الطريق البحري حول افريقيا ، لذلك اجرى اتصالات مع الزامورين في قاليقوط ومع ملك (كامباي) المسلم في الهند وتم عقد اتفاق ثلاثي لقتال البرتغاليين والقيام بعمل مشترك واوعز الى والي مصر سليمان باشا الخادم للتهيؤ للقتال وطرد البرتغاليين من المحيط الهندي «عليك يا بيك البكوات / بكربك/ اعداد العدة في السويس للجهاد في سبيل الله حتى اذا تهيأ لك اعداد اسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة ، وجمع جيش كاف فعليك ان تخرج الى الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء ، فإنك اذا قطعت الطريق وحاصرت السبيل المؤدية الى مكة والمدينة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وازلت رايتهم من البحر» وقد وصل سليمان باشا الى الهند في عام ١٥٣٨ م ولكنه لم يستطع الاتصال مع الزامورين وحلفائهم لأنهم كانوا قد هزموا ي .معركة مع البرتغاليين في ٢٠ شباط ١٥٣٨ عندما فاجأهم القائد البرتغالي (مارتن دي سوزا) وشتت شملهم بسبب تفوقه من ناحية التسليح والقوة النارية التي لم يكن يعرفها (الزامورين) .

عندما علم سليمان باشا بالهزيمة عاد ادراجه الى مصر وقبل ذلك قام بجولة في البحر العربي بدون فائدة تذكر . وكانت هذه آخر محاولة يقوم بها الأتراك لقتال البرتغاليين في اعالي البحار ، وللمرة الثانية اصبحت البحرية البرتغالية صاحبة السيادة المطلقة في المحيط الهندي لسنين طويلة .

خلال هذه الفترة كانت العلاقات بين البرتغاليين والقوى المحلية وبخاصة في المحيط الهندي والخليج تتصف بالعداء الشديد . فقد حاول شيخ هرمز عام (١٥٢٢) م اخراج البرتغاليين من هرمز والبحرين وصحار وقلهات والقريات احتجاجاً على سيطرتهم على المراكز التجارية المذكورة وقد نجح المجهوم في بادىء الأمر نجاحاً كبيراً . وتكبد البرتغاليون خسائر فادحة ولكنهم سرعان ما أرسلوا النجدات بسرعة كعادتهم فوصل المنطقة اسطول برتغالي كبير فاستعاد المراكز السابقة واعادت لها السيطرة البرتغالية . وقد حاول ايضاً سكان مسقط وقلهات التخلص من الحاميات البرتغالية ما بين عامي (١٥٢٦ م - ١٥٢٩ م) ، ولكن هذه الثورات فشلت بسبب ضعف هذه الانتفاضات أمام القلاع الضخمة التي اقامها البرتغاليون

في مختلف المناطق وملأوها بالجنود من برتغاليين ومتطوعة ، وفي عام ١٥٢٩ م حاول هؤلاء احتلال البصرة ولكنهم صدوا عنها .

وابتداء من عام (١٥٥٠ م) عاد الصدام بين الأتراك والبرتغاليين ، وذلك عندما ثارت القبائل العربية ضدهم في جزر البحرين وساحل القطيف وتم طرد الأمير المحلي الموالي لهم واستنجدت القبائل بالأتراك الذين كانوا يحتلون العراق ، في الوقت ذاته استنجد شيخ هرمز بالبرتغاليين (وكانت البحرين تابعة لهم) لذلك وصلت الى الهند نجدة برتغالية لشيخ هرمز استطاعت اخراج الأتراك من القطيف ومن البحرين . ثم ارسل الأتراك احد القراصنة وآسمه / بيرك/ فغزا جزيرة قشم ونهبها واتجه نحو هرمز وحاصرها ولكنه لم يستطع فتحها. ولكنه استطاع اخراج البرتغاليين من مسقط ، ثم ان بيرك اعدم عام (١٥٥١) م في استانبول لمخالفته الأوامر السلطانية وتولى بعده المهمة مراد بك الذي فشل في الصمود في القطيف امام البرتغاليين وتشتت اسطوله امام مسقط لذلك استعيض عنه بقائد اخر هو علي بك شلبي الذي فشل بدوره في الانتصار على البرتغاليين ، وقد حاول البرتغاليون احتلال البصرة للمرة الثانية عام ١٥٥٦ ولكنهم فشلوا ولم يستطيعوا الوصول اليها بسبب الأنواء الجوية واصطدموا بالأتراك الذين حاولوا بدورهم احتلال البحرين ونجحوا في بادىء الأمر ١٥٥٩ م ، ولكن بعض السكان من الأصل الايراني عاونوا شيخ هرمز والبرتغاليين على هزيمة الأتراك واستعادة البحرين وتم اسر الحامية التركية .

خلال هذه المرحلة الهامة في التاريخ البرتغالي احتل الأسبان بلادهم عام ١٥٨٠ م وظلوا تحت حكمهم في عام (١٦٤٠ م) . ولكن هذا الاحتلال لم يؤثر كثيراً على الحاميات البرتغالية التي ظلت تتلقى الامدادات من البرتغال ومن قاعدتهم الرئيسية في (غوا) وظلت هذه تدافع عن النفوذ البرتغالي والصمود امام محاولات الأتراك لاخراجهم من الخليج مما جعل الأتراك يتخلون عن محاولاتهم نظراً لتفوق البرتغاليين من ناحية التسليح والتعاون الوثيق بينهم وبين الفرس وسرعة ارسال النجدات في حين لم تكن لدى الأتراك هذه الميزة يضاف الى ذلك عدم تعاونهم مع السكان العرب المحليين .

كان البرتغاليون يعتبرون الخليج احد مراكزهم الرئيسية وربما كان اكبر مركز لهم في المحيط الهندي لذلك كان دفاعهم عنه يختلف اختلافاً كلياً من ناحية الحماس والتصميم على دفاع الأتراك الذين كانوا يعتبرون المنطقة طرفاً بعيداً من اطراف دولتهم . وكانوا يعتمدون في قتالهم على قواد غرباء عن المنطقة وجنود متطوعة لم يكن همهم سوى النهب والسلب وكما ذكرنا آنفاً لم يحاولوا الاعتماد على السكان المحليين ويمدوهم بالمال والسلاح وكان باستطاعة هؤلاء لوحدهم اخراج البرتغاليين . ولكن الأتراك كانوا يخافون من تسليح السكان أكثر من خوفهم من الاحتلال البرتغالي .

اما الايرانيون فقد حاولوا في بادىء الأمر التعاون مع البرتغاليين والاستعانة بهم لمد نفوذهم على كل الخليج واحتلال البصرة وتم عقد اتفاق تعاوني بين الطرفين عام (١٥١٥) استفاد منه البرتغاليون أكثر من الفرس حيث امنوا جبهتهم وانصرفوا لقتال الأتراك وانتصروا عليهم والمرة الوحيدة التي خسر فيها البرتغاليون كان في (نخيلوه) الواقعة على الساحل الشرقي عندما حاولوا انزال جنودهم فيها عام (١٥٨٥ م) لتأديب بعض القبائل العربية ولكن السكان تصدوا لهم وهزموهم وقتلوا منهم (٢٥٠ جندي) وكانت درساً قاسياً على البرتغاليين امتنعوا بعدها من النزول على البر مهما كانت الأسباب وتبعهم في ذلك الهولنديون والانكليز .

لم يقتصر الصدام بين الأتراك والبرتغاليين على الخليج العربي بل امتد الى البحر العربي والسواحل الشرقية لأفريقيا ، عندما اغتنم سكان السواحل فرصة وقوع البرتغال تحت حكم الاسبان وثاروا عليهم واخرجوهم من مدينة ممباسا . ورغم أن القائد البرتغالي (دالميدا) احرق المدينة بعد قصفها بالقنابل عام ١٥٠٥ م إلا أن شيخها عاد اليها بعد ذهاب الأسطول البرتغالي . وشكل جيشاً من العرب والأفارقة والسواحلية واعلن الثورة على البرتغال عام ١٥٢٨ وحث اهل زنجبار وبمبا على التعاون معه ولكنهم رفضوا وصادف مرور القائد البرتغالي (داكونها) في طريقه الى الهند مع البوكيرك ، فهوجمت ممباسا وحوصرت فاضطر سكانها للاستسلام وتعهد شيخها بدفع الجزية وعدم الاتصال بالأتراك الذين كانوا يحتلون عدن منذ عام (١٥٣٨) وعندما سمع شيخ ممباسا بتفشي الأوبئة في الجيش البرتغالي اخذ في التلكؤ

في تنفيذ الاتفاقية مما جعل البرتغاليون يطلقون النار على المدينة ويهدموها مرة أخرى .

وفي هذه الأثناء ظهر (علي ميرال بك) التركي بأسطوله عام ١٥٨٥ امام السواحل الأفريقية الشرقية وكان هذا من مجاهدي البحر وحارب في اسطول خير الدين بربروس في الجزائر وادى ظهوره لرفع معنويات السكان الذين لاقوا الأمرين من البرتغاليين وأعلنوا ولاءهم للسلطان العثماني وشجعهم علي بك على الثورة واوهمهم بوصول اسطول تركي كبير ولكن علي بك لم يف بوعده في مساعدة سكان ممباسا وعاد للبحر الأحمر وعاد حاكم مالندي لخيانته وتعاونه مع البرتغاليين ضد سكان ممباسا . فأرسل هؤلاء أسطولاً من الهند بقيادة (الفونس بميرو) الى الشواطىء الافريقية فاضطرت الأمارات والمشيخات للتسليم بدفع الجزية والتبعية البرتغالية ، ثم استنجدوا بعلي بك الذي عاد الى افريقية عام ١٥٨٨ م على رأس قوات كبيرة واخذ يحصن المدينة ليضع فيها حامية تركية وفيما كانوا يستعدون للدفاع عن المدينة ضد الأسطول البرتغالي فوجىء الأتراك وأهل ممباسا بخطر قادم من الداخل ، ففي خلال هذه الفترة خرجت بعض القبائل المتوحشة من أكلة لحوم البشر من حوض الكونغو الأعلى واتجهت نحو المنطقة الساحلية وطافت بموزامبيق . ونشرت الدمار والخراب في كل المناطق التي وصلت اليها . وقد وصل قسم منها الى ممباسا والسواحل القريبة منها واحاطت بالمدينة الثائرة . وتسمى هذه القبائل با (الوازمبا) وقد وقع المدافعون عن المدينة من اتراك وعرب ومحلين تحت حصارين الأول حصار القبائل القادمة من البر ، والبرتغاليين الذين وصلوا امامها قادمين من الهند وكان خطر (الوازمبا) اشد من خطر البرتغاليين فحاولت الحامية الهرب سباحة بما فيها القائد علي بك ولكن البرتغاليين المحاصرين اسروهم وقتلوهم ثم دخل البرتغاليون المدينة بعد احراقها وتهديمها من قبل القبائل المتوحشة . وهكذا قضي على آمال مسلمي شرق افريقية من عرب وسواحلية في التخلص من الاستعمار البرتغالي والمدينة الوحيدة التي امتنعت عنهم هي مدينة مقديشو بسبب قربها من النجدات العربية والصومالية . ولا تزال آثار بعض المدن العربية موجودة في غابات كينيا ، ويعتقد بأن سكانها هجروها خوفاً من القبائل المتوحشة او انهم قتلوا عن بكرة أبيهم من قبل (الوازمبا) الذين اصبحوا يشكلون الأكثرية الساحقة للسكان وتزاوجوا مع

العرب والشيرازيين واصبح يطلق عليهم السواحلية بفرعيها الشمالي ذو الأصل العربي والجنوبي الذين يدعون الانتماء الى اسرة الحسن الشيرازي ويفخرون بماضي دولة الزنج .

وهنا أيضاً لم تخن محاولات الأتراك للدفاع عن المنطقة جدية ومستمرة لكي تعطي النتائج الايجابية بسبب بعد المنطقة عنهم وانشغالهم بحروب داخل القارة الأوربية ، وعدم تفكيرهم بالامتداد في بلاد لا تقدم لهم الجزية . والواقع ان الستراتيجية التركية ان صح ان يقال عنها استراتيجية كانت قصيرة النظر ، فكان الأولى بالأتراك عوضا عن التوجه الى اوربا واستنفاذ قوتهم في بلاد تفوقهم حضارة وذات تاريخ قتالي عريق ، التوجه نحو الشرق وافريقيا واعادة الامبراطورية الاسلامية الى وحدتها والامتداد في افريقية وكان بالامكان جعلها في ذلك الوقت جميعها مسلمة .

وهكذا حتى بداية القرن السابع عشر لم يكن يعكر صفو البرتغاليين اي حادث فقد ملكوا ناصيةالبحر وتفوقوا على كل ماعداهم واحتكروا التجارة وجعلوها في ايديهم . وكان اسطولهم يجوب البحار وقلاعهم المحصنة على طول الطريق البحري الى الشرق تحمي تجارتهم على هذا الطريق الحيوي الهام وكانت هرمز هي المقر الاداري لهم وظلت لسنين طويلة السوق التجارية الرئيسية في جزء كبير من العالم .

لم يكن الأوربيون يعرفون شيئاً عن الطريق الذي يسلكه البرتغاليون في رحلتهم للهند ولكن ا لبرتغاليين بدأوا يحسون بما ينتظرهم من اخطار ، عندما شاهدوا لأول مرة في الخليج اربعة من التجار الانكليز عام ١٥٨٣ ومعهم رسائل موجهة من الملكة اليزابيت الى ملك كمبوديا وامبراطور الصين ، ويذكرنا هؤلاء بالمبعوثين البرتغاليين في القرن الخامس عشر الذين وصلوا المنطقة قبل افتتاح طريق الهند . وقد بدأ هؤلاء الانكليز رحلتهم براً من طرابلس الشام حتى نهر الفرات ومن هناك نزلوا الى العراق عن طريق النهر الى الفلوجة ومنها الى بغداد والبصرة وابحروا الى هرمز التي كانت في اوج ثرائها . وهنا قبضت السلطات البرتغالية عليهم لاشتباهها بهم وخوفاً من أن يكونوا جواسيس او ممن يريدون اثارة الاضطرابات . ومن هرمز ارسلوا الى سجن (غوا) حيث ظلوا فترة من الزمن ثم اطلق سراحهم وقد

ساعدهم وجودهم في غوا على معرفة اخبار هامة عن الطريق البحري وقد رجع احدهم وهو (رالف فيتش) الى بلاده على ١٥٩١ ليقص على مواطنيه ما شاهده من الامكانيات التجارية العظيمة في الشرق واستناداً الى تقارير رالف ، تألف شركة الهند الشرقية الانكليزية ، ولم تكن رسائل المبشرين الانكليز بأقل تشجيعاً من تقارير المبعوثين بل كانت تثير الحماسة الشديدة بين الناس وتسيل لعاب التجار .

ويعتقد انه في سنة ١٥٨٧ وجدت اوراق مهمة في مركب برتغالي وقع في اسر القرصان المشهور (درايك) ظهرت فيه لوائح تبين مقدار الأرباح الطائلة التي كان يجنيها البرتغاليون من تجارة الشرق وبعد تدمير الأرمادا الاسبانية (الأسطول الاسباني) عام ١٥٨٨ صمم الانكليز التوجه نحو الشرق .



الباب الرابع

صراع الدول الاستعمارية في المحيط الهندي والخليج
الفترة ما بين عام ١٦٩٩ ـ وعام ١٧٩٩م
التسلل والاحتلال والعناصر المساعدة

ـ الفصل الأول : الدوافع الرئيسية للغزو الاستعماري والعوامل المؤثرة .

ـ الفصل الثاني : شركات الهند الشرقية ودورها الرئيسي في عملية التسلل الاستعماري .

الفصل الثالث : قوى الصراع الأوروبية والمحلية في الخليج وما حوله .

ـ الفصل الرابع : اليعاربة العمانيون ودورهم في الصراع ضد الغزو الأجنبي .

الفصل الأول

الدوافع الرئيسية للغزو الاستعماري والعوامل المؤثرة فيه

طبيعة الاستعمار وأهدافه في الوقت الحاضر - ارتباط حركة الاستعمار بحركة الاستكشاف العالمية - حركة الاستيطان العالمية - دور البرتغاليين والاسبان في حركة الاستعمار العالمية - الأحداث الدافعة لعملية التطور الاستعماري - وضع المسلمين والعرب في تلك الفترة منطقة شرق البحر الأبيض - في المحيط الهندي - حركة الاتصالات العالمية بين العرب والشعوب الأخرى - اوروبا خلال ايامها الحالكة - الحروب الصليبية والانفتاح على الشرق الطرق التجارية - دور المدن الايطالية - اثر الحروب الصليبية - خروج العرب من اسبانيا واثره - دوافع البرتغاليين في انطلاقهم نحو الشرق - الدول الأخرى ومواقفها - هولندا - بريطانيا - فرنسا - انتقال الثقل التجاري من البحر الأبيض المتوسط الى المحيط الهندي - حركة التجارة العالمية - الانحطاط الاسباني - البرتغالي - ظهور الامبراطوريات الاستعمارية - الهولندية . البريطانية - الفرنسية - التطورات الاقتصادية وأثرها على مسيرة الاستعمار .

الفصل الأول

الدوافع الرئيسية للغزو الاستعماري والعوامل المؤثرة.

عندما انطلقت القوى الاستعمارية الأوروبية في غزوها الاستعماري لمختلف بقاع العالم لم يكن لها في الواقع سوى هدف واحد لم يتغير طيلة قرون طويلة وبالرغم من اتباعها أساليب عديدة ولم يكن هذا الهدف الا استغلال القوي للضعيف ومحاولة السيطرة على مقدراته وموارده الاقتصادية وربطها بعجلته حتى لا يتمكن من الانفلات أبداً ، وقد بنت الامبراطوريات الاستعمارية القديمة قواعدها على السيطرة العسكرية والسلطان السياسي وكثيراً ما كان الاستغلال الديني أحد الوسائل الرئيسية للوصول الى السيطرة الاقتصادية التي كانت كما ذكرنا الهدف الاخير لذلك عندما انحسرت القوى الاستعمارية عن طريق زوال نفوذها السياسي والعسكري عادت قوى جديدة بلبوس جديد لتقيم امبراطوريات جديدة تستغل تفوقها التكنولوجي والفني للوصول الى نفس الهدف وهو امتصاص الثروات الطبيعية والسيطرة الاقتصادية ، وقد طرح الأتحاد السوفيتي مذهبه العقائدي وايديولوجيته في حين طرحت الامبراطورية الامريكية الديمقراطية واسلوب الحياة الامريكية وقوتها الاقتصادية . إن تاريخ الاستعمار القديم والحديث مرتبط بشكل دائم بالتطورات الاقتصادية والاجتماعية في القارة الاوربية ومن بعدها القارة الامريكية . ولاشك ان الثروات التي تدفقت على بلدان الامبراطوريات الاستعمارية لها اكبر الاثر في تطوير تلك البلاد ومن ثم تطوير الاسس الاقتصادية الحديثة والذي أدى الى ظهور ما يعرف بالنظام الاقتصادي الحديث .

ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر ارتبط التطور الاستعماري والاقتصادي ارتباطاً وثيقاً بحركة الاستكشاف الواسعة التي شملت العالم ، ففتح طريق الهند واستغلت كل من امريكا وافريقيا ، وظهرت الامبراطوريات الاستعمارية وانهالت على اوروبا الأموال الطائلة فتطورت حياتها الاقتصادية بما يشبه الثورة وعرفت الانقلاب النقدي والتجاري ، وكان ذلك مقدمة للانقلاب الصناعي بعد اختراع الآلة وما تلاه من مراحل كالانقلاب الحقوقي والمالي وظهور الرأسمالية وغيرها من المذاهب الاقتصادية المعاصرة الأخرى .

كان لهذه المراحل تأثيرات شتى على الأسلوب الاستعماري فتطور من تجارة وتبادل المنافع مع الشعوب التي احتكت بها الى سيطرة ونفوذ واحتلال وحكم مباشر والغاء كل معاني السيادة في المناطق المحتلة والتي شملت تقريباً أنحاء العالم . والذي يهمنا في هذا الفصل تأثير ذلك على التطور الاستعماري الذي طرأ مع بداية القرن السابع عشر ، وهو الذي سجل اضمحلال الامبراطوريتين الاستعماريتين البرتغالية والاسبانية وظهور الامبراطوريات الاستعمارية الأخرى على أنقاضها وتأثير ذلك على السواحل العربية المطلة على الخليج العربي وبحر العرب وكذلك على الشواطىء الآسيوية المطلة على المحيط الهندي .

ومع مطلع القرن السابع عشر ابتدأت مرحلة جديدة وهامة في تاريخ المنطقة التي ذكرناها آنفاً شملت مختلف نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ومن المؤسف أن هذه المرحلة وإن كانت في الواقع جديدة ولكن كانت ذات تأثير سيء على شعوب المنطقة ولم تكن لتسير به للأفضل بل على العكس اوقفت مسيرته الحضارية وأبعدته عن ركب الحضارة والتقدم فترة طويلة لا يزال يعاني منها حتى الآن . فعندما أفاقت الشعوب الأوروبية من سباتها واستيقظت بعد ظلام حالك ، وبقدر ما كانت اليقظة سريعة بقدر ما كان تطلعها الى ما وراء حدودها سريعاً ، فاندفعت نحو الفتح والاستعمار ومد النفوذ ليشمل أكثر شعوب العالم إن لم نقل جميعها . وكان الشرق بحضارته القديمة ذاخراً بالحياة لذلك كان هدفاً رئيسياً للغزو الاستعماري الاوروبي . فوقعت شعوبه جميعاً تقريباً بقبضة الاستعمار الواحد تلو الآخر ولم تفلت سوى اليابان التي تعلمت دروس الغرب وأصبحت في وقت ما دولة استعمارية كبرى حاولت السير على منوال من سبقها من الدول الاستعمارية الاوروبية في فرض سيطرتها ونفوذها على جيرانها واستغلال هؤلاء لمصلحتها .

ولم تقتصر الشعوب الاوروبية على فرض سيطرتها ونفوذها في اندفاعها بل انتقل عدد كبير منها الى المناطق المستكشفة ، فاستوطنت الأراضي الخصبة وزاحمت الشعوب التي كانت تقطنها وطاردتها ولم تتورع عن ابادتها ، فظهرت شعوب جديدة اوروبية التفكير والتأثير في تلك المناطق البعيدة وانتقل النشاط الأوربي الى الامريكيتين وأجزاء كثيرة من القارة الافريقية وتم استيطان استراليا ونيوزلنداوعدد كبير من جزر لمحيط الهادي والهندي وقد لعبت التطورات الدينية والاقتصادية دورا كبيرا في عمليات الاستيطان هذه .

كان البرتغاليون والاسبان السباقون في عملية الغزو ، وتقاسموا العالم بأوامر الهية كما كانوا يظنون فقد بارك اندفاعهم البابا من عاصمته روما باعتباره عملاً مقدساً ولم يكن سوى مرحلة من مراحل الحروب الصليبية ، ولحق بهم الهولنديون والفرنسيون والانكليز فتنازعوا الغنائم ونشبت بينهم الحروب الطويلة ، واستعمروا شعوباً وأراضي جديدة طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر ومنذ القرن التاسع عشر تبعهم الايطاليون والألمان والبلجيك والروس واليابانيون ولم تتوقف المسيرة قمة التنافس الاستعماري وأدى الى دفع الحرب العالمية الاولى في أوائل القرن العشرين ورغم فداحة الخسارة التي حلت بالانسانية في الحرب العالمية الاولى عاد التنافس الاستعماري بشكل آخر وأدى الى الحرب العالمية الثانية وكانت هذه الحرب نهاية الاستعمار السياسي والعسكري في العالم وبداية استعمار جديد غير مباشر ولكنه اشد قساوة من الاستعمار العسكري وهذا الاستعمار هو الاستعمار الاقتصادي ، وظهر العملاقان الكبيران الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وظهرت امبراطوريتان من نوع جديد وأفكار جديدة ، ولم تعد السيطرة على الأرض هي الهدف بل أصبحت السيطرة الاقتصادية كما ذكرنا في البداية هي الهدف الرئيسي . ومن المؤسف ان العرب بعددهم الكبير وقوتهم الاقتصادية الجبارة هم الوحيدون في التاريخ الحديث الذي خسروا جزءاً من أراضيهم بعد الحرب العالمية الثانية عندما خلق الاستعمار دولة اسرائيل على الأرض العربية وأمدها بعناصر القوة فنشأت وتوسعت عن طريق الفتح فكانت امتداداً للاستعمار القديم بكل أساليبه البشعة .

ولو تطلعنا قليلاً الى الوراء لوجدنا أن هناك حدثين هامين دفعا عملية التطور الحروب الصليبية ، وخروج العرب من شبه الجزيرة الايبرية ، وبالرغم من اننا تطرقنا الى هذا الموضوع في الفصول السابقة الا ان تسلسل الاحداث يضطرنا للرجوع الى الوراء قليلاً وبسرعة لنتمكن من ربط الأحداث بعضها بعضاً . ونرى أنها حلقة واحدة تضم في داخلها حلقات صغيرة متعددة ومترابطة فيما بينها ولنترك اوروبا القديمة في ظل الامبراطورية الرومانية وما تبعها من غزوات جرمانية وبربرية حطمت وحدة القارة وصدعت اقتصادها القائم في ظل السلام الروماني الطويل وأدخلتها في أحلك أيامها ، ولنصل الى الفترة التي سبقت نهاية الدولة البيزنطية

وسقوطها بيد الأتراك العثمانيين ، وبداية الحروب الصليبية وما تبعها من نتائج وأحداث غيرت وجه القارة وأثرت تأثيراً عميقاً على الشرق الذي كان هدفها .

حتى ذلك الوقت كان العرب خاصة والمسلمون عامة أسياد العالم القديم والواقع أنه لم يكن هناك تفرقة بين العربي والمسلم ، فالعرب مسلمون والمسلمون مستعربون حتى في زمن تسلط الأجانب على الخلافة العباسية كالبويهيين والأتراك وغيرهم ومحاولاتهم للحط من قيمة العرب فالعرب مادة الاسلام واللغة العربية هي لغة الدولة المترامية الأطراف والولاء للعرب عنوان الفخر وقد أضر هؤلاء المتسلطة بالفكرة التي يعتنقها العربي منذ ظهور الرسول الأعظم وهي نشر الاسلام في العالم . ولا شك ان الامم التركية والتركمانية والمماليك جددوا شباب الاسلام ودافعوا عنه امام اوروبا وخاصة السلاجقة الا انهم لم يحاولوا الخروج وراء ما وصل اليه الاسلام في العهود التي كانت فيها القيادة للعرب وحتى الاسلام الذي انتشر في آسيا كان على يد التجار العرب وحتى أن الأتراك لم يساعدوا اخوانهم العرب الذين غلبوا على أمرهم في اسبانيا . وكانوا أقل من العرب حضارة لذلك أوقفوا تقدمهم الحضاري . وحكموا على أساس قبلي بدائي تدعمهم قوة عسكرية تنتقل بالولاء من سلطان إلى آخر فتفرقت البلاد وفي كل مكان ملك وسلطان . وكان ابتعاد العرب عن الحياة العسكرية بضغط من هؤلاء المتسلطين قد ادى إلى نتائج خطيرة منها زوال السيطرة العربية الاسلامية البحرية على البحر الأبيض المتوسط لأن أغلب الأقوام المتسلطة كانت لا تحب ركوب البحر ولا تعرف ماهيته ولم تكن لديها الامكانيات لتخوض عبابه كما عمل العرب الذين حصروا اسطول الروم في بحر ايجه بعد معركة ذات الصواري عام ٦٦٠ م وسيطروا على البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، وجاءت الحروب الصليبية لتبعد كلياً المسلمين من ركوب البحر الأبيض المتوسط خاصة الجزء الشرقي ، وحلت محل السيطرة العربية سيطرة المدن الايطالية وقواها البحرية خاصة مدينتا البندقية وجنوا اللتان اصبحتا فيما بعد القوتان الرئيسيتان في البحر الأبيض المتوسط ، وهيمنتا على المواصلات والتجارة البحرية بين الشرق والغرب . ويذكر الرحالة الأندلسي ابن جبير في رحلته للشرق في النصف الثاني من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أنه ركب احدى سفن الجنوبين عندما انتقل من مدينة (سبته) في المغرب إلى الاسكندرية .

اما في الطرف الثاني من العالم القديم وعلى سواحل المحيط الهندي وبحر العرب فالبحرية العربية ظلت تسيطر على تلك البحار لتصل إلى المحيط الهادي (الكبير) ، بالرغم من الضعف الذي كان ينخر في جسم الأمة العربية وقد رأينا كيف انتشر الاسلام في الشرق الأقصى عن طريق التجار العرب لوجود اتصالات وثيقة بين السواحل العربية والسواحل المطلة على المحيط الهندي والكبير وكانت هناك مبادلات تجارية واسعة وكان العرب ينقلون التجارة ما بين افريقيا وآسيا لمعرفتهم التامة بالمسالك البحرية وبالرياح الموسمية وقد لعبت الرغبة في تأدية فريضة الحج دوراً رئيسياً في تنظيم المواصلات البحرية في تلك الأرجاء يضاف إلى ذلك انعزال سكان السواحل العربية عن الداخل لوجود الصحراء فلم يكن أمامهم سوى البحر بعيداً عن نفوذ المتسلطين الأجانب .

أما من الناحية البرية فكانت هناك اتصالات بين البلاد العربية والأمم الأوروبية من جهة والأمم الشرقية من جهة اخرى . ويقال ان المقتدر العباسي انتدب (ابن فضلان) لارتياد ارض الصقالبة (روسيا الحالية) عام (٩٢١م - ٣٩٠هـ) . وذكر أحد المستشرقين السويديين في المهرجان الألفي لمدينة بغداد ان الاتصال بين التجار العرب وتجار البلاد الأوروبية الشمالية كان جارياً وكان اللقاء في مدينة بولتافا الروسية حالياً . وذكر ان احدى المواد الاساسية للتجارة هي الفراء لتدفئة الأميرات العباسيات الجميلات حسب تعبيره ، ويحدثنا المؤرخون عن رحلتين بريتين إلى الشرق قام بها (تميم بن بحر) والثانية قام بها (سلام الترجمان) وكان الأول من فئة المتطوعة التابعين أجناد الثغور الاسلامية في اسيا الوسطى حيث وصف الطريق البري وصفاً دقيقاً . اما الثاني فقد ارسله الواثق للبحث في أواسط آسيا والاتصال بالأقوام التي كانت تعيش هناك ، ويقال إن سلام بلغ سور الصين . وقد تبع الطريق البري كثير من الرحالة العرب مثل سليمان التاجر ٢٣٧ هـ (٨٥١)م ثم ابن وهب وهو احد التجار الأثرياء سنة ٢٥٧هـ - ٨٧٠م والمسعودي ٣٤٦هـ - ٩٥٨م وابن بطوطه في القرن الرابع عشر . وقد استفاد البرتغاليون والاسبان فوائد كبيرة من الرحالة المغاربة العرب ومن الأندلسيين أيضاً الذين كانوا يعرفون اسرار المحيط الاطلسي ، وكانوا يحاولون اخذ الأسرى ممن يعرفون المناطق الأفريقية ، والواقع أن روح المغامرة التجارية التي يتصف بها العربي لا يماثلها في أي جنس آخر ، ولو قص هؤلاء المغامرون كل ما كانوا يعرفونه عن العالم لوجدنا

انهم وصلوا الى كل انحاء الكرة الأرضية . ولكن كان كل منهم يحاول أن يخفي ما شاهده لكي لا يتبعه أحد وينافسه في تجارته .

كانت أوروبا أو الأرض الكبيرة حسب تسمية العرب لها بعيدة عن طرق التجارة والحياة الاقتصادية وكانت المنتجات الشرقية تصلها عن طريق العرب ثم انقطعت مع انقطاع العرب عن الوصول اليها ، وقد ظل الشرق الاسلامي والغرب الأوروبي منعزلين عن بعضهما حتى الحروب الصليبية لتفتح عيون الغرب على الشرق ، وعندها ظهرت القوى البحرية الايطالية وعلى رأسها ، البندقية وجنوا ، وبيزا للمشاركة في هذه الحروب لدوافع تجارية بحتة فقدمت المساعدة للصليبيين مقابل حصولها اي المدن الايطالية على امتيازات واسعة في موانىء الشام التي وقعت تحت الحكم الصليبي وعادت المنتجات الشرق تصل الى الغرب عندما احتكر التجار من ايطاليا واسبانيا ومن مرسيليا تصدير الحاصلات هذه وكان أهمها المنسوجات القطنية والحريرية والأواني الزجاجية المصنوعة في صور واللآلىء والأحجار الثمينة الواردة من سيلان والهند والعاج والأخشاب والعقاقير والتوابل الواردة من الشرق الاقصى . وقد اسس التجار الأوروبيون مراكز لهم على السواحل وداخل المدن السورية ، وقد أدت سيطرة الأوروبيين على معظم شواطىء الشام في القرن الثاني عشر إلى تدفق تلك البضائع بواسطة القوافل ـ عن طريق بلاد العرب والعراق ـ على دمشق ومنها إلى موانىء الشام الساحلية حيث كانت تشحنها السفن إلى الغرب .

وكان هناك جزء من التجارة الشرقية يرد الى مصر عن طريق البحر الاحمر ومنها إلى السواحل المصرية ومن الاسكندرية ودمياط تنقل الى الغرب الأوروبي ، ومنها ما كان يصل إلى الموانىء العربية في الأندلس عن طريق القوافل الصحراوية التي تبدأ مسيرتها من سواحل البحر الأحمر حتى موانىء المغرب ومنها إلى الأندلس ثم أوروبا . وكانت الطرق هذه معرضة دائماً إلى انقطاع احداها مما كان يجعل التجار بالضرورة يفتشون عن الآخر . كما هو الحال في القرن الثالث عشر عندما أخذ المغول بعد سيطرتهم على طريق الحرير المعروف بتشجيع التجار على سلوك هذا الطريق البري عبر امبراطوريتهم من الصين الى تركستان إلى موانىء البحر الأسود أو ميناء أياس على البحر الأبيض المتوسط ، كذلك أدى غزوهم للعراق إلى قفل طريق الخليج العربي فبغداد فدمشق الأمر الذي أثر في الطريق التجاري الشرقي وانتقل

الضغط التجاري للطريق الغربي أي طريق البحر الأحمر فازدادت أهمية الاسكندرية ، ودمياط فقصدتها سفن البنادقة واهل بيزا وجنوا وتجار مرسيليا بشراء التوابل والبخور والحراير والثمار والخمور والزيوت والسمسم وقصب السكر والزجاج والأنية والأصبغة والأقمشة .

وقد انفردت المدن الايطالية بالتجارة وامتدت تجارتها الى روسيا الجنوبية خاصة بعد الحملة الصليبية الرابعة التي تحطمت فيها بيزنطة وتقلص نفوذها . ولكن نفوذ المدن الايطالية لم يكن يمتد الى داخل الأراضي العربية بالرغم من تحطم الوحدة الاسلامية رغم ترحيب الأيوبيين ومن بعدهم المماليك بالتعامل مع هذه المدن إلا أنهم كانوا يقفون أمام كل تسرب أو نفوذ داخلي للأجانب في بلادهم وقد تم تعاون وثيق بين المماليك والبندقية خاصة بعد أن انفردت بالهيمنة على البحر الأبيض المتوسط الشرقي وابعدت كل منافساتها من المدن الايطالية . وكان لهذا التنافس أثره الكبير في دفع الجنويين للتفتيش على طرق اخرى في الوصول الى الهند .

أما اثر الحروب الصليبية في اوروبا فكان ذو ابعاد عميقة جدا وغيرت مجرى تاريخ القارة فقد وضعت الحروب الصليبية اوروبا في قلب العالم الاسلامي المتمدن وتتفتح ليس على طرق المواصلات فحسب بل على ما لدى الشرق من حضارة ومعرفة ، ولم تنته الحروب الصليبية ، إلا وأوروبا تشهد تطوراً كبيراً في مختلف النواحي فقد ساعدت على اضعاف نظام الاقطاع بسبب ترك الأقنان لأراضي الملاك والأقطاعيين وتطوعهم بالسير مع الجيوش المحاربة في الشرق مما أضعف الامراء وقوى سلطة الملك . ولكثرة بيع الأراضي التي كان يملكها الأمراء والنبلاء لتمويل الحملةالصليبية هبطت اثمان الأراضي واستغل اليهود تلك الفترة ليتملكوا الأرض . وازداد النشاط التجاري الداخلي والخارجي وانتعشت مدن كثيرة في ايطاليا . واسبانيا وفرنسا وتحول الاقتصاد من الزراعة الى الصناعة والتجارة فنشأت المصارف ونمت الحركة التجارية والصناعية وبدأت المناطق الأوروبيه تتصل ببعضها بعضاً وظهرت المدن ونمت فيها طبقة جديدة عرفت بالطبقة البرجوازية التي استفادت من الخلافات المتواصلة بين الملوك والنبلاء لتثبت وجودها وتحطم النظام الاقطاعي المبنية على الثروة المتمثلة بالأرض لتحل محلها القوة المبنية على الثروة المنقولة وتأسس الكومونات في المدن وأصبحت هذه المدن وحدات سياسية مستقلة ، وقد استطاع البورجوازيون الاستيلاء على السلطة في المدن . وظهرت الجمعيات الحرفية وسنت

القوانين واخترعت المطبعة وازدادت المعلومات الجغرافية ، وجاءت بعدها حركة الاصلاح الديني لتفصل الشؤ ون الاقتصادية عن الدين والتشجيع على العمل والكسب . وقد ارتفعت المعارف والثقافة والشؤ ون الملاحية واستخدمت البوصلة وتطورت صناعة السفن واستخدمت الدفة المتحركة . وزادت رحلات المبشرين والجغرافيين والمغامرين وانتشرت الحكايات التي قصوا فيها عن رحلاتهم كوليم روبركوي مبعوث الملك لويس التاسع الى خان المغول الذي روى مغامراته الجريئة في اسيا الوسطى وفي سنة ١٢٧١ بدأ ماركوبولو المشهور رحلته التاريخية الى اسيا ماراً بالموصل وبغداد حتى وصل الى بلاد المغول .

كان انتصار الاسبان والبرتغال على العرب تكملة للحروب الصليبية وقد رافق دخولهم المناطق العربية ضغطديني على السكان العرب من قبل محاكم التفتيش التي اخذت في تعذيب وقتل من بقي من العرب الذين اضطروا للخروج من تلك البلاد بعد ان سبقهم اليهود وخرجوا منها وأدى إلى خروج أكثر من مليوني انسان ، وكلهم من العمال المهره والأيدي العاملة الزراعية والصناعية فماتت الزراعة والصناعة فيها وهجرت اراض ومدن كثيرة ، لذلك اضطر المتنصرون للمال والرجال لاعادتها الى ماكانت عليه في زمن العرب ، وكانت تلك الأراضي من أخصب بقاع اسبانيا والبرتغال ولا تزال فتطلع هؤ لاء إلى ما وراء بلادهم والتفتيش عن العمال فاتجهوا الى سواحل افريقية الاطلسية فالبحر الأبيض المتوسط كان مغلقاً أمامهم ، وكان البرتغاليون السباقون في البدء بالمغامرات بسبب خروج العرب من بلادهم قبل اسبانيا ثم لحق بهم الاسبانيون وتوجهوا الى امريكا وهم يظنون انهم يسيرون باتجاه الهند .

كانت دوافع البرتغاليين في انطلاقهم نحو الشرق ، مزيجاً من الدوافع الدينية والتجارية وحب الانتقام من العرب المسلمين الذين اصطدموا بهم خلال تقدمهم نحو الجنوب الغربي لشبه الجزيرة الأيبرية ، وكانت بلاداً عربية خالصة لم يطأها البرتغاليون من قبل ومع الزمن انقلب هذا الشعور الحماسي الى حب الكسب والاحتكار التجاري وفرضه على تجارة الشعوب وقد استخدم الدين بشكل اساسي لتحقيق هذه الاهداف ، ودفع الجنود المتعصبون حياتهم لتلبية رغبات ملوكهم التجارية ورغبات البابا الدينية لضرب المسلمين وتدميرهم ومد السيطرة والنفوذ المسيحيين على الشرق . وقد وجدت هذه الأسباب هوى وحماسة جارفة في قلوب

المغامرين من القادة البرتغاليين امثال البوكيرك وفاسكودغاما وغيرهم . وقد عبر البوكيرك الذي كان أشد هؤلاء حماسة عن سياسة بلاده أو بالأحرى عن تفكيره الخاص حول اهداف البرتغال في المنطقة في خطابه الذي ألقاه امام جنوده لحثهم على احتلال مدينة (ملقا) «إن الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وبإطفائنا شعلة شيعة محمد ، بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب» ويقول مؤلف كتاب آسيا والسيطرة الغربية السفير الهندي ك . م بانيكار «إن البوكيرك بعد ذكر خدمة الله والدنيا عرج الى خدمة مليكه وتحقيق اطماعه حيث قال «وذلك لأنني على يقين اننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم (يعني المسلمين) لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل مالم يذهب تجارها الى البرتغال لشرائها من هناك» ولو حللنا الكلمات الأخيرة لرأيناها تجمع كل ما كان لدى البرتغال من رغبات . فهو دينياً يريد تدمير مدينة مكة لتحقيق رغبة البابا وتجارياً يريد تدمير القاهرة عاصمة المماليك التي كانت تقف حاجزاً أمام الوصول من أقرب الطرق الى الهند والى مكة أيضاً ثم ضرب البندقية التي منعت الجنويين ومن بعدهم البرتغاليين من دخول البحر الأبيض المتوسط الشرقي .

بعد البرتغاليين والاسبان جاء الهولنديون والانكليز والفرنسيون بدوافع تجارية في مجمل دوافعهم للانطلاق نحو الشرق فهذه الدول كانت بعيدة في تلك الفترة عن مناطق التماس مع المسلمين بعد انتهاء الحروب الصليبية التي اشتركت فيها هذه الشعوب اشتراكاً فعلياً . فبالاضافة الى الحروب الدينية التي مزقت وحدة العالم المسيحي ، ولكنها امتصت العصبية الدينية ، كما سجلت هذه الفترة نهاية المد التركي في البحر الأبيض المتوسط بعد خسارتهم في معركة (ليبانتو) البحرية وتوقفهم امام فيينا وزالت اسطورة الجندي التركي الذي لا يقهر ، وقد حاول الكاثوليك استغلال المد الاستعماري للقيام بعمليات التبشير ولكنهم لم ينجحوا بقدر ما كانوا يرغبون .

ظلت هذه الدول طيلة ثلاثة قرون ، تعمل على اكتشاف وغزو اراض جديدة وفتح افاق بعيدة ، فاكتشف كولومبوس امريكا اثناء بحثه عن طريق للهند وعلى دفته البحار العربي المعروف (بالرياش) وتبعه (سباستيان كابو فوسبوز) فاكتشف كندا والبرازيل ووصل (جون كابو) شمال امريكا وهو يحسب انه بلغ بلاد التتار ، وطاف القرصان الانكليزي (درايك) حول العالم متعقبا السفن الاسبانية للايقاع بها

وسلبها ، واراد الانكليزي هدسن فتح طريق مستقيمة نحو الهند فاكتشف النهر الذي سمي باسمه في شمال امريكا .

نتج عن هذه الاستكشافات انتقال النشاط التجاري الى شواطىء الاطلسي بعد ان كان البحر الأبيض المتوسط المركز الرئيسي للتجارة ، وساعدت هذه الاكتشافات على وصول المنتجات الشرقية خاصة التوابل الى اوروبا طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر ولكن ظلت كمياتها قليلة بسبب ضعف حمولة المراكب ، ثم تحول الطلب الى مصنوعات الشرق مثل البفته ، والموسلين ، والحرير وساعد على تدفق المصنوعات تدفق الذهب الامريكي الى اوربا عن طريق الاسبان . فكثر المال السائل ودفع الناس الى العمل وخلق حركة اقتصادية ساعدتها الظروف الاجتماعية على التطور المضطرد بما يشبه الثورة ، وهي التي عرفت بالانقلاب النقدي او التجاري حيث بلغت دول الاطلسي من الغنى والقوة اكثر مما كانت عليه البندقية وغيرها من المدن الايطالية في عهودها الذهبية .

لقد أتاح الذهب لأوروبا ان تدعم تجارتها وتوسعها في الهند والشرق الاقصى فزاد الطلب على المنتجات الشرقية بعد ان اصبح المال متوفراً لدى اغلب طبقات الشعب وتنوعت المواد المستوردة وظل ذلك حتى القرن التاسع عشر عندما انقلب الميزان التجاري الذي كان لا يزال لصالح الشرق الى صالح الدول الصناعية فقد كان الشرق هو المصدر واوروبا المستهلك فالمنتجات الاوروبية لم تكن ذات قيمة لدى الشرقيين . وكان هذا التوسع التجاري شؤماً على اسبانيا والبرتغال وميموناً على دول المحيط الاطلسي فقد اثرى الاسبانيون بسرعة ولكنهم اخذوا يبذرون المال بسرعة ايضا ولم يستفيدوا منه الفائدة المطلوبة في التنمية الصناعية والزراعية التي بدأ غيرهم من الشعوب الاوروبية السير في طريقها ، لذلك اصابهم الانحطاط هم والبرتغاليون قبل ان يفقدوا مستعمراتهم وكانوا يشترون منتجات الهند الشرقية والغربية بما لديهم من ذهب وفضة ، رغم انهم اول من جلبها فانحطت زراعتهم وصناعاتهم ، وزاد في ذلك تدمير الاسطول الاسباني (الارمادا) مما افقدهم وسائل اتصالهم بالمستعمرات وعبثاً حاول ملوكهم منع خروج الذهب والفضة بتدابير دعيت بالسياسة المعدنية او التجارية فكانت البضائع تهرب خلسة والنقد يفر بسهولة .

اما المنتجون الاوروبيون فقد استطاعوا تنمية ثرواتهم بزيادة الانتاج وتحسين نوعيته فازداد الدخل مع ازدياد وسائط الانتاج واتسعت كماً وكيفاً المؤسسات

التجارية الخارجية ، وظهرت المصارف التي تمدهـا بالمال وعـم استعمال وسائل الاقـراض التجـارية ، وفي هذه الفتـرة ابتـدأ اضمحـلال اسبـانيا ليحـل محلهـا امبراطوريات جديدة ورثت كلاً من الامبراطورية الاسبانية والبرتغالية .

كانت الامبراطورية الهولندية اولى الامبراطوريات الاستعمارية ظهوراً فقـد سبق الهولنديون غيرهم بعمارة السفن الثقيلة الحمولة ، وتنظيم القوافـل التجارية البعيدة حتـى اصبـح الاسطـول الهولنـدي يضـم عشرين الف مركب وأصبحـت أمستردام عاصمة المال وبناة السفن ، والتجار ، والصيارفة ، فتأسست شركتـان كبيرتان استعماريتان احداهما شرقية والأخرى غربية ، وبلـغ التنـظيم المالي قمتـه بتـأسيس مصرف امستـردام عام (١٦٠٨)م وبالرغـم من ذلك لم يلبـث أن دب الضعف في قوة الهولنديين بعد هزائمهم امام الانكليز ولم تكن لديهم القوةالبرية ـ لقلة عددهم ـ لحماية بلادهم فالتجأوا الى انكلترا وقوتها الصاعدة لحمايتهم وساروا في ركابها منذ ذلك الوقت .

اما الامبراطولية البريطانية فقد جاءت متأخرة فعندما كان غيرهم من سكان السواحل الاطلسية يجوبون البحار كان الانكليز منكمشين في جزيرتهم يعيشون على الزراعة وتربية الغنم ، وحتى عهد الملكة اليزابيث كان البحارة الانكليز لا يغامرون الى ابعد من البحر الابيض المتوسط ولكن بعـد تغلبهـم على الاسبـان وشعورهـم بالتفوق نهضوا من سباتهم وتقدموا بسرعة مذهلة وتحسنت صناعة الجوخ الانكليزي وتطورت وسمي القرن السادس عشر (بعصر الصوف) وكانوا يعتمدون على الأغنام الموجودة لديهم فبادلوا جوخهم بالقمح وغيره من المواد الضرورية وساعدهـم على ذلك وصـول عدد من الصنـاع المهـرة من فرانسـا والـذين كانـوا يتقنـون كافـة الاختصاصات فنهضت الصناعة في مختلف نواحيها وبخاصة صناعة السفن الكبيرة التي اوصلتهم الى اعالي البحار وتتلمـذوا على يد الهولنـديين في تأسيس الشركات التجارية ، ومرت انكلترا بعدة مراحـل اصـلاحية تم فيهـا تنـظيم الامـور المالية والتجارية ، في الوقت الذي كانت فيه جيوشهم المستندة على اسطول كبير وقاعدة صناعية فتية تسيطـر على الهنـد وامـريكا الشمالية وادى كل ذلك الى تنمية داخلية ساعدها على سبق اوروبا في انقلابها الصناعي .

خلال ذلك ظهرت الامبراطورية الفرنسية ولكنها لم تكن بقوة الامبراطورية البريطانية ولم تكن بضعف الامبراطورية الاسبانية . وقد شهدت فرانسا في القسم

الاكبر من القرن السادس عشر عهد أزدهار وتوسع تجاري واستعماري دفع الفرنسيين للمغامرة وتأسيس الوكالات والشركات التجارية للتجارة مع الهند ، فتأسست شركة الهند الشرقية عام (١٦٦٧م) بدعم الوزير الفرنسي المشهور (كولبير) . وقد ازدهرت الصناعة في فرانسا عندما لجأت اليها قطاعات صناعية من هولندا وايطاليا . وتأسست المصارف ونمت الثروات المنقولة بأشكالها التجارية والصناعية والمالية ، ولكن الحروب التي خاضتها فرانسا خاصة في القارة الاوروبية انهكت قواها وحدت من نشاطها الاقتصادي الخارجي ، وجعلت سياستها اوروبية محددة ، لذلك لم تستطع مجابهة بريطانيا خارج القارة الا في حدود ضيقة مما افسح المجال للانكليز للسيطرة على العالم الخارجي وكان يقال ان الفرنسيين كانوا يحاربون الانكليز بيد واحدة . وكان الفرنسيون هم الوحيدين الذين كان بامكانهم الوقوف بوجههم .

يعتبر الاقتصاديون ان الانقلاب التجاري (أو النقدي) الذي مر على اوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر بداية النظام الاقتصادي الحديث ، وكان مقدمة للانقلاب الصناعي الذي ظهر في القرن الثامن عشر، وقد لعب الانكليز الدور الاكبر في عملية الانقلاب هذه بسبب سبقهم في اختراع الآلة واستخدامها في كل مجالات الصناعة ، وساعدهم على ذلك ما تحويه ارضهم من موارد معدنية كالحديد والفحم والتي كانت عماد الصناعة الحديثة اللذين اكتشفا واستخدما في صناعة الصلب ، في الوقت ذاته بذل الانكليز مجهوداً جباراً للتوسع في مستعمراتهم وفتح اسواق جديدة لصناعاتهم فنمى اسطولهم التجاري وانتشر في مختلف البحار وحققوا السيطرة على العالم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وبعد تأسيس امبراطوريتهم الهندية تركزت سياستهم لحماية هذه الامبراطورية بعد خسارتهم لامبراطوريتهم الامريكية ، فظهرت سياستهم المعروفة بحماية طريق الهند فسيطروا على جميع الممرات المؤدية لها ، ووقعت شعوب كثيرة تحت السيطرة البريطانية . وخاضت بريطانيا حروباً طويلة لنفس السبب ، وكان الخليج العربي والسواحل العربية احدى المناطق الحساسة بالنسبة لبريطانيا لحماية امبراطوريتها فوضعت يدها عليها منذ بداية وصولها الى المنطقة وابعدت عنها كل نفوذ الا نفوذها واخمدت كل مقاومة فيها كما سيمر معنا .

وكان لوجود الصناعات الاوروبية التي تعتمد على الآلة الى الشرق اثر كبير في تدمير الصناعات الشرقية التقليدية التي تعتمد على العمل اليدوي . فابتدأت تضعف شيئاً فشيئاً ، مما اضعف اقتصاديات الشعوب المستعمرة وخفف من حيويتها وابتدأ يسير نحو الضعف ، لذلك عندما ابتدأ التماس العسكري وجدت هذه الشعوب نفسها متخلفة كثيراً ولم تستطع جيوشها التقليدية ذات التسليح البدائي الوقوف امام القوى الاوروبية الحديثة المسلحة تسليحاً جيداً وتمتع بروح معنوية قوية وارادة صلبة للنصر . فانفتحت ابواب الشرق أمام الاستعمار الغربي وشهد القرن التاسع عشر بلوغ الرأسمالية الأوروبية ذروتها والاستعمار أوج قوته وجبروته .

الفصل الثاني

شركات الهند الشرقية ودورها في عملية التسلل الاستعماري للشرق.

ـ محاولات البرتغاليين للاحتفاظ بسرية طريق الهند ، ظهور شركات الهند الشرقية ـ نشأتها ـ اهدافها ـ وماهيتها ـ ودورها في عمليات التسلل الاستعماري : شركة الهند الشرقية الهولندية ـ شركة الهند الشرقية البريطانية ـ شركة الهند الشرقية الفرنسية ـ الشركات الاوروبية الاخرى .

الفصل الثاني

شركات الهند الشرقية ودورها في عملية التسلل الاستعماري

مما لا شك فيه ان الشركات التجارية التي اسستها الدول الاستعمارية الغربية واطلقت عليها اسما واحدا تقريبا - شركة الهند الشرقية تفريقا لها عن شركة الهند الغربية - لعبت دورا رئيسيا في عملية التسلل الاستعماري للشرق بما فيها الخليج العربي الذي كان يخضع في ذلك الوقت للهيمنة البرتغالية . لقد كانت هذه الشركات الطلائع الاولى التي وصلت مياه الشرق لتعمل في التجارة وتنافس البرتغاليين ولم تلبث ان انقلبت شيئا فشيئا لتصبح قوة بحرية حربية رهيبة ، لم تكن تحوز عليها الدول التابعة لها هذه الشركات . خاصة شركة الهند الشرقية البريطانية التي اصبحت وظلت لفترة طويلة دولة كبرى تحكم الهند ، وقد مهدت هذه الشركات لدولها الطريق للاحتلال العسكري وفرص الاحتكار التجاري والسيطرة السياسية وقد ساعدها على ذلك كونها شركات مساهمة ذات تمويل ضخم لا تخضع للروتين الحكومي لذلك اتصف عملها بالسرعة والجرأة وروح المغامرة وتاريخ هذه الشركات في الحقيقة تاريخ الاستعمار في الشرق .

لقد بذل البرتغاليون جهودا جبارة للاحتفاظ بسرية طريق الهند خوفا من المنافسة الدولية التي بدأت تتزايد كلما ازدادات الارباح التي كانت تنهال على البرتغاليين من جراء تجارتهم مع الشرق ، وقد اثارت هذه الارباح انتباه الدول التي كان البرتغاليون يتعاملون معها خاصة الدول الواقعة على المحيط الاطلسي . وقد اتخذت احتياطات كثيرة للابقاء على الغموض الذي كان يكتنف الرحلات البحرية البرتغالية . فقد اصدر الملك عمانويل البرتغالي عام ١٥٠٤ مرسوما يحظر فيه وضع الاشارات على الخرائط البحرية التي يمكن بها معرفة الطريق فيما بعد سواحل الكونغو . وجمعت كافة الخرائط التي كانت عليها الاشارات فطمست وازيلت منها الاشارات . وكانت الحكومة البرتغالية تحيط دائرة رسم الخرائط الرسمية بالسرية التامة ووضعتها تحت الحراسة الدائمة . ولكن لم يكن بالامكان اخفاء الطريق الى الابد خاصة للذين يتعاملون مع البرتغال ويمدونهم بالاموال لتمويل قوافلهم البحرية كالتجار الهولنديون الذين كانت لهم صلة وثيقة بالبرتغاليين عن طريق

الوكالة البرتغالية التي كان مقرها في ميناء (انتورب) الواقع في بلجيكا حاليا . وكانت الامور طبيعية حتى اليوم الذي شعرت فيه البرتغال بان الارباح التي حققها التجار الشماليون اكثر من ارباحهم بالرغم من مجهودهم الكبير فرفعوا اسعار البضائع الشرقية وخاصة اسعار التوابل واغلقت وكالتها في (انتورب) لذلك تم التصميم على اكتشاف طريق التوابل مهما كان الثمن .

كان الهولنديون اول من صمم على اقتحام مخاطر الطريق ورفع الكابوس الاحتكاري البرتغالي بعد ازدياد الطلب على هذه المواد الثمينة ، وصادف ذلك هزيمة الاسطول الاسباني عند محاولته الهجوم على بريطانيا عام ١٥٨٨ حيث تحطم وتشتت مقابل السواحل البريطانية وانتهت اسطورة التفوق الإسباني البحري واصبح البحر مفتوحا امام الجميع . وكان الهولنديون اكثر فائدة من هزيمة الاسبان من الانكليز انفسهم وسريعا ما اصبحوا قوة بحرية في القرن السابع عشر تملك التفوق في البحار وسيطروا على تجارة التوابل قرنا من الزمن واسسوا امبراطوريتهم الواسعة في الشرق الاقصى التي ظلت قائمة بالرغم من اضمحلال قوتهم البحرية وسيرهم في ركاب الانكليز .

كانت لدى الهولنديين معلومات قيمة عن الطريق للهند قبل تنظيمهم لاول رحلة لهم عام ١٥٩٥ ، وقد وصلتهم هذه المعلومات عن طريق اثنين من الهولنديين احتكوا بالبرتغاليين احدهم (كورنيلوس دي هوتمان) الذي ارسلته هيئة كبار تجار امستردام الى لشبونه ليحصل من البرتغاليين انفسهم على المعلومات الضرورية ، وكانت الهيئة المذكورة قد عقدت اجتماعا هاما في تلك المدينة عام ١٥٩٢ حيث تقرر في هذا الاجتماع تأسيس شركة للتجارة مع الهند ، ولكن المعلومات المفيدة وصلتهم عن طريق احد الرهبان الهولنديين وهو جان هيوجن فان لتشوتن ، وكان يعمل امينا لاسرار كبير اساقفة مدينة (غوا) البرتغالية التي كانت عاصمة للامبراطورية البرتغالية في المحيط الهندي والشرق . وكان يعلم جيدا كل الاسرار المتعلقة بنواحي الضعف في الامبراطورية البرتغالية ، وفي عام ١٥٩٨ قام (ج . فان . نيك) برحلته نحو الشرق وعاد محققا ارباحا طائلة بما يعادل ٤٠٠٪ وبما ان هدف الهولنديين كان التجارة وليس التبشير وخاصة تجارة التوابل التي كانت في اوج رواجها في ذلك الوقت . كما انهم كانوا يعلمون قوة البرتغاليين في المحيط الهندي وبحر العرب اي

الشواطىء الافريقية والهندية لذلك اتجهوا الى البحار البعيدة والى شرق الهند اي لجزر الهند الشرقية حاليا (اندونيسيا) وكانت هذه الجزر المركز الرئيسي لانتاج التوابل وبعد ذلك ارتادوا جنوب الهند من اجل نفس السلعة وهي التوابل والفلفل وحب الهان (الهيل) ثم اتجهوا الى سيلان لجلب (القرفة) ، ومن الطريف انه لم يكن لدى الهولنديين ما يبيعونه من الصناعات لسكان الشرق سوى بعض المواد التي لا قيمة لها مثل صور وتماثيل لبعض القديسيين .

ورغم كل الصعوبات التي ظهرت امام الرحلات الهولندية الاولى فقد كانت ناجحة جداً وقد اكتسبوا الخبرة والمال مما جعلهم ينظمون تجارتهم من خلال شركة الهند الشرقية التي تأسست عام ١٦٠٢م من مجموعة شركات تسيطر عليها حكومة اتحاد المقاطعات الهولندية ، وكانت اكبر من شركة الهند الشرقية البريطانية ، وكان لعملها صفة وطنية بسبب العدد الكبير من المساهمين فيها فمنحت امتيازا لعشرين عاما . ومنذ ذلك الوقت اخذت في تنظيم رحلاتها البعيدة ، وفي بادىء الامر اتخذت الشركة قاعدة لها في (بانتينام) ثم نقلوها الى جاوه ، ودخلوا في صراع مع البرتغاليين الذين خافوا من هذا القادم الجديد فحاولوا تحطيمه قبل رسوخه في تلك البقاع . وقد حاول الهولنديون التعاون مع الملك الهندي (الزامورين) العدو اللدود للبرتغاليين وقد رأينا نضاله هو ومن سبقه ضد البرتغاليين بالتعاون مع العرب . وقد عقد الهولنديون والزامورين اتاقفية تعاون لطرد البرتغاليين ، وفي عام ١٦٠٥ احتلوا (امبونيا) واخيرا استقروا منذ عام ١٦١٩ في بتافيا (جاكرتا حاليا) الواقعة في جزيرة جاوا ثم اقاموا سلسلة من المراكز في جزر سيليبس (الملوك) وليحفظوا طريقهم حول القارة اقاموا مستعمرة (الكاب) في جنوب افريقيا وبعد ذلك اقاموا محطة اخرى مساعدة في سيلان . وخلال هذه الفترة استلم رئاسة الشركة رجال كبار مثل ج . ب كوين(Coen) وج . متسويكر ولم يكد يبدأ النصف الثاني من القرن السابع عشر حتى استطاع الهولنديون احتكار التجارة ولكن امبراطوريتهم لم تظهر الا في القرن الثامن عشر .

كان هدف الهولنديين منذ وصولهم الى الشرق السيطرة على بحاره ، ولم يكن امامهم من العقبات سوى البرتغاليين في بادىء الامر ثم الانكليز ، وقد استطاعوا التفوق على البرتغاليين بسبب مواردهم المالية الضخمة وسفنهم القوية المسلحة تسليا

يفوق التسليح البرتغالي وبحارتهم الاشداء ولكنهم لم يستطيعوا هزيمتهم هزيمة حاسمة لوجود حصونهم القوية التي كانوا يلتجئون اليها خاصة قاعدتهم في (غوا) . وكان رجال البحر الهولنديون يتفوقون على رجال البحر البرتغاليين فهم اكثر كفاءة وتصميما فقد وصلوا حديثا ولا يزالون يحلمون بالثروة في حين كان البرتغاليون فاقدي الحماسة التي كانت لديهم عند بداية وصولهم الى المنطقة .

حاول الهولنديون في بداية الامر عدم التدخل في الامور الداخلية للمناطق التي كانوا يتعاملون معها واكتفوا باحتكار التجارة . وقد ظهرت امامهم مثل الانكليز ، مشكلة التبادل التجاري فلم يكن لديهم كما رأينا سابقا شيئا يبادلون به او لشراء المنسوجات من الهند ومبادلتها بالتوابل من الجزر الشرقية وكانت الحاجة للفضة لشراء هذه السلع من الهند والصين . ومن اجل حصر تجارة التوابل نظم الهولنديون نظاما مترابطا للتجارة يبدأ من الخليج وينتهي في اليابان ، وكان تصميمهم النهائي هو العمل في المبادلة التجارة وبنقل المواد من مكان الى اخر ومن فرق الاسعار كان لديهم الفائض لشراء التوابل وحصر تجارتها ، وهذه النظام هو الذي قاد الهولنديون الى الهند (سوارت) والى شواطىء البنغال وغيرها .

في عام ١٦٤١ سقطت مدينة (ملقا) على ساحل الملابو بايديهم . وكانت ضربة قاسية للبرتغاليين ثم احتلوا كولمبو عاصمة سيلان عام ١٦٥٤م ثم كوشين الواقعة على الساحل الهندي عام ١٦٦٠م وكانت اول قاعدة اسسها البرتغاليون عند وصولهم بلاد الشرق الذين لم تبق بايديهم سوى مدينة وميناء (غوا) وجزيرتي داماو ، وديو ، وبومباي وقد اهديت الاخيره للانكليز كهدية زواج بين ملك انكلترا واحدى الاميرات البرتغاليات مقابل حماية الانكليز للاملاك والممتلكات البرتغالية . وهكذا شيئا فشيئا اصبح الهولنديون القوة الرئيسية في المحيط الهندي والهادي ، وفرضوا احتكاراتهم ، واخذوا يهيمنون شيئا فشيئا على كل جزر الهند الشرقية عن طريق فرق تسد ، وتأليب الحكام على بعضهم بعضا وخلق المشاكل لهم وفرض الزراعات المفيدة لتجارتهم وعملوا على افقار شعب الجزر بشجع كبير ، وعندما حاول الانكليز مشاركتهم في المغانم كان ردهم عنيفا وسريعا فهاجموا المستوطنة الانكليزية في (امبوينا) الواقعة في الجزر وابادوا من فيها وكان الانكليز قد ركزوا فيها بعض الصناعات . فاضطر الانكليز للتراجع الى الهند ومنذ ذلك

الوقت ابتدأوا بالتركيز عليها وعدم تشتيت قواهم . وهكذا استطاع الهولنديون الذين كانوا من القومية الفلمنكية خلال فترة بسيطة من الزمن معرفة المضايق والممرات بين الجزر وعرفوا اسرار البحار الشرقية ورسموا الخرائط المفصلة ، وقد ساعدهم هذا على التغلب على البرتغاليين . ورد الانكليز الى غرب المحيط الهندي وسيطروا على التجارة لقرن من الزمان ، وبذلك تأسست امبراطوريتهم التي شملت جميع جزر الهند الشرقية (اندونيسيا : ، لقد سجل احتلال البرتغاليين (ملقا : عام (١٥١١) م بداية المأساة التي تعرض لها الشعب الاندونيسي فلولا وصول هؤلاء الى تلك المدينة الواقعة قبالة الجزر الاندونيسية لما تمكن الهولنديون والانكليز من الوصول اليها عندما تبعوهم في نهاية القرن السادس عشر حتى ان بعض المؤرخين يعتبر سقوط (ملقا) هو البداية الحقيقية للاستعمار الاوروبي للشرق ، ومنهم من يعتبر بداية الاستعمار الحقيقة مع بداية عام ١٦٠٠ اي بداية القرن السابع عشر .

اما الانكليز فقد تأخروا كثيرا عن الهولنديين في انطلاقتهم الاستعمارية . فبعد النشاط الذي اظهروه في مجال الاستكشاف قبل وفي زمن هنري السابع عندما وصل بحارة بريستول الى نوفولند قبل عام ١٤٩٧ واجتاز (جون كابوت) المحيط الهندي ، في نفس العام وسجل اول رحلة استكشافية انكليزية ، فقدوا حماسهم نحو الاستكشاف خاصة بعد موت الملك هنري المذكور عام ١٥٠٩ وظلوا حتى عام ١٥٥٣ م عندما شكلت الشركة (المسكوفية) وكانت غايتها فتح طريق للشرق من الشمال للتخلص من رقابة الاسطول الاسباني الذي كان له التفوق البحري في العالم ، وقد حققت الشركة بعض الارباح واقامت تجارة بسيطة مع روسيا القيصرية ، ولكن لم تستطع فتح ممر الى الشرق بل اكتشفت بعض الجزر ثم بدأ التفتيش عن طريق اخر ومن الشمال الغربي حيث وصل مارتن فرويتشر الى جزيرة غروئلند ، وجزيرة بافن ، ولكنهم لم يصلوا الى الشرق لذلك لم يبق امامهم الا المغامرة والاتصال عن طريق البر مع الشرق والتخلص من تهديد الارمادا الاسبانية .

وعلى هذا الاساس وصل الى الشرق اربعة مغامرين انكليز عام ١٥٨٣ ، وهما التاجران رالف فيتش وجون نيوبري . ومعهم تاجر المجوهرات (ديليم

ديدز) والرسام (جيمس ستوري) ، وقد بدأت رحلتهم من طرابلس بعد ان وصلوا بحرا من اوروبا ، ووصلوا البصره عن طريق الصحراء ، كما انهم استخدموا النهر في بعض الاماكن ، ومن البصره ابحروا الى هرمز القاعدة البرتغالية ، ولكن السلطات البرتغالية شكت بامرهم واعتقلتهم ونقلتهم الى (غوا) واودعوا السجن فيها ثم افرج عنهم . فعادوا لانكلترا ومنهم من عادة مرة ثانية الى الشرق . ولم تؤد هذه المحاولة للفائدة المرجوة للاتصال بمناطق الانتاج للسلع الشرقية خاصة التوابل التي يزداد الطلب عليها في انكلترا وظل الهولنديون يمسكون بتجارتها ، فقد وجد الانكليز في التوابل المادة التي تجعل من طعامهم مستساغا وهم المضطرون للعيش من الخريف الى الربيع على السمك المملح واللحم المملح ايضا ولم يكن اللحم الطازج مستساغا . وكانت الدولة تجبر الشعب على اكل السمك لتساعد الصيادين ليواصلوا عملهم . وكل هذه الاصناف تحتاج الى التوابل . كما بدأ الانكليز يضيفون التوابل الى الخمور لتصبح اكثر قوة وحرارة ، ولم يكن الشاي معروفا في ذلك الوقت . وكانت الخمور ذات التوابل تقوم مقام الشاي .

ظل الوضع على هذا الحال حتى اليوم الذي بدأ فيه الهولنديون يرفعون اسعار التوابل فرفض الانكليز هذه الزيادة وصمموا على دخول المنافسة ، وهذا ما حدث بالضبط بين البرتغاليين والهولنديين عندما رفض الهولنديون زيادة اسعار التوابل التي فرضها البرتغاليون . وقد حقق انتصارهم على الارمادا الاسباني عام ١٥٨٨ مجال العمل وحرية التنقل وزال عنهم الكابوس الذي كان يقف لهم بالمرصاد وقد لعب القباطنة الانكليز دورا هاما في تصميم الانكليز على الوصول الى الهند خاصة القرصان المشهور درايك ، الذي كان يتعقب السفن الإسبانية كما ذكرنا سابقا ووجد في احداها ما يدل على الارباح التي كانت تعود على الاسبان والبرتغال من جراء تجارة التوابل وكانت السفينة برتغالية ، وقد طاف درايك والقبطان (غوفانديش) حول العالم ، مما شجع الانكليز للعمل .

في مكان آخر استطاع انكليزيان الاتصال ببلاط شاه ايران عباس الاول الصفوي الذي كان يعاني المتاعب من غلاظة البرتغاليين ونشاطهم المدمر في الخليج وكان ذلك ما بين اعوام ١٥٩٩ - ١٦٠١ ، وقد قدم الانكليزيان انفسهما كفارسين

من فرسان البلاط الانكليزي وطلبا ان يعملا في خدمة الشاه ! ولكن مهمتهما الحقيقية كانت اقناع الفرس بالانضمام للقوى الاوروبية التي كانت تقاتل الاتراك وضرب الدولة التركية العثمانية الجديدة من الخلف وكان الانكليز يعتقدون بان افضل طريق للوصول الى الهند هو الطريق البري ومن الضروري القضاء على الاتراك وفتح هذا الطريق . وقد وجد الشاه الفارسي في هذين الانكليزين ضالته المنشودة للتعاون معهم ضد البرتغاليين ففتح لهم باب التجارة مع بلاده ولكن لم يكن لدى هؤلاء ما يتاجرون به في ذلك الوقت ، ومع ذلك فمساعي هؤلاء كانت لها نتائج بعيدة ، عندما بدأ توارد السفن الانكليزية للخليج خلال تلك الفترة . وقد ظل هذان الانكليزيان وكانا يدعيان بالاخوين (شيرلي) في بلاط الشاه فترة طويلة واستخدمهما في مهمات رسمية .

في هذه الفترة بالذات تقدم عدد من التجار الى الملكة اليزابيث عام ١٥٩٩ بطلب تخويلهم حق ممارسة التجارة مع الشرق ، فوافقت الملكة ، وصدر مرسوم ملكي عام ١٦٠٠ بتأليف شركة تجارية تحت اسم شركة حكام وتجار لندن للعمليات التجارة في الهند والاقطار المجاورة واعطي للشركة حق احتكار التجارة مع الشرق لمدة (١٥) عاما ثم مددت بدءا من عام ١٦٠٩ ايضا (١٥) عاما وهكذا بدأت شركة الهند الشرقية مسيرتها حتى اصبحت امبراطورية رغم ان رأسمالها لم يتجاوز الخمسين الف جنيه استرليني ، وهو اقل مما خصص كميزانية للشركة الهولندية كما ان الشركة الانكليزية كانت مساهمة ولا دخل للحكومة فيها في حين ان الهولندية كانت مساهمة ولكنها حكومية اي انها كانت تهم الشعب والحكومة . ومما لا شك فيه ان الشركتين لعبتا الدور الرئيسي في خلق الامبراطوريتين الهولندية والبريطانية . وكان الهدف واحد وهو العمل في تجارة التوابل وعدم التدخل في الامور السياسية ولا في المشاكل الداخلية للشعوب ولكن ذلك لم يدم طويل فقد اصبحتا السوط المصلت على رقاب الشعوب واصبحتا اداة بشعة للتسلط والقهر . فقد كان الربح الجشع هو الدافع للشركة حتى عندما اصبحت ذات الامر والسلطان في الهند وقد ادى هذا الى نتائج سيئة تصل الى حد المآسي .

ابتدأت الشركة عملها برحلات منفصلة ممولة من قبل بعض التجار ولكن ضمن نطاق الشركة ، وكان اتجاهها نحو جزر الهند الشرقية باعتبارها المركز الرئيسي

للتوابل وكان اول من وصل الى هناك الربان لانكستر على ١٥٩١ ثم عاد في ظل الشركة عام ١٦٠١م وعندما عاد في المرة الثانية الى انكلترا كانت سفينته مملوءة بالتوابل ، وتم دفع ذلك بالذهب والفضة ، وقد اثار هذا حفيظة الاقتصاديين الانكليز الذين كانوا يخافون من تسرب الفضة والذهب من بلادهم . وقد وجد التجار انفسهم ان منتوجات الهند وخاصة الشيت (الخام الهندي والنترات) سلعاً مربحة اكثر من التوابل وخاصة في المبادلات التجارية مع اندونيسيا (الجزر) وبفروق الاسعار كانوا يشترون التوابل وقد ادى هذا الى اثارة حفيظة الهولنديين الذين كانوا يسيطرون على مجمل الجزر ، وتم انذار الانكليز بشدة عن طريق القضاء عليهم كما رأينا في مستوطنتهم في (امبوينا) فاضطر هؤلاء للانسحاب الى الهند واتخذوا لهم قاعدة في (سوارت) على الساحل الهندي الغربي ثم توالى تأسيسهم للمراكز في مختلف انحاء الهند بما فيه القسم الشرقي . وقد اصطدموا بالبرتغاليين الذين كانت لديهم علاقات جيدة مع اباطرة المغول في نيودلهي ، وكان الامبراطور المغولي في ذلك الوقت (جاهنجير) . وقد انتصر الانكليز على البرتغاليين في سوالي عام ١٦١٢ م وقضوا على القراصنة الذين كانوا يعترضون طريق الحجيج الى مكة . وقد ادى هذا الى رضاء الامبراطور على الانكليز وأخذ بالشك في قوة البرتغاليين الذين لم يستطيعوا القضاء على القرصان ، وعلى هذا الاساس اقام الانكليز وكالتهم في (سوارت) في نفس العام للمتاجرة بالمنتجات الهندية ، وكان لسفاره السير (توماس روي) الى بلاد المغول ما بين عامي ١٦٢٥ - ١٦١٨ اثر كبير في اصدار الامبراطور فرمانا منح فيه الانكليز امتيازات كثيرة وحق التجارة وتأسيس المصانع ، وقد ادى هذا النجاح غير المتوقع الى قرارهم النهائي بالتركيز على الهند لتكون قاعدة انطلاقهم التجاري وليس الشرق الاقصى .

ويعتقد أنه ما بين عام ١٦٠٠ - ١٦١٢ خرج اكثر من اثني عشر اسطول انكليزي تجاري نحو المحيط الهندي وكان تمويلها يتم عن طريق المساهمة العامة . وخلال ذلك تم تفويض الشركة بالقيام بالعمليات التجارية واعمال النقل التجاري البحري وكذلك اتجهت انظار الشركة الى تطوير علاقاتها مع منطقة الخليج ومناطق البحر الاحمر وعملت على فتح طرق تجارية جديدة لها وكان اول اتصال لها هو مع البلاد الفارسية حيث اندفعت الشركة لمبادلة فائض الصوف الانكليزي

بالحرير الفارسي ثم حصلت الشركة عام ١٦١٥ على فرمان شاهنشاهي يقضي بمنح الشركة حق المتاجرة مع فارس وصارت السفن البريطانية ترتاد السواحل الفارسية واسست الشركة مراكز تجارية في المدن الرئيسية كشيراز واصفهان ، وجاسك وغيرها . وفي عام ١٦١٧ حصلت على فرمان لتبادل التمثيل الدبلوماسي بين فارس وانكلترا وتضمن ذلك منح التجار الانكليز امتيازات خاصة ثم تطورت العلاقات الفارسية ـ الانكليزية من خلال شركة الهند الشرقية مما جعل الحكومة الانكليزية تساند الفرس ضد البرتغاليين الذين كانوا يهاجمون السواحل الايرانية وقد حصلت بريطانيا على امتيازات جديدة لها . وقد نجحت في الحصول على نصف عائدات ميناء جمبرون (بندر عباس) كما تم تأسيس مقر تجاري رئيسي للشركة في ذلك الميناء واصبحت من خلاله تدير العمليات التجارية في منطقة الخليج العربي وتم اول اتصال للشركة بالبصرة عام ١٦٣٥ وبعد ذلك تم اقامة مركز تجاري لها فيها ابتداء من عام ١٦٤٣ م .

كانت الشركة تسير سيرا حسنا ولم تلاق اية صعوبات في المجال التجاري الا ان الصعوبات بدأت تظهر امامها في انكلترا بعد اعتناق انكلترا لسياسة المركانتلزم او الحرية التجارية والتي كانت تكره الاحتكار والحصر التجاري . لذلك تأسست في كانون الاول عام ١٦٣٥ م شركة اخرى اسسها ويليام كورتين Wiliam Coarteen الذي أفلح في الحصول على ترخيص من الملك تشارلي الاول ، وكانت عبارة عن اتحاد للتجارة مع المستعمرات البرتغالية في الشرق ، رغم اعتراض الشركة القديمة ، وقد اقامت الشركة الجديدة مراكز جديدة في الهند مما ادى الى تنافس كبير بين الشركتين على التجارة مع ايران وكادت ان تسبب مشاكل للطرفين مما جعلهما يتفقان على ابعاد هذه المنافسة وتوحيد جهودهما في عام ١٦٤٩ عن طريق تأسيس شركة جديدة تقتسم الشركتان السابقتان اموالها وارباحها مناصفة، وقداصبح اسم اتحاد ويليام كورتين (اتحاد آساد) وقد اتاح هذا الاتفاق الى الشركة الجديدة المناخ السياسي لتوسيع اعمالها ليس في فارس وحدها وانما في معظم السواحل العربية والهندية . وكانت الشركة السابقة قد دخلت في مفاوضات مع الدول الهندية واقامت قلعة كبيرة في (مدراس) واصبح لديها اكثر من ثلاث وعشرين مركزا تجاريا حتى عام ١٦٤٧ وعلى الرغم من المنافسة الهولندية والفرنسية بالاضافة الى منافسة التجار

الفرس والهنود فقد حققت ارباحا طائلة ، وبعد التوحيد انتقلت الشركة الى بومباي عام ١٦٦٥ التي استأجرتها من الملك تشارلي الثاني بقيمة عشرة جنيهات وكانت جزيرة بومباي انتقلت من ملكية البرتغال الى الملكية البريطانية كهدية عرس كما رأينا . وقد دعم (كروميل) نفوذ الشركة حيث اصدر مرسوما عام ١٦٥٧ اعطى فيه الحق للشركة بشكل مطلق للتجارة مع الشرق ورغم عودة الملكية فقد دعمت هي الاخرى الشركة حيث اصدر الملك تشارلس الثاني مرسوما على ١٦٦١ باعطائها امتيازات اكثر . وقد اصبح للشركة مراكز رئيسية ثلاث هي كلكتا ومدراس وبومباي وكان الخليج منذ ذلك الوقت يدار من بومباي .

وبالرغم من هذه الحماية والقوة فقد استطاع بعض التجار الغاء امتيازاتها وتحجيمها واصبحت تعرف باسم شركة تجار لندن) . وبالمقابل تم تأسيس شركة جديدة لتمويل كبير في ٣ كانون ثاني ١٦٩٨ باسم الشركة العامة للتجارة . وقد طرأ ايضا تغيير جديد على هذه الشركة فبعد ان كانت اتحادا دخل فيها جماعة مالية قوية وتم تأسيس شركة تجارية جديدة باسم الشركة الانكليزية للتجارة في الهند والمناطق المجاورة لها The engbsh Campany Trading to The East indies وقد دخلت شركة الهند القديمة (تجار لندن) كمساهمة فيها . وقد بدأ صراع كبير بين الشركتين القديمة والحديثة ادى الى دمجهما مع بعضهما بقرار من الحكومة في ٢٩ ايلول ١٧٠٨ باسم الشركة المتحدة للتجارة الانكليزية لجزر الهند الشرقية والتي اصبحت تعرف باسم شركة الهند الشرقية الشهيرة ، The Honrable East india Company وهذه الشركة هي التي لعبت الدور الرئيسي في تثبيت النفوذ الانكليزي . وحتى نهاية النصف الاول من القرن السابع عشر كان طابع شركة الهند الشرقية تجاريا ولكن بعد ذلك اخذت السياسة تتغلب على القضايا التجارية واصبح لها جيوش واساطيل بحرية وفي عام ١٦٨٤ عينت قائدا عاما لجيشها واميرالا لبحريتها وتحولت السياسة الاقتصادية الى سياسة السيادة الاقليمية على الارض خاصة في القرن الثامن عشر .

ان استطرادنا في القاء الضوء بشيء من التفاصيل على شركة الهند الشرقية الانكليزية يقتضيه البحث عن عملية التسرب الاستعماري البريطاني للشرق عامة وللهند خاصة . فهذه الشركة كانت الاداة الفعالة والرئيسية التي اوصلت حكومة صاحب الجلالة البريطانية للتحكم في الهند وتأسيس الامبراطورية البريطانية .

وكان لرؤساء ووكلاء الشركة في الشرق مرتبة السفراء والقناصل ويتمتعون بالحصانة الدبلوماسية .

لقد ادى اندماج الشركتين وتأسيس شركة الهند الى اعطاء التجارة والدفع الاستعماري البريطاني قوة وجرأة وسرعة في الاحكام ولم يعد امام موظفي الشركة من منافس وقد استغلت الشركة موت اخر اباطرة المغول المسلمين الكبار (اورانزيب) لتتحكم في الهند . وكان موته في عام ١٧٠٧ ومن بعده بدأت الاضطرابات تتوالى في بلاده الواسعة واستغلت الشركة ذلك لتجعل من كافة الامراء الهنود العوبة في ايديها واخذت تفرض سيطرتها على المقاطعات الهندية وتفرض الضرائب عليها مرا كان يزيد في قوة دخلها وكانت الارباح تنهال عليها من كل مكان . وكانت البصرة المركز الرئيسي للبريد من انكلترا واليها عن طريق البحر الابيض المتوسط الى حلب والفرات والعكس كما كانت مركزا تجاريا حظيت فيه الشركة بمركز هام بعد مساعدتها في دفع الغزو الفارسي عن المدينة واخذت السفن الانكليزية ترتاد الموانىء العربية حاملة منتجاتها الصوفية ، والقطنية والسكر والتوابل وغيرها لتغطية الاسواق المحلية ، وفي عام ١٧٥٩ استطاع اسطول الشركة هزيمة الاسطول الهولندي في (جنسورا). وبعد هذا النصر انتهت في الواقع المنافسة الهولندية في القارة الهندية كما استطاعت الشركة هزيمة الفرنسيين عام ١٧٦٠ وبذلك زالت كل منافسة للانكليز واصبحوا اسياد الموقف في كل مكان .

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر اصبحت الشركة تحتكر تجارة الخليج وتهيمن عليها ايضا بدون منافس!واصبح الميزان التجاري لصالحها ، وصارت العملات الذهبية تخرج من مناطق الخليج بدون قيود بما فيها اللؤلؤ . وكان المركز الرئيسي للشركة في الخليج بندر عباس ثم انتقل الى البصره عام ١٧٦٣ وخلال الحرب واحتلال الفرس للبصره انتقل مركز الشركة للكويت ثم عادت للبصرة بعد خروج الفرس منها . وقد لعبت الشركة دورا كبيرا في حياة الخليج والشعوب المحيطة به من الناحيتين السياسية والاقتصادية .

وفي القرن التاسع عشر اصبحت القوة المهيمنة على كل انحاء الخليج بعد قضائها على كل المقاومات العربية التي اظهرتها القبائل العربية على شاطىء الخليج . ومنذ ذلك الوقت دخلت هذه القبائل في سبات عميق لم يوقظها منه سوى اصوات الحفارات العملاقة التي كانت تنقب في البحر واليابسة عن النفط . وفي

الهند استطاعت الشركة طيلة سنين طويلة من تشتيت المقاومة الهندية ومدت نفوذها السياسي والعسكري والتجاري الى مختلف انحاء الهند واصبحت تسيطر على امبراطورية واسعة بدأت تستغلها بجشع بسبب العقلية التجارية التي كانت تسيطر سيطرة تامة على رجالات الشركة . وكان همهم الوحيد استنزاف ثروة الهند والحصول على اكبر ثورة ممكنة واستغل الضباط الانكليز مراكزهم للقيام باعمال خاصة بهم مما ادى الى شبل اجهزة الشركة التي بدأت تميل نحو الافلاس وكلما ازداد انحدارها زاد جشع القائمين عليها مما ادى عام ١٨٥٧ الى الثورة الهندية على الشركة والمعروفة باسم ثورة (سيبوي) التي هزت اركان الامبراطورية باسرها وكشفت للرأي العام البريظاني الفظائع التي كان يرتكبها الحكم البريطاني في الهند . وفي عام ١٨٥٨ صدر قانون يعرف باسم قانون الحكومة الافضل للهند الغى فيه حكم شركة الهند الشرقية نهائيا وانتقلت الادارة في الهند للحكومة البريطانية ، وعادت الشركة الى عملها التجاري كشركة بسيطة لم تلبث ان اضمحلت شيئا فشيئا وظهرت الامبراطورية البريطانية ـ الهندية .

اما الفرنسيون فقد اعطوا اهمية كبيرة للتجارة مع الشرق في السنين الاولى من القرن السادس عشر ولكن كان ذلك بشكل منفرد . واول رحلة تجارية فرنسية وصلت الهند في زمن لويس الثاني عشر عام ١٥٠٣ . وقد اصطدموا بمعارضة قوية من البرتغاليين اسياد المنطقة في ذلك الوقت وفي زمن الملك هنري الرابع تأسست شركة الهند الشرقية الفرنسية عام ١٦٠١ ببراءة ملكية تخول الشركة حق التجارة والحصر مع الهند لمدة خمسة عشر عاما . وكان ذلك بعد مائة عام من بداية اول اتصال اوروبي مع الهند . وقد ظهرت شركات فرنسية اخرى بنفس الاسم وبنفس الغاية . وفي عهد الكاردينال الداهية (ريشيليو) على ١٦٩٢ ازداد النشاط الفرنسي ، وحققت شركة الهند الفرنسية نجاحا لا بأس به ثم خف نشاطها حتى عام ١٦٦٤ عندما اعيد تنظيمها ودعمها من قبل الملك لويس الرابع عشر وكان الموجه لسياستها وزير المالية الفرنسي المشهور (كولبير) وقد تشكلت الشركة على غرار الشركات الاخرى البريطاينة والهولندية ، ولكن الفرنسيين كانوا يعملون لامتلاك الارض والسيطرة السياسية لذلك اتصفت اعمال الشركة في بداية الامر بنوع من الصفات التي تجمع بين الحماقة والتجبر والتخطيط السيء والتجارة ، لذلك واجهت

صعوبات كبيرة امامها ، ولم ينقذها من هذه السياسة الفاشلة سوى (فرانسوا مارتن) اعتبارا من عام ١٧٧٤ حيث بدأ الازدهار يدب في ارجاء الشركة .

كانت لدى الفرنسيين الامكانيات الكبيرة التي تجعلهم اكبر قوة استعمارية في القرن السابع عشر نظرا لتعداد فرنسا الكبير بالنسبة لغيرها من الدول الاوروبية ، وامكانياتها الاقتصادية والمعدنية وكانت تمر في فترة ازدهار كبير وبخاصة اثناء حكم لويس الرابع عشر (الملك الشمس) ، وكان لدى الفرنسيين افضل جيش في اوروبا . ولكن اهتمام الفرنسيين كان متجها دائما للقارة الاوروبية بسبب الصلة الوثيقة التي تربط فرنسا ببعض الشعوب الاوروبية . لذلك كانت الحروب الاوروبية تستنفذ القسم الاكبر من طاقة فرنسا ، لذلك كان نشاطها يتأثر دائما بالحروب والمشاكل التي تقع في القارة لذلك بعد ان استطاعت الشركة تأسيس مراكز لها في كل من (بوندشيري) عام ١٦٦٤ وسيطرت على شاندرناغور (شاندر ناغار حاليا) عام ١٦٩٠ اهملتها بسبب احداث جرت في القارة الاوروبية مما ادى الى سقوط بوندشيري بيد الهولنديين عام ١٦٩٣ . ولكن بعد معاهدة (ريسوك) للسلام عام ١٦٩٧ حصلت الشركة الفرنسية على افضل قلعة في الهند عندما استعادت بوندشيري .

بعد عام ١٧٠٦ تعرقلت مشاريع الشركة وفقدت امتيازاتها لصالح مجموعة التجاز الفرنسيين المعروفة باسم (سان مالو) التجارية ما بين اعوام ١٧٠٨ - ١٧٢٠ م وبعد هذا التاريخ جرى تبدل كبير في سياسة الشركة واعيد تشكيلها ، وتوسعت تجارتها وافتتحت مراكز جديدة وتم استعادة جزيرة موريشوس واستيطانها عام ١٧٢١ وفي عام ١٧٢٥ تم احتلال ملبار ، وكاريكال في الجبهة الشرقية من الساحل الهندي وتم استعادة قلعة شاندرناغور عام ١٧٣٩ ، وبالرغم من ان الشركة كانت مستقلة الا انها كانت تخضع لسيطرة الحكومة المباشرة وهي التي كانت تعين كادرها الرئيسي ومنذ عام ١٧٣٣ وبعد مراحل متعددة من الضعف والقوة اضمحلت الشركة وتبددت وعندما استقلت الهند واضطر الاوروبيون لتركها لم يكن لدى الفرنسيين سوى خمسة مراكز في شبه القارة الهندية وكلها تقع على السواحل .

حاولت دول اخرى تشكيل شركات تجارية على غرار شركات الهند الشرقية البريطانية والهولندية والفرنسية وتعمل لنفس الغاية مثل الدانمارك والامبراطورية .

النمساوية وفي سويسرا فقد شكلت الدانمارك شركة عرفت باسم شركة الهند الشرقية الدانماركية وابتدأت عملها عام ١٦١٦ ثم.تلتها شركة (اوستند) النمساوية ولكن هذه الشركات لم تستطع الصمود امام منافسة شركة الهند البريطانية التي كانت امبراطورية حقيقة لذلك اضمحلت هذه الشركات وزالت شيئا فشيئا .

مما تقدم نرى كيف لعب هؤلاء التجار الدور الرئيسي في نشر نفوذ بلادهم والتي وقعت فريسة لمطامعهم واساليبهم القذرة ومما لا شك فيه ان هذه الشركات كانت وبالا على الشعوب التي ابتليت بها فقضت على تجارتها وصناعتها واستغلتها اسوأ استغلال مما ادى الى توقف مسيرتها الحضارية مدة طويلة حتى خروج المستعمرين منها ، ومهما قيل عن الرسالة الحضارية التي حملتها هذه الشركات والشعوب المستعمرة الى الشعوب المستعمرة فما لا شك فيه انها على العكس اضرت بتلك الشعوب ضررا فادحا لا تزال تعاني منه رغم استقلالها .

الفصل الثالث

قوى الصراع الاوروبية والمحلية في الخليج العربي

ـ اختلاف النظره نحو الخليج حسب اهميته الجغرافية والاقتصادية ـ وصول الانكليز ـ الصراع بين البرتغاليين والايرانيين ـ احتلال هرمز من قبل الانكليز والايرانيين ـ القوى العربية واحتلال رأس الخيمة ـ الصراع بين البرتغاليين والانكليز ـ وصول الفرنسيين وانتصارهم على الهولنديين ـ الاتفاق الانكليزي ـ الهولندي والسيطرة الانكليزية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

قوى الصراع الأوروبية والمحلية في الخليج العربي

عندما ابتدأ الغزاة الأوروبيون بالوصول الى مياه الشرق ، كان همهم الوحيد الوصول إلى مناطق انتاج التوابل والسيطرة عليها وحصر تجارتها التي كانت تدر على المتاجرين بها أرباحاً طائلة . وقد رأينا كيف انفرد البرتغاليون بالأمر لفترة طويلة ، إلا أنه منذ القرن السابع عشر ابتدأت تتوافد على المنطقة قوى أوروبية اخرى ، هولندية - انكليزية - فرنسية وكان وصولهم تقريباً إلى المنطقة في وقت واحد وقد اتجه كل منهم الى منطقة بعيداً عن الآخر في بادىء الأمر ثم ما لبثوا أن اصطدموا ببعضهم في منافسة وتحد مريرين انقلبتا في أغلب الأحيان إلى حرب حقيقية . كانت تمتد في بعض الأحيان لتشمل كافة المنطقة الواقعة بين السواحل الافريقية والاندونيسية وكان ميدانهم البحر ، وعندما كانت الأمور تهدأ بين طرفين كان بعضهم يلجأ لحرب القرصان وقد اشتهر القراصنة الانكليز في هذا المجال ولم يكن هؤلاء يوفرون أحداً حتى انهم كانوا يهاجمون السفن البريطانية وقد اتعبوا البرتغاليين كثيراً ، وبالرغم من ان الخليج لم يكن له في ذلك الوقت اية اهمية كبيرة ان كان من الناحية الاقتصادية او غيرها ، الا ان موقعه الجغرافي الممتاز كنقطة متوسطة في قلب العالم القديم جعله يصبح ميداناً رئيسياً للصراع والتنافس الدوليين .

كان القائد البرتغالي المشهور (البوكيرك) اول من تنبه من الاوروبيين لاهمية الموقع الجغرافي للخليج العربي خاصة في عملياته الحربية ضد البحرية العربية والسيطرة على طرق المواصلات البحرية بين افريقيا والهند والشرق الاقصى ومن جهة اخرى للتحكم في تجارة الشعوب التي كانت تعيش على شاطئيه . وعندما وصل الانكليز هم ايضا فطنوا لهذا الموقع وكذلك الهولنديون والفرنسيون . واستغل لنفس الأهداف التي كانت تدفع البرتغاليين للسيطرة عليه فهذه القوى البحرية كانت تخشى دائماً في الفترات الأولى من وصولها للمنطقة الاقتراب من البر أو بالاحرى النزول على الشواطىء بهدف السيطرة او القتال بل كانت تختار لمواقعها الجزر الصغيرة المتناثرة في الخليج . وقد أمن لها هذا الذراع المائي الاتصال بفارس والعراق وتركيا والوصول الى البحر الابيض عن طريق الانهار العراقية . وكانت

اهمية الخليج تزداد بالنسبة للانكليز بقدر ازدياد نفوذهم في الهند حتى استطاعوا في النهاية السيطرة عليه سيطرة كاملة بالرغم من منافسة الهولنديين والفرنسيين . وقد اصبح الخليج خط الدفاع الاول عن المصالح البريطانية في الهند خاصة عندما حاول نابليون تحقيق احلامه في الوصول الى الهند عن طريق البر متبعاً خطا الاسكندر المكدوني الذي كان في الواقع اول الغزاة القادمين من الغرب واذا كان الاسكندر قد نجح في الوصول الى الهند الا ان نابليون اخفق في بداية الطريق وعاد ادراجه ليحمي مجده في اوروبا .

كان الانكليز أول من وصل الخليج بعد البرتغاليين وتبعهم الهولنديون والفرنسيون وجرى تنافس شديد من جهة بين بعضهم بعضاً ومن جهة اخرى بينهم وبين القوى المحلية من فارسية وتركية وعربية وكان الأتراك يحكمون العراق، وكان أول الخاسرين في هذا الصراع هم البرتغاليون. وقد أوجسوخيفه منذ مشاهدتهم للانكليز للمرة الاولى لأن الانكليز اتجهوا للخليج قبل الهولنديين، الذين اتجهوا مباشرة كما رأينا الى جزر الهند الشرقية ثم من هناك عادوا الى الخليج ، وبالرغم من صلات البرتغاليين الوثيقة بأباطرة المغول وشاهات الفرس إلا أن هؤلاء كانوا مكروهين بسبب سياستهم الخرقاء التي كانت تعتمد البطش والقتل اسلوبها المفضل ، وقد استغل الانكليز هذا الوضع والكره ، بدهاء ، وتؤده ، وجاءوا بمفاهيم جديدة واسلوب جديد يعتمد على الاتصال المباشر مع السكان وعرض المساعدات والتعاون وعقد الصداقات وجعل قسم من السكان يرتبط بهم حتى يصلوا لغايتهم ومن بعدها يكشرون عن انيابهم .

وفي الوقت الذي وصل فيه الانكليز الى الخليج كان البرتغاليون يخوضون معارك طويلة مع القوى المحلية من عربية وفارسية . فقد استطاعت القبائل العربية القاطنة على السواحل الشرقية بالتعاون مع شاه الفرس اخراجهم من البحرين عام ١٦٠٢ وحوالي عام ١٦٠٨ تمت محاصرتهم في هرمز وكان رد البرتغاليين عنيفاً كعادتهم في مثل هذه الحالات فقد هاجموا عام ١٦١٢ مدينة بندر عباس على الساحل الشرقي واحتلوها وصمدوا امام كل المحاولات التي جرت لاستعادتها وكان هدفهم امن احتلال المدينة حماية جزيرة هرمز التي كانت تقع امام ساحلها . وفي عام ١٦١٥ استطاع الفرس استعادة مدينة بندر عباس في الوقت الذي كان فيه العمانيون يشنون على البرتغاليين الهجمات المتلاحقة في البر والبحر واحتلوا المركز البرتغالي في رأس

الخيمة الذي كان يمون جزيرة هرمز بالماء لذلك اصبح وضع الجزيرة صعباً ، وبالرغم من عدم وجود اتفاق بين مختلف الاطراف التي تحارب البرتغاليين إلا أن كلاً منهم كان يعمل جهده لتدميرهم مما ادى الى سقوط الامبراطورية البرتغالية . ففي المحيط الهندي استطاع الانكليز اخراج البرتغاليين من الهند بعد انتصارهم عليهم عام ١٦١٢ ـ ١٦١٥ ففقد هؤلاء نفوذهم هناك ولم يبق لديهم سوى (غوا) . وكان للانتصار الانكليزي ابعاده العميقة بالنسبة لمستقبل النفوذ البريطاني في الهند وكذلك بالنسبة لنفوذ البرتغاليين الذين فقدوا هيبتهم ونفوذهم لدى أباطرة المغول في حين ازداد الانكليز حظوة وثقة خاصة بعد حمايتهم لطريق الحج وفي الوقت ذاته كان البرتغاليون أيضاً يعانون من الهزائم أمام الهولنديين مما أدى إلى انحسار نفوذهم في المحيط الكبير .

وخوفاً على الخليج الذي لم يعد لهم نفوذ إلا فيه اصدر البرتغاليون الأوامر بمنع دخول السفن الأجنبية للخليج بدون اذن منهم . ولكن الانكليز تحدوهم وارسلوا اسطولاً عام ١٦٢٨ وألقى مراسيه في ميناء (حاسك) الذي كان الانكليز ينظرون إليه كأفضل مكان للتجارة مع الفرس . وقد أدى هذا التحدي الى حالة من الذعر أصابت البرتغاليين . لذلك عندما حاولت عام ١٦٢٠ سفينتان انكليزيتان دخول ميناء حاسك منعها البرتغاليون ، واحتلوا ميناء جاسك فعادت هذه السفن الى (سوارت) المركز الانكليزي في الهند وبعد ذلك توجهت عائدة الى جاسك بقوة اكبر ، وهزمت البرتغاليين واحتلت ميناء (جاسك) المذكور بشكل دائم . ومنذ ذلك الوقت اخذ الانكليز يرتبون امورهم في الميناء والاتصال مع الايرانيين للتعاون معهم على اخراج البرتغاليين من جزيرة هرمز وكان الفرس في ذلك الوقت في عراك مع الأتراك أيضاً وانتصروا عليهم فأدى الى توقيع اتفاقية بين الطرفين مما ساعد الايرانيين على التفرغ للبرتغاليين وبذلك تمت محاصرة هرمز براً وبحراً وكمقدمة لاحتلالها تم احتلال جزيرة (قشم) في الأول من شباط عام ١٦٢٢ ، فلم تلبث (هرمز) أن سقطت بيد الفرس وبمساعدة الانكليز الفعالة في ٢٣ نيسان ١٦٢٢ ، وبذلك فقد البرتغاليون آخر معاقلهم الحساسة في الخليج العربي . وقد دمرت الجزيرة عن آخرها وفقدت مركزها وأهميتها بعد أن كانت تعرف ببابل الشرق ولم يعد لها وجود سوى الاسم . وقد جرب البرتغاليون مراراً استعادتها إلا أنهم فشلوا في ذلك واضطروا للاعتراف بخروجها من أيديهم وعقدوا بعد ذلك اتفاقية مع

الفرس عام ١٦٢٥ وقد سمح لهم بموجبها بإقامة وكالة تجارية في مدينة كينج الساحلية مع نصف دخل مينائها لقاء تخليهم عن المطالبة بجزيرة هرمز ، وكانت فائدة الانكليز التجارية كبيرة ، بعد هذا النصر حيث فتحت أمامهم ابواب التجارة مع العراق وايران والسيطرة على تجارة الحرير ، ولم يركن البرتغاليون للهدوء بعد هزائمهم المتتالية بل اخذوا بالتعرض للسفن الانكليزية وغيرها في صحار وخوزمكان ومسقط على البحر العربي ، وأدى هذا إلى صدام آخر بين الفريقين ، ووقف الهولنديون بجانب الانكليز «وحدثت معركة بحرية عام ١٦٢٥ بين الطرفين أدت الى هزيمة منكرة للبرتغاليين الذين تشتت اسطولهم فانسحبوا الى الشاطىء الغربي المطل على البحر العربي حيث كانت آخر معاقلهم .

لم يكد الانكليز ان ينتهوا من البرتغاليين حتى واجهوا عدواً جديداً اكثر تنظيماً ودقة وشجاعة وكان هذا العدو هو (الهولنديون) الذين اخذوا في الوصول الى الخليج من قواعدهم في اندونيسيا في محاولة لاقامة حصر تجاري على المنطقة فاصطدموا بالانكليز في الوقت الذي كانوا فيه يطاردون فلول البرتغاليين وحصلوا من شاه الفرس باذن على المتاجرة بالحرير ايضا . وقد تضايق الانكليز من هذا الضيف الخشن ، الشديد البأس ، الذي اصبح اشد منافسة لهم من البرتغاليين ، وكانت القوى الهولندية بازدياد في المنطقة وتزداد مع سرعة احتلالهم للمراكز البرتغالية في الشرق الأقصى . وقد حدث ما كان يتوقع وبدأ الاحتكاك المباشر بين الطرفين الطامعين في ثروات المنطقة ، عندما رفض الهولنديون دفع الرسوم الجمركية للانكليز الذين كانوا يسيطرون على ميناء بندر عباس .

في عام ١٦٢٩ توفي الشاه عباس ، مما أدى الى تجديد الامتيازات من قبل خليفته وكانت حصة الهولنديين من هذه الامتيازات اكثر من حصة الانكليز وأصبحوا في المقام الأول وفي عام ١٦٣٨ اصبحت تجارة التوابل والبهارات شيئاً فشيئاً في أيدي الهولنديين مما جعلهم في المقام الأول ، وكانو ينشرون الدعايات السيئة ضد الانكليز في كل مكان ، مما يزيد هؤلاء حقداً عليهم وما بين عامي ١٦٣٩ - ١٦٤٠ اصبحت جميع تجارة الخليج في أيديهم خاصة مع ايران مما جعل الانكليز يفتشون على مركز لهم بعيداً عن الهولنديين المزعجين حسب قول الانكليز فاتجهوا للبصرة حيث سمح لهم الباشا التركي متسلم البصرة بانزال بضائعهم فيها وفي عام ١٦٤٣ م افتتحوا أول مركز لهم هناك بانتظار الفرصة الملائمة للقضاء على الهولنديين الذين

بدأوا يستخدمون العنف في تنفيذ مآربهم وفي فرض الأسعار التي تساعد على ربحهم ، ففي عام ١٦٤٥ ارسلوا اسطولهم الى جزيرة قشم مما أفزع الشاه وسارع في قبول وتنفيذ مطالبهم وسمح لهم بشراء الحرير وتصديره دون ضريبة ، وكانت هذه الاتفاقية ضربة قاسية للانكليز ، ثم ان الهولنديين ثملوا بنشوة الظفر فأرادوا القضاء نهائياً على الانكليز وابعادهم فهاجموا البصرة ودمروا الوكالة التجارية الانكليزية عام ١٦٤٩م وبعد ذلك وصل نفوذهم الى قمته ، وفي الوقت ذاته ، وبالرغم من اصرار الهولنديين للحصول على نفس الامتيازات الانكليزية المتعلقة بتجارة الحرير والتساوي في المعاملة إلا أن الشاه كان يرفض طلبهم باعتبار ان خدمات الانكليز كانت أفضل وذات نفع لبلاده . وكان الحاح الهولنديين على هذه الامتيازات للسيطرة على تجارة الحرير الايراني بعد سيطرتهم على تجارة التوابل والبهارات وكانت مشكلة الدول المتاجرة مع ايران ان العلاقات او الامتيازات التي تكون قد عقدت مع أحد الشاهات لا يعترف بها من يخلفه او هو نفسه يمكن ان يلغيها حسب اهوائه ومنفعته الخاصة من هذه المشكلة لذلك كان هؤلاء يلجأون للرشوة واكتساب الاصدقاء عن طريق دفع الرواتب لهم إن كان في حاشية الشاه او من المتنفذين وبهذه الطريقة كانوا ينفذون الى اعلى المستويات ويفرضون مطالبهم ، ومن المعروف ان الانكليز امهر من يعرف هذه الطرق الملتوية .

لم ينقذ التجارة الانكليزية في الخليج سوى الحرب التي وقعت في القارة الأوروبية بين انكلترا وهولندا عام ١٦٥٣-١٧٥٤ ثم وانتقال الصدام إلى الخليج بعد فترة وحاول كل من الانكليز والهولنديين الاستعانة بالقوات البرتغالية المتبقية في الخليج والساحل العماني ولكن هؤلاء رفضوا ذلك واتخذوا جانب الحياد ، ربما انتظاراً للحظة المناسبة للانقضاض على الطرفين بعد ان تنهك قواهما وقد جرت اصطدامات عنيفة بين الانكليز والهولنديين وتم اغراق بعض السفن الانكليزية وسيطر الهولنديون على ميناء بندر عباس الواقع تحت السيطرة البريطانية عام ١٦٦٤ وظهر التفوق الهولندي واضحاً . فازدادت تجارتهم وتوسعت فعدا عن التوابل اخذوا يتاجرون بالسكر والنحاس وربحوا منها أرباحاً طائلة . ثم تجددت الحرب بين عامي ١٦٦٥ -١٦٦٧ دون قيمة تذكر وهنا ظهرت قوة منافسة ثالثة وهي شركة الهند الشرقية الفرنسية . فقد وصل الفرنسيون الى المنطقة تدفعهم الرغبة للسيطرة عليها بأسرع ما يمكن والقضاء على منافسيهم واحتكار التجارة فاصطدموا بالهولنديين

الذين كانوا يشعرون بتفوقهم واستطاعوا تدمير اسطولهم عام ١٦٧٦ في سلسلة من المعارك البحرية جرت في الخليج والبحر العربي والمحيط الهندي ، مما جعل الهولنديون يلتجئون للانكليز والتعاون معهم لدرء هذا الخطر المفاجىء والشرس الذي اخذ يهدد كيان الطرفين وحدثت المصادمات بين الفرنسيين من جهة والانكليز والهولنديين من جهة اخرى ، ولكن الفرنسيين الذين كانت لديهم كل الامكانيات للانتصار على الطرفين لم يصمدوا وانسحبوا بسبب الاحداث التي وقعت في القارة في ذلك الوقت وانتهى الوجود الفرنسي تقريباً في اواخر القرن السابع عشر ليظهر مرة ثانية خلال القرن الثامن عشر .

كانت خطيئة مميتة من قبل الهولنديين بالالتجاء الى اعدائهم الانكليز ، فقد اخذت قوتهم تضمحل شيئاً فشيئاً بينما كانت قوة الانكليز تزداد توسعاً ومضاءً . ومع ذلك ظلوا لفترة طويلة يشكلون شوكة في جنب الانكليز ، ففي عام ١٦٨٤ حاولوا احتلال ميناء بندر عباس مرة اخرى ولكنهم لم يفلحوا ، وفي عام ١٦٨٨ فشلوا في اقناع الشاه بعدم التعامل مع الانكليز وحاولوا الايقاع بين الطرفين ولكنهم لم يفلحوا أيضاً بسبب دهاء الانكليز وعلى العكس فبقدر ما كانت اسهم الانكليز تزداد حظوة لدى الشاه كانت تتضاءل حظوة الهولنديين لدى الفرس وتمكن الانكليز من الحيلولة دون حصولهم على احتكار تجارة الصوف في كرمان .

في عام ١٦٩٥ ازدادت حدة القتال بين العرب والفرس ، وتكرر هجوم القبائل العربية على السفن التي تحمل العلم الفارسي فخشي الانكليز ان يسارع الهولنديون لمعونة الفرس فيعودون لخطواتهم السابقة ، ولكن هذه المخاوف لم تتحقق ، وما بين عام ١٦٩٥ ـ ١٧٠٥ بدأ الميزان يميل لصالح الانكليز ، خاصة بعد انتقال مركز شركة الهند الشرقية الى بومباي عام ٦٨٧* وشكلت فيها نوعاً من الادارة وجيشاً لحمايتها مستقلة عن الهند ، وبقدر ما كان ظهور الهولنديين سريعاً وعنيفاً في الخليج العربي كان انحسار نفوذهم سريعاً ، ويعزى نجاحهم في الشرق الى تصميمهم القوي على السيطرة على منابع الثروة ونجاحهم في هذا المضمار ، يضاف الى ذلك كانوا يتمتعون بعزيمة قوية وروح للتضحية عالية .

لما استتب الأمر للانكليز في بومباي ، اسفروا عن وجههم الحقيقي وعن نياتهم الاستعمارية والاعتماد على القوة العسكرية لمجابهة مهراجات الهند واباطرة

المغول والتغلب عليهم ثم التفتوا بعد ذلك للخليج العربي لتصفية المقاومة العربية وتمكنوا منها مستخدمين كل مالديهم من وسائل سياسية وعسكرية .

خلال هذه الفترة لم تنقطع المعارك ايضاً بين البرتغاليين والعرب في الخليج وعلى سواحل المحيط الهندي الافريقية . وقد سجل النصف الأول من القرن السابع عشر عودة القوة البحرية العربية للظهور في المحيط ، واعادت لفترة لم تكن قصيرة مطلقاً ، امجاد البحرية العربية الغابر وكان ذلك على يد اليعاربة العمانيين الذين أشادوا أول امبراطورية عربية بحرية تضم سواحل افريقية واسيوية في وقت واحد .

الفصل الرابع

اليعاربة العمانيون ودورهم في الصراع ضد الاجانب الأوربيين

ـ موقع عمان واثره على شعب عمان ـ مذهب الأباضية ـ نهوض العمانيين لقتال البرتغاليين في القرن السادس عشر ـ اليعاربة واصولهم ودورهم في المحيط الهندي ـ الصراع ضد البرتغاليين ـ أئمة عمان الكبار ـ انتصار العمانيين على البرتغاليين على السواحل العربية وسواحل شرق افريقية ـ الخطابات بين الأمام سيف بن سلطان والبرتغاليين والتمركز العماني في شرق افريقية

الفصل الرابع

اليعاربة العمانيون ودورهم في الصراع ضد الأجانب الأوربيين

كان العمانيون احدى القوى الرئيسية التي لعبت دوراً كبيراً في الصراع الدولي خلال الحقبة التاريخية للمنطقة الممتدة ما بين سواحل افريقية الشرقية والهند والتي ابتدأت بالقرن الخامس عشر وانتهت في منتصف القرن التاسع عشر وكان لموقع بلادهم الحساس اثر كبير في اهمية هذا الدور فمن الناحية الجغرافية تقع عمان بسواحلها الطويلة على البحر العربي وخليجي عمان والعربي لذلك كان اتصالهم مباشراً بالمحيط الهندي والسواحل الأفريقية والآسيوية . وكان البحر الواسطة السهلة الوحيدة لاتصالهم بالعالم الخارجي لوجود الجبال العالية وصحراء الربع الخالي التي تحد من اتصالهم ببقية اجزاء الجزيرة العربية لذلك كان اهتمامهم بالبحر اكثر من اهتمامهم بالداخل فركبوا متنه واتصلوا بالبلاد وراءه وقد مر معنا عظم الدور الذي كان لهؤلاء العمانيين في حركة التجارة والنقل بين الشرق والغرب وعندما زار ابن بطوطة عمان عام ٧٢٥ هـ قال عن العمانيين بأنهم أهل تجارة ومعيشتهم مما يأتي اليهم من البحر الهندي ويقول عنها أيضاً بأن عمان جميلة بديعة الحسن ذات انهار جارية واشجار نضرة وبساتين كثيرة» وهي كما قال الرحالة العربي أكثر مناطق جنوب شرق الجزيرة العربية خضرة ووفرة مياه . وقد ساعد هذا على وجود المجتمعات البشرية المستقرة ، وزاد في تماسك هذه المجتمعات كونها او بالأحرى أغلبها تتبع مذهباً واحدا هو مذهب الأباضية الذي لا يرضى العمانيون بوصفه مذهب من مذاهب الخوارج وانعزال المنطقة يحدد اسباب وصول هذا المذهب [illegible] دون [illegible] غيرها من البلدان مما جعلهم لا يقعون تحت سيطرة الخلافة الأموية او [illegible] بشكل مباشر بالرغم من الحملات الشديدة التي وجهت ضدهم خلال هذه [illegible] الطويلة لم يفقدوا استقلالهم الا في فترات قصيرة .

[illegible] الأباضية الذي يعتبره معتنقوه مذهب التوحيد ظهر بعد معركة النهروان التي جرت بين الأمام علي كرم الله وجهه واتباعه الذين خرجوا عليه لقبولهم التحكيم ووضعوا عليهم اماما هو عبدالله بن وهب الراسبي وقد وصل من

هؤلاء الى عمان شخصان اثنان احدهما كان عبد الله بن اباض الذي سمي المذهب باسمه والتجأ الى عمان فنصره اهلها واعتنقوا مذهبه واسسوا امامة خاصة بهم تعتبر حسب قول الاباضية سليلة الخلافة الاسلامية التي بدأت بالخليفة الأول ابي وانتهت في معركتي صفين والنهروان .

كان العمانيون اول من تلقى صدمة البرتغاليين الشرسة في عهد القائد المشهور (البوكيرك) حيث اعمل في اغلب المدن الساحلية الهدم والنهب وقتل السكان والقضاء على تجارتهم ليتم احتكارها ولم يستطع العمانيون في ذلك الوقت الدفاع عن بلادهم لأن سرعة الهدم كانت أكبر من سرعة تجميع القوى ، وكان كوقع الصاعقة عليهم ، وكانت الأمامة تمر في مرحلة ضعف بعد ان مرت بمراحل قوة كثيرة وطويلة واشهر الأئمة القدامى كان الأمام المهنا بن جيفر اليحمدي في عام ٢٢٥ ـ ٢٣٧ ويقدر عدد سفن اسطوله بثلاثمائة سفينة وتجمع له في العاصمة (نزوي) اكثر من عشرين الاف مقاتل وقد مرت ايضاً بمراحل ضعف كثيرة خلال تاريخها الطويل .

وكان لتغلب امراء الاقطاع من زعماء الأباضية اثر كبير على عدم وجود القوة المتماسكة للدفاع عن البلاد امام هجمات البرتغاليين الشرسة . وقد سقطت اغلب المدن العمانية الساحلية في ايدي البرتغاليين وكان منذ عم ١٥٠٨ . وكان الأمام في ذلك الوقت بركات بن محمد بن اسماعيل .

ولقد بذل العمانيون جهوداً كبيرة لاخراج البرتغاليين تارة لوحدهم وتارة بمساعدة الأتراك دون جدوى بسبب تفوق البرتغاليين البحري وظلوا طيلة القرن السادس عشر يحتلون هذه السواحل في حين كانت المناطق الداخلية بمنأى عن نفوذهم وتتبع الأئمة في نزوى . وبعد ذلك استطاع العمانيون الاستفادة من خبرة البرتغال في صناعة السفن واستخدام المدفعية وبدأوا بالتغلب عليهم شيئاً فشيئاً في البر والبحر على يد الأئمة اليعاربة .

كانت قبيلة اليعاربة كغيرها من القبائل العربية التي استقلت كل واحدة بمنطقتها بعد ضعف الامامة وتغلب بني نبهان على عمان ، تقطن في مدينة الرستاق الواقعة في اعالي الجبل الأخضر من جهة البحر وكان هؤلاء أي اليعاربة رؤساؤها

وحكامها ، واشتهروا بسمعتهم الدينية لذلك لما تشاور العلماء في قضية بعث الامامة واعادتها الى سابق عهدها لأنها من مقتضيات المذهب الأباضي ومن اركانه الأساسية ولا يصح بقاء الناس بدون امامة ، استقر رأي الجميع على مبايعة احد افراد هذه العائلة هو ناصر بن مرشد بن مالك بن ابي العرب لذلك سميت دولتهم بدولة اليعاربة وابتدأ بحكمه عام ١٦٢٤ م حكم اليعاربة الذي دام حتى عام ١٧٤٣ م وتولى منهم على عمان اثنا عشر اماما .

كانت عودة الامامة لليعاربة منعطفاً هاماً في تاريخ عمان حيث اصبحت في زمنهم اقوى دولة في المحيط الهندي والخليج العربي لها جيشها الكبير وسلاحها البحري الممتاز وشملت الامبراطورية العمانية التي كانت اول امبراطورية تضم قسما من سواحل الهند والجزيرة العربية وشرق افريقيا وسواحل ايران في الوقت الذي كانت فيه البلاد العربية تفقد قوتها ومضاءها وتقع تحت سيطرة الأتراك ومن قبلهم المماليك وغيرهم .

وقد نشر اليعاربة الأمن والسلام في ربوع المنطقة وكانت اساطيلهم مصدر الرعب للقراصنة فكانت ا لسفن ا لعمانية بأعلامها الحمراء يتوسطها الخنجر دلالة على انتصارهم على البرتغاليين تجوب البحار وتنقل البخور والأفاوية وبصورة خاصة القرنفل من زنجبار الى الغرب ، وبالعكس فالاستقرار الذي نعمت به المنطقة ادى الى زيادة الانتاج وكثرة السكان ووفرة المحاصيل فكانت الأموال تنهال عليهم من كل حدب وصوب ومما زاد في استقرار المنطقة انقطاع سيل المغامرين الأوربيين من هولنديين وبرتغاليين وانكليز نظراً للحروب التي كانت منتشرة في القارة الأوربية ومن المؤسف أن الأتراك والايرانيين كانوا يحاولون القضاء على هذه القوة العربية عوضاً عن التعاون معها ضد الانكليز وغيرهم وكان اليعاربة اول من دفع ضريبة الدم دفاعاً عن العروبة والاسلام وناضل ضد الاحتلال الأجنبي وتعتبر دولة اليعاربة والعهود الأولى من دولة البوسعيد (كما سيمر معنا) من ازهى عصور عمان .

ولن نتطرق كثيراً لتاريخ اليعاربة الا من خلال حروبهم ضد البرتغاليين وغيرهم من القوى الأجنبية في الخليج العربي .

كان الامام ناصر بن مرشد (١٠٣٤ هـ - ١٦٢٤ م) اول من تولى الأمامة من اليعاربة وكان عمره واحداً وعشرين عاماً وقد وجد امامه مهمة شاقة لكثرة الفوضى الضاربة الأطناب في المنطقة بالاضافة الى وجود الاستعمار الأجنبي ، فالبرتغاليون كانوا يحتلون السواحل العمانية وكانت قواعدهم الرئيسية في مسقط وصحار ورأس الخيمة بحيث يسيطرون على مدخل الخليج العربي وكان الايرانيون يتعاونون مع البرتغاليين الذين يحتلون سواحل الخليج ، وبعد أن وحد الامام ناصر الجبهة الداخلية وقضى على كل معارضة له وجعل كل عمان جبالها وسهولها تخضع لسلطته واتخذ عاصمة له مدينة نزوى وهي العاصمة التاريخية للأباضية وبعد ذلك التفت للبرتغاليين فاحتل رأس الخيمة (جلفار) وكانت ضربة قاسية بحيث منع عن مراكز البرتغاليين في (هرمز) وغيرها مياه الشرب التي كانت تنقل من رأس الخيمة وانتقل بعدها الى كل من مسقط وصحار عام ١٦٤٩ فاستسلم له البرتغاليون على ان يتركهم يعيشون في المنطقة ويدفعون له الجزيرة فصالحهم على ذلك ثم احتل صور وبقية المدن وخضعت كلها اليه ما عدا مسقط وصحار اللتين رضتا بدفع الجزية وفي عهده خرج ناصر بن قطة من الأحساء وحاول احتلال عمان ولكن الامام ناصر هزمه مراراً عديدة وجعله يفقد الأمل بدخول عمان .

بعد وفاة الأمام ناصر تولى مكانه ابن عمه الامام سلطان بن سيف (١٠٥٠ - ١٦٤٠ م) . وقد واصل هذا ايضاً مهاجمته للبرتغاليين وقام في نهاية عام ١٦٤٩ بمجابهة مدينةمسقط، وفي كانون ثاني ١٦٥٠ ارغم البرتغاليون على أن يسلموا نهائياً قلعتهم (التي لا تقهر) كما كانوا يسمونها وجلوا عن البلاد . وفي سنة ١٦٤٩ وقبل هذه الضربة كان ملك ا لبرتغال قد اصدر الأوامر في اوربا بأن توجه كل الجهود للمحافظة على (مسقط) وتعزيز (خصب) والا يسمح للمشايخ والعرب بالاقامة داخل مدينة مسقط وطلب من قادته التفتيش على ميناء جديد . وكان انتصار العثمانيين على البرتغاليين سبباً في اضمحلال نفوذ هؤلاء حيث طردوا من آخر معاقلهم في الخليج العربي ولم يبق لهم سوى وكالتهم في (كنج) التي فقدت ازدهارها بسبب ضعفهم بعد ان ظلوا قرابة قرن ونصف من الزمن يسيطرون على المنطقة وهناك اسباب كثيرة ادت الى هذه النتيجة من جملتها سوء خلقهم ومعاملتهم وكون تجارتهم احتكاراً ملكياً يفتقر الى التنظيم وسرعة البديهة التي كانت لدى

شركات الهند التجارية من هولندية وبريطانية كما انهم لم يتطوروا وبقيت سفنهم على ما هي عليه منذ زمن طويل ضعيفة التسليح والتنظيم كما انهم ناصبوا دائماً العرب العداء للرواسب القديمة التي كانت تقودهم لذلك كان العداء مستفحلاً بين الطرفين وبخاصة تنازعهم على السيطرة على شرق افريقيا التي كان للعرب العمانيين مصالح قوية فيها لوجود الجاليات العربية الكبيرة فيها والتي تمركزت هناك منذ زمن بعيد ، لذلك لم يقتصر العداء على سواحل الخليج والهند بل تعداه الى السواحل الافريقية ولم يتركهم العمانيون حتى اخرجوهم منها فانسحبوا الى موزامبيق .

ولم يكتف الامام سلطان بسقوط مسقط بل اخذ في مهاجمة البرتغاليين في سواحل الهند ايضاً حيث غزا كوجرات ، وديو ، ودامان ، وبعد موته قام خلفاؤه الامام يعرب بن سلطان ١٦٦٨ م - ١٦٨١ م وأخوه الامام سيف بن سلطان ١١٠٤ هـ - ١١٢٣ هـ ١٧١١ م الملقب بعتيد الأرض بمواصلة القتال ضد البرتغاليين وكذلك الايرانيين ففي عام ١٦٩٣ او ١٦٩٥ بغارة بحرية على ميناء كنج موقعين به خسائر جسيمة وظل القتال بين الطرفين بين كر وفر طيلة القرن السابع عشر حتى الربع الأول من القرن الثامن عشر وعلى طول السواحل الهندية والايرانية فعندما اتفق الايرانيون مع البرتغاليين على الحرب ضد العرب قسم هؤلاء اسطولهم الى قسمين الأول سار على طول الساحل الأفريقي حيث دمر المستوطنة البرتغالية في ممباسا وانطلق الثاني حيث دمر الوكالة البرتغالية في (مالنجور) على الساحل الهندي ويقول لوريمر انه حوالي سنة ١٦٩٩ استولى العمانيون على ممباسا وظلوا فيها حتى استعادها البرتغاليون موقتاً منهم في سنة ١٧٢٨ كما حدثت مجزرة رهيبة للبرتغاليين على طول الساحل الافريقي .

كان الامام سيف بن سلطان ووالده اشد الأئمة اليعاربة عداء للبرتغاليين وفي زمنهم نهضت عمان ويعتبر عصر سيف العصر الذهبي للبحرية العمانية فقد اهتم بتقوية الجيش والاسطول حتى يقال ان عدد مدرعاته كان ٢٨ مدرعة مسلحة بالمدافع عدا المراكب الصغيرة والتي امنت له تفوقاً كبيراً على البرتغاليين والقراصنة في الهند وزنجبار وقد ذكر المؤرخ العماني السالمي في كتابه تحفة الاعيان اسماء هذه المراكب وهي «الملك ، والفلك ، وكعب الرأس ، والناصرى ، والقوافى وآخر لم يعرف اسمه فهذه كانت مراكب كباراً فالملك فيه ثمانون مدفعاً . ويقول السالمي في مكان آخر

عن الامام سيف بأنه «لم يزل حسن السيرة في سياسته للمملكة وحارب النصارى (البرتغال) في جميع الأقطار وعمل لهم مراكب عظيمة في البحر وعظم جيشه وقوي سلطانه حتى قيل انه اجتمع له في الجيش الذي دخل الهند ستة وتسعون الف عنان هذه الفرسان فما ظنك بغيرهم» ، ويقول أيضاً «وأخذ من النصارى ممباسا والجزيرة الخضراء وكلوه وباته وغيرهن من البلدان التي بالزنج ومن البلاد التي بالهند كذا قيل والصحيح ان ممباسا وكلوه اخذها والده الامام سلطان بن سيف وغزا العجم بأرض فارس وله فيهم وقائع مشهورة وأخبار مذكورة» .

وقد تبادل الامام سيف بن سلطان الرسائل مع البرتغاليين لا بأس بذكرها والتي كانت تنم عن روح العداء المستحكم بين الطرفين وقد ذكرهما المؤ رخ السالمي في تحفة الأعيان وبدأها بالرسالة التي ارسلها البرتغاليون لسيف وجوابه عليها وقد جاء في الرسالة البرتغالية «الحمد لله فاطر السموات والأرض انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون واعلم بأننا جنود الله مخلوقون من سخطه مسلطون على من يحل عليه غضبه لا نرق لشاكي ولا نرحم عبره باكي قد نزع الله الرحمة من قلوبنا ، فالويل كل الويل حين لا يمتثل لأمرنا قد خربنا البلاد واهلكنا العباد واظهرنا في الأرض الفساد ، فان اعجبكم شرطنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا وان انتم ابيتم وعلى بغيتكم تماديتم فالحصون منا لا تمنع والعساكر لدينا لا ترد ولا تدفع لأنكم اكلتم الحرام وضيعتم الجميع فابشروا بالذل والجزع واليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون فان اعجبكم كلامنا اننا كفرة ، وقد صار عندنا انكم فجرة قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، كثيركم عندنا قليل وعزيزكم عندنا ذليل ، قد ملكنا الأرض شرقاً وغرباً واخذنا فيها كل سفينة غصباً وقد ارسلنا اليكم هذا الكتاب فاسرعوا برد الجواب قبل ان ينكشف الغطاء ولم تبق لكم باقية وينادى عليكم بالفناء هل تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزاً ، وقد انصفناكم وارسلنا عليكم جواهر الكلام والسلام» وكان جواب الامام لهم «قل مالك الملك تؤ تي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتفرق من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير ، وقد حصل الوقوف على هذه الكتبة الشاهرة لقولكم قد نزع الله الرحمة من قلوبكم فهذا من اقبح عيوبكم واشد واشنع وبغيتم وذكرتم انكم كافرون لا لعنة الله على الكافرين من تعلق بالأصول فلا يبالي بالفروع ، ونحن المؤمنون حقاً لايصدنا

عنكم عيب ولا يدخلنا شك ولا ريب والقرآن علينا قد نزل فهو رحيم بنا لا يزال وخيولنا برية وبحرية وهممنا سامية عليه ان قتلناكم فنعم البضاعة وان قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله» وقولكم قلوبكم كالجبال وعددكم كالرمال ، الجزار لا يبالي بكثرة الغنم الكثيرة وان الله مع الصابرين فنحن بالمنع عليه امينة ان عشنا عشنا سعداء وان متنا متنا شهداء «ألا ان حزب الله هم الغالبون» لقد جئتم شيئاً اذ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا فقل لصاحبك اذا رجع رشيد مقالته حصل الوقوف على هذا الكتاب كصرير باب وطنين ذباب «سنكتب ما قالوا ونمدهم من العذاب مداً» وما عندنا بعد ذلك الا الخيل وتمطر بالويل والسبور مظهرة العار والسيوف مسقية بالحتوف والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى واطاع الملك الأعلى واختار الآخرة على الأولى والصلاة والسلام على خير الأنام محمد عليه افضل الصلاة» .

لما قضى الامام سلطان بن سيف سنة ١٦٥٨ على اخر معاقل البرتغاليين في مسقط لقي هذا صدى بعيداً في نفوس سكان شرق افريقية الذين كانوا يلاقون الأمرين من الاستعمار البرتغالي . ولما كان عرب عمان ذوي اتصال قديم معهم وبخاصة المسلمين منهم فقد ارسل اهل (ممباسا) يطلبون النجدة من سلطان كما طلبوها في السابق من الأتراك لتخليصهم من ظلم البرتغال ، وحتى قبل ان يتم العمانيون تحرير بلادهم لم يهملوا مساعدة بني دينهم ، فظهرت المراكب العمانية امام سواحل افريقية في سنتي ١٦٥٠ م و١٦٥٢ وفي عام ١٦٦١ تمكن العمانيون من النزول للبر واحتلوا ممباسا وطردوا البرتغاليين منها وظلت بيدهم بضعة سنوات . ويصف احد الآباء البرتغاليين ويدعى مانويل جودنهو العمانيين في مذكراته خلال احدى رحلاته عام ١٦٦٢ م فيقول بأن الامام سلطان بن سيف حاصرنا وطردنا من ساحل افريقية وتتبعنا في ممتلكاتنا بالهند» وفي زمن سيف بن سلطان عاد العمانيون الى افريقية وحاصروا ممباسا التي استعادها قبل ذلك البرتغاليون فسقطت عام ١٦٩٨ ويعتبر سقوطها نقطة تحول في تاريخ شرق افريقية حيث انسحب البرتغاليون الى الجنوب فيما وراء سفاله ولم يعودوا يهددون الساحل الافريقي شمال سفالة وانضم هذا الجزء الى الامبراطورية العمانية . وقد استمر حصار ممباسا ثلاثة وثلاثين شهراً وكرس سيف بن سلطان سبع سفن كبيرة وثلاثة الاف جندي لهذا الحصار الطويل

واظهر البرتغاليون من جهتهم مقاومة عنيدة ورفضوا جميع عروض التسليم التي قدمها العرب مع التعهد بالاقامة ، ولما تضاءل عدد الجنود البرتغاليين اشترك معهم في الدفاع بعض السواحلية من اهل (فازا) وكانوا أوفياء للبرتغاليين مثل اهل ماليندي ولم يستسلموا الا بعد أن فني تقريبا جميع الجنود البرتغاليين المحاصرين في القلعة المسماة قلعة (يسوع) ، ولم يسكت البرتغاليون عن هذه الهزيمة ولحسن الحظ لم تصل النجدات الكبيرة التي بعثوا بها من الهند لانقاذ ممباسا الا بعد سقوطها بيومين وحاولوا استعادتها ولكن دون جدوى وقد استطاعوا في بعض المحاولات احتلالها لمدة بسيطة عام ١٧٢٨ وكان اليعاربة في ذلك الوقت في شغل شاغل بسبب الحرب الأهلية ومدافعه الغزو الفارسي عن الوطن الأم وقد بقيت بعض الأسر العريقة القادمة من عمان في الساحل الافريقي لتتولى المراكز الرئيسية في الممتلكات الجديدة فاختاروا اسرة الحارث لجزيرة زنجبار واسرة النبهانيين لحكم باته وقد ظلت هاتين الاسرتين تلعبان دوراً رئيسياً في حياة الاقليمين حتى عهد السلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي .

لقد ثار العمانيون لكل العرب من البرتغاليين الذين حاولوا بشتى الطرق تدميرهم ولكل المسلمين ايضاً وكان من مصادفات ا لقدر انه بعد احتلال دام حوالي مائتي عام قام العرب مرة ثانية ودمروا البرتغاليين واخرجوهم من كل المناطق التي كانت بيدهم تحت سمع الانكليز والهولنديين وبصرهم .

الباب الخامس

صراع الدول الاستعمارية في المحيط الهندي والخليج العربي
الفترة ما بين ١٧٠٠ ـ ١٨٥٠
(١) المقاومة وعناصرها

الفصل الأول

صراع القوى الاستعمارية الاجنبية الأوربية واثره على الهيمنة البريطانية في المحيط الهندي والخليج

- القوى المتصارعة : الانكليز والهند - القضاء على المقاومة الهندية - السيطرة البريطانية - الانكليز والخليج العربي - العلاقات مع ايران وتطورها - العلاقات مع العثمانيين وتطورها - ازدياد قوة العمانيين - التورط الانكليزي في المنازعات الداخلية - الهولنديون وعلاقاتهم مع الانكليز - زوال النفوذ الهولندي في الخليج - ظهور الفرنسيين وحروبهم مع الهولنديين والانكليز - حروب السبع سنوات في القارة - الحروب النابليونية - الصراع البحري بين الفرنسيين والانكليز في المحيط الهندي - الهولنديون في صف الفرنسيين - فقد الهولنديين لممتلكاتهم في الهندوسيلان - السيطرة البريطانية في المحيط الهندي واحتلال جزر موريشوس - السيطرة البريطانية في الخليج والقضاء على المقاومة العربية - اسطورة مكافحة الرقيق والتهريب واثرها على الهيمنة البريطانية في الخليج

الفصل الأول

صراع القوى الاستعمارية الأجنبية الأوربية واثره على الهيمنة البريطانية في المحيط الهندي والخليج

تمتد المرحلة التاريخية التي نحن بصددها ما بين بداية القرن الثامن عشر ونهاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر . والتي كانت بدون ادنى ريب حاسمة في تاريخ السيطرة الغربية على اسيا عامة والهند وسواحل المحيط الهندي بما فيها الخليج العربي خاصة ، وبالتحديد النصف الأول من القرن التاسع عشر حيث ترسخت فيه قواعد الامبراطوريات الاستعمارية الغربية التي كان ابرزها ظهور الامبراطورية الهندية ـ البريطانية . وتأتي اهميتها من انها كانت امبراطورية من نوع جديد راسها اوربي بريطاني وقاعدتها اسيوية هندية وقد اثرت على مجرى الحياة في كامل المنطقة تأثيرا حاداً فمن اجل حمايتها احتل الانكليز بورما وسقطت امبراطوريتها القديمة واصبحت مستعمرة بريطانية ومن اجل الهند حاول الانكليز مراراً احتلال بلاد الأفغان في محاولتهم للتصدي للامتداد الروسي وقد خسروا كثيرا في تلك الحروب واخيراً اصبحت افغانستان دولة عازلة بين هند بريطانيا ومناطق الاحتلال الروسية في اواسط اسيا . ومن اجل حماية طرق الاقتراب من الهند امتد النفوذ البريطاني الى فارس ، وتمت السيطرة على الخليج والسواحل العربية والافريقية ومضائقها وجزرها . ومن الهند انطلق الانكليز الى الصين واليابان وقارة اوقيانوسيا وتم استيطان اوستراليا ونيوزلندا وعن طريق الهند اصبحت بريطانيا سيدة البحار ، وبالرغم من كل المحاولات الجادة التي بذلت في فترات متلاحقة طيلة سنين طويلة من قبل الفرنسيين والهولنديين والروس وحتى الألمان لمنافسة الانكليز وحتى اقتسام مناطق النفوذ ظلت لهم ولوحدهم السيطرة العسكرية والسياسية على المحيط الهندي وسواحله والخليج حتى الحرب العالمية الثانية ، ولم يكن من المتوقع ان تتمكن شركة تجارية اقامة مثل الامبراطورية الهندية الانكليزية بهذه السرعة وبهذه المدة القصيرة التي لم تتجاوز الخمسين عاماً ، أي منذ أن تحولت سياستها من التجارة الى احتلال الأرض . وفي المقابل كان الجيش البريطاني في نفس الوقت يخوض حرباً خاسرة

ضد المستوطنين الأمريكان وجلهم من الايرلنديين والانكليز وتفقد بريطانيا امبراطوريتها الامريكية .

لقد استطاع الانكليز خلال هذه المرحلة اخراج كل القوى المنافسة لهم في الهند وبحر العرب من اوربية ومحلية بعد صراع طويل ومرير دام سنين طويلة . وقد رأينا كيف كان الهولنديون اقوى المنافسين للانكليز في المراحل الأولى لتاريخ الاستعمار خاصة في الخليج . إلا أن قوة الهولنديين اعتراها الضعف والوهن بسبب خساراتهم المتواصلة في الحروب البحرية التي جرت بينهم وبين الانكليز في القارة الأوربية لذلك اختفت تلك المنافسة في القرن التاسع عشر خاصة من الخليج والهند وانسحبوا الى جزر الهند الشرقية قانعين بحماية الانكليز لهم .

اما الفرنسيون فكانت لديهم بعض المستوطنات على السواحل الهندية وكانت لهم وكالة مهملة في بندر عباس في الخليج ولكن ظهور الفرنسيين لم يكن مستمراً . وكما رأينا سابقا فظهورهم كقوة منافسة للانكليز كان مرتبطا دائما بالأحداث في القارة والحروب الطويلة التي نشبت بينهم وبين الانكليز والتي كان لها انعكاسات قوية في الصراع بين هاتين القوتين الكبيرتين في ذلك الوقت واللتين اشتهرتا بعدائهما الشديد والطويل . وعندما عاد الفرنسيون للظهور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانوا بحالة ضعف بعد الانتصارات التي احرزها الانكليز عليهم ان كان في القارة او في الخليج او المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط (معركة ابو قير البحرية) معركة جبل طارق ترافلجار واخيرا (معركة واترلو) على اليابسة ا والتي اوقفت المد الفرنسي لفترة طويلة والواقع ان الفرنسيين اصيبوا اصابات مميتة من قبل الانكليز قبل ان تصبح الدلوتان حليفتان . ولم يكن البرتغاليون بأحسن حال من القوى الأخرى التي تصدت للانكليز ، وعلى العكس فكانوا في مرحلة الانهيار التام . ولم يعد لهم دور يذكر بعد خسارتهم لكل مراكزهم القوية في المحيط الهندي والخليج ا . فقد تعاون عليهم الفرنسيون والهولنديون والانكليز ولم يعد لهم مكان أمين سوى مستوطنتهم على الساحل الهندي الغربي (غوا) اما مستوطنتهم في الخليج الواقعة في ميناء (كنج) فلم يكن لها اي دور يذكر . وانقلب جنودهم الذين اشتهروا بشراستهم الى جنود مرتزقة لدى الهولنديين والانكليز ، وقد اختفوا كليا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

أما القوى المحليه ، فكانت ممثله بدولتي فارس والأمبراطورية العثمانيه التي كانت تحتل العراق ثم القوى العربيه الممثله بالقبائل التي تعيش في جزر الخليج وعلى شاطئيه ولكن هاتان الدولتان كانتا في حال لا تستطيعان معه القيام بأي دور فعال وحساس بسبب المشاكل الداخليه في بلادهما والحروب المستمره بينهما . والتي كان الايرانيون سببها لتحقيق مطامعهم السياسيه في العراق وثانيا استغلال ملوكهم الحروب لفرض السيطرة والتخلص من الخصوم في الداخل . ولو اتفقتا ضد الغزاة الأوربين عوضاً عن هذا القتال المستمر والدائم لما وقعتا بعد فترة تحت نفوذ هؤ لاء .

أما القوى العربيه الممثله بالقبائل فكانت الوحيده التي استطاعت فرض وجودها فتره طويله وناضلت ضد الأستعمار بالرغم من وقوعها دائماً بين نارين نار الأتراك والايرانيين من وراء ظهرهم على البر ونار الأنكليز أمامهم في البحر . ولو توحدت قوى هذه القبائل وناضلت كوحدة واحدة لما تمكن الأنكليز من القضاء عليها الواحدة تلو الأخرى ولما تمكن الايرانيون من السيطرة على الشاطىء الشرقي موطن تلك القبائل . وخلال فتره قصيره لم يبق أمام الأنكليز في المنطقه سوى العمانيين كقوةتفرض وجودها لفتره ليست قصيره . وفي النهايه تم التغلب عليهم بعد التفرقه التي ربت في صفوفهم واصابهم الوهن وتفرقت دولتهم . واضطروا للخضوع للأنكليز الذين سيطروا على عمان سيطرة تامة واصبحت عمان القاعدة التقليديه للانكليزحتى الوقت الحاضروهكذا انفرد الأنكليزبالحكم في هذه المنطقةالواسعة التي تمتد من سواحل افريقية الشرقيه حتى جزر الهند الشرقيه منذ الثلاثينيات من القرن التاسع عشرحتى الحرب العالميه الثانيه واضافوا لهم بعد الحرب العالميه الأولى المستعمرات الألمانية في افريقيه الشرقيه وجزر المحيط الهادي الالمانيه أيضاً وسيطروا على المقاطعات العربيه التي كانت تحتلها تركيا في العراق وفلسطين وربطوا البحر الأبيض بالخليج . . وسنتعرض إلى ما تقدم بالتفصيل في الفصول القادمه . . .

وقبل أن نتطرق لتطور الأحداث التي وقعت في الخليج من الضروري أن نستعرض الأوضاع في شبه القارة الهندية والأحداث التي كانت تقع فيها بسبب انعكاس هذه الأحداث على تصرفات الأنكليز في الخليج صحيح أن الهند كانت الهدف الرئيس للأنكليز إلا أن عيونهم كانت دائماً متعلقة بالخليج بسبب موقعه الحساس بالقرب من الهند .

لقد رأينا كيف ظل الأنكليز لقرنين من الزمان يقيمون علاقاتهم مع بلاد الشرق وخاصة الهند على اساس تجاري بحث ، وتطور من تجارة التوابل والأفاويه إلى عمليات تجاريه كان يقوم بها التجار الأنكليز بين مختلف المناطق مع احتكار بعض السلع الرئيسيه كالموهير الأيراني والحرير والنحاس ثم تطور من تجارة استيراد وتبادل منافع إلى تجارة تصدير للبضائع الأنكليزيه والأدوات الصناعيه بعد الأنقلاب الصناعي والحد من استيراد البضائع الهنديه التي كانت متنوعة على مثيلاتها الأوربيات وخاصة النسيج وإقامة العراقيل أمامها حتى عن طريق وصفها بأنها لاتليق بالفتيات الأنكليزيات المحتشمات على اساس ان هذه البضائع كانت ناعمة وشفافه . وعلى كل الأحوال كانت اعمال الأنكليز التجاريه على اختلاف اصنافها . تدر عليهم ارباحاً طائله . واخذ الأسطول التجاري البريطاني يزاحم الأساطيل الأخرى ويحل محلها وينفرد بالقيام بعمليات النقل بين بريطانيا والمحيط الهندي وبين الدول المحيطه بالسواحل الهنديه بعضها بعضاً وساعد على ذلك تطور صناعة السفن البريطانيه وازدهارها وازدياد عدد العاملين فيها مما جعلها أفضل صناعة للسفن في العالم ، وادى هذا بطبيعة الحال لنمو الأسطول البريطاني ليصبح أول اسطول تجاري في العالم ، ويؤمن لبريطانيا منذ ذلك الوقت دخلاً رئسياً لا يماثله فرع من فروع الدخل القومي وكانت الهند تؤمن له الحمولات الضخمه والدائمة لنقلها إلى مختلف انحاء العالم

كانت العلاقات بين الأنكليز وأباطرة المغول الكبار ذات طبيعة متقلبه ، وقد وصلت في نهايه القرن السابع عشر إلى حاله سيئه ومهينه بالنسبه للأنكليز بعد فشل الأنكليز في محاربة القرصان الذين كانوا يتعرضون للسفن المغوليه ولسفن الحجاج ، وكان معيار الصداقه بالنسبه للمغول هو من يؤمن طريق الحج بين الهند والأراضي المقدسة . ولكن تجار وموظفي شركة الهند الشرقيه لا يعرفون اليأس والتراجع وكانوا يعرفون الأساليب والطرق التي توصلهم إلى مآربهم ولو كانت ملتوية أو مهينة . مرة بالتملق ومرة بالحيلة ومرة بالرشوة. ومرة بالتكشير عن الأنياب . وبما أن امكانياتهم في ذلك الوقت لا تسمح لهم بإظهار القوه فعندما جربوها انقلبت عليهم . وذلك في زمن (جوشا تشايلد) الذي كان رئيساً لشركة الهند وقد عرف عنه كرهه للمغول ولكل ما هو اسيوي وقد احب أن ينقلب في ذلك الوقت من تاجر إلى قائد عسكري . فاعلن الحرب على المغول وبدأ بالاستيلاء على الأراضي الهنديه .

والتعرض للسفن المغوليه في اعالي البحار . وكان رد المغول عنيفاً . فالغوا الامتيازات الممنوحه للأنكليز واحتلوا مراكزهم التجاريه الواقعه على السواحل وحاصروا مدينة(بمباي) المركز الرئيسي للشركةواسروا موظفيها وكاد الوضع يتحول إلى كارثه ضد الأنكليز . مما جعل الشركه تتراجع عن خططها وتقديم الاعتذارات . ولو واصل المغول إبعاد الأنكليز من الهند لحفظوا امبراطوريتهم وجنبوا الهند الأستعمار البريطاني الطويل . ولكن الأنكليز انقلبوا إلى ثعالب وعرفوا كيف يستعيدون ثقه الأمبراطور المغولي الذي اصدر (فرماناً) امبراطورياً على ١٦٩٠ بتسوية الأمور وإعادة الامتيازات للأنكليز الذين كانوا يخشون دائماً التقلبات . وكما ذكرنا لم تكن لديهم القوه الكافيه للوقوف بوجه الأمبراطور فقد كانوا بوضع سيء بسبب حروبهم مع الفرنسيين في القاره . والصراع الحاد بين مختلف الشركات التجاريه الأنكليزيه قبل توحيدها إلى شركه واحده وظهور طبقه من التجار الأنكليز المغامرين وازدياد القرصنه في البحر حتى أن الشركه نفسها اتهمت بالقرصنه . ولم يؤد الأتفاق الذي عقد بين القوى البحرية الثلاث في ذلك الوقت الهولندية- الفرنسيه - الأنكليزيه ، لمحاربه القرصنه وتوزيع المهام فيما بينها إلى نتيجه تذكر . وعند كل حادثه قرصنه كانت هناك متاعب لذلك ضاعت هيبه الأنكليز لدى البلاط المغولي . ولم يؤد وصول سفير ملك الأنكليز لبلاط المغول ما بين اعوام ١٦٩٩ - ١٧٠٢ إلى إنهاء الخلاف لأنه رفض ضمان حماية السفن المغوليه واخيراً بعد جهود جباره تمكن الأنكليز من القاء القبض على القرصان الأنكليزي المشهور الكابتن (كايد) وأعدم في بريطانيا مع عدد من رفاقه القراصنه . مما ساعد على اعادة بعض الأعتبار للأنكليز . وقد ظل الحال على هذا الشكل حتى نهاية القرن الثامن عشر . عندما ظهر نابليون ونزل في مصر ، مما أثار الفزع في قلوب الأنكليز في الهند وجعلهم يهتمون كثيراً بحمايتها ويتدخلون في شؤ ونها الداخليه ويراقبون الخليج ويتدخلون في شؤ ونه ، وخلال خمسين عاماً تمكنوا من بناء امبراطوريتهم واصبحوا اسياداً لمنطقه واسعة جداً بعد أن كانوا لا يجدون غضاضه في تسميه انفسهم خدام الأمبراطور المطيعين اثناء التخاطب معه .

كانت الأحداث التي وقعت في الهند خلال القرن الثامن عشر اثر كبير في تشجيع الانكليز على تغيير سياستهم . وتطبيق سياسة الأحتلال الأرضي والبدء بقضم الشطيره شيئاً فشيئاً حتى تمكنوا من ابتلاعها كلها .

كانت اولى الأحداث الملائمه للأنكليز وفاة الأمبراطور المغولي الكبير (اورانجزيب) عام ١٧٠٧ وكان اخر اباطرة المغول العظم . وكالعاده في الدول الأوتوقراطيه ادى موته إلى صراع طويل بين خلفائه وادى في النهايه إلى تفتيت امبراطورية المغول الكبيره شيئاً فشيئاً وتقسمت إلى دويلات مستقله تعترف اعترافاً اسمياً بالأمبراطور في دلهي ورافق ذلك ظهور امبراطورية هندوسية جديدة هي امبراطوريه (المهارثا) وكان ذلك لأول مرة تظهر فيها قوة هندوسيه . وقد سيطر هؤ لاء على اجزاء كبيره في وسط الهند وكانوا يطمحون للحصول على اكبر نصيب من ميراث امبراطوريه المغول المتفككه وقد استغلت شركه الهند هي الأخرى الوضع المتفكك واستطاعت أن تركز اعمالها في جنوب شرق الهند أي (البنغال) بعد النكسات التي اصابتها في اعوام ١٦٥٧ - ١٧٥٧ ، وقد حصلت من الولاه هناك على اربعه وعشرين ترخيصا للعمل في المنطقه . واتخذ عملها طابعاً اقليا خلال حكم احد مدارئها النشيطين وهو (كلايف) الذي استطاع خلال عامين ١٧٥٨ - ١٧٥٩ أن يثبت قواعد النفوذ البريطاني بعد أن أصبحت عائدات ميناء (ككلوتا) تعود لجيوب الأنكليز ، وانقلبت مدينه الصيادين الصغيره إلى مدينه كبيره يحكم فيها الأنكليز منطقة كبيرة وكانت بداية حقيقة للأمبراطورية الهندية وقد سجلت هذه الفتره عدم اهتمام الأنكلز كثيراً بشؤ ون الخليج .

في نهايه القرن الثامن عشر كانت الهند موزعة بين ثلاث قوى رئيسيه اولاها امبراطورية ، المهارثا وتسيطر على الأجزاء الغربية والوسطى من البلاد والقوة الثانية هي امارة نظام حيدرباد (الدكن) التي اسسها احد ولاة المغول السابقين وتغطي هضاب الدكن الواقعة في وسط القارة أما الثالثة فكانت مملكة ميسور الواقعة إلى الجنوب الغربي من الهند وكانت الدولتان الأخيرتان مسلمتان أما المهارثا فكانت هندوسية .

كانت الفرصة مواتيه للأنكليز للأنقضاض على الهند فقد انسحب الفرنسيون والهولنديون منها وانفردوا لوحدهم بالتفوق العسكري وابتدأوا بأمبراطورية المهارثا ، التي كانت هي الأخرى تعاني من التمزق فاستفادوا من الخلافات بين القادة والأمراء وقضوا عليها نهائياً بعد معارك طويله اشهرها معركتي آساي عام ١٨٠٣ وبونا عام ١٨١٣ ، وكان الأنكليز بقيادة اللورد ويسلي الذي اصبح معروفا

فيا بعد بدوق ولنغتون بعد هزيمته لنابليون في معركة واترلو المشهوره وبذلك خرجت من المعركه أول قوة حربيه ثم التفتوا إلى مملكه حيدر آباد (الدكن) . وكان يقيم هذا علاقات مع الفرنسيه سياسيه عكسريه فأجبروه على ابعادهم وقطع علاقاته معهم وتسريح الجيش المدرب من قبل الفرنسين واستفادوا من التناقض بين الحكام المسلمين والرعيه الهندوس وسيطروا على الدوله التي خضعت لأوامرهم . وقد اتبعوا نفس الطريقه مع مملكه ميسور التي كان يحلم حاكمها السلطان (تيبو) بخلافه امبراطوريه المغول ومد نفوذه إلى بقيه انحاء القاره . وكان السلطان المذكور نشيطاً جدا وحاول الأستعانه بالقوى الخارجيه التي تناصب الأنكليز العدا ، وارسل الرسل إلى ايران وتركيا وروسيا وقد حاول نابليون الأتصال معه . وكان له مقيم في مسقط . ولكن سلطان (تيبو) الشجاع الذي وقف طويلاً ضد الأنكليز توفي قبل أن يحقق احلامه في طرد الأنكليز عام ١٧٩١ وقد تمزقت دولته بعد وفاته واستغل ذلك الانكليز وقضوا عليهنا . وقد شجع الأنكليز قادة الحرب الهنود من مسلمين وهندوس للخروج على دولهم ثم وضعوهم تحت نفوذهم ، لذلك ظهر العدد الكبير من الأمراء والمهراجات في تلك الفترة والذين لم يكن لديهم اية سلطة حقيقة مع شعبهم سوى ابتزازه ، والعيش على ثرواته . وعندما ظهرت دولة السيخ في شمال غرب الهند قضوا عليها بسرعة وكانت اخر محاولات الهنود للتخلص من الأستعمار البريطاني هو ما يعرف بالثورة الهندية . حيث تجمعت لمقاتلة الأنكليز قوى من مختلف الأجناس والأديان . ولكن الأنكليز استطاعوا القضاء عليها ما بين عامي ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ وأصبح للشركة اليد العليا في جميع الهند ولم يشعر الهنود إلا وفوق رؤ وسهم دولة طاغية استعمارية استغلالية تحكمها شركة ذات عقلية تجارية بالتعسف والظلم حتى ضج الناس في بريطانيا لسماعهم اخبار المآسي في الهند لذلك لم تلبث الحكومة البريطانية ان نزعت الأدارة من الشركة وتولت الحكم في الهند بعد عام ١٨٥٨ ودخلت البلاد في مرحلة جديدة ولكن الاصلاحات لم تبدأ إلا بعد فترة طويلة من الزمن

كان للتفوق العسكري الأنكليزي اثره في القضاء على قوى المعارضة الهنديه التي كانت تفتقر للتنظيم والوحدة والأسلحة الحديثة التي كانت لدى الانكليز. ومما يجدر ذكره أن الجيش البريطاني كان قد تعزز كثيراً بعد حركة التطويع التي قام بها الأنكليز بين صفوف الهنود الذين اقبلوا على التطوع في الجيش البريطاني واصبحوا

العمود الفقري له يضاف إلى ذلك أن الأنكليز خلال فترة تعاملهم التجاري مع الهنود وخاصة في البنغال استطاعوا إيجاد طبقه هنديه تمتهن التجارة ومستقله وتدين لهم بالولاء ، بسبب ارتباط مصالحها بمصالح الأنكليز . وكانت مؤ لفة من عدد كبير من اغنياء الهنود عرفوا بأسم - الماروراي - وتشبه طبقه الكومبرادو التي تشكلت في ميناء شنغهاي في الصين وكان اغلب هذه الطبقه من الهندوس الذين يكرهون حكم المغول الأسلامي ، وقد وجدوا في الأنكليز حلفاء طبيعيين وحماة لمصالحهم الخاصة . وقد استفاد هؤ لاء من تحول التجارة الأنكليزيه من التوابل إلى تجارة التصدير والأستيراد وكانت اهم صادرات الهند في ذلك الوقت البفته والموسلين والمحاصيل التجاريه كحب الخردل والقنب وكان لهذه الطبقه علاقات وثيقة في جميع ارجاء البلاد ويرتبط بهم عدد كبير من السكان الذين ساعدهم الأنكليز على السيطرة على الحياة التجاريه واصبحوا القوة الفعاله في مقاطعة البنغال خاصة .

أما في الخليج فقد رأينا كيف كان اهتمام الأنكليز ونفوذهم يتأثر بالأحوال في القارةالهندية . فعندما كانت الأحوال تهدأ في الهند كان الانكليز يلتفتون للخليج ولم يكن لديهم مانع من التعرض لأية قوة تظهر في ذلك الوقت والعمل على القضاء عليها وبالمقابل عندما كانوا يشغلون في الهند كانوا يلجأون للأبتعاد عن المشاكل ومداراة الأحداث ولو ادى إلى خسارة بعض نفوذهم بأمل العودة عندما تحين الفرصة المواتيه التي كانوا يعرفون استغلالها معرفه جيده . وكان اهتمامهم منصباً على السواحل الشرقيه للخليج فهي باب النفوذ إلى ايران وكذلك على العراق لأهميها التجاريه بعكس السواحل القريبه الفقيره والتي كانت تكن لهم كل عداء ولكافة الأجانب . ومن وكالتهم الرئيسيه في ميناء بندر عباس ، (جمبرون) كان الأنكليز يقومون بكافة العمليات التجاريه الهامة والرئيسيه وقد استقروا لفترة من الزمن في مينائي ريق وبوشهر . وكان لهم في داخل البلاد وكالات اقل قيمه كالوكاله التي كانت موجودة في اصفهان وكذلك وكالة شيراز ، كما كانت لهم وكالة في ميناء البصرة لتامين العلاقات الوثيقه مع الولاة الأتراك وبالتالي التجارة مع البلد بالأضافة إلى كونها مركز البريد المتبادل بين الهند وبريطانيا عبر الطريق الصحراوي إلى حلب . وكانت لهم نصف عائدات ميناء بندر عباس وحتى التهديد النابليوني كان اهتمام الأنكليز بالخليج اهتماماً تجاريا يفوق اهتمامهم السياسي ولكن بعد فتره اخذوا بالتدخل في امور الخليج وتشديد المراقبه على كل التحركات التي تهددهم في الخليج

وتهدد نفوذهم في الهند . . . وخاضوا لهذه الغايه حروباً طويله مع القوى الأجنبيه والعربيه وحققوا التفوق على الجميع . فقد اصبحت امكانيات الهند المادية والبشريه تحت تصرفهم . وكانوا قريبين من مراكز الأحداث وساعدهم في ذلك الخلافات التي كانت تقع بشكل مستديم بين الأتراك والايرانيين وهما القوتان الفعالتان في تلك المنطقه . كما أن عدم استقرار الأوضاع في كل من ايران والعراق كان له دور كبير بالتفوق الأنكليزي . وكانت ايران خاصة تمر في اصعب مراحلها . فقد استغلت شركه الهند الشرقيه هذه الخلافات افضل استغلال للحصول على الأمتيازات والتسهيلات لتجارتها . وقد حصل ممثلوها على الأمتيازات التي يتمتع بها في ذلك الوقت افراد السلك القنصلي كما سمح للشركة بجبايه الضرائب القنصليه من السفن الأنكليزيه التي كانت تصل إلى مينائي البصره . وبندر عباس . وقد حاولت كلتا الدولتين استغلال القوه البحريه التابعه للشركه لتحقيق اطماعها التوسعيه في المنطقه وعلى حساب اراضي الدولة الأخرى أو في القتال ما بمن أو ضد القبائل العربية التي كانت تقطن شاطيء الخليج والتي كانت ترفض الخضوع لأي من الطرفين . وعندما كانت الشركه لا تتمكن من فرض الحمايه على تجارتها كانت تحاول نقل وكالتها التجاريه من مكان إلى آخر ابتعاداً عن المشاكل التي كانت تسبب للشركة الخسائر الماديه .

كانت علاقات الأنكليز بالأيرانيين على العموم جيده ولكنها كانت تتراوح بين القوه والضعف حسب ما كان يحدث داخل إيران من تقلبات وظهور اشخاص أقوياء . من سقوط الدولة الصفويه إلى غزو الأفغانيين لايران . وماتلاه من ظهور نادرشاه والخلافات والحروب التي حدثت بعد وفاته ومرحلة الفوضى التي مرت بها ايران حتى ظهور العائلة المالكة القاجارية .

وقد اتصفت علاقات الأنكليز بالصفويين الذين كانوا في اواخر حكمهم بالجودة ، ولم يحدث تماس بين الأنكليز والأفغان الذين احتلوا ايران وفرضوا انفسهم وقادتهم عليها . فقد انشغل هؤلاء بالحفاظ على ملكهم الجديد ورد غارات الروس والأتراك عن ايران وفي الفترة التي سبقت قليلاً خروج الأفغانيين من ايران دبت الفوضى في كل مكان . وقد ادى ذلك إلى هجوم القبائل البلوشيه المقيمة بالقرب من بندر عباس على المدينه ودمروا الوكالة الأنكليزيه عام ١٧٢١ م ولم تتحسن علاقتهم بنادرشاه الذي اصبح شاهاً لإيران بعد خروج الأفغان إلا بعد زمن طويل وكان

نادرشاه يحقد على الأنكليز بسبب المعونـة التي قدموها إلى الأتـراك خلال حصاره البصرة. ثم تحسنت العلاقات عندما حاول نادرشاه بناء اسطول بحري في الخليج العربي لمحاربة عرب عمان والخليج الذين كانوا يهاجمون السفـن الإيرانيةكما كان يحلم بالسيطره على الخليج واحتلال البحرين ولكن أماله هذه كانت فاشله فتحقيقها يتطلب القوه البحريه . ولم يكن لدى ايران مثل هذه القوه لذلك فكر بطلب المعونه من شركة الهند الشرقيه البريطانيه التي يمكنها مساعدته في خلق قوه بحريه . وقد اغنمت الشركه تحسن الأحوال الطارىء مع الشاه لتطلب تجديد الأمتيازات الممنوحه لها سابقاً وحصلت على ذلك على (١٧٣٣ م)

بعد نادرشاه ١٧٤٧ ـ ١٧٦٣ مرت بإيران مرحلة صعبه من التمزق كثر فيها الطامعون بالحكم والمنشقين . وبسبب هذه الفوضى فكرت الشركه بالهـرب وترك بندر عباس والتفتيش على مكان يحل محلها فلم تجـد سوى البصرةوفي عام ١٧٦٣ اصبحت هذه المدينه المركز الرئيسي للنشاط الأنكليزي في البحـر والخليج . وقـد ابقت لها بعض الفروع في بند ريق وعنها للقيام بالأتصالات مع الايرانين ويعتـبر انتقالها إلى البصره منعطفا تاريخيا كبيراً وتحولاً في سياستها التي اخذت في التوجه نحو الأتراك ومساعدتهم رغم محاولات (كريم خان) الـوصي على عرش ايران لعرقلـة انتقال الشركه إلى البصره . وكان هذا يعمل لخلق اجواء تجاريه مستقرة في المنطقه واخيراً جاء هجوم الفرنسين على مقر الشركة في بنـدر عبـاس عام ١٧٥٨م وتدميره واسر موظفي الشركه ليبعد كل تردد في الأنتقال إلى البصره

اما علاقات الانكليز بالهولنديين فكانت تتصف بالحـذر ، فالهولنـديون كما رأينا كيف كانوا لا يتركون اية فرصة مناسبة لضرب الانكليز الا واغتنموها . وقد شاهدنا محاولاتهم في اثارة الحكام المحليين عليهم واتحدوا مع فرنسا لقتالهم ، ولكن الهولنديين كانوا او بالاحرى اصبحوا بحاجة الى الانكليز لحمايتهم من القراصنة ، ولكن قدرهم دفعهـم للوقوف بصف الفرنسيين اثناء الحرب النـابليونية وكان هذا وبالا عليهم اذ اغتنم الانكليز الفرصة وطردوا الهولنـديين من كل المحيط الهنـدي والخليج واستولوا على مراكزهم في سيلان والهند وتخلصوا منهم نهائيا من المنطقة وقد خسر الهولنديون بهذه الصورة اكثر من الفرنسيين الذي لم تكن علاقاتهم بالانكليز على العموم جيدة بل كانت سيئة في اغلب الاحوال بسبب التنـافس الشـديد بـين الشعبين في القارة وطيلة سنين طويلة حتى الفترة قبل الحرب العالمية الاولى .

وفي العراق كانت علاقة المحتلين الاتراك بالانكليز جيدة خاصة بعد تركهم لبندر عباس وتركيزهم على البصرة وكان هؤلاء بحاجة لرضا الاتراك من اجل حماية وكالتهم وتسهيل نقل البريد في الطريق الصحراوي الى حلب . وفي المقابل كان الاتراك بحاجة للانكليز لافتقارهم للقوة البحرية لحماية البصرة من محاولات الايرانيين لاحتلالها .

اما على الساحل العماني فكان الانكليز يحاولون الابتعاد قدر الامكان عن الساحل العماني ومشاكله ان كان في الخليج او البحر العربي . وكانت الامامة العمانية في اوج قوتها البحرية وظلت هكذا طيلة القرن الثامن عشر . وكان الانكليز يخشون التورط معها بالرغم من نصيحة المقيمين في الخليج للعمل على كبح جماح القراصنة العمانيين الذي اصبحوا كالوباء (حسب قول هؤلاء) ويشبهون الوباء الجزائري في البحر المتوسط ، وكانت وجهة نظر قيادة الشركة ان العمانيين ما داموا لا يقربون الانكليز فلا لزوم للتحرش بهم . وقد رفضوا اعارة الايرانيين بعض السفن لنقل جيوشهم الى عمان اثناء الهجوم الذي شنه نادر شاه على عمان في حين قدم لهم الهولنديون هذه السفن ونقلتهم الى عمان ، ولكن عندما اخذ العمانيون بالتعرض للسفن الانكليزية ، حاولت الشركة تجهيز الحملات ضدهم ، ولكن حربها مع الفرنسيين التى طالت والاوضاع القلقة في الهند ، لم تسمح لهم بالقيام بهذه العمليات ، وعلى العكس اخذوا يتوددون اليهم وتسربوا شيئا فشيئا عن هذا الطريق الى عمان ، ووجدوا كل مساعدة من سلاطين البوسعيد حكام عمان الجدد الذين كانوا يعانون الاضطرابات الداخلية وازدياد مشاكلهم مع القواسم وكان هذا هاما بالنسبة للانكليز فقد استطاعوا ان يحدوا من النشاط الفرنسي في عمان اثناء الحرب النابوليونية .

وفي الفترة التي امتدت ما بين نهاية القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر كان الخليج العربي يعج بالقبائل المناهضة للانكليز ، وقد اشترك الانكليز في القتال الدائر هناك ثم اصبحوا هم في طرف وبقية الاطراف المحلية في طرف آخر فاشتركوا بالتعاون مع الاتراك والايرانيين بحملات ضد بني كعب في عربستان ، ولكن اقوى مقاومة لقيها الانكليز جاءت من القواسم الذين سيطروا على الخليج فترة من الزمن وقد ساعد الانكليز على ذلك هدوء الاحوال في الهند . وبعد زوال سلطة

القواسم والقبائل الاخرى واضطرارهم لتوقيع المعاهدات الابدية المعروفة بمعاهدات الصلح ، انفرد الانكليز بالسيطرة على الخليج والمحيط الهندي ، واستفاد الانكليز ايضا من الخلافات العميقة بين مختلف القبائل وسيطروا عليها الواحدة تلو الاخرى ولم يكن باستطاعتهم القضاء عليها لو كانت موحدة القوة والقيادة والهدف .

ولنعود الى القوى الاجنبية التي حاولت منافسة الانكليز كالهولنديين والفرنسيين في تلك الفترة التاريخية ، فحتى بداية القرن الثامن عشر كان الهولنديون لا يزالون يشكلون قوة مرهوبة الجانب ، فكانت لديهم بضع وكالات في الهند وكانت (كوتشين) اهم مراكزهم التجارية على الساحل الهندي ، وكانت لهم السيطرة على جزيرة سيلان ، كما كانت لهم وكالتان في بندر عباس والبصرة وفي ايران كانت علاقاتهم حسنة مع الصفويين وافضل من علاقة هؤلاء بالانكليز وكانوا حتى عام ١٦٩٩ يحتكرون تجارة الحرير ولكن علاقاتهم مع الافغانيين كانت سيئة عام ١٧٢٧ . وبالرغم من قوتهم وصناعاتهم الجيدة وسفنهم الضخمة كان الهولنديون يفتقرون لمرونة الانكليز . الذين كانوا يتصرفون بحرية وسرعة بسبب الصلاحيات الواسعة التي كانت ممنوحة لهم لذلك تفوقوا عليهم وعلى غيرهم . وقد تورطوا ايضا في الخلافات التي كانت تحدث في المنطقة كانضمامهم للايرانيين خلال هجوم هؤلاء على عمان . مما اثار عليهم العمانيون وحقدوا عليهم ، وفي سنة ١٧٤٠ عرضوا معونتهم ايضا على الايرانيين خلال التمرد العربي في الأسطول الايراني . واستيلاء المتمردين على سفن الأسطول واقتسامها كما شاركوا في حملة ضد مدينة شيراز ، ويبدو أن املهم كان دائماً الوصول الى ارضاء الحكام او المتنفذين الايرانيين . وكانوا يعتقدون انهم بهذا العمل يستطيعون ضرب النفوذ البريطاني ضربة قاصمة ، ولكن هؤلاء كانوا اذكى منهم واقوى ، واخذوا بمضايقتهم في كل من بندر عباس والبصرة واصبحت بذلك اعمال الهولنديين صعبة في الميناءين الهامين لذلك فكروا في اختيار مكان امين لهم فاختاروا جزيرة خارج التي كانت تابعة للأمير ناصر فاستأجروها منه واشادوا قلعة ضخمة في الجزيرة ، وكانوا يأملون أن تصبح الجزيرة مركزاً تجارياً هاماً يشبه مركز جزيرة هرمز في زمن النفوذ البرتغالي ، وقد انفصلت الوكالة الهولندية للجزيرة عام ١٧٥٣ وتركز النشاط التجاري فيها ، ولكن حماس الهولنديين بدأ يخف بسبب قلة الأرباح التي كانت تجمع من التجارة ، واخيرا تورطوا في خصام مع الميرمهنا الذي كان في اوج قوته وحاصر القلعة واضطر المدافعين عنها

بعد فترة للاستسلام ، وتركوا الجزيرة مكرهين عام ١٧٦١ ولم يعودوا بعدها للخليج مطلقاً وحصروا نفوذهم في جزر الهند الشرقية حتى ظهور نابليون وتهديده للامبراطورية البريطانية وانضمامهم للفرنسيين وقد رأينا كيف ادى ذلك لفقدانهم لممتلكاتهم في شبه القارة الهندية وسيلان .

اما الفرنسيون فمما لا شك فيه انهم كانوا أكثر الأمم الأوربية عداء للانكليز لتشابك المصالح بين الطرفين فحلم الفرنسيين في السيطرة على القارة الأوربية كان يلاقي معارضة شديدة من قبل ا لإنكليز وكان هؤلاء يعملون جاهدين دائماً ضد سيطرة الفرنسيين على القارة بتأليب شعوبها ضدهم . مما جعل الفرنسيين دائماً مشغولين بالقارة وبمشاكلها ، لذلك خف نشاطهم في اعالي البحار وما وراءها خاصة البحار الشرقية طيلة النصف الثاني من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن ا لثامن عشر . فأغلقت وكالتهم في بندر عباس في بداية القرن الثامن عشر ، واول سفينة فرنسية وصلت ميناء بندر عباس كان في عام ١٧٣٥ في عهد نادر شاه الذي سر لوصولهم وعرض عليهم اعادة فتح وكالتهم في بندر عباس ، وربما كان هو الآخر يأمل بمعونتهم واقامة نوع من التوازن مع الانكليز ، وبعد ذلك تواردت السفن الفرنسية تحمل المنسوجات والصناعة الفرنسية المتفوقة على صناعة المنسوجات الانكليزية ، ولكن فترة السلام هذه لم تدم بسبب الحروب في القارة بين الطرفين والتي عرفت بحرب السنوات السبع ١٧٥٦ - ١٧٦٣ م وهنا هاجم الفرنسيون ميناء بندر عباس ودمروا الوكالة البريطانية عام ١٧٥٧ واسروا موظفيها كما مر معنا . ولكن الانكليز كانوا متفوقين عليهم في مختلف المناطق وادى هذا الى انهيار الفرنسيين في المجال الاستعماري الشرقي ، وبعد ان فقدوا كافة قواعدهم في الهند ، وقد ظل الهولنديون على الحياد في هذه الحرب ، وعندما عاد السلام بين الطرفين اعيدت القواعد الفرنسية السابقة في الشرق الى فرانسا بشرط عدم تسليحها ، ولم تدم ايضا فترة السلام هذه طويلاً ، فقد عاد الخلاف بين الطرفين اثر قيام الفرنسيين بمساعدة الثورة الأميركية وارسلوا المتطوعين بقيادة الجنرال لافاييت الى امريكا وظل الخلاف والحروب بين الطرفين حتى معركة واترلو .

مرت الحروب التي دارت بين الانكليز والفرنسيين في مرحلتين رئيسيتين الأولى عندما قام الفرنسيون بمساعدة الثورة الأمريكية وادت الى استقلال امريكا

وفقدان الانكليز لامبراطوريتهم الواسعة الأمريكية ما بين عامي ١٧٧٨ ـ ١٧٨٣ وقد استولى الانكليز في هذه الفترة كما رأينا على المستوطنات الفرنسية في الهند بسهولة ، واما المرحلة الثانية فكانت عند قيام الثورة الفرنسية ذاتها ١٧٩٨ ، فقد اتاحت الثورة للطبقة المتوسطة (البورجوازية) الفرنسية للظهور ، وقضي نهائيا على النظام الاقطاعي وسيطرت العناصر الثورية المتطرفة على الحكم ، وبدأت تراود الفرنسيين الأحلام في توسيع نفوذهم السياسي والاقتصادي فيما وراء البحار ، واستطاع نابليون بفتوحاته ان يحقق كثيرا من الأحلام ، وظهر كمعبر عن امال الفرنسيين في بعث مجد فرانسا وخلق امبراطورية استعمارية منافسة للامبراطورية الانكليزية ان لم يكن على انقاضها ، وقد انصب تفكير نابليون على الوصول الى الهند وحرمان الانكليز من امبراطوريتهم والقضاء عليهم في القارة بفرض الحصار التام عليهم لاجبارهم على الاستسلام . وقد وصلت بعثات فرنسية الى كل من تركيا وايران ما بين اعوام ١٧٩٣ ـ ١٧٩٨ للاستطلاع ومعرضة الاوضاع في المنطقة ، وبالرغم من عدم نجاح هذه البعثات النجاح المطلوب فيبدو انها اشارت باحتلال مصر والانطلاق منها الى الهند ، كما تمت اتصالات مع سلطان مسقط ما بين عامي ١٧٦٣ ـ ١٧٩٣ عن طريق حاكم جزر موريشوس الفرنسية في جنوب المحيط الهندي ، وقد لقيت هذه الاتصالات المتكررة نجاح ملحظا ، واصبح في حاشية السلطان اطباء فرنسيون ، وحصلوا على افضل رعاية ، ونوع من الاعتراف بالتبعية ، وقد كانت تصريحات السلاطين او ممثلوهم مراراً بوجود مصالح مشتركة بين الطرفين ، كما حاول الفرنسيون الاتصال بسلطان ميسور (يتبو صاحب) الذي كان يقاوم الانكليز في الهند ويفتش عن حلفاء له ضدهم وجرت مراسلات بهذه الخصوص بين الطرفين وكان للسلطان المذكور مندوباً مقيما في مسقط .

واخيرا وصل نابليون الى مصر على رأس الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ واستطاع بسرعة التغلب على مقاومة المماليك لتفوقه في السلاح الحديث الذي لم يكن هؤلاء يعرفون عنه شيئا ثم زحف منها على سورية وغايته الطريق الى الهند ولكن هزيمته او بالأحرى توقفه امام حصون عكا التي كان يدافع عنها واليها عبد الله الجزار ادى الى تفشي الأمراض في جنوده مما اضطره للعودة الى مصر وقد ارتكب نابليون اخطاء كثيرة خلال تقدمه في اتجاه سورية وقد قتل الاف الأسرى مما ادى الى كره الناس له بالاضافة الى غروره واستهانته بالقوى المقابلة له رغم ان حملته كانت ذات نتائج

عملية قيمة ، ومنذ وصوله الى مصر ارسل نابليون الكتب الى سلطان مسقط يبلغه فيها (اكتب اليك هذا الكتاب لأبلغكم ما لاشك في انكم علمتموه وهو وصول الجيش الفرنسي الى مصر ، وكما كنّتم دائما اصدقاء لنا عليكم أن تقنعوا ، برغبتي في حماية جميع سفن دولتكم وعليكم ان تقوموا بارسالها الى السويس حيث تجد الحماية لتجارتها) .

لم يكن الانكليز بعيدين عن هذه الاتصالات وكانوا يعلمون عنها الشيء الكثير ويقدرون النتائج التي يمكن ان تسفر عنها مثل هذه الاتصالات على امبراطوريتهم في الهند ، وكان اكثر ما يخيفهم ما كان من اتصالات مع سلطان ميسور (الثائر) بنظر الأنكليز كما كانوا يخافون من الاتصالات مع سلطان مسقط وقد كتب (سميث) وكيل شركة الهند الانكليزية في بوشه يقول «ان مسقط ستصبح عما قريب وكراً للجاسوسية الفرنسية على الهند لأن خمسا او ستا من السفن العربية تقوم بنقل التجارة بين جزر موريشوس وبين مسقط وساحل ملبار» . واخيرا تدخل الانكليز لدى سلطان مسقط ونبهوه الى الأخطار التي ستصيب مسقط (على حسب زعمهم) من وصول الفرنسيين اليها والى الهند وان رخاء مسقط يعتمد فقط على رضاء الانكليز ، وكان ذلك تهديدا مبطنا اخاف السلطان ، ورفض السماح للفرنسيين باقامة وكالة لهم في مسقط ووعد باخراج الموظفين الفرنسيين من حاشيته ، وعقدت اتفاقية بين الطرفين السلطان والانكليز لابعاد النفوذ الفرنسي عن المنطقة ، وقد لعبت الانقسامات في عمان دورا رئيسيا في ضعف السلاطين امام الانكليز كما كانت مصالح مسقط متشابكة مع مصالح الانكليز في الهند وخاصة التموين بالمواد الغذائية والرز لذلك رفض السلطان استقبال المندوب الفرنسي ولم يكتف الانكليز بمقاومة الفرنسيين في بلاط مسقط بل اثاروا مخاوف فارس من النفوذ الفرنسي ، واقنعوا الشاه بارسال الفي جندي لحراسة سواحل ايران المطلة على الخليج .

كان تحطيم الأسطول الفرنسي في معركة ابو قير البحرية عام ١٨٠٠ نهاية التهديد المباشر للامبراطورية الهندية وبذلك قطعت الحملة المصرية الفرنسية عن قواعد تموينها في فرنسا وبذلك شلت حركتها تماما وبدأ التفكير بالانسحاب كما هو معلوم ، وكان هذا الطريق هو اقرب الطرق الى الهند ولا يحتاج الى القوى البحرية وخلال هذه الفترة كانت هناك محاولات فرنسية لتهديد الهند عن طريق المحيط الهندي

عندما بدأت السفن الحربية الفرنسية انطلاقـا من قواعدهـا في جزر موريشـوس التعرض للسفن التجارية البريطانية وقد حققت السفن ا الفرنسية نجاحات كثيرة وتم اسر عدد من السفن ثم تجرأ الفرنسيون وهاجموا ميناء كلكوتا الهندي الذي كان قاعدة رئيسية للانكليز في الهند وقصفوه بالقنابل وكبدوا الانكليز خسائر فادحة . وبهذا أثار الفرنسيون الرعب في كل مكان ، وكانت اجراءات ا لانكليز الدفـاعية تقـوم على مراقبة الممرات والمضائق البحرية لمعرفة تحركات الأسطول الفرنسي والتصدي له ، فقد ارسل اسطول صغير لمراقبة باب المندب واخر الى ساحل ملبار لمراقبـة مضيق ملقا ، وقد احتل الانكليز ايضا عام ١٨٠٠ م جزيرة ميون (بـريم) الواقعـة على مدخل مضيق باب المندب ، وخلال ذلك كانوا يشنـون حمـلات قوية ضد المراكز الفرنسية والهولندية ، وكما رأينا في فصل سابق فقد استطاعوا انتزاع سيلان ما بين اعـوام ١٧٩٥ - ١٧٩٧ ، واخـيراً هاجمـوا القاعـدة الفـرنسية الـرئيسية في جزر موريشوس عام ١٨١٠ واحتلوها واسروا حاميتها ، وهكذا ازيل الكابوس الفرنسي من المحيط الهندي نهائيا واصبح المحيط الهندي بحيرة بريطانية .

ولا شك ان النشاط السياسي المكثف لدى القوى المحلية والمبطن بالتهديد ، وسرعة العمل وتحريك القوى البحرية كان له اثر كبير في ازالة كل منافسة لبريطانيا من المحيط ومنعت كل مساعدة محلية يمكن أن تقدم للفرنسيين ، وكانت مساعدتهم للأتراك للوقوف بوجه نابليون وامداد حامية عكا بالمعدات والتموين من جملة هذه الاجراءات الستراتيجية الواسعة للقضاء على التهديد الفرنسي للهند وكان التفوق البريطاني واضحا في كل هذه المصادمات والحروب خاصة في لمحيط الهندي لقرب القواعد الانكليزية من مسرح العمليات واعتماد الانكليز على معين لا ينضـب من الرجال والمعدات في الهند وقد فرض الانكليز بعد ذلك على مسقط وكالـة سياسية (١٧٩٩ - م ١٨٠١ م) واختفى ممثل سلطان ميسور ودانت مسقـط وعمان للنفـوذ الانكليزي .

بعد زوال التهديد الفرنسي شعر الانكليز بالراحة وانفردوا بالمنطقة ولم يبق امامهم سوى تصفية المقاومة العربية المحلية في الخليج وكذلك المقاومة التي بدأت تظهر في الهند ولم ينته النصف الأول من القرن التاسع عشر حتى كانـت المنطقـة تخضع لهم بدون منازع ولكي يستطيع الانكليز فرض مراقبتهم واشرافهم الدائم

على الطرق البحرية واعطاء الصبغة الشرعية لتدخلهم استغلوا الاستهجان العالمي لتجارة الرقيق وبحجة مكافحة هذه التجارة اخـذت الأسـاطيل الانـكليزية تقـوم بتفتيش مختلف السفن مهما كانت جنيستها في البحـر العربـي والخليج وفي اعـالي البحار بالاضافة الى مكافحة تهريب الأسلحة ، وقد ساعدهم على ذلك عدم وجود أي منافس للأسطول البريطاني الذي اصبح سيد البحار ودام ذلك حتى الحـرب العالمية الأولى .

الفصل الثاني

الفرس والاتراك والعثمانيون وأمن الخليج

ـ الوضع العام في كل من فارس والعراق ـ تطور الأوضاع في فارس ـ الغزو الأفغاني ـ نهاية العائلة الصفوية ـ الصدام بين الأفغـانيين وكل من تركيا وروسيا ـ ظهور نادر شاه وانتصاره على الأفغانيين ـ نادر شاه يصبح شاهاً لايران ـ حروبه ـ اطماعه السياسية ـ مقتله ـ الاضطرابات بعده ـ عودةالأفغانيين للظهور كريم خان زند يصبح الوصي على عرش ايران ـ احتلال البصرة ـ موت كريم خان واثره على استقرار المنطقة ـ العائلة الكاجارية المالكة ـ آغا محمد يصبح شاهاً على ايران ـ الشاه فتح علي ـ بدء التدخل الأجنبي في فارس ـ الصراع بين النفوذين البريطاني والروسي ـ اتفاقية الحدود بين تركيا وفارس

الفصل الثاني

الأتراك والفرس وأمن الخليج

ذكرنا فيما سبق كيف ان البلدين الرئيسيين اللذين كانا يملكان المقومات الضرورية لكي يلعبا دوراً رئيسياً في تقرير سياسة وامن الخليج هما العراق وفارس وبما أن الأتراك كانوا يهيمنون على العراق لذلك يمكن القول أن الفرس والأتراك العثمانيين كان بمقدورهما تقرير مستقبل الخليج ولكن كل منهما كان يعاني من أوضاعه الداخلية السيئة الشيء الكثير . بالاضافة إلى الحروب التي لم تنقطع بينهما ، إلا عندما كان الواحد منهما يشغل بمشاكله الداخلية ، لذلك لم يكن لهما أية قيمة في تقرير سياسة وأمن الخليج ، وتركا المجال للقوى الاستعمارية تسيطر شيئاً على مقدراته عن طريق القوة البحرية المتزايدة .

كان العراق العربي محكوماً من قبل الأتراك العثمانيين ، ولذلك لمْ يلعب الشعب العربي في العراق اي دور لفترة طويلة بما فيها هذه الفترة وكان يعتبر ولاية تركيةمركزها بغداد يرأسهاوال تركي يسمى (باشا بغداد) يجمع بين يديه السلطتين الادارية والعسكرية وله صلاحيات واسعة تجعل منه مستقلاً استقلالا ذاتيا ولا يرتبط بالدولة الا في الخارجية والدفاع والمالية . ويتبع والي بغداد متسلم (محافظ) البصرة التي كان لها اهمية خاصة بالنسبة للامبراطورية العثمانية باعتبارها البوابة الرئيسية على الخليج العربي ونظراً لقربها من الحدود الفارسية التركية . ورغم أن والي بغداد هو رأس الحكم ويجلس في عاصمة الاقليم الا ان متسلم البصرة كان يعتبر نفسه مستقلاً عن والي بغداد ونداً له مما جعلهما دائماً في خلاف وكثيراً ما تسوء الأوضاع بينهما الى حد القتال وكأنهما دولتان منفصلتان عن بعضهما وادى هذا الى ضعفهما امام الفرس الذين هددوا مراراً بغداد والبصرة حتى ان البصرة سقطت لمدة اربع سنوات بيد قوات كريم خان زند صاحب شيراز ولولا موته وانسحاب اخيه مع جيشه من البصرة ليخلف اخاه في الحكم لبقيت تحت حكمهم ربما لفترة أطول ، فالعثمانيون لم يكونوا على مستوى تقدير اهمية البصرة واستعدادهم للقتال من اجلها مع ما يكلف من اموال هم عاجزون عن دفعها رغم اهتمامهم الكامل بجمع الضرائب ويعرف عن الدولة العثمانية انها افضل محصل للضرائب في ذلك الوقت وقد تعاق..

خلال هذه الفترة على تركيا عدة سلاطين ما بين ١٦٨٧ م - ١٧٣٠ م بدون أن يكون لهم دور في المنطقة . التي كانت تعتبر بلاداً نائية بعيدة عن مركز السلطنة في استانبول فقد ظل الأتراك فترة طويلة ربما اغلب فترات حكمهم يهتمون بأوربا فبعد احتلال قسم كبير من المقاطعات في اوربا كان اهتمامهم منصبا على المحافظة على هذه الممتلكات ، لذلك كثيراً ما كان تأثير الأحداث في تركيا وسياسة ارضاء الدول الكبرى ومحاولة اكتساب الحلفاء والأصدقاء له آثار سيئة على اطراف الدولة ومن جملتها العراق وخاصة محاولة ارضاء بريطانيا الى التنازل عن بعض الامتيازات التي تمس السيادة القومية كما شجع الضعف التركي في المنطقةالفرس على مهاجمة بغداد ومحاولة احتلالها مرات عديدة ولا يوجد زعيم قوي في ايران ولم يظهر زعيم الا ويبدأ عمله بمحاولة افتتاح بغداد .

لقد ساعد وصول نابليون الى مصر ومحاولاته احتلال سورية على تسرب النفوذ البريطاني في الدولة العثمانية التي التجأت اليها لايقاف نابليون ، ولو عكسنا الموضوع لوجدنا ان الانكليز كانوا هم بحاجة للأتراك ليساعدوهم في البر على ايقاف الوباء النابليوني ، وجاءت ثورة محمد علي وسيطرته على مصر ومسيرته لاحتلال سورية وتركيا لتصبح تركيا وبريطانيا حليفتين ووجدت بريطانيا في ذلك فرصتها الذهبية في مد سيطرتها الكاملة على الخليج وهيمنت على مداخله خاصة شط العرب والبصرة وفي الوقت ذاته اوقفت تقدم محمد علي رغم انتصاره في معركة (كوتاهية) واعادته لمصر وحتى عندما استعاد الأتراك الأحساء بمساعدة الجيش المصري كانوا لا يظهرون أية ممانعة للتسرب الانكليزي في العراق لأن وجوده يدر عليهم بعض الأرباح ، فقد تمركزت في البصرة عدة وكالات تجارية ، وكان اهمها بدون شك الوكالة البريطانية التي اعطيت لها الميزات الواسعة واعترف بها ومنح افرادها الحصانة الدبلوماسية ، كما كان في بغداد قنصلية بريطانية يحميها جنود انكليز .

لم تكن لدى بغداد والبصرة القوى الكافية للدفاع عن حدود العراق خاصة ضد الهجمات الفارسية بل كان كل منهما يطلب الدعم من القبائل العربية القريبة من تلك المدن وكثيراً ما كان يطلب دعم شركة الهند الشرقية البحري خاصة للدفاع عن مدينة البصرة التي كانت مهددة بشكل مستمر من الايرانيين . مقابل ذلك كانت تزداد طلبات البريطانيين في حماية طريق البريد الصحراوي بين البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي ، وكان للانكليز قنصليات في حلب وبغداد والبصرة وكانت

هذه القنصليات تتمتع بنفوذ كبير كما سمح لبريطانيا باستخدام الطريق النهري وتنظيم خط منتظم ما بين البصرة وبغداد . وهكذا كان النفوذ البريطاني يزداد كلما ازداد الاتراك تقرباً من الانكليز وكان العراق هو مكان انتشار النفوذ البريطاني لذلك عندما فتح هؤلاء العراق كانوا يعرفون كل شيء عنه ولهم مصالح كبيرة فيه .

ويختلف الوضع في فارس عنه في العراق ، ففارس كانت دولة ذات كيان منذ مدة طويلة لها نفوذها وسيطرتها وقوتها على بلادها والشعب شعبها بينما كان العراق محتلاً والأتراك كانوا بدون شك محتلين لا يختلفون عن الانكليز أو غيرهم . وكانت فارس رغم كل هذه الامتيازات تعاني من ضعف عام خاصة بعد سقوط الدولة الصفوية ، مع نهاية القرن السابع عشر بسبب الصراعات الداخلية وتفسخ نظام الحكم وانتشار الفوضى واستغلال الولاة لشعبهم بسبب ضعف السلطات المركزية ، وقد ادى الضعف العام الذي كان صفة الوضع في فارس لتكون هدفاً للغزوات الخارجية والثورات الداخلية من القوميات التي كانت تضمها فارس والتي يعتبرها الغرب بلاد موزاييك شعوب من فرس وبلوش واذربيجانيين وتركمان وعرب وأتراك وخراسانيين لذلك لم تعرف ايران الراحة لفترة طويلة من الزمن ولم تنته هذه الفوضى والحروب إلا ووقعت فارس تحت سيطرة نفوذين اجنبيين هما النفوذ البريطاني والنفوذ الروسي القيصري .

كان الغزو الأفغاني أول ما تعرضت اليه فارس وكان ذلك في عام ١٧٢٢ ، وبه انتهت العائلة المالكة الصفوية وكان بداية الفوضى ولم تكن فارس مستعدة لمثل هذا الغزو الذي اتصف بالشدة والزخم القتالي العارم لدى الأفغانيين الذين استطاعوا بسرعة احتلال ايران وفرض سيطرتهم عليهم بعد ان كانت اجزاء كثيرة من افغانستان لمدة قرنين تقع تحت النفوذ الفارسي وأما الأجزاء الأخرى فتقع تحت تأثير اباطرة المغول . وحتى نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر عندما بدأت الشيخوخة تنخر في جسم الامبراطوريتين الكبيرتين الهندية المغولية والفارسية بدأ تحرك الافغانيين لرفع السيطرة الأجنبية عن بلادهم .

ففي الهند كان موت الامبراطور اورانزيب عام ١٧٠٧ بداية النهاية لامبراطورية المغول وانتهت باحتلال الهند من قبل بريطانيا ونفي اخر اباطرة المغول الى كلكوتا . واما في فارس فكان الصفويون في مرحلة من الضعف والانهيار تحت زعامة الشاه حسين ١٦٩٤ - ١٧٢٢ ، اما في بلاد الأفغان فقد احتفظت القبائل

الأفغانية خلال فترة التجزئة الطويلة بنوع من الاستقلال الذاتي خاصة القبائل التي كانت تقطن المناطق الجبلية ، لذلك لم تتأثر هذه القبائل بالمنازعات والحروب التي كانت تنشب بين الامبراطوريتين الكبيرتين والتي كان ميدانها السهول الأفغانية وقد ساعد هذا الاستقلال على الاستقرار والأمن لهذه القبائل التي كانت تتكاثر في جبالها بشكل ملحوظ . لذلك لم تعد تلك الأراضي الجبلية ذات المساحات الضئيلة تساعدها على البقاء لضيق العيش . وهذا في الواقع ما يحدث حالياً في اليمن حيث التوالد يظهر بشكل ملحوظ ويزداد عدد السكان بدون زيادة في الأرض الصالحة للزراعة لذلك تبدأ الهجرة . وكان سكان الجبال في الأفغان يقومون بنفس الهجرة التي يقوم بها اليمنيون حالياً وكانوا يجدون امامهم اتجاهين رئيسيين اولهما نحو الشرق حيث سهول الهند الشمالية والشمالية الغربية . وتقع اغلبها حالياً في الباكستان وقد استوطن المهاجرون في تلك المناطق وتكاثروا فيها وعمروها وشكلوا ما يعرف بشعب (الباتان) القوي الشكيمة والاتجاه الثاني كان نحو الغرب اي نحو الأراضي الواقعة حول حوض نهر (هلمند) اكبر انهار افغانستان . وقد استوطنت العناصر الوافدة من الجبال ضفاف النهر وانقلبت من حالة البداوة والرعي الى حالة الزراعة . وينتمي كلا القسمين في باكستان او الأفغان الى شعب (الباشتو) او الباشتون الذي يتكلم لغة واحدة هي لغة الباشتو ويشكل اغلبية السكان في افغانستان الحالية .

وفي اواخر القرن السابع عشر ظهرت الروح القومية الأفغانية التي عبر عنها شعراء وكتاب افغانيون تحض الشعب على الثورة ضد المتسلطين من فرس ومغول . وادى ذلك الى الثورة التي قام بها الأمير (مير فايز خان) عام ١٧٠٩ ضد حاكم قندهار الهندي - المغولي وينتمي الأمير المذكور الى قبائل القلزائي التي كانت نواة شعب (الباشتو) وقد استطاع الأمير اخراج المغول ، واعلن استقلاله في المنطقة فالتفت القبائل جميعها تحت لوائه وظل حاكما على قندهار حتى عام ١٧١٥ حيث توفي وخلفه ابنه محمود بعد ذلك . كما أن زعيم قبائل (العبدلي) في هراة اعلن استقلاله ورفع نير التسلط الفارسي .

لم يكتف الأمير محمود بأمارة والده الصغيرة فقد تلقب بمحمود شاه وتوجه الى فارس على رأس جيش افغاني قوامه عشرون الف مقاتل بعد ان نقل عاصمته الى كابول عام ١٧٢٢ فاحتل اصفهان بعد حصار دام ستة اشهر واندفع الى داخل فارس بعد احتلال كرمان وسيطر عليها وقضى على العائلة المالكة الصفوية واعلن نفسه

شاهاً على فارس . ولكنه توفي عام ١٧٢٥ بعد اصابته بمس من الجنون وخلفه ابن عمه الأمير الشاب (اشرف شاه) وقد بدأ حكمه هذا في فترة حرجة بسبب التهديد الخارجي له من كل جانب ، وقد نهض لها اشرف بالرغم من قواته القليلة واستطاع التحرك بما يعرف في الفن العسكري بالتحرك على الخطوط الداخلية فتصدى للروس واوقع بهم هزيمة نكراء حول بلده دربند الشمالية (باب الأبـواب) عام ١٧٢٦ ثم اوقف تقدم العثمانيين وابعد خطرهم عن عاصمته ، ووقع صلحاً معهـم اعتـرف اشرف بتبعيته الروحية لسلطان تركيا باعتباره خليفة المسلمين على اساس اعتـراف الباب العالي بولايته على ايران ، ولكن اشرف لم يهنأ بانتصاراته الخارجية ، فقد فوجيء بالثورات الأهلية تنشب في البلاد وبدأت الفوضى واهمها الثورة التي قادها احد ابناء الشاه حسين وايده الشعب بسبب سوء الحكم الأفغاني والفوضى التي دبت في البلاد بعد دخولهم ايران . وقد انضم الى الثورة قائد تركي من قواد الحرب (يقال انه تركماني) مشهور هو نادر قولي خان الذي ينتمي الى قبائل الأفشاريين ، ويقال ان نادر بدأ حياته كقاطـع للطـرق ثم اخـذ يشـن حرب العصابـات على مؤخـرات الأفغانيين ، والتفت القبائل الفارسية والتركية حوله لدرء الخطر الأفغاني ، فاحتل مدينة (طوس) واتجه نحو مدينة (مشهد) ، وهدفه احتلال مدينة هراة ا لأفغانية التي تعتبر عقدة المواصلات الهامة ومفتاح الأفغان وذلك لقطع الطريق على اشرف ومنع وصول الامـدادات اليه ، وهنـا قرر اشرف التراجـع الى بلاده دون الدخـول في معركة ، ولكنه اصطدم بجيوش قولي خان في معركة (داجمان) في تشرين الأول عام ١٧٢٩ ودارت الدائرة على اشرف وجيشه الـذي انحطـت معنوياتـه بعـد تفـكيره بالانسحاب ، فتفرق الى شراذم صغيرة محاولاً الوصـول الى بلاده افغانسـتـان عن طريق كرمان والسهول الصحراوية ، ولم يصل منه الى البحر الا القليل ، وعبر قسم منهم الى عمان خوفاً من بطش الفرس اما أشرف فقد حاول الوصول عن طريق سهول سيستان ولكنه قتل في الطريق من قبل احد اتباعه .

كان النصر الذي حققه (قولي خان) حاسماً واعطاه الشهرة والقوة فتلقب باسم (طهماسب) تيمنا باسم الشاه (طهماسب) الذي قاد الثورة . وقد دب الخلاف بين الزعيمين اثر المعاهدة التي وقعها الشاه مع الأتراك بعد هزيمته امامهم متنـازلاً عن بعض الأقاليم الفارسية وكان قولي في ذلك الوقت مشغولاً بحربه مع الأفغانيين ، وقد اعتبر قولي (طهماسب) هذه المعاهدة مضرة بالمصالح القومية الايرانية ، فاضطر

الشاه (طهماسب) للتنازل لأبنه الصغير (عباس) وقد تعرض نادر قولي (طهماسب) للأتراك وحاول احتلال بغداد ولكنه هزم على ابوابها عام ١٧٣٣ ، وقد حاول نادر مرة ثانية دخول العراق وهزم جيشاً تركيا واستعد لحصار بغداد ولكنه اضطر للتراجع وفك الحصار بعد تمرد حاكم اقليم فارس عليه . وعندما لم يجد لنفسه النجاح المطلوب مع الأتراك اتجه نحو الشرق الى بلاد الأفغان لاحتلالها عن طريق مدينة هراة عام ١٧٣١ ولكن الأفغانيين هزموه في معركة (تعزكاله) قرب الحدود الأفغانية الفارسية ، ونجا نادر باعجوبة بعد تفكك جيشه ، ولكنه استطاع خلال فترة قصيرة اعادة تنظيم جيشه واتجه نحو بلاد الأفغان وضرب الحصار على مدينة (هراة) التي دافع اهلوها عنها ببسالة نادرة ، واخيرا قبلوا الاستسلام على أن لا تمس بلدهم ويؤمن الناس في اموالهم وارواحهم وبيوتهم وقبل نادر هذه الشروط وهو على العكس دعا الأفغانيين للتطوع في جيشه والتعاون معه ، وكان ذلك أن دخل عدد كبير منهم في جيشه .

في عام ١٧٣٦ انفردنادر كولي خان بالحكم وانتخبته القبائل الفارسية والتركية شاهاً على فارس باسم نادر شاه ١٧٣٧ ، وقد عقد اتفاقية صلح مع الأتراك لتحديد الحدود الدولية بين البلدين اعترف فيها الطرفان ، وفي عام ١٧٣٧ - ١٧٣٨ اخمد المعارضة التي كانت تبديها قبائل البختياري وارسل جنوده الى عمان بعد ثورة عمان والحروب الأهلية التي جرت فيها لمساعدة احد المتنافسين وقد لقيت الحملة الايرانية او بالأحرى التدخل الايراني في عمان معارضة شديدة واضطرت الى الانسحاب في عام ١٧٤٢ بعد ثورة الامام احمد بن سعيد وانصاره على الايرانيين والمعارضة .

في عام ١٧٣٩ توجه نادر شاه الى الهند ليقوم بأكبر عمل قام به على رأس جيش كبير يضم مختلف العناصر من فرس وافغان واتراك فاق عدده الثمانين الف مقاتل تدفعهم رغبة الوصول الى الهند والسيطرة على ثرواتها : وقد احتل مدينة قندهار ثم كابول واندفع نحو دلهي سالكا نفس الطريق الذي كان يتبعه من سبقه من غزاة الهند ، وقد حاول المغول التصدي له لكنه انتصر عليهم في معركة (كارتال) فسقطت دلهي بيده كما وقعت بيده كنوز ملوك الهند المغول بما فيها الماسة المشهورة (كوهي نور) ، وكرسي العرش الفخم المعروف بعرش الطاووس الذي لا يزال في طهران ويتوج عليه شاهات الفرس حتى الآن قبل الثورة الاسلامية ولم يمض نادر شاه سوى فترة صغيرة في الهند وعاد مع جيشه الى فارس واحتل في طريقه السند وكرمان ، وهكذا

اصبح نادر شاه يحكم امبراطورية واسعة تمتد من الهند حتى حدود العراق واتخذ له عاصمة هي مدينة مشهد ، وفي عام ١٧٤٤ دخل في عراك مع الأتراك فانتصر عليهم في معركة (أريفان) وتم توقيع معاهدة صلح بين البلدين .

وفي عام ١٧٤٧ واثناء عودته من احدى غزواته الكبيرة اغتيل نادر شاه من قبل اربعة من ضباطه ينتمون الى مجموعته العرقية في سهل خابوستان بسبب قسوته وبطشه الذي لا حدود له حتى انه فقأ عين ابنه الأكبر رضا خان لذلك اخاف اصدقاءه واعداءه ولم تلبث امبراطوريته [illegible] مة أن تفككت مباشرة اثر مقتله كما تشتت آلة الحرب الضخمة التي بناها والجيش الكبير الذي حقق له الانتصارات الكبيرة ، وكان يضم عناصر من كل الأمم والشعوب التي كانت تعيش في المنطقة وكانت تقاتل في سبيل الغنائم لا عن عقيدة قومية لذلك عندما توفي لم يستطع ان يشد هذه العناصر المتفرقة احد من اولاده كما شدها ابوه . وقد سلكت امبراطورية نادر شاه نفس الطريق الذي سارت عليه مختلف الامبراطوريات العسكرية التي سبقته والتي جاءت بعده ، فكانت تنهض بسرعة وتموت بسرعة لأنها لم تكن مبنية على اسس متينة بل قامت على الولاء الشخصي بقدر ما كان يؤمن القائد للجنود وجلهم من المرتزقة اسباب الرفاه والسماح لهم بالنهب والسلب وقهر الشعوب المغلوبة .

ومما لا شك فيه ان نادر شاه كان قائداً عسكرياً ذو كفاءة عالية امتاز بسرعة الحركة وسرعة البديهة والتصميم على الوصول الى الهدف مهما كانت التضحيات ، وكان اول حاكم ايراني في العصر الحديث يحاول بناء قوة بحرية حربية في الخليج لتحقيق اطماعه التوسعية في المنطقة وقد استعان بالعرب القاطنين على سواحل الخليج الشرقية وكانوا نواة اسطوله وقادته . فالفرس على العموم لم يعتادوا ركوب البحر بسبب بعدهم عنه ، وقد طلب نادر شاه من شركة الهند الشرقية تزويده بالسفن المطلوبة ثم فكر ببناء السفن في الخليج بالأخشاب التي يمكن تأمينها من شمال ايران خاصة الغابات المطلة على بحر قزوين والتي كان يفكر بنقلها على ظهور الدواب الى الخليج ، ولكن مخططاته في هذا المجال فشلت جميعها . واخيراً قام عرب الهولة عام ١٧٤١ بثورة ضده واستولوا على الأسطول البحري الذي كان في واقع الأمر اسطولاً عربياً . ومات حلم نادر شاه البحري ، ويعتبر نادر شاه اخر غزاة الهند ، وقد اوقع

بامبراطورية المغول الخسائر الفادحة مما اضعفها وجعلها لا تقوى على سد الغزاة القادمين من البحر كالانكليز والهولنديين والفرنسيين .

ومن اهم اعمال نادر شاه محاولاته لازالة الخلاف بين السنة والشيعة فعندما انتخبه اهل ايران شاها عليهم طلب منهم تغيير مذهبهم من الشيعة الى السنة كشرط لقبوله المنصب ، وجرت بينه وبين سلطان تركيا مراسلات بهذا الخصوص ، ويعود سبب اهتمامه بهذا الموضوع حسب قول بعض المؤرخين كونه يتبع المذهب السني بسبب انتمائه لمجموعة عرقية تعود للأصول التركية أما أن اغلب جيشه كان سني المذهب ، وعلى كل حال فتفكيره بازالة هذا الخلاف الذي يقسم المسلمين تفكير صائب ويدل على بعد نظر .

لم يستطع اولاد نادر شاه المسير على خطا والدهم فقد بنى نادر آلة عسكرية ولكنه لم يبن حكومة ادارية ثابتة الأركان لذلك ادى موته الى اضطرابات رهيبة بسبب الحروب التي دارت بين خلفائه فيما بينهم وبين قادته الطامعين في الحكم حيث استغل كل منهم في منطقته كما حدث مع قواد الاسكندر وتبعها الحروب والفوضى التي لم تصب بشرها ذريته فقط بل الأقوام الأخرى وشملت الأفغان والفرس والكاجار والبختياري وسكان السواحل العرب وغيرهم من الأقوام .

في افغانستان استقل احمد (درّاني) واسس امارته التي اصبحت نواة الدولة الأفغانية الجديدة في قندهار كما استقل في خراسان احد احفاد نادر شاه بدعم من الافغانيين واسس مملكة الأفشاريين واتخذ عاصمة له في مشهد وهو ابن رضا كولي وسمي (رخ شاه) ، وقد حاول ازاد خان الأفغاني الاستقلال هو الأخر في اذربيجان واحتلها ، ولكن محمد حسن خان زعيم الكاجار تغلب عليه وطرده من البلاد ، وقد حاول هذا بعد هذا النصر الامتداد جنوباً وتوسيع رقعة املاكه فاصطدم بكريم خان زند مما جعله يكتفي بالاستقرار في الشمال في اقليم مازندران على بحر قزوين ، واما كريم خان فهو الوحيد بين قادة الحرب هؤلاء الذي استطاع ان يلعب دوراً رئيسياً واسس دولة فارسية جديدة في الجنوب عاصمتها شيراز ولكنه لم يعمل لأخذ لقب شاه بل اكتفى بلقب الوكيل على العرش الايراني او الوصي على العرش .

كان عادل شاه ابن اخ نادر شاه اول الطامحين للحكم وخلافة عمه نادر وابتدأ حكمه بقتل ثلاثة عشر شخصاً من ابناء واحفاد نادر شاه واستثنى من القتل شاه رخ بن رضا قولي ثم وثب عليه اخ له يدعى ابراهيم فاستولى على العرش وأمر بأن تفقأ

عينا عادل شاه وتولى العرش مكانه وبعد ذلك ابعد ابراهيم ليتولى مكانه رخ شاه الذي كانت امه تنتمي الى اسرة الصفوي . ولكنه قبض عليه هو الآخر وفقئت عيناه وتولى مكانه مغتصب يدعى سليمان ولكنه اعـدم بدوره عام ١٧٥٠ واعيد العـرش للشاه الأعمى ولكنه لم يلبث ان اعتقل وسجن ثم هرب الى الشمال واعاده الى مشهد الأفغاني احمد شاه لعبدلي حيث اسس دولة الأفشاريين التي دامت فترة من الزمن حيث قضى عليها الكاجاريون فيما بعد . ومن الأمور التي تستلفت النظر عادة فقء الأعين ويبدو انها كانت مستعملة منذ زمن طويل في فارس فقد لجأ اليها الأخمينيون والساسانيون . والغاية منها جعل الشخص المطالب بالحكم ذو عاهـة لا تؤ هلـه للامامة او على الأقل عدم تمكنه من أن يصبح خطراً على الحاكم أو الأمير ، وهي في الواقع تخفيف لعقوبة الاعدام .

في الجنوب الغربي من فارس حيث النواة الفارسيه اتحد كل من / علي مروان) زعيم قبائل البختياري وكريم خان زندزعيم قبائل الزندبسبب المصاهرةبينهما وناديا بأحد احفاد الشاه حسين شاهاً على فارس وسمي باسماعيل الثالث . ولكن الخلاف لم يلبث أن دب بين الزعيمين وادى إلى مقتل (علي مروان) وانفراد كريم خان زند بالحكم بجانب الشاه الصغير ولقب نفسه الوصي أو الوكيل واتخذ كما ذكرنا سابقاً

شيراز عاصمة له . ولكن الأمور لم تهدأ لكريم خان بهذه السهوله قد تعرضـت دولته لغزوات الأفغانيين وكادوا أن يقضوا عليه بزعامة اسد خان (آزادخان) واخيراً استطاع كريم خان التغلب عليهم وأخرجهم من شيراز ثم هرب آزاد (اسد خان) إلى بغداد عام ١٧٥٨ م وقد استطاع كريم خان أن يتغلب على ثورات القبائل ويقـوم بحمله ناجحه على بني كعب في عربستان وتغلب على القا جاريين في الشمال فدانت له البلاد عدا خراسان التي كانت تحت حكم الأفشاريين واصبح عام ١٧٦٠ سيد ايران الحقيقي رغم عدم اتخاذه للقب شاه

كانت ابرز اعمال كريم خان العسكريه هو احتلاله للبصره عام ١٧٧٥ حيث هاجمها اخوه صادق خان. وقد استطاع ضرب الحصارعليها من ٧نيسـان ١٧٧٥م حتى ١٦ نيسان ١٧٧٦ وقد ساعده في احكام الحصار من البحر اسـاطيل القبائـل العربيه المقيمه على الساحل الشرقي للخيلج . وقد حاول أمام عمان مساعدة البصره وفك الحصار عنها واستطاع اسطوله أن يفتح الطريق إليها ويمدها بالمؤ ونه مما جعلها

تقاوم مدة طويله . ولكن قوات صادق خان البريه كانت قويه . وقريبه من اماكن تموينها وقواعدها الرئيسيه في شيراز وينتمي أغلبها للزند القريبين من البصره لذلك اضطر المتسلم التركي سليمان آغا للتسليم وتولى حكمها صادق خان باسم اخبه كريم خان، ونظراً للأوضاع السيئه والفوضى التي دبت اثناء وبعد الاحتلال الزندي لها هجر كثير من تجارها وكذلك اغلب الوكالات التجاريه ومنها شركه الهندالشرقيه إلى الكويت والزياره وغيرها من الموانىء العربيه وكانت فرصة للكويت لتصبح قاعدة تجاريه هامة فيما بعد . وقد حاول كريم خان احتلال الكويت وارسل اخوه صادق ولكن هذا فشل وعاد للبصره . وهناك اسباب كثيره جعلت من كريم خان يتجه نحو البصره ولم تكن هي المرة الأولى التي يتعرض فيها هذا المناءالهام لهجمات الفرس والعرب أيضاً القادمين من الشرق . واهم هذه الأسباب وهي انتقال اغلب الوكالات التجاريه الأوربيه من السواحل الأخرى للخليج وتمركزها في مدينه البصره وازدياد أهميتها التجارية كمركز للبريد ومستودع لتوزيع البضائع .

كان كريم خان يهدف من احتلال البصره ربط تجارة المنطقه به وكان من الحكام القلائل الفرس الذين كانوا يعملون لاستتباب السلم في منطقته. فالسلم بالنسبة إليه هو الذي يساعد على التجارة . وقد حاول أن يجعل من عاصمته شيراز مركزاً رئيسياً للتجاره وعن طريق البصره كان يحلم بالسيطرة على الخليج العربي وتجارته وقد استطاع كريم خان نوعاً ما من تحقيق الأستقرار والأمن لفترة طويله أي طيله حكمه فنمت الحركه التجاريه وادت إلى ازدياد شعبيته وكانت علاقاته مع عرب الخليج على العموم جيده . وفي عام ١٧٧٩ توفي كريم خان فانهارت معه دولته التي بناها على الأستقرار والأمن وقد دامت مابين اعوام ١٧٥٠ - ١٧٧٩ ولم تلبث البلاد أن عادت إلى الفوضى بعد فترة من الأستقرار والأمن وتدهورت الأوضاع فيها واصبحت اكثر البلاد تخلفاً وضعفاً بعد أن كانت ايران قوه رئيسيه في الخليج زمن كريم خان زند . وقد ابتدأت الخلافات مباشرة بين ورثته وقد اضطر صادق خان لترك البصره والعودة إلى ايران لتثبيت حقه في الملك واصطحب معه الحاميه التي كانت في البصره ليستعين بها ضد الطامعين في الحكم من اقربائه لذلك عادت البصرة إلى الأدارة التركيه . وقد تلاحق خلال ثماني عشر سنه سبعه من أفراد اسرة كريم خان على الحكم وقد أدى هذا إلى ضعف الدولةخاصةأنه لم يكن بين هؤلاء السبعة من له شخصيه ونفوذ كريم خان وعادت الفوض لفارس وساعد على ظهور قوه

جديد، استغلت هذه الفوضى والخلافات بين افراد عائلة كريم خان لتفرض نفسها وهي العائله الكاجاريه التي كان لها السيطره على المقاطعات الشماليه وقد رأينا كيف استطاع كريم خان أن يوقف امتدادها نحو الجنوب ويحد من نشاطها وفرض عليها وجود رهائه انسانه في حاشيته ،كان آغا محمد الذي اسس العائله القاجاريه المالكه رهينه لدى كريم خان فاستغل ظروف الفوضى العائليه لدى أولاد كريم خان وهرب إلى الشمال واستطاع تجمع قبائله الشديدة المراس ، وزحف بها إلى الجنوب وسيطر على كل فارس دوام حكم عائلته من ١٧٧٩ ـ ١٩٢٥ . أي إلى ما بعد الحرب العالميه الأولى

ومما تجدر ذكره خلال هذه الفترة، عودةالادارة التركبةللبصرة بعد انسحاب صادق خان وقد اقيمت فيها إداره عربيه حتى وصول الحكام الأتراك . الذين لم يحافظوا عليها وسلموها للأيرانيين وكأن الضرورة اقتضت بأن يكون الحاكم دائماً تركياً رغم ضعفه وتخاذله . وكان من الضروري أن تبقى الإدارة العربيه قائمه . ولا شك أن الضعف العربي كان في اقصى درجات انحداره في تلك الأيام ولم يظهر من يستطيع أن يقود تلك البلاد التي لم يعد فيها احد من الاتراك وربما كان باستطاعته احتلال بغداد وإعادة السيطرة العربية عليها .

ينتمي اغا محمد إلى عائلة القاجار التي تنتمي هي الأخرى للقبائل التركيه السبعة التي كانت دعامة رئيسيه في جيش اسماعيل الصفوي . وقد حاول الشاه عباس الأول الحد من سلطتهم وقام بتوزيع هذه القبائل في المناطق الشماليه وحدد لهم ثلاث أماكن للأقامة فيها وهي بلاد مرو والكرج (جورجيا) واستراباد على الشاطىء الجنوبي الشرقي لبحر قزوين . وقد لحقت هذه القبائل بنادر شاه وساعدته على القيام بحملاته المعروفة ، وعندما توفي هذا قام محمد حسين زعيم فرع استراباد واعلن استقلاله في المقاطعات الشماليه الواقعه على بحر قزوين وفتح اذربيجان وطرد منها الأفغانيين وتصدى لكريم خان ولكن محمد حسين قتل بيد احد زعماء جيشه الذي تمكن اثر مقتل فائده وادى إلى وقوع ابنه رهينه لدى كريم خان .

استطاع اغا محمد خلال عشر سنوات بسط سلطانه على فارس كلها ونقل عاصمته إلى طهران بعد أن تغلب على آخر احفاد كريم خان وهو لطف علي الذي قتل عام ١٧٩٤ . وقد استخدم اغا محمد اقصى الشده في معاملة الناس حتى أنه دبر مذبحه رهيبه لسكان كرمنشاه بسبب معاونتهم لخلفاء نادرشاه ولم يترك آغا محمد

مملكه (الأفشاريين)بل قضى عليها واستولى على كنوزها ودانت له البلاد جميعها . ولكنه استلم بلاداً خربه بعد الحروب الطويله والمتازعات والفوضى والأمـراض . وقد استطاع آغا محمد مد بلاده في الشمال واستطاع احتلال بلاد الكرج من الروس عام ١٧٩٠ وبعد ذلك ثم تتويجه في نفس العام في عاصمته طهران .

وفي عام ١٧٩٦ عاد الـروس لاحتـلال بلاد الـكرج في عهـد الأمبراطـورة كاترينا. ولـكن عندمـا تولى خليفتهـا بطـرس انسحـب ليحتلهـا آغـا محمـد عام ١٧٩٧م . الذي قتل وهو في طريقه إلى شيشه بعد احتلالها وقد اغتاله خادمان كان قد حكم عليهما بالموت ولم ينفذه .

خلف آغا محمد ابن اخيه فتح علي شاه ١٧٩٧ م - ١٨٣٤ م وقد اضطر هذا لقتال اعمامه واقربائه لتثبيت حكمه ودانت له البلاد وتبـع عمـه في اتخـاذ طهـران عاصمة للدولة بالرغم من اصابها من خراب خلال الحـروب الأهليه وصمـم على اعادة بنائها . ولكنه كان يقيم أغلب وقته خاصة في الصيف في مرج السلطانيه شمال العاصمة ضمن مخيمات كبيرة كعادة اجداده البدو وقد اتصف عهده بالظلم وتفشي الرشوه وسيطرة والفساد وسوء الأدارة وعلى العموم فالقاجار كانوا يعاملـون البـلاد كانها بلاد اجنبيه مفتوحه بعد حرب فلم يكن لهم هم سوى جمع المال ليصرف على بلاطهم السيء السمعه حسب قول بروكلمان مؤلف تاريخ الشعوب الأسلامية .

كان عهد فتح علي شاه مملوءاً بالأحداث الخارجيه واهمها الحروب التي وقعت في القاره الأوربيه ومصر خلال الثوره الفرنسبه وحروب نابليون . وقد جرى اتصال بين نابليون عند وصوله إلى مصر وفتح علي شاه وكان اول اتصال بين فارس والعالم الخارجي . وكان هدف نابليون جعل فارس قاعدة له للهجوم على الهند بالتعاون مع الفرس والروس ، ورغم عودة نابليون إلى فرانسا ظلت فارس في باله لذلك عندما بدأت الحرب بينه وبين الروس عرض على الأيرانيين التعاون للهجوم على روسيا عام ١٨٠٤ وكانت إيران في حالة حرب دائمة مع الروس ، ولكن فتـح علي رفض الأقتراح الفرنسي . وتلا ذلك وصول وفود قدمت من فرانسا إلى فارس . فقد وصل إليها ضابط افرنسي كبير يدعى (روميو) وتلاه احد المدنيين والمدعو السيد (جوبرت) الذي اقنع الشاه بأن يرسل لفرانسا مبعوثاً رسميا وهو ميرزا محمد رضـا ، ويذكر بروكلمان ان نابليون ارسل الجنرال غاردان من وارسو إلى طهران ليعرض على الشاه التعاون لضرب الروسيا من الخلف ، وقد عاد هذا إلى مكان عمله بعـد أن وقـع

اتفاقيه مع فارس ١٨٠٧ ضد روسيا ، كما أن ميرزا محمد وقع اتفاقيه فنكشتين في باريز والتي اعتبرت روسيا عدواً مشتركاً لكل من فارس وفرانسا وقد حاول فتح علي إقناع الأنكليز بأن المعاهدة ليست ضد بريطانيا بل موجهة ضد روسيا العدوة المشتركة .بعد خسارة نابليون وعقد اتفاقيه (تلست) قضي على امال فتح علي في مساعدة نابليون له لاستعادة المناطق الشماليه والتي احتلها الروس وضموها لبلادهم لذلك غير اتجاهه السياسي وتوجه نحو بريطانيا وطلب مساعدتها لتدريب جيشه عوضاً عن الضباط الفرنسيين لأيقاف الزحف الروسي الذي اخذ في ابتلاع بقية المناطق الشماليةمنذ عام ١٨٠٠م واتجه لإبتلاع آسيا الوسطى في موجةالفتح التي اجتاحت الأمم الأوربية للسيطرة على العالم وقد ابتلع الروس في ذلك الوقت أراض واسعه في اسياضمنهاسبيريا جميعها وأراض واسعة في الشرق الأقصى . وكانوا أسرع من غيرهم من الدول الاستعماريه فالبلاد التي ضموها هي امتداد لبلادهم لذلك سرعان ماتم استيطانها وظهرت فيها مدت روسية جديدة .

وقد دخل فتح محمد علي وابنه ميرزا محمد في صراع طويل مع الروس للسيطرة على المناطق الشماليه وكانت الغلبه للروس بالرغم من التضحيات الكبيره التي قدمها الايرانيون وبالرغم من محاولات الضباط الأنكليز لرفع المستوى القتالي الحديث في الجيش الفارسي ، فقد فشل هؤ لاء بسبب نوعيه الجنود في الجيش الأيراني في ذلك الوقت . ويتألف اكثرهم من فرسان البدو ولهم اساليبهم القتاليه الخاصة بهم ولا يمكن اقناعهم بفائدة التدريب الحديث ، ولهذا السبب خسر الفرس الحرب أمام الروس رغم أن هؤ لاء ايضاً لم يكونوا على مستوى عال من التدريب . ولكن الأمر كان يتعلق بفكرة الجندي الأيراني عن الحرب وفكرة الجندي الروسي . فالأول كانت بالنسبة إليه مجالاً لجمع الغنائم والنهب والسلب مثله مثل اغلب الجيوش الشرقيةفي تلك الأيام. ولم يكن هناك تجنيد اجباري فالجندي متطوع وفي كل وقت يترك الجيش ليلحق بأهله كما أن قادة الحرب الشرقيين كانوا يعتمدون دائماً على قبائلهم وفي بادىء الأمر تستطيع القبيله تحمل عبء القتال ولكن عندما يدوم هذا يُصبح الحكم عبءاً على القبيله عوضاً من ان يكون نعمه لأن رئيسها لا يعتمد على غيرها في تقديم التضحيات ومما لا شك فيه أن فكرة الجندي الروس ايضاً في تلك الأيام من الحرب تختلف عن فكرة الجندي الفرنسي أو الأنكليزي ولكنها مع ذلك تعتمد على الناحيه القوميه وليس الحرب ولاء لشخص ما أو زعيم ما .

بعد الهزائم التي لحقت بالفرس اضطر والعقد اتفاقيات مع الروس أولها كانت اتفافيه (جوليستان) عام ١٨١٣ حيث فقدوا القوقاز وفي عام ١٨٢٨ عقدت معاهدة (توركمنجاي) تنازل فيها الأيرانيون عن مقاطعتي روان ونخشيان وقدموا للروس امتيازات واسعة في شمال ايران خاصة وتشبه الأمتيازات التي كانت تمنحها الدولة العثمانيةللدول الأوربيةوقد أدى هذا إلى حسد بقيةالدول التي طالبت فارس بعقد اتفاقيات تجاريه معها اسوة بما قدمته لروسيا ومما يستلفت النظر أن الأتراك لم يحركوا ساكنا عندما كانوا يشاهدون الروس يحتلون المدن والبلدان الأسلاميه الواقعه على سواحل بحر قزوين وفي شمال ايران والقوفاز . وكان العداء المستحكم بين البلدين سبباً في كل ما حدث للدولتين من مشاكل .

كانت علاقات بريطانيا مع (فتح علي) وابنه جيدة فقد استطاعت عقد اتفاقيه معهم عام ١٨٠٩ وكانتت موجهة ضد فكرة أو امكانية التعاون بين فرانسا وايران وفي عام ١٨١٤ ثم عقد اتفاقيه جديده ضد النفوذ الروسي الذي بدأ يتزايد في المنطقة بشكل كبير بعد الأنتصار الروسي على كل من إيران وتركيا وقد تعهدت الدولتان - بريطانيا وفارس - بالتعاون لصد هجوم اي جيش على الهند أو فارس وكان يقصد بهذا الجيش هو الجيش الفرنسي . وقد تملصت بريطانيا من الأتفاقيه فيما بعد خوفاً من أن تجرها إلى حرب مع روسيا التي كانت تحارب نابليون وقد استغلت روسيا تخلي بريطانيا عن مساعدة فارس لتجبرها على توقيع معاهدة (توركمنجاي) المذكورة آنفاً والتي فتحت أبواب فارس على مصراعها أمام النفوذ الروسي كما سترى ونظراً لصفاءالأحوال بين الروس والفرس بعدأن أوقف الفرس كل مطالبهم في المقاطعات الشماليه ثم عقد اتفاق ثناني بين بريطانيا وروسيا عام ١٨٣٤ تعهد فيها الطرفان احترام استقلال ايران وسلامة أراضيها .

كان عباس ميرزا ولي العهد الرجل القوي في فارس ولم يكن لوالده فتح علي العجوز السلطة القويه في تلك الفترة ، وقد حاول ميرزا تعويض خسارته للمقاطعات الشماليه والقوقاز فتوجه نحو خراسان وافغانستان للتوسع وتثبيت حدوده . فاستطاع خلال سنتين بدءاً من عام ١٨٣١ القضاء على الغزوات التي كان يقوم بها التركمان (البداة) لخراسان لأخذ الأسرى وبيعهم كأرقاء . كما ثبت سيطرة فارس على تلك المنطقة الواسعة والتي كانت اسمياً تابعة لشاهات الفرس ثم التفت إلى افغانستان لضمها وكانت تعاني من اضطرابات داخليه بين العائلات المالكه في

المدينتين الرئيسيتين قندرهار- وهراة. لذلك أرسل قواته إلى هراة التي كان القادة الفرس يطمحون لضمها لبلادهم نظراً لموقعها الستراتيجي كمدخل لبلاد الأفغان ولكن ميرزاخان توفي قرب مدينة مشهد في ٢١ تشرين أول عام ١٨٣٣ فاضطر ابنه محمد الذي كان يحاصر هراة إلى فك الحصار عنها والعودة إلى طهران ليضمن حقوقه في العرش بعد أن أشرف جده العجوز فتح علي على الموت وكان ذلك إذ توفي فتح علي في ٢٣ تشرين اول عام ١٨٣٤ م .

بعد وفاة فتح علي تولى حفيده محمد بن ميرزا الحكم بعد قتال طويل ضد اعمامه . الأثنين ورئيس وزارء جده واستطاع القضاء عليهم بمساعدة الأنكليز الذين قدموا له المساعدة الماليه لدفع رواتب قواته وكان من المفروض أن يقع محمد تحت سيطرة الأنكليز إلا أنه لم يكد يرتقي العرش باسم محمد شاه حتى عاد إلى اطماعه القديمه في بلاد الأفغان مما ادى إلى خلاف بينه وبين الأنكليز الذين كانوا يعارضون كل تدخل دولي في بلاد الأفغان لذلك عندما حاصر محمد شاه في تشرين ثاني ١٨٣٧ مدينه هراة دعمّ الأنكليز حماتها بضباط انكليز وقد استبسلت الحاميه الأفغانيه ، وطلب الأنكليز من محمد شاه العودة عن حصارها وارسلوا حملة عسكريه للخليج احتلت جزيرة خارج في حزيران ١٨٣٨ وهددوه بالنزول في فارس نفسها فاضطر محمد شاه للأذعان للتهديد البريطاني والعودة إلى عاصمته . وهكذا دب الخلاف بين الشاه محمد والأنكليز . وكان الروس قد شجعوا محمد على الهجوم على هراة بعد ازدياد نفوذهم وارسلوا له الضباط لقيادة العمليات العسكرية مما أزعج الأنكليز الذين كانوا ينظرون إلى هذا التعاون كخطر يهدد مصالحهم في الهند لذلك عملوا على افشال محاولات محمد لاحتلال هراة والذي يؤدي بالتالي إلى فشل الضباط الروس في مساعدته . وكان الشاه يشجع النفوذ الروسي في بلاده وسمح لهم بفتح بعثة سياسية في عاصمة وازداد التصاقاً بالسفير الروسي وكان يعامله على قدم المساواة مع السفير البريطاني الذي كان يتمتع في زمن أبيه وجده بمكانه مميزه بين السفراء ، وربما كان محمد شاه يعمل لإقامة التوازن بين الدولتين الطامعتين في بلاده لذلك أصبحت الدولتان على قدم المساواة في النفوذ وقد استغل الروس شكوك محمد شاه في اخلاص بريطانيا له واتهامها بمساعدة أولاد عمه المنافين له للاطاحة بحكمه والسيطرة على فارس . وزعم انسحاب الشاه من أفغانستان ظل التوتر بينه وبين حكومة الهند حتى نهاية عام ١٨٣٨ حيث أخذ يظهر بعض اللين تجاه بريطانيا . بعد

فشله في اثارة الدولة الأوربية ضد تدخل بريطانيا في بلاده كما قدم الشكوى لبريطانيا ضد معاملة حكومة الهند له . والواقع أن بريطانيا في ذلك الوقت كانت في أوج قوتها ، مما جعل الشاه يوافق على عقد معاهدة تجارية ضمن تسوية شامله للمشاكل المعلقة بين البلدين في عام ١٨٤١ ، كانت بريطانيا تطمح لعقدها مع فارس منذ فترة طويلة . وعلى أثر ذلك انسحب الأنكليز من جزيرة خارج .

كانت هذه الاتفاقية سبباً في فشل المخططات الروسية مما أدى الى اعتراف الروس بوضع بريطانيا المتفوق لذلك تم الاتفاق بين الدولتين على تجديد تعهدهم بعدم الاعتداء على فارس والذي كان قد وقع في عام ١٨٣٨ ، كما نصح الروس الشاه محمد الذي كان يكن كل عداء للبريطانيين بالصلح معهم ، بالرغم من قناعة كل من الروس والشاه من أن بريطانيا هي مصدر القلاقل التي تعرض لها الشاه في اعوام ١٨٣٨ - ١٨٣٩ المعروفة باسم ثورة آغا خان ، وهي التي دفعت قبائل البختياري للتمرد عام ١٨٤٠ - ١٨٤١ . ولكن عندما هزم الانكليز في أفغانستان عام ١٨٤١ عاود الروس للتدخل في شؤون ايران وافغانستان ولكن المشاكل الداخلية التي كانت تعترضهم في القوقاز وخيوه اوقف نشاطهم . ورغم ذلك كان محمد شاه يؤثر الروس على الانكليز ومنحهم بعض الامتيازات نظراً لحاجته الماسة للمال والذي كان الروس يغدقون بها عليه ، وقد اتصف حكمه بسوء الادارة . وكان يبيع المناصب بالمال كعادةمن سبقه وكان هذا العمل يؤدي إلى ضغط هؤلاء الحكام على الشعب لتحصيل اموالهم التي دفعوها ثمناً لمناصبهم ، وقد تعاونت الدولتان بريطانيا وروسيا على الحيلولة دون حدوث اضطرابات وحرب وراثة عندما توفي محمد شاه وخلفه ابنه ناصر الدين شاه .

ومن أهم أحداث تلك الفترة الخلاف التركي - الايراني المستديم على الحدود الذي كان يؤدي دائماً للتوتر بين البلدين وقد حدث ان احتل الاتراك المحمرة في عام ١٨٣٧ وقابلهم الفرس باحتلال مدينة السليمانية عام ١٨٤٢ ، وقد تدخل الانكليز والروس خوفاً من تطور النزاع وحدثت وساطة بين الطرفين ما بين اعوام ١٨٤٣ - ١٨٤٧ وعقدت لجنة مشتركة تضم الدول الأربع تركيا - فارس - روسيا ! بريطانيا اجتماعاً في ارضروم بعد استكمال المفاوضات في أوروبا وتم توقيع ما يعرف باتفاقية ارضروم الثانية عام ١٨٤٧ التي حلت المشاكل ما بين البلدين من ناحية المبدأ ولكنها

تركت المسائل التفصيلية للمشاورات الثنائية في المستقبل وقد بذلت ما بين اعـوام ١٨٤٨ ـ ١٨٥٢ محاولات اخرى لتحديد الحدود على الطبيعة ولكن اللجنة التي شكلت لم تحقق نجاحاً ملحوظاً ، وهكذا ظلت تفاصيل هذه الاتفاقية عامة حتى الحرب العالمية الأولى وما بعدها .

الفصل الثالث

العمانيون ودورهم في المحيط الهندي والخليج

ـ الحرب الأهلية في عمان ونهاية اليعاربة ـ الحرب بين الهناوية والغافرية ـ الغزو الايراني ـ المقاومة العمانية ـ ظهور دولة البوسعيد .. الامام احمد بن سعيد وخلفاؤه الامام سعيد بن سلطان ـ الصراع مع السعوديين وحلفائهم ـ الحروب الداخلية ـ الامتداد نحو افريقيا ـ الاستيلاء على البحرين ـ الحروب مع الفرس ـ الممتلكات الافريقية ـ العلاقات بين العمانيين والدول الأجنبية ـ وفاة الامام سعيد وتجزئة الامبراطورية العمانية ـ تويني ونهاية امبراطورية البوسعيد .

الفصل الثالث

العمانيون ودورهم في الخليج الهندي والخليج

عندما توفي الامام سلطان بن سيف عام ١٧١١م - ١١٢٣هـ كانت دولة اليعاربة في أوج قوتها واتساعها فقد تم اخراج البرتغاليين من السواحل العربية وامتدت امبراطوريتهم من سواحل افريقية الى الهند وقد استطاع الامام سلطان استخلاص البحرين من الفرس واحتل بعض السواحل الفارسية ، وجزر قشم ولارك وهرمز ودامت ولايته سبع سنين من الاستقرار، بل نشبت الحروب الأهلية بينهم بسبب الوراثةعلى الامامةوظهر في هذا الحرب الخلاف المعروف بين الهناوية والغافرية . وادت هذه التفرقة لاثارة اطماع الفرس لاحتلال بعض الاراضي العمانية وأثار ذلك العمانيين الذين هبوا بقيادة أحمد بن سعيد الذي أخرج الفرس واسس عائلة مالكه جديدة في عمان وهي عائلة البوسعيد التي لاتزال تحكم عمان .

لقد جاءت الحروب الاهلية نتيجة اصرار اليعاربة على التوارث في الحكم وهذا شيء مكروه في المذهب الأياضي الذي لايقر الوراثة ويسمى الملوك الذين يرثون آباءهم بالجبابرة ويبدأ الخلاف عندما توفي سلطان بن سيف ولم يكن له سوى ولد صغير لا يمكنه تولي الحكم فاستقر الرأي على تولي احد اقاربه الولاية وهو الذي يعرف باسم الامام (مهنا بن سلطان) وقد أثار هذا العمل طموح بقية أفراد العائلة اليعربية وأدى إلى حروب طويلة بينهم يمكن أن نطلق عليها حروب الوراثة العمانية ، فقد خرج على الامام مهنا بعد فترة قصيرة ، قريبة يعرب بن بلعرب بن سلطان واحتل مسقط وثار معه اهل مدينة الرستاق الواقعة في الجبال والتي تعتبر العاصمة الدينية للمذهب الأباضي . وقد استطاعوا قتل الامام مهنا بعد استسلامه وعينوا مكانه يعرب بن بلعرب كإمام لعمان وكان الاتفاق على أن تكون إمامه يعرب هذا باسم الامام الصغير سيف بن سلطان ولكن يعرب اخذ الامامة لنفسه مما اغضب عليه انصاره وولوا عليهم يعرب بن ناصر خال سيف بن سلطان الصغير وظل في الحكم حوالي ثلاثة اشهر ، ولكن خلافاً حدث بينه وبين بني غافر فثار هؤلاء عليه ودعوا الامام المخلوع يعرب بن بلعرب وثاروا بقيادة زعيمهم محمد بن ناصر الغافري فأخذ هذا يجمع الجموع ويحتل القلاع والحصون ولم يبق بيد

يعرب بن ناصر وابن اخته الصغير سيف بن سلطان سوى منطقة بركا ومسقط ، وقد انحاز اليهم خلف بن مبارك الهنائي وسمي اصحابه بالهناوية واما اصحاب محمد بن ناصر الغافري فسموا بالغافرية ، وهكذا ظهرت للسطح القسمة التي لا تزال تغرق اهل عمان بين هناوية وغافرية .

اخذ كل فريق يطلب النجدة والتعاون من القبائل حيث لعبت العصبية القبلية المعروفة باليمانية (القحطانية) والنزارية (العدنانية) الدور الحاسم وقد اتخذ الغافريون العلم الأبيض رمزاً لهم والذي هو رمز العدنانية (النزارية) واما الهناويون فاتخذوا العلم الأحمر رمزاً لهم وهو رمز القحطانية (اليمانية) . وقد دارت رحى حرب اهلية طاحنة اهلكت البلاد واوقفت نشاطها الخارجي واصابها من الحروب الأهلية اكثر مما اصابها من البرتغال . وكادت أن تقضي على وجود عمان واستقلالها الذي حافظت عليه طيلة قرون طويلة . وامتدت الحرب إلى عرب الخليج من بني ياس والجواسم (القواسم) وكان كلا الخصمين لا يتورع عن قتل النساء والأطفال وتدمير البيوت وردم الآبار والينابيع وقطع الزرع . وقد استطاع الغافريون بقيادة محمد بن ناصر التغلب على خصومهم الهناويون واستخدم الطرفان الاسلحة الحديثة التي بدأت تصل عمان من اوروبا ، وبويع عام ١٧٣٤م - ١١٠٧هـ محمد بن ناصر كامام لعمان بعد احتلاله لمدينة نزوى العاصمة القديمة لعمان ، وبذلك انتهت اسرة اليعاربة ومات في المعارك كل من يعرب بن بلعرب ويعرب بن ناصر ولم يبق سوى سيف بن سلطان وكان بأمرة محمد بن ناصر الغافري الامام الجديد ، ولم تستتب الامور للامام الجديد فقد عادوا للظهور بقيادة خلف بن مبارك في مسقط وصحار ولكن الامام محمد بن ناصر عاجلهم بالهجوم ودارت معارك بين الطرفين غير حاسمة وكانت نتيجتها القضاء على زعيمي الطرفين حيث قتل الاثنان ودفنا معا في حصن واحد ، واتفق الطرفان على ايقاف هذه الحرب المدمرة واعلنوا قبولهم بامامة سيف بن سلطان الذي رضي به الجميع للخلاص من الحرب الأهلية التي أعادت عمان للوراء مئات السنين ، وبعد أن استتب الأمر للامام الجديد سيف بن سلطان اخذ بمطالبة الناس بزيادة مخصصاته المالية وبدأ في ظلم الناس فثار هؤلاء عليه وخلعوه وولوا مكانه بلعرب بن حمير . وعادت الحروب لسابقتها بعد رفض الامام السابق سيف التنازل عن امامته ولكن عندما وجد نفسه خاسراً حاول الاستعانة في

بادىء الأمر (بالبلوش) من سكان مكران وجوادر على ساحل الباكستان حالياً ولكنه لم يستفد شيئاً لذلك فكر بالاستعانة بالايرانيين الذين كانـوا ينتظـرون مثـل هذه الفرصة لابتلاع عمان . وكان شاه ايران في تلك الفترة نادرشاه المعروف بطموحه وكان في أوج قوته لذلك استعان بالهولنديين لنقل جنوده من ايران الى عمان الذين نزلوا ساحل عمان عام ١١٤٩هـ ١٧٣٧م وهناك وافاهم سيف بن سلطـان وسـار الاثنان نحو نزوى لاحتلالها . وقد تصدى لهم في الطريق الامام بلعرب بن حمير في موقع جبل (السميني) ولكنه هزم واصبح الطريق الى نزوى حراً ، وقـد سقطـت نزوى بيد سيف وحلفائه الايرانيين بعد قتال شديد مع المدافعين عنها . وقد قتل في هذه المعركة خلق كثير قدرها بعضهم بعشرة الاف من النسـاء والأطفـال واستبـاع الايرانيون البلدة . وقد اظهر الايرانيون شراسة قوية ووحشية كبيرة ضد اهل البلاد واعتبروهم خوارج يحل قتلهم حتى ان حليفهم سيف بن سلطان انقلب عليهـم وهرب الى وادي بني غافر فاضطر الايرانيون للانسحاب من نزوى باتجاه البحر ، وقد التقى سيف بالامام يعرب هنـاك واتفقـا على محاربـة الايرانيين على ان تكون الامامة لسيف . وبعد توحيد القوى استطاع الطرفان اخراج الايرانيين من حصون عمان الواحد تلو الاخر ثم من كل عمان واضطروهم للعودة الى بلادهم يجرون اذيال الفشل .

لم يدم الاستقرار طويلاً بسبب حماقة سيف بن سلطان وعاد الى ظلمه وجشعه وحبه للمال فثار عليه سلطان بن مرشد اليعربي ١١٥٠هـ ١١٣٨م وادعى الامامه وانحاز اليه كثير من القبائل واستطاع هزيمة سيف بن سلطان واحتل مسقط . فما كان من سيف الا ان اعاد اتصاله بالفرس طالباً النجدة وقد نزل بناء على طلبه جيش فارسي استطاع احتلال مسقط ولكن لم يسلمها لسيف وحـاولوا احتلال الساحل وموانئه كصحار وغيرها وكان الفرس من أهالي شيراز وقد قاوم واليها احمد بن سعيد واستطاع بمعونة سلطان بن مرشد اليعربي الـذي توفي في المعـركة أن يوقف تقـدم الفرس ويمنعهم من احتلال صحار . أما سيف فبعد رفض الفرس تسليمه البلاد المفتوحة التجأ الى حصن (الحزم) وهناك توفي . وقد اضطر الفـرس للتراجـع عن صحار بعد أن قذفوها بأكثر من الف وخمسمائة قذيفة مدفع في يوم واحـد . وقـد تبعهم احمد بن سعيد الى مسقط واحتلها منهم كما احتل مدينة بركا وأخـرج منهـا الايرانيين ، وعندما شعر هؤلاء بحرج موقفهم حاولوا تسليم البلاد التي فتحوها الى

ماجد بن سيف بن سلطان بعد استشارة نادرشاه ، الذي وافق على ذلك ولكن الرسول القادم من ايران وقع أسيراً لدى أحمدبن سعيد حسب قول بعض الروايات واوهمهم انه ماجد واستلم منهم حصون مسقط ثم أقام لهم وليمة كبيرة انقلبت الى مجزرة حيث قضي فيها على جميع الضباط الايرانيين وأما بقية الجند فأركبوا البحر بسفن قديمة غرقت بهم ولم يعد أحد منهم لبلاده وبذلك قضي على آمال نادرشاه باحتلال عمان وخلا الجو إلى السيد أحمد بن سعيد الذي أصبح القوة الرئيسية في البلاد .

بعد ذلك انتخب أحمد بن سعيد إماماً لعمان في مدينة الرستاق عام ١١٥٤هـ ١٧٤١م وهكذا ظهرت عائلة مالكة جديدة حلت محل العائلة اليعربية التي كانت تحكم عمان وظهرت عائلة البوسعيد كقوة جديدة وبدأت عهداً جديداً في عمان وتنتمي العائلة الى قبيلة (البوسعيد) الصغيرة وهي هناوية الاتجاه ولم تكن ذات شأن وكانت تسكن في مدينة (أدم) من عمان الداخلية وقد رفعها الى موقع الصدارة أحمد بن سعيد الذي أصبح إماماً لعمان ، ويعتبر مؤسس العائلة التي لعبت دوراً كبيراً في حياة عمان وسواحل افريقية السياسية . وقد تخلى افرادها عن لقب الامام وانتحلوا صفة (السيد) وتلقبوا بالسلاطين وتحمل صفة السيد في طياتها معنى دينياً ورمزاً من رموز النبالة والشرف يتصل بسلالة الرسول الأعظم .

لا يعرف الشيء الكثير عن الامام أحمد بن سعيد البوسعيدي ، الا ما ذكره المؤرخ السالمي في كتابه (تحفة الأعيان بسيرة اهل عمان) «بأنه كان صبياً صغيراً في أدم فلقيه الشيخ خلف بن سنان وكان من أهل الكشف (يتنبأ بالغيب) فوضع يده على رأسه وقال له اتق الله في الرعية» ولاشك أن مثل هذا الحديث وفي ذلك الوقت يعطي للامام صفة الحق بالحكم لانها ارادة الهية ومكتوب في سجله وكثيراً ما يلجأ الحكام من نوعية الامام احمد لمثل هذه القصص وفي قصر (ضوله باغجه) في استنبول والذي كان مقراً لخلفاء بني عثمان توجد لوحة مكتوب عليها (الملوك ملهمون) كل ذلك لاعطاء صفة القدسية على الملوك والخلفاء والأمراء ، والذي اجمع عليه الرواة ان احمد بن سعيد كان من كبار التجار استعمله سيف بن سلطان والياً على صحار عندما احتاج الى رجل راجح العقل ليكون مستشاراً له ، ويقال ان احمد نصح الامام سيف بعدم الالتجاء للفرس ولم يوافق على استدعائهم وانضم الى سلطان بن مرشد اليعربي في محاربته له ، وكان الامام احمد عالي الهمة احسن تدبير مملكته وسن

القوانين المالية والتجارية ، ولا عجب فهو تاجر بطبعه وامتهن التجارة لذلك طبع دولته بطابع تجاري امتد الى خلفائه من بعده ، حتى اصبحت امبراطورية واسعة نشبه الامبراطوريات التجارية التي ظهرت في البحر الأبيض المتوسط ونواتها مدينة واحدة كامبراطورية البنادقه والجنويين وغيرهم . وقد خلق جيشاً كبيراً تولى قيادته بنفسه ، ولكنه استعان بالبلوش لتدعيم جيشه ، وقد تبع غيره من الحكام والامراء العرب الذين كانوا يحاولون تثبيت حكمهم على اكتاف الاجانب والمرتزقة عوضاً عن الالتجاء للشعب لحمايتهم وأغلب الأوقات إن لم نقل كلها كان هؤلاء المرتزقة والمتطوعون يصبحون وبالاً على البلاد وبالتالي وبالاً على سيدهم الذي أطعمهم وتاريخنا العربي مملوء بمثل هذه الأخطاء التاريخية ويمكن القول بأنها أيضاً اخطاء استراتيجية . وقد دعم الامام احمد الاسطول أيضاً واصبح من أكبر الأساطيل البحرية في المنطقة .

لم يستتب الأمر للامام احمد في عمان إلا بعد أن خاض حروباً داخلية مريرة مع بقايا اسرة اليعاربة فتغلب على بلعرب بن حمير اليعربي وعلى الامام السابق مرشد . ثم حاول الاستيلاء على رأس الخيمة التي كان يتسلمها أنصار سيف بن سلطان وهاجمهم عام ١٧٤٧م من البر والبحر بجيش كبير يبلغ تعداده اثني عشر الف مقاتل فاستطاع الانتصار عليهم وفتح خورفكان على ساحل الباطنة ، ثم حاول الاستيلاء على منطقة الظاهرة التي كان فيها بنو غافر ولكن جيشه من المرتزقة لم يصمد لبني غافر وانهزم اخيراً ، واتفق الطرفان على ان تبقى بلاد الظاهره والبريمي وساحل . ان الشمالي والغربي بيد بني غافر . وقد ثار على الامام اثنان من اولاده ولكنه اخذ المسألة بالروية والتؤدة وانتهت بينه وبين بنيه بسلام . وكان طمع الامام يزداد يوماً بعد يوم ، فضم إليه جميع عمان حتى خصب كما خضعت له موانىء الصبد عدا أس الخيمة وهكذا جاء عام ١٧٦٣ وأحمد بن سعيد يسيطر سيطرة تامة على جميع أنحاء عمان ، وقد وجه اهتمامه مباشرة لاعادة الاسطول العماني لسابق عده في زمن اليعاربة فبنى كثيراً من السفن التجارية وأضاف إلى اسطوله الحربي عدداً من السفن وأصبح مؤلفاً من عشر سفن كبيرة تجر وراءها عدداً كبيراً من القوارب لحمل الجنود ، ويقال ان عدد من كان يحمل في القوارب يزيد على اثني عشر الف جندي اي من مشاة البحرية كما يطلق عليهم في هذا الوقت ، وقد اشترك هذا الاسطول بالدفاع عن البصرة عندما هاجمها الفرس بقيادة صادق خان اخ كريم

خان زند عام ١١٧٠هـ-١٧٥٦م كما حارب القراصنة وقضى عليهم ، وقد اجرت عليه الحكومة التركية لقاء معاونته لها راتباً شهرياً ظل أحفاده يتقاضونه مدة طويلة .

حاول الامام احمد استعادة ممتلكات عمان في افريقيا الشرقية بعد أن أعلن

بعضهم انفصاله عن عمان مغتنماً فرصة الحروب الأهلية واحتلال الفرس لقسم من عمان ، وكان أقوى هؤلاء الانفصاليين حاكم ممباسا من المزروعيين الذين يعتبرون فرعاً من فروع بني إياس التي لا تزال تسكن ساحل الخليج وقد حكمت اسرة المزروعيين في شرق افريقية ما يقرب مائة عام وامتد سلطانها في أوائل القرن السابع عشر على طول ساحل كينيا من لامو شمالاً إلى بنجباني جنوباً وعندما سقطت اسرة اليعاربة اعلن محمد بن عثمان المزروعي استقلاله في ممباسا ولما دعاه الامام احمد بن سعيد للطاعة رفض هذا واجابه بانه ليس افضل منه «وكما استقليت انت في حكم عمان استقل انا في حكم ممباسا» وادرك الامام ما كان يرميه المزروعي واتجه لتفكيره لاخضاعه واستعادة السيطرة العمانية على شرق افريقيا ، وبذلك نهج الامام نهج اسلافه اليعاربة ، وتبعه خلفاؤه ايضاً في الحفاظ على الممتلكات الافريقية تحت السيطرة العمانية وقد استطاع احمد في بادىء الأمر وبالحيلة القضاء على المزروعي وقتله واستولى عملاؤه على الحكم ولكن المزروعيين ثاروا على جنود السلطان وتغلبوا عليهم واستعادوا ممباسا واعلنوا استقلالهم ، وقد ظهر خلال هذه الثورة الشعراء الذين اشادوا بالبطولات التي أظهرها المزروعيون وغيرهم وكانت باللغة السواحلية ، وظهرت ثورات متفرقة في مختلف أنحاء المنطقة من مقديشو حتى موزامبيق ولم يبق بيد الامام أحمد سوى جزيرة زنجبار التي ظلت على ولايتها الدائمة لعمان ، ولم يستطع أحمد رغم الجهود الجبارة التي بذلها لاستعادة ممتكاته الافريقية من المزرعيين وغيرهم من العائلات الاخرى التي كانت تستند على رصيد كبير من الشعبية لدى السكان السواحليين ، لذلك اضطر احمد للتخلي عن حلمه بسبب مشاغله الداخلية في عمان . ولكنه لم يقطع علاقاته التجارية التي كانت تهمه أكثر من فتح البلاد بل على العكس سعى إلى تنميتها ، فهو تاجر ابن تاجر لذلك حرص على عدم الخوض بالحرب مرة ثانية ، وحاول ايجاد علاقات تجارية عادية ، وكان يرسل سنوياً سفينة الى الشرق الأفريقي لتأتي بالعبيد والذهب والعاج والريش . . الخ من الصادرات الافريقية ، ولم يتح لخلفاء احمد بن سعيد المباشرين الفرصة

لاستعادة السيطرة على شرق افريقيا حتى عهد سعيد بن سلطان الذي كان أول من أسس امبراطورية عربية تضم ساحلي القارتين الكبيرتين آسيا وافريقيا .

حكم الامام احمد مدة طويلة (حوالي ٣٤ سنة) ، وقد اكتنف الغموض السنوات الأخيرة من حكمه وحسب قول المؤرخ العماني السالمي (أن وفاته كان في عام ١١٩٦هـ وكانت أيامه ايام راحة واستراحة بعد الفتن والمحن ، وخلف عدداً كبيراً من الأولاد . وقد تولى الحكم من بعده ابنه سعيد كإمام لعمان ، ولم يكن هذا محمود السيرةلذلك فكروا بخلعه وتعيين اخيه (قيس) . وقد خرج عليه ابنه (حمد) واستولى على مسقطوعجز ابوه عن اخضاعه ، وكان الامام حمد عالي الهمة رفع شأن مدينة مسقط حتى أصبحت من أكبر المراكز التجارية على البحر ، وظل يحكم لمدة عشر سنوات ودخل في علاقات تجارية وسياسية مع الهولنديين والفرنسيين والانكليز ، ومد ملكه الى ساحل فارس وحاول اعادة السيطة العمانية على افريقيا الشرقية ، ولكنه لم يلتفت إلى داخل عمان حيث كان والده الامام يحكم مدينة الرستاق ، وقد توفي حمد عام ١٢٠٦هـ ـ ١٧٩٢ قبل والده ، وقد حاول هذا استعادة مدينة مسقط ، ولكن أخاه سلطان بن احمد خرج عليه واحتل بركا واستبد بالأمر وبذلك انقسمت البلاد إلى قسمين الأول يخضع للامام سعيد بن احمد وعاصمته مدينة الرستاق والقسم الثاني يخضع لسلطان بن احمد ويضم السواحل العمانية بما فيها مدينة مسقط ، ولم يكن سلطان ليكترث بلقب الامامة حتى عند موت اخيه سعيد عام ١٢١٨هـ ١٨٠٣م ولم يطلب البيعه من الناس كما جرت العادة ، واكتفى بلقب سيد ، وهذا ما جعل مقعد الامامة يخلو ابتداء من عام ١٢١٨هـ حتى اختيار عزان بن قيس عام ١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٦م للامامة ، كما كان بداية لانقسام عمان الى قسمين احدهما داخلي وعاصمته نزوه والثاني ساحلي وعاصمته مسقط والامامة في الداخل والسلطنة على السواحل لذلك كثيراً ما كان المؤرخون يبتعدون عن تسمية البوسعيد بسلاطين عمان ويكتفون بتسميتهم سلاطين مسقط .

وجه السيد سلطان منذ بداية حكمه عام ١٨٠٤ اهتمامه للبحر كعادة أسلافه لزيادة نفوذ عمان وتأمين دخل كبير له ، فاحتل منطقتي جوادر وكرمان الواقعتين على ساحل الباكستان حالياً كما احتل قسماً من جزيرتي قشم وهرمز كما سيطر على ميناء بندر عباس كما حاول احتلال البحرين ولكنه لم ينجح في ذلك . كما حاول استعادة

نفوذ عمان على الساحل الافريقي كما حارب الوهابيين الذين كانوا قد احتلوا واحة البريمي منذ عام (١٢١٤هـ ١٨٠٠م) وكان أول صدام بين الطرفين عندما بدأ القائد الوهابي سالم بن بلال التقدم نحو عمان لجباية الزكاة ، والتقى الطرفان في مدينة (شتاص) وكانت الغلبة للوهابيين ثم تقدموا نحو مسقط ووصلوا الى مدينة مطرح القريبه ولكنهم اضطروا للعودة الى بلادهم بعد وصولهم انباء وفاة الامام الوهابي عبد العزيز عام ١٨٠٣ . وقد تحالف سلطان مع الأتراك لقتال الوهابيين وتعاون مع والي الشام وشريف مكه لهذه الغاية واتفقت الأطراف الثلاثة للقاء في الاحساء ثم التوجه بعدها للقضاء على عاصمة الوهابيين في الدرعية وقد جهز سلطان جشي واسطولا لهذه الغاية وسار به نحو الاحساء ولكنه حلفاءه لم يصلوا الى المكان المطلوب فاضطر للعودة الى بلاده وسار الجيش براً في طريق العودة اما سلطان فقد عاد بالاسطول بحراً . وعرج خلال الطريق على مدينة (لنجه) التي كانت تحت نفوذه ، وقد استطاع عدد من القواسم الذين كانوا يكنون له العداء من التسرب إلى السفينة التي كان فيها سلطان والراسية امام الميناء وقضوا على بحارتها وقضوا ايضاً على سلطان نفسه واحرقوا السفينة . وكان هذا عالي الهمة شجاعاً اعاد للعمانيين مجدهم البحري وزاد عدداسطوله حتى وصل الى خمسمئة سفينة تتراوح حمولتها ما بين ٢٥٠ طن الى الف طن هذا في مسقط أما في مدينة صور فكان هناك حوالي مائة سفينة تشكل اسطول المدينة . كما كان لدى سلطان ثلاث سفن حربية تحمل المدافع ، وقد استطاع الدخول مع كل من فرانسا وانكلترا بعلاقات سياسية .

خلف سلطان ابنه سعيد الذي دام حكمه ما بين ١٨٠٦ - ١٨٥٦م ونظراً لمدته الطويلة في الحكم وشهرته السياسية يمكن القول بأن حياته السياسية مرت خلال مرحلتين هامتين وهما :

المرحلة الاولى من عام ١٨٠٦ إلى عام ١٨٤٠ وهي الفترة التي كان اهتمامه فيها منصباً على عمان وكانت اقامته فيها .

المرحلة الثانية : فتبدأ من عام ١٨٤٠ - ١٨٥٦م وهو عام وفاته . حيث اتجه السيد سعيد للاهتمام بممتلكاته في افريقيا . وتأسيس دولته الجديدة التي تضم السواحل العربية والافريقية على المحيط الهندي . لذلك استقر نهائياً في زنجبار وترك ولده الكبير تويني وكيلاً عنه في مسقط بعد فشل جميع مشاريعه العسكرية في عمان وغيرها .كان التهديد السعودي - الوهابي أشد ما كانت تخشاه عمان. وكان يخف

أو يتوى حسب انشغال السعوديين في أماكن اخرى خاصة حروبهم الداخلية وحروبهم مع كل من تركيا ومصر. وقد احتل السعوديون واحة البريمي منذ عام ١٨٠٠ ، وتقع هذه الواحة على مفرق الطرق بين عمان وبقية اجزاء الجزيرة العربية فهي بوابة عمان الداخلية ، وقد تقدم السعوديين على طول السواحل العمانية الواقعة على الخليج ثم عبروا الجبال نحو مسقط ، وانضمت اليهم قبائل عديدة اهمها : القواسم في رأس الخيمة وقبائل بنو علي ، كما ضموا إليهم بدر بن سيف بن الامام احمد ، ولكن السيد سعيد استطاع توجيه ضربة شديدة للنفوذ السعودي بقتله (بدر بن يوسف) ، ثم حاول التوجه نحو القواسم والقضاء على عاصمتهم في رأس الخيمة بالتعاون مع عمه قيس . وقد التقى بالقواسم في بلدة خورفكان عام ١٨٠٨ وكانوا بقيادة سلطان بن صقر القاسمي . وكاد السيد سعيد أن يتغلب على القواسم لولا النجدات السعودية التي وصلت في الوقت المناسب فانقلبت المعركة لصالح القواسم . وكان لهذه الهزيمة أثر كبير في تفكير السيد سعيد وخلفائه من بعده في الاعتماد على دولة اجنبية لحمايتهم من السعوديين وحلفائهم القواسم . ففكر بالاعتماد على الفرنسيين في بادىء الأمر ولكن هؤلاء كانوا في طريقهم للزوال من الخليج ولم يبق أمامه سوى الانكليز . ومع ذلك لم يكن هؤلاء في بادىء الأمر على استعداد لمعاونته ضد السعوديين لارتيابهم بنواياه وتعاونه مع الفرنسيين ، ولكن الفرصة سنحت للسيد سعيد للحصول على ثقة الانكليز ، وذلك عندما نقض القواسم اتفاقيتهم مع بريطانيا التي وقعت في شباط ١٨٠٦ وقد اشترك السيد سعيد في الحملات الثلاث التي وجهتها بريطانيا للقضاء على القواسم والتي انتهت بعقد اتفاقية الصلح البحرية ، كما سيمر معنا في الفصول القادمة .

وقد حاول السعوديون مراراً غزو عمان والقضاء على سلطة البوسعيد ونشر الدعوة الوهابية فيها ، ولم ينقذ هؤلاء سوى الحملة المصرية التي قضت على نفوذ السعوديين ودمرت عاصمتهم الدرعية . كما تعاون السيد سعيد مع بريطانيا للقضاء على نفوذ قبائل البوعلي ونجح فيها بعد بذل الجهود الكبيرة .

بعد زوال الخطر السعودي المؤقت عن عمان ، أخذ السيد سعيد في توجيه اهتمامه الى أفريقيا وتركيز وتوسيع نفوذه فيها نظراً لمواردها الاقتصادية الواسعة ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً فقد عاد الخطر السعودي للظهور بعد انسحاب الحملة المصرية في عام ١٨٢٤ لأول مرة من نجد وعودة السعوديين لقوتهم . وقد تولى امارة

البريمي القائد الوهابي المعروف سعد بن مطلق المطيري الذي هاجم قبائل الحجر انتقاماً منها لقتل والده خلال انسحابه الأول منها وقد نكل سعد بهذه القبائل ، ولكن عودة المصريين ما بين ١٨٣٢ - ١٨٤١ للهجوم على نجد ادى الى ابعاد خطر السعوديين عن عمان خلال هذه الفترة ، وعندما هدأت الأحوال بين المصريين والسعوديين وعودة الامام فيصل بن تركي من القاهرة وتوليه الحكم في نجد ، اعيد سعد بن مطلق المطيري للامارة في البريمي . وكان السيد سعيد في زنجبار ويتولى الحكم في عمان عوضاً عنه كنائب له ابنه الكبير (ثويني) الذي عمل على مهادنة السعودية سنة ١٨٤٥م على اساس دفع الجزية لهم والتي كانت تقدر بخمسة آلاف ريال ، وفي عام ١٨٥٣ زار الأمير عبد الله الفيصل البريمي يرافقه امير الاحساء والتقى الاثنان (بثويني) وتم الاتفاق على عقد معاهدة هجومية دفاعية بين الطرفين على اساس ان تدفع مسقط الاتاوة السنوية المقدرة بـ (١٢) الف ريال اضافة للمبالغ المتأخرة عن الأعوام السابقة ، مقابل ذلك تعهد الأمير السعودي بحماية عمان ومساعدة ثويني في أيام الشدة ، وهكذا انتهى الخصام الطويل مع السعوديين ، كما اعترف السيد سعيد عن طريق ابنه للشيخ سلطان بن صقر القاسمي بإمارته واستقلاله في رأس الخيمة ، وتم تخطيط الحدود بين البلدين .

هناك امور كثيرة جعلت من السيد سعيد يقرر نهائياً الابتعاد عن عمان والاستقرار في زنجبار، وكان أهمها فشله في اعادة توحيد عمان ضد الخطر السعودي الذي لم يكن بالامكان ايقافه الا بالمال ووجوده في بلاد ضيقة قليلة الامكانيات محصورة بين الجبال العالية والبحر . فعلى العموم كانت عمان الداخلية مغلقة في وجه سلاطين البوسعيد ، لذلك لم يكن امامه الا البحر الفسيح وما وراءه من البلاد الافريقية والاسيوية الغنية بالمواد التجارية . وقد ساعدهم على الاتصال السريع بها الرياح الموسمية التي لا تزال حتى الان عوناً للسفن للوصول بسرعة من السواحل الافريقية الى الشمال والعكس بالعكس حسب اتجاه الرياح بين الشتاء والصيف . وكان حلم سعيد انشاء امبراطورية واسعة تضم شواطىء افريقية واسيوية يسيطر على تجارتها وتعود اليه مداخيل موانئها . وكانت الظروف مواتية له بسبب الخلاف الانكليزي - الفرنسي ليصبح اكبر قوة بحرية في المحيط ، ولم يكن لدى الانكليز مانعاً من امتداده في افريقية لأنه يخفف الضغط عنها في الخليج العربي ويجد له متسعاً في الأرض الأفريقية يحقق احلامه عوضاً من مهاجمة البحرين او بلاد اخرى

خليجية . وقد توالت الاحداث في افريقية عندما قام المزروعيون عام ١٨٠٧ بثورة ضد العمانيين وكان هؤلاء المزروعيون يشكلون او يعبرون عن الاماني الوطنية للشعب السواحلي ضد العمانيين ، ورغم قضائه على الثورة إلا أنه لم يترك زنجبار وبقي فيها قريباً من الاحداث ولم يأت عام ١٨٢٢ حتى كانت أملاك العمانيين تمتد من مقديشو حتى سفاله في موزمبيق . ولقد لقب السيد سعيد بسلطان السواحل ودانت له القبائل الافريقية .

لقد جذب موقع عمان الستراتيجي منذ القدم اطماع الدول الغازية للشرق منذ القرن الخامس عشر لوقوعها على مدخل الخليج وسيطرتها على سواحل البحر العربي ، وقد رأينا كيف احتل البرتغاليون عمان وبقوا فيها حوالي قرن ونصف من الزمن وقد سقطت اخر معاقلهم عام ١٦٥٠ على يد اليعاربة ولم يحتل بعدهم احد من القوى الاوروبية اي شبر من عمان ، وظلت عمان معتبرة دولة مستقلة من الناحية الدولية حتى بوجود الانكليز ، وكان سلاطين عمان مبعث اهتمام القوى الاوروبية الى المحيط الهندي وحاولوا التقرب منهم وبالتالي طلب المساعدة منهم . فقد حاول الفرنسيون الوصول اليهم وارسلوا لهم الاطباء والمستشارين خاصة في زمن حمد بن سعيد الذي كان في مسقط بعد انفصاله عن ابيه . وقد كتب للقنصل الفرنسي في بغداد يقول له «لنا بالفرنسيين صلات اوثق من صلاتنا بأية دولة اخرى . وبضائعنا وبضائعهم كلها واحدة ، وموانئنا مشتركة والربح والخسارة مشتركة بيننا ولا حاجة الى الدخول في تفصيلات اخرى لان قلوبنا قد تعاهدت على ذلك»

وبعد وفاة حمد بن سعيد عام ١٧٩٢ احتفظ خلفه عمه سلطان بن احمد ايضاً بعلاقات طيبة مع الفرنسيين وبالرغم من انفتاح العمانيين على الفرنسيين الا ان هؤلاء لم يكونوا في ذلك الوقت يقدرون بشكل جاد موقع عمان الاستراتيجي وبالتالي موقع الخليج من الناحيتين التجارية والحربية ، وكانوا ينظرون الى البحر الاحمر كطريق طبيعي للوصول الى الهند . لذلك لم تلتفت الحكومة الفرنسية لاقتراحات قنصلها في بغداد لانشاء وكالتين احداهما في مسقط والاخرى في البصرة ، وقد استعد السلطان العماني لاقامة وكالة فرنسية أ بينما رفض في ذلك الوقت عرضاً بريطانياً لافتتاح وكالة في مسقط .

كان الانكليز ينظرون بعين الخوف والغضب لهذه العلاقات القائمة بين العمانيين والفرنسيين خاصة مع الجزر الفرنسية في جنوب المحيط الهندي وكانوا يشعرون باقتراب الخطر من هذه الشراكة على ممتلكاتهم في الهند وقد رأينا كيف نبه وكيل شركة الهند الشرقية في بوشهر حكومته من خطر ان تصبح مسقط مركزاً للجاسوسية الفرنسية . كما رأينا كيف حاول نابليون الاتصال بالعمانيين لتحقيق حلمه في الوصول إلى الهند وأرسل رسله للسلطان سلطان بن احمد يطلب منه التعاون معه، وقد رأينا كيف كان رد الانكليز سريعاً وعنيفاً لقطع الطريق على امكانية تقديم أية مساعدة عمانية لنابليون فقد هددوه بقطع المؤن عنه وفرضوا عليه توقيع معاهدة صداقة وتجارة في ١٣ تشرين أول ١٧٩٧ . وكانت في أغلب نصوصها موجهة ضد التدخل الفرنسي ، ثم اقنعوا السلطان بأن يسمح لهم باعادة بناء مركز شركة الهند في بندر عباس الذي دمره الفرنسيون وكانت المدينة تحت الحكم العماني كما سمح لهم باقامة مركز عسكري وحامية بريطانية وتعهد البريطانيون بحمايته من الفرنسيين التي لم يكن بحاجة اليها . والواقع ان سلاطين عمان لم تكن لديهم المعرفة والاطلاع باحوال اوروبا السياسية واستغلالها لمصالحهم لذلك كانوا يخشون اية قوة امامهم ولا يحاولون التعاون مع غيرها فعندما وصل الفرنسيون تعاونوا معهم وكانوا يظنونهم اقوياء وعندما كشر الانكليز عن انيابهم عادوا للتعاون مع بريطانيا وتركوا فرانسا .

وفي عام ١٨٠٠ سمح لأول ممثل سياسي بريطاني بالاقامة في مسقط بعد أن نجح الكابتن مالكولم باقناع السلطان بالاستعانة بالاطباء البريطانيين أثناء مروره في مسقط متوجهاً الى فارس في مهمته المعروفة لمنع الفرس من التعاون مع نابليون . وقد استقدم لهذه الغاية الطبيب الجراح (بوجل) ذو اليد الطولى في ترسيخ النفوذ البريطاني في مسقط . ومن الضروري في هذا المجال أن نذكر أنه لولا الصراع المتواصل بين القوى العربية لما تمكنت بريطانيا من فرض ارادتها على الجميع وبعد صلح اميان في القارة بين الفرنسيين والانكليز حاول الفرنسيون استغلال هذه الفرصة للعودة والاتصال بسلطان عمان وطالبته بتوقيع اتفاقية مماثلة للاتفاقية التي وقعها مع بريطانيا .

ورغم قبوله الضمني إلا انه خاف من بريطانيا ورفض السماح للمندوب الفرنسي بالدخول إلى عمان وكان يدعى (كافينياك) وقد عاد أدراجه مباشرة بعد

وصوله في آذار عام ١٨٠٢ ، لأن الحرب عادت بين البلدين وبشكل أشد ، وكأن السلطان (سلطان بن سعيد) كان يتوقع انتصار الانكليز على الفرنسيين لذلك اعتذر للمندوب الفرنسي وأرسل له مندوباً أبلغه أسفه قائلاً «كان الحاكم يتمنى أن تصل في فترة سلام حتى يستقبلك بشوق غير أن الانكليز لا شك سيغضبون على سيدي لو سمح لك أن تجيء بعد اعلان الحرب بينكم فلدينا عشرون سفينة كبيرة في موانئهم في البنغال أو على سواحل مليبار وليس ثمة ريب في أنه سيتم الاستيلاء عليها حالما يبلغون التعليمات» لم يحدث هذا المنع أي استياء لدى الفرنسيين لأنهم كما ذكرنا كانوا يشكون بقيمة مسقط الستراتيجية وقد أيد ذلك حاكم جزر موريشوس (ديكان) الذي كان يوجه سياسة فرانسا في المحيط الهندي ، لذلك عندما رضي السلطان سعيد بعقد اتفاقية صداقة وتجارة مع الفرنسيين عام ١٨٠٧ رفضت الحكومة الفرنسية توقيع الاتفاقية بتوجيه من ديكان بالرغم من الامتيازات التي اعطيت لهم ومع ذلك شعر السيد سعيد بخطئه وذلك بتقربه من الفرنسيين بعد انحسار نفوذهم عن المنطقة بسبب الحصار الذي ضربه الاسطول البريطاني على جزر المحيط الفرنسية التي سقطت بعد ذلك بيد الانكليز عام ١٨١٠ وظهر واضحاً تفوق الانكليز وازدياد نفوذهم في عمان أما بالنسبة للقسم الافريقي من امبراطورية سعيد بن سلطان فقد كانت بريطانيا في ذلك الوقت مشغولة بتثبيت حكمها في الهند والشرق الاقصى .
ولم تكن تخاف من طموح السيد سعيد في تلك الأرجاء ، ولكن بعد وفاة السيد سعيد وازدياد النفوذ الالماني في شرق افريقية ابتدأ اهتمامها يتزايد بعمان بسبب ملكيتها للسواحل الأفريقية وكانت بريطانيا تنظر لسلاطين البوسعيد كحلفاء وبالاحرى افضل الحلفاء في المنطقة ، وبالرغم من النفوذ الكبير الذي كان لهم في مسقط لم تكن هناك اتفاقيات سياسية بين الطرفين وكان هناك فقط اتفاقية محاربة تجارة الرقيق فقط ، وعندما بدأت القلاقل تهدد سلطنة السلطان سعيد في شبه الجزيرة العربية عام ١٨٢٨ اثر ثورة البوعلي عاونته بريطانيا للقضاء على هذه القبائل ، وفي اواخر عام ١٨٣١ كادت ان تقع مسقط في أيدي الثوار أثناء غياب السيد سعيد في زنجبار لولا تدخل الانكليز البحري . وفي عام ١٢٦٠هـ - ١٨٤٤م وافقت بريطانيا على السماح للسلطان بعقد اتفاقية صداقة وتجارة مع فرانسا منحت فيها للفرنسيين حرية التنقل في جميع ممتلكات سلطان مسقط . وكان المقصود بهذه الاتفاقية هو التجارة مع القسم الافريقي من امبراطورية البوسعيد فقط دون القسم

الاسيوي القريب من الهند .

في عام ١٨٤٩ اصدر السلطان سعيد مرسوماً باعفاء البضائع الامريكية من رسوم الجمارك . وعندما اكتشفت كميات كبيرة من السماد الطبيعي المتأتي من زرق الطيور في جزر (قوريا ـ موريا) الصغيرة تقدم المندوب البريطاني من السيد سعيد وابلغه من أن صاحبة الجلالة (فكتوريا) ترغب في امتلاك هذه الجزر الصغيرة عربونا للصداقة ، فأخذت السيد سعيد موجة عارمة من الكرم العربي وقدمها هدية للملكة بدون مقابل دون أن يعرف ما هو القصد من امتلاك هذه الجزر التي كانت تحوي ارضها على طبقة من زرق الطيور سمكها ثلاثة أمتار استخدمتها بريطانية لتقوية انتاج القطن في الهند ويبلغ ثمنها مئات الالوف من الجنيهات . ولما علم اللورد كلاندون نائب الملك بالهند بهذا الاختلاس الذي اشتركت به الملكة البريطانية فكتوريا العظيمة بادر باهداء السيد سعيد عليه (تشوق) دليلاً على تقدير الحكومة البريطانية له .

كانت للسيد سعيد علاقات مع دول اخرى غير بريطانيا وفرانسا كالولايات المتحدة الامريكية التي كانت في بداية عهدها بالدخول للمنطقة وقد عقدت بين الطرفين معاهدة صداقة وتجارة عام ١٤٢٩هـ ١٨٣٣م وتم توقيعها في القصر السلطاني في مسقط ووقعها نيابة عن امريكا ادموند روبرتس وقد منحت هذه المعاهدة كما جاء فيها «سكان البلاد الامريكية . . رخصة الدخول الى اى بندر كان من بنادر العاليجاه السيد سعيد بن سلطان حامي مسقط» ونصت على «ان اهل اليونيتد ستيت سكان البلدان الامريكية اذا ارادوا ان يصلوا الى احد بلدان السلطان لأجل البيع والشراء فهم مرخصون في تنزيل اموالهم ليسوا بمعارضين إذا أرادوا أن يسكنوا فلا عليهم من جهة السكون شيء ولا يلامون على شيء بل يكونون مثل الطائفة التي هي اقرب في المود» كما نصت المعاهدة على أن «كبير اليونيتدستيت» (يقصد رئيس الجمهورية الامريكية ربما يجعل إنساناً وكيلاً عنه في احدى بلدان السلطان الذي فيه للبيع والشراء» ولم تكن المعاهدة موجهة إلا إلى القسم الافريقي من دولة السيد سعيد فالانكليز كانوا لا يحبذون اية اتفاقية مع اية دولة كانت يدخل فيها القسم الاسيوي .

كان السيد سعيد يحب الاكثار من المعاهدات والاتفاقيات الدولية ويرى فيها اعترافا دوليا بدولته واظهار الهيبة لها امام العالم الخارجي خاصة الدول التي لها

مصالح في افريقية والمحيط الهندي وكان يرى في بريطانيا الصديق الـذي يحقق له حلمه في خلق دولته الافريقية كما ان وجود الاسطول البريطاني في المحيط كان يعطي الأمن للسفن العمانية التي تمخر أعالي البحار . لذلك لم يكن ينظر السلطان لازدياد النفوذ البريطاني في دولة نظرة الوجل لأنه يؤمن مصالحه التجارية وكان جوابه دائماً عندما كان يحذر من ازدياد النفوذ البريطاني (بأنه تاجر قبل أن يكون سلطان) وقد سمح للسفن البريطانية بتفتيش سفنه في حملتها لالغاء تجارة الرقيق . وقد ساعدت سياسة سعيد الملائمة للانكليز لسيطرتهم على بلاده بقسميها وقسموا بعد وفاته هذه الامبراطورية .

في ١٩ تشرين اول عام ١٨٥٦ توفي السيد سعيد عن عمر يناهـز الخامسـة والستين ، قضى منهم في الحكم حوالي الخمسين عاماً وخلف اولاداً كثر وتزوج عدة مرات ، وقد ترك موته فراغاً كبيراً ادى الى تقسيم مملكته وقد زالت مكانتها بزواله . ويعتبر من أبرز سلاطين البوسعيد واكثرهم استثارة ، هيمنت شخصيته القوية طيلة النصف الأول من القرن التاسع عشر على المنطقة الواقعة بين عمان ومدغشقر ، وكانت شخصيته مزيجاً من الطموح والفروسية والدبلوماسية والعقلية التجارية . فقد اقام نظاماً خاصاً للضرائب في افـريقية سمح لنفسه بالحصـول على ٥٪ من مداخيل الموانىء ، وقد ظل هذا النظام ساري المفعول لمدة طويلة من الزمن ، وكان يلقب كما ذكرنا بملك او سلطان السواحل بالنظر لسيطرته على القبائل الافريقية وكان يملك من مقديشو الى سفاله شريطاً بعرض عشرة كيلو مترات على طول السواحل : وكان مسموع الكلمة وتحترمه القبائل لذلك قيل اذا دقت الطبول في زنجبار سمع لها دوي في الغابات تعبيراً عن تأثيره على القبائل ، وقد استفاد المكتشفون للقارة منه فائدة كبرى ، نظراً لما ذكرنا من سيطرته ونفوذه على القبائل فقد كان يرسل الكتب مع هؤلاء يطلب من القبائل مساعدة المكتشفين وكانت القبائل تحترم هذا الطلب خاصة إذا كان المكتشف يحمل العلم الزنجباري (العماني) . ولم يكن لديه مانع من مساعدة هؤلاء حتى المبشرين منهم ويعترف جميعهم انه لولا مساعدته لما استطاعوا التقدم في القارة وكان يبعث معهم الأدلاء والموجهين ونظراً لمجهوده في هذا المجال رشحته الحكومة البريطـانية ليكون عضـو شرف في الجمعية الآسيوية الملكية عام ١٨٣٥ ، وقد أثار اهتمام الكتاب والصحافة الأوروبية في كل من بريطانيا وفرانسا ، وتقول عنه ابنته سلمى في تاريخها عن ابيها «بأنه كان رجلاً مستنيراً له مهابة تبعث

على الاحترام، وكان متواضعاً محباً للاطلاع على مايجري في العالم فكان يسأل الرحالة الذين كانوا يتواردون على زنجبار باعتبارها بداية كل مغامرة داخل القارة عن العالم وأحواله وحاول الاتصال بمحمد علي حاكم مصر لتنسيق الجهود العربية معه وطلب منه ارسال اختصاصيين لتعليم جنوده استخدام المدفعية البحرية . والواقع ان الحديث عن السيد سعيد يجعل من الانسان ليعجب من هذه الشخصية التي كانت تفرض سيطرتها على منطقة واسعة بدون مقومات الدولة وحتى بدون جيش بالمعنى الصحيح وقد احب السيد سعيد البحر حيث بنى عليه مملكته وكانت وفاته فيه أيضاً وهو في طريقه الى زنجبار .

بعد وفاة السيد سعيد خلفه ابنه الكبير (ثويني) الذي كان يقيم في مسقط ولكن الاوضاع لم تستقر لثويني فنشب خلاف كبير بينه وبين أخيه ماجد بن سعيد الذي كان يحكم زنجبار نائباً عن والده فقد رفض هذا تقديم الولاء لأخيه واعلن استقلاله في زنجبار . وقد وجه ثويني حملة عسكرية لاخضاعه عام ١٨٥٩ ولكن بريطانيا التي كانت لها مصالح في زنجبار تدخلت بالأمر ومنعت ثويني من الوصول الى زنجبار وعرضت وساطتها على الطرفين وقد اختير اللورد كاننج Canning حاكم الهند العام حكماً بين الشقيقين فأشار عليهم بتقسيم الدولة لأن ذلك يساعد على استقرارها وقد أصدر اللورد المذكور حكمه في ٢ نيسان ١٨٦١ ويقضي باقامة سلطتين منفصلتين عن بعضهما الأولى في مسقط وملحقاتها في الخليج والثانية في زنجبار والممتلكات الافريقية الاخرى على أن تتعهد سلطنة زنجبار بدفع اربعين الف كرونه سنويا لسلطنة مسقط على سبيل التعويض ولعدم تكافؤ ايرادات الطرفين ، وهذا يعني تبعية اسمية من حاكم زنجبار الى حاكم مسقط وهكذا قطعت بريطانيا اوصال مملكة السيد سعيد وبالتدريج ابتعدت زنجبار عن مسقط ولم يعد هناك أي اتصال بين الطرفين ، وقد ظل خلفاء ماجد يحكمون زنجبار حتى خروج آخرهم في الستينات من هذا القرن وبخروج السلطان الأخير زال الحكم العربي من الجزيرة ومن سخرية القدر أن بعض العرب طبلوا وزمروا وهللوا للثوار الذين أخرجوا السلطان خليفة بن برغش من زنجبار وذبحوا العرب كما تذبح النعاج ، والأشد سخرية هو أن هؤلاء المطبلين لم يكونوا يعرفوا أن الذين كانوا يذبحون في زنجبار هم عرب وأن سلطانها كان عربياً .

إثر هذا التقسيم واقتصار المملكة على القسم الآسيوي ضعف نفوذ السلطان ثويني نظراً لامكانياته القليلة لذلك اتجه بطلب المعونة من الانكليز هو وخلفاؤه من بعده وابتدأت مرحلة جديدة من مراحل النفوذ البريطاني في عمان حيث أنشأت بريطانيا في كل من زنجبار ومسقط قنصلية تدير شؤونهما ، وقد حاول ثويني الاتصال بالفرنسيين ولكن لم تكن لديهم القوة لمساعدته لذلك عاد الى الحظيرة البريطانية وانتهت امبراطورية البوسعيد وأخذت تنحدر شيئاً فشيئاً ليكتنفها الغموض والنسيان ولم يعد يعرف احد عنها حتى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانيه ومحاولة اعادة الأمامه وظهور البترول والثورة العمانية ضد سعيد بن تيمور وهذا ما نراه في الفصول القادمة .

الفصل الرابع

بنو خالد والدعوة الوهابية والدولة السعودية الأولى والحملات المصرية

ـ الأوضاع في شرق الجزيرة العربية .

ـ دولة بني خالد في الأحساء : اصولها وتطورها وموقف بني خالد من الدعوة الوهابية ـ الصراع بين بني خالد والسعوديين ـ القضاء على دولة بني خالد واسبابه ـ الدعوة الوهابية ـ ظهور محمد بن عبد الوهاب في العيينه ـ محمد بن عبد الوهاب بالبصره ـ عودته الى العيينه ـ التجاء محمد بن عبد الوهاب للدرعيه ـ الاتفاق بين محمد بن عبد الوهاب وآل سعود

ـ الدولة السعودية الاولى ـ الامام محمد بن سعود ـ الامام عبد العزيز بن محمد ـ الامام سعود بن محمد الملقب بالكبير ـ الخلاف بين الدولة السعودية والعثمانيين ـ العثمانيون يتجهون الى والي مصر محمد علي

ـ الحملات المصرية الاولى وفشلها ـ موت الامام سعود الكبير محمد علي باشا يقود الحملة المصرية يحتل عسير ـ اسباب انتصار المصريين ـ الحملة المصرية الثانية بقيادة ابراهيم باشا ـ احتلال الدرعية ـ انسحاب المصريين وتسليم البلاد للعثمانيين ـ بريطانيا وتحطيم النفوذ السعودي ـ تقرير السيد فرانسيس واردن ـ اخطاء ابراهيم باشا ـ الاتصالات بين السعوديين والايرانيين ـ انتهاء حياة الدولة السعودية الاولى .

الفصل الرابع

بنو خالد والدعوة الوهابية والدولة السعودية الاولى

كانت الأوضاع في الجزء الجنوبي الشرقي والأوسط من الجزيرة العربية قلقة وغير مستقرة خلال الفترة التاريخية التي نحن بصددها والتي كان الصراع فيها بين الدول الاستعمارية وخاصة بريطانيا يتجه على محورين الأول الصراع بين القوى المتنافسة ما بين بريطانية وفرنسية وهولندية . . الخ وصراع بين بريطانيا والقوى العربية على الساحل الغربي من الخليج العربي . وقد سجلت هذه الفترة زوال حكم بني خالد عن المناطق الشرقية للجزيرة العربية وبالتحديد عن الاحساء وظهور الدولة السعودية الاولى وما سبقها من ظهور الدعوة الوهابية التي قلبت الأوضاع في المنطقة رأساً على عقب وكان لها آثار بعيدة وعميقة في تاريخنا العربي المعاصر . في حين لم يكن لتركيا في ذلك الوقت سوى سيطرة اسمية لا تتجاوز حدود العراق ولم يكن لها هم سوى تحسين الفرصة ـ إذا تحققت ـ للانقضاض على القوى العربية وتشتيتها .

وبالرغم من أن هذه الأحداث لم يكن لها ظاهرياً وفي المنظور العاجل تأثير على مجرى الأمور في الخليج ويعود ذلك لمعرفتنا للنتائج . ولكن الواقع هو أنها كادت ان تكون ذات تأثير مباشر وكبير على الخليج واحداثه خاصة على الاستعمار البريطاني . فلولا قضاء المصريين على القوة السعودية المتنامية لكان لها دور وشأن كبيرين في عمان والخليج باعتبارها قوة تختلف عن القوى الأخرى من ناحية الهدف والفكرة وعندما احتل محمد علي المنطقة ، عملت بريطانيا المستحيل لايقافه في سورية ومساعدة الدولة العثمانية للقضاء عليه إن أمكن وكان خروجه من سورية سبباً لخروجه من الخليج كما انه لو استقرت الأوضاع للجيش المصري هناك لاستطاع طرد البريطانيين وربما تعاون مع القوى العربية لهذه الغاية ، ولكن الأمور سارت على حسب ما كانت ترغب به بريطانيا والأتراك على حد سواء فالحرب التي جرت في الجزيرة انهكت المصريين والسعوديين على حد سوباء وكان الرابح هو الاستعمار تركياً كان أم بريطانياً .

كانت الخلافة العثمانية فعلياً تحتل كما هو معروف أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية واسمياً جميع البلاد العربية ولكنها في واقع الأمر لم تستطع السيطرة على عمان أو ساحل عمان وحتى جزر الخليج وكان لها النفوذ القوي ـ في وقت من الأوقات ـ على منطقة الاحساء . ولكن نفوذ الدولة العثمانية عادة كان يشتد ويضعف، حسب ظروفها الدولية والداخلية ايضا وهو بين مد وجزر . وقد ساعد هذا الوضع على ظهور الدويلات والمشيخات القبلية التي كانت تدوم حسب قدرة قادتها على الدفاع عنها ضد القوى القبلية الاخرى من جهة وضد تركيا من جهة أخرى . وفي كثير من الأحيان كان العثمانيون يقنعون بترك هذه المناطق طالما يدفع مشايخها وامراؤ ها الجزية ويقدمون المال والرشوات لكبار الموظفين أو حسب قوتهم أنفسهم .

كانت دولة بني خالد من جملة هذه الدويلات والمشيخات التي ظهرت في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية أي في منطقة الاحساء ، وكانت تحكم قبل وصولهم من قبل ولاة اتراك بعد القضاء على حكم آل جبيره الذين يعودون بأصولهم الى (قيس) وقد استمر الحكم العثماني فيها حتى عام ١٠٨٠هـ ـ ١٦٨٠م حيث استطاع براك بن غرير آل حميد الخالدي من السيطرة على المنطقة وازالة النفوذ التركي منها .

وتعتبر الأحساء والمناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية من أغنى المناطق فيها لوجود واحة الأحساء الخصبة والمشهورة بكثرة مياهها وأراضيها الصالحة للزراعة بالاضافة الى قربها الى البحر مما جعلها ذات اتصال مباشر بالعالم الخارجي عن طريق موانئها القديمة كالقطيف والعقير وغيرها وعن طريق هذه الموانىء كانت بعض المواد الغذائية والمواد الضرورية تصل لشرق ووسط الجزيرة العربية فمن اليمن كانت تستورد القهوة وأما السكر والبهارات والرز فكانت تصلهم من الهند والشرق الأقصى .

ويرجع قبائل بني خالد بأصولهم الى نجد ، ويقول بعض الرواة انهم من شمال الجزيرة العربية والرواية تقول انه في عام ٩٦٣هـ ـ ١٥٥٥م مرت جيوش الخلافة من سورية في طريقها نحو الخليج العربي بقيادة محمد فروخ باشا وذلك لطرد البرتغاليين الذين هيمنوا على الخليج ونزلوا في قطر والقطيف والبحرين . وخلال مرور الجيوش المذكورة في بادية الشام استعانت بقبائل بني خالد الضاربة هناك لتأمين تموينها الى غير ذلك من الشؤ ون الادارية . ويقال أن قسماً من قبائل

بني خالد رافق الحملة التركية ولحق قسم آخر فيما بعد واستقر الجميع في منطقة الالأحساء . وما لبثت هذه القبائل ان شعرت بقوتها ابتداء من عام ١٠٨٠هـ ١٦٦٩م وثارت على الحكومة العثمانية وأعلنت استقلالها . ولا تزال في بادية الشام وعلى حدود المعمورة قبيلة قوية تعرف بقبيلة بني خالد وربما يكون هؤ لاء من بقي من بني خالد في مساكنهم الأولى قبل التحاقهم بالأحساء. وخلال فترةقصيرة استطاع بنو خالد توسيع مناطق نفوذهم - وربما يكون لعدم وجود من يقف في طريقهم - لتشمل المنطقة الواقعة بين حدود العراق شمالاً وقطر جنوباً وامتد نفوذهم الى اواسط الجزيرة العربية واعترف بسلطتهم مشايخ نجد . وكان يحكم قطر بني مسلم وهم اصهار بني خالد . وكان الجميع يؤ دون الطاعة لهم خوفاً من بطشهم وكان هؤ لاء لا يتورعون من انزال العقاب بكل من يمتنع عن تقديم الهدايا والطاعة لهم ، وقد دامت دولتهم حتى نهاية القرن الثامن عشر حيث انتهت على يد آل سعود ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك .

وخلال فترة التنقل من مكان إلى آخر على طول شواطىء ومناطق شرق الجزيرة العربية إستقر بعضهم في الأحساء واصبحوا مزارعين وتركوا حياة الترحال والبداوة وقسماً منهم ظل على حياة البداوة والتنقل حول واحة الأحساء التي كانت قطب الرحى والنواة الرئيسية لدولة بني خالد . ويعزى لمشايخ بني خالد بناء مدينة الكويت ، وكانت علاقاتهم مع بقية القبائل على العموم جيدة لذلك استقر حكمهم في المنطقة وقويت شوكتهم واصبحوا قوة كبيرة حيث تحدوا عام ١٥٨١ تحرشات شرفاء مكة وبالنظر الى موقع بلادهم الجغرافي على الطرق التجارية ، فقد جنح بنو خالد للسلم بالاضافة الى كونهم مزارعين والمزارع عادة لا يحب الاضطرابات ولا القتال خوفاً على زراعته - وكان همهم حماية الطرق التجارية التي كانت تمر بهم والتي كانوا يستفيدون منها فائدة قيمة . وبالرغم من انفتاح بلادهم على البحر لم يحاول بنو خالد ركوبه كغيرهم من القبائل العربية الاخرى ويبدو انهم لم يكونوا بحاجة الى ركوبه لاكتساب رزقهم فاراضيهم الزراعية تؤ من لهم الغذاء والكساء والحياة الرغدة الناعمة .

ولن نتوسع في سيرة حكام بني خالد وكانوا على العموم أقوياء ، وتعاقب منهم عدداً لا بأس به من الحكام لذلك استقر حكمهم وازدهر وعندما دب الخلاف بين افراد العائلة المالكة على وراثة الحكم بعد وفاة الأمير الخالدي سعدون عام ١١٧٥ -

١٧٢٢م بدأت البلاد تمر بالفوضى . وقد دام الخلاف فترة طويلة وساير في الزمن ظهور الدعوة الوهابية التي كانت طموحاتها تضم الجزيرة العربية ومنها دولة بني خالد . وقد ساعد الخلاف على الوراثة على تسرب النفوذ السعودي الذي كان هدفه الأول القضاء على بني خالد والاستيلاء على الأحساء لما تقدمه من امكانيات مالية وزراعية للدعوة الوهابية وتساعد على انتشارها وكانت اقرب البلاد للسعوديين . وقد حاول السعوديون توسيع شقة الخلافات بين افرادالعائلة المالكة حتى تمكنوا منهم وقضوا عليهم .

كان السعوديون في بادىء الأمر يقفون موقف الدفاع من قوة بني خالد . ولكن بعد الخلاف انتقلوا الى مرحلة الهجوم . وكان أول صدام بين بني خالد والوهابيين خلال حكم سليمان الخالدي ١١٣٦هـ - ١٧٥٢م فقدصادفـحكمه ظهور محمد بن عبد الوهاب الذي كان يبشر بأفكاره الاصلاحية والدينية في تلك الفترة وأثار عليه الناس بسبب احكامه الصارمة فالتجأوا الى بني خالد واشتكوه عندهم واتهموه بالغلو والتطرف وطالبوا بالقضاء عليه فاضطر الأمير الخالدي للايعاز الى سليمان امير العيينه للمثول لأوامر بني خالد رغم اتباعه لتعاليم محمد بن عبد الوهاب فقد خاف على امواله وعقاراته الموجودة في الأحساء من مصادرة بني خالد لها إذا خالف امرهم فالتجأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية مركز آل سعود واتفق معهم وكانت ضربة الحظ للسعوديين .

بعد ظهور الدعوة وانتشارها على أيدي آل سعود أحس الخالديون بالخطر فحاولوا مراراً احتلال الدرعية والقضاء على مركز الدعوة وآل سعود معهم ولكن دون جدوى خاصة في زمن عريعر الذي حكم عام ١١٦٦هـ ١٧٥٢م ودام حكمه عشرين عاماً وكان من أقوى حكام بني خالد وقد خلف (عريعر) ابنه (سعدون) الذي بدأ حكمه بقتل اخوته وتولى الحكم عام ١١٨٨هـ - ١٧٧٤م وقد استغل السعوديون الفرصة التي سنحت لهم بعد الخلاف الذي دب بين سعدون وعدد من الأمراء المعارضين لحكمه فأخذوا يمدونهم بالمال والمساعدة ويحسوه على الثورة ضده ولكن سعدون كان قوياً وانتصر على التجمع الثائر الذي كان بقيادة عبد المحسن ودويحس اخوة سعدون فهرب هؤ لاء والتجأوا الى قبائل المنتفق يطلبون العون فأعانهم هؤ لاء على أخيهم فانتصروا عليه فاضطر للهرب الى الدرعية عاصمة اعدائه الألداء ال سعود .

وقد حاول الأمير سعود بن عبد العزيز الاغارة على الاحساء ولكنه لم يتمكن من احتلالها بسبب مقاومة بني خالد الشديدة ، وكانوا لا يزالون يملكون القوة للوقوف بوجه آل سعود . وكان ذلك في عام ١١٩٨هـ - ١٧٨٤م . لذلك عاد السعوديون الى تكتيكهم القديم في بذر بذور الفرقة والخلاف بين الخالديين ، وبعد وفاة سعدون في الدرعية طلبوا من بني خالد الاعتراف بسلطة اخيه زيد بن عريعر بعد أن احس السعوديون بقوتهم بعد انتصارهم على قبائل المنتفق حلفاء بني خالد الذين كان يحكمهم في ذلك الوقت عبد المحسن ودويحس ، ولما لم يستجب امراء بني خالد للطلب السعودي ابتدأ هؤلاء بمهاجمة الأحساء للقضاء على قاعدة بني خالد وكان مع الجيش الوهابي زيد بن عريعر فاستطاع هذا الانتصار على اخوته وتولى الحكم مكانهم . وبالرغم من الانتصار السعودي إلا أن قوتهم لم تكن كافية للقضاء كلياً على بني خالد وكان لا بد من مرور فترة من الزمن حتى يضعف بنو خالد وتسقط الأحساء تحت حكمهم . لأن امراء بني خالد كانوا يعرفون أهداف السعوديين التي اقلها احتلال بلادهم وطردهم منها لذلك انقلب زيد بن عريعر بعد أن تمكن من قوته على السعوديين الذين ساعدوه للوصول الى الحكم وانضم الى المعارضين للسعوديين من اخوته ، ولكنه قتل ودام حكمه ١٧٨٩م - ١٧٩٣م - ١٢٠٤هـ - ١٢٠٨هـ . وكان حكمه مقتصراً على أماكن استيطان بني خالد وعلى سكان المزارع في الوقت الذي كان فيه القسم البدوي الذي لا يزال على حالة التنقل والبداوة يدين بالولاء لعبد المحيسن واخوه .

وبالرغم من الضعف الذي أصاب بني خالد بسبب تشتتهم وحروب الوراثة الطويلة ظلوا قوة تقف حاجزاً امام امتداد الدعوة الوهابية وبالتالي النفوذ السعودي نحو الشرق . لذلك وجه هؤلاء اهتمامهم لاستمالة براك بن عبد المحيسن الذي استطاع توحيد بني خالد وفرض سلطته على المدن المحصنة التي لم يكن بمقدار الوهابيين من احتلالها بأسلحتهم الضعيفة ، وقد سايرهم (براك) فترة من الزمن ثم انقلب عليهم بعد أن أحس بقوته فأخذ بمحاربتهم بعنف وأصبح عدواً خطيراً لهم فهاجم المطاوعة الوهابية وقضى على الحاميات المقيمة في الأحساء . فاضطر الامام الوهابي سعود للقيام بهجمات انتقامية على مختلف مدن الاحساء الواقعة تحت سيطرة بني خالد ولكنه لم يتمكن من النيل منها بسبب انشغال قواته الرئيسية بالقتال ضد شرفاء مكة الذين كانوا يهاجمون نجد خلال الأعوام ١٧٩٠ - ١٧٩١ و ١٧٩٢م

يضاف إلى ذلك خوفه من هجوم مرتقب لوالي بغداد عليه ولكن بعد عام ١٧٩٥ وبعد توجيه قوات كافية نحو بني خالد في زمن عبد العزيز آل سعود الذي تولى الامامة بعد أبيه ثم تدمير قلاع ومدن الاحساء المحصنة واستلام اول حاكم للاحساء من غير بني خالد الذين تفرقوا مدحورين بعد هذا الهجوم الكاسح . وتم تهديم الحصون الخالدية جميعها ، وقد بنى السعوديون قلاعا جديدة لخدمة مصالحهم في أماكن معينة وقد لعبت هذه الحصون دوراً مهماً في القتال ضد حملات والي بغداد (علي باشا الكرجي على الاحساء ما بين اعوام ١٧٩٨ - ١٧٩٩

كان عبد الله بن سليمان المهشوري الخالدي اخر زعيم لمقاومة بني خالد للسعوديين وينتمي الأمير المذكور إلى قبيلة المهاشير وهي فرع من فروع بني خالد وقدقاوم عبدالله السعوديين في القطيف، وسيهات وجزيرةتاروت فترةطويلة . وبالرغم من تمكن ابراهيم بن عفيصان القائد الوهابي من احتلال سيهات فقد استطاع عبد الله الحاق الهزيمة بالقائد المذكور عندما حاول هذا احتلال القطيف واضطره للتراجع ، وقد ظل ابن عفيصان يشن الغارات على بني خالد وما تبقى لهم من حصون في القطيف ، وقد حدثت معارك ضارية بين الطرفين انهكت فيها قوات بني خالد المحدودة امام تفوق السعوديين الذين كان نجمهم في صعود فاضطر عبد الله للهرب والتجأ الى قبيلة المنتفق كغيره من زعماء بني خالد وهكذا انتهت دولة بني خالد ودانت المنطقة لآل سعود الذين ما لبثوا ان واجهوا خطر الدولة العثمانية بعد توسعهم الكبير .

كان من الطبيعي سقوط دولة بني خالد أمام الوهابيين بزعامة آل سعود فبنو خالد كانوا زعماء قبليين يعتمدون على افراد قبيلتهم فقطودعمها لهم وروحها القتالية وكانت تحكم جيرانها عن طريق القوة والنفوذ ، وكان قتالهم مزيجاً من الدفاع عن النفس والدفاع عن النفوذ في حين كان السعوديون يعتمدون على قوة حربية شابة وجديدة مشبعة بروح دينية استطاعت توحيد القبائل ودفعتهم للقتال تحت لوائها وجعلتها تشعر بواجبها نحو نشر الروح الدينية الجديدة بحماس شديد وتفان نادر . ومما يستلفت النظر العدد الكبير من الجنود الذين عملوا لدى الأئمة السعوديين والذين شكلوا الجيش السعودي الذي استطاع الوصول الى مشارف حوران واستطاع الوصول أيضاً للعراق وكربلاء وكثيراً ما كان آل سعود يحاربون على عدة جبهات في آن واحد .

كان ظهور الدعوة الوهابية على يد محمد بن عبد الوهاب في بلدة العيينه الواقعة في وادي حنيفة في نجد . وقد ولد عام ١٧٠٣م - ١١١٥هـ في بلدة العيينة وينتمي الى قبيلة (تميم) وكان أبوه قاضياً للمذهب الحنبلي احد مذاهب السنة الأربعة ولكنه أكثر هذه الأربعة مذاهب تشدداً . لذلك نشأ محمد بن عبد الوهاب نشأة دينية عميقة وزار مختلف مناطق الجزيرة العربية وهو فتى طلباً للعلم على يد المشايخ والعلماء كما هي عادة الدارسين في تلك الأوقات وقد تجمعت لديه افكار لا تقبل البدع والتقاليد البالية التي أدخلت على الدين فشوهت صفاءه وأضعفت قوته لذلك أخذ في الدعوة للعودة الى صفاء الدين ونقاوته كما كان في زمن الرسول والتي هي سر قوة الاسلام . فاتخذ مدينة البصرة بداية لدعوته ولكنه لم ينجح بسبب المعارضة التي لقيها من رجال الدين هناك المتمسكين بالتقاليد البالية من كلا الطرفين السنة والشيعة ، وبضغط منهم اضطر متسلم البصرة لابعاده عن المدينة فعاد إلى مسقط رأسه في العيينه وأخذ بالتبشير لأفكاره الجديدة واستطاع اقناع أمير البلدة باتباع تعاليمه وتعهد بحمايته ، وكان هذا يعترف بحماية بني خالد حكام الأحساء ، وبعد انتشار دعوة محمد بن عبد الوهاب وتجمع الناس حوله خاف حكام بني خالد منه ومن دعوته التي كانت تعمل لقلب المجتمع من أساسه ، وبتوجيه من بقايا القرامطة والمخالفين اوعزوا لأمير العيينه بابعاد محمد بن عبد الوهاب او قتله فخاف الامير على نفوذه واملاكه لدى بني خالد في الاحساء وأبعد محمد بن عبد الوهاب من البلدة فالتجأ هذا الى بلدة الدرعية التي كانت تحكم من قبل آل سعود واستطاع استمالة بعض الأمراء من عائلة آل سعود ومنهم اثنان كانا اخوة الأمير سعود أمير الدرعية . وما لبث هو أن تبع دعوة محمد بن عبد الوهاب عندما دعاه إلى ذلك وعندما استشار الأمير سعود زوجته في هذا الموضوع يقال انها نصحته باتباع الشيخ ،«فقد وهبه الله الحظ والسعادة عن طريق الشيخ» وكانت حماية الأمير للشيخ ضرورية لتمكنه للعمل بحرية وتم الاتفاق بينهما عام ١٧٤٠م - ١١٥٨هـ على البدء بنشر الدعوة في كل أرجاء الجزيرة العربية ، ولا شك أن هذا الاتفاق كان منعطفاً تاريخياً ورئيسياً في تاريخ الدعوة الوهابية والجزيرة العربية أيضاً نظراً لآثاره البعيدة على الخطوات المتبعة والقادمة بعد أن تحقق للدعوة مجال العمل الواسع المستند على القوة .

ظل الأمير محمد بن سعود عشرين عاماً ، يناصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويدعو لتعاليمه ، وبعد وفاته خلفه ابنه عبد العزيز الذي نهض بالدعوة

ونشرها وربط نفسه بالشيخ وبسط نفوذه على المناطق حوله في مختلف الاتجاهات واتسعت دولته واصبحت دولة عريضة بعد أن كانت امارة صغيرة مقتصرة على الدرعية وقريتين او ثلاث قرى حولها فقد وصلت حدود دولة آل سعود إلى عمان والخليج العربي ودخلت الرياض في دولته بعد التغلب على اميرها دهام بن دواس الذي قتل وهو في قصره بعد أن هاجمه الأمير محمد . وبعد وفاته اضطر عبد العزيز لاحتلالها مرة ثانية واجتاز صحراء النفوذ ووصل القصيم واحتل بريده وغزا الأحساء وانتصر على بني خالد فيها ودخل كربلاء وهدم بعض قبابها ، وقد ظل عبد العزيز في الحكم اكثر من تسع وثلاثين عاماً وصل فيها نفوذه للخليج بعد انضمام قبائل القواسم للدعوة الوهابية واصبحوا يمثلوا القوة البحرية للدولة الجديدة ويعتبر عبد العزيز المؤسس الحقيقي للدولة السعودية التي يطلق عليها المؤرخون الدولة السعودية الاولى .

بعد تقدمه في السن تنازل عبد العزيز عن الحكم لابنه الأمير سعود الذي كان يقود الجيوش السعودية ، وفي عام ١٨٠٣م (١٢١٨هـ) قتل غيلة من قبل احد العراقيين الشيعة وهو يصلي العصر في مسجد الرياض انتقاماً لهدمه قباب كربلاء وتقد تابع الأمير سعود خطة والده وعمل على زيادة رقعة دولته وضم إليها المدينة المنورة ومكة المكرمة وخضع له شرفاء مكة حكام الحجاز ، وغزا أطراف اليمن وضم عسيراً وقسماً من تهامة ووصلت جيوشه مسقط ، وقد ابطل الدعاء للخليفة العثماني في خطب الجمعة وابعد كافة الموظفين الأتراك واستعاض عنهم بالموظفين العرب ، وحتى عام (١٨٠٨)م كانت الدولة الجديدة تضم القسم الأكبر من الجزيرة العربية وقد وصلت طلائع الوهابيين إلى مشارف حوران وبغداد ووصلت الدولة السعودية في زمنه إلى أقصى اتساع لها لذلك لقبه معاصروه بالكبير .

كان ظهور السعوديين بهذا الزخم الحربي والحماس الديني القوي مفاجأة كبرى للخلافة العثمانية في استانبول . وقد اخافت السرعة التي انجز فيها السعبوديون احتلال الجزيرة العربية المسؤ ولين الأتراك وأدى هذا الى الغاء احد الالقاب التي يفتخر بها الخليفة العثماني عادة (خادم الحرمين الشريفين) ، ومما لا شك فيه ان ظهور الدعوة الوهابية كان أكبر ظاهرة اجتماعية ودينية وسياسية ظهرت في الجزيرة العربية منذ تغلب الأعاجم على العرب وهي الأولى التي تمثل ظهور القوى العربية الجديدة في التاريخ المعاصر .

وفي عام ١٨١٠م وعقب الحملة الثانية على القواسم كان السعوديون يعملون للسيطرة على الخليج والكويت ومن قاعدتهم في البريمي احتلوا بعض القلاع في المناطق الشمالية من عمان واحتلوا الاحساء وقطر والبحرين ولكنهم لم يتمكنوا من احتلالها ولم يتأثر نفوذهم القوي في الساحل العماني بالرغم من هزيمة القواسم . ورغم احتلال العمانيين ميناء (شناص) بمعونة الانكليز الا ان بعض الوحدات الوهابية استطاعت اعادة احتلاله .

بعد هذا التوسع استنجد السلطان العثماني محمود الثاني بولاته في دمشق وبغداد للعمل على القضاء على خطر السعوديين ولكن كان هؤلاء أضعف من أن يستطيعوا هزيمة هذه القوى الشابة المشبعة بالحماس الديني الذي يفوق كل حماس من نوعه فاضطر السلطان للاستنجاد بوالي مصر الجديد محمد علي باشا الذي كان يعمل لخلق جيش عصري جديد يؤمن له طموحاته القادمة . وقد رفض محمدعلي باشا في بادىء الأمر طلب السلطان خوفاً من التورط في هذه المغامرة الصحراوية التي لا يعرف نتائجها وظل يماطل حوالي خمس سنوات وأخيراً قبل بالمهمة ولكن بشرط مساعدة الدولة العثمانية له بالمال والسلاح ، ومنذ عام ١٨١١م دخلت الدعوة الوهابية في تجربة جديدة ولكنها كانت قاسية جداً ، بصدامها مع المصريين وجيشهم الحديث .

شكل محمد علي حملته الاولى من قوات مصرية تضم عدداً كبيراً من الالبانيين والمرتزقة الاوروبيين وكان بينهم ضباط فرنسيون استقدمهم من فرانسا لتدريب جيشه ، وتولى القيادة ابنه الأكبر طوسون باشا . وفي عام ١٨١١ وصلت قوات الغزو المصرية الى ينبع الواقعة على ساحل البحر الأحمر . فقد وصل قسم منها عن طريق البحر والقسم الثاني عن طريق البر . وبعد التجمع اتجهت القوة نحو المدينة المنورة ولكن القوات السعودية هاجمتها في الطريق واضطرتها للعودة الى (ينبع) بعد تكبيدها خسائر فادحة وبعد وصول النجدات الى (ينبع) ارسل قسماً منها لاحتلال جدة والقسم الآخر اتجه معه الى المدينة المنورة وضرب الحصار عليها وبعد سبعين يوماً من القتال اضطرت القوات المدافعة لترك المدينة فاحتلتها القوات المصرية عام ١٨١٢ وفي العام التالي احتلت القوات المصرية التي اتجهت نحو جدة ومكة والطائف بعد انحياز الشريف غالب للمصريين وخلعه سلطة السعوديين .

لم يحاول طوسون باشا التقدم نحو نجد إلا بعد وصول النجدات وقد خاف محمد علي على قواته من أن تضيع في المتاهات الصحراوية فحضر بنفسه ليشرف على القتال وفي عام ١٨١٣م ابتدأ جيشه الكبير يتقدم باتجاه نجد ولكنه هزم في معركة (ترابه) فاضطر للعودة الى الطائف لتنظيم جيشه وعلى الرغم من سوء الأحوال التي تحيط بالوهابيين فقد تمكنوا من قاعدتهم في البريمي ما بين سنة ١٨١٢ - ١٨١٣ من غزو سلطنة عمان واكتساح اقاليم مسقط وشرقي صحار وجعلان بالرغم من المساعدات التي كانت تقدمها فارس للعمانيين كما انضمت قبائل كبيرة للدعوة الوهابية وكان هذا الاكتساح احد الاسباب التي فتحت اعين الانكليز على الخطر السعبودي على نفوذهم .

في عام ١٨١٤م منيت الدولة السعودية بخسارة فادحة لا تعوض وذلك بفقد الامام سعود الكبير الذي كان يتمتع بكفاءة عسكرية وادارية عالية ومنذ ذلك الوقت اخذت احوال الدولة تسير من سيء إلى أسوأ نتيجة لفقدان القيادة القوية ، وعناد القوات المصرية فلم يكن الامام عبد الله خليفة سعود على مستوى والده من حيث الكفاءة العسكرية واسلوب القيادة والتخطيط الحربي ، وكان سعود يجيد المناورة والكر والفر ومرونة القيادة لاستنزاف قوى الخصم أما عبدالله فقد تورط في معارك رئيسية مع المصريين الذين كانوا متفوقين من الناحية الفنية والتقنية والأسلحة وبصورة خاصة المدفعية ، في حين كانت القوات السعودية ذات تسليح خفيف يعتمد على الاسلحة الفردية الحديثة والقديمة مثل السيف والحربة وكانت قوتها تأتي من خفة الحركة باعتبارها راكبة على الخيول بالاضافة الى الحماسة التي لا حدود لها .

بعد وصول النجدات الى محمد علي باشا الذي بدأ عملياته من الحجاز تقدم نحو وادي (بيسل) في الخامس عشر من كانون اول عام ١٨١٤ واستطاع استدراج القوات السعودية التي كانت بقيادة الامير فيصل شقيق الامير عبد الله داخل الحجاز وانتصر عليها بمساعدة القبائل الحجازية التي انحازت للمصريين فاضطر فيصل للانسحاب الى داخل نجد يتبعه محمد علي وابتدأت المراكز الرئيسية في الدفاعات السعودية تسقط تباعاً واهمها كانت (ترابه) ذات الموقع الحصين ووصلت الحملة المصرية الى اماكن بعيدة مثل رانيه وبيشه ولكنها انهكت بسبب صعوبة جبال عسير التي حدثت فيها المعارك وفقدت الحملة القسم الأكبر من خيولها .

اضطر محمد علي بعد ذلك للعودة الى مصر بعد تطورت الأحداث في اوروبا وعودة نابليون الى فرانسا ووصل القاهرة في عام ١٨١٥ واستلم القيادة طوسون باشا مرة ثانية وكانت قاعدته في المدينة المنورة ومنها تقدم الى داخل نجد عن طريق (القصيم) فجأة وبقوات قليلة لا تتجاوز الألف رجل ووصل الى (الرس) التي كانت تبعد عن المدينة المنورة حوالي ٢٧٠ ميل وكان عملاً جريئاً محفوفاً بالمخاطر مما أخاف القائد الوهابي من هذه الحركة ودخل مع المصريين في مفاوضات على اساس انسحابهم من القصيم مقابل التنازل عن حقوقه في مكة والمدينة واعترافهم (أي الوهابيين) بسيادة سلطان تركيا عليهم وجعل الحدود بينهم وبين المصريين خطاً يمر بمنطقة(الحناكية) وتم التوقيع على مشروع اتفاقيةرفعت لمحمدعلي باشا الذي رفض الموافقة عليها الا على اساس الاستسلام بدون قيد أو شرط واحتلال الدرعية واستمرت حملة طوسون وسط الجزيرة من منتصف آذار الى حزيران ١٨١٥م وبعد ذلك توقفت تقريباً العمليات الحربية حتى عام ١٨١٦م حيث اجرى محمد علي تغيرات هامة في قيادة قواته في الحجاز فقد تم سحب طوسون من القيادة واعيد للقاهرة واستلم القيادة محله أخوه من امه القائد المشهور ابراهيم باشا ، وقد وصل هذا على رأس قوات جديدة مع أوامر واضحة من محمد علي بالقضاء على الوهابيين واحتلال الدرعية مهما كلف الثمن .

اتخذ ابراهيم باشا قاعدةله مدينة(الحناكية) وابتدأ العمليات عام ١٨١٧م بضرب القبائل الموالية للوهابيين وتقديم القبائل المعارضة وترغيبها بالمال فمالت اليه قبائل كثيرة ، ثم اتجه نحو القصيم ، وقد وقع اول اشتباك نظامي في منطقة جبل (ماوية) حيث هزم الامير عبدالله امام قوةمصرية حاول التصدي لها، ثم تقدم ابراهيم بعد ذلك الى الرسن وضرب الحصار عليها واحتلها بعد حصار دام ثلاثة أشهر وكانت مفتاح نجد ثم احتل بدون عناء مناطق خبره وعنيزه بعد قصفهما بالمدفعية وبذلك دانت له منطقة القصيم كله . ثم سقطت شقرا في الوشم في كانون ثاني ١٨١٨ بعد حصارقصير وكانت اول مكان يسقط في جنوب نجد ثم وصلت الحملة الى وادي حنيفة بعد ان فقدت عددا كبيرا من رجالها وعتادها ، وارتكبت القوات المصرية مذبحة في (حزومه) نتيجة استفزازها بهجوم غير منظم وقع عليها وفي السادس عشر من نيسان ابتدأت معركة الدرعية التي قاومت بشدة متناهية رغم قصف المدفعية لها . ودام الحصار ثلاثون شهرا خسر فيها المصريون عددا كبيرا من

الرجال والعتاد ولكن النجدات كانت تصلهم بشكل متواصل ، وقد لعب البدو التابعين لجيش ابراهيم باشا دورا كبير في احتلال الدرعية لمعرفتهم بدروبها وطرق التسرب اليها كما لعبت المدفعية دورا رئيسيا في تدميره حصونها المبنية من الطين ، وبعد جهد كبير تمكنت الجيوش المصرية من اختراق تحصيناتها وتشتيت حاميتها بزعامة آل سعود وآل الشيخ ، وتم حصار الامام عبد الله في حصنه ولكنه اضطر للاستسلام على اساس الابقاء على ما تبقى من المدينة وارسل الى مصر هو وعائلته ومن ثم نقل الى استانبول حيث اعدم هناك بالرغم من الوعود التي قطعت له كما دمرت احياء مدينة الدرعية التي نجت من المدفعية ونهبت واصبحت اثرا بعد عين ـ وكان الاتراك يحقدون على السعوديين حقدا اعمى بسبب هزائمهم المتكررة امام القوى السعودية وخوفهم من هذه القوة العربية الشابة على نفوذهم في البلاد العربية .

بعد القضاء على مدينة الدرعية احتل المصريون الاحساء ما بين اعوام ١٨١٨ ـ ١٨١٩ حيث بنوفيها قواعد عسكرية هنا وهناك ثم قاموا بحملات انتقامية على القبائل الموالية للوهابيين ولكن هذه الدولة الفتية بامكانياتها الضعيفة لا يمكنها احتمال مصاريف الاحتلال ولم تستطيع القضاء على المقاومة وتأمين السيطرة على البلاد فاصبحت عملية الاحتلال مرهقة مما اضطر المصريون معه من التفكير بالانسحاب وتسليم البلاد الى السعوديين او الاتراك ، وفي حزيران تم تسليم الاحساء الى حكامها السابقين من بني خالد على اساس التبعية للسلطان التركي ، وبعد شهر من الانسحاب من الاحساء عاد ابراهيم بابشا الى الحجاز مع معظم قواته التي لم تكن تزيد على بضعة آلاف من الجنود وتم تسليم البلاد للعثمانيين وبقيت حامية مصرية حتى عام ١٨٢٤ في الوقت ذاته سلمت نجد للوهابيين ولكن بظل السيادة التركية مع دفع الجزية .

وهكذا انتهت الحملة المصرية الاولى بتحطيم نفوذ آل سعود في نجد حيث ابعد القسم الاكبر منهم الى مصر وتركيا وبقي القسم الاخر في داخل البلاد بين مكة والرياض كما تم نقل سكان الدرعية الى الاحساء التي كان يطمح ابراهيم بابشا بجعلها مركزا لبلاده .

كانت بريطانيا هي الوحيدة المستفيدة من الحرب التي انتهت بتحطيم النفوذ السعودي خوفا من انتشاره الى الخليج والبحر العربي وقد استطاعت هي الاخرى

خلال هذه الفترة تحطيم قوة القبائل العربية في الخليج وبصورة خاصة القواسم حلفاء السعوديين وفرضت على المنطقة الاتفاقيات والمعاهدات التي شلت حركتها خلال اكثر من قرن. وفرضت نفوذها على سلاطين عمان وبدأت بالتدخل بشكل سافر في العراق وايران ويبدو من قول السيد فرانسيس واردن عضو المجلس في بومباي ومساعدالمقيم العام في تقريره الذي قدمه عن تاريخ الوهابيين من ١٧٩٥- ١٨١٨ كيف كان الحقد يأكل قلب الانكليز ضد الوهابيين « وهكذا قامت وسقطت تلك الفرقة الوهابية الشاذة (لا قامت ثانية) وبحمايتها وتشجيعها انتشرت الغارات البحريةفي الخليج وفي البحار الهندية بدرجة من النجاح والجرأةوالهمجيةلم تفقها الا وقاحة الجزائريين في اوربه » ، ورغم تقدم المصريين نحو الخليج لم تخش بريطانيا على نفوذها منهم وربما كانت تأمل في التعاون معهم ضد القواسم فقد استطاع ابراهيم باشا احتلال القطيف وحسب قول واردن انه ارسل مفرزه ضد واحه البريمي التي كانت تحت النفوذ التركي وكان يعد العدة للهجوم على رأس الخيمة وموانىء القراصنة اذ ان عبد الله بن احمد شيخ البحرين عرض ان يقدم اي عدد من السفن يلزم لنقل الجند من تلك المواقع ، ولكن ابراهيم باشا لم يستطع تأمين ما كان يطمح له فقد شغل بالقضاء على بقايا السعوديين والقبائل الموالية لهم كما رأينا ولو فكر اكثر واستطاع جمع الشمل في تلك الايام لاستطاع توحيد الجزيرة العربية وسيطر على الخليج ولم تكن بريطانيا في ذلك الوقت لتستطيع ان تقف في وجهه ولكن تفكيره كان منصبا على القضاء على المقاومة دون التفكير باحتوائها وهذه عادة ابراهيم باشا لقد كان قائد فذا ولكن كان ينقصه الدهاء السياسي والاداري .

ورغم انغلاق السعوديين خلال هذه الفترة على انفسهم فقد حاولوا ما بين اعوام ١٨١١ - ١٨١٢م الاتصال بجيرانهم الايرانيين ليأمنوا شرهم بعد الزحف المصري على بلادهم وحسب قول واردن ان الزعيم الوهابي ارسل رسولا اسمه ابراهيم بن عبد الكريم للاتصال بالحكومة الفارسية وجعلها ترجىء حملتها اذا فكرت بالهجوم على السعوديين وكان هذا الامر قد افزع عبد الله بن سعود وقد استقبلت البعثة السعودية استقبالا حسنا من قبل الحكومة الفارسية ووعده بعدم التحرك ضد السعوديين . ويقول واردن ان الحكومة الفارسية في ذلك الوقت لم يكن لديها الامكانيات للقيام بمثل هذا الجهد. ، وفي الطريق اثناء العودة التقى ابن عبد الكريم بالمقيم (بروس) وانهى اليه مبلغ اللهف التي تساور سيده الى عقد صلة ود وصداقة

متبادلة بينه وبين الحكومة البريطانية مما يعود بالفائدة على الدولتين فتصبح موانىء كل دولة مفتوحة للاخرى وتجري بينهما تجارة حرة لا يعترضها شيء يقوم بها رعاياهما » وقد رفضت حكومة الهند في ذلك الوقت اقتراحات الزعيم الوهابي في توقيع اتفاقية من اي نوع ولكن وجدت من الافضل البقاء على اتصال ودي مع السوديين .

وباحتلال المصريين لشرق ووسط الجزيرة العربية تنتهي المرحلة الاولى من حياة الدولة السعودية الاولى التي بدأت منذ توقيع التحالف بين محمد بن عبد الوهاب والامراء السعوديين وكانت مرحلة متألقة في تاريخ الحركة الوهابية والدولة السعودية . وستعرض للمرحلة الثانية في الفصول القادمة .

الفصل الخامس

القبائل العربية والمقاومة ضد الاستعمار البريطاني

ـ ظهور المقاومة العربية ـ بني كعب ـ القواسم ـ العتوب ـ بني اياس ـ المطاريش ـ بني صعب ـ البوعلي : اصول هذه القبائل منازلها ـ مقاومتها ـ وتطور حياتها

الفصل الخامس

القبائل العربية والمقاومة ضد الاستعمار

يعتبر المؤرخون احتلال البرتغاليين لجزيرة هرمز عام ١٥١٨م على يد القائد المشهور (البوكيرك) بداية للسيطرة الغربية على المحيط الهندي وبالتالي بداية دخول الاستعمار للخليج العربي . فقد رأينا كيف أن أمماً اوروبية اخرى لحقت بالبرتغاليين للوصول الى خيرات بلاد الشرق تحدوهم نفس الدوافع ويعملون للوصول الى نفس الاهداف التي -تدت بالبرتغاليين لركوب البحر وكان وصول هذه القوى الى مياه الشرق الدافئه والمستقرة بداية حروب طويلة فيمابينهم من جهة وبينهم وبين شعوب المنطقة من جهة اخرى والتي قلبت حياة هذه الشعوب رأساً على عقب .

كان العرب أول الشعوب التي اصطدم بها الاستعمار في مسيرته الجديدة منذ أن ركب أول بحار برتغالي مركباً وابحر به متجهاً نحو السواحل الافريقية . وقد رأينا فيما سبق فداحة الاضرار التي لحقت بالسواحل العربية على المحيط الهندي والبحر الأحمر وبحر العرب والخليج وكانت خسارة العرب لاسطولهم التجاري الذي يهيمن على المواصلات البحرية بين الشرق واوروبا وافريقيا اكبر الخسائر التي لحقت بهم في تاريخهم الطويل مما الحق الضرر الفادح بالاقتصاد العربي والهيمنة على طرق المواصلات البرية بين البحار الداخلية والبحر الأبيض المتوسط وأدى ذلك لتأخير تقدمها فترة طويلة حتى وصول او بالأحرى اكتشاف البترول .

بالرغم من توقف المقاومة العربية فترة طويلة إلا أن القرنين السابع عشر الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر سجلا ازدياد المقاومة العربية التي عرقلت مسيرة الاستعمار فترة طويلة من الزمن . وقد رأينا كيف نهض اليعاربة العمانيون من غفوتهم وكانوا طليعة المقاومة العربية والصمود العربي ، فاستطاعوا اخراج البرتغاليين من بلادهم ومن بعض السواحل الآسيوية والافريقية كما اصطدموا بالدول التي قدمت بعد البرتغاليين وطردوا الفرس من بلادهم وأقاموا دولتهم المائية العجيبة من سواحل افريقيا الى سواحل آسيا وظل الاسطول العماني طيلة القرن الثامن عشر يتمتع بسيطرة كبيرة على مياه البحر العربي .

وقد شجع ظهور العمانيين وجرأتهم ضد الغزاة الأوروبيين على تحرك قوى عربية اخرى بدأت قواها تنمو مع بداية القرن الثامن عشر وكانت تحتل شواطىء الخليج الغربية والشرقية حسب قول الرحالة الدانمركي (نيبور) الذي زار المنطقة عام ١٧٦٥ إثر عودته من الهند . وقد لعبت هذه القوى أدواراً رئيسية في تقرير سياسة الخليج لفترة طويلة واشتهرت بنضالها ضد القوى الاجنبية التي تسلطت على المنطقة وكذلك ضد القوى المحلية كالفرس والأتراك . وهذه القوى كانت تعود لقبائل بني كعب والمطاريش وبني صعب والهولة وكانت تعيش على الشاطىء الشرقي للخليج في حين كان الساحل الغربي يضم قبائل القواسم والعتوب ، وبني إياس ، وعلى سواحل البحر العربي كانت قبائل البوعلي .

كان ظهور هذه القوى في فترات تاريخية متقاربة ان لم نقل انها ظهرت في وقت واحد تقريباً ، وكانت تحارب نفس الاعداء كالانكليز والايرانيين والاتراك . وكان لتفرقها السبب الرئيسي الذي ادى بها الى الهزيمة وان جعل منها قوى لا حول لها ولا قوة تخضع لارادة المستعمر خاصة الاستعمار البريطاني الذي كرس التجزئة وجعلها امارات ومشيخات عديدة ، وفرض عليها فيما بعد معاهداته واتفاقياته المعروفة بالأبدية وظلت هكذا حتى الستينات من القرن العشرين فحصلت على استقلالها واصبحت ما يعرف بدول الخليج الكويت . قطر ـ البحرين ـ دولة الامارات العربية المتحدة في حين كان تحالف قبائل السواحل الشرقية مع الايرانيين سبباً في فقدانها لاستقلالها وقوتها البحرية فذابت هذه القبائل ووقعت تحت السيطرة الفارسية ولم يعد يسمع عنها شيئاً . وكانت هذه القبائل تغزو بعضها بعضاً في البحر والبر وأكثر ما يكون القتال في تلك الأيام حول مصائد اللؤلؤ التي كانت مورداً رئيسياً لأغلب القبائل القاطنة على الشواطىء الغربية للخليج وفي منطقة عربستان وخلال الفترة التي نحن بصددها كانت مصدر نشاط قبلي عربي قوي فموقعها الجغرافي في أقصى الجنوب من الحدود الفاصلة بين ايران والعراق وبالتالي الدولة العثمانية التي كانت تحكم العراق وقد جعلها هذا منطقة نزاع بين الدولتين . ولكن سكانها العرب كانوا يرفضون الخضوع لأي منهما لمعرفتهم باهداف كل منهما التوسعية .

فالفرس لهم اطماع قديمة في العراق العربي ، كانوا يحاولون مد نفوذهم إلى عربستان للوصول الى البحر واجتياز الجبال التي تفصل بلادهم عن البحر وهذه

الجبال صعبة المواصلات وتمتد من الشمال الى الجنوب على طول وادي دجله وشط العرب وتتصل بجبال لورستان وبشتكويه والبختياري ويطلق عليها جبال البروز كما رأينا في فصل الأحوال الجغرافية . والواقع ان هذه الجبال تكتسب اهمية كبيرة من الناحية التاريخية والعرقية كما مر معنا فهي تشكل منذ القدم الحدود الفاصلة بين الشعوب السامية والأقوام الآرية اي الحدود الفاصلة ما بين الجنسين العربي والفارسي ، أي أن الفرس كانوا يحاولون مد حدودهم إلى أبعد من الجبال والسيطرة على السهول الخصبة ودلتا شط العرب . وإذا لم تكن لتلك الاراضي في ذلك الوقت اهمية اقتصادية كبيرة فانها الان تحوي جميع ما لدى ايران من ابار بترول .

اما الاتراك الذين كانوا يحكمون العراق فيعتبروا تلك الأراضي امتداداً لوادي ما بين النهرين وجزءاً منه أي من العراق ، وهي ترتبط من الناحيتين التاريخية والعرقية منذ القدم بالأقوام التي قطنت واستقرت في وادي دجلة والفرات خاصة بعد تحرير العراق من السيطرة الفارسية الساسانية على يد القائد العربي سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية وقد دخلت منطقة عربستان تحت حكم العرب بعد معركة السلاسل في العام السابع عشر للهجرة والتي انتصر فيها القائد ابو موسى الاشعري على الفرس . ومنذ ذلك الوقت كانت تشكل جزءاً من ولاية البصرة وفيها ظهرت أعنف ثورة ضد العباسيين وهي ثورة الزنج ، كما ظلت في العهد العثماني تابعة ايضاً لولاية البصرة ولكن العثمانيين لم يستطيعوا الدخول اليها بسبب مقاومة اهلها للحكم التركي ، وقد تعاقبت القبائل السكن فيها مشكلة وحدات مستقلة لم تخضع لاحد من القوى الموجودة في المنطقة، ويقول لونغريك في كتابه اربعة قرون من تاريخ العراق «في أرضي عربستان الزراعية المنبسطة كانت تستقر قبيلة بعد اخرى من زراع الرز ومربي الجاموس ، فكانت تمتلك الأرض وتسيطر على سبل المنطقة ، وتفرض الضرائب على المواصلات النهرية دون معارضة علي حدود طويلة اقلقت ـ أخيراً ـ القوى العظمى في العالم اما من الناحية الجغرافية فتعتبر اراضي عربستان امتداداً لدلتا شط العرب والسهول المحيطة به فهي اراض لحقية تشكلت من الطمي الذي يحمله شط العرب ونهر قارون عندما كان هذا الأخير يصب في شط العرب وهي لا تزال كثيرة المياه تخترقها جداول وانهار صغيرة كثيرة العدد يتفرع بعضها من شط العرب والآخر من نهر قارون بالاضافة الى الأهوار والمستنقعات والجزيرات التي لا حصر لها .

كانت القبائل العربية القاطنة هناك ترفض حكم العثمانيين باعتبارهم غزاة وبالرغم من أن أمير الحويزه ارسل سفارة للسلطان سليمان القانوني يهنئه عند احتلاله العراق ، الا انه كان يعتبر نفسه نداً للسلطان العثماني وكانت سفارته على سبيل المجاملة ودفعاً لشره حسب قول الرواة ويقول لونفريك (إن اتباع امير الحويزة البرمائيون ـ مزارعون وبحارة كانوا لا يألون جهداً في ازعاج الدولة العثمانية ومهاجمة مراكزها الرئيسية وانزال الضربة تلو الضربة بهذه المراكز خاصة في البصرة وشط العرب دون ان يعبأوا بأسطول الدولة العثمانية أو بأساطيل حليفتها ايران أو أساطيل حليفة الطرفين شركة الهند الشرقية ، وقد نشبت فعلاً معارك طاحنة بين هذه القبائل العربية من جهة وبين اساطيل شركة الهند وحلفائها من جهة اخرى وكان معظم هذه المعارك ينتهي بانتصار العرب»

ومن الملاحظ ان الأتراك والايرانيين لم يتفقوا في تاريخهم ولو مرة واحدة إلا عندما كانوا يعدون العدة لقتال القبائل العربية التي اقضت مضاجعهم دون جدوى ويقول لونفريك «إن الأميرال الهندي والمؤلف الشهير سيد علي الذي كان يخدم في اسطول شركة الهند كان قد زار البصرة فشاهد ما هو عليه الوالي العثماني (مصطفى باشا) من ضعف امام القبائل العربية فصمم على انقاذه من هذه الورطة» ويقول انه اعانه بخمس سفن حربية بريطانية لمحاربة العرب اعداء الطرفين في الأنهر المتفرعة من شط العرب وقارون وشجعه لتوحيد الحملات ضدهم . وقد صرع الوالي العثماني بامر القائد الهندي وحاول توجيه الحملات ضد القبائل ولكن جميع هذه الحملات التي وجهت كان مصيرها الفشل بعد أن فقدت عدداً من رجالها ثم تلك المغامرة ، وقد ذكر السيد علي أن حكم الوالي التركي لم يكن ليتعدى خندق البصرة إلا قليلاً وإن كان سكان الأهواز الجنوبية لم يظهر منهم ما يدل على امكانية التعاقد معهم بصورة دائمة لمناعة مواقعهم وبسالتهم في الدفاع عنها . وقد استمرت المعارك بين سكان عربستان وكل من ايران والأتراك وشركة الهند طيلة قرن من الزمن أي منذ عام ١٧٤٧م عندما اصبح بنو كعب القوة الرئيسية في شمال الخليج ، وكان كل من الأتراك والايرانيين يعمل لكسب ولائهم دون جدوى لأن هؤلاء كانوا يحتقرون الطرفين على حد سواء حسب (قول لونفريك) .

في القرن السادس عشرظهرت في عربستان دولة المشعشعين التي مدت نفوذها الى القسم الجنوبي والأوسط من العراق وكان مركزها (الحويزه) وفي اوائل

القرن السابع عشر شهدت المنطقة ولادة اتحاد قبلي قوي لا مثيل له فيا مضى جمع قبائل بني مالك والأجود وبني سعد ومئات الفروع القبلية الصغيرة التي تعيش في كنفها او حليفة لها وكونت قوة هائلة يصعب التغلب عليها . ويقول لونفريك «إن هذا الاتحاد القبلي هز المنطقة وعرقل حركة الاستعمار وأكثر من خلق المصاعب لها وسبب الارتباك لا في عربستان وشط العرب فحسب بل في الخليج العربي والمحيط الهندي .

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ظهر بنو كعب كقوة شابة جديدة وسيطرت على المنطقة ويرجع اصل بني كعب الى نجد ومنها توجهوا الى موطنهم الحالي في القرن السابع عشر على حد قول (نيبور) حيث استوطنوا اقصى بقعة تقع في شمال الخليج العربي بعد ان ازالوا حكم الافشاريين الاتراك عنها وامتد نفوذهم الى جميع المنطقة ويذكر نيبور «ان اراضي بني كعب كانت تمتد من صحراء جزيرة العرب الى اراضي هنديان وشمالاً الى امارة الحويزة وهي مدينة اخرى سكانها من العرب» وكانت عاصمة بني كعب مدينة (الدورق) ومنها كان اسطولهم يتصدى للقوى الاخرى . وفي عام ١٧٥٠ تولى رئاسة بني كعب الشيخ سلمان وكان ذكياً شجاعاً بلغت شهرته اوروبا بسبب صراعه مع الانكليز وأسره لبعض سفنهم ودام حكمه حتى عام ١٨٦٦ وامتد نفوذه الى كل الاراضي ما بين بندرريق وشط العرب ، وكان يعرف دقة موقع بلاده الجغرافي الحساس واطماع جيرانه في بلاده لذلك كان يراوغ كل الاطراف القوية للحفاظ على استقلاله ولم يدفع الجزية لأحد . وعندما ابتدأ كريم خان زند سيطرته على المناطق الجنوبية من ايران حاول ضم بلاد بني كعب الى بلاده وهاجمهم عام ١٧٥٧ ولكنه فشل بسبب مقاومة الكعبيين له كما انه اضطر للتراجع بعد حدوث القلاقل في داخل بلاده ، وكان فشل كريم خان في القضاء على بني كعب سبباً في ازدياد قوتهم وشعورهم بالتفوق الحربي ، فأخذوا بالتعرض لجميع السفن الذاهبة للبصرة ايا كانت ، وقد سعى الشيخ سلمان لتكوين قوة بحرية تجعله سيد الخليج مستفيداً من تجارب العمانيين وخبرتهم .

وقد دشن اول مركب له عام١٧٥٨ حسب قول نيبور ، ولم يأت عام١٧٦٥ حتى اصبح في حوزته عشر مراكب (جلبوتات Gallivats) كبيرةونحو سبعين مركباً صغيراً وبهذا الاسطول بدأ الشيخ سلمان يتحدى القوات البحرية الايرانية

والتركية وبحرية شركة الهند الشرقية ، والواقع ان الشركة هي الوحيدة التى كان لها قوة بحرية يعتد بها وكانت الوحيدة المتضررة من نشاط الكعبيين .

بعد عام ١٧٦٣ اصبح كريم خان سيد ايران وخاصة المناطق الجنوبية المحاذية لمناطق بني كعب وكان يعتبر بلاد بني كعب او ما يعرف حالياً بعربستان امتداداً لبلاده رغم انفصالها عن الداخل بالجبال العالية . لذلك صمم على فرض سيطرته عليها واخضاع قبائلها له ولما لم يكن بامكانه لوحده التغلب على هذا الشعب القوي الذي يعيش نصفه في اليابسة ونصفه في الماء ، لذلك فكر بالاستعانة بالانكليز وكانوا في وضع جيد في المنطقة بعد تغلبهم على المصاعب التي واجهوها في الهند ونقلوا وكالتهم من بندر عباس الى البصره . وقد حاول الانكليز الاستفادة من هذه الفرصة لتقديم الطلبات لكريم خان وقد عرض عليهم هذا فتح وكالة لهم في بو شهر مع منحهم امتيازات تجارية مغرية وتم الاتفاق على ذلك عام ١٧٦٣ ، وقد تطوع هذا بدفع نفقات السفن البحرية البريطانية اذا ما ساعدته في اخضاع (المير مهنا صاحب ريق) الذي كان يرفض الخضوع لكريم خان وتطوع كريم خان بتسليم (ريق) الى شركة الهند الشرقية ومن المستغرب ان يلجأ كريم خان للتنازل عن بعض من سيادة بلاده على اراضيه في سبيل ضرب القبائل العربية واخضاعها له بالقوة ، وما من شك ان الانكليز كانوا اشد خطراً على بلاده من هذه القبائل ، وقد وافقت حكومة بومباي على اقتراحات كريم خان وهذا شيء طبيعي فهي تستطيع ضرب عصفورين بحجر واحد فمن جهة تقضي على مقاومة بني كعب وتهديداتهم ومن جهة اخرى تستغل حاجة كريم خان لها لتحصل منه على قواعد تجارية وسياسية جديدة . وقد زودت الشركة كريم خان بوضع سفينة حربية تحت تصرف وكيلها لاستخدامها في الكيفية التي تضمن مصالح الشركة ثم المصالح الانكليزية ـ ولم يكتف كريم خان بالانكليز في طلب المساعدة بل تعداه الى الاتراك والتعاون بين الثلاثة على تدمير بني كعب وعلى هذا الاساس قاد كريم خان عام ١٧٦٥ جيشا فارسيا بنفسه ضد الكعبيين مستنداً الى دعم كل من الانكليز والاتراك له ، كما لبت الشركة طلبه بمساعدة سفن بو شهر في قتالهم ضد المير المهنا صاحب جزيرة خارج ، وارسلت احدى السفن الانكليزية للهجوم على جزيرة خارج والقضاء على المير مهنا . وفي الوقت الذي كان كريم خان متجهاً بجيشه نحو الدورق عاصمة بني كعب يامل وصول الاتراك الى المنطقة الا ان الاحداث لم تجر على الصورة التي

ارادها كريم خان ، فقد فشلت الحملة البحرية الانكليزية على مير مهنا ، فاضطر كريم خان للتراجع بجيشه رغم تدميره لعاصمة الكعبين الدورق . وقد استطاع الشيخ سليمان من خرق الحصار الذي ضرب عليه من قبل كريم خان واجتاز شط العرب . ونزل في الأراضي العثمانية ونقل عاصمته من الدورق الى (غوبان) وفي حزيران عام ١٧٦٥م وبعد توقف الحرب التي شنها الانكليز على المير مهنا ، أخذ الكعبيون يهاجمون الانكليز واسروا ثلاثاً من سفنهم في شط العرب ، وسرعان ما جهزت حكومة بومباي عام ١٧٦٥م اكبر حملة بحرية وجهتها نحو الخليج ، وطلبت مساعدة القوات العثمانية في حربها ضد بني كعب . وتم الاتفاق في البصرة على قيام حركة مشتركة ، وعندما وصلت الحملة الانكليزية المؤلفة من اربع سفن اوروبية الصنع وفصائل صغيرة من الجنود الانكليز والاوروبيين من المشاة والمدفعية الى البصرة لم يكن الأتراك قد انهوا استعداداتهم فبدأ الانكليز بروح من الغرور وشعور التفوق بالهجوم وبالقيام بعملياتهم البحرية والبرية منفردين ابتداء من خورموسى وفي مايس ١٧٦٦ منوا بهزيمة كادت ان تقضي عليهم جميعهم لولا تراجعهم السريع ، وعندما تدخل الأتراك كان الموقف سيئاً بالنسبة لهم وللانكليز وحاولوا استعادة السفينتين الانكليزيتين المأسورتين دون جدوى رغم الخسائر التي تكبدوها ، فقد دمر الكعبين السفن واضطروا الاتراك للتراجع وفي ٢٣ ايلول ١٧٦٦ حاول الانكليز مرة ثانية الهجوم على مواقع بني كعب .[illegible]رق بعض مراكبهم الا ان الانكليز ردوا على اعقابهم بعد ان قتل احد الضباط القادة الانكليز وخسروا عددا من مدافعهم وصناديق الذخيرة التي ساعدت الكعبين حسب قول لوريمر .

بعد ان اخذت الاحداث تتجه نحو نجاح بني كعب ويتطور الموقف لصالحهم قلب كريم خان الصفحة وحاول التقرب من الكعبين مظهراً الصداقة لهم . فتدخل في الحرب ١٧٦٧ لصالحهم مؤكداً ان بني كعب من رعاياه وطلب من الأتراك والانكليز الانسحاب من عربستان ووعدهم بالتعويض عن الخسائر التي لحقت بالطرفين من جراء حملتهم على بني كعب فانسحب الاتراك من المعركة بعد أن عانوا الشي الكثير وعاونوا الانكليز في حربهم ضد بني كعب منذ عام ١٧٦١ الى عام ١٧٦٥ ، وقد احتج الانكليز على انسحاب الأتراك وارسلت حكومة بمباي نجدات قوية ، ولكن لم يكن بامكان الانكليز مواصلة الحرب لوحدهم بدون مساعدة الأتراك الذين كانوا يعملون في البر والانكليز بالبحر ، ويقال ان الشيخ سليمان

استطاع رشوة الاتراك بالمال فانسحبوا من المعركة وانهت المعركة بدون نتيجة حاسمة .

كان لطبيعة البلاد اثر حاسم في مقاومة الكعبين لجميع القوى التي حاولت القضاء عليهم فالشبكة المعقدة من المستنقعات والممرات المائية التي لا يعرفها احد غيرهم كانت عونا لهم على الدفاع والهجوم بآن واحد . فكانوا عندما يتعرضون لخطر ما يدخلون مخابئهم ضمن الأهوار والمستنقعات والأجمات التي يصعب اكتشافها وحتى الوصول اليها لمن لا يعرفها ومعهم مراكبهم واسلحتهم وينصبون الكمائن للمهاجمين ويقضوا عليهم ، وكانت ارضهم غنية بالمواد الغذائية التي تساعد على القتال كالبلح والتمر والخضار بانواعها فهم مزارعون كما رأينا بالاضافة الى كونهم بحارة وصيادون

اصر الانكليز بعد فشلهم المتكرر على ضرب الحصار على الكعبيين وظل الحصار قائماً لمدة عامين بدون ان يتأثر الكعبيون ، وكانت نتيجة الحصار ان المحاصرين الانكليز هم الذين تعبوا ووصلوا في نهاية العامين الى حالة يرثى لها من حيث النقص في المؤن والرجال واضطروا الى رفع الحصار وقد بقي بنو كعب فترة طويلة شوكة بجانب التجارة الانكليزية والفارسية والعثمانية رغم صيحات الوكالة التجارية في البصرة والمطالبة بالقضاء عليهم .

وقد استفاد كريم خان من حمايته لبني كعب فطلب مساعدتهم في احتلال البصرة عام ١٧٧٥م وساهموا فيها مع أساطيل بندر ريق وبو شهر وكانوا السبب الرئيسي في نجاح كريم خان في احتلال البصرة . وكانت غلطة تاريخية من الكعبيين فقد ظهروا وكأنهم جيش من جيوش كريم خان رغم انهم كانوا يرفضون وصايته . وحافظوا على استقلالهم ، وبعد موت كريم خان عام ١٧٧٩ وبعد انسحار النفوذ الفارسي عن السواحل العربية ظل الكعبيون لفترة طويلة يسيطرون على طرقات المنطقة البحرية والنهرية . وتحالفوا مع قبائل بو شهر وبندرريق في حروبهم ضد قبائل العتيبة ، وفرضوا الجزية عليهم ، كما هاجموا ميناء القطيف وتعاونوا مع القواسم ما بين عامي ١٨٠٠ - ١٨١٢م ضد الانكليز . وقد اصطدم الكعبيون ايضا بالعتوب مرة ثانية وكان النصر للعتوب هذه المرة في المعركة البحرية (بالرقة) عام (١٧٨٠) . كما ضعف حلفاء الكعبيين من عرب بو شهر وفقدوا البحرين عام ١٧٨٢م التي احتلها العتوب ولم يدخل الكعبيون في معاهدة الصلح البحرية رغم

حروبهم الطويلة ضد الانكليز ، ويقول لونفريك «إن قبيلة بني كعب لم تضعف الا بعد ان تخلفت عن التطور العلمي» ومنذ عام ١٨١٢ وصلت المنطقة قبائل المحيسن وسكنت بقرب بني كعب ودخلوا مع بعضهم بعلاقات جيدة وكانت علاقات المحيسن بالانكليز جيدة وظل الكعبيون على علاقات سيئة مع الانكليز الذين ثبتوا اقدامهم في العراق ، وحصلوا على احتكار النقل البحري (النهري) في جنوب العراق من الحكومة العثمانية وأقاموا الوكالات التجارية في كل من بغداد والبصره ، وسمح لهم باقامة قوة عسكرية دائمة لحماية القنصلية البريطانية في بغداد ، وقد حاول المحيسن الدخول بمعارك مع الكعبيين بمساعدة الانكليز ولكنهم فشلوا ، وأخيراً استطاعت مشيخة المحيسن قبل نهاية القرن التاسع عشر التغلب على بني كعب وضم مشيختهم في منطقة الفلاحية وامتدت سلطة المحيسن واتسعت بشكل كبير وقضوا على المشعشعين في الحويزة ، وكانوا في تلك الفترة يناصبون الانكليز العداء ايضا ثم تغيرت الامور عام ١٨٩٧ بعد اغتيال الشيخ مزعل وإستلام الشيخ خزعل على الذي اسس امارة المحمرة والتي قضى عليها رضا شاه بهلوي في بداية القرن العشرين بالتعاون مع الانكليز .

اما القواسم فكان ظهورهم في المناطق الجنوبية الشرقية الواقعة على الخليج العربي . وكانت المناطق الشمالية الشرقية من الخليج خلال تلك الفترة تشهد هي الاخرى ظهور قبائل بني كعب . ويطلق المؤرخون عادة كلمة القواسم (او الجواسم) على كل القبائل التي كانت ولا تزال تقطن هناك . اضافة لقبيلة القواسم المعروفة . وقد اختلف المؤرخون حول اصل القواسم فمنهم من يعيد نسبتهم الى القبائل النجدية المعروفة باسم (بني ناصر) وقد وصلوا الخليج في اوائل القرن الثامن عشر الميلادي ، وانتشروا فيما يعرف في ذلك الوقت باسم (ساحل عمان الصير) ما بين رأس مسندم (في عمان حاليا) الى (ديره) التي كانت تشكل القسم الثاني من مدينة دبي الحالية . وكان تعيش في المناطق قبائل الشحوح ، وزهير ، وقتب وقبائل النعيم الكبيرة ، وبعض المؤرخين يعيدون نسبهم للقبائل العراقية التي كانت تقطن في وسط العراق حول مدينة (سامرا) اما المعاصرون من القواسم فيقولون ان جدهم هو قاسم بن محمد الذي وصل المنطقة على رأس جيش اموي في ولاية الحجاج للعراق لقتال الاباضية في عمان . وأول من عرف من

القواسم في العصر الحديث هو الشيخ قاسم جد الشيخ راشد بن مطر شيخ القواسم المشهور ، ويقال ان الشيخ قاسم كان قد نصب لنفسه خيمة في نقطة تقع على شاطىء عمان الصير وعلى رأس ممدود في البحر . وكان يشعل فيها النار ليلا لتهتدي بها السفن عند دخولها الخليج ولذلك اطلق على الرأس المذكور رأس الخيمة القريب من مدينة (جلفار) القديمة ويقال ان مدينة رأس الخيمة الحالية تقع مكان خيمة الشيخ قاسم واول من اشتهر من القواسم هو الشيخ رحمة بن مطر الذي انضم الى الامام العماني محمد بن ناصرالغافري خلال الحروب الاهلية التي وقعت في عمان بين الهناوية والغافرية بعد سقوط اليعاربه وبعد موت رحمه خلفه اخوه راشد بن مطر الذي اعلن استقلاله في ساحل عمان وانفصل عن الامامة العمانية واسس دولة القواسم .

يمكن تقسيم تاريخ القواسم الى ثلاثة مراحل :

ـ المرحلة الاولى : وتمتد ما بين ١٧١٨ حتى ١٨٠٣ اي ما بين انضمام رحمه بن مطر للهناوية واستقلاله عن عمان .

ـ المرحلة الثانية : وتمتد ما بين ١٨٠٣ ـ ١٨١٣ وتعتبر فترة العصر الذهبي للقواسم .

ـ المرحلة الثالثة : وتمتد ما بين ١٨١٨ ـ ١٨٢٠ حتى الوقت الحاضر وفيها تم تدمير الاسطول القاسمي وتجزأت دولتهم وفرضت عليهم اتفاقيات السلام .

ومما يجد ذكره ان ظهور القواسم كان في منطقة عرف سكانها منذ القدم بنشاطهم البحري وقد ظهر منهم افضل الربابنة العرب وعلى رأسهم امير البحر احمد بن ماجد . وقد لقوا الامرين من العدوان البرتغالي وهيمنته الدائمة عليهم لذلك كانت النفوس مهيأة للانطلاق واستعادة المجد البحري المفقود . وقد ورث السكان عن اجدادهم فنون البحر وملاحته وبناء السفن العربية المعروفة باسم (داو) . وقد استطاع القواسم بناء اسطول كبير اخذ يدر عليهم الارباح الكبير بسبب الاجور العالية التي كانوا يتقاضونها لقاء خدماتهم في عمليات النقل البحري والتجارة ونقل المسافرين وهذا ما ساعدهم على الحصول على الاسلحة لحماية الاسطول الكبير لذلك اخذوا يمدون نفوذهم الى السواحل الشرقية . وسيطروا عليها وبنوا في جزيرة قشم ميناءا خاصا بهم هو ميناء (باسيدوا) وقد ادى ذلك للاضرار بالتجارة البريطانية التي كانت تعتمد على ميناء بندر عباس (جمبرون) ولها عائداته

الجمركية . وزاد في ذلك المصاعب التي اخذ الانكليز يعانون منها من جراء الاحتلال الافغاني لفارس ١٧٢٢ - ١٧٢٩ وما يتبعه من فوضى . لذلك لم يعد بمقدور الانكليز السكوت على منافسة القواسم لهم (رغم ان القواسم هم اصحاب البيت) وادى الى قيام شركة الهند الشرقية البريطانية بحمله ضد الميناء القواسمي في (باسيدوا) عام ١٧٢٧ م وهددوا بتدميره . مما ادى بشيخ القواسم / حاكم الميناء/ للرضوخ للامر الواقع وتعهد بدفع التعويض للانكليز عن خساراتهم المتأتية من النقص في عائدات ميناء بندر عبابس . وكان هذا اول صدام بين الانكليز والقواسم وربما كان له اثاره البعيدة في علاقات الطرفين المستقبلية (كما سنرى) .

خلال المرحلة الاولى من تاريخ القواسم وقعت احداث هامة على شواطىء الخليج كان لها اثار عميقة في حياة القواسم بسبب قربهم من مراكز الاحداث ان كان ذلك في فارس او داخل عمان ، ففي فارس ادى سقوط الصفويين على يد الافغانيين (كما رأينا) الى بداية مرحلة طويلة من الفوضى والتفكك داخل ايران . ورغم هدوء الاحوال خلال فترة حكم نادرشاه التي دامت ما بين ١٧٣٦ - ١٧٤٧ عادت الاوضاع تسوء في داخل البلاد وعلى بالسواحل بعد مقتله . فقد ابتدأت القبائل التي كانت تعيش على الساحل الشرقي للخليج تستعيد قوتها ونشاطها بعد الضغط العنيف الذي مارسه نادر شاه عليها وقد ظهر في هذه الفترة (الملا علي شاه) كاقوى شخصية على الساحل الشرقي ، وكان هذا عربي الاصل والمولد وعمل اميرا للبحر في اسطول نادر شاه وحاكما لميناء بندر عباس المركز التجاري الهام وكان الملا شخصية غريبة ذات مطامع بعيدة ، وكان لديه اسطوله الخاص فامتد نفوذه الى مختلف المناطق القريبة من بندر عباس ، وكان عليه مقاومة قادة الحرب الفرس الذين ظهروا بعد نادر شاه الذين كانوا يرهقونه بطلباتهم الدائمة للمعونة المالية لتحقيق اغراضهم السياسية ، لذلك لم يجد سوى القواسم كسند له وللتعاون معه وعقدت اتفاقية بين الطرفين عام ١٧٤٧ للتعاون دامت حتى عام ١٧٦٣ ، وقد تزوج شيخ القواسم راشد بن مطر ابنة الملا مما زاد في هيبة القواسم وكان هذا الاتفاق سببا في امتزاج القواسم بامور فارس الداخلية وادى الى صراع طويل بينهم وبين القبائل العربية القاطنة على الساحل الشرقي خاصة قبيلة بني (معين) التي كانت تعيش حول ميناء بندر عباس وكان الخلاف حول السيطرة على الميناء المذكور وعلى الجزر القريبة من الساحل كجزيرة قشم وميناو ولافت وجزيرة هرمز ، وكانت لنجه وميناؤ هـا دائما

تحت سيطرة القواسم . وقد ظل الشيخ عبد الله بن معين الذي كان يحكم بندر عباس باسم كريم خان زند يضع العراقيل امام القواسم حتى وفاته واختلاف ابنائه على الحكم بالاضافة الى الفوضى التي دبت في المنطقة في اعقاب موت كريم خان ، مما جعل القواسم يستفيدون من ذلك ليعيدوا سيطرتهم على المنطقة عدا ميناء بندر عباس ، وقد ساعد على ذلك زواج صقر بن راشد من احدى بنات الشيخ عبد الله بعد وفاته وتسوية الامور بين القواسم وعائلة الشيخ عبد الله ، وكان الشيخ راشد قد اعتزل الحياة السياسية بعد حكم طويل وخلفه ابنه سلطان عام ١٧٧٥ م وكان القواسم قد اصبحوا قوة بحرية وبرية لا يستهان بها واستطاعوا ان يديروا شؤ ون الخليج التجارية دون منازع لفترة طويلة من الزمن .

اما احداث عمان فكانت اكثر التصاقا بحياة القواسم من احداث فارس باعتبارهم طرفا من اطراف النزاع الداخلي الذي استقر في عمان بعد سقوط اليعاربة وما تبعها من حروب اهلية بين الهناوية اليمنيين والغافرية العدنانيين ، حلفاء القواسم . وقد ادى ذلك الى انفصال رأس الخيمة عن التبعية العمانية ، كما تعاونوا مع العمانيين ضد الفرس عند احتلال هؤ لاء لعمان زمن نادر شاه بدعوة من الامام سيف بن سلطان اليعربي . وبعد خروج الايرانيين من عمان على يد الامام احمد بن سعيد عام ١٧٤٧ اعترف هذا للغافرية باستقلالهم في بلاد الظاهرة والبريمي وساحل عمان الشمالي والغربي بعد قتال طويل مقابل اعتراف هؤ لاء بامامته على بقية البلاد بمافيها موانىء الصيد وقد رفض سكان ميناء رأس الخيمةالقواسم الاعتراف بتبعيتهم للامام فوجه اليهم حملة بحرية عام ١٧٦٢ ضمت حوالي اربع عشرة سفينة حربية فحاصر هذا سواحل الخليج ومنع عنها المؤ ن والاتصال بالخارج فدانت له كل السواحل وظلت راس الخيمة على رفضها، ولكن في عام ١٧٦٣ توجه الشيخ صقر القاسمي الى مدينة الرستان في عمان حيث يقيم الامام احمد ، وكان يرافق صقر عمه عبد الله فقابلا الامام واتفق الطرفان على ان يسحب الامام اسطوله من امام ساحل رأس الخيمة وغيرها ، شريطة اعترافهم بسيادته على بقية السواحل واعترافه باستقلال رأس الخيمة . وبقي هذا الاتفاق معمولا به عشرين عاما انصرف فيهما القواسم لتقوية اسطوله البحري وزيادة نفوذهم وقد رفض القواسم التعاون ع الامام لاحتلال البحرين .

في المرحلة الثانية من تاريخ القواسم الذي يعتبر عصرهم الذهبي دخل عنصر جديد على مسرح الاحداث وهو ظهور الدعوة الوهابية ووصولها الى الخليج العربي ١٧٩٨ . ١٨٠٥، ومن قاعدتهم في البريمي انطلق الوهابيون نحو الخليج وعمان لداخل وعبروا الجبال العمانية ووصلوا الى مسقط ، وانضمت قبائل كثيرة لدعوتهم ومنها القواسم وبنو علي ولم ينقذ الامام العماني سلطان بن الامام احمد منهم سوى موت الامام عبد العزيز في الدرعية عام ١٨٠٣ واضطرارهم للعودة الى البريمي ، وقد عقد القواسم اتفاقا للتعاون مع الوهابيين عام ١٨٠٣ والعمل على نشر الدعوة الوهابية ما وراء البحار وقد قلبت هذه الاتفاقية حياة القواسم رأسا على عقب فقد احسوا بالقوة والدافع الديني . وبالرغم من أن السعوديين لم يكونوا قوة بحرية لمعاونة القواسم في البحر الا ان قوتهم البرية كانت ساحقة وتستطيع حماية القواعد القاسمية في البر وبذلك امن القواسم الهجوم عليهم من الخلف خاصة من ائمة عمان ، وقد اصبح لعملهم الهدف والعقيدة في محاربة الكفار اينما كانوا وازالة البدع .

عاصر الشيخ صقر بن راشد بدء الدعوة الوهابية وتبنى فكرتها منذ ظهورها واخذ الاسطول القاسمي يجوب البحر يدعو القبائل للانضمام اليهم في محاربة الكفار على طول سواحل الخليج حتى سيطروا على الاقسام الجنوبية منه وعلى الساحلين الغربي والشرقي واقاموا القواعد الثابتة على طول هذه ا لسواحل وامتد نفوذهم البحري الى منطقة بحرية هامة يزيد طولها على ثلاثمائة كيلومتر من جنوب شبه جزيرة قطر الى مدينة خورفكان الحالية والقريبة من مسقط ، في حين كان السعوديون يهيمنون على الشواطىء الشمالية الشرقية للجزيرة العربية بعد سقوط دولة بني خالد وبلغت قوة القواسم ذروتها في السنين العشر من القرن الثامن عشر وكان اسطولهم يضم حوالي ستين الى سبعين مركبا كبيرا يضاف اليها اكثر من ثمانمائة زورق (داو) صغير يحمل اكثر من عشرين الف مقاتل ، ويقول جان جاك بيربي في كتابه عن الخليج العربي « كان القواسم بهذا الاسطول يتحدون اكبر البوارج البريطانية المقاتلة وافضلها تسليحا ، كما اصطدموا بقوات سلطان مسقط وانزلوا بها الخسائر الفادحة ، ولم تقتصر الخسائر على المعارك البرية والبحرية بل فقدت السلطنة اجزاء كثيرة من اراضيها .

وكنتيجة للقتال ما بين الوهابيين والقواسم من جهة وسلاطين مسقط من جهة اخرى فقد السلطان سلطان بن احمد حياته عام ١٨٠٤ عندما اغتاله القواسم في لنجه ، وكان هذا عائدا من البصره ، كما رأينا في فصل سابق ـ وكان سلطان يحاول عبثا الاتصال بالاتراك والمصريين للتعاون معهم على قتال الوهابيين . وقد فجر هذا الاغتيال القتال مرة ثانية بين سلاطين مسقط والقواسم ودام طويلا واضعف الطرفين وتمكن الانكليز من السيطرة عليهما ، وكان الشيخ صقر قد توفي عام ١٨٠٣ وخلفه سلطان بن صقر الذي حمل لقب امام الغافرية . وقد حارب حكام مسقط المناويين واوغل في بلادهم ومن اثاره قلعة الغبي قرب مدينة عبري في عمان الداخلية .

كان كل من القواسم والانكليز في بدء نشاطهم الحربي والتجاري يعملون كل من جهته على عدم الاصطدام بالاخر فلكل منهما مشاغله التي تمنعه من ذلك . وعندما استولى القواسم على السفينة (ياسين) التي كانت تحمل العلم الانكليز عام ١٧٩٧ وحاولا الاستيلاء على الطرادة (فايير) الراسية في ميناء بوشهر لاستخدامها في القتال ضد اسطول سلطان بن احمد الذي كان متوقعا مروره في / لنجه/ اعتذر القواسم للانكليز عن عملهم باعتبار ان الذي قام بهذه المحاولة هو الشيخ صالح القاسمي الذي يعمل لوحده بعيدا عن قبيلته ، وقد اوضح القواسم للانكليز بانهم ليسوا ضدهم ولكنهم ضد سلاطين مسقط ولا دخل للانكليز بالحرب بينهم ولن يهاجموا السفن الانكليزية .

وكانت شركة الهند من طرفها تخطب ود القواسم وتقدم لرؤسائها الهبات والهدايا بسبب الاوضاع السيئة التي كانت تمر بها الشركة إن كان في الهند او الخليج خاصة الاعوام ١٧٧٩-١٧٩٧ حيث كانت الشركة مرهقة بالحروب مع المهارتا ومع سلطان ميسور والتي خرجت بدون نتيجة حاسمة ، بالاضافة الى التهديدات الفرنسية في المحيط الهندي اثر الحروب التي وقعت في اوربا (الحروب النابليونية) ، مما جعل الانكليز لا يلتفتون كثيرا للخليج ويركزون جهدهم خاصة لمنع تسرب الفرنسيين الى المحيط الهندي ودول المنطقة كايران والعراق التركي وسلطنة عمان . التي كانت هدف لمباحثات دبلوماسية ـ كما رأينا ـ بين الفرنسيين وسلاطين مسقط . في الوقت ذاته كانت بريطانيا تنظر بعين الحذر والقلق الى ازدياد قوة الوهابيين في البر وامتدادها شرقا وجنوبا وتهديدها لعمان والخليج ثم الى ازدياد قوة القواسم في البحر خوفا من استيلائهم على جميع السواحل مما يجعلهم قوة حربية

وبحرية لا يمكن التغلب عليها ، تهدد مصالح بريطانيا التي كانت تعمل جاهدة لمنع اي وحدة تضم اطراف الخليج ، ومنع الاتصال بين القوى المختلفة ، وكانت تحيك الدسائس بينهم لكي تستطيع الانفراد بكل واحدة على حدة وتقضي عليها ، وخلال هذه الفترة وقع الاعتداء على السفينة البريطانية(ياسين) ثم على السفينة فايير التي ذركناها سابقا ، ولكن نتائج هذه الحادث طوقت بسرعة بتقديم القواسم اعتذارهم للشركة ورضاء الشركةعن هذا الاعتذار بسبب احوالها الصعبة التي لاتساعدها على قتال القواسم في ذلك الوقت مستعدة للانقضاض عليهم في اول فرصة تسنح لها خاصة عندما تنتهي مشاكلها وتستريح من المناطق الاخرى .

حتى عام ١٨٠٤ لم تقع حوادث ذات اهمية بين الانكليز والقواسم حسب قول (واردن) مساعد المقيم في الخليج عام ١٨١٩ في تقريره المقدم للشركة عدا الهجومين على الباخرتين (ياسين) والفايير وكان القواسم يكنون كل احترام للعلم البريطاني ويقول « فلما امتد نفوذ الوهابيين حتى شمل (الصير) ووقعت حكومة مسقطبعد وفاة السيطسلطان تحت النفوذ الوهابي ايضا تغيرت طبيعة مختلف القبائل تغييرا ملموسا واتجه اهتمام الحكومة البريطانية الى خنق روح القرصنة التي بدأت تنكشف في تلك الفترة » ، والواقع ان القبائل التي تبعت الدعوة الوهابية احست بقوتها ، لانها اصبحت حليفة لقوة برية كبيرة امتد نفوذها لاغلب الجزيرة العربية ما بين حوران والخليج ، كما اثارت الدعوة الحماس الديني ضد الاجانب ، وكانت بريطانيا التي كانت تسيطر على الخليج اول من احس بالخطر الداهم الذي اخذ يهدد نفوذها بقوة بعد امتداده للبحر خاصة بعد الاتفاق ما بين القواسم والسعوديين عام ١٨٠٣ . وجاءت الأحداث تباعاً ، فقد استطاع القواسم قتل الأمام.سلطان بن احمد عام ١٨٠٤ خلال مروره من مدينة لنجه وادى هذا الى صراع بين ورثته فيما بينهم وبينهم وبين القواسم ، وقد خلف سلطان ابناه سالم وسعيد واستطاعا الاحتفاظ بمدينة مسقط وما جاورها ، ولكن عمهما قيس بن احمد صاحب صحار قاومهما ونجح في حصارهما في مسقط وهنا تخلى الاثنان لبدربن سيق لادارة شؤ ونهما . وكان هذاطموحاحاول مراراالوصول الى الحكم خلال امامةابن عمه سلطان ففشل فما كان منه الا ان انضم للوهابيين الذين ساعدوه ودخل عمان في الوقت الذي كان فيه قيس يحاصر اولاد اخيه في مسقط ، وقد استطاع بدر بمعونة

الوهابيين ابعاد قيس عن الحكم وتوليه هو زمام الامور في مسقط وعندما كاد ان يقضي على قيس انسحب السعوديون لاسباب داخلية فعقد هذا صلحا مع قيس على اساس بقائه واليا لصحار ، ثم توجه على رأس قوة بحرية لاسترداد ميناء بندر عباس من يد الملا حسين شيخ قشم وقد استطاع بدر استعادة بندر عباس وهرمز وبذلك حرم القواسم من التموين الذين كان يصلهم من هاتين الجزيرتين . ثم ابتدأ بالتعاون مع الانكليز للقضاء على القواسم بعد ان شعر بقوته ، وكان الانكليز قد دخلوا في صراع مع القواسم عام ١٨٠٥ عندما حاول هؤلاء الاستيلاء على السفينتين (شانون ، وتريمير) كما حاولوا الاستيلاء على سفينة شركة الهند الشرقية الضخمة (مورننجتون) وقد اثار هذا العمل الشركة التي كانت قد ارتاحت من الحروب الهندية وابتعاد الخطر الفرنسي عن الهند وهدوء الاحوال مع فارس ، لذلك صممت على محاربة القواسم والقضاء عليهم واتهمتهم بالقرصنة والنهب . وكانت هذه احدى الحجج الرئيسية التي كانت تتهم بها بريطانيا القبائل للتدخل في شؤونها او القضاء على نفوذها ، لذلك اعطيت التعليمات للمقيم البريطاني بضرب القواسم بالتعاون مع بدر الذي كان موجودا قبالة جزيرة قشم مع اسطوله لاستعادتها . وفي حزيران ١٨٠٥ م اجتمع الطرفان وحاصروا اسطول القواسم الموجود بقرب جزيرة قشم ، فاضطر هؤلاء لطلب السلام وعقدت اتفاقية بين الطرفين في ٦ شباط ١٨٠٦ تعهد فيها القواسم بعدم الاعتداء على السفن البريطانية وتقديم الدعم لها مقابل السماح للقواسم بالاتجار مع الهند ، وكان المقيم البريطاني ستون يرافق الحملة من على السفينة الضخمة مورننجتون ، وكانت حكومة بمباي تصر على دفع التعويضات لها عن الخسائر المادية التي الحقها القواسم بها ولكنهم بناء على نصيحة ستون اكتفوا باستعادة هيكلي الباخرتين المستولى عليهما وعدم تنفيذ عقوبات يمكن ان تسيء للفرس والوهابيين .

بقي القواسم امناء لتعهدهم حوالي عامين ولم يتعرضوا للسفن البريطانية ، وفي البر حاولوا اعادة العلاقة مع بدر بن سيف بن احمد والتعاون معه ضد عمه قيس ابن احمد حاكم صحار ولكن هذا رفض مصالحتهم الا اذا اخذ بثأر عمه سلطان الذي قتل في لنجه من قبل القواسم . ولكن بدر الذي كان يحكم باسم ابن عمه سعيد بن سلطان قتل بيد هذا الاخير بدفع من اصحابه الذين لم يغفروا لبدر اتباعه الدعوة الوهابية وتركه مذهب الاباضية . وقد تولى سعيد الحكم بنفسه عام ١٨٠٦

وبذلك وجه هذا ضربة قاسية للوهابيين الذي كانوا يعتمدون على بدر كثيرا . ثم ان سعيد حاول مع اخيه سالم لم الشعث وجمع الكلمة للوقوف بوجه السعوديين الذين كانوا يهددون دائما سلطته في عمان فاستنجد بالفرس في بادىءالامر ووصل منهم ثلاثة آلاف فارس ولكن السعوديين هزموا الطرفين في عمان الداخلية في مدينة بركا . فاضطر الفرس للعودة الى بلادهم ، ومن المستغرب طلب سلاطين مسقط المتكرر للمعونة من الفرس وآخرها في زمن السلطان قابوس مؤخرا ولم يتورع الفرس دائما من ارسال جنودهم مع انهم كانوا يلاقون دائما الهزائم ويفقدون الجنود ويكررون ذلك ، ولا شك ان الهدف من وراء ذلك كان وضع سلاطين مسقط تحت سلطتهم وبذلك يصبح مدخل الخليج بكامله تحت نفوذهم .

بعد فترة من الزمن استطاع السيد سعيد الهيمنة على عمان بكاملها عدا صحار التي كان فيها قيس بن احمد عم والده ، وكان بينهم كراهية . ومع ذلك فقد اتفق الطرفان على قتال القواسم والاخذ بثار سلطان بن احمد ، فتحرشوا بهم في عهد الشيخ سلطان بن صقر القاسمي عام ١٨٠٨ وسار الاثنان عن طريق البر والبحر لضرب قواعدهم في رأس الخيمة وغيرها وهنا نهض القواسم للدفاع عن انفسهم والتقى الطرفان في مدينة (خورفكان) حاليا ورغم تمكنه في بادىء الامر من تكبيد القواسم الخسائر الفادحة الا ان النجدات السعودية ظهرت في الوقت المناسب فانقلب الوضع لصالح القواسم ، وكانت اغلبية جيش البوسعيد من البلوش والمرتزقة وحدثت مذبحة رهيبة في نفس الخور حيث هزم القادمون عن طريق البحر وغرق اغلبهم وقتل ووقع في الخور الذي امتلأ بجثث القتلى وقتل قيس بن احمد واضطر السيد سعيد للهرب ، وحتى الان لا يأكل السكان سمك الخور . وكانت هذه الحادثة سببا في جعل السيد سعيد يفتش عن حليف له من بين الاجانب وقد رأينا كيف حاول الاتفاق مع الفرنسيين ولكن الانكليز هم الذين تعهدوا [1] سعيد بحمايته من القواسم ولكن دون السعوديين . فالانكليز كانوا يحضرون لضرب القواسم فوجدوا حليفا لهم في السيد سعيد وكان السعوديون انفسهم يعانون من المصاعب امام الحملة المصرية مما خفف الضغط على السيد سعيد .

بعد عام ١٨٠٨ عاد القواسم لنشاطهم البحري بعيدا عن الخليج لان معاهدة ١٨٠٦ كانت تنص على عدم النشاط في الخليج فقط . لذلك سجلوا عدة هجمات على السفن البريطانية بقرب السواحل الهندية قريبا من بومباي ثم اخذوا في الهجوم

على السفن البريطانية في شمال الخليج واستولوا على الطرادة (سيف) التي كانت تصحب بعثة سير هـ . جونز في ايران . وقد انقذت الطرادة المذكورة من قبل طرادة بريطانية اخرى تدعى (النرياد) كانت تشاهد كيف كان القواسم يصعدون على ظهر (سيف) ثم أخذ القواسم يلاحقون ، السفن الانكليزية بالرغم من نظام القوافل الذي فرضه الانكليز ، في محاولتهم تنظيم المرور في الخليج عن طريق الجوازات البحرية . وقد اصطدم القواسم بالقبائل العربية الاخرى التي كانت تتعاون مع الفرس واستطاعوا قهر اساطيلها واستولوا على ستة سفن من سفن بوشهر ، ولكن الفرس بالتعاون مع القبائل استطاعوا احتلال مدينة (لنجه) المركز الرئيسي للقواسم على الساحل الشرقي كما اخرجوا من جزيرة خارك فاضطر القواسم للتراجع الى جزيرة قشم ، وكان القواسم يعانون من التمزق بسبب الخلاف فيما بينهم على قتال الانكليز فمنهم من كان لا يحبذ ذلك ومنهم من كان يكره الانكليز ويناصبهم العداء بدفع من الوهابيين مما ادى الى انقسامهم ومنهم من بقي في رأس الخيمة والقسم الاخر اتخذ الشارقة مركزا له ، وكان الشيخ صقر هو اول من سكن الشارقة وكان لا يحبذ قتال الانكليز في حين كان عمه الشيخ حسن بن رحمه في رأس الخيمة يواصل نضاله ضد الانكليز وهو الذي اسر في رأس الخيمة عندما احتلها الانكليز كما سنرى وكان القواسم خلال هذه الفترة في اوج قوتهم . واخذوا يطالبون البريطانيين بدفع الرسوم لقاء مرورهم في الخليج مقابل حمايتهم وكانوا يحصلون على ذلك من كافة السفن وكان الانكليز ايضا في فترة سابقة يدفعون تلك الرسوم عندما كانت ظروفهم لا تسمح بقتال القواسم . وقد اثار هذا حقد الانكليز فقرروا تدمير القواسم بالتعاون مع السيد سعيد الذي كان يأمل بأخذ ثأره من هزيمته في خورفكان وقد اتفق الانكليز مع السيد سعيد على القضاء على القواسم وفرض اتفاقية مع القبائل المشتغلة بالقرصنة (على حد قول الانكليز حيث كانوا يتهمون كل القبائل بالقرصنة) تضمن سلامة الملاحة والخليج مستقبلا .

كان هم الأنكليز واضحاًهو حمايةسفنهم ولم يكونوا يلتفتون لما يجري في البر حتى انهم تركوا السيد سعيد بن سلطان عندما هاجمه الوهابيون لذلك فالقضاء على القواسم كان بالنسبة اليهم ضرورة تحتمها مصالحهم الخاصة وليس أمن الخليج واستقراره واقامة السلم بين القبائل كما يدعون . وبالرغم من معرفتهم بعلاقة

الوهابيين بالقواسم إلا أن الأوامر التي صدرت للحملة كانت تنص على تحاشي الصدام معهم وعدم القتال البري وتفاديه .

كانت قوة الحملة البريطانية التي وصلت قبالة رأس الخيمة في ١٢ كانون ثاني ١٨٠٩ مؤلفة من ثمان سفن حربية وبارجتين وأربع سفن نقل والفي محارب اوربي وهندي مع عدد من قطع المدفعية . وبعد الوصول ابتدأ قصف المدينة بالمدفعية واحرقوها ثم حاولوا احتلالها ولقوا مقاومة بطولية من القواسم واستطاعوا دخولها في الوقت الذي كانت فيه السفن الحربية تدمر السفن والزوارق الموجودة في الميناء فأتت على اغلبها وكانت أكثر من خمسين سفينة وقارب . وقد قاوم القواسم خارج البلدة حتى وصول نجدة سعودية فاضطر الانكليز للانسحاب عندما سمعوا بقدومها واستعاد الطرفان البلدة .

اتجهت الحملة فيما بعد الى لنجه المركز الثاني للقواسم الواقعة على الساحل الشرقي ودمرت الزوارق والمراكب فيها ثم أخذت ترتاد الموانىء القواسمية وتدمر السفن والمراكب فيها ولم تستطع الحملة احتلال القلعة في قشم عنوه الا بعد تأمين السكان على انفسهم وتركها من قبل القواسم ثم اتجهت الحملة الى مسقط وابدت استعدادها لمعاونة السيد سعيد في استرجاع اراضيه فاتجهت الى ميناء (شناص) الواقع على ساحل الباطنة وهو تابع للقواسم فاحتلت المدينة ولكن لم تستطع احتلال القلعة التي كانت فيها حامية وهابية بسبب بعدها عن مدافع الاسطول وعندما كان المهاجمون يعودون الى سفنهم ظهرت نجدة وهابية استطاعت هزيمة من تبقى على البر من الجنود واستعادوا المدينة ، ومن شناص اتجهت الحملة الى خورفكان ولكنها خافت من الصدام مع السعوديين فرجعت الى مسقط وترك الاسطول البريطاني المنطقة تاركا سلطان مسقط تحت رحمة السعوديين وقد استطاعت اساطيل عجمان والشارقة التخفي . وعندها علم الامام سعود بالحملة الانكليزيه ارسل حملة بقيادة مطلق المطيري الذي استطاع دخول عمان عن طريق البريمي قاعدته الرئيسية وانتصر على كل من سعيد وعمه سيف عام ١٨١٠ واجبرهما على دفع الجزية في سنة ١٨١٣ ، ولم تستطع الحملة من الوصول الى غايتها وهي فرض معاهدة سلام على القواسم وغيرهم .

ساد الرأي لدى الانكليز أن القواسم أصبحوا عاجزين عن شن الهجمات البحرية على السفن البريطانية وقد دام ذلك فقط ما بين عامي ١٨١٠ - ١٨١١ وعندما كانت الدولة السعودية الأولى تتعرض لهجمات المصريين ما بين عامي ١٨١١ - ١٨١٥ استأنف القواسم هجماتهم على السفن البريطانية فقد نجت اساطيل عجمان والشارقة من الدمار وعاد الزخم القتالي القاسمي بأشد مما كان تدفعهم روح الثأر من الانكليز و (البوسعيد) العمانيين فعاد الانكليز ومعهم سلطان مسقط للهجوم على القواسم بعد حدوث التفرقة في زعامتهم واتفاق صقر بن سلطان مع السيد سعيد على اعادته للشارقة بعد هربه من النفي في الدرعية على أن لا يقوم بأي عمل ضد الانكليز او العمانيين في حين ظل حسين بن رحمة شيخ رأس الخيمة على نشاطه ولكنه كان يتنصل من تبعية الأعمال التي كانت تحدث وبخاصة الهجمات التي كانت تشنها سفن القواسم على السفن المارة بالقرب من السواحل الهندية . وبعد ذلك تم التوقيع على اتفاقية بوشهر عام ١٨١٣ واتفاقية أخرى مع سلطان مسقط تعهد فيه القواسم بعدم التعرض للسفن البريطانية ولكن سمح لهم بالرد على هجمات اعدائهم .

ظلت الاتفاقية حبراً على ورق وعاد القواسم بالهجوم على السفن البريطانية وغيرها من السفن الفرنسية والامريكية التي كانت ترتاد الخليج ووصل نشاطهم الى البحر الأحمر والشواطىء الهندية وغيرها واعادوا بناء اسطولهم بقوة وعزم أكبر . أخاف جميع السفن التي كانت تتجول في المنطقة واعادوا مطالبة الانكليز بدفع الأتاوات اذا أرادوا الدخول للخليج والاعتراف بسلطتهم ، وقد حاول الانكليز في بادىء الأمر التروي في اعمالهم وطالبوا القواسم بدفع التعويضات عن السفن التي سلبوها فلم يجبهم القواسم على طلبهم فأرسلوا اسطولاً في تشرين اول عام ١٨١٦ قصف رأس الخيمة بالمدفعية دون نتيجة ثم هاجموا الشارقة والرمس وقصفوهما بالقنابل دون جدوى وأخذت البوارج البريطانية الضخمة تتحاشاهم وازداد عدد الأسطول القاسمي زيادة كبيرة فأسطول رأس الخيمة لوحده اصبح ستين سفينة كبيرة واربعين سفينة صغيرة وكان بحارته ماهرون جداً في الفنون الملاحية ، وما بين عامي ١٨١٧ - ١٨١٩ سيطر القواسم على الخليج فهاجموا جزيرة شعبب وهددوا عسيلوه ، وكانجون ، ودير وأثاروا الفزع في بوشهر ، وقد حاول الشيخ حسن بن

رحمة القاسمي تسوية الأمور مع بريطانيا دون جدوى فكثيراً من قادة الانكليز كانوا يصرون على القضاء على القواسم وبدأوا بالاستعداد لجولة كبيرة معهم بعد فشل نظام الدوريات فشلا ذريعا ، وكانت الأوضاع ملائمة لبريطانيا لقيامها بحربها ضد القواسم بعد انتهاء التهديد الفرنسي للخليج وسقوط نابليون واستتباب الأمور في الهند وايران وقد اتصلوا بالمصريين للتعاون معهم ولكن ا براهيم باشا الذي كان يحكم نجد والحجاز لم يكن بحالة تسمح له بالعمل رغم استعداد الانكليز لتسلبمه رأس الخيمة .

كان الانكليز يريدون اخفاء نواياهم للسيطرة الكاملة على الخليج عن طريق التعاون مع القوى الموجودة في الخليج للقضاء على القواسم بدون الظهور بمظهر المنفرد لنفسه بالعمل لذلك جرت مشاورات في حكومة بومباي على طريقة العمل فهناك الخطة التي نصحت بتدمير القواسم فقط وعدم التدخل في شؤ ون الخليج كما كان هناك رأي يقول بالاعتماد على خلفاء بريطانيا كفارس التي يمكن مساعدتها على توطيد سلطتها في السواحل الشرقية لمنع القواسم من اتخاذ قواعدهم فيها وكذلك سلطان مسقط الذي يمكن أن يمد نفوذه على رأس الخيمة وتشجيع العمانيين على مد نفوذهم على طول السواحل الممتدة من رأس الخيمة حتى شط العرب . وقد نجح المشروع الذي يقول بضرورة انفراد بريطانيا برسم سياسة الخليج بما يتلاءم مع المصالح البريطانية لذلك استقر الرأي على قيام بريطانيا بالحملة بالتعاون مع سلطان مسقط دون اعطائه البحرين وتوضيح اهداف الحملة للفرس لتطيمنهم وفي نيسان عام ١٨١٩ استقر الرأي على المبادىء التالية :

اولا : احترام الأوضاع السياسة الداخلية في الخليج فلا تتدخل بريطانيا لصالح أحد الرؤ ساء الا اذا طلب ذلك وحينئذ تؤ يد الحق المشروع وعلى هذا استبعد الرأي بتسلم جزر البحرين لحاكم مسقط .

ثانيا : عدم تشجيع الأتراك بسط نفوذهم في منطقة الخليج بعد أن استولى ابراهيم باشا على نجد وجميع البلدان التابعة لها .

ثالثاً وضع الأسس لحرية الملاحة في الخليج وحق تفتيش السفن بالاتفاق مع القبائل العربية . واخيرا افضلية جزيرة قشم على رأس الخيمة لاقامة قاعدة بريطانية ، وقد وجهت هذه الأسس سياسة بريطانيا أمداً طويلاً في الخليج .

خرجت الحملة البريطانية من بومباي في (٣) تشرين ثاني ١٨١٩ وكانت تتألف من ستة سفن حربية كبيرة علاوة على عدد كبير من سفن التموين والنقل وعليها ثلاثة آلاف بحار وجندي وأكثرهم اوربيون بقيادة الجنرال (وليم جرانت كير) ، ووصلت في اوائل كانون اول ١٨١٩ امام مدينة رأس الخيمة قاعدة القواسم وقصفتها بالقنابل لمدة ستة ايام ثم تم انزال الجنود الى الساحل وهاجموا المدينة التي احرقت جميعها . وقد اظهر القواسم بسالة نادرة بالدفاع عن بيوتهم واهليهم وكذلك في اللقاء مع البواخر الحربية التي كانت متفوقة بالتسليح لذلك دمرت تقريباً كافة سفن القواسم ، ثم وصل قادماً من البر جيش سلطان مسقط وتعاون الطرفان على اخماد ما بقي من المقاومة في الوقت الذي كان فيه اسطول حكومة بومباي يمسح الجزء الجنوبي لشاطىء الخليج للتعرف على مخابىء القواسم وغيرهم ودمرت السفن التي كانت هناك . ثم تقدم جزء من الحملة الى البحرين وقضى على السفن القاسمية التي التجأت لهناك واتخذ نفس الأجراء في موانىء لنجه وعسيلوه ، وكانجون . . . الخ على الجانب الشرقي من الخليج وقد ظل القتال في البحر حتى ٢٢ كانون اول . ثم احتل الانكليز الحصن الجبلي المعروف باسم (الظايا) بالقرب من ا لرمس حيث القى حوالي (٤٠٠) مقاتل سلاحه واخذوا اسرى وانتهت العمليات في اول عام ١٨٢٠ ثم اقيمت قلعة بريطانية في رأس الخيمة ووضعت فيها حامية بريطانية .

ادى استسلام القواسم بقيادة حسن بن رحمة الى استسلام سريع لكل مشايخ ساحل عمان . وفي ٨ كانون ثاني ١٨٢٠ عقدت معاهدة للصلح عامة وقع عليها المشايخ بفترات مختلفة وانضم الى التوقيع مشايخ العتوب في البحرين . وقد وقع اول اتفاقية مع الانكليز من القواسم هو صالح بن صفر .

لقد دخل القواسم في معاهدة الصلح البحري العامة في نفس الشهر وتبعهم اخرون وكانت نصوصها تختلف من قبيلة الى اخرى حسب صلاتها بالسيد سعيد بن سلطان ، وقد ترك الانكليز للقواسم حرية العمل البري خوفاً من اصطدامهم مع الوهابيين اذا هم لاحقوا القواسم بعيداً داخل البر . وفي الوقت ذاته استطاعوا أن يفتتوا دولة القواسم وشجعوا القبائل على توقيع معاهدات معهم مما يجعلهم دولاً مستقلة فاستقلت عجمان وام القيوين ثم تبعتها الفجيرة وانفصلت رأس الخيمة عن الشارقة وشكل كل من هذه الكيانات دولة خاصة به وابتدأ التنافس فيما بينها .

اتصف القواسم بالجرأة والشجاعة ، ولم يصادف الاستعمار الغربي والبريطاني بصفة خاصة أية قوة قبلية لها جرأة القواسم وشجاعتهم وصلابتهم إن كان في قتالهم البحري أو البري ، وهم الوحيدون الذين كانوا يقاتلون كمجموعة تضم جميع القبيلة رجالاً ونساءً وأطفالاً ، ورغم اختلافهم في بعض الأحيان الا أنهم كانوا يسندون بعضهم بعضاً وكانوا يعيشون طويلاً يجولون البحر مفتشين عن السفن الأجنبيةوكانوا لايهابون ايةسفينة مهما كانت ضخامتهاوتسليحها بل كانوا يهاجمونها بجرأة متناهية ويحيطون بها من كل جانب بزوارقهم السريعة ويهاجمونها رغم النيران المنصبة عليهم . وكان لمهارتهم في الفنون الملاحية أثر كبير في التغلب على المراكب الضخمة التي كانوا يقتربون منها بسرعة ويصعدون لظهرها وينقلون المعركة البحرية الى معركة برية تنتصر فيها الشجاعة الفردية ويختفي التفوق الناري ، ونظراً لمعرفتهم التامة بسواحل الخليج المؤلفة من شبكة كبيرة من الأخوار والجزيرات والسبخات والسواحل الضخمة كانوا عند الحاجة يلتجئون الى هذه الأماكن التي كانت تشبه المعاقل ويختفون فيها هم ومراكبهم الصغيرة ذات الغاطس القليل ويقول «جان جاك بيريي «من هذه المعاقل استطاع القواسم ان ينكدوا عيش البريطانيين طيلة قرن من الزمن وأرغموهم لكثرة ما كبدوهم من خسائر على توجيه الحملات الكبيرة ضدهم» .

رغم كل الأوصاف السيئة التي نعت بها المؤرخون الغربيون وبوجه خاصة موظفو شركة الهند البريطانية (القواسم) واتهامهم إياهم بالقرصنة والنهب والسلب وتبعهم بذلك بعض المؤرخين العرب بحجة سرد الحقائق التاريخية الا اننا نقول بأن القرصنة اذا كانت لواجب قومي وديني فهي عمل بطولي يفتخر به وقد اطلقت الملكة اليزابيت على القرصان البريطاني المشهور درايك والمعتبر بطلاً قومياً بالنسبة للبريطانيين الحاليين لقب ملك القراصنة باحتفال كبير بسبب مهاجمته المستمرة للسفن الاسبانية في أعالي البحار وكان سلب السفن الاسبانية يعتبر عملاً قومياً فلماذا يعتبر عمل القواسم ومهاجمتهم للسفن الأجنبية عملاً شريراً بعيداً عن الانسانية . . وقد حاول الانكليز ابعاد كل تأثير وهابي على القواسم او بالأحرى ابعاد ارتباطهم بالدولة السعودية لاتهامهم بالقرصنةالتي تبتعد عن الأهداف القومية والدينيةفي حين انه لا يمكن فصل معركة القواسم في المرحلة الثانية من حياتهم عن المعركة الكبيرة

التي كان يخوضها الوهابيون بزعامة آل سعود لنشر أفكارهم بعد اعلانهم الجهاد ضد الكفار والمخالفين لذلك كان الأسرى يقتلون لانهم إما كفار او مخالفون يحل قتلهم وكانوا لا يشفقون على أحد ولا ينتظرون الشفقة من أحد فهم ينتظرون الموت لانه طريق الجنة التي وعد الله بها المتقين لذلك كانوا يستغربون اذا بقوا أحياءً بعد اسرهم فهم يطلبون الشهادة وكانوا يرقصون ويهزجون ويرددون هتافات الحرب أثناء الهجوم وكان صياحهم يبعث الخوف والهلع . في قلوب أعدائهم ومن الانصاف التاريخي ان لا يوصموا بالقراصنة بل هم أبطال مجاهدون قاتلوا قتال الأبطال ولم يهابوا المدافع والمراكب الحديثة فهم بقية السيوف العربية المجاهدة واول من قاتل الاستعمار في العصر الحديث وقد طبع عصراً بكامله بطابعهم الخاص .

أما ما يعرف بالعتوب أو مجموعة قبائل العتوب ، فقد ظهروا أيضاً خلال الفترة التاريخية التي كان فيها الصراع على أشده بين الانكليز والقوى العربية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وكان مجال نشاطهم المنطقة الواقعة ما بين قطر والكويت بما فيها جزر البحرين وأسسوا فيها دويلتي البحرين والكويت وفي وقت من الأوقات كانت الدمام تحت نفوذهم ، وهم ينتمون الى القبيلة البدوية الكبرى (عنزه) التي تمتد منازلها في شمال الجزيرة ونجد وكذلك أطراف العراق وسورية والأردن . ويعتبر تاريخ العتوب جزء من تاريخ هذه القبيلة ، وتقول الروايات ان عنزه هجرت منازلها القديمة هي وغيرها من القبائل الضاربة في شرق الجزيرة العربية بسبب القحط الذي حدث في أواخر القرن السابع عشر الميلادي . وهذا النوع من الهجرات معروف منذ القدم حيث كانت القبائل تجد لها مكان على أطراف المعمورة بسبب حادثة ما ألمت بها وبخاصة القحط الذي كان ينتاب الجزيرة في أغلب الأوقات . وقد وصل قسم من قبائل عنزه وهم المعروفون باسم الرولة في أوائل القرن الثامن عشر الى سورية ولا يزالون وقد حدد الشاعر أماكن توطنهم بقوله

رولا عرب قصورهم الخيام ومنزلهم حماة والشآم

ينتمي الروله الى بطون عنزه الشمالية وهي احدى المجموعتين الكبيرتين اللتين تتألف منهما (عنزة) واما بطون عنزة الجنوبية فينتمي اليها آل الصباح وآل خليفة وآل السعود .

كان العتوب ينزلون قبل هجرتهم، المدار من الافلاج في جنوب شرق نجد وهم لا يشكلون في الواقع قبيلة واحدة بل كانوا يشكلون نوعاً من الاتحاد القبلي . وأطلق عليهم كلمة العتوب بسبب ترحالهم نحو الشمال أي أنهم (عتبوا) كما تقول الروايات المحلية ، وقد استقروا في بادىء الأمر في قطر التي كانت تحت سيطرة بني خالد حكام الاحساء ثم انتقلوا منها بحراً الى الكويت التي كانت قرية صغيرة لحكام بني خالد ويقال لها(القرين) ويقال أن تواردهم لها كان في عام ١٧١٦ . وكانوا بزعامة عائلات ثلاث هم آل الصباح وآل خليفة والجلاهمة . وكان الاتفاق فيما بينهم أن يقوم آل الصباح بأعباء الادارة والحكومة وآل خليفة بالاعمال التجارية ويهتم الجلاهمة بشؤ ون البحر وبذلك انتقل العتوب من حالة البداوة الى الاستقرار .

وبالرغم من الازدهار الذي حدث في الكويت فيبدو ان منافسة صامتة كانت تدور بين الأطراف الثلاثة مما جعل آل خليفة يعملون على ترك الكويت والانفراد بعملهم واقنعوا اقرباءهم بخطتهم في الاقتراب من مصائد اللؤلؤ والسيطرة عليها ولم يمانع آل الصباح بذهاب آل خليفة وربما شجعوهم في مغامرتهم للانفراد بحكم الكويت وهكذا غادر آل خليفة الكويت وبعد فترة لحق بهم الجلاهمة كما سيمر معنا .

انفرد آل الصباح (كما كانوا يرغبون) بحكم الكويت فعملوا على تطور مدينتهم ومد نفوذها الى المناطق المجاورة . وقد ظلوا في بادىء الأمر ولفترة غير قصيرة يدفعون الأتاوة لبني خالد وكانت المعاملة الطيبة متبادلة بين الطرفين ولكن عندما ضعف بنو خالد بسبب الهجمات الوهابية عليهم استقل آل الصباح في الكويت وكان اول حاكم لها من آل الصباح هو صباح بن جابر الذي تولى المشيخة عام ١٧٥٢ .

كان لموقع الكويت الجغرافي ومياه ميناتها العميق اثر كبير في ازهارها وتطورها وازدياد أهميتها التجارية فدخلت في علاقات تجارية مع الدول الاوروبية ازدادت أهميتها عندما أصبحت مركزاً لانطلاق بريد شركة الهند البريطانية ومركز القوافل التجارية المتجهة نحو البحر الأبيض المتوسط . وقد انتقلت اليها مؤقتاً الوكالة البريطانية التابعة لشركة الهند الشرقية . وكان للكويت اسطولها التجاري والبحري

القوي وكانت علاقاتها جيدة مع جيرانها وعلى العموم لم يعمل العتوب بالقرصنة الا
في زمن رحمة بن جابر لأسباب انتقامية من جماعته وقد دافع آل الصباح عن الكويت
ضد بني كعب والوهابيين وغيرهم ومنذ انتقال الوكالة البريطانية للكويت بدأ
الاتصال بين الانكليز وآل الصباح واستعانوا بهم لابعاد السيطرة العثمانية عليهم
وبعد فرض اتفاقية الصلح البحري عام ١٨٢٠ دخل آل الصباح ضمن النفوذ
البريطاني ١٧٧٢ ووقعوا على كل المعاهدات والاتفاقيات التي عقدها الانكليز مع قبائل
الساحل.

أما آل خليفة فقد توجهوا بعد تركهم الكويت الى سواحل قطر القريبة من
مصائد اللؤلؤ وكان خليفة بن محمد رب الاسرة قد وجه اهتماما خاصا لتجارة اللؤلؤ
عندما كان في الكويت ومنذ وصول هؤلاء بقيادة محمد بن خليفة عام ١٧٧٦ الى قرية
الزبارة الصغيرة على الشاطىء القطري بعد أن رفض حكام البحرين التابعين للشيخ
ناصر شيخ بوشهر [illegible] آل خليفة [illegible] بالأسر
التابعة لآل خليفة [illegible] الحاكمة في قطر نزولهم في الزبارة
[illegible] بدفع الجزية [illegible] قبيلة (آل مسلم) [illegible]
واخذوا في بناء مدينة كبيرة [illegible] الزبارة وقلعتهم الكبيرة التي [illegible]
وهي قلعة (مرير) الموجودة بقاياها الى اليوم [illegible] مدينة الزبارة تثير في نفوس
السكان الخيالات الواسعة والقصص الطويلة عن ثرائها ورفاهها وتقدمها ونشاطها
التجاري [illegible]

[illegible] مدينة الزبارة [illegible] فترة قصيرة [illegible] الباب المفتوح التي انتهجها
حكامها [illegible] توجه عدد كبير
من [illegible] كثير من التجار من البصرة اثناء احتلال
الفرس لها في عام ١٧٧٥ [illegible] الزبارة [illegible] المدينة وازدياد
حجمها وأهميتها ، وكان الفرس الذين كانوا يمدون نفوذهم الى البحرين عن طريق
عرب بوشهر وحكام البحرين في ذلك الوقت ينظرون الى نمو الزبارة بعين
الخوف والحسد خوفا على البحرين وكان يشاركهم في ذلك
الحكام انفسهم لذلك حاولوا الهجوم على الزبارة [illegible] غياب
خليفة بن محمد بن خليفة الموجود في الاراضي المقدسة فقام ابنه احمد واستطاع [illegible]
القراصنة [illegible] الشرقية على [illegible] ومنذ ذلك الوقت ابتدأ الاحتكاك بين
آل خليفة في الزبارة والفرس يساندهم عرب بوشهر [illegible] الشيخ ناصر [illegible]

هؤلاء القضاء على الزبارة ووصلها اسطول كبير بقيادة الشيخ ناصر ونزل هؤلاء على الساحل القطري قريبا من المدينة فقوبلوا بقوات القبائل العربية التي اتحدت جميعها ضد الخطر الفارسي بقيادة أحمد آل خليفة واوقعت بالمهاجمين خسائر فادحة فدارت الدائرة عليهم وهربوا الى السفن . وفي الوقت ذاته استطاع آل الصباح الذين قدموا لنجدة أبناء عمومتهم النزول في البحرين بعد أن وقعت بيدهم رسالة موجهة من الشيخ نصر إلى حكام البحرين عرف منها الكويتيون ضعف الحامية وبهذا استطاعوا قطع خط الرجعة على القوات الفارسية واجبروا الشيخ ناصر على الانسحاب الى بوشهر وسرعان ما لحق بآل الصباح آل خليفة ونزلوا في البحرين بقيادة احمد الملقب بالفاتح واكملوا احتلال الجزيرة فسقطت قلاعها الواحدة تلو الاخرى حتى دانت الجزر جميعها لهم .

ولم ينتقل آل خليفة مباشرة للبحرين بل كان أول حكامهم احمد الذي دام حكمه حتى عام ١٧٩٦ يقضي شهور الصيف في البحرين وفصول الشتاء في مدينة الزبارة وقد اعطى انتصار آل خليفة في البحرين دفعة ممتازة للتجارة في الجزر التي بدأت تستقطب تجارة الخليج اليها بما فيها تجارة اللؤلؤ وبذلك تأسست دولة العتوب الثانية في البحرين رغم ان آل خليفة لم يهنأوا فيها فقد هوجموا من قبل سلطان مسقط واحتلها عام ١٧٩٩ فانسحب آل خليفة منها الى الزبارة ثم عادوا اليها بعد فترة بمعونة الوهابيين ثم اخرجوا منها ثم عادوا وخلال هذه الفترة هجرت الزبارة خوفا من هجوم الوهابيين عليها ولم يستقر آل خليفة في البحرين حتى عام ١٨٢٩ الا عندما اعترف باستقلالها سلطان مسقط بعد هزيمة نكراء لقيها اسطوله وجيشه عندما حاول احتلال البحرين ، وقد دافع آل خليفة عن البحرين ضد هجمات عرب السواحل الشرقية وكذلك من عرب امارات الساحل المتصالح .

وجرى أول اتصال مع الانكليز عندما سيطروا على الخليج فدخل آل خليفة في مختلف المعاهدات والاتفاقيات التي فرضها الانكليز على عرب الخليج وقد وجد آل خليفة في الانكليز حلفاء فانصرفوا لحماية انفسهم من اطماع جيرانهم في تلك الفترة من التاريخ ، ومع ذلك لا بد لنا أن نعترف بأن آل خليفة هم الذين أزالوا الفكرة العالقة بالاذهان من كون البحرين أرض فارسية ودافعوا عنها دفاعا مجيدا وابقوا على عروبتها وانتمائها للوطن العربي .

بعد انتقال آل خليفة من الكويت الى الزبارة دب الخلاف بين فرعي العتوب الذين ظلوا في البلدة وهم آل الصباح والجلاهمة ويبدو أن آل الصباح ضاقوا ذرعاً بمطالب الجلاهمة المتزايدة بالاضافة الى النقص في دخل الكويت بعد ازدهار الزبارة لذلك صمم هؤلاء الانفراد بحكم البلدة وأخذوا في التضييق على الجلاهمة مما اضطرهم الى التفكير بمغادرة الكويت باتجاه (الزبارة) للحاق بأبناء عمومتهم آل خليفة الذين رحبوا بهم في بادىء الامر وخصصوا للوافدين المعونات والرواتب المالية وقد لحق بهم جميع اقربائهم من الجلاهمة مما أدى الى ازدياد عددهم في الزبارة زيادة ملحوظة وازدادت مطاليبهم مما أخاف آل خليفة على مراكزهم فأخذوا بالتضييق عليهم مما اضطرهم مرة أخرى لترك الزبارة وقصدوا الرويس الواقعة الى الشرق من الزبارة ومن هناك وجهوا اهتمامهم لزيارة اسطولهم البحري وفي نيتهم القضاء على آل خليفة والحلول محلهم في المنطقة بعد أن ازداد ثراء هؤلاء وأصبحوا محور التجارة في الساحل الغربي ، وقد لجأ الجلاهمة لاعمال القرصنة وكانوا يهاجمون السفن التابعة لآل خليفة خاصة مما أثار هؤلاء وصمموا القضاء عليهم بعد أن جمعوا عدداً كبيراً من المرتزقة للقتال معهم ثم توجهوا الى الرويس واستطاعوا الاحاطة بها ودارت بين الجلاهمة المدافعين وآل خليفة المهاجين رص معركه عنيفه دافع فيها الجلاهمة عن الفهم دفاع الأبطال ولكن التفوق العددي كان بجانب آل خليفة فدارت الدائرة على الجلاهم وبخاصة بعد قتل زعيمهم فانهارت المقاومة وصمم آل خليفة ابادة الجلاهم ولم يبقوا الا على النساء والأطفال ويبدوا أن عدداً من الجلاهم لم تصله يد آل خليفة او كان بعيداً ولم يستأصل الجلاهمة - كما تروي الروايات عن هذه الحادثة لأن الجلاهم اشتركوا مع آل خليفة في الدفاع عن الزبارة فيما بعد واحتلال البحرين .

كان الجلاهمة يأملون بسبب مساهمتهم مساهمة فعالة في احتلال البحرين ان يكون لهم نصيب في الغنائم وعندما كان شيخ آل خليفة يوزع الغنائم تقدم اليه أربعة أولاد لشخص يدعى جابر وكان احدهم رحمة بن جابر وكانت مطاليبهم تتضمن اقطاعهم أرضاً للسكن فيها في البحرين فرفض آل خليفة هذه المطالب خوفاً من إعادة القصة التي حدثت معهم في الزبارة ، مما كان من الجلاهمة الا أن غادروا البحرين بزعامة رحمة بن جابر ونزلوا في جزيرة خارج ومنها انتقل الى بوشهر ولكن لم يطل المقام بهم حتى عادوا الى قطر لبقيموا هذه المرة في خورحسن بدلاً من

الرويس ومن هناك أخذ رحمة بن جابر يمد نفوذه وسلطانه على الساحل المقابل وأصبح السوط المسلط على آل خليفة ، وقد اكتسب رحمة شهرة واسعة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لهجومه على السفن الانكليزية وغيرها وقد تحالف مع القواسم وبدأ بالعمل معهم وفي عام ١٨١١ قام رحمة وحلفاؤه القواسم بالهجوم على البحرين ولكنه لم يوفق وفي عام ١٨١٣ استولى على بعض السفن التجارية التابعة لشركة الهند البريطانية وقد كتب المستر بروس عام ١٨١٦ يقول «إن رحمة سوف يسيطر على الخليج لا محالة اذا لم يوقف عن حده» ومما يذكر ان الانكليز لم يجرأوا على مهاجمة (خورحسن) معقل الجلاهمة عام ١٨٠٩ عندما هاجموا حلفاؤهم القواسم ، وفي عام ١٨١٨ تقدم من القطيف وهبط هناك بقواته وقصف المدينة بمدافعه ثم سار الى الدمام حيث بنى فيها حصناً قوياً أصبح قاعدته الرئيسية ، وفي عام ١٨٢٠ وبعد سقوط القواسم رفض دخول المعاهدة البحرية (معاهدة الصلح البحري) ، وقد تنقل رحمة في الولاء بين الوهابيين وعرب السواحل وتصالح في بعض الأحيان مع آل خليفة ولكن هدفه دائماً هو توحيد المنطقة تحت زعامته بعد زوال القواسم وكان يعتبر أن لخطوة الاولى يجب أن تكون احتلال البحرين - وفي عام ١٨٢٤ عقد الصلح بين ال خليفة ورحمة ثم عاد فهاجم القطيف وحطم السفن الموجودة فيها ليجبر السكان على دفع الاتاوات له وظل يواصل اعماله خلال سنة ١٨٢٥ بالرغم من تحذيرات الانكليز واعتبار عمله نوعاً من القرصنة وليس الحرب النظامية . وكان رحمة في ذلك الوقت مبتعداً عن الهجوم على السفن البريطانية أو الرعايا البريطانيين ، وبعد ذلك تجدد الخلاف مع آل خليفة ويذكر لوير ان رحمة انتهى بتحطيم سفينته في اشتباك مع سفينة يقودها واحد من آل خليفة في حين يصف جان جاك بيربي معركة (رحمة) الاخيرة بينه وبين الاسطول البريطاني عندما احاط به هذا يعاونه اسطول آل خليفة . وكان رحمه في طريقه لاحتلال البحرين ، فقد امر بحارته بالتقدم نحو السفن البريطانية التي كانت تطلق عليه النار من كل جهة ، وعندما اصبحت بين هذه السفن تقدم رحمه حاملا ابنه الصغير والبالغ من العمر ثمان سنوات واشعل النار في مخزن البارود فتفجرت سفينته واصابت السفن البريطانية باضرار فادحة ، ورغم ان بحارته كانوا يعرفون نهايتهم الا انهم فضلوا الموت معه وبقوامخلصين له حتى اللحظة الاخيرة وقد توفي وله من العمر سبعين عاماً . وهكذا انتهت حياة هذا الربان الذي يعتبر اخر الربابنة العرب

الكبار وانتهت اسطورة رحمة بن جابر.

أما بنو ياس (بني ياس) فبالرغم من انهم لم يلعبوا دوراً كبيراً في النضال ضد الانكليز بنفس الشكل الذي نهض به القواسم او الكعبيون الا انهم كانوا يشكلون قوة كبيرة على ساحل عمان (الصير) والذي عرف فيما بعد باسم ساحل القراصنة. والاعتقاد السائد ان بني ياس لا يشكلون قبيلة واحدة بل ينتمون الى قبائل شتى يجمعهم اتحاد قبلي كما هو الحال بالنسبة للعتوب واصبح هذا الاتحاد مجال للتجمع حوله والانتماء اليه مما ادى الى اطلاق اسم الاتحاد على مجموع هذه القبائل واهملت الاسماء القديمة وهم عرب الاصل. وقد وصلوا الى المناطق المجاورة لساحل عمان حوالي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ويقال انهم استقروا منذ عهد مبكر يرجع الى اوائل القرن السابع عشر في منطقة الليوا، وينتمي الى بني ياس كل من حكام أبو ظبي (آل نهيان) ودبي (آل مكتوم) وكذلك المزروعيون الذين اسسوا دولة قوية على ساحل افريقيا الشرقية قبل وصول العمانيين من اليعاربة والبوسعيد.

وبعد وصول بني ياس الى اماكنهم الحالية على الخليج بفترة تزيد على الثلاثين عاماً حدثت منافسات ادت الى تقسيم بني ياس الى عائلات وافخاذ شتى، ولم تتحقق وحدة الزعامة بينهم الا عام ١٧٩٩ حيث امرة شخبوط بن ذياب من آل بوفلاح والذي حكم حتى عام ١٨١٦ ثم اضطر للتخلي عن الحكم لابنه الاكبر محمد الذي عزل بدوره عن الحكم وتنازل لأخيه الاصغر طحنون عام ١٨١٨ وقد حكم هذا باسم ابيه مدة طويلة وخلال هذه الفترة التاريخية كان وصول وهابيو نجد الى عمان والمنطقة عام (١٨٠٠م) وقد عزلوا عام ١٨٠٨ سلطان بن صقر القاسمي واجلسوا مكانه ابن عمه حسين بن علي الذي اخذ يهاجم السفن البريطانية، وقد رفض بنو ياس مشاركة حسين والتعاون معه على الهجوم على السفن البريطانية مما اثار عليهم حقد القواسم، وخاصة عندما عقدوا حلفاً مع سلطان مسقط حوالي عام (١٨١٩م) وزاد حدة الجفاء بين الطرفين عندما تعاون سلطان بن صقر مع محمد بن شخبوط المعزول لاستعادة السيطرة على ابو ظبي. وكان سلطان قد احتل البريمي واثار عليه حاكمي مسقط وابو ظبي اللذين كانا يعتبرانها من املاكهما الخاصة وقد اسفرت الوساطة بينهما على عقد صلح بين الفرقاء الثلاثة عام ١٨٢٥.

وعندما اغتيل طحنون عام ١٨٣٣ من قبل اخويه خليفة وسلطان اللذين قاما بالطاعة للوهابيين ودفعوا لهم الجزية اعلن تركي بن عبد الله امير نجد أنهم اصبحوا

[illegible] الأجانب فيما [illegible] على

السلطة وأدى إلى انسحاب آل بوفلاسا الى دبي واستقرارهم فيها عام ١٨٣٣م .

[illegible]

[illegible] منذ عام ١٨٢٤ [illegible] على السفن التي كانت

تجوب الخليج العربي [illegible] الانكليز [illegible]

[illegible]

[illegible] أدى إلى [illegible]

[illegible] التقني [illegible] على السفن [illegible]

[illegible] القتال [illegible]

[illegible] الكبير [illegible]

أما عرب الهولة الظاريش وبني صعب فقد ذكرنا في مكان سابق أن سواحل الخليج العربي الشرقية كانت مأهولة بالقبائل العربية وكان لها السيطرة على كافة المدن الواقعة على الخليج العربي وحتى الساحل المطل على خليج عمان وقد شكلت دويلات وإمارات ومشيخات لعبت دوراً كبيراً في تقرير سياسة الخليج وكان لوجود بلاد فارس وراء ظهرها أن جعلها دائماً تخاف من هجوم الفرس عليها لذلك كانت تحاول استرضاءهم ومنها انتقال أغلب زعمائها من المذهب السني الى المذهب الشيعي ، إرضاء لبعض الحكام الفرس وقد دخلت هذه القبائل في لعبة المنافسة السياسية والنفوذ بين الفرس والأتراك وتعاونوا مع الفرس ووقفوا في صفهم وكان ما يقال له بالنفوذ الفارسي على الخليج يمتد حسب امتداد نفوذ هذه القبائل على بعض مناطق الخليج وبصورة خاصة البحرين وقد اشتهر من هذه القبائل الهولة الذين كانوا ينزلون الجزء الجنوبي من الساحل الشرقي ، وفي الوسط كان عرب المطاريش ومركزهم الرئيسي بوشهر والى الشمال كانا عرب بندر ريق من قبائل بني صعب ويمتد نفوذهم الى جزيرة (خارج) .

أما عرب الهولة فكانوا ينتشرون في جزائر قشم وهرمز وعدداً من الجزر الصغيرة المنتشرة في جنوب الخليج حتى البحرين وعندما هاجم سلطان مسقط [illegible] مطلع القرن الثامن عشر البحرين كان يساعده عرب الهولة وكان زعيمهم في ذلك الوقت الشيخ [illegible] ذا النفوذ الواسع ولم يلعب عرب الهولة دوراً رئيسياً في حوادث

الخليج مع كونهم يسيطرون على مداخله وقد أخذ القواسم دورهم الذي كان من المفروض ان يلعبوه .

وكما ذكرنا ان عرب بوشهر كانوا يسيطرون على الجزء الاوسط من الساحل الشرقي وهم ينتمون الى القبائل العمانية ويقول نيبور المؤرخ الدانمركي عند حديثه عن الامارات العربية المستقلة اثناء مروره فيها في طريق عودته من الهند عام ١٧٦٦ «إن العرب النازلين في منطقه بوشهر ليسو من عرب الهولة وقد امتازت بينهم ثلاث اسر اثنتان منها كانتا تنزلان بوشهر منذ امد بعيد جدا اما الثالثة والتي كانت تسمى المطاريش فقد قدمت بعدهم من عمان وكانت تعمل في صيد الاسماك ، وسرعان ما تضافرت الاسر الثلاث واستطاعت ان تستولي على زمام الامور في بوشهر وهو الحاصل حاليا (قول نيبور) وهو لا شك قد تم قبل عام ١٧٦٥ بكثير ، كما يصف مدينة بوشهر ويقول عنها بانها ميناء شيراز عاصمة كريم خان زند حاكم فارس .
وقد اعتمد الفرس بصورة خاصة على عرب بوشهر لبناء اسطول بحري في الخليج .
وفي عام ١٧٦٣ نقلت وكالة الهند الشرقية البريطانية الى بوشهر بعد هجوم الفرنسيين على مبنى الوكالة في بندرعباس (جمبرون) عام ١٧٥٩ كما انها اصبحت بعد فترة قصيرة المركز الرئيسي للسلطة البريطانية في الخليج حيث كان يقيم فيها زعمائها الشيخ نصر آل مذكور الذي كان يلقب بقائد الاسطول الفارسي وكانت له مطامع سياسية تمتد الى جميع أرجاء الخليج وكانت البحرين من جملة أملاكه لذلك كان الفرس يدعون الملكية عليها عن طريق الشيخ نصر وقد اشترك هذا في حصار البصره هو وقبيلته وعندما ازداد نفوذ الزباره بعد انتقال آل خليفة لها حاول آل مذكور القضاء عليها خوفاً على البحرين وفشلوا في ذلك وفقدوا البحرين عام ١٧٨٢ وانحسر نفوذهم شيئاً فشيئاً بمقدار ما كانت الأحوال في إيران تتغير من ضع وقوة حتى زال نهائياً بعد أن دام نفوذ هذه القبائل اكثر من مائة وخمسين عاماً وكان الفرس يخافون دائماً من ازدياد قوة آل مذكور لذلك كان الشيخ نصر يترك أولاده رهينة لدى حكام الفرس وقد اصطدم الشيخ نصر بسلاطين مسقط ولكنه كان يساير الانكليز والايرانيين على حد سواء وقد سيطرت شخصيته القوية لفترة طويلة على مجرى الأحداث في الخليج ويعتبر عهده العصر الذهبي لبوشهر .

وإلى الشمال من بوشهر قامت مشيخة بندرريق العربية وينتمي سكانها الى قبائل بني صعب العمانية وأصلهم من زعاب وكان شيوخها يتمتعون بنفوذ كبير يمتد

الى أبعد من حدودهم ويصل إلى المدن المجاورة لبندريق وكان مشايخ بندرريق في تعاون دائم مع مشايخ بوشهر فعاونوهم في احتلال البحرين عام ١٧٥٣ كما تعاونوا مع الفرس اثناء حصارهم لمدينة البصره ، وكان عرب بني صعب من السنة ولكنهم تحولوا فيما بعد للمذهب الشيعي للحفاظ على إمارتهم وقد اشتهر من بين حكامها البحار الجريء الأمير مهنا بن ناصر الذي ناصب كلاً من فارس وهولندا وانكلترا العداء وأخذ في مهاجمة سفنهم وقد لعب هو ووالده دوراً هاماً في احداث الخليج .
وقد استطاع المير مهنا من اخراج الهولنديين من جزيرتهم الرئيسية (الخارج) التي كانت آخر مراكزهم التجارية والحربية بالرغم من التحصينات القوية التي كانت تحميها وبذلك انتهى النفوذ الهولندي من الخليج الى غير رجعة وغير مأسوف عليه وكان خروجهم منها عام ١٧٦٥ ثم اخذ في الهجوم على السفن البريطانية واخيرا تمكن الانكليز من حصاره في جزيرة الخارج بعد وصول نجدات كبيرة لهم من الهند عام ١٧٦٦ ولكنه استطاع فك الحصار وهرب مع بعض رجال في سفينة صغيرة تحت جنح الظلام الى الكويت ثم انتقل منها إلى البصره حيث كان يطمح بمعونة الأتراك نظراً للصداقة التي كانت تربطه بمتسلمها بعد أن كان قد عقد معه معاهدة صداقة لذلك لم يكن يتعرض للسفن التركية وبالرغم من أن متسلم البصره التركي استقبله استقبالاً جيداً وأكرم وفادته في بادىء الأمر لم يلبث أن غدر به بعد أن تلقى الأوامر من والي بغداد الذي كان يكن له كراهية كبيرة وقد قتل مهنا في البصره وطيف برأسه في شوارعها ، ولا شك أن للانكليز دوراً كبيراً في قتل مهنا وقد وصف بأنه كان رجلاً عظيماً ومهاباً وذا نفوذ على القبائل ولكنه فقد هذا النفوذ بعد تعاونه مع الفرس في وقت ما بعد زواجه من ايرانية كما كان يتهم بقتل والده ووالدته وبعد مهنا توقف دور عرب بندرريق وزال نفوذهم نيقعوا هم أيضاً تحت السيطرة الفارسية وتزول هويتهم .

وقبل أن ننهي هذا الفصل عن دور القبائل العربية في النضال ضد الانكليز بصورة خاصة والأجانب بصورة عامة من الضروري أن نتطرق الى الدور الذي قامت به قبائل بني البوعلي العمانية في رفضها لسلطة حكام مسقط وحلفائهم الانكليز وكانت هذه القبائل تقطن اقليم جعلان في عمان الى ما وراء مدينة صور وقد اتبعت الدعوة الوهابية عام ١٨٢٠م عند وصول الوهابيين الى هناك وكانت ترفض سلطة حكام مسقط ولكن السيد سعيد اغتنم فرصة القضاء على قوة القواسم البحرية

في وضعت الوهابيين في انحسار تقدمهم على عمان بسبب الحروب ضد المصريين فاراد
القضاء على هذه القبائل الكبيرة التي اعتنقت المذهب الوهابي واستنجد بالانكليز وكان
[illegible] سلطانية صغيرة في جزيرة قشم التي كان يعتبرها حاكم مسقط السيد سعيد من
أملاكه الخاصة ونصح الانكليز باحتلالها [illegible] إذن الحكومة [illegible] منه وقد رفضت الحكومة
التدخل بناء على المبدأ الذي كان الانكليز يتبعونه وهو عدم التورط في منازعات
الداخلية على البر بالرغم من الحاح السيد سعيد على حكومة بومباي لمساعدته مذكراً
إياها بالخدمات التي أداها للتاج البريطاني في القتال [illegible] ولتقدم لمهاجمة البحريين
ولوضع القبيلة تحت تصرف البريطانيين ومساعدته لهم في حربهم ضد القواسم ،
ولكن حدث ما غير الاتجاه عندما قام بنو علي بالهجوم على احدى السفن الانكليزية
ثم قتل أهل [illegible] المدرب البريطاني الذي أرسله قائد الحامية البريطانية الميجر
طومسون للاحتجاج على الحادثة ولإعادة المنهوبات لذلك اقترح طومسون بإرسال
حملة تضم حوالي [illegible] جندي هندي لمساعدة السيد سعيد على القضاء على قبيلة
بو علي ووصلت الحملة الى ميناء صور في ٢٤ تشرين الثاني ولحق بها السيد سعيد على
رأس جيش من البلوش والبدو [illegible] واتجهت الحملة إلى داخل عمان حيث
تقطن القبيلة في إقليم جعلان ولكن الحملة لم تبتعد سوى قليلاً عن صور حتى
[illegible] قبيلة البوعلي فلم تستطع الصمود وهربت بعد أن قتل ثلثاها ومن
[illegible] ضباط انكليز وكان الميجر طومسون والسلطان سعيد المحظوظين [illegible]
[illegible] الفرار وقد [illegible] النجدة [illegible] القتال [illegible] الأنباء حكومة
بومباي [illegible] تشكيل حملة كبيرة لاستعادة هيبة بريطانيا وارسلتها الى عمان بقيادة
الجنرال [illegible] وكانت تضم حوالي ثلاثة آلاف جندي بين هندي وبريطاني
مزودة بالمدفعية وفي اوائل شباط ١٨٢١ وصلت الحملة الى عمان وتقدمت الى مقر
القبيلة متجاوزة أيضاً مبدأ عدم التورط في الحروب الداخلية وبالرغم من انها [illegible]
الميجر طومسون [illegible] بسبب تورطه في ذلك ودارت بين الطرفين معركة [illegible] حسب قول
(لوريمر) في نفس المكان الذي جرت فيه المعركة السابقة وبلغت خسائر البريطانيين
[illegible] قتيل وجريح وفقد البوعلي أيضاً عدداً كبيراً من مقاتليهم ويبدو ان
المدفعية فتكت بهم لذلك [illegible] الاستسلام [illegible]
القتل [illegible] البيوت [illegible] ومع ذلك ظلت هذه القبيلة تناصب السلاطين
مسقط العداء [illegible] القرن التاسع عشر حيث انضمت الى [illegible]

خلال الحروب الأهلية ولم يشترك السيد سعيد في هذه الحملة ، وهكذا قضت بريطانيا على روح المقاومة في مختلف انحاء الخليج الواحدة تلو الاخرى

الباب السادس

الامبراطورية الهندية ـ البريطانية واثرها على مسيرة الاستعمار البريطاني في الخليج العربي وما حوله والمحيط الهندي الفترة ما بين ١٨٥٠ ـ ١٩١٤ العصر الذهبي لبريطانيا العظمى (العصر الفيكتوري)

الفصل الاول

الستراتيجية العامة للامبراطورية الهندية ـ البريطانية واهدافها

ـ سقوط الامبراطورية البريطانية في امريكا الشمالية واثره على حركة الفتح في الهند والشرق الاوسط والاقصى ـ السيطرة البريطانية على الهند ـ انتقال السلطة من شركة الهند الشرقية الى الحكومة البريطانية ـ تطور مفهوم الامبراطورية الهندية البريطانية ـ والاسس الستراتيجية الدفاعية والهجومية التي بنيت عليها ـ الدول العازلة ـ احتلال سنغفوره ـ المحاولات البريطانية للسيطرة على المستعمرات الهولندية في جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) ـ احتلال جزيرة سيلان ـ الحروب البريطانية الافغانية واسبابها واهدافها ـ سقوط بورما امتداد النفوذ البريطاني نحو التيبت ـ السيطرة البريطانية البحرية وحماية خطوط المواصلات الامبراطورية والقواعد الرئيسية فيها .

الفصل الأول

الستراتيجية العامة للامبراطورية الهندية ـ البريطانية واهدافها

راينا فيما سبق كيف أدى فقدان الانكليز للقسم الاكبر من امبراطوريتهم في شمال امريكا ما بين اعوام ١٧٧٥ ـ ١٧٨٣ بعد الثورة الامريكية واستقلال الولايات المتحدة الى انعطاف كبير في سياسة الانكليز الاستعمارية والاستيطانية حيث وجه الانكليز اهتمامهم كليا للشرق عامة والهند خاصة وتوجيه موجة الاستيطان نحو جنوب افريقيا واوستراليا ونيوزلندا وقد ساهم في ذلك زوال المنافسة الهولندية التي ركزت هي الاخرى جهودها على استعمار اندونيسيا وكذلك غياب الفرنسيين عن الساحة وعدم تمكنهم من ايقاف مسيرة الانكليز التوسعية في الهند والشرق رغم محاولاتهم المتكررة .

وفي الواقع لم يمض مائة عام من ذلك التاريخ حتى استطاع الانكليز السيطرة الكاملة على القارة الهندية بحد السيف واصبح نفوذهم يمتد من كشمير شمالا الى راس قومورين جنوبا ومن جبال الهندوكوش غربا الى اسام شرقا . وكانت دولة البنجاب اخر دولة مستقلة هندية تم القضاء عليها عام ١٨٤٦ ـ ١٨٤٨م ، ولكن الامور لم تهدا للانكليز الا بعد القضاء على الثورة الهندية المعروفة باسم (الفتنة الكبرى) والتي شبت عام ١٨٥٨ . وقد قضى عليها الانكليز او بالاحرى شركة الهند الشرقية بشدة متناهية وبعدها لم يعد امام الانكليز سوى حكم البلاد بالطريقة التي تلائمهم وتلائم مصلحة الشركة بعد فشل اخر محاولة هندية جدية لاقتلاعهم من الهند .

وبسبب المساوىء التي ارتكبتها الشركة نقلت الحكومة البريطانية مسؤولية حكم الهند اليها وبذلك دخلت الهند في طور جديد لم يقتصر اثره على الهند لوحدها بل تعداها الى مناطق اخرى من اسيا وظهرت الامبراطورية الهندية ـ البريطانية ، واصبحت محور حياة وسياسة قسم كبير جدا من شعوب اسيا وافريقيا وازداد تاثيرها على جيرانها وربطتهم بعجلة سياستها منذ ذلك التاريخ حتى الحرب العالمية الثانية .

لقد بدأت الهند البريطانية بتلك المرحلة التاريخية وهي مراكز تملكه (مستعمرة) بريطانية ، ما لبثت ان تطورت على مراحل بطيئة الى امبراطورية عاتية تنفذ سياسة استعمارية تخطط في لندن وتدرس وتنفذ من نيودلهي وبومباي فالرأس في لندن والقلب في الهند . فلم تكد اقدام الانكليز تستقر قوية راسخة . في هذه الكتلة الارضية الضخمة مع هذا المستودع البشري والاقتصادي الهائل حتى اخذت انظارهم تتطلع الى خارج حدود الامبراطورية رغم ضخامتها بحجة حمايتها من الاخطار الخارجية . وقد ساعدهم على هذا الاتجاه حجم وضخامة موارد الهند وموقعها الجغرافي في قلب اسيا فهناك معين لا ينضب من الموارد البشرية والاقتصادية فلو تحقق لهم جيش كبير بالاعتماد على ذلك وجهاز اداري كفء فسيكون لهم الصوت المسموع والمسيطر في اسيا وكان ذلك ان اصبحت الهند الامبراطورية قلب اسيا السياسي والاقتصادي

على العموم فمنذ نهاية القرن الثامن عشر بدأت توجيه سياسة بريطانيا اعتبارات سياسية اكثر منها تجارية كانت تتحكم في سياستها الخارجية الاستعمارية في منطقة حول الهند وتشمل فارس والافغان والخليج العربي وسواحل البحر العربي وحتى افريقيا والبحر الاحمر . وتدور هذه الاعتبارات حول القواعد الرئيسية لسياسة الامبراطورية واستراتيجيتها العامة او ما كانت تعتبره بريطانيا انذاك حماية الهند داخليا وخارجيا

اما داخليا فمنذ عام ١٨٥٨ جرى تطور كبير في السياسة الداخلية البريطانية في الهند نفسها ويتلخص في وضع المشروعات الاقتصادية والاجتماعية لرفع المستوى الشعبي في الهند بالاعتماد كليا على الصناعة البريطانية التي وجدت فيها مجالها الواسع بالاضافة الى ابعاد كل تذمر صغير او كبير وخلق الفرقة بين كافة الاطراف تجعل من المستحيل تشكيل قوة معارضة ذات شأن بالاعتماد على ما تصبح به الهند من اجناس عرقية ودينية ولغوية لا مثيل لها في العالم

ويعتبر السيد/ ك . م . بانيكار/ الهندي مؤلف كتاب اسيا والسيطرة الغربية ان (اللورد ليتون) المؤسس الحقيقي لامبراطورية بريطانيا في الهند ، وهو الذي وضع الاسس لها بشكل لا يقتصر على المعنى الحرفي للكلمة فقط بل باعداد اجتماع مجلس (الدوربار) (أي المجلس الامبراطوري في زمن المغول) لاعلان [illegible] اللقب الامبراطوري الذي اتخذه لنفسه التاج البريطاني ، وبذلك اضفى على الحكم صفة

تختلف عن الصفات التي يمكن اطلاقها على المستعمرات فقد جعل من الهند امبراطورية جديدة خلفت امبراطورية المغول ولكن هذه الامبراطورية لم تقتصر على الهند كما كان الحال في زمن امبراطورية المغول بل مدت حدودها الى ابعد ما يمكن لتحمي نفسها .

اما خارجيا فكانت سياسة الامبراطورية تهدف لخلق دوائر عازلة حول الهند والدائرة الاولى كانت تهدف لخلق دول حيادية عازلة تحيط بها وتمنع كل تسرب ونفوذ اجنبي فيها او المرور خلالها الى الهند . وكان تطبيق هذه السياسة يسير بنفس المستوى مع ازدياد السيطرة البريطانية في الهند . وكان مبدأ حماية الطريق الواصل بين الوطن الام بريطانيا وممتلكاتها يسير هو الاخر بنجاح . فمنذ عام ١٨١٨ تم حتلال مدينة سنغافورة لتكون قاعدة بحرية لتسيطر على مضيق ملقا يقابلها في الطرف الاخر قواعد جبل طارق لحماية او السيطرة على مضيق جبل طارق وجزيرة مالطه للسيطرة على مضيق صقيلية في البحر الابيض المتوسط ، وعندما ارغمت هولندا للدخول في الحرب بجانب فرانسا اثناء الحرب النابليونية اغتنم الانكليز الفرصة لاحتلال سيلان وكادت هولندا أن تفقد مستعمراتها الاندونيسية بعد ان احتلتها بريطانيا لمدة اثني عشر عاما ثم .اعيدت اليها بعد معاهدة فيينا وفي البحر الابيض ضمت قبرص وضم اللورد ليتون بلوجستان اليه عام ١٨٧٧ وبذلك تم تجاوز حدود الهند الاصلية ، وبعد ذلك اخذت الحكومة الهندية الامبراطورية تظهر اهتماماً كبيراً بشؤ ون الافغان، ومايجري فيها، ولكن منذ أن أخذت الروسيا القيصرية تمد حدودها نحو اسيا الوسطى ، شعرت بان عليها ان تقوم بدور اعظم ، وحاولت جعل الافغان محمية بريطانية ، وخاضت في سبيل ذلك ثلاثة حروب دامية مع الافغانيين الذين استماتوا في الدفاع عن بلادهم فلم تجد حكومة الهند البريطانية للخلاص من هذا المأزق إلا ترك الافغان احرارا بعد ان اضطرتهم الحرب الى تثبيت وحدتهم الوطنية . وأصبحت أفغانستان دولة (عازلة) بينهما وبين الروس واستطاعت مع ذلك بريطانيا التسلط على سياستها الخارجة بعد الاتفاقية الروسية - البريطانية عام ١٩٠٧ .

كانت بورما الضحية الثانية لسياسة حماية الامبراطورية فمنذ عام ١٧٨٤ اصطدام الانكليز بالبورميين على اثر احتلال هؤلاء لمنطقة (اركان) وفي عام ١٨٢٣ حاول الانكليز دخول بورما ولكنهم فشلوا في بادىء الامر ولكن ما لبثوا ان انتصروا

على البورميين وضموا الى الهند القسم الجنوبي من البلاد ، وظل الانكليز اكثر من ثلاثين عاما يتحينون الفرص للقضاء على القسم الباقي من بورما ، وهو القسم الشمالي الذي ضم عام ١٨٨٥ وقضي على بورما واصبحت حدود الامبراطورية تصل الى سيام والهند الصينية التي خضعت هي الاخرى للفرنسيين .

بعد ذلك جاء دور التيبت حيث كان البريطانيون يصرون على فتح ابوابها لتجارتهم وكانت التيبت ترفض كل اتصال مع الانكليز ولذلك كان هؤلاء يتحينون الفرص للانقضاض عليها . وكان ذلك عندما اتهم اللورد كيرزون الحاكم الجديد للهند ونائب الملك ، الدلاي لاما بالتعاون مع الروس ، فانقض على التيبت وعندما وصلت الجيوش الهندية ـ البريطانية عام ١٩٠٢ الى لهاسا العاصمة لم تجد الدلاي لاما الذي فر الى منغوليا مما جعل الانكليز ينسحبون من التيبت بعد ان عقدوا اتفاقية مع روسيا على اساس ابعاد نفوذ الدولتين عن التيبت واتباعها للصين واصبحت التيبت منطقة عازلة . ولكن في الحقيقة اصبحت بشكل غير مباشر تحت السيطرة او بالاحرى النفوذ البريطاني ، وكانت حملة التيبت اخر اتساع بلغته الامبراطورية الهندية البريطانية في حدودها بعد ان اخضعت محميتي نيبال ، وبوتان الواقعتين في جبال هيمالايا .

ر كانت الدائرة الثانية التي عملت للوصول اليها حكومة الامبراطورية الهندية ، هو مد نفوذها الى افاق إبعد من دائرة الدول العازلة لتصل الى الخليج وفارس والعراق والبحر الاحمر . وقد تم احتلال عدن عام ١٨٣٨ وتبع ذلك احتلال القسم الشمالي من الصومال والذي عرف باسم الصومال الانكليزي لحماية مدخل البحر الاحمر . ثم دخلت مصر تحت الحماية البريطانية وسيطرت بريطانيا على قناة سويس عام ١٨٨٢ . وهكذا اصبحت الامبراطورية البريطانية حسب قول المعلق الانكليزي مستر ونت «إن الامبراطورية الهندية في ذلك الوقت كانت نظاماً قارياً ، كانت بناء سياسياً أساسه الهند ويمتد سلطانه من عدن الى هونغ كونغ» ويستطرد المستر ونت قائلاً «وينبغي أن نفكر في الامبراطورية الهندية كثمرة تتكون من لب هو الاراضي الغنيةالتي تدار ادارة مباشرة ثم من قشرةواقية . وقد صنعت هذه القشرة الواقعية من ناحية جزئية من ولايات صغرى بدائية الى حد ما مثل بوتان ونيبال واجزاء من المناطق الجبلية والصحراوية يسكنها اقوام يعيشون على النظام القبلي وكان للحكومة الهندية على هاتين الطائفتين جميعاً هيمنة تختلف شكلاً ولكن غرضها

المشترك هو الحيلولة دون تبادل العلاقات مع بلاد اخرى او قصر تلك العلاقات او على الاقل التاكد من ان لا تستخدم تلك العلاقات في اغراض عدوانية» . . «وفي خارج المنطقة نفسها وعلى صورة الساحة التي تحيط بها كما تحيط الارض الفضاء بالمصنع كونت الحكومة الهندية نطاقاً من الدول المحايدة وهي فارس وبلاد العرب والتيبت وأفغانستان بل وجزء من سينكيانغ ضم الى الهند حيناً من الدهر فمن ناحية كان حد مصالح الهند هو على الجملة ، الصحراء المنبسطة بين بغداد ودمشق وهي التي تكون الحاجز الحقيقي بين البلاد التي تتجه الى اوروبا والبلاد التي تتجه الى اسيا والتي كانت في يوم من الايام الحد النهائي للامبراطورية الرومانية . وفي الجانب الآخر كانت مصالح الهند تمتد حتى اندونيسيا والهند الصينية وان لم تظهر من الاهتمام واليقظة في هذا الطرف مثل ما كانت تظهره في الجانب الغربي .

لم تمنع الجهود الجبارة التي كانت تبذل للسيطرة السياسية والعسكرية من ان تتماشى مع نمو التجارة البريطانية بل على العكس ساعدتها مساعدة جبارة ، لأنها كانت الهدف الاول والأخير من السيطرة إن كانت سياسية أوعسكرية وهي المسيطرة على منابع الثروة لذلك ففي نهاية العشرينيات من القرن التاسع عشر كانت بريطانيا قد احتكرت بشكل رئيسي التجارة بين الهند وأوروبا وازداد اسطولها التجارية قوة بقدر ازدياد قوتها البحرية العسكرية التي سادت البحار بعد أن بنت سلسلة من القواعد متناثرة في المحيط الهندي والبحر الأحمر والأبيض وسواحل افريقية وفي ماليزيا وحتى اوستراليا ففي كل مكان كان للاسطول الحربي البريطاني القاعدة التي تساعده على التموين بالغذاء والطاقة وكانت هذه القواعد هي الأخرى مراكز تجارية ضخمة تحوي مستودعات للسلع البريطانية وعرضا .

وقد ساعد بريطانيا على تنفيذ مخططاتها كاملة توقف الحروب في القارة الاوروبية والحرب الوحيدة التي خاضتها هناك هي حرب القرم ما بين ١٨٥٤ ـ ٥٦ ولكنها لم تكن لتؤثر على مجهودها الحربي في الهند وظلت الأحوال في اوروبا هادئة ما بين اعوام ١٨١٥ ـ ١٩١٤ عدا حرب ١٨٧٠ بين فرانسا والمانيا القيصرية ولم تدخل فيها بريطانيا . وقد خاضت بريطانيا حروباً خارج القارة وخاصة في مستعمراتها تثبيتاً لنفوذها كحرب البوير واحتلال مصر . الخ يضاف إلى ذلك لم تعد هناك دول منافسة لبريطانيا في المنطقة بعد زوال نفوذ البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين وحتى العشرينيات الاخيرة من القرن التاسع عشر بدأت تظهر في الأفق

. بوادر منافسة شديدة في المنطقة من قبل روسيا القيصرية وفرانسا . والتهديد الألماني القادم عن طريق العراق وهذا ما سنتعرض له في الفصول القادمة .

الفصل الثاني

اتفاقيات السلام واثرها في السيطرة البريطانية على الخليج

ـ نتائج وصول حملة نابليون الى مصر على الستراتيجية البريطانية في الشرق .
ـ ازدياد أهمية الخليج للدفاع عن الهند. اتفاقيات ومعاهدات السلام: تطورها ـ اسبابها ـ دورها في تثبيت النفوذ البريطاني ـ اثرها على القوى المحلية العربية ـ الهيمنة البريطانية ـ علاقة بريطانيا مع امارات الساحل ومشيخاته ـ مع قطر والكويت

الفصل الثاني

اتفاقيات السلام واثرها في السيطرة البريطانية على الخليج

من الضروري قبل انتعرض لاتفاقيات السلام التي فرضتها بريطانيا على سكان الخليج واثرها في تكريس السيطرة البريطانية ان نتذكر الاسباب التي دفعت بريطانيا للاهتمام الكبير بالخليج العربي وقيامها بالقضاء على كافة القوى المعارضة المحلية والخارجية التي كانت تناحبها العداء وفرضها على القوى المحلية هذه الاتفاقيات التي أصبحت العامل الرئيسي والاداة للحكم البريطاني الذي دام حتى الاستقلال في الستينات من هذا القرن .

لقد أثار وصول نابليون على رأس الحملةالفرنسية إلى مصرالمخاوف في قلوب الساسة والقادة البريطانيين في الهند ، وقد رأينا كيف كانت ردود الفعل البريطانية على مختلف المجالات السياسية والعسكرية امتدت من بريطانيا حتى المحيط الهندي . وبالرغم من انسحاب نابليون من مصر والقضاء على اسطوله في ابو قير الا ان انتصاراته الاوروبية وخضوع القارة له وفرض الحصار الاقتصادي على السواحل البريطانية كانت تثقل كاهل القيادات البريطانية حتى بعد انتصارهم عليه في معركة جبل طارق (ترافلفار) التي دمر فيها الاسطول الفرنسي ، وفي الواقع كان نابليون يحلم بالعودةولم يتوقف عن بث الفزع في نفوس الانكليزأثرمحاولاته للأتصال بالقوى المحلية العربية منها والايرانية والهندية . فاذا كانت الحملة الفرنسي الاولى لم تنجح وهي في طريقها للهند بسبب عدم امكانياتها وعدماستعدادها لمثل هذا العمل الكبير الا ان قادة غيره وصلوا للهند عن طريق البر كالاسكندر المقدوني ومحمد بن القاسم ونادرشاه، ومعروف عن الانكليز شدةيقظتهم ودراستهم للاموربدقة متناهية ودراسة الاحتمالات حتى البعيدة منها والتي منها الخطر القادم للهند عن طريق البر فقد وضعت الخطط لمواجهة ذلك ، لذلك فالحملة المصرية كانت لها اثار بعيدة المدى في الهند وادت الى انعطاف كبير في التفكير السياسي والحربي الذي يوجه نحو حماية الامبراطورية بدوائرذكرناها في الفصل السابق وكان الخليج خاصة يشكل احد القواعد الرئيسية لحماية الامبراطورية الهندية ـ البريطانية باعتياره مفتاح القارة الهندية وهمزة الوصل بين الشرق والغرب وكانت اتفاقية الصلح البحري العامة التي

فرضتها بريطانيا عام ١٨٢٠ على القوى العربية المحلية في الخليج بعد تحطيم قوة القواسم احدى ان لم نقل الاساس التي ارتكزت عليه بريطانيا في سيطرتها على الخليج ولم يكن لاية اتفاقية سابقة الاثر الذي تركته هذه الاتفاقية وما تلاها من تطورات على ازدياد نفوذ بريطانيا وحالة الضعف والفقر الذي انتاب المنطقة كما سنرى من خلال تطورات هذه الاتفاقيات .

استطاع الجنرال (و . جرانت كير) القضاء على قوة القاسم الحربية كما رأينا وأدى هذا إلى خضوع القبائل الساحلية الاخرى مماسهل عليه فرض مايريد على هؤلاء فدخل معهم في اتفاقيات تقيد حركاتهم في البحر لخلق جو من السلام يساعد التجارة البريطانية من التجول بدون خوف ويمنع بشكل قاطع الصدامات البحرية معهم مهما كان نوعها ، وفي الوقت ذاته كان الاسطول البريطاني يجوب مياه الخليج بحثا عن سفن القواسم لتدميرها ويجري مسحا كاملا للشواطىء الكثيرة المتعرجة وخلجانها المتعددة التي كانت مخبأ لسفن القواسم وغيرهم .

وقع على الاتفاقيات المذكورة اكثر من عشر رؤساء للقبائل من الذين لديهم سلطة مستقرة ، وبالرغم من تشابه بنود هذه الاتفاقيات في المعنى والهدف ، الا ان بنودا اضيفت الى الاصل كما ازيلت بعض البنود حسب وضع القبيلة وصلاتها السابقة ومدى تعاطفها مع سلطان مسقط وتناولت هذه الاتفاقيات الاجراءات العملية لمناسبة لكل مشيخة من المشيخات فقد جاء في اولى الاتفاقيات وهي التي عقدت مع القواسم ما يلي :

أ ـ يتعهد شيوخ القواسم بتسليم السفن الحربية الموجودة في رأس الخيمة والشارقة او في ابي ظبي ويحتفظ فقط بمراكب الصيد .

ب ـ يتعهد الانكليز بان لا يدخلوا احياء القبائل بغية تخريبها .

هـ ـ يرد العرب ما لديهم من اسرى الرعايا البريطانيين .

د ـ بعد تنفيذ هذه الشروط يقبل القواسم في معاهدة لصلح العامة لبقية الفصائل العربية المسالمة .

والواقع اننا نجد هذه الشرطين في جميع الاتفاقات الثنائية التي وقعت والاختلاف كان يشمل الفقرات الاخرى فمع حسين بن رحمه القاسمي اقتضى الامر بفرض بند ينص على احتلال موانىء رأس الخنين ومسهره وجميع القلاع

المشيدة في البلدان المجاورة والتابعة له باعتبار انه لا وجود لحدود تحدد مناطق نفوذ حسن بن رحمه كما يوجد بند آخر ينص على الإستيلاء على جميع السفن الموجودة في الموانىء الاخرى التابعة للقبائل التي ليست مع حسن بن رحمه . وقد ضعت هذه البنود القاسية بسبب كون حسن بن رحمه اشد القواسم عنفا في قتال الانكليز ، وقد اسر في رأس الخيمة . اما الاتفاقية التي عقدت مع (دبي) فقد نصت على منع الانكليز من الدخول لساحل المشيخة او تحطيم اي حصن فيها ، وكان ذلك بسبب الصلات الحميمة التي كانت تربط (دبي) بالسيد سعيد سلطان مسقط . وقد تم توقيع هذه الاتفاقيات ما بين السادس والحادي عشر من كانون الثاني ١٨٢٠م ، وفي الحادي والعشرين من الشهر نفسه عرض الجنرال (كير) نصوص معاهدة عامة موحدة البنود تسري على كافة المشايخ والقبائل سميت بمعاهدة الصلح البحري العامة تعهد فيها الموقعون هم ورعاياهم بان يكفوا في المستقبل عن ممارسة السلب والقرصنة باعتبارهما اعمالا ليس لها صفة الحروب السافرة او مشروعيتها والتي كان يسمح بها . واتخذت من قبل الانكليز اجراءات نصت عليها المعاهدة وذلك بان تتخذ كل قبيلة علما موحدا مميزا يرفع على سفنها ويكون لونه احمر وان يتم العمل على اصطحاب كل سفينة اوراقا خاصة بها يظهر فيها اسم المالك وحجم وحمولة السفينة واسماء البحارة ونوع الحمولة وميناء الخروج وميناء الوصول وذلك لتعرف على هويتها وتحركاتها . ومنعت المعاهدة ايضا ذبح الاسرى وخطف الرقيق وكان اهم ما في الاتفاقية البند الذي ينص على خضوع جميع السفن للتفتيش من قبل السفن الانكليزية . كما منعت الاتفاقية الاقتتال بالبحر بشكل غير رسمي وسمحت بلحرب المشروعة ، وكلفت بريطانيا بانزال العقاب بالمعتدي والذي يقوم باعمال القرصنة والهجوم على غيره ! اما في البر فتسوي القبائل مشاكلها مع بعضها ، وقد بلغ عدد بنود المعاهدة احد عشر بندا جعلت من بريطانيا شرطي الخليج والمسيطر على مقدراته . وانتهت صرخات الحرب ونداءاته التي تدعو المجاهدين لقتال الكفار وحل محلها اصوات الصيادين ورجال الغوص وضربات المجاذيف في مياه الخليج الزرقاء الهادئة .

لم تكن هذه الاتفاقية سوى بداية لاتفاقيات ومعاهداتتطورت بنودها حسب الظروف ومصلحة بريطانيا في الحفاظ على مصالحها وتشديد قبضتها حتى استطاعت في نهاية الامر ربط جميع القبائل بمعاهدات واتفاقيات وصفها الكتب الفرنسي

المعروف (جان جاك بيربي) بانها (مانعة وابدية) لقط تطورت من اتفاقيات يتحدد فيها موقف بريطانيا تجاه حكام المنطقة من حيث عدم التدخل في شؤ ونهم الداخلية ما داموا ملتزمين بنصوصها وبخاصة تمسكهم بامن البحار الذي يسمح للتجارة البريطانية بالازدهار وكان ذلك غاية كل الاتفاقيات التي عقدت ما بين اعوام ١٨٠٦ - ١٨٥٣ واهمها معاهدة الصلح البحري العامة .

عندما احس بريطانيا بالتدخل الاجنبي وبالمحاولات الروسية والفرنسية للتسرب الى منطقة الخليج تحولت الاتفاقيات السابقة الى اتفاقيات سياسية جعلت من بريطانيا مسؤ ولة عن العلاقات الدولية في منطقة الخليج ووقع المشايخ على اتفاقيات مابين اعوام ١٨٦١-١٩١٦ لهذه الغايةبحيث اصبح هؤ لاءمقطوعين عن العالم الخارجي الا عن طريق بريطانيا . ومع ذلك خافت بريطانيا عندما احسست بوجودالبترول في منطقة الخليج من امكانية اتصال الرئيس اوالشيخ الموقع على هذه الاتفاقيات بتأجير او بيع ارض او رهنها ضمن امارته وفي اي شكل من الاشكال بدون اذن الدولة الوصية بريطانيا وهكذا حصرت منذ عام ١٩١٦ حق اسيثمار هذه المورد الوطني فيها وابتدأت بالعمل على تنظيم سرقتها بشكل رسمي .

ومما يجدر ذكره ان بريطانيا او بالاحرى حكومة الهند لم توافق على بنود معاهدة الصلح البحري العامة في بادىء الامر بحجة تساهل نصوصها في حق الموقعين ، ولكن بعد ان فطنت للاهداف البعيدة التي كان يرمي اليها منظمها الداهية الجنرال كير وافقت على الاخذ بوجهة نظره ، وقد ثبت ذلك فيما بعد .

في اواخر عام ١٨٢٢ عينت بريطانيا السيد (ماك كلويد) كمقيم عام في الخليج خلفا للملازم بروس الذي رافق حملة الجنرال كير على القواسم . وكلف باجراء مسح سياسي واجتماعي واقتصادي للمنطقة بما فيها تقديم تقرير عن كل شيخ او رئيس قبيلة ومدى علاقاته بالقوى الخارجية المحيطة بالخليج كفارس وسلطنة عمان وتركيا والسعوديين . ثم تقديم اقتراحات للتنمية الاحتكارية وبخاصة تنمية صناعةالسفن التي كانت مزدهرةخلال الحروب الطويلة والتي توقفت بعدها . يضاف الى ذلك البحث عن مكان لاقامة وكالة دائمة في المنطقة . واهم ما فيها كان على ماك كلويد اخبار القبائل بحياد بريطانيا في منازعاتهم الداخلية والتي تنشب على البر بصورة خاصة ، وقد قدم بروس تقريره في شهر كانون الثاني ١٨٢٣ مقترحا اقامة وكالة دائمة في الشارقة يرأسها احد الوطنيين . وكما نصح في بذل الجهود لمنع

الرؤساء والمشايخ من محاربة بعضهم بعضا وتحويل سفنهم الحربية للعمل في النقل التجاري وتحويل الاتفاقيات السابقة الى اتفقية موحدة المواد وتحوي على منع الاقتتال في البحر باعتبار ان الاتفاقيات السابقة لا تحوي مثل هذه البنود . ولكن اقتراحات (ماك كلويد) رغم ملاءمتها للسيطرة البريطانية الا انها لم تلاق اذنا صاغية لدى حكومة الهند باعتبارها تحوي على نصوص تمنع الاقتتال في البر والبحر لان هذا لا يلاءم سياستها التي تعتمد على تكريس التفرقة وابقاء الحزازات والحروب التي تضعف شيوخ المنطقة وقد رأينا كيف انها لم تقف حائلا دون هجوم سلطان مسقط السيد سعيد عام ١٨٢٢ على البحرين باعتباره نوعا من الحروب المشروعة وقد ادى الخلاف بين البحرين ومسقط الى خلافات اخرى بين قبغثل البوعي ومسقط اضطرت بريطانيا للتدخل كما رأينا كيف اخذ (بنوباس) يتعرضون للسفن البريطانية .

بعد هذه الاضطرابات عادت فكرة (ماك كليود) للظهور لمنع الرؤساء من الاقتتال في البحر ، وعرض المقيم الجديد (هنيل) مشروع معاهدة في آب ١٨٣٥ لمنع الاقتتال او الامتناع عن القتال في البحر سواء عن طريق رسمي او غير رسمي وكانت اتفاقية ١٨٢٠ تقر الاسلوب الاول حيث يستطيع اي شيخ مهاجمة الاخر اذا اخبر المقيم بنيته واسبابها ويمكن ان يسمح المقيم له اذا وجد الاسباب وجيهة .

اقترح هينيل اقامة هدنة مؤقتة ولمدة ستة اشهر بمنع الرؤساء من الاقتتال مع بعضهم خلالها وتم اختيار الفترة خلال الغوص على اللؤلؤ بحيث تكون هادئة وفترة سلام وبعد موافقة الموقعين على المعاهدة السابقة لعام ١٨٢٠ تمت التجربة خلال عامي ١٨٣٥ - ١٨٣٦ ، وقد رسم هينيل عام ١٨٣٦ خطا وهميا وسط الخليج ليكون حاجزا لا تتخطاه السفن الحربية المتجهة نحو السواحل الشرقية وفي سنة ١٨٣٧ قدم سلطان بن صقر القاسمي شيخ القواسم الذي اصبح صديقا حميما للانكليز طلبا لحكومة (بومباي) اقترح فيها ايجاد اتفاق عام لتحريم المنازعات البحرية والحربية بصفة دائمة بين المشيخات بضمانة بريطانيا او بالاحرى حكومة الهند التي رفضته بحجة تكاليفه المالية وقد اكتفى المقيم البريطاني بتقديم اقتراح جديد ينص على تحديد الهدنة من ستة اشهر الى سنة على ان تجدد كل سنة باتفاق جميع الموقعين . ومن المؤسف ان ترى هؤلاء الشيوخ يعملون على ادخال الاجنبي لحل مشاكلهم الخاصة وكان بامكانهم اقامة مثل هذه الاتفاقيات فيما بينهم بدون تدخل احد نظرا للعلاقات القوية التي تربطهم ببعضهم من كل النواحي .

ولكن عندما قررت بريطانيا عام ١٨٤٢ الانسحاب من جزيرة (الخارج) التي كانت تحتلها بعد حصار الايرانيين لهراة في الافغان خشي المقيم الجديد (روبرتسون) من ان يفسر الانسحاب بانه زوال السلطة البريطانية من الخليج مما يؤ دي الى عودة الحروب والمنازعات لذلك اقترح على حكومته وضع اتفاق دائم لمنع الحروب الرسمية وغير الرسمية في البحر ومرة ثانية رفضت حكومته اقتراحاته واقترحت ان يكون الاتفاق واو الهدنة لمدة عشر سنوات عوضا عن سنة كتجربة . وعلى هذا الاساس اخذ الغربيون يطلقون على ساحل عمان اسم الساحل المتصالح بعد ان كانوا يطلقون عليه ساحل القراصنة وقد نص الاقتراح على ان نجاح التجربة يؤ دي الى اقامة صلح دائم وقد وقعت اتفاقية الهدنة المؤ قتة في نيسان ١٨٤٣ وجاء فيها « انه بعد التحقق من الفوائد التي تعود علينا من سلامة الملاحة وبخاصة فيما يتعلق بمصائد اللؤلؤ » وقد اضيفت للاتفاقية الشروط التي يجب اتباعها والتي تتلخص بتحريم القتال البحري ابتداء من حزيران ١٨٤٣ لمدة عشر سنوات وفرضت العقوبة على المخالف يقررها المقيم العام ، وكان على المشايخ ان يقرروا في نهاية العشر سنوات مدى نجاح الهدنة وامكانية جعلها ثابتة ، وفي حال عدم الاتفاق بين الجميع يكون المقيم العام حكما فيما بينهم .

بعد عشر سنوات ونجاح الهدنة استبدلت في شهر مايس ١٨٥٣ كافة الاتفاقيات السابقة لمعاهدة صلح دائمة اتفق عليها وجاء فيها « انه من تاريخ الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ١٢٦٩ هـ الموافق للرابع من شهر مايس سنة ١٨٥٣عيسوي والى ما بعد ينقطع الحرب والجدل في البحر بين رعايانا والمتعلقين علينا وليستقيم من الجميع منا ومن يعقبنا صلح تام في البحر على الدوام » وتوقع على هذه المعاهدة التي سميت بمعاهدة الصلح الدائمة رؤ ساء ام القيوين ، وعجمان ، ودبي ، وبني أياس والقواسم واتفق فضلاعن ذلك ان تكون المحافظةعلى السلام تحت اشراف بريطانيا والتي هي تعمل على تطبيقه ممثلة بالمعتمد البريطاني في الخليج او القائد البحري . وجاء فيها « اننا نوافق على ان تكون المحافظة على السلام تحت اشراف بريطانيا وهي التي تعمل على تنفيذ احترامه والله يشهد انها خير منا في ذلك » ومن الطريف ان نذكر ان ساحل الهدنة او الساحل المهادن اصبح اسمه الساحل المتصالح بعد توقيع هذا الاتفاق .

لم تكتف بريطانيا بما حققته من سيطرة مطلقة على الخليج الا انها كانت تخشى دائما تسرب النفوذ الاجنبي اليه وكانت تريده لوحدها وكانت اكثر ما تخاف من تسرب النفوذ الفرنسي الذي بدأ يظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكذلك النفوذ الروسي الذي بدأ يظهر في نفس الفترة وكانت اكثر ما تخشاه اقامة علاقات بين احدى دويلات او مشيخات المنطقة مع احدى الدول الاجنبية لان المعاهدات والاتفاقيات السابقة مع بريطانيا لا تمنع ذلك على الرؤساء والحكام وكان بامكانهم اذا ارادوا (نظريا) الاتصال مع اية دولة وكان بامكانهم ذلك لذلك ابعادا لكل خطر تمت الترتيبات لاخذ الضمانات الكافية من الشيوخ بعدم قيامهم باتصالات مع الخارج مهما كان نوعها ولاي غاية كانت الا عن طريق المقيم البريطاني في الخليج او بالاحرى عن طريق حكومة الهند التي تكلف بالعلاقات العامة للمنطقة وعلى هذا الاساس تم توقيع الاتفاقية المعروفة بالمانعة الابدية قبل نهاية القرن التاسع عشر من قبل كافة دويلات الساحل المتصالح بما فيها البحري وتأخرت الكويت وقطر في التوقيع وقد سلبت هذه الاتفاقية كل ما بقي لدى هذه الكيانات من حرية للعمل وسلموا زمام امرهم لبريطانيا التي تتحمل المهام الخارجية والدفاع والمالية .

كانت البحرين اول الموقعين على الاتفاقية وقد وقعها شيخ البحرين عام ١٨٨٢ ثم طرأ عليها بعض التعديل عام ١٨٩٢ ، وكانت بريطانيا قد استدرجت البحرين للتوقيع في عام ١٨٣٧ على معاهدة الصلح العامة التي وقعها شيوخ ساحل عمان عام ١٨٢٠ وتطورت العلاقات تدريجيا بين بريطانيا وآل خليفة فوقعت معهم ميثاق علم ١٨٦١ واتفاقيتي عام ١٨٨٢م - ١٨٩٢ اللتين نحن بصددهما وبخاصة الاخيرة التي وقعها مع البحرين شيوخ الساحل الاخرين وقد وجهت المعاهدة الزام الشيوخ بعدم الدخول باية حال من الاحوال في اتفاقية او تراسل مع اية حكومة اخرى عدا بريطانيا كما تم الالتزام الثالث فيقضي بعدم التنازل او البيع او الرهن او غيرها والالتزام بعدم قبول اي احتلال لاي جزء من الامارة الا ان يكون ذلك بواسطة الحكومة البريطانية ، وقد وقع على هذا الاتفاق شيخ عجمان وشيخ ام القيوين وشيخ راس الخيمة وشيخ دبي وشيخ ابو ظبي وشيخ الشارقة وشيخ البحرين وهم الذين يطلق عليهم امارات الساحل المتصالح وقد قدم كل منهم تعهدا خطيا بذلك وقد نص التعهد الذي قدمه شيخ ابو ظبي عام ١٣٠٩ هـ الموافق ١٨٩٣م على « اني لا ادخل ابدا في قرار ما ولا محاورة مع احدى الدول سوى الدولة البهيه (الانكليز)

وبغير رضا الدولة البهية الانكليز ولا اقبل ان يسكن في حوزة ملكي وكيل من دولة غير الدولة البهية الانكليز ابدا ولا اسلم ولا ابيع ولا ارهن ولا اعطي للتصرف واو التبوء بنوع ما شيئا من ممالكي لاحد الا الى الدولة البهية الانكليز » .

مع بداية القرن العشرين ازدادت اهمية الخليج ان كان من النواحي الستراتيجية او الاقتصادية وخاصة توقعات ظهور البترول وازدياد قوة المانيا لذلك بدأت بريطانيا تشدد قبضتها عليه بشتى الوسائل والطرق واعلنت صراحة بانها تعتبر اقامة اية قاعدة بحرية او موانيء محصنة في الخليج من قبل اية قوة مهما كانت تهديد عظيم للمصالح البريطانية لذلك وجب مقاومته وازالته بكافة الطرق والوسائل .

وعندما ظهر البترول طورت بريطانيا اتفاقياتها مع الشيوخ لتتفق والسيطرة البريطانية على مواردهم البترولية فيما لو ظهرت في بلادهم . وقد اوعزت اليهم بتقديم التعهدات بعدم التعامل مع اي كان فيما لو ظهر البترول في اراضيهم وقدمت هذه التعهدات في عام ١٩٢٢ ، وفي الكتاب الذي وجهه شيخ دبي بهذا الخصوص وجاء فيه « اذا كان من المرتقب اكتشاف الزيت في اراضينا فلن نمنح اي امتياز في هذا الصدد الى احد باستثناء من تعنيهم الحكومة البريطانية السامية . وقد تشابهت تعهدات بقية الشيوخ في الجوهر والفحوى وهكذا تمت السيطرة على البترول .

ولا يخفى ان بريطانيا اصرت اثناء المحادثات بين مكماهون والشريف حسين سنة ١٩١٠ على ان تعترف الدولة العربية المقترحة بكافة المعاهدات والاتفاقيات التي عقدتها بريطانيا مع امارات الساحل ومشيخاته .

تأخر توقيع كل من امارة الكويت وقطر على هذه المعاهدات والاتفاقيات بسبب اوضاعها الخاصة فالكويت كانت معتبرة ولاية عثمانية ذات استقلال داخلي اعترب به الباب العالي عام ١٨٨٨ كما كان للكويت علاقات خاصة مع بريطانيا حيث اقام الانكليز اول اتصال تجاري مع الكويت عام ١٧٩٣ وفتح التجار الانكليز مستودعات لبضاعتهم فيها وازدادت العلاقات حيث اقام اول ضابط سياسي عام ١٨٢١ في جزيرة فيلكه . ولكن شيوخ الكويت كانوا يخافون دائما من الاحتلال التركي لبلادهم وخاصة عندما تأزمت الاوضاع معهم عام ١٨٩٨ لذلك عقد امير الكويت مع بريطانيا معاهدة سرية في الثالث والعشرين من كانون الثاني ١٨٩٩ وهي تشبه الى حد كبير المعاهدات المانعة التي وقعها شيوخ الساحل وبخاصة المعاهدة التي وقعها البحرين عام ١٨٩٢ وتنص على نفس الاهداف وفيها نفس

البنود التي وردت في المعاهدات الاخرى التي وقعت من قبل الشيوخ الاخرين ، فقد تعهدت الكويت بعدم التصرف باي ارض دون موافقة الحكومة البريطانية وعدم اقامة اي علاقات مع اية دولة اجنبية وفي عام ١٩٠٤ عينت بريطانيا اول مندوب سياسي لها في بلدة الكويت . وفي الرسائل المتبادلة عام ١٩١١ - ١٩١٤ تعهد امير الكويت من ناحية اخرى بعدم فتح اي امتياز بترولي او لؤ لؤ ي دون الحصول على موافقة الحكومة البريطانية وقد تحدد مركز بريطانيا بالنسبة للامارة في المذكرة المرسلة في الثالث من تشرين ثاني ١٩٢٤ حيث وعدت الحكومة البريطانية بتقديم كل مساعدة للامير وتم الاعتراف باستقلال الامارة في ظل الحماية البريطانية .

اما قطر فقد رفض محمد بن ثاني الدخول في ميثاق ١٨٦١م الموقع بين بريطانيا والبحرين وقد اغتنم الأنكليز فرصة الحرب بين قطر والبحرين وكروا العرض على الشيخ محمد بن ثاني بعد تدخل المقيم بين الطرفين وحكم لصالح محمد بن ثاني وكان اول اتصال بين بريطانيا وقطر عام ١٨٦٨ وكان بمثابة اعتراف بريطاني بمحمد آل ثاني كحاكم لقطر باعتبار ان آل خليفة كانوا يرفضون ذلك ومع ذلك ظل القطريون يرفضون الدخول في اية علاقات مع بريطانيا مستغلين موقعهم الجغرافي كحد فاصل بين النفوذين الانكليزي والتركي (العثماني) وبنفس الوقت كانوا يرفضون وضع انفسهم تحت السلطة التركية وقد حاول الانكليز اثارة المتاعب امام محمد في بلاده وحدوده باسطولهم وقد رفض الدخول مرة ثانية في اية اتفاقية رغم دفع للغرامات التي فرضتها عليه السلطة البريطانية كما استطاع هزيمة العثمانيين عندما حاولوا احتلال بلاده وفي عام ١٩١٣ اتفقت كل من بريطانيا والدولة العثمانية على تحديد مناطق نفوذهما واعترفا ببقاء قطر خارج الاتفاقية حيث تنازلت الدولة العثمانية عن كافة حقوقها كما تعهدت بريطانيا بمنع شيوخ البحرين من مهاجمة قطر وقد وقعت هذه الاتفاقية في ٩ آذار ١٩١٤ .

وقبل موعد الحرب العالمية الاولى بقليل والتي نشبت في نفس العام وصل من الكويت المعتمد السياسي فيها الى الدوحة للاتفاق على توقيع معاهدة حماية بين قطر وبريطانيا وكان ذلك في تشرين ثاني ١٩١٦ اضطرت فيه قطر للتخلي بموجبها عن شؤ ون الدفاع والخارجية مثلما هو الحال عليه الاتفاق مع البحرين وقد شملت هذه الاتفاقة جميع نصوص الاتفاقيات المعقودة مع غيرها من الامارات الساحل من عام ١٨٢٠ م وهكذا تم لبريطانيا ربط جميع الامارات بها .

لم تكن اتفاقيات السلام لوحدها التي وقعتها امارات الساحل العماني فقد الزمت بريطانيا منذ عام ١٨٤٧ المشايخ للتوقيع على معاهدة لمنع تجارة الرقيق ومعاهدة اخرى لحماية خطوط التلغراف وكانت تؤكد على منع تجارة الرقيق والتي شملت الاسلحة ايضا فعندما اندلعت الثورة في فارس ضد الحكومة كان لدى الثوار اسلحة حديثة افضل مما لدى الحكومة وكان اغلبها من صنع بريطاني حيث كانت تصل من اوروبا الى مسقط وكانت هذه تتمتع بمركز فريد بسبب عقدها اتفاقيات مع اميركا وهولندا وفرنسا تسمح لها بهذه التجارة وكان لدى الفرنسيين ايضا مركز آخر في جيبوتي لتصدير الاسلحة التي كانت تنقل الى الخليج وفارس وبلوجستان وافغانستان وقاطعات آسيا الواقعة على حدود الهند مما يثير المشاكل امام الامبراطورية البريطانية ، لذلك فرضت بريطانيا اتفاقيات لمنع هذه التجارة ففي عام ١٨٨١ عقدت معاهدة مع شاه ايران في هذا السبيل وتبعها البحرين التي وقعت عليها عام ١٨٩٨ ثم الكويت عام ١٩٠٠ ومشايخ ساحل عمان عام ١٩٠٢ والوحيد الذي رفض توقيع الاتفاقية هو شيخ قطر وقد اعطت الاتفاقية الحق لبريطانيا لتفتيش البواخر ومصادرتها اذا وجد فيها سلاح .

وبالرغم من انسحاب الجيش الهندي - البريطاني الذي اشترك في قتال القواسم وبعد توقيع معاهدة الصلح البحري لعاء ١٨٢٠ ظلت بواخر شركة الهند الشرقية الست مدة طويلة تقوم بالدوريات المنتظمة في مياه الخليج . وقد كلفت المقيمية السياسية الموجودة في بوشهر على الساحل الشرقي بمسؤولية الاشراف على منطقة الخليج جميعها وبذلك اصبحت تمثل العاصمة السياسية لهذه الكيانات السياسية الخاضعة لبريطانيا وقد ظل المقيم السياسي في بوشهر حتى عام ١٩٤٦ عندما انتقل للبحرين ومن بوشهر كان الانكليز يراقبون تحركات الجميع ومنها كان يحكم الخليج ويقول فيليب ايرلند ان معاهدة السلام البحري العامة كانت بادية الهيمنة البريطانية على عرب الخليج .

فلو تطلعنا الى نصوص الاتفاقيات والمعاهدات التي فرضتها بريطانيا على دول ساحل عمان منذ عام ١٨٢٠ وحتى الحرب العالمة الاولى وبالاحرى حتى الحرب العالمية الثانية لوجدنا انها وضعت لحماية مصالح بريطانيا وتجارتها ومواصلاتها البحرية وبما ان مناطق الساحل في ذلك الوقت لا اهمية اقتصادية فيها وعلى العكس كانت بلاد جرداء معدومة الزراعة والصناعة لذلك لم تهتم بها بريطانيا اهتمامها

بغيرها من البلاد ذات الاهمية الاقتصادية ورفضت دائما ضمان الشيوخ في عدم الاقتتال في البر وتركتهم في فوضى في الوقت الذي كانت فيه توغر صدورهم على بعضهم لان تفرقتهم كان الضمانة الوحيدة لعدم تشكيل قوة معارضة لها في الخليج وتجعلهم ايضا يلتجئون اليها لحل مشاكلهم فلم يكن بينهم من له النفوذ والقوة ليتمكن من اجبار الاخرين على اطاعة الاوامر فبمرور الزمن خفت قوتهم وتشتت بسبب العصبية العائلية والقبلية حتى اصبح المشايخ بوضعهم السيء عائقا في تقدم المنطقة لانهم لم يكونوا يسايرون العصر الحديث الذي بدأ يتخطاهم شيئا فشيئا .

ويقول الدكتور صلاح العقاد في كتابه تاريخ الاستعمار في الخليج العربي « ان قوة هؤلاء الرؤساء قد تلاشت واضطر كثير منهم الى بيع مراكبة الزراعية الى الهنود الذي حلوا محل العرب في تجارة الموانيء الصغيرة ، وصارت بلادهم الى حال من الفقر شديد وجعلهم يلتجئون الى الادارة البريطانية لتجود عليهم برواتب ضئيلة فاضحوا بذلك مرتزقة بيد حكومة الهند » .

وبمرور الزمن لم يعد لدى الشيوخ قوات عسكرية سوى الحرس الخاص المكلف بحمايته وكان اغلبه من المتطوعة البلوش لعدم تمكن هؤلاء من تحمل دفع مصروفات ونفقات القوات العسكرية واكتفى الجميع بحماية الاسطول البريطاني حتى عام ١٩٥١ عندما اسست بريطانيا قوة ساحل عمان لحماية المنطقة وتثبيت نفوذها بعد ظهور البترول وقد انعكست التجزئة ايضا على الحياة الاقتصادية بسبب ضعف الامكانيات الذاتية لكل مشيخة او امارة وزاد في الحالة سوءا فقدان اسواق تجارة اللؤلؤ وانهيارها بعد ظهور اللؤلؤ الصناعي ولم يعد امام السكان سوى صيد السمك واو الهجرة نحو بلاد البترول (قبل ظهور البترول في الامارات) وقد ربطت بريطانيا اقتصاد المنطقة بالاقتصاد الهندي . وكانت الهند المورد الرئيسي للمواد الغذائية وبخاصة الرز باعتباره المادة الغذائية الرئيسية مع السمك . ومما يذكر ان بريطانيا عندما كانت تريد الضغط على احد الرؤساء تهدد بقطع الرز عنه ومنعه من الشراء من الهند التي كانت تضم كلا من الباكستان والهند وبانغلاديش .

كانت شركة الهند الشرقية تدير امور الخليج حتى عام ١٨٥٦ وبعد انتقال السلطة من الشركة الى الحكومة البريطانية بعد الثورة الهندية انتقلت ادارة الخلج في عام ١٨٥٩ لحكومة بومباي التي اصبحت ممثلة بريطانيا في المنطقة وبعد ذلك انتقلت الادارة الى حكومة الهند البريطانية عام ١٨٧٣ وظل الموقف حتى عام ١٩٤٧ عندما

استقلت الهند واصبحت ادارة الخليج بيد وزارة المستعمرات ثم انتقلت الى وزارة الخارجية حتى الأستقلال .

لقد تطورت العلاقة بين السلطة البريطانية والمشيخات حسب تطور المعاهدات والاتفاقيات التي عقدت بين الطرفين وقد انتقل رؤ ساء هذه المشيخات من حرية التصرف في امورهم الى التقيد باوامر المقيم البريطاني في بوشهر وهلم جرا حتى اصبح هؤ لاء لا قيمة لهم دوليا فقد اصبحت جميع العلاقات الخارجية والدفاع والمالية مرتبطة بالمعتمد البريطاني الذي يجري على الرؤ ساء الرواتب الشهرية ومنها كانوا يعيشون وقد ترك للشيوخ بعض الصلاحيات فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية ، كالزواج والطلاق . وقد اسبغت بريطانيا على هذه المشيخات صيغا تحدد كيانها السياسي فهي من جهة تعتبر دولا مستقلةترتبط مع بريطانيا بمعاهدات فقطومن جهة اخرى نرى الممثل البريطانية صاحب السلطةالفعلية . اما الجهةالرسمية البريطانية فتعتبر المشيخات دولار خاضعة للحماية البريطانية وليست محميات (يقصد مثل محمية عدن) وان هذه الدول ترتبطمع بريطانيا بمعاهدات خاصة فهي حرة الاتصال مع العالم الخارجي ولكن عن طريق المقيم البريطاني في بوشهر .

وهكذا انتهى دور القوى العربية المحلية في الصراع على الخليج ولم يبق سوى سلطنة عمان التي هي الاخرى خضعت للسياسة البريطانية ولم يعد لها دور محسوس في تقرير سياسة الخليج . ولم يكن للسعوديين دور كبير بسبب مشاكلهم الداخلية وعدم اهتمامهم بالبحر كما سنرى لذلك وجهت بريطانيا انظارها نحو السيطرة على فارس والعراق فتقاسمت مناطق النفوذ في فارس مع روسيا واحتلت العراق وابعدت فرنسا كليا عن المنطقة . وفي نهاية القرن التاسع عشر كانت السيطرة تامة لبريطانيا ولم يعد ينافسها منافس ويقول اللورد كيرزون بصلفه الاستعماري « في كل اقسام الخليج نرى صورة بريطانية مسلحة بالسيف ممسكة بيد من حديد عاتق الميزان » ولكنه لا يذكر مدى فائدة بلاده من الخليج .

الفصل الثالث

الصراع في وسط وشرق الجزيرة العربية واثره على مسيرة الاستعمار البريطاني في الخليج

ـ ظهور الدعوة الوهابية ـ العلاقات بين الوهابيين والانكليز في المراحل الأولى ـ انسحاب المصريين من الجزيرة العربية وعودة ال سعود ـ محمد علي يعود للمرة الثانية للجزيرة العربية ـ ظهور فيصل بن تركي ـ هزيمة الحملة المصرية الأولى ـ القائد المصري خورشيد وانتصاره على السعوديين ـ خورشيد يعمل لتبعية الجزيرة العربية لمصر ـ خوف الانكليز من مطامع خورشيد ـ محمد علي يسحب القائد خورشيد ـ انسحاب الحملة المصرية ـ عوده السعوديين ـ عودة الامام فيصل بن تركي ـ العلاقات بين الانكليز والسعوديين ـ الخلافات الداخلية وحرب الوراثة السعودية ـ ظهور ابن الرشيد في شمر وتغلبه على السعوديين ـ العلاقات بين السعوديين وال الرشيد ـ احتلال العثمانيين للاحساء ـ ظهور عبد الرحمن ال سعود ـ هزيمته امام ال الرشيد وانتقاله للكويت ـ ظهور عبد العزيز ال سعود وتأسيسه الدولة السعودية الثانية .

الفصل الثالث

الصراع في وسط وشرق الجزيرة العربية واثره على مسيرة الاستعمار البريطاني في الخليج

كان القرن التاسع عشر والقسم الأكبر من القرن الثامن عشر مليئين بالأحداث التي غيرت تاريخ المنطقة الواسعة الممتدة من الهند حتى الجزيرة العربية ، فقد ظهرت الامبراطورية الهندية البريطانية كقوة جبارة في وسط وجنوب اسيا امتد نفوذها الى مختلف المناطق حولها بما فيها الخليج العربي . كما ظهرت في الجزيرة العربية الدعوة الوهابية التي قلبت الأوضاع رأساً على عقب وادى ظهورها الى صراع طويل اشترك فيها العثمانيون والمصريون وقوى داخلية في الجزيرة العربية في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تستقر في الخليج بدون منازع مستغلة هذا الصراع افضل استغلال .

بدأ الصراع في وسط وشرق الجزيرة العربية مع ظهور الدعوة الوهابية بعد الحلف الذي عقد بين ال سعود امراء الدرعية والشيخ محمد بن عبد الوهاب وكان صراعا من نوع اخر لم يمر على الجزيرة العربية مثله في العصور الحاضرة فقد كان صراعاً بين قوى جديدة تحمل افكارا دينية واجتماعية جديدة ضد القوى التقليدية الداخلية والخارجية ، وكانت الدعوة الوهابية تعتبر حركة اصلاحية دينية ذات نوازع اجتماعية وسياسية . لذلك كان الصراع بعيدا عن كونه حربا بين قبائل للحصول على الغنائم والأسلاب لهذا احدث تغييرات جذرية في حياة الجزيرة العربية كما تعتبر الدعوة الوهابية النواة الأولى لظهور العائلة السعودية كأكبر عائلة مالكة في الجزيرة العربية بالرغم من الصعوبات التي واجهتها وادت في النهاية الى تأسيس المملكة العربية السعودية الحديث . وقد مرت خلال مسيرتها الطويلة في مرحلتين رئيسيتين تميزت المرحلة الأولى بظهور الدولة السعودية المعروفة بالأولى وبدأت مع ظهور الدعوة الوهابية حتى هجرة آل سعود الى الكويت وتميزت المرحلة الثانية مع ظهور عبد العزيز بن عبد الرحمن المعروف بابن سعود وتأسيس الدولة السعودية الحديثة .

في فصل سابق تعرضنا للدولة السعودية الأولى وفي مرحلتها الأولى ، وخلال هذه الفترة كان الانكليز يسيرون قدما في ترسيخ نفوذهم في الخليج وكان من المتوقع ان يصطدم السعوديون بالانكليز خلال توسعهم شرقا وجنوبا وفي الوقت الذي كان فيه الانكليز يعملون للقضاء على القواسم كحلفاء للسعوديين كان هؤلاء يحطمون نفوذ سلاطين مسقط حلفاء الانكليز ومع ذلك لم تصطدم القوتان وسارتا بشكل متواز وكل منهما يحاول الابتعاد عن الاخر . وساعدت امور كثيرة على عدم الصدام بينهما . فالسعوديون لم يركبوا البحر ولم ينازعوا الانكليز سيطرتهم عليه ، فقد قدموا من مناطق صحراوية داخلية بعيدة عن البحر وربما كانوا سيركبون بعد فترة من الزمن ولكن الأحداث التي داهمتهم ابعدتهم عن كل تفكير وقنعوا بمحالفة القواسم بما لديهم من قوة بحرية هائلة . وبالرغم من أن المعتمدين البريطانيين السياسيين كانوا يتهمون السعوديين بأنهم مسؤولين عن نشاط القواسم البحري الا ان حكومة بومباي كانت تبرر الموقف على اساس ان السعوديين لم يتعرضوا مطلقا للمصالح البريطانية في البحر لذلك منع القادة العسكريون من النزول الى شواطىء الجزيرة لمعاونة حلفائهم خوفا من الاصطدام مع السعوديين . ويبدو ان السعوديين ايضا كانوا لا يريدون التورط في أي قتال مع الانكليز رغم حدوث بعض المصادمات مع الحاميات السعودية في عمان عندما كان الانكليز يحاولون معاونة سلاطين مسقط لاستعادة بعض المناطق التي ضمها السعوديون اليهم ، ومع ذلك فقد ترددت حكومة الهند بالتوقيع على اتفاقية تعاون وتجارة عام ١٨١١ مع السعوديين ولكنها لم تمانع بايجاد علاقات طبيعية معهم وحسب قول لوريمر «ان السعوديين اخبروا الانكليز بعد حملتهم الثانية على القواسم بأنهم على الحياد في هذا الموضوع ، ومن المحتمل ان يكون السعوديون يأملون بوقوف الانكليز بجانبهم او على الأقل على الحيادة مثلما حاولوا مع الفرس في حرب محتملة مع الأتراك الذين كانوا يعملون للقضاء عليهم ، ومثلما كان الانكليز يعملون لفصل قضية الصراع بينهم وبين القواسم عن علاقتهم مع السعوديين ، وكان هؤلاء يفصلون ما بين الانكليز وعدائهم لسلطان مسقط .

بعد انسحال المصريين من الجزيرة العربية في عام ١٨٢٤ بعد حملتهم الأولى واحتلالهم الدرعية كما مر معنا ، عاد السعوديون للانتعاش وبسرعة وأخذ نفوذهم

يزداد بالرغم من ان قوتهم لم تعد تثير الهلع في نفوس السكان في مختلف المناطق كما كان عليه الحال قبل الحملة المصرية ولكن مشايخ القبائل ظلوا يخشون بأسهم ويبدو ان تركي بن عبد الله هو الذي ورث والده في الحكم بعد الانسحاب المصري . وهو الذي دخل مع حكومة بومباي بمراسلات وديـة كشفت حسب قول لوريمر (عن تهذيبه وصفاء خلقه ، وقد استطاع السعوديون اعادة نفوذهم في اغلب المناطق التي كانت تدين لهم بالولاء والتي كانت تدفع لهم الجزيـرة مثل عمان والبحرين والشارقة . . . الخ كما استعاد السعوديون الأحساء من بني خالد بعد ست سنوات من القتال ضدهم . وان المرء ليعجب لهذه الحيوية الجبارة التي استطاعت ان تنهض من تحت الأنقاض بنفس الزخم الحربي السابق تقريبا ، ولا شك انه يعود لعقيدتهم الدينية التي لا يفوقها اية دوافع اخرى .

لم يمض اكثر من اثني عشر عاما على خروج المصريين من الجزيرة العربيـة حتى بدأوا يخططون للعودة اليها بدوافع تختلف عن الدوافع التي ادت الى الحملة الأولى . وكان ذلك عندما بدأ محمد علي باشا في تحقيق حلمه باقامة امبراطوريـة كبرى على انقاض الخلافة العثمانيــة تضم مصر والسودان وبلاد الشام والجزيـرة العربية وعلى هذا الأساس اندفعت القوات المصرية نحو بلاد الشام واجتازتها الى الأناضول وتمت هزيمة الجويش العثمانية في معركة كوتاهية وانفتحت ابواب الأستانة امامهم ، وهنا شعر العثمانيون بخطئهم في الاعتماد على محمد علي كسلاح بين ايديهم للقضاء على المعارضة العربية والذي استفاد من تجارب جيشه في القتال في الجزيرة العربية واليونان .

خلال هذه الفترة ظهر الامام فيصل بن تركي كوريـث وزعيـم للسعوديـين والوهابيـين وخشي محمد علي باشا من قيـام فيصل بتحريض من الأتراك للثار من المصريين والعمل على مهاجمتهم في سورية بالاضافة الى خوفه من استخدام العثمانيين للجزيرة العربية للهجوم على أجنحة القوات المصرية المتقدمة في سوريا والواقع ان محمد علي كان يضع في خططه ضم الجزيـرة العربيـة بما فيها الأماكن المقدسة الى امبراطوريته لـمـا لهذا العمل من صدى لدى العالم الاسلامي كخادم للحرمين الشريفين ، ومما لاشك فيه انه لو استتب الأمر لمحمد علي باشا في سوريا لعمل على احتلال العراق ، وكان من المفروض ان يعمل محمد علي على احتواء السعوديـين

وغيرهم من القوى العربية والتعاون معها ضد العثمانيين اذا كانت نيته صافية في خلق الدولة العربيـة الواحدة ولكنه بالعكس حاول القضاء على هذه القوى التي انهكت قواه وجعلته في الوقت الحرج يضطر للعودة الى مصر .

وصلت الحملة المصرية الى الحجاز عام ١٨٣٦ بقيادة اسماعيل اغا وكان معه الأمير خالد بن سعود الذي كان يعيش في مصر بعد النبكة الأولى في بلاط محمد علي في محاولة لفرضه حاكما على نجد تحت السلطة المصريـة ، وقد وصلت الحملة الى القصيم في طريقها الى نجد ، فانسحب الأمام فيصل بن تركي امامها نحو الأحساء واخذ يترقب نتائج المعركة بين قواته والمصريين وقد انتصرت قواته عليهم وعاد الى نجد ووصل الى الخرج والتقى بالمصريين في المصانع فقهرهم ايضا فاضطروا للانسحاب الى الرياض ولكن القوات السعودية قطعت عليهم الطريق فاتجهوا نحو (منفوخة) وتمت هناك محاصرتهم ، فاضطروا لارسال الأمير خالد لمفاوضة فيصل الذي اصر على انسحاب المصريـين واعترافهم باستقلال بلاده وسيـادتها على أراضيها ، وقد رفض محمد علي هذه الأتفاقية وارسل قائدا جديدا للحملة المصرية هو خورشيد باشا وكان هذا من القادة الأكفاء في جيش محمد علي ودارت مفاوضات بينه وبين الامام فيصل للتوصل الى صيغة للصلح ، ولكن فيصل اصر اصرارا تاما على استقلال بلاده وسيـادتها مهما كانت النتائج وقد رفض خورشيـد الاعتراف بالاستقلال للسعوديين ويبدو انه خلال هذه الفترة استطاع عن طريق الأمير خالد بن سعود ان يفتت الناس من حول فيصل وعند بدء الحرب وعودتها استطاع خورشيد الاحاطة بفيصل واسره ونفي الى مصر واستلم خالد الحكم من بعده تحت السلطة المصرية ولكن بعد سنين ثار الناس عليه وخلعوه .

بعد استسلام فيصل اندفع القائد المصري خورشيد بقواته نحو الأحساء في نهاية عام ١٨٣٨ واحتل شواطئها وموانئها وأطل على الخليج العربي واقيمت وكالة سياسية مصريـة في الكويـت ثم ابتدأ بالاستعداد للاتجاه نحو ساحل الامارات ، ولكنه خشي من اصطدامه بالانكليز دون معونة بحرية ، لذلك ارسل الى محمد علي يطلب منه ارسال سفينتين حربيتين للخليـج تكـونان نواة للأسطول المصري في الخليـج ، وقد رفض محمد علي مثل هذه الاقتراحات خوفا من نتائجها السياسيـة وعلاقاته مع بريطانيـا التي كان يخشى الاصطدام معها خلال حروبه مع الدولة

العثمانية وكان محمد علي قد اعطى ضمانات للممثل الانكليزي في مصر بأن فتوحاته لن تتقدم نحو الشرق .

لم تكن أجوبة محمد علي بالمقنعة لقائده خورشيد الذي كانت له طموحاته فأخذ يتصل بمشايخ القبائل داعيا لهم للانضمام الى محمد علي الذي كان يعمل لخلق امبراطورية عربية كبرى . وقد لقيت نداءاته اذنا صاغية من قبل المشايخ وقد استقبلوا موفديه بالترحاب والسرور مما يدل على ان العاطفة الدينية والعربية لدى هؤلاء المشايخ اقوى من عاطفة المصلحة الضيقة ، وبرهنوا على انهم لم يخضعوا للانكليز الا بسبب ضعفهم وعندما وجدوا من يساعدهم استعدوا للانضمام اليه وكانوا معجبين بالقوات المصرية التي لا تقهر وبخاصة بعد قضائها على القوات السعودية التي لم يقف امامها احد . وقد ساعد شيخ الكويت القائد المصري (خورشيد) بنقل الكتائب العثمانية التي انضمت اليه من البصرة على سفنه كما قدم قرضا له لدفع رواتب الجنود بعد تأخر وصولها اليه واخيرا اراد احتلال البحرين منطلقا من الكويت وهنا منعته بريطانيا وكشفت عن وجهها الاستعماري الذي لا يقبل مزاحمة احد ولو كان من اهل البلاد وقد شعر خورشد بالأسى من هذه البادرة فأرسل رسالة مطولة الى محمد علي مع تقرير ممتاز عن الحالة الموجودة فيها شواطىء الخليج العربي وقبائله وعن اطماع الانكليز في الخليج واهمية البحرين واعتبرها مفتاح الخليج مثل جزيرة مالطة ويطلب احتلالها «واذا كان غير من الممكن ابقاؤ ها في حوزتنا (يقصد حوزة المصريين فلا أقل من ان تبقى لا لنا ولا للانكليز والأولى ان تترك مستقلة لآل خليفة وان قلعته الدماء هي جانب الأحساء ولم يزل ابن خليفة مقيما فيها فوجوده ايضا عقبة في مسألة البحرين فاذا تمكن الانكليز من احتلالها تكون تلك الجهات ايضا لهم كما لا يخفى» .

كان قدوم المصريين ومحاولاتهم لمد نفوذهم الى امارات الخليج العربي اكثر مما يتحمله التفكير الاستعماري البريطاني الذي كان يسيطر على الخليج ورغم امكانيات الحملة المصرية العسكرية المحدودة الا انها أخافت الانكليز من أن تصبح عقبة في سبيل تحقيق ما يطمحون اليه من جعل الخليج خاضعا للنفوذ البريطاني بدون منازع مهما كانت قوته وأكثر ما كان يخيف بريطانيا ظهور الشعور الديني والقومي في المنطقة بسبب وجود المصريين يضاف الى ذلك ما كان بين المصريين والفرنسيين من علاقات

في تلك الفترة وعلى هذا الأساس اوعزت حكــومة الهند التي كانت مضطلعة على سياسة حكومة لندن المعارضة للمصريين ، الى قائد البحرية في جزر الهند الشرقية والمقيم العام في الخليج باحباط خطط المصريـين ، وصدرت الأوامر بتولي القوات البحريــة الدفاع عن البحرين ، كما بدأ الانكلـيــز يثيرون المشايخ والقبائل على المصريين وقام المقيم العام البريـطاني الكـابتن (هونيل) بتوجيـه الانذارات وعاقبه المصير لكل من يحاول الاتصال بالمصريـين ويتعاون معهم ثم زار البريمي لتشجيع القبائل وبخاصة قبائل النعيم لوقوف ضد المصريـين وبارك الانكليـز التحالف الذي تم بين سلطان مسقط وحاكم صحار لمقاومة المصريين في الوقت الذي كان فيه المقيم البريطاني يشيع بأن القائد المصري يعمل لنفسه بدون علم محمد علي ، وقام بتوزيع منشورات تتعلق بذلك في مختلف الامارات ، ويقول لوريمر انه في ربيع ١٨٤٠ كان البريطانيون على وشك القيام بحصار الأحساء ولكن انسحاب المصريين اوقفهم عن ذلك .

في الوقت الذي كانت فيه حكوم الهند تنشط لخلق مقاومة عربيـة لمشروعات المصريين في الخليج كانت حكومة لندن تجري اتصالات واسعة في المجالين السياسي والدبلوماسي مع الدول الأوروبية الأخرى لخلق جو من العداء ضد ظهور محمد علي الذي اصبح خطرا على امبراطوريتها التي تضم عددا كبيرا من المسلمين والذين كانوت في ذلك الوقت يشكلون القوة الرئيسية في الهند ، وبصورة خاصة اذا فكر في الامتداد شرقا ويحل محل الدولة العثمانيــة (ألرجل المـريض الذي يجب ان يبقى مريضا) لذلك وجهت كل الطاقات للوقوف في وجه محمد علي واثارة الدول الأوروبيــة ضده ودعت الى مؤتمر لندن حضرته الدول العظمى في ذلك الوقت كروسيا وبروسيا والامبراطورية النمسوية وعقد المؤتمر عام ١٨٤٠ وشاركت فيـه الدول العثمانية وخرج المؤتمرون بنتيجة واحدة هي ايقاف محمد علي وانذر بترك كل المناطق التي احتلها والتابعة للدول العثمانية مع الاعتراف بولايته هو وورثته بضمانة الدول الأوروبية .

حاول محمد علي الالتجاء الى حلفائه الفرنسين الذين كانوا اضعف من ان ينجدوه كما كان لهم مطامعهم في شمال افريقية العربية لذلك نصحوه بقبول العرض البريطاني فاضطر للانسحاب الى مصر وعادت السـطرة العثمانيـة على بلاد الشام

والجزيرة العربية ، ولو نظرنا الى كل المناطق التي تركها محمد علي لوجدنا انها وقعت بعد نصف قرن تحت سيطرة الدولتين الكبيرتين في ذلك الوقت بريطانيا وفرانسا .

بعد انسحاب القوات المصرية من نجد عاد الامام فيصل بن تركي من منفاه في مصر بعد غيــاب عن نجد دام خمس سنوات ١٨٣٨ - ١٨٤٣ ، وعندما وصل القصيم أحد 'صدقاءه السابقين وهو عبد الله بن ثنيان يحاصر بلدة عنيـزة بعد ان اعلن امارته على نجد ، فدعاه الأمام فيصل للتعاون والدخول في طاعته فرفض بن ثنيان فاضطر فيصل لمحاربته وقضى عليه مما ساعد على ازدياد هيبة فيصل والتفاف السكان حوله ودام حكمه اربع وعشرين عاما استطاع فيها تأمين الاستقرار والهدوء في البلاد بعد الحروب الطويلة التي مرت عليها ، وبعد ذلك عاد الوهابيـون الى سيـاسة الامتداد وطلب الجزيـة من الجيران والدخول في طاعتهم وخاصة امارات الساحل ، ولم تحرك بريطانيــا ساكنا في هذا المجال لأنها لم تكن تخشى هؤلاء وتعتبرهم اقل خطرا من المصريــين بالنظر لامكانيــاتهم المحدودة وتنظيمهم غير المحكـم وجهلهم بسيـاسة اوربا على عكس المصريـين المنظمين والمـطلعين على السياسة الدولية لذلك كانت تنظر للحظر الوهابي بلا مبالاة ، ومع ذلك حاولت الاتصال بالسعوديين في الرياض ووصل المعتمد البريطاني في الخليج الكولونيل بيلي الى الرياض وقابل الامام فيصل وابدى حسن نية بريطانيا تجاه السعوديين (حسب قول لوريمر) ووصف بيلي الامام فيصل بأنه حاكم شديد عادل لم يسبق له مثيل في النجاح فهو يكبح جماح قبائله كلما يود ان يزرع فيهم عادات المتحضرين وان يوجه افكارهم نحو الزراعة والتجارة وقد ابلغت بريطانيا الامام بأن ليس لها غرض فيما يختص بقبائل جزيرة العرب سوى ان تراهم يعيشون بسلام ورخاء في حدود ديارهم وتحت سلطة حكامهم» والواقع ان بريطانيا في ذلك الوقت لم يكن لها مطامع داخل جزيرةالعرب ذات التربةالجرداء والامكانيات الاقتصاديةالمحدودة جداوالمهم لسيها عدم اثارة السعوديين للابتعاد عن خطر المواجهة معم بصورة خاصة في ساحل عمان على الخليـج العربي فهمها الأول ضمان الهدوء على ميــاه الخليــج لتأمين خطوط مواصلاتها البريـة والبحريـة مع البحر الأبيض المتوسط وتنمية تجارتها وابعاد كل منافسة اجنبية ، وقد المح الكـابتن هونيل الى مطامع فيصل في الجزيـرة العربيـة وسواحل الخليج التي يعتبرها تابعة له ويردد قوله بأن «القسم الشرقي من بلاد العرب

من الكويت حتى رأس الخيمة خاضع لنا وان ارض العرب هذه الممتدة من الكويت الى القطيف فرأس الخيمة فعمان لرأس الحد وما وراءها هي ارض وهبنا الله اياها» .

بعد موت فيصل عام ١٨٦٥ دخلت الدولة السعودية في حالة الضعف والأنقسام بسبب النزاع بين ورثته وبدأت حرب الوراثة السعودية بين ولديه سعود وعبد الله ، في الوقت الذي كانت فيه امارة جديدة تظهر في شمال نجد وهي امارة ال الرشيد في حائل وتضم جبل شمر وقبائله ، وكان الأمام فيصل قد نصب كبير ال الرشيد عبد الله بن علي حاكما على شمر عام ١٨٣٥ ولكن هذا لم يلبث ان اعلن استقلاله خلال ضعف السعوديين وشجعه على ذلك حكام مكة (الشرفاء) عام ١٨٤١ ولكن ابنه عاد وأعلن ولاءه لفيصل بعد وفاة أبيه ، وقد اغتنم العثمانيون حرب الوراثة والتجاء احد الأخوة وهو عبد الله لهم وطلب دعمهم ضد اخيه سعود واحتلوا الأحساء عام ١٨٧١ م بالرغم من ضعفهم العام واخذوا بالتدخل في شؤ ون السعوديين بعد ظهور حركة الاصلاح والتجديد في الدولة العثمانية التي كان رائدها مدحت باشا الذي كان حاكما للعراق في ذلك الوقت وكان يعتبر كل جزيرة العرب ملكا لبني عثمان ويجب ان تعود اليهم وتدفع الجزية .

استطاع سعود التغلب على اخيه ودخل الرياض ورحل عبد الله الى البادية بين القصيم والأحساء ومعه اخوه محمد ولكن سعود لم يلبث ان توفي فبايع اهل الرياض اخاه عبد الرحمن عام ١٨٧٥ م فأقام فيها حوالي عامين ثم نهض اخوه محمد لقتاله وكادت الحرب تتجدد بين ال سعوديين ولكن الأخوين تصالحا على اعادة عبد الله الى الحكم فتنازل له عبد الرحمن عن الامارة وهكذا عادت الأمارة للأخ الأكبر عبد الله ابن فيصل .

بعد ذلك ظهر محمد بن الرشيد كمنافس لآل سعود ومستغل للخلاف بين افراد العائلة وليقوي سلطانه ويمد نفوذه على نجد بتشجيع من الأتراك وكانت له خفارة الحج العراقي مأجورا عليها من قبل ولاة بغداد والبصرة لذلك توثقت صلاته بهم . فخاف ال سعود على الرياض من سقوطها بيد ال الرشيد بسبب ضعف عبد الله ، فاحتل اولاد سعود الفيصل المدينة بعد قتال شديد عام ١٨٨٧ م وسجنوا عمهم عبد الله وتولى كبيرهم محمد آل سعود الأمارة . فما كان من محمد آل الرشيد

الا ان استنفر القبائل لقتال حكام الرياض وتخليص عبد الله من السجن وتوجه نحو الرياض وعلى مشارف البلدة حدثت مفاوضات بين ال السعود وال الرشيد واعلن محمد ال الرشيد ان هدفه هو تخليص الأمام عبد الله من السجن فقطوليس الاستيلاء على المدينة ومع ذلك فقد دخلها عام ١٨٨٨ واعطى الأمان لآل سعود وسمح بعودتهم الى منازلهم في الخرج وأخرج عبد الله من السجن وأرسله هو وأخوه عبد الرحمن الى حائل عاصمته وولى على الرياض أحد اقربائه سالم السبهان ، ثم سمح ابن الرشيد لعبد الله وأخيه عبد الرحمن بالعودة الى الرياض على امل اعادة الأمارة لآل سعود وأعطى توجيهاته لواليه في الرياض للتخلص من عبد الرحمن الذي فطن للعبة فوثبت على سالم والى ابن الرشيد في الرياض واعتقله وقتل نفرا من اصحابه وتولى الأمارة . ثم أن ابن الرشيد حاصر الرياض التي صمدت في وجهه وتفاوض الطرفان على بقاء عبد الرحمن في الامارة واطلاق سراح سالم عام ١٨٩٠ .

ولكن الحرب عادت بين ال الرشيد وال السعود وذلك عندما قام اهل القصيم بثورة ضد ال الرشيد بسبب عدم وفاء هؤلاء لأهل القصيم بوعودهم في ضم بعض الأراضي لهم ودار القتال شديدا بين ال الرشيد واستطاع.ابن الرشيد التغلب بالحيلة على اهل القصيم في المعركة المشهورة باسم (المليدا) وكانت معركة فاصلة جعلت ابن الرشيد سيد نجد لعدة سنوات لأن عبد الرحمن آل سعود حاول نجدة اهل القصيم ولكنهم هزموا قبل وصوله وكانت قواته غير كافية فاضطر للعودة في منتصف الطريق ولكن ليس الى الرياض بل الى البادية هو وأهله وسقطت الرياض بيد ال الرشيد .

حاولت الدولة العثمانية التي كانت موجودة في الأحساء الاستفادة من وضع ال السعود السيء وعرضت حمايتها عليهم ومساعدتهم لاستعدة امارتهم مقابل دفعهم للخراج السنوي والاعتراف بتعيتهم لها ولكن عبد الرحمن رفض ذلك واخذ يضرب في البادية حتى استقر مبدئيا بالقرب من الربع الخالي وأقام هناك بضعة اشهر ثم انتقل منها الى قطر ثم الى البحرين واخيرا استقر في الكويت . وبقيت العائلة السعودية هناك سنوات تنازل فيها عبد الرحمن لابنه عبد العزيز عن الامارة الذي بدأ مسيرة الدولة السعودية الثانية واسس المملكة العربيةالسعودية الحديثة (كما سنرى) .

بعد ظهور دولة آل الرشيد كدولة تابعة للخلافة العثمانية واحتلال العثمانيين للأحساء بدا وكأن السيطرة العثمانية شملت المنطقة كلها مما أخاف الانكليز رغم

معرفتهم الأكيدة بضعف الدولة العثمانية وبخاصة بعد ظهور المطامع العثمانية التي تطالب باحتلال الكويت وقطر ووضع الامارات تحت النفوذ العثماني وكان يقود الحملة ليحقق هذا المخطط مدحت باشا والي بغداد فقد استطاع رفع العلم العثماني على الدوحة واعتبر الكويت تابعة له بسماحها لقواته المنطلقة نحو الدوحة من اتخاذ الكويت قاعدة انطلاق هذه القوات يضاف الى ذلك اقامة القنصلية التركية في بوشهر لمراقبة المنطقة ومحاولة العثمانيين باحتلال البحرين ما بين عام ١٨٧١ - ١٨٧٢ وقد اعترضت بريطانيا مخططات الدولة العثمانية فتولت الدفاع عن البحرين وارسل الأسطول البريطاني لحمايتها ، ولكن الانكليز اعترفوا بتبعية الأحساء للترك .

وكان انتصار ابن الرشيد زعيم قبيلة شمر وحليف الأتراك انتصارا موقتاً لأن السعوديين عادوا للظهور بزعامة عبدالعزيز بن عبدالرحمن المعروف باسم ابن السعود فقد احتل الرياض عام ١٩٠٢ بمغامرته المشهورة بعد ان قتل والي ابن الرشيد على البلدة ثم احتل القصيم وبسط سيطرته على نجد وسيطر على اواسط جزيرة العرب واسس ١٩٠٢ منظمة الأخوان واستعاد الأحساء عام ١٩١٢ وابتدأ المد السعودي يأخذ ابعاده في كل الاتجاهات وبخاصة الى الخليج حيث استطاع البريطانيون ابعاد كل منافسة اوربية وخاصة الروسية والفرنسية وهيمنت على الخليج بشدة وتنبأت بمستقبل ال سعود لذلك اسرعت الى ارسال المبعوثين الى الرياض وعرض فكرة التعاون . ووصل الرياض النقيب شكسبير بمهمة معينة تقضي باقامة علاقات وثيقة مع السعوديين وعرض المساعدة عليهم ودفعهم لمحاربة آل الرشيد والأتراك اعداء عبد العزيز القدامي ، وكان الانكليز يهدفون من وراء ذلك اولا الهاء السعوديين عن متابعة توسعهم في منطقة الخليج وثانيا اضعاف قوة الأتراك في الجزيرة بمحاربة حلفائهم آل الرشيد ، وفي ذلك الوقت اندلعت الحرب العالمية الأولى وابتدأ تطور جديد للأوضاع في المنطقة بعد ان اصبحت الامبراطوريتان العثمانية والبريطانية في حالة حرب .

الفصل الرابع

المنافسة الدولية في فارس والخليج والبحر العربي ومحاولات روسيا القيصرية للوصول الى المياه الدافئة والمفتوحة واسس الستراتيجية الروسية الحديثة

ـ السيطرة البريطانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر والقسم الأكبر من النصف الثاني ـ الدول المتنافسة في الخليج ـ المنافسة الروسية ـ ميدان التنافس الرئيسي ـ الوضع في ايران واثره على التنافس الدولي في ايران ـ ناصر الدين شاه والتنافس الروسي ـ البريطاني ـ مظفر الدين شاه وتقسيم ايران الى منطقتي نفوذ في بداية القرن العشرين ـ محاولات الاصلاح ني ايران اسباب الخوف البريطاني من روسيا في ايران ـ الأطماع الروسية في الخليج ـ ظهور الستراتيجية الحديثة واسبابها ـ حركة الامتداد الروسي نحو الشرق ـ بطرس الأكبر ـ فكرة الوصول الى المياه الدافئة والمفتوحة ـ المراحل الثلاث التي مرت بها حركة الامتداد والتوسع للنشاط الروسي في فارس ـ ردود الفعل البريطانية ـ اتفاقية تقاسم النفوذ بين بريطانيا وروسيا في ايران

ـ المنافسة الفرنسية ـ ظهور الألمان في العراق وفكرة خط حديد برلين ـ بغداد ـ الاتفاق الألماني الانكليزي لمد خط سكة حديد برلين ـ بغداد ـ ردود الفعل البريطانية والأسس الموضوعية لحماية الخليج من التسرب الاستعماري غير البريطاني

الفصل الرابع

المنافسة الدولية في فارس والخليج ومحاولات روسيا للوصول الى سواحل الخليج

استطاعت بريطانيا كما رأينا خلال القرن التاسع عشر من ترسيخ نفوذها وسيطرتها على المنطقة ما بين عدن وهونغ كونغ بعد قضائها على المقاومات المحلية وابعاد كل المحاولات للتدخل الخارجي وخاصة الفرنسي الذي كان يخيف الانكليز دائما نظراً لشراسة الافرنسيين وجرأتهم وبغضهم للانكليز . ففي عام ١٨٠٠ كتب الجنرال مالكولم من اصفهان يعرض بالفرنسيين ويوجه الاهتمام لأهمية الخليج فيقول «ان هؤلاء الأوغاد الفرنسيين سيقنعون الأتراك بأنهم اشد الناس صداقة لهم وهم لو نجحوا في تثبيت قواعدهم في مصر بأي شكل من الأشكال فيجب ان ننظر بحذر في كل اتجاه وفي اتجاه الخليج يجب أن ننظر بحذر اكثر» . وقد ظل الانكليز فترة بعيدون عن كل منافسة فقد كانوا يقدرون اهمية المنطقة تقديرا كاملا فقد ذكر اللورد كيرزون احد واضعي الاستراتيجية البريطانية في الشرق «بأن بلاد الشرق الأوسط ما هي الا قطعة على لوح الشطرنج والتي ستحدد اللعبة عليها من الذي سيسيطر على العالم . ولكن في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى اي في العشرينيات من القرن العشرين ، تعرض الوجود البريطاني الى المنافسة القوية في الخليج خاصة من قبل روسيا القيصرية التي كان نفوذها يمتد الى حدود الهند الشمالية ، ومن المعروف ان روسيا منذ زمن بطرس الأكبر كانت تعمل للوصول الى المياه الدافئة والمفتوحة . وكان يهمها كثيرا حصولها على موطىء قدم في الخليج العربي اوعلى ساحل خليج عمان ولذلك كان لا بد لها ان تصطدم بالأسد البريطاني الذي يحرس الهند . ولم يقتصر التهديد على الروس فقط بل كان هناك اطماع القيصر الألماني التوسعية التي وصلت الى العراق . فبالرغم من ان العثمانيين كانوا لا يشكلون اي تهديد للنفوذ البريطاني في المنطقة بل هم على العكس خاضعون للنفوذ البريطاني ولكن وصول الألمان الى تركيا وتغلغلهم في جسم الرجل المريض هو الذي كان يهدد أمن واستقرار النفوذ البريطاني . اما فرا

فكانت محاولاتها ضعيفة جداً بسبب ضعفها في القارة اثر هزيمتها في حرب ١٨٧٠ امام الجحافل الألمانية ، مما جعل سياستها الخارجية تنقلب رأسا على عقب واخذت تعمل للتقارب مع عدوتها التقليدية انكلترا لتصبح بعد فترة حليفتها التقليدية وتخوضخان حربين عالميتين سوية .

كان الميدان الرئيسي للتنافس الروسي - البريطاني في مناطق الافغان والحدود الشمالية للهند وبلاد فارس . وقد ساعد هذا التنافس في بادىء الأمر كلاً من الأفغان وفارس على الأحتفاظ باستقلالهما واصبحتا دولا عازلة . ولكن الطرفين الروس والانكليز اتفقا بعد ذلك على تقسيم البلاد الفارسية الى منطقتي نفوذ ومنطقة محايدة في حين لم تتمكن اي من الدولتين من الهيمنة على افغانستان . وكانت الرابحة في ذلك التقسيم - كالعادة - بريطانيا . فهي ليست بحاجة لايران او ضم اراض جديدة فلديها ما يكفيها في امبراطوريتها الهندية . والمهم بالنسبة لها هو ابعاد النفوذ الروسي وتحجيمه في شمال ايران وخلق منطقة عازلة بين المنطقتين اي عدم تمكن روسيا من مد نفوذها الى ابعد من المنطقة التي خصصت لها في الشمال . وبموجب هذه الاتفاقية اوقف الزحف الروسي على ايران بعد أن ضم اليه اجزاء واسعة كانت تحت تأثير النفوذين الفارسي والتركي وهي المناطق الواقعة في شمال البلاد وكرجيا والبلاد الواقعة على ساحل بحر قزوين .

كان الوضع في ايران يساعد على امكانية التنافس بين الدول الكبرى الأوربية فايران حتى ذلك الوقت ، كانت تعيش وكأنها في العصور القديمة ، في ظل نظام عشائري ينتمي الى القرون الوسطى ، وكانت الانقسامات الداخلية هي الميزة الرئيسية لذلك العصر الذي يقابله في اوربا عصر النهضة الصناعية والديموقراطية ، والدولة نفسها كانت متعددة الأجناس والمذاهب من العائلة المالكة نفسها كانت تنتمي الى اسرة تركية ولم تكن هناك رابطة بين الحاكم والمحكوم كعادة الأنظمة الأوتوقراطية في الشرق ولم يكن هم الحاكم جمع المال للصرف على مباذله ولو ادى الى الاستعانة بالأجنبي ضد شعبه وأشد مايصب أمة من الأمم عدم الصلة والثقة مابين الحاكم والمحكوم وضمن هذا الخلل يستطيع الأجنبي ان يمد يده ويلعب بمصائر الشعب او الأمة المبتلاة . لقد حاول كل من آغا محمد مؤسس العائلة القاجارية وخليفته فتح علي ايقاف التقدم الروسي الا انهم لم يتمكنوا من ذلك بسبب تخلفهم

السياسي والعسكري وبصورةخاصةفي زمن الأخيرةالذي اشتهر بلاطه بالاسراف والتبذير على نساء البلاد عوضاً عن صرفها على تجهيز الجيوش وهذا ما كان يعانيه ابنه قائد الجيش الذي حاول الوقوف بوجه الروس . وهكذا فقدت ايران كل المقاطعات الشمالية يضاف الى ذلك حاولت ايران الاتصال بفرانسا لحمايتها من الروس عام ١٨٠٧ (اتفاق باريز) ارسلت فرانسا العقيد (فايفير بيه) لتنظيم الجيش الفارسي ولكن ايران لم تستطع ان تتكل على حليف بعيد فاتجهت نحو بريطانيا حيث حضر ممثلها الجنرال مالكولم الى طهران عام ١٨٠٨ واغلق البلاد امام فرانسا وقد ضمن الانكليز حماية ايران نظرياً وحاول الايرانيون التدخل في شؤ ون افغانستان ولكنهم فشلوا بسبب معارضةالانكيز لهم وادى ذلك الى خلاف طويل مع محمد شاه الذي خلف جده فتح علي ما بين ١٨٣٤ - ١٨٤٨ وجعله يتقرب من الروس ويمهد لهم التدخل في شؤ ون ايران وسمح لهم بفتح سفارة والتي كان جده يرفض الموافقه على وجودها كما حاول محمد شاه التقرب من بعض الدول الأوربية الأخرى مثل اسبانيا وبلجيكا وأخذ يلعب على حبل التقلب بين النفوذين الروسي والبريطاني وبالرغم من سماحه للروس باحتلال احدى جزر بحر الخزر التابعة لايران الا انه لم يستطع تحقيق اهدافه في ضم افغانستان الى بلاده . وقد خلفه بعد موته ابه ناصر الدين شاه ١٨٤٨ - ١٨٩٦ م وكان عمره عندما تولى الحكم ستة عشر عاماً وابتدأ بداية حسنة في المجال الداخلي بعد قضائه على احدى الثورات التي وقعت في اذربيجان ولم تمض فترة من الزمن حتى عادت المشاكل تعترض سبيله كأسلافه وبخاصة التي كانت تنتج عن اصطدام النفوذين الروسي والبريطاني في بلاده كما حدثت مشاكل داخلية ذات ابعادة عميقة كحركة (الباب) الدينية والمعروفة الآن حالياً باسم (البهائية) واضطر لاخمادها بالقوة . واما في مجال السياسة الخارجية فكانت السنوات الأولى من حكمه مشؤ ومة فقد حاول احتلال مدينة هراة الأفغانية عام ١٨٥٦ بناء على طلب اميرها ورفض الانكليز الاعتراف بهذا الاحتلال وهددوه بانزال قواتهم في فارس نفسها وبالزحف الى داخل البلاد وعندما رفض في بادىء الأمر دارت معارك ثانوية بين الانكليز والايرانيين في سبيل الاستيلاء على بوشير وخوزستان مما جعل الشاه يجلو عن افغانستان اثر معاهدة باريز ١٨٥٧ ويعترف باستقلال افغانستان . ولكن الشاه من جهة أخرى استطاع مد سلطته الى مقاطعتي سجستان وبلوجستان وتخليص بندر عباس من سلطان عمان . وفي عام ١٨٧٢ تم تخطيط الحدود بين افغانستان وايران

والهند ونالت افغانستان بعض المناطق المجدبة وابعدت عن البحر بعد ان احتلت بريطانيا مناطق البلوش والتي تشكل حالياً احدى المقاطعات الرئيسية في باكستان . وفي الشمال استطاع الشاه ان يحتل مدينة مرو عام ١٨٥٧ وينتزعها من يد التركمان وقد ظلت تابعة لايران حتى بعد موته ولكن خليفته اضاعها واحتلها الروس هي وغيرها من مناطق اسيا الوسطى التركية . وقد زاد الفساد في عهد ناصر الدين شاه وزاد طلبه للمال مما جعله يعمل على ترضية الاحتكارات الأجنبية من انكليزية وروسية بغية مساعدته بالقروض التي لم تكن لتبدأ حتى تنتهي وبالتالي كان هذا يساعد على امتداد النفوذين البريطاني والروسي في البلاد في ظل نظام اقطاعي متفسخ يتقاسم فيه نهب البلاد امراء العائلة المالكة وكان (ظل السلطان) الأخ الأكبر لناصر شاه يتعاون مع الانكليز في المقاطعة التي كان يحكمها وهي مقاطعة فارس اما (نائب السلطنة) الأخ الأصغر للشاه فكان مواليا للروس وباعتباره القائد العام للجيش فقد وضعت تحت تصرفه احدى القطعات الروسية المعروفة باسم الحرس القفقاسي لحماية الشاه وكان كل منهم يأمل بأن يستفيد من الدولة التي تحميه في الوصول الى الحكم حال موت الشاه لسبب ما وقد زار ناصر الدين شاه اوربا مرارا لتشجيع الاستثمارات الأجنبية في بلاده ولمنحه القروض وكان يصطحب معه عدداً كبيراً من رجال الحاشية مما يجعل رحلاته هذا عبئاً على الخزينة الفارسية وقد منح بعض الشركات من روسية وبريطانية الامتيازات لبناء الخطوط الحديدية وخطوط التلغراف واستثمار المناجم ولكنه الغاها كلها عندما وجد ان الانكليز لا يرضون عن الامتيازات الممنوحة للروس ولا يرضى الروس بالامتيازات الممنوحة للانكليز .

وفي عام ١٨٤٤ - ١٨٥٩ وبعد هزيمة الروس في شبه جزيرة القرم تم الاتفاق بين الانكليز والروس على الابتعاد عن التدخل في شؤون ايران وهذا ما كان يعمل له الانكليز، ولكن بعد عام ١٨٦٠ انحاز ناصر الدين الى فرانسا لاقامةتوازن مع النفوذ البريطاني ، وارسلت بعثة فرنسية لتحديث البلاد وتبعتها بعثة عسكرية لتنظيم الجيش .

وقد حاول الشاه ناصر الدين اجراء بعض الاصلاحات الداخلية لذلك ففي الرحلة الأخيرة لأوربا التقى في ميونيخ سنة ١٨٨٩ بجمال الدين الأفغاني الداعي للوحدة الاسلامية ودعاه للحضور الى فارس ، وبعد اقامة قصيرة بطهران حدث ما

كان متوقعاً بين الطرفين من خلاف مما جعل جمال الدين يلتجيء الى المسجد. ولكن الشاه أخرجه بالقوة وابعده عن ايران خوفاً من أفكاره على الشعب الفارسي الذي بدأ يتململ من فساد ادارة ناصر الدين شاه، وكانت مشكلة اخضاع التبغ للسيطرة الحكومية احدى الأسباب الرئيسية للغليان في البلاد الذي انتهى بمقتل الشاه فقد حاول الأشراف على زراعة التبغ وتجارته الى الانكليز لقاء مبالغ معينة من المال وقد اشرك الانكليز في هذا الاحتكار عددا من المساهمين الروس والألمان والفرنسيين. كما ساهم كبار المسؤولين في الدولة مما جعل هذا الاحتكار يصبح مجالاً لاستغلال الشعب بشكل بشع وادى هذا الى ثورته وساعد في ذلك التجار ورجال الدين وبخاصة التجار الذين تضرروا من هذا العمل واتخذ الشعب من قضية احتكار التبغ مجالاً للثورة والتعبير عن الكره العميق للعائلة المالكة ومن حولها من رجال الحكم الفاسدين وكان اغلب هؤلاء موزعي الولاء بين السفارة البريطانية والروسية الحاكمتين الحقيقيتين للبلاد. وقد اضطر الشاه تحت الضغط الشعبي الى شراء الامتياز بنصف مليون جنيه وبذلك وضع الأساس لما يعرف بالدين الفارسي باعتبار ان هذا المال الذي دفع كان قرضاً من البنك الملكي البريطاني الذي كان الشاه قد أنشأه عام ١٨٨٩ بمعونة الممول البريطاني (دي رويتر). ولكن هذا الاجراء لم يكن كافيا لاخماد الثورة الشعبية. ففي سنة ١٨٩٦ وبينما كان الشاه يستعد للاحتفال بالذكرى الخمسين لارتقائه العرش خر صريعاً برصاص احد مريدي جمال الدين الأفغاني فيما كان يتلقى العرائض من رعاياه وفقاً للعادات القديمة.

وقد خلف ناصر الدين شاه ولده مظفر الدين الذي كان يقيم في تبريز كولي للعهد وقد انتقل هذا الى طهران برفقة السفيرين الروسي والبريطاني وتسلم العرش بدون مشاكل لأول مرة. وقد حذا هذا ايضا حذو والده بالذهاب الى اوربا وفي تبذير الأموال مما جعل الغليان الشعبي يعود فالبلاد بحاجة ماسة الى اصلاحات تتناول مختلف النواحي من ادارية ومالية .. الخ وبخاصة نظام الحكم وجرت المظاهرات وحدثت اضطرابات في مختلف الانحاء، وقد وعد الشاه بدعوة مجلس تمثيلي منتخب من امراء البيت المالك، ورجال الدين، والنبلاء واصحاب الأراضي. ولكن مظفر الدين توفي بعد بضعة ايام من افتتاحه للجمعية الوطنية (المجلس) وخلفه ابنه محمد علي الذي لم يختلف من ناحية العمل عن اسلافه

وبخاصة العمل على سد خزانة الدولة الفارعة التي هي في الحقيقة خزائنه الخاصة عن طريق القروض وحاول اجراء بعض الاصلاحات ولكنها لم تكن كافية لايقاف النقمة الشعبية مما جعله ينشيء كتائب خاصة مؤلفة من جنود قوزاق مدربين على النمط الروسي لحمايته وحاول مرة عام ١٩٠٧ ان يبطش بالجمعية الوطنية عن طريقة ثم عدل عن ذلك . وخلال هذه الفترة عاد التنافس بين بريطانيا وروسيا . من خلال الامتداد الانكليزي شمال غرب الهند وبلوجستان والتقدم الروسي في تركستان واخيرا وحدت بريطانيا وفرانسا سياستهما في اوربا مما أدى الى تقارب فرنسي - بريطاني وأدى هذا بالتالي اى تقارب روسي بريطاني بعد أن شعرت روسيا بأنها لا تستطيع تجاوز الأسد البريطاني بالاضافة الى هزيمتها التي كانت غير متوقعة أمام اليابانيين فاتفق الطرفان الانكليزي والروسي على اقتسام مناطق النفوذ وتم التوقيع على اتفاق بهذا الخصوص في ٣١ آب ١٩٠٧ ، بعد أن اعترف الطرفان بالحدود الفارسية . وقد شملت منطقة النفوذ البريطاني الأجزاء الواقعة في جنوب فارس والممتدة من حدود الأفغان حتى بندر عباس اما روسيا فقد وضعت تحت نفوذها الجزء الشمال يالممتد من قصر شيرين حتى الحدود الروسية الأفغانية ومن بينها مدينة اصفهان ويزد وكاخ وتركت بين الطرفين منطقة محايدة تحت نفوذ القاجار المباشر .

وبالرغم من اعتراف الدولتين باستقلال فارس ضمن حدودها شعر الفرس بان بريطانيا قد خانتهم وقد ساعدت هذه الأوضاع على الثورة الشعبية التي نشبت في طول البلاد وعرضها واستولى الوطنيون على طهران رغم المساعدة الروسية للشاه الذي اضطر للالتجاء الى السفارة الروسية في ١٦ تموز ١٩٠٩ وتولى الحكم ابنه مكانه وكان صغير السن لذلك تولى اسد الملك احد زعماء القاجار الوصاية عليه ولم تمض فترة من الزمن حتى شعر السكان في كلا المنطقتين الروسية والبريطانية بوطأة الحكم الأجنبي وبدأت الاضطرابات فيهما في الوقت الذي جرت فيه محاولة جادة لاصلاح النظام المالي عن طريق خبير امريكي يسمى شوستر والتي لم تعط أي نجاح يذكر في هذا المجال ، وقد جرت محاولات لاعادة الشاه السابق ولكنها لم تنجح وظل الوضع على هذا الحال من الفوضى حتى قيام الجمعية الوطنية التي افتتحت في ١٤ تموز ١٩١٤ وقد اعلنت ايران حيادها في الحرب العالمية الأولى . ولكنها لم تنج من ويلات الحرب عندما اصطدمت الجيوش الروسية والعثمانية في اراضيها خلال الحرب .

كان الانكليز أكثر ما يخشونه من تردي الأوضاع في ايران هو استغلال الروس لها لتحقيق مطامعهم في الوصول الى البحار المفتوحة عن طريق ايران وبخاصة في نهاية القرن التاسع عشر عندما أخذ الروس ينسقون عملهم مع الفرنسيين وحتى بعد الاتفاق بين الروس والبريطانيين على اقتسام مناطق النفوذ . لقد استطاع الانكليز التصدي لاطماع نابليون في بداية القرن التاسع عشر وكان بعيداً جداً ولكن الروس قريبون جداً من حدودهم الامبراطورية لذلك كان التصدي ومراقبة الخطوات الروسية الشغل الشاغل لكبار السياسيين ورجال الجيش والبحرية ان كان في الهند او لندن وحتى في الولايات المتحدة وأفضل من عبر عن المطامع الروسية في ذلك الوقت هو الأميرال ماهان في كتابه «مشكلة اسيا الانكليزية وتأثيرها في السياسة الدولية» الذي ظهر عام ١٩٠٣ وقد ذكر «ان مجرد سيادة روسيا على ايران وافغانستان سيسهل لها قضية السيطرة على الخليج الذي يسيطر على اهم طريق تجاري وحربي في الامبراطورية وقال «ان خطر الروس ليس خطرا عسكريا فحسب بل يتمثل باستعمارها الاقتصادي لمنطقة الشرق الأدنى ومشاريعها لربط البحر المتوسط بالخليج العربي بواسطة سكة حديد وقال بأن روسيا ستتوسع في بلاد العرب وستهدد الاحتلال البريطاني لمصر اذا ما استولت على الخليج . ويقول الدكتور محمد علي داود في كتابه الخليج العربي والعلاقات الدولية ان ماهان وجه انتقاداً لاذعا للسياسة الاستعمارية البريطانية في الشرق الأوسط وقال ماهان بأن قيام بريطانيا باضعاف الامبراطورية العثمانية والعمل على تفكيكها قد جعل تلك الامبراطورية لا تقوى على الدفاع عن نفسها ضد أي خطر ، وقال ان على السياسة البريطانية أن تعالج قضية ايران كأمة ذات سيادة وليس مجرد غنيمة تتنافس عليها مع روسيا . ثم قال ماهان ان وجود دولة مستقلة قوية في افغانستان وايران والامبراطورية العثمانية تحترم الدول الأوربية حيادها هو أمر كفيل بحل مشكلة القلق الذي يسود اذهان السياسة البريطانية حول مستقبل نفوذهم في الهند والخليج العربي . ويبدو في الوقت الحاضر ان لآراء ماهان هذا أثراً كبيراً على سياسة أمريكا في الشرق الأوسط وبصورة خاصة تبنيها لايران .

والواقع ان الاطماع الروسية في فارس تتمثل في الوصول الى الخليج العربي او خليج عمان بطريقة ما ان كانت عن طريق الاستعمار الاقتصادي او عن طريق الاستعمار العسكري ، والوصول الى المحيط الهندي معناه الوصول الى المياه المفتوحة

او ما يعرف حالياً بالمياه الدافئة والتي هي الشغل الشاغل للاستراتيجيين الروس ان كان ذلك في العصر الامبراطوري او الوقت الحاضر منذ بطرس الأكبر .

والخارطة الروسية تعطينا اسبابا قوية لهذا ا لاهتمام فالروس بالرغم من اتساع امبراطوريتهم واشرافها على بحار ومحيطات مختلفة الا انها بحار غير مفتوحة وقسم منها داخلي مثل بحر البلطيك وبحر الأسود وأما البحار الشمالية المفتوحة فهي مغلقة في اغلب شهور السنة بسبب البرد حيث تجمد مياهها ويصعب ان لم يكن من المستحيل اجتيازها اما سواحل المحيط الهادىء فهي بعيدة جداً عن قلب روسيا لذلك لا يمكن الوصول الى المياه المفتوحة والدافئة الا عن طريق السواحل المشرفة على المحيط الهندي لسهولة قربها من قلب روسيا . وبالرغم ان هذا التفكير لم يكن واضحاً في بداية تشكيل الأمة الروسية ولكن الامتداد في كل الاتجاهات كان واضحاً لضم مختلف العناصر التي تعود بأصولها الى القبائل السلافية ، منذ أن استطاع القيصر ايفان الرهيب عام ١٤٨٠ ابعاد الخطر المغولي عن دوقية موسكو الكبرى التي ظلت خلال (٢٥٠) عاماً تخضع له وتم تأسيس الامبراطورية الروسية واندفعت في مختلف الاتجاهات .

وفي القرن السابع عشر غزت روسيا سيبيريا وخلال خمسين عاماً وصل تجار الفراء الى المحيط الهادي عبر حوالي ٢٥٠٠ ميل ابتداء من عام ١٦٣٩ ثم اندفعوا الى ما وراء البحر الى الآسكا التي احتلها القبطان الدانمركي (ميوس بهرنغ) الذي كان يعمل لحساب روسيا . وفي القرنين الثامن والتاسع عشر واصل الروس مسيرتهم نحو سهول اسيا الوسطى ليصلوا الى الصين وايران والهند وافغانستان . وفي الوقت ذاته كان التوسع الروسي يضم اليه القوقاز وهي البوابة الرئيسية المؤدية الى ايران وتركيا والشرق الأوسط . وقد رافق ذلك حركة استيطان واسعة في تلك المناطق الفارغة والقليلة السكان وتأسست مدن كثيرة في سيبيريا وعلى ساحل المحيط الكبير . وهذا ما جعل الامتداد الروسي الاستعماري يختلف عن غيره من انواع الأمتداد الاستعماري الأوربي الذي انطلق مع بداية القرن الخامس عشر . وقد زالت هذه الامبراطوريات الاستعمارية بعد الحركات الاستقلالية التي اجتاحت العالم بعد الحرب العالمية الثانية في حين بقيت امبراطورية الروس موجودة وهي تشبه في بعض الوجوه الامتداد الأمريكي في انحاء القارة الشمالية الأمريكية .

في الواقع لا يمكن أن يقال بشكل أكيد أن بطرس الأكبر هو الذي وضع اسس الستراتيجية للوصول الى المياه الدافئة ولكن هذا الموضوع كان يتطور مع الزمن وحسب الأجتياحات الروسية في مختلف الاتجاهات ويمكن أن يقال أن بطرس هو الذي دفع الروس نحو التوسع أسوة بحركة الاستعمار الغربية وقد ساعد على ذلك وجود اماكن فارغة على حدود الدولة الروسية . فبعد شعوره بالضعف تجاه الجيوش الحديثة الأخرى شعر بطرس بحاجته لتحقيق طموحه الى جيش حديث وتغيير اساليب القتال واستخدام الأسلحة الحديثة وبناء المصانع لمد الجيش بما يحتاجه من عتاد ، وقد استقدم لذلك الخبراء العسكريين الغربيين من فرنسيين والمان لنهوض بدولته وخاض حروباً طويلة مع السويد وتركيا وايران ، وقد فشل أمام تركيا ولكنه نجح امام السويد وردهم عن روسيا في معركة بولتافا ١٧٠٩ م وقد استطاع بطرس أن يأخذ من الفرس كل ما كان تحت ايديهم على بحر قزوين وهذه الأراضي هي التي تقدم حالياً للروس القسم الأكبر من الطاقة البترولية التي لديهم وفي زمن كاترين الثانية ١٧٩٢ - ١٧٩٦ ذات الأصل الألماني تم تأسيس الأتوقراطية البيروقراطية الروسية وقد استطاعت اخضاع تتار القرم ، ووصلت الجيوش الروسية الى البحر الأسود . ومع ذلك ظلت الامبراطورية العثمانية حاجزاً أمام التوسع الروسي نحو البحر الأبيض المتوسط وعندما جربت الاندفاع نحو المحيط الهندي عبر الأفغان وفارس اصطدمت بالامبراطورية الهندية - البريطانية وقد حاول بول الأول ١٧٩٢ - ١٨٠١ ارسال حملته الى الهند ولكنه قتل وخلفه اسكندر الأول ١٨٠١ - ١٨٢٥ الذي اصبحت روسيا في زمنه اقوى دولة اوربية وفي زمن خليفته نيقولا الأول ١٨٢٥ - ١٨٥٥ تابع هذا الامتداد نحو فارس وضم اليه (أريفان) عاصمة ارمينية (دنا خينشيفان) وقد تابع حلفاؤه الكسندر الثاني ١٨٥٥ - ١٨٨١ والكسندر الثالث ١٨٨٨ - ١٨٩٤ السياسة التوسعية بالاضافة الى اعادة تحديث الجيش ومد الخطوط الحديدية مثل الخط الحديدي عبر سيبيريا .

لقد استطاع الروس في القرن الثامن عشر اثناء توسعهم في اسيا الوسطى من اخضاع القرغيز وضم جميع القبائل الصغرى في مقاطعة اورنبورغ وفي خوارزم وبخارى ومنذ عام ١٨٤٩ شرعوا يتقدمون في ضحاري نهر سيحون حيث اصطدموا (بخانيه خوقند)وفي سنة ١٨٦٨ ضمت خوارزم الى امبراطورية القيصر كما ضمت

(خوقند) نفسها عام ١٨٦٨ ثم اخضع تركمان التكة ما بين ١٨٧٨ - ١٨٨١ في سهوب وبوادي قراقوم وفي سنة ١٨٨٤ وطدت الامبراطورية الروسية اقدامها في روسيا الوسطى بعد استسلام (مرو) .

اما في القفقاس فقد تنازلت كل من تركيا وفارس عن كل حقوقهما في تأييد المجموعات الاسلامية في القوقاز ومن المؤسف أن تقف الدولتان المسلمتان هذا الموقف ويعود ذلك جميعه الى الخلاف العميق بينهما وكان من المفروض ان يتفقا على مد يد المساعدة للمسلمين في نضالهم ضد الغزاة وقد استلم الداغستان الذين كانوا يحاربون الجيش الروسي طيلة عشرين عاماً بقيادة الشيخ شامل اما الشركس فقد استسلموا عام ١٨٦٤ وهاجر قسم كبير منهم الى تركيا ووصلوا سورية .

وقد مر التوسع الروسي في كل من الأفغان وايران في ثلاثة مراحل :

ففي لمرحلة الأولى وبعد هزيمة الروس امام الدربند على يد الجيوش الأفغانية التي كانت تحتل ايران عام ١٧٢٦ ، عاود الروس تقدمهم نحو ايران في زمن كاترين الثانية حيث تم احتلال باكو ودربند نفسها، وفي عام ١٨٠٠ خضعت بلاد الكرج كلياً للروس بعد تنازل مليكها جورج الثاني عشر عن بلاده للروس وهو على فراش الموت . وقد عاود القتال بين الروس والفرس في زمن فتح علي شاه ١٨١٢ على نهر آراس ، وقد اخفقت محاولات الروس عام ١٨٠٤ في احتلال روان وشواطىء بحر قزوين ولكنهم الحقوا هزيمة بالفرس الذين كانوا بقيادة ولي العهد عباس ميرزا على نهر آراس . وتم الصلح بين الطرفين . وقد اضطر عباس ميرزا التخلي عن كل مطامعه في الولايات الشمالية في القوقاز جورجيا - داغستان وغيرها وتم التنازل عن مدرينة دربند وباكو وشروان وتكي وقره باغ والجزء الأكبر من (تكش) في مقاطعة جيلان على بحر قزوين ، وقد وعد الروس عباس ميرزا بتأييده في خلافته للعرش بعد موت والده ، ومما لا شك فيه ان هذا الوعد ربما يكون السبب في هزيمة عباس ميرزا وقد جرى بين الطرفين توقيع معاهدة (جوليستان) ولكن هذه المعاهدة لم تحدد بشكل ما الحدود الفاصلة بين الطرفين لذلك اندلع القتال مجدداً عام ١٨٢٦ بين الطرفين عندما عبر ولي العهد عباس ميرزا مرة ثانية نهر (آراس) واحتل (تكش) ولكنه هزم في (جينزه) وعاد الى ما وراء النهر . وفي ربيع عام ١٨٢٧ عبر الروس الحدود الفارسيةبقيادة الجنرال (باسكيفتش) فقاومته مدينة (روان) ولكنه استطاع

احتلال مدينة(أجمياجين) التي كانت مقر البطريكيةالأرمنية ثم احتل (انخشبان) وقلعة عباس آباد الهامة وقد نهض عباس ميرزا للقائه في عباس آباد ولكنه هزم في تموز من نفس العام ولكنه وفق في صد التقدم الروسي في (أجمياجين) ومع ذلك اضطر للانسحاب لضعف امكانياته المادية فاحتل الروس (روان) في ١٣ تشرين اول وهكذا تم لهم احتلال كافة (اذربيجان) ثم احتلوا تبريز ودمروا (اردبيل) حيث ولدت الدولة الصفوية ، وفي ٢١ شباط ١٨٢٨ اكره الشاه على توقيع معاهدة (تركمنجاي) وتم التنازل فيها عن مقاطعتي رون وانخشبان ، ومنح الروس امتيازات واسعة على غرار الامتيازات المعمول بها في الدولة العثمانية ، وهكذا بدأ النفوذ الروسي في ايران يأخذ ابعاداً جديدة واصبح له دور رئيسي في حياة الدولة الفارسية في تلك الفترة . وقد ظهر تخلف الفرس من كافة النواحي وبخاصة الناحية العسكرية امام الروس فقد كان الجيش الفارسي لا يزال حتى ذلك الوقت رغم كل البعثات الأجنبية التي حاولت تحديثه جيشا متخلفا من كل النواحي كما ظهر ضعف الكيان الحكومي الاقطاعي والاقتصادي فقد اضطر ميرزا للانسحاب من القتال بسبب النقص في الأموال التي كان والده رغم تبذيره الفاحش يضن بها عليه بسبب بخله .

اماالمرحلة الثانيةفيمكن اعتبارها تبدأ منذ معاهدةتركمنجاي المذكورةوالتي استطاعت فيها روسيا القيصرية من الدخول الى فارس وأخذت ترسل المستشارين وتتدخل في شؤ ون فارس الداخلية ومنذ ذلك الوقت ابتدأ الصدام مع الانكليز الذين بدأوا يشعرون بخطر تزايد النفوذ الروسي في المناطق القريبة من امبراطوريتهم والمعتبرة كدول عازلة .

ويعتقد بعض المؤ رخين ان الروس لم يكن لهم خلال المرحلتين السابقتين هدف واضح خلال امتدادهم في جنوب وسط اسيا ولكن الانكليز كانوا يصرون ان هناك خطة واضحة للسيطرة على كل من افغانستان وايران والوصول الى المحيط الهندي ، والواقع أن سياسة الروس ظلت طيلة القرن التاسع عشر تقريباً تعمل على كسر الحائط المتمثل في مملكتي ايران وأفغانستان والمغلق لسائر الطرق المغتصبة من الاراضي الروسية الى الهند البريطانية . وكان طموح القياصرة بشكل عام محصوراً في منطقة الاطار الشمالي اي الحدود الشمالية وهي المنطقة الممتدة من تركيا عبر ايران

الى باكستان وكانت تعمل لتحقيق هدفين احدهما توسيع الحدود الروسية باتجاه الجنوب كلما سنحت الفرصة ، وحماية الحدود الروسية الامبراطورية ضد بريطانيا . وكانت المنطقة التي كانت تفصل الامبراطورية رغم صعوبتها ولم يكن لدى الطرفين فكرة عنها بسبب اتساعها ووجود شعوب بدائية فيها الا انها كانت سهلة الاحتواء لعدم وجود الدول المنظمة فيها لذلك كان كل منهما يعمل لاحباط تفوق نفوذ الآخر عنها ، وكان محور العمل الروسي هجومياً ، ومحور العمل البريطني دفاعيا فانكلترا لم يكن لها سوى حماية امبراطوريتها بدون احتلال لأراضي جديدة ما دامت تستطيع الوصول الى غايتها عن طريق الدول العازلة ، وقد سهلت هذه السياسة توسع الروس حتى دخلوا حدود ايران الشمالية وهيأوا القواعد الاساسية لامكانية تقدم جديد في المستقبل . وهذا ما ظهر واضحاً في المرحلة الثالثة من التقدم الروسي ففي هذه المرحلة ظهرت الأهداف الروسية التي كانت تعمل بهدوء بدون إثارة نظر بريطانيا بشكل واضح وهي ربط بلادهم بالخليج العربي وإقامة المحطات التجارية فيه وفي الفترة الاخيرة من المرحلة الثالثة مد أنابيب للنفط من بلادهم الى المحيط الهندي . وكان لا بد من حماية المحطات التجارية في الخليج وكذلك خطوط المواصلات إما عن طريق الجيوش أو البواخر الحربية الدائمة في الخليج . ولكن بريطانيا كما سنرى لم يكن لها مثل هذا الرأي . وكانت تنظر بعين الحذر والشك لكل ما تقوم به الحكومة الروسية من إجراء وبخاصة مشاريع السكك الحديدية بعد أن استطاعت ان تسيطر بشكل دائم على شمال ايران .

لقد تميز النشاط الروسي في هذه الفترة التي تقع في نهاية القرن التاسع عشر تقريبا وبداية القرن العشرين في ايران بالقيام بنشاطات متعددة اقتصادية وعسكرية وقنصلية . وكانت عمليةمد السكك الحديدية اكثر هذه النشاطات خطراً . وكانت بريطانيا في ذلك الوقت مشغولة بحربها مع البوير في جنوب افريقيا وخلافها الكبير مع فرانسا حول فاشوده مما جعل فرانسا تعمل بالتعاون مع روسيا في ضرب النفوذ البريطاني في الخليج ولم يكن الروس يخشون في ذلك الوقت على حدودهم في الشرق الأقصى من اليابانيين المشغولين في منشوريا لذلك كانت لهم حرية التفكير .

لقد تمت دراسة مختلف الاتجاهات في مد الخطوط الحديدية لربط الخليج بالخطوط الحديدية ، التي كانت روسيا تعمل في بنائها في الشمال واخيرا تم القرار في

وصل الشمال بالبحر عن طريق مد سكة حديد من طهران التي كانت مرتبطة بالشمال الى الخليج عن طريق أصفهان . وفي الوقت ذاته كان العمل يجري على دراسة مشروع للسسكك الحديدية المرتبطة بالخليج والذي اثار القلق لدى المسؤ ولين البريطانيين هو مشروع مد خطوط السكة الحديدية من مدينة طرابلس الى الكويت على ان تمتد منه فروع فيه الى خانقين . وبغداد ، وقدموا طلباً لتركيا للقيام بهذا المشروع .

كان الروس يعملون بسرعة وبصمت وأخذوا يرسلون البعوث السرية بمختلف الاسماء الى مناطق الخليج للتعرف على أفضل وانسب مكان ليكون نهاية للسكة الحديدية المزمع إقامتها في الخليج منذ عام ١٩٠٠ وفي الوقت ذاته ظهر التفكير بربط البحر الأسود بالخليج العربي عن طريق الخطوط الملاحية وإقامة المحطات التجارية وربما تكون هذه المحطات المكان المفضل ليكون نهاية للخطوط الحديدية . وقد زارت البعوث التجارية مختلف موانىء الخليج لفتح الوكالات فزارت الكويت والبحرين ومسقط وقطر والمحمرة ، وأخيراً اتخذت الشركة الملاحية مركزاً لها في بوشهر بعد أن رفضت الموانىء العربية قبولها بضغط من الانكليز ولكن الروس حاولوا افتتاح وكالات لهذه الشركة في كل من مسقط وجاسك وبندر عباس ولنجة والمحمرة والبصرة . ولم يقتصر الروس على الكويت بل حاولوا الاتصال بكل من ابن الرشيد وبعبد العزيز آل السعود بعد احتلاله الرياض وخلال هذه الفترة ترددت بعض السفن البحرية الروسية على الخليج لتظهر للسكان ان بريطانيا ليست صاحب النفوذ لوحدها في المنطقة ، وفي الواحد والعشرين من آذار سنة ١٩٠١ وصلت السفينة التجارية الروسية كورتيلوف الى الخليج مفتتحة أول خط منتظم تجاري بين البحر الأسود والخليج ينقل الأشخاص والمواد مثل الكيروسين والاخشاب والفرار الى العراق والخليج .

وأخيراً حدث ما لم يكن بالحسبان عندما فقدت روسيا هيبتها بانتصار اليابانيين عليها عام ١٩٠٤ ، وقد حالت بريطانيا دون استخدام الاسطول الروسي للسواحل العمانية للتموين لتبقي المنطقة بعيدا عن العمليات ولا شك انها كانت تعمل أيضاً على هزيمة الروس لما لهذه الهزيمة من نتائج ايجابية على نفوذها في المحيط الهندي والكبير وهذا ما حدث فقد انحازت فارس للانكليز بشكل واضح

واضطرت الروسيا للجنوح للسلم مع بريطانيا والتفاهم معها . وكانت بريطانيا تحبذ هذا الاتجاه للوقوف ضد الخطر الألماني المتزايد في المنطقة وبصفة خاصة في العراق . وكانت حكومة الأحرار البريطانية التي تشكلت في عام ١٩٠٦ تأمل في الحصول على ضمان من روسيا للامتناع عن القيام بحركات عدائية صوب الهند وموانىء الخليج مما قد يخفف كثيراً من أعباء بريطانيا في الهند من الناحيتين المالية والعسكرية . وقد تعثرت المفاوضات في بادىء الامر بالرغم من وساطة فرنسا التي أصبحت حليفة تقليدية للروسيا وصديقة تقليدية جديدة أيضاً لبريطانيا خوفاً من الخطر الالماني عليها في القارة . وكانت بريطانيا تصر على أن ينص الاتفاق مع روسيا على اعترافها بالوضع DEFACTO الراهن، في حين كان الروس يرون أنه ولو كانوا يعترفون بالمصالح البريطانية القائمة في الخليج فهم يعتبرون أن الابقاء على النص المختص بالوضع الراهن في الاتفاقية أمر يخص بريطانيا وروسيا وحدهما وانما يخص دولا أخرى في المنطقة كالدولة العثمانية وفرنسا والمانيا وأن ذلك يحرج روسيا بنظر للدول الأخرى لذلك كان من رأي الروس استبعاد الاشارة الى المصالح البريطانية في الخليج من نص الاتفاقية وكان الرأي العام البريطاني يعلق أهمية كبرى على أن ينص على هذا الموضوع في الاتفاقية ولو أدى الى أن تصدر بريطانيا بياناً لاحقاً للاتفاقية بان اعتراف روسيا بالمصالح البريطانية في الخليج أمر ينطبق عليها لوحدها ، غير أن حرص روسيا على علاقاتها مع المانيا ورغبتها عدم إثارة الدولة العثمانية دفع الانكليز للاستجابة لرغبة الروس ، لذلك استقر رأي الحكومة البريطانية على استبعاد منطقة الخليج من الاتفاقية . وأخيراً عقدت الاتفاقية بين الطرفين بعد اعتراف الروسيا بالمصالح البريطانيةفي الخليج، وسويت الخلافات بين البلدين اثر توقيع الاتفاقية التي وافق عليها الطرفان عام ١٩٠٧ ، والتي قسمت ايران الى منطقتي نفوذ روسية وبريطانية مع منطقة محايدة بينهما ، وبهذه الاتفاقية تخلصت انجلترا من المنافسة الروسية او بالأحرى من الاطماع الروسية للوصول الى الخليج عن طريق السكك الحديد الايرانية وهيمنت هي على جنوب ايران وهدأت الامور بين الامبراطوريتين ولكن على حساب الشعب الايراني ، ولكن فكرة الوصول الى المياه الدافئة المفتوحة والتي خمدت منذ ذلك الوقت ستجد لها في المستقبل آفاقاً جديدة كما سنرى في الفصول القادمة ، ولم تقتصر الاتفاقية على الخلافات بين الطرفين في ايران بل ركزت الأوضاع في كل من التيبت والافغان والواقع أن هذه

الاتفاقية كرست مرة ثانية مركز بريطانيا في الخليج وما حوله حتى نهاية الحرب العالمية الثانية أو بالأحرى حتى انسحاب بريطانيا من المنطقة في الستينات من القرن العشرين .

الى جانب بريطانيا وروسيا كانت فرنسا الدولة الوحيدة التي عادت للاهتمام بالخليج العربي من خلال المنافسة الشديدة التي كانت تدور بين الامبراطوريتين الاستعماريتين فرنسا وانكلترا في ارجاء كثيرة من العالم . وقد ركزت فرنسا نشاطها في الفترة ١٨٣٩ - ١٨٤٨ بصورة خاصة على ايران ، ومع ذلك ففي عام ١٨٣٩ رفضت مساعدة الشاه ضد الحكومة الانكليزية ولكنها عادت فوافقت على تزويد الجيش الايراني بالضباط ليحلوا محل الضباط الانكليز وقد حاول الفرنسيون استغلال موجة هذا التقارب لارسال البعثات السياسية والاقتصادية لطهران ولكنهم فشلوا في توقيع معاهدة تجارية معها تعطيهم الامتيازات ، رغم أن الشاه كان قد وقع مع الانكليز معاهدة ١٨٤١ والتي لا تختلف عما يطلبه الفرنسيون ولكن فرنسا نجحت فيما بعد في عقد اتفاقية تجارية وصداقة مع ايران ، كما أنها نجحت في مسقط في توقيع معاهدة مع سلطانها السيد سعيد بن سلطان عام ١٨٤١ ، أما في العراق فقد اقتصر النشاط الفرنسي في تلك الفترة وحتى فترة طويلة على التمثيل القنصلي في كل من بغداد والبصرة .

منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر ازداد النشاط الفرنسي في الخليج ، وتميز بعدة اتجاهات وفي الوقت ذاته استخدم الامبراطور الفرنسي لويس الثالث الرحالة الانكليزي (بيلكريف) لاعطائه المعلومات عن بلاد العرب الشرقية وذلك لغايات سياسية وفي سنة ١٨٦٤ ، تقدمت شركة ملاحية فرنسية بطلب الى الباب العالي لمنحها امتيازات وحرية التجارة والملاحقة في الأنهار العراقية على غرار الامتيازات التي سبق ان منحتها تركيه لشركة دجلة للملاحة التجارية البريطانية ، وفي عربستان حاولت فرنسا ما بين اعوام ١٨٨٠ - ١٨٨٤ إقامة مشاريع اقتصادية لها وإقامة خط ملاحي يربط العراق بفرنسا بين مرسيليا والبصرة ، وقد ازداد النشاط الحربي الفرنسي في الخليج وبدأت البواخر الحربية الفرنسية تردد بشكل مستمر على الخليج العربي منذ عام ١٨٩٥ واستعملت المشروعات التجارية لدفع النفوذ الفرنسي ، وفي سنة ١٨٩٦ افتتحت شركة الملاحة البحرية المعروفة باسم

(المساجيري مارتييم) خطاً ملاحياً بين بومباي ومناطق الخليج ولكن الخط لم يلاق النجاح المطلوب وفي عام ١٩٠٣ قام الطراد الفرنسي (أنفرنيه) بزيارة مشتركة مع الطراد الروسي (بوياريين) الى بوشهر ولنجه والكويت كنموذج للتعاون بين الروس والفرنسيين الذي وصل قمته في عام ١٨٩٥ ولم يكن هناك اتفاق بين الطرفين ولكن كان هناك نوع من التعاون أخاف الانكليز كثيراً وأخيراً استطاع الفرنسيون الوصول الى مسقط وحصلوا من السلطان على مكان في بندر البصة لاقامة محطة لخزن وشحن الفحم الحجري وعارض الانكليز هذه الاتفاقية وهددوا السلطان ، وسنتطرق الى هذا الموضوع في الفصل القادم لما له علاقة بالاحداث الداخلية في مسقط ، وبخاصة مشكلة الاعلام الفرنسية التي كانت تمنح للمراكب والسفن التي تعمل في الخليج تحدياً للبريطانيين الذين رفضوا هذه الحماية التي فرضتها فرنسا على هؤلاء الذين كانت تتم بريطانيا بالتجارة بالرقيق والأسلحة .

ومن جملة الدول التي بدأت تظهر في الخليج كل من بلجيكا وامريكا وأخيراً المانيا القيصرية وكان نشاط البلجيكيين محدوداً بالأمور الاقتصادية وفي تنظيم الجمارك وفتح البنوك وكذلك في محاولات للمساهمة في مد الخطوط الحديدية في ايران أما في بقية المناطق الأخرى فلم يكن لهؤلاء اي نشاط وأما الأمريكيون فهم أيضاً أدلوا بدلوهم في المنطقة وكانوا يعملون في النواحي الاقتصادية وحاولوا ارسال الخبراء الأمريكيين لتنظيم المالية في ايران ومنذ عام ١٨٣٤ اتصلوا بالعمانيين وعقد الطرفان اتفاقية في نفس العام لتسهيل الامور التجارية ودخول الافراد الى المنطقة وكانت بين السلطان سعيد بن سلطان وكبير اليونايتد ستيت حسب ما جاء في نص المذكرة وقعها عن الجانب الامريكي «ادموند روبرتس في القصر الطاني بمسقط وقد منحت هذه المعاهدة «سكان البلدان الامريكية» رخصة دخول الى أي بندر من بناء العاليجاه السيد سعيد بن سلطان حامي مسقط . . الخ وبالاضافة الى ذلك كان الامريكيون يمارسون بعض النشاطات الأثرية .

أما الألمان الذين بدأوا بالظهور في اوروبا كقوة رئيسية برية بعد انتصارهم على الفرنسيين عام ١٨٧٠ في عهد الامبراطور الفرنسي لويس نابليون (نابليون الثالث) اخذوا يحلمون أيضاً بمنافسة بريطانيا بحراً من الناحية العسكرية والتجارية ويحاولون مد نشاطهم الى آفاق ابعد من اوروبا بما فيها الوصول الى الخليج . ولكن

ليس عن طريق الجيوش مثلما حدث مع غزاة الشرق القدامى والحديثون ولكن عن طريق ايصال عاصمتهم بشكل مباشر مع الخليج عن طريق ما يعرف باسم سكة حديد برلين بغداد المشهورة والتي كانت ستضمن لهم ايصال تجارتهم الى الشرق بأقرب الطرق وفي الوقت ذاته يمكنهم التحرك في أثناء الحرب والوصول الى الخليج ودفع قواتهم بالسرعة الممكنة وعلى العموم فالألمان أول من حاول استغلال السكك الحديدية لنقل الجيوش بالسرعة الممكنة ولا شك انه لم يغب عن أذهانهم استخدام هذا الخط في حرب مقبلة والتي كان يحضر لها امبراطورهم غليوم الثاني حيث يمكنهم الوصول الى الخليج وتهديد الامبراطورية الهندية بدون المرور بالبحر وكان هدفهم جعل نهاية الخط البصرة او الكويت وهذه أفضل بسبب بعدها عن مجاري المياه العراقية .

كانت صداقة الألمان لتركيا تسهل لهم الأمور ، فالسلطان عبد الحميد الثاني الذي كان يعتقد بان المانيا الدولة الوحيدة من بين الدول الاوروبية التي لا تهدف الى تقييم امبراطورية آل عثمان بل مستعدة لانعاشها وكان يكره الانكليز كثيراً منذ احتلالهم لمصر ويعمل على محاربتهم في كل مكان وقد رفض مشاريع الانكليز لانعاش الطرق خوفاً منهم على العراق ، ومنذ عام ١٨٩٦ حاول الالمان الحصول على امتياز بانشاء سكة حديد بغداد برلين تصل ما بين الخطوط الحديدية في البلقان والأناضول ومنها للعراق والكويت وتمت الموافقة على ذلك عام ١٩٠٢ ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت ألمانيا دولة ذات أهمية وبخاصة بنظر بريطانيا وكان لها مركز ممتاز في شبكة حديد الأناضول واذا ما كتب لها من خط الاناضول الى بغداد فانها سوف لا تتردد في التفكير بميناء ما على الساحل الشمالي الغربي في الخليج ، وكانت المانيا تملك خطاً للتلغراف مباشر مع الاناضول .

وفي عام ١٨٩٨ زار امبراطور المانيا الدولة العثمانية وأعطت هذه الزيارة للأتراك انطباعاً جيداً وبالاضافة الى اتجاهات السياسة التركية في استنبول ، وقد أشارت الى احتمال قيام بريطانيا بجلب المانيا لجانبها في أثناء حدوث صراع جدي بين الروسيا وألمانيا في الحصول على امتيازات سكك الحديد في ايران لان الشائعات كانت تقول بان مهندسي الخط وممولیه سيكونون من الألمان . كما حصل الألمان على امتياز من حكومة طهران لبناء طريق جديدة من خانقين على الحدود الايرانية والتركية

في طهران وقد اعتبرت السفارة البريطانية في طهران هذا العمل موجهاً ضد النفوذ البريطاني .

والواقع أن السياسيين البريطانيين كانوا مختلفين في موضوع سكة حديد برلين بغداد والتعاون مع الألمان بشكل عام فاللورد بلفور كان يعتبر التعاون مع المانيا خطراً على بريطانيا وعلى بريطانيا أن تضع أسس جديدة لسياستها تضمن مجابهة المنافسة الالمانية . في حين ان اللورد هاملتون صرح في ٢٧نيسان ١٩٠٠ بانه بالرغم من أنه لا يحب الالمان الا أنه يفضل التعاون معهم أفضل من الروس ولذلك كان يصر على فتح الخليج العربي امام التجارة العالمية وإفساح المجال للألمان وكان يرغب على العكس العمل على كسب صداقتهم أفضل من عداواتهم وفتح المجال أمامهم للتجارة والتعاون وأخيراً صرح اللورد (لانسرون) بانه لا يمانع باقامة الخط الحديدي الا اذا اشترك الرأسماليون واصحاب الأعمال الانكليز بمشروع السكك الحديدية ، ولم يكن لديه مانع من أن تكون نهاية الخط هي الكويت على أساس ان لا تقام فيها قاعدة حربية ، ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يقيمون العراقيل أمام الالمان وربما كان ذلك مقصوداً للحصول على شيء من الغنيمة وقد عقدوا مع شيخ الكويت اتفاقية حماية وكذلك مع شيخ المحمرة وذلك لكي يقفوا امام عناد الألمان وعدم اشراك الانكليز بالمشروع . وقد ظلت الدبلوماسية البريطانية تعمل بهدوء حتى تم التوقيع في التاسع عشر من أذار ١٩١٤ في وزارة الخارجية البريطانية على اتفاق بترولي بين بريطانيا والمانيا حول حصة كل منهما في شركة البترول التركية ، فضمنت بذلك بريطانيا سيطرتها على شركة البترول التركية ومقابل ذلك وافقت بريطانيا وأعلنت استعدادها لتوقيع اتفاق خط بغداد ـ برلين الحديدي مع ألمانيا واعلنت موافقتها الأولية في الثامن والعشرين من حزيران سنة ١٩١٤ ، وكان الخط يسير قدماً من تركيا نحو العراق وقد اتفق على أن تكون البصرة نهايته ، ولكن الحرب العالمية اندلعت بعد ذلك بين المانيا وانكلترا ودخلت تركيا مع المانيا وبذلك أصبح المجال مفتوحاً أمام بريطانيا لاحتلال العراق وانهار حلم المانيا في الشرق .

من خلال ما تقدم نرى كيف كانت بريطانيا تراقب بحذر كل تحرك أجنبي في المنطقة الواسعة ما بين الهند الصينية والصين الى شمال افريقية وكان لكل عمل له تفسيره في الهند ولو كان الحدث يقع في افريقيا وتشتد المراقبة كلما اقتربنا من الهند

وبصورة خاصة المناطق الواقعة على ساحل الخليج العربي وذلك عن طريق سفراء بريطانيا ووكلاتها السياسيين والتجاريين المعتمدين وكان الجميع يعملون وكأنهم شخص واحد إن كان في طهران أو استنبول . بالاضافة الى إقامتها ما يشبه الدولة في الخليج العربي يقوم على رأسها المعتمد السياسي البريطاني في بوشير يعاونه عدد من الممثلين في أنحاء كثيرة من المناطق العربية الواقعة على الخليج بالاضافة الى الممثليات والقنصليات الموجودة في العراق ويستند هذا الجهاز البسيط الى قوة الاسطول البريطاني في المحيط الهندي الذي لعب دوراً كبيرا في تثبيت النفوذ البريطاني . ولذلك عندما دخلت بريطانيا الحرب ضد المانيا كانت خطوط المواصلات الامبراطورية مؤمنة ولا يمكن قطعها .

كانت أهداف بريطانيا كما رأينا في فصول سابقة هو حماية الامبراطورية الهندية بحدودها وطرق الاتصال اليها وكان الذي يدير مجموع هذه الأجهزة نائب الملك في الهند ورجال السياسة والحرب والاقتصاد الموجودين حوله بالتعاون مع وزارة الخارجية ووزارة الهند وطبيعي أن يكون ذلك ضمن مخطط عام للدفاع عن الامبراطورية البريطانية الممتدة من كندا الى الصين ، ومنذ تهديدات نابليون التي لم تتحقق لم يعودوا يتركون للظروف اي أمر ما لذلك كان تصدي كبار الاستعماريين في الهند للامتداد الروسي ان كان في آسيا الوسطى او ايران عنيفا . ولم يكونوا يحجمون على الدخول في حروب طويلة اذا اقتضى الأمر كما حدث بالنسبة للحروب الافغانية والصدام مع القوات العربية في الخليج العربي . وعندما بدأت أهداف كل من روسيا وفرنسا والمانيا تتوضح كانت بريطانيا مستعدة لمقاتلة اية دولة تعمل لتثبت نوع من النفوذ مهما كان نوعه في الخليج العربي لذلك عارضت إقامة المحطات التجارية التي يمكن ان تتحول الى مراكز حربية وكذلك إقامة الخطوط الحديدية التي تساعد القوى الخارجية للوصول الى مناطق الخليج بالسرعة الكافية .

كانت سياسة بريطانيا في هذا المجال واضحة من خلال تصريحات المسؤولين في الهند وبريطانيا ففي رسالة بعث بها من الهند يوم ٢٠ آذار ١٨٧٦ اللورد نورث بروك الى وزارة الخارجية جاء فيها :

«يجب ان نعتبر اي امتداد للمناطق الروسية صوب الخليج الفارسي (العربي) او أي حماية روسية لسواحل ذلك الخليج خطراً مباشراً على الهند وهذا بحد ذاته كاف

حسب ما أعتقد لأجل استعمال القوة للمحافظة على سيادتنا الحالية» .

وفي رسالة مشابهة بعثت بها وزارة الهند الى وزارة الخارجية في (١٥) آذار اكد اللورد كروس على السياسة التقليدية للحكومة البريطانية في الخليج والاعمال الواجب القيام بها لايقاف التدخل الروسي في ايران وتتلخص فيما يلي :

١ - عدم السماح لاية قوة اجنبية لمنافسة الافضلية البريطانية في جنوب ايران .

٢ - السعي للحصول على امتيازات لمد سكة حديد بين طهران والاهواز .

٣ - اقناع الشاه باهمية فتح قارون للحلاقة البريطانية .

٤ - توسيع نطاق التجارة البريطانية مع ايران لمنافسة الاحتكارات الروسية وكانت بريطانيا تعتبر نفسها بشكل دائم حامية للخليج العربي .

اما الذي أثار المعارضة القوية لكل نفوذ روسي أو غير روسي في المنطقة فهو اللوردكيرزون الذي كان نائباًللملك في الهند لمرتين متاليين خلال الاعوام ١٨٩٩-١٩٠٥ وقد انذر كيرزون جميع المسؤ ولين بعدم التعاون في هذا الموضوع مع الروس «بانني اعتبر اي تنازل عن أي سلطة بإعطاء روسيا مرفأ على الخليج هذا الأمر الذي داعب احلام عدة وطنيين متحمسين من نهر النيفا الى نهر الفولغا بمثابة إعلان للحرب وسوف اعاقب اي موظف بريطاني اذا أذنب بالأستسلام لمطالب روسيا . . وسيكون خائناً لبلاده . . »

وفي حزيران ١٩٠١ بعث بمذكرة الى حكومته عن شؤ ون الشرق الأدنى ومنطقة الخليج طلب فيها باتساع سياسة الحزم والقوة مع روسيا ، وأن الوضع في جنوب افريقيا يجب أن لا يمنعها من القيام بعمليات عسكرية ضد روسيا في أفغانستان وفارس ، وقد أجابه اللورد «لاتزدون» رئيس الوزارة البريطانية بجواب يمثل سياسة بريطانيا والتي درجت عليها حتى خروجها من الخليج وقد جاء في الجواب «يجب ان لا تتوقع الحصول على الأفضلية في الخليج الفارسي الى الأبد ولا أدري على أي مستند تريد التصريح باننا لا نسمح لبواخر روسيا أو البواخر الأجنبية لأغراض تجارية بالدخول للمنطقة ، ولكن من ناحية أخرى أريد التأكيد بانني لن أسمح لروسيا بان تثبت أقدامها على سواحل الخليج لأغراض بحرية وعسكرية ، وسوف أعارض بشدة أي حيلة يتبعها الشاه في المحمرة للسيطرة عليها

او للسماح للروس بذلك ، وقد حدد السياسة البريطانية في الخليج بما يلي :

أولاً : حماية التجارة البريطانية وتوسيعها .

ثانياً ـ السماح لبقية الدول بالقيام بالتجارة في المنطقة .

ثالثاً ـ ان تأسيس اي دولة أجنبية لقاعدة بحرية او بناء حصن في المنطقة مضاد للمصالح البريطانية ويجب مقاومتها .

ضمن هذه المبادىء التي وضعتها بريطانيا كانت تقاوم كل محاولة من قبل أية دولة لمد نفوذها بشكل يتعارض مع المصالح البريطانية في الخليج لذلك وقفت في وجه روسيا وكذلك في وجه فرنسا عندما حاولت الاتصال بسلطان عمان وهددته وكذلك وقفت في وجه الاندفاع الالماني نحو الخليج واحكمت ايضا نفوذها على الامارات والمشيخات العربية عن طريق المعاهدات الابدية ووضعوا الكويت تحت حمايتهم بالرغم من المعارضة التركية لئلا تصبح نهاية لخط حديد بغداد بالرغم من أن شيخ الكويت نفسه طلب الحماية في بادىء الأمر ورفضتها بريطانيا الا انها بعد ذلك اسرعت بوضعه تحت حمايتها بعد ان اتخذ لنفسه علماً مخالفاً للعلم التركي وعندما شاهدت ورود العديد من الممثلين الاجانب يترددون على الكويت . وقد وضعت الكويت تحت الحماية عام ١٨٩٨ وساعدت شيخها الشيخ مبارك على الدفاع عن إمارته ضد قبائل نجد كما اتصلت بعبد العزيز آل سعود بعد احتلاله للرياض ودخل في حمايتها واجرت عليه الرواتب الشهرية وكان هذا مضطراً لذلك من خلال التهديد الذي كان يمارسه آل الرشيدالمدعومين بالاتراك على سلطنة نجد ، وقد تحتم على الكويت بموجب هذه المعاهدة أن تقدم هي الاخرى تعهداً بان لا تتنازل عن أي قطعة من ارض الكويت لأي دولة اجنبية دون موافقة بريطانيا ، وقد قامت بريطانيا بنفس المساعي في البحرين ووضعتها تحت حمايتها وساعدتها على التخلص من تركيا ومحاولات الغزو والتي تعرضت لها عام ١٨٩٥ ، كما أن قطر هي الأخرى لم تلبث ان وضعت تحت الحماية البريطانية . اما في عربستان فقد اقام الانكليز علاقات وثيقة مع شيخ المحمره الذي كان يتمتع بنوع من الاستقلال عن كل من تركيا وايران من خلال معاهدة ارضروم الاولى عام ١٨٢١ التي قسمت المنطقة الى قسمين الأول اعطي لايران وهي منطقة خوزستان ولكنها تركت المحمره وشط العرب الى العراق العربي المحتل من قبل تركيا وكانت قبائل المحيسن قد استطاعت السيطرة على

المنطقة بعد الضعف الذي أصاب بني كعب . وقد ورث الشيخ خزعل عن اسرته الشك والريبة بالعلاقات والوعود الايرانية لذلك دأب على سياسة الانعزال ورفض ادخال بلاده في أية مغامرة عن طريق المشاريع الاقتصادية التي كانت تعرض عليه ، ولم يكن بحاجة الى المال فقد ورث عن عائلته المال الكثير وهو كغيره من حكام تلك المناطق وفي تلك الأيام لم يكونوا سوى تجار او مالكي سفن أو أراض اكثر من غيرهم مما أهلهم ليحكموا مناطقهم وعندما حذر بعضهم سلطان عمان سعيد بن سلطان المشهور من تدخل الانكليز في ممتلكاته في زنجبار كان جوابه بان تاجر قبل ان يكون سلطان وهذا هو ما يهتم به .

وعلى طول الساحل الايراني استطاع الانكليز المحافظة على مصالحهم بالسيطرة على هذا الساحل وكانت لهم قواعد هامة في جزر هنجام وفي مكران ، وبالنسبة اليهم فلكل حالة او موقف لبوسها فعندما لا يتحقق الهدف بالمال والسياسة كان يحقق بالقوة او بعزل الحاكم أو الأمير وقد مر معنا أمثلة كثر في هذا المجال .

وقد وضع الستراتيجيون السياسيون والعسكريون الانكليز الخطط لمواجهة كل امر من الأمور السياسية العسكرية وقد درست خطوط للدفاع يمكن العمل على الاحتفاظ بها في حالة حرب مع الروس وقد حالوا في احدي المرات بين الأتراك وبين تحصينهم لبعض مناطق جنوب العراق ومداخل شط العرب وقد اعيد تنظيم البحرية البريطانية في منطقة الخليج وزاد عدد افراد الجيش البريطاني - الهندي في الهند وأخذوا في تنفيذ عمليات المسح البحري بالاضافة الى سيطرتهم على مداخل الخليج بعد ان وضعت عمان تحت حمايتهم . وقد استغلوا فرصة مكافحة تجارة الرقيق والاسلحة وفرضوا المراقبة الشديدة على جميع البواخر الداخلة في المنطقة مهما كان نوع العلم الذي تحمله وهذا أدى الى صدام مع فرنسا كما رأينا ولكن بريطانيا مضت في تنفيذ مخططاتها بدون النظر الى احتجاجات فرانسا وخاصة بعد ان حكمت محكمة العدل الدولية في صالحها في قضية السفن التي تحمل الاعلام الفرنسية .

ومما لا شك فيه ان هذه الفترة وما تلاها حتى الحرب العالمية الثانية كانت العصر الذهبي للامبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس والمحور الرئيسي الذي كانت تدور عليه هذه الدائرة الهائلة من الممتلكات هي الهند وقد عبر احمد شوقي تعبيراً واقعياً في احدى قصائده عن هذه الفكرة عند اكتشاف مقبرة توت عنخ - آمون بقوله :

سافر أربعين قرناً عدّها ـ حتى أتى مصر فألفى عندها
انكلترا ولوردها وجندها مسلولة الهندي تحمي هندها
قال والحسرة ما أشدها ليت جدار القبر مائد هدها
وليت عيني لم تفارق رقدها قم نبني يا نبتؤر مادها

الفصل الخامس

تدهور الاوضاع في عمان والسيطرة البريطانية

ـ تقسيم الامبراطورية البحرية العمانية واثره على اضعاف القسم الاسيوي ـ السلطان ثويني بن سعيد ـ المحاولات الاولى لاعادة الامامة العمانية ـ عزان بن قيس والسعوديين ـ مقتل ثويني بيد ابنه سالم ـ السلطان سالم بن ثويني ـ محاولات المصالحة بين سالم والمعارضة ـ ظهور الامامة العمانية ـ سقوط مسقط بيد رجال الامامة ـ امامة عزان بن قيس ـ عزان بن قيس يوحد عمان ـ ظهور تركي بن سعيد ـ الانتصار على عزان بن قيس ومقتله ـ تركي بن سعيد يصبح سلطان على مسقط ـ السلطان فيصل بن تركي ـ الاتفاقيات مع بريطانيا ـ محاولات فيصل للقضاء على امارة ابن عزان بن قيس في الرستاق ـ الحروب الاهلية واحتلال مسقط التهديد البريطاني ـ اشتداد التنافس بين البريطانيين والفرنسيين ـ الخلاف بين السلطان والانكليز والغاء الاتفاقيات مع فرنسا ـ مشكلة الاعلام الفرنسية والخلاف مع بريطانيا ـ الاتفاق بين البريطانيين والفرنسيين ـ السيطرة البريطانية على عمان .

الفصل الخامس

تدهور الاوضاع في عمان والسيطرة البريطانية

رأينا في فصل سابق كيف سارت الامور في امبراطورية السيد سعيد بن سلطان بعد وفاته عام ١٨٥٦ وكيف نشب الخلاف بين الاخوين اللذين نصبهما والدهما على كل من زنجبار ومسقط ليحكما باسمه وكيف قسمت هذه الامبراطورية البحرية التي كانت تمثل آخر قوة بحرية عربية ، وقد وقعت كلتا السلطتين ان كان في زنجبار او مسقط تحت حكم الانكليز ولا شك ان خطأ سعيد بن سلطان كان فادحا ولم يتعظ بالتاريخ عندما قسم بلاده الى قسمين كعادة الحكام في مختلف انحاء العالم وقد ساعد ذلك في مهمة الانكليز الذين كانوا يعملون منذ وجود السيد سعيد على فصل الممتلكات الافريقية العمانية عن القسم الاسيوي . وبالرغم من ان ثويني الذي تولى القسم الاسيوي حاول في ذلك الوقت رفض التقسيم والاستعانة بالفرنسيين وارسل كتابا الى نابليون الثالث طلب منه اعادة العلاقات والصداقة القديمة بين الطرفين الا ان نابليون رفض مساعدة ثويني وخضع للتقسيم حيث احتفظ اخوه الرابع ماجد بحكم زنجبار .

بعد التقسيم التفت ثويني الى تثبيت حكمه في داخل عمان واستطاع استمالة اخيه تركي الذي كان يظهر عدم رضاه عن التقسيم وكان يحكم منطقة صحار فخضع له هذا ثم اخذ يعمل على ضم عمان الداخلية والمناطق الجبلية العمانية التي كانت تخضع لحكام محليين لا يقرون سلطة البو سعيد عليهم باعتبارهم (جبابرة) حسب التعبير الاباضي وكانوا يحلمون بعودة الامامة وكانت الانظار دائما موجهة لعزان بن قيس وهو احد افراد عائلة البوسعيد الذي اشتهر بورعه وتقاه لذلك حاول ثويني ضم (الرستاق) رغم الحروب التي خاضها عزان ضد السعوديين عند دخولهم في المرة الاولى عمان ، وقد استغل السعوديون هذه الفرصة ودخلوا عمان وتوجهوا الى منطقة (الشرقية) للاتصال باتباعهم من قبائل البوعلي واستطاعوا الوصول الى مدينة صور الساحلية في آب ١٨٦٠ . وقد اصيب في هذا الهجوم بعض الرعايا البريطانيين والهنود فاحتجت بريطانيا وارسلت المركب الحربي (هايفلار) الذي

قذف بقنابله قلاع السعوديين في القطيف والدمام ، وقد شجع الانكليز ثويني لقتال السعوديين وكان لا يحبهم ويعمل على قتالهم فأخذ في تجهيز حملة كبيرة لقتالهم ، ولكن مشروعه لم يتم فقد قتل بيد ابنه الاثيرعنده سالم في كانون الثاني ١٨٦٦ وقد اعلن سالم نفسه حاكما على مسقط ودام حكمه ما بين اعوام (١٨٦٦ - ١٨٦٨) وايده في حكمه صالح بن علي الحارثي امير الشرقية وحاول سالم استمالة السعوديين وانه الغى كل خطط والده في محاربتهم كما تقرب من عزان بن قيس الذي استدعى السعوديين لمعاونته على قتال ثويني واعترف سالم لعزان بحكمه وزمالته كحاكم (للرستاق) واثر ذلك تعهد السعوديون للانكليز بعدم مهاجمة مسقط وقد ظلت بريطانيا تراقب سالم لمدة سنة تقريبا واخيرا اعترفت به كسلطان على مسقط وتدخلت مع عمه ماجد حاكم زنجبار لاعادة المبالغ التي نص عليها التحكيم عند تقسيم الدولة وكان ماجد قد قطع هذا المبلغ عن ابن اخيه عندما قتل والده وقد قبل ماجد ذلك على أساس تكون حكومة بمباي هو الوسيطة لتحويل المبلغ الى حاكم مسقط وبذلك كسبت بريطانيا سالما الذي اعترف بجميلها .

وقد وجدت بريطانيا في سالم طيعا لاوامرها بسبب حاجته لها لحمايته ولم يكن يختلف عن غيره من الحكام فهمه الحكم مهما كان الطريق الذي يسير فيه وقاتل والده لا مانع لديه لان يكون طيعا لسلطة توهمه بحمايتها له ، وبالفعل فقد منعت اخاه تركي الذي استمال القبائل الهناوية ضد ابن اخيه سالم الذي كان يعتبر حليفا للقبائل الغافرية . وقد قبل تركي عروض الانكليز بالذهاب الى الهند والبقاء فيها كنوع من النفي الاجباري ولا شك ان بريطانيا كانت تحتفظ به عند الحاجة كواسطة ضغط على السلطان سالم ، وقد اغتنمت فارس فرصة القلاقل والحروب الاهلية في عمان لتطلب من سالم تعديل اتفاقية بندر عباس الميناء الواقع في الطرف الثاني من خليج عمان الذي كان يخضع للادارة العمانية وقد عدل هذا الاتفاق الذي كان قد عقد بتاريخ (١٨٥٥)م بوساطة الحكومة البريطانية بحيث اصبح هذا الميناء العربي في ذلك الوقت تابعا اداريا لحاكم شيراز ورفع ايجاره السنوي من ستة عشر الف تومان الى عشرين الف ، وبالرغم من معونة الانكليز وحمايتهم لسالم فان الاستقرار الذي كان ينشده كان بعيدا عن التحقيق لان العواصف لم تلبث ان واجهته ولم يتمكن من الصمود لها وقد تمثلت هذه العواصف بمحاولةاعادة الامامةالتي كانت تداعب افكار عامة الشعب العماني وبصورة خاصة رجال الدين وعلماء المذهب الاباضي

وسكان الداخل وكما ذكرنا في المقدمة كان المرشح الوحيد للامامة دائما هو عزان بن قيس .

فمنذ تخلي السلاطين الاوائل من البوسعيد عن لقب الامامة بعد وفاة والدهم الامام احمد بن سعيد لم يهادن علماء ورجال المذهب الاباضي عائلة البوسعيد مطلقا فبالنسبة اليهم كانت الامامة ضرورة حتمية تقتضيها الشريعة ولا يجوز بالنسبة للفقه الاباضي صلاة الجمعة في غياب الامام لذلك فكلما كانت الفرصة تسنح لمناهضة البوسعيد لم يتأخر هؤ لاء العلماء من اغتنامها اما للثورة او الاحتجاج على الملكية الوراثية ، وقد فشلت محاولات كثيرة ولكن المحاولة الاخيرة كتب لها النجاح . وقد استهدفت امرين اولهما عودة الامامة وثانيهما الوقوف بوجه الانكليز وابعاد صنيعتهم السلطان سالم بالاضافة الى تعاونه مع الوهابيين الاعداء التقليديين للعثمانيين . وقد ساعد على خلق الفكرة محاولة سالم قتل صالح بن علي الحارثي امير الشرقية بالرغم من ان سالما كان مدينا للحارثي فى تثبيت حكمه اثناء خلاف سالم مع عمه التركي لذل اتصل صالح بن علي الحارثي بالعالم الديني سعيد بن خلفان الخليلي الذي كان ينظر لحكام البوسعيد كمغتصبين لحق الشعب في انتخاب الامام الذي يريدونه ، وقد اخذ الاثنان يدعوان القبائل الى الثورة ضد السلطان سالم وغيره من السلاطين . وارسلا في الوقت ذاته الى عزان بن قيس حاكم مدينة الرستان رسالة مفتوحة يقترحان عليه عقد اجتماع في مدينة (بركا) الواقعة في عمان الداخلية وقد سار عزان الى بركه واحتلها بينما سار صالح والشيخ الخليلي مع من انضم - اليهما من القبائل نحو مسقط لاحتلالها فاستسلمت لهم حامية مطرح وبعد ان انضم اليهما عزان بن قيس توجها نحو مسقط فسقطت في ايديهما بينما كان السلطان يهرب على سفينته الخاصة البرنس اوف ويلز ، ولم تستطيع بريطانيا التدخل او بالاحرى وقفت على الحياد كعادتها تنتظر المنتصر واعطت التعليمات لمعتمدها في الخليج الكولونيل لويس بلي الذي كان في ميناء مسقط على ظهر سفينة حربية بعدم التدخل لنصرة السلطان ، وبعد هروب سالم انتخب العمانيون عزان بن قيس اماما للمسلمين وبايعه الشعب في تشرين اول ١٨٦٨ ، ويقول المؤ رخ العماني السالمي « ان عزان اختير لا لانه كان اعلى المرشحين صفة بل لكونه من بيت السلطنة وتفرسوا فيه صدق اليقين وقوة الايمان وعزيمة الصبر وشدة الوقار وحسن الاتباع وغاية الورع » ، ويضيف الى ذلك « فصدق الله فيه ظنهم وقام بما حملوه من الواجبات حتى ذهبت سبيل الله

روحه » ، وقد استطاع عزان لاول مرة منذ مدة طويلة او يوحد عمان فحارب الغافرية وقضى على محاولات سالم للعودة واحتل البريمي ووجه ضربة قوية لنفوذ السعوديين في عمان عندما اخمد ثورة القبائل البوعلي في منطقة الشرقية وقد بدا وكأن الامور استتبت للامامة الجديدة ـ ولكن بريطانيا كانت ترى في الامامة الجديدة خطرا على نفوذها لانها خرجت عن طاعتها فلم تعترف بحكومة عزان وامامته ثم سمحت لتركي بن سعيد الذي كان منفيا في الهند بالعودة والعمل على مسؤ وليته الخاصة وكانت الامامة في ذلك الوقت تعاني من خطر الخلاف بين الهناوية والغافرية كما انها لم تستطع كسب ود القبائل بسبب تشددها بتحصيل الضرائب ، ولم تكن القيادة موحدة في شخص عزان الذي كان يضطر دائما لاستشارة العلماء في كل امر ، وقد استغل تركي هذا الضعف ، وحاول الهجوم على عمان من الخلف فنزل الساحل المهادن وتقدم نحو عمان الداخلية مع من تبعه من الغافرية محاولا الوصول الى المنطقة الشرقية لوجود حلفائه من قبائل البوعلي فيها ، وعندما حاول الامام عزان الوقوف بوجه تركي هزمه هذا بعد ان انفك عنه قسم كبير من قواته وانسحب الى مسقط ولحقه تركي بعد اجتماع القبائل حوله واحتل مطرح وهناك قتل الامام الذي كان يدافع عنها ، ويقال ان احد اتباعه اطلق النار عليه في اواخر كانون الثاني ١٨٧١ وقد وصل تركي بعد ذلك الى مسقط التي تحصن فيها الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي مع جماعة من بني رواحه وقد تدخل الانكليز في الامر كعادتهم ليكونوا حكاما يفرضون هيمنتهم على المنهزم والمنتصر فعقدت الهدنة بين الطرفين وانهارت الامامة واستلم الحكم تركي بن سعيد (١٨٧١ ـ ١٨٨٨)م الذي ساعد على تطوير النفوذ البريطاني في مسقط وادى الى وضعها تحت الحماية البريطانية وقد ساعدته هذه في الدفاع عن مسقط امام قوات الداخل التي عادت للوقوف في وجه السلطان وحاولت احتلال البلدة ثلاث مرات ، وعندما وجهته الصعوبات المالية بعد قطع معونة زنجبار اجرت عليه بريطانيا اعانة سنوية ظلت بريطانيا تدفعها لسلاطين البوسعيد حتى زمن متأخر . واخيرا اعلنت بريطانيا في عام ١٨٨٦ عن عزمها على مساعدة تركي ضد كل من يحاول مهاجمة مسقط وكان لهذا الاعلان اثره في حفظ السلطنة بيد تركي، وقد وقع تركي مع الانكليز اتفاقية تقضي بالغاء تجارة الرقيق عام ١٨٧٣ ومنحته بريطانيا لقب (شريف) كما ضمنت لابنه فيصل السلطة بعد وفاة ابيه الذي تولى الحكم ما بين ١٨٨٨ ـ ١٩١٣! ، ومع ذلك لم يعترفوا به سلطان حتى عام

١٨٩٠ عندما وافق على عقد معاهدة جديدة تم التوقيع عليها في (١٩) آذار سنة ١٩٨١ وسميت معاهدة الصداقة والتجارة والملاحة وهي تمتاز بكثرة المواد المنظمة للعلاقات التجارية واعفاء البضائع الانكليزية من كثير من الرسوم المفروضة لصالح مسقط واشراف بريطانيا على الملاحة التجارية في المنطقة « لا تمنع اية سلعة من الدخول الى ارض صاحب العظمة سلطان مسقط او الخروج منها ولن تفرض رسوم جمركية على البضائع التي تصدر من تلك الاراضي دون موافقة حكومة صاحبة الجلالة البريطانية » وقد اهتمت المعاهدة الجديدة بتكليف القنصل البريطاني السلطة القضائية على رعايا بريطانيا من الهنود وغيرهم من سكان المحميات فقد جاء فيها « يستمتع رعاية صاحبة الجلالة البريطانية فيما يتعلق باشخاصهم وممتلكاتهم في داخل اراضي صاحب العظمة سلطان مسقط بامتيازات خارج النطاق » وبعد توقيع هذه المعاهدة بيوم واحد وقع السلطان تعهدا مؤداه انه « يقطع عهدا ووعدا على نفسه وعلى ورثته وخلفائه بانه لن يتنازل قط عن اراضي مسقط وعمان او اي من ملحقاتها ولن يبيعها او يقدمها هنا او يسمح باحتلالها باية طريقة كانت دون معرفة الحكومة البريطانية وموافقتها » وبذلك دخلت سلطنة مسقط ضمن نطاق الاتفاقيات والمعاهدات الأبدية التي دخل فيها شيوخ الخليج وكبيرها وقد صرح اللورد كيرزون نائب الملك في الهند « اننا نعطي امام مسقط معاشه السنوي ونملي عليه سياستنا الخارجية وكل تدخل اجنبي في شؤون مسقط يعتبر موجها ضد بريطانيا واني مقتنع بانه لن يمر زمن طويل حتى يحدد نص رسمي وضع هذه البلاد القانوني يجيز لعلم صاحب الجلالة ان يرفرف على قلعة مسقط » وسواء كانت الحماية التي فرضتها بريطانيا على مسقط رسمية ام غير رسمية فقد اخذت بريطانيا تتصرف بالسلطنة كما لو كانت هذه الحماية موجودة فعلا .

وقد حاول فيصل تهدئة الاحوال في داخل عمان فحاول استمالة صالح الحارثي امير الشرقية وعرض انهاء القتال وسيادة السلام بين الطرفين ثم هاجم مدينة الرستاق التي يحكمها ابن عزان بن قيس ولكن الحملة لم تنجح وعاد الى مسقط . ولكن الامور لم تلبث ان ساءت بين فيصل وصالح بن علي الحارثي وخاصة عندما بدأ السلطان يعاون الانكليز على القضاء على تجارة الاسلحة وتهريبها والتي كان اهل الداخل يعتبرونها موجهة ضدهم . وفي عام ١٨٩٥م ارسل صالح ابنه على رأس حملة عسكرية احتلت مسقط وقصر السلطان وهرب السلطان نفسه كما ان سعود بن

عزان بن قيس نزل من الرستاق وتعاون مع ابن صالح باحتلال مسقط وظل القتال دائرا مدة ثلاثة اسابيع في مسقط وذلك في شهر شباط من عام ١٨٩٥ وقد وقف الانكليز على الحياد في هذه الحروب الاهلية الا ان القبائل الغافرية هبت لنجدة فيصل وادى الى عقد صلح بين المهاجمين وفيصل الذي دفع لهم مبلغا كبيرا من المال وبصورة خاصة لصالح الحارثي الذي ترك مسقط وعاد الى منطقته . وكانت هذه الحادثة سببا في تنبيه الانكليز من تفوق قوات الداخل على قوات السلطان التي كان اغلبها من متطوعة البلوش . بالاضافة الى ان فيصل استاء كثيرا من الانكليز الذين خانوه في وقت الشدة واخذ في معاكستهم مما جعلهم يعملون على مراضاته واعلانهم عن حمايته بشكل غير مباشر وذلك بالقرار الذي ابلغوه لشيوخ القبائل في عام ١٨٩٥ والذي مؤداه « انه بالنظر لما للانكليز من مصالح جوهرية في مدينتي مسقط ومطرح فانها لن تسمح للشيوخ بمهاجمة هاتين المدينتين مهما كان الخلافات القائمة بين الشيوخ والسلطان » وقد ظلت فكرة عودة الامامة بعيدة عن الظهور حتى نهاية حكم فيصل بن تركي عام ١٩١٣ عندما انتخب العمانيون الامام سالم بن راشد الخروصي اماما لعمان وفي نفس العام توفي فيصل بن تركي وخلفه ابنه « تيمور » وسنتطرق الى هذا الموضوع في فصل قادم .

وفي زمن حكم فيصل بن تركي اشتد التنافس بين الانكليز والفرنسيين على تثبيت النفوذ في سلطنة مسقط ما بين عام ١٨٩٤ حتى عام ١٩٠٥م فقد وجد الانكليز اثر موت السيد سعيد بن سلطان ان الامتيازات الممنوحة للفرنسيين بموجب الاتفاقيات المعقودة بين سلاطين مسقط والفرنسيين تهدد المصالح البريطانية في الصميم لذلك وضع الانكليز خطة لابعاد النفوذ الفرنسي عن زنجبار ومسقط بآن واحد على اساس التعهد من كلا الطرفين الفرنسي والبريطاني بعدم التدخل في شؤون البلدين المذكورين واحترام استقلالهما وصدر بيان باريز عام ١٨٦٣ يؤكد هذا الاتفاق وفي عام ١٨٩٢ انشأ الفرنسيون نيابة قنصلية لهم في مسقط واخذ اهتمامهم يزداد شيئا فشيئا بعد رفع نيابة القنصلية الى قنصلية وقد بقيت هذه حتى عام ١٩٢٠ وفي سنة ١٨٩٥ فاوضت فرنسا السلطان الكاره للانكليز بالتنازل عن قطعة صغيرة من الارض لتبني عليها فرنسا مستودعا لتموين السفن بالفحم الحجري واتفق على ان يكون الارض في ميناء (رأس الجصة) قرب مسقط وكان موقف الحكومة البريطانية نحو هذه المنطقة مشوبا بالتردد والحذر ففرنسا تستمد حقها من

المادة ١٧ من المعاهدة الفرنسية العمانية لسنة ١٨٤٤م ولا يوجد في معاهدة سنة ١٨٩١ نص رسمي يمنع ذلك من قبل السلطان الذي كان يستمد حقه الطبيعي في التصرف ببلاده بموجب بيان باريز ، ولكن الرد الحازم جاء من قبل حكومة الهند التي كان على رأسها الاستعماري العريق اللورد كيرزون الذي ارسل انذارا الى فيصل بن تركي يهدد بقطع راتبه السنوي اذا لم يسحب اتفاقه مع فرنسا ويعود الى تطبيق الاتفاقيات المعقودة بينه وبين بريطانيا ، وخاصة رفع الضرائب التي توضع على البضائع الانكليزية بموجب اتفاقية التجارة المعقودة بين الطرفين ولكن السلطان رفض الانذار ولم يستجب له فارسلت حكومة الهند قطعا من الاسطول البريطاني بقيادة الاميرال (دوغلاس) الى مسقط واضطر السلطان للخضوع للامر الواقع والصعود الى بارجة الاميرال المذكور الذي هدد بقصف مدينة مسقط واعلن السلطان ولاءه للانكليز ووضع نفسه تحت تصرفهم وهكذا فرض الانكليز بالقوة سلطتهم على عمان ، وفي حزيران عام ١٨٩٦ ابلغ القنصل الفرنسي من قبل السلطان بانه مضطر الى سحب المنحة التي اتفق عليها في العام السابق ، وعندئذ تحول الصراع بين الطرفين الى عاصمتي البلدين باريز ولندن وارسلت فرنسا احتجاجا للندن التي اسفت على تصرفات نائب الملك في الهند وبدلا من ان تثير بريطانيا ازمة بسبب مسألة ثانوية كهذه اقترحت بريطانيا اعطاء فرنسا مستودعا آخر على خليج المكلا في حضرموت . ثم اتفق على اعطائهم قسما من المستودع البريطاني للفحم في المنطقة ، وقد استغل الانكليز ضعف السلطان ليفرضوا عليه الغرامات الثقيلة .

وقد استاء الفرنسيون جدا من موقف الانكليز ، وصمموا على ازعاجهم واخذوا يوزعون سرا الاعلام الفرنسية على المراكب المحلية للتخلص من التفتيش الذي كان تقوم به البحرية البريطانية بحجة القضاء على تجارة الاسلحة والرقيق ، واكثر ماكان يزعج الانكليز الحملات الاعلامية التي كان يشنها الفرنسيون لتشويه سمعة الانكليز امام الرأي العام العربي والاسلامي في الصحافة التي كان يوزعها هؤلاء على زعماء المنطقة الواقعة بين عدن والهند وايران واهم هذه الصحف كانت فتح البصائر والتي غيرت اسمها فيما بعد مرشد الالباب عام ١٨٩٩ بالاضافة الى ما كان يرسله للصحافة الاوروبية احد المقيمين في عمان وهو فرنسي يعمل في التجارة عن مثالب الانكليز وسوء معاملتهم ومخططاتهم التوسعية في المنطقة الى غير ذلك من الانتقادات التي كانت تلاقي اذنا صاغية في اوربا مما اضطر الانكليز الى تقديم

شكوى ضده لدى حكومته في باريز ورغم تنبيهات فرنسا له ظل يقوم بحملاته ضد الجشع البريطاني ولم يستطيعوا زحزحته من مسقط ولم يستطيعوا اجبار السلطان على ابعاده . وقد اضطر الانكليز لاخذ الاحتياطات لعدم وصول هذه الصحف الى المنطقة وبخاصة المكتوبة باللغة العربية والتي كانت ترسل بالبريد اما من بيروت او طنجه ، وقد حاول القناصل الفرنسيون الموجودن في المنطقة وبخاصة مسقط الاتصال بقبائل الداخل وكانت لهم علاقات جيدة مع قبائل البوعلي وبصورة خاصة منطقة صور التي كانت احدى المراكز الرئيسية للنفوذ الفرنسي .

اما مشكلة حمل العلم الفرنسي من قبل المراكب المحلية وبصورة خاصة اهل صور فقد تزايدت بشكل كبير . وحاول الانكليز تقديم الاحتجاجات للحكومة الفرنسية وشجبت وزارة الخارجية الفرنسية هذه الاعمال الا ان القناصل ظلوا يوزعون الاعلام لخلق جو من الاضطراب والقلق امام البريطانيين ، واخيرا لجأت حكومة بومباي الى خطة جديدة فوجهت انذارا شديد اللهجة الى سلطان مسقط عام ١٨٩٩ طالبة فيه بان يأمر اتباعه بعدم رفع العلم الفرنسي وعلى الاثر استدعى السلطان قنصل فرنسا وامره بالكف عن هذه الاعمال ولكن هذا الانذار لم يؤدي الى نتيجة تذكر ودام الحال على هذا المنوال حتى سنة (١٩٠٣) حيث بلغت الازمة ذروتها ، اذ احتجز سلطان مسقط بناء على توجيهات بريطانيا مراكب عمانية تحمل العلم الفرنسي وكان اغلبها يعود الى بحرية سكان صور فاحتج قنصل فرنسا على ذلك ولم تثمر تهديداته عن شيء ثم وصلت مدرعة فرنسية الى مياه مسقط لتهدد السلطان الا انها وجدت امامها بارجتين بريطانيتين وكان الموقف حرجا جدا يهدد باصطدام مسلح خطير ، كما حدث في مشكلة فاشوده في افريقية انتقل الثقل في المفاوضات حول موضوع الاعلام الى لندن حيث تقرر بهدوء رفع الامر الى هيئة التحكيم الدولية في لاهاي وبانتظار صدور قرار التحكيم افرج السلطان والبريطانيون عن المحتجزين من فرنسيين وعمانيين وكان سبب ذلك التقارب بين الدولتين اللتين كانتا تشكلان في ذلك الوقت القوتين العظميين في العالم واتفقت الدولتان على تسوية المشاكل بينهما لمواجهة الخطر الالماني المتزايد والذي بدأ يتعاظم وينمو بشكل سريع ، وكما كان منتظرا جاء قرار المحكمة في لاهاي عام ١٩٠٥ يدين القناصل الفرنسيين ومع ذلك فقد سمح البريطانيون للعمانيين برفع العلم الفرنسي اذا ارادوا حتى اشعار آخر ومما يجدر ذكره ان معاهدة الصداقة الفرنسية ـ العمانية

ظلت فاقدة المفعول تلقائيا حتى الوقت الحاضر ولكن القنصلية الفرنسية اقفلت في عام ١٩٢٠ من مسقط في اعقاب الحرب العالمية الاولى . وعادث بريطانيا وحدها سيدة المنطقة ، وكانت الزيارة التي قام بها اللورد.كيروزن نائب الملك في الهند الى الخليج عام ١٩٠٣ قمة التحدي والتفوق البريطانـي حيث كان هذا الاسـتعماري العريق يسير بموكبه البحري من ميناء الى ميناء كأنه احد اباطـرة الرومـان في اوج انتصاره .

الباب السابع

التطورات السياسية والاقتصادية في الخليج حتى نهاية الحرب العالمية الثانية

الفترة ما بين ١٩١٤ - ١٩٤٥

- الفصل الأول : ظهور البترول في الخليج واهميته الستراتيجية والمنافسة الدولية .
- الفصل الثاني : الامبراطورية البريطانية في الحرب العالمية الأولى واستراتيجيتها العامة في الخليج وما حوله .
- الفصل الثالث : تطور الأوضاع في الخليج وما حوله ما بين الحربين العالميتين والاستراتيجية البريطانية .
- الفصل الرابع : المنافسة الدولية في الخليج وما حوله في الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .
- الفصل الخامس : الخليج العربي وما حوله خلال الحرب العالمية الثانية واستراتيجية الدول المتحاربة نحوه .

الفصل الأول

ظهور البترول في الخليج والمنافسة الدولية والأهمية الستراتيجية

ـ اكتشاف البترول واهميته ـ ازدياد اهمية البلدان التي تنتج البترول ـ التطور الصناعي والبترول ـ تطور استخدام البترول ومشتقاته ـ ظهور الشركات البترولية الكبرى العالمية ـ المحاولات الأولى لاستثمار البترول في الخليج ـ ظهور البترول في منطقة عربستان (الشركة الفارسية ـ الانكليزية) ـ اكتشاف البترول في العراق واتفاقية الخط الأحمر (شركة البترول العراقية) المنافسة الأنكليزية ـ الأمريكية ـ اكتشاف البترول في المملكة العربية السعودية (الأرامكو) ـ الشركات الأمريكية الكبرى في الخليج .

الفصل الأول

ظهور البترول في الخليج والمنافسة الدولية والاهمية الستراتيجية

يعتبر اكتشاف البترول واستخدامه الصناعي من أهم الأحداث التي مرت على العالم في تاريخه الطويل وقديماً قيل المال عصب الحرب وأما الآن فالبترول هو عصب الحياة وصناعة البترول هي اكبر صناعة في تاريخ البشرية ولها آثارها العميقة في مختلف النواحي الحياتية ، ويعود الفضل للبترول في زيادة الطاقة الانتاجية ، وتحسين الانتاج ، وسرعته واستخدام الآلة في مختلف النواحي الاقتصادية ، مما ساعد على نمو الزراعة وتقليل اليد العاملة . وله الأثر الكبير على الحياة العسكرية في سرعة تنقل الجيوش التي اخذت تستخدم السيارة والطائرة والحوامة للتنقل عوضاً عن السكك الحديدية ، والواقع ان البترول ومشتقاته دخل في مختلف انواع الحياة حتى المأكل والملبس . وسيظل البترول سيد الموقف حتى يظهر نوع جديد من الطاقة يحل محل هذا المنبع الهائل من الطاقة وربما تكون الذرة وربما يكون غيرها ، والمهم في ذلك أن تكون الطاقة الجديدة أكثر رخصاً وسهولة وانتظاما من البترول ، ليكون الاعتماد عليها سريعاً كما كان الحال عندما تم انتقال الاعتماد على الفحم الحجري كمادة اساسية للطاقة الى البترول . وتكمن الأهمية الرئيسية في البترول هو تعدد استخداماته وتنوع مشتقاته التي لا تعد ولا تحصى . وفي كل فترة تتكشف المعرفة عن ظهور نوع جديد من مشتقات البترول يثير ضجة صناعية واجتماعية كبيرة .

وقد ازدادت اهمية البلدان المصدرة للنفط وتغيرت حياتها ، وبقدر ما هو مشكلة للدول الصناعية التي لا يوجد في بلادها بترول بقدر ما هو نعمة للبلدان المصدرة اذا ما استطاعت توظيف اموال البترول في المشاريع الانمائية والصناعية لتتمكن من العيش عند نضوب البترول والا سيكون نقمة عليها وعلى شعبها .

والبترول كمادة معروف منذ القدم ، فقد عرفه قدماء العراقيين الذين كانوا اول من استخدموه صناعياً في كثير من منشآتهم الحضارية وقد استخدمه المصريون

الأوائل في بناء الطرق والمباني ، وكمادة عازلة في بناء السفن وكدواء لبعض الأمراض الجلدية خاصة ، واستخدمه العرب كزيت للأضاءة في الحروب ، وهم الذين كانوا اول من عرف اجهزة التقطير (الأنبيق) ونقلوها للأندلس . كما أن قدماء الهنود كانوا يعرفون البترول واستخدموه كمواد طبية . وعندما وصل البيض الى امريكا اقتبسوا استخدامه من الهنود ، ولا يزال البدو الرحل يستخدمون بعض مشتقات البترول كعقار لشفاء الجروح والقروح التي تتعرض لها حيواناتهم ، وقد استطاعت بعض الأقوام ايضاً تقطير البترول واستخدموه للتشحيسم والاضاءة . وعلى العموم كان النفط يظهر على وجه الأرض وعندما كان المنقبون الأمريكيون ينقبون على المياه كانوا يعتبرون الأرض التي يظهر فيها البترول ارضاً ملعونة ، وفي العراق كانت المناطق التي يظهر فيها البترول فوق الأرض معروفة ومنها ما كان دائم الاشتعال .

وقصة اكتشاف البترول وتطور صناعته تعود بشكل كبير الى التطور الصناعي الذي بدأ في القرن الثامن عشر عندما اخترع جيمس واط عام ١٧٦٩ الذراع الآلي ومنذ ذلك الوقت والآلة تتطور بشكل متسارع ويتطور معها الطاقة المسيرة للآلة التي بدأت بالانسان الذي كان يستخدم جهده العضلي لتسيير الآلات المعروفة في تلك الأوقات ثم استخدم الميـاه ثم الفحم والكهرباء وأخيراً البترول وغدا القوة النووية . . الخ .

في عام ١٨٥٠ استطاع السكـوتلندي (جيمس يانغ) أن يصفي الفحم ويستخرج منه الكيروسين الذي انتشر في اوربا وأمريكا للاضاءة ولتسيير الآلة ورغم استخراج الكيروسين من البترول حاليا لا يزال يطلق عليه زيت الفحم .

في منتصف القرن التاسع عشر عرف البترول في امريكـا وبذلت مجهودات لاستخدامه تجاريا ، وقد استخدم في بعض المجالات مثل التزييت والتشحيم و في الاضاءة بعد اجراء تجارب كثيرة ، ولكن المـرحلة الحاسمة في تاريخ صناعه البترول ، جاءت عندما اكتشفت اول بئر بتروليـة عام ١٨٥٩ في (نيتوسفيل) في بنسلفـانياوفي امـريكاعلى يد(جـون درابـك) الـذي كان سائقـاً لقطـارات السكة الحديدية ، وكـان البئر على عمق ٦٠ قدم ، ومنذ ذلك وحتى الآن تتطور صناعة النفط وطرق استخدامه باضطراد بالاضافة الى ازدياد عدد مشتقاته ، وخلال الفترة ما بين ١٨٦٠ ـ ١٨٨٥ استخدم البترول للاضاءة فقط بعد تصفيته واستخراج زيت

الاشتعال اما ما تبقى من المـواد فكـانت تهمل . وبعد ذلك وحتى بدايـة القرن العشرين اخذ البترول يحل محل الزيون النباتية في التشحيم والتزييت الصناعي ثم جاء اختراع السيارة ليزيد في الطلب على البنزين المستخرج من البترول وقد سميت هذه المـرحلة بمرحلة البنزين ولسبب الزيـادة في انتاج البترول الخام وكثرة الابار المكتشفة فقد تطلب العمل على تنويع استخدام البترول ومشتقاته وخاصة ما بين اعوام ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠ وبعد هذا التاريخ اخذ البترول والمشتقات الناتجة عنه تدخل في كل شيء ويزداد استخدامه يوماً بعد يوم .

كـانت الولايـات المتحدة خلال مرحلة الاضاءة الدولة الوحيـدة التي تنتج البترول وبعد ذلك ظهر البترول في (باكـو) الواقعة على بحر الخزر في روسيا . وكانت مدار صراع طويل بين كل من ايران وتركيا من جهة وروسيا الامبراطورية من جهة أخرى . وقد لعب البترول دورا هاماً في الحرب العالميـة الأولى بسبب استخدامه في كل وسائل النقل وبخاصة في البواخر والقاطرات والسيارات وساعد مساعدة همة في سرعة نقل القطعات العسكرية من مكان الى آخر في السيارات ولولا سرعة تحرك الجيوش الفرنسية في معركة المارن لخسر الحلفاء الحرب وقد ازداد الطلب على البترول واخذ يحل بسرعة محل الفحم الحجري . ومع التطور التقني ازداد عدد مشتقات البترول وبدأت صناعة البتروكياويـات وازداد انتاج البترول ، وفي عام ١٩٢٩ كان انتاج البترول حوالي ٢٥٢ مليـون طن وفي عام ١٩٣٨ اصبح ٢٨٢ مليون طن . وقد سجل ما بعد الحرب العالميـة الأولى انتاج البترول ارقاماً هائلة بسبب دخوله في عدد هائل من الصناعات وازداد الاعتماد عليه في الدول الصناعية . وفي عام ١٩٢٠ كان البترول يمثل ١٢٪ من الطاقة المستهلكة في العالم أما اليوم فلا شك انه يشكل أكثر من نصف الطاقة . وفي عام ١٩٣٩ ، وكانت الولايات المتحدة تنتج ثلاثة ارباع البترول الموجود في العالم . لذلك كانت اول دولة مصدرة للنفط . ورغم انها لا زالت حتى الآن تتفوق على جميع الدول في انتاجها المحلي الا انها اصبحت أكبر مستهلك للبترول وأكبر مستورد له . في محاولة للاحتفاظ باحتياطيها الضخم من النضوب السريع .

كان لا بد لهذه الصناعة التي تحتاج الأموال الطائلة للبداية فيها أن تترافق مع تهيئة رؤوس الأموال الضخمة وتشكيل الشركـات التي عليها لوحدها أن تتحمل

المصاريف الضخمة للقيام بعمليات التنقيب والاستثمار والتسويق والنقل الى غير ذلك من العمليات الفنية الكبيرة والمعقدة بالاضافة الى الأيادي الماهرة الخبيرة والا ضاعت الأموال بسرعة هائلة وفقد كل شيء . لذلك ظهرت ونمت شيئاً فشيئاً الشركات البترولية الضخمة ونجحت في امريكا وتبعتها بريطانيا ثم اوربا بعد الحرب العالمية الثانية . وكانت المنافسة حادة بين مختلف هذه الشركات وزادت عندما بدأت اوربا تعمل المستحيل للتخلص من سيطرة الشركات البترولية الأمريكية كما أن امريكا نفسها أخذت تتطلع الى الخارج للحصول على كميات اكبر من البترول خارج حدودها بعد الاستهلاك الكبير الذي املته ظروف الحرب ، وكان الخليج أحد المراكز الرئيسية للتنافس البترولي الدولي ويذكرنا ذلك بالمنافسة الدولية التي حدثت في القرن الماضية للسيطرة على المراكز التجارية فيه والحروب التي جرت وما زهق من ارواح خلالها واليوم فالتنافس من نوع جديد يعتمد على من لديه الامكانيات المالية والخبرة والاستعداد .

كان بئر (جون درايك) الأمريكي اول بئر بترولية في العالم ، وكان انتاج البترول ينحصر في الجزء الغربي من ولاية (بنسلفانيا) حول نهر (أليفني) ثم امتد الى أخرى الى كاليفورنيا أنديانا لويزيانا وأهايو ثم ولاية التكساس التي فاق انتاجها بقية الولايات ، وقد ساعدت الأنظمة الأمريكية على زيادة الانتاج من حوالي ثلاثة ملايين برميل عام ١٨٨٦٢ الى اربعين مليون برميل عام ١٨٨٢ ، وكانت المنتجات البترولية اول صادرات امريكا الصناعية وفي عام ١٨٧٠ شكل جون روكفلر شركته المعروفة باسم ستاندر اويل (اوهايو) التي لعبت دوراً رئيسياً في صناعة البترول بعد أن تحول اسمها الى ستاندر اويل (نيوجرسي) ثم انشئت شركات ستاندرد في ولايات اخرى وقد استمر هذا التنظيم سارياً عام ١٨٩٩ حيث اصبحت ستاندر (نيوجرسي) الشركة القابضة لجميع شركات ستاندرد بالاضافة الى مجموع الشركات الرئيسية سكوني فاكوم اويل كربورشن - شركة مصافي اوهايو اويل كومباني - شركة سوث بين اويل كومباني ، وكذلك شركات ستاندر في (اوهايو) انديانا - كاليفورنيا - وكنتكي - كنساس - ونبراسكا ، ولم تعد (ستاندر ترست) تترك مجالاً من مجالات الصناعة البترولية دون أن يكون لها نفوذ فيه ، واصبح المنتجون مضطرين لبيع انتاجهم الى وكلاء (ستاندر) والمصدرون الى الشراء منها والموزعون الى الحد من نشاطهم التسويقي نظراً لمنافسة الترست لهم . واخيراً تمكنت ستاندرد من السيطرة

على قطاع وتجارة المنتجات داخل الولايـات المتحدة وعلى صادرات المنتجات البترولية ، ونظراً لأن الولايـات المتحدة كانت المصدر الأساسي لتموين العالم بالمنتجات البترولية ، فقد سيطرت ستاندرد على صادرات المنتجات البترولية للعالم وذلك بفضل احتكارها لمعامل التكرير في داخل امريكا .

وقد واجهت الشركـة اول تحد لسيـطرتها على الأسواق الأجنبيـة اثر دخول البترول الروسي في العقد الثامن من القرن التاسع عشر منافساً لها في اسواق اوربا والبحر المتوسط مما جعل ستاندرد تقوم بتأسيس شركـات اجنبيـة تابعة لها لمواجهة المنافسة الروسيـة . وبالرغم من العقبات التي واجهتها ستاندر والمحاولات التي نجحت عن طريـق القوانين في تجزئتها والغاء الترست ، الا انها مع نهايـة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين فإن ستاندر (حوالي سبعين شركة) كانت تسيطر على حوالي ثلث انتاج الولايات المتحدة الذي بلغ اذ ذاك ٥٢ مليون برميل . ولكن نظراً لسيطرة الشركة على نقل الخام بواسطة الأنابيب وعلى تكرير الخام فإنها كانت تسيطر سيطرة فعلية على ٩٠٪ من انتاج البترول الخام وقد توزعت نشاطات ستاندر في مختلف المجالات التي لا تمت الى البترول بصلة ، كما انها بعد الحرب العالميـة الأولى دخلت كما سنرى في المنافسة للحصول على البترول في خارج الولايـات المتحدة وخاصة في الخليج وفي السعودية بالذات .

وفي عام ١٩٠١ تغلب الانتاج الروسي على الانتاج الأمريكي حيث بلغ انتاجه (١٢) مليـون طن . ومنذ عام ١٨٨٤ تمكنت صناعة البترول الروسيـة من سد الاحتياجات المحلية وأخذت تغزو اسواق غرب اوربا بتصدير فائض الكـيروسين وزيوت التشحيم اليها وبعد أن ألغت الحكومة الروسية عام ١٨٧٧ رسوم الانتاج على البتـرول الخـام أصبـح باستطاعـة الكيروسـين الـروسي منافسـة الكيروسـين الامريكي في الأسواق الخارجية .

كان ال نوبل اكبر المساهمين في صناعة البترول الروسية ، وكان روتشيلد الثري اليهودي المعروف يقوم بتصدير البترول الروسي منافساً شركة ستانـدر وقـد دخل روتشيلد فيما بعد مجال الانتاج في روسيا حتى عام ١٩١٧ حيث قامت الحكومة الشيوعية بتأميم شركة الهند الهولندية (شل) وممتلكات آل نوبل . وبدأت تستخرج البترول بوسائلها الخاصة .

لم تقتصر حمى التفتيش عن البترول على امريكـا فقد اخذت الشركـات الأوروبية تعمل للحصول على الامتيازات في مختلف النواحي التي يمكن أن يوجد فيها النفط في اسيا وافريقيا وامريكا الوسطى والجنوبية . ففي عام ١٨٩٧ تأسست في لندن شركة بتمويل من مؤسسة (روتشيلد باريز) وكانت شركة صمويل البريطانية نواة هذه الشركة التي سميت شركة شل للتجارة والنقل وقد حصلت هذه الشركة على امتيـازات للتنقيـب عن خامات البترول في جزر الهند الشرقيـة التي كانت تخضع للسيطرة الهولندية ، وفي عام ١٩١٠ تكونت شركة اخرى باسم الشركة الهولنديـة الملكيـة وتقوم هي الأخرى بانتاج البترول الخام من جزر الهند الشرقيـة ولمـواجهة منافسة شركة ستاندرد في سوق الشرق اتفقت الشركتان شركة شل والهولندية الملكية على الاندماج جزئياً في عام ١٩٠٣ ثم انتهى الامر باندماج الشركتين اندماجا كليا عام ١٩٠٧ حيث تأسس الشركة الملكية الهولندية (شل) التي اصبحت فيما بعد أكبر منافس لمجموعة ستاندر كما أصبحت من كبريات شركـات البترول العالميـة ولها مركـزان رئيسيـان في لندن وامستردام وقد تمت عمليـات التوحيـد هذه على مراحل ولعب (جلبنكيان) الثري الأرمني دوراً كبيراً في الاتفاق بين الشركة الملكيـة الهولنديـة ، وشل ، وروتشيلد ، وقد سيطرت هذه الشركة على انتاج الخام في جزر الهند الشرقية حتى عام ١٩١٢ حينما تمكنت ستاندر من الحصول على امتياز للتنقيـب في جزيـرة سومطرة في اندونيسيا ولم تتمكن ستاندرد من ذلك الا نتيجة للاتفاقية التي تمت في عام ١٩١١ بين الشركتين الكبيرتين ستاندرد وشل والتي نظمت علاقات الشركتين في اسيا اثر حرب الأسعار التي نشبت بينهما في اسواق الصين عام ١٩٠٩ . وشركـة ستاندرد في الواقع هي الوحيدة بين الشركات العالمية وبخاصة الأوربية التي كانت تعتمد على الاحتيـاطات البتروليـة الضخمة في الولايـات المتحدة ولذلك لم تكن لتشعر بحاجاتها للحصول على مناطق انتاج اجنبية اما (شل) فلا ركيزة لها في بلادها واعتمادها كله على مصادرها الخارجيـة لذلك ركـزت جهودها هي وشركـة البترول البريطانية (برتش بتروليوم) (التي سيمر ذكرها فيما بعد) على الأسواق الخارجية ولكن بعد الحرب العالميـة الأولى كما ذكـرنا وحاجة امريكـا للبترول جعل ستاندر تهتم بالاستثمارات البترولية في كافة بقاع المعمورة وحصلت على العمل في السعودية حيث وضعت يدها في المنطقة العربية والخليج على اكبر مخازن البترول في العالم عن طريق الأرامكو التي سيمر ذكرها أيضاً .

اما الشركة الثالثة الكبرى في تاريخ صناعة البترول والتي لعبت دوراً رئيسياً في حياة الخليج والمناطق حوله فكانت بريطانية خالصة وهي شركة (برتش بتروليوم) (ب . ب).B. B أي شركة البترول البريطانية وعندما تأسست في فارس اطلق عليها شركة (الأنجلو برسيان) الشركة الانكليزية الفارسية ثم عدل ليكون الشركة الانكليزية الايرانية (أنجلو ايرانيان) ويمكن أن يعتبر مولد هذه الشركة (ب ب B. B) في ١٤ نيسان عام ١٩٠١ للعمل في صناعة البترول تطوراً هاماً في هذه الصناعة ، التي كانت حتى ذلك الوقت صناعة امريكية بحتة ، وكانت اوربا تستورد احتياجاتها من الولايات المتحدة الى أن دخل المحرك الصناعي ميدان العمل فبدأ اهتمام رجال الأعمال البريطانيين يتجه نحو البترول ، وخلال نصف قرن من الزمن اصبحت هذه الشركة احدى دعامات العالم الرأسمالي المعاصر حتى تاريخ تأميمها عام ١٩٥١ ومنذ أن تحولت الى شركة البترول البريطانية (ب . ب) أسهمت في أربع أو خمس شركات بترولية عاملة في الشرق الأوسط ولا تزال احدى أعظم المؤسسات التجارية البريطانية في العصر الحاضر واحدى دعائم الدخل القومي البريطاني .

وقد وجه نشاط هذه الشركة نحو منطقة الخليج العربي بسبب ما كان لدى بريطانيا من قوة ونفوذ في تلك المنطقة فقد استطاعت بعد مجهودات ضخمة وخلال فترة طويلة من الزمن ابعاد كل منافسة دولية لها هناك كما رأينا في فصول سابقة ، وكانت الضرورات التجارية تحتم على البريطانيين الابقاء على نفوذهم قوياً دائماً ، ثم كانت ضرورة المحافظة على طريق الهند - الشاغل الأكبر لسياسة بريطانيا الخارجية - وعندما بدأت تظهر مع بداية هذا العصر ملامح الثروة البترولية سارعت بريطانيا لتكون اول من يستفيد من هذه الثروة معتبرة أن ذلك حق خالص لها لوحدها ، وقد توافق هذا العصر مع العصر الذهبي للامبراطورية البريطانية ، بعد أن أخلت مركز الصدارة للسياسة التي تستهدف التحكم بمنابع البترول وخزاناته واصبحت حماية هذا المرفق الحيوي بالنسبة للاقتصاد البريطاني المحور الذي تدور عليه سياسة بريطانيا في المنطقة .

كان البترول معروفاً منذ القدم في تلك المناطق وخاصة منطقة (عربستان وعند سفوح جبال زاغروس) في الجنوب الغربي من ايران ، وقد نبه الى وجود البترول

ايضاً عالم الآثار الفرنسي (جاك دي مورغان) عام ١٨٩٢ ، وتتحكـم في المنطقة - التي كانت بعيدة من أن تخضع لحكام طهران - قبائل قوية مثل البختيـاري ، والزند والقشقاوي وبني كعب ومن بعدهم الخزاعلة والمحيسن لذلك لم يكن احد يجرأ على الدخول في المنطقة مهما أعطاه الشاه القابع في قصره في طهران من ضمانات والأمر دائماً لهذه القبائل أو بالأحرى لرؤسائها . وخلال هذه الفترة كان الصراع سجالاً بين الامبراطوريتين البريطانيـة والروسيـة حول مناطق النفوذ في فارس ، وكـانت بريطانيـا تعمل لوضع ايـران تحت نفوذها الاقتصادي لابعاد الاستثمارات الروسية ، وعلى هذا الأساس حصل البارون (جوليوس رويتر) في عام ١٨٧٣ على امتياز للبحث عن المعادن في منطقة واسعة من فارس الا ان الشاه ناصر الدين اضطر كما رأينا سابقاً تحت ضغط روسيا القيصرية الى الغاء الامتياز وفي عام ١٨٨٩ اعاد البارون المذكور الطلب وحصل على تصريح بتكوين شركـة للتفتيش عن البترول والمعادن ولكن مرة ثانية فشل والغي الاتفاق معه ، اذ لم يكتشف البترول وابتلعت العملية أموالاً طائلة . . ولكن في عام ١٩٠١ وفي ٢٧ مايس استطاع رجل الأعمال البريطاني (وليم كنوكس دارسي) الذي كان قد أثرى من جريـانه وراء الذهب في اوستراليا ، الحصول على امتياز من الحكومة الفارسية للتفتيش عن البترول وقد مول هذا المشروع مستر (دارسي) المذكور ، ودفع للحكومة الفارسية التي كانت بحاجة الى المـال مبلغ عشرة آلاف جنيــه ، كما تعهد بدفع مبلغ مماثل ، واعطاء الجانب الفارسي حصة قيمتها عشرون ألف سهم ، من أسهم تأسيس الشركــة ، التي ستتولى عمليات البحث والتنقيب والحفر ، وكذلك حصة من الأرباح الصافية ، التي تحققها الشركة قدرها ١٦٪ وقد شمل الامتياز كل بلاد فارس عدا المقاطعات الخمسة التي اتفق عليها لتكون ضمن النفوذ الروسي فيما بعد والتي شملها كل بلاد فارس عدا المقاطعات الخمسة التي اتفق عليها لتكون ضمن النفوذ الروسي فيما بعد والتي شملها الاتفاق اللاحق بين بريطانيا وروسيا عام ١٩٠٧ . وابتدأ العمل في منطقة عربستان وقد ساعدت الحكومة البريطانية مستر دارسي عام ١٩٠٤ حيث أدخل رئيس الوزراء البريطاني (لورد فيشر) شركة بورما للبترول في مساهمة مع (مستر دارسي) لاعانة هذا الأخير ماليا في عمليات البحث والتنقيب والحفر ، ولهذا الغرض تكـونت في العام التالي ما سمي بـ (نقابة الامتيـازات) (Cancessions Syndicate) وأخيراً في ٢٦ مايس عام ١٩٠٨ ظهر البترول اي بعد مرور سبع سنوات

على بدء البحث في منطقة (ميـداني نافطون) وظهر أن هناك حقولاً واسعة ، وقد سمي منذ اللحظة التي بدأ البترول يتدفق من البئر باسـم (مسجـدي سليان) ويقال أن الشركة التي بذلت الكثير من الجهد والمال كادت أن تيأس من العثور على البترول واوعزت بايقاف اعمال الحفر والتنقيب ولكن المهندس الذي التقط البرقية احتفظ بها دون قراءتها في جيبه ولم يعثر عليها الا بعد ظهور البترول . وكانت ابار البترول المكتشفة أولى الآبار البترولية في منطقة الخليج .

بعد هذا الاكتشاف تكـونت في عام ١٩٠٩ الشركـة الانكليزيـة الفارسيـة ANGLO - PERSIAN. CO وأقيم خط للأنابيب يمتد بين (مسجدي سليان) وحتى عبدان عند شط العرب بعد اتفاقهم مع الشيخ خزعل امير المحمـرة (خورمشهـر) لاستخدام جزيرة عبدان لبناء مصفاة بترولية فيها ومد الأنابيب في اراضيه . وفي عام ١٩٢٠ بدأت مصفاة عبدان تعمل وسال الذهب الأسود في الأنابيب .

وقبل الحرب العالمية الأولى وبناء على الحاح ونستون تشرشل الذي كان آنذاك اللورد الأول للاميرالية البريطانية ـ ولأسباب استراتيجيـة وفنيـة حيـث تقرر بناء (٥٦) مدمرة و ٧٤ غواصة تعمل بالوقود ـ قررت الحكـومة البريطانيـة أن تصبح صاحبة اول شركة بترولية في الشرق الأوسط عن طريق شراء أكبر نسبة من الأسهم في شركة البترول (الانجلو فارسية) وقد شكلت الحكومة البريطانية ما يسمى باللجنة الملكية للامدادات البترولية ، وذلك لضمان تزويد السفن الحربية بالوقود فاقترحت اللجنة ابرام عقد على المدى الطويل مع الشركة (الأنجلو فارسيـة) مقابل مساهمة الحكومة في رأس مال الشركة »[1] فأوفدت الحكومة لجنة تضم عدداً من الجيولوجيين والخبراء لاستطلاع الأوضاع على الطبيعة وكانت النتائج جيدة ولصالح الشركـة ، وعلى هذا الأساس عرض ونستون تشرشل على البرلمان مذكرة تتضمن المطالبة بمنح الشركة رأسمال قدره حوالي مليوني جنيه على أن تكون حصة الدولة ٥١٪ من اسهم التأسيس مقابل تعهد الشركة بتزويد البحرية البريطانيـة بما يلزمها من البترول . واعتمد البرلمان المذكرة ثم صدق عليها الملك ، وكـان التوقيع قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بستة عشر يوماً . وقد انتدبت الحكومة البريطانية عضوين اداريـين ليمثلاها في مجلس ادارة الشركة مزودين بحق الفيتو «دون الاهتمام مطلقاً بالشؤ ون التجاريـة» لاستخدامه في القضايـا السياسيـة وكـان عليهما أن يصرفا جهوديهما

للشؤ ون السياسية فحسب ليكونا همزة الوصل بين سياسة الامبراطورية في الخليج وبين السياسة البترولية التي اصبحت تتزايد اهميتها يوماً بعد يوم لتصبح حجر الزاوية في سياسة الامبراطورية وهي التي تملي عليها تصرفاتها .

وقد استفاد الحلفاء من وجود الشركة فائدة كبرى خلال الحرب وبخاصة لتموين الأساطيل البحرية في المنطقة ، ويعتقد عدد كبير من البريطانيين ان النصر الذي حققه الحلفاء عامة وبريطانيا خاصة يعود الى مصنع تكرير البترول في (عبدان) . والواقع ان هناك جانباً كبيراً من الصحة في هذا القول لأن بريطانيا التي تعتمد على امبراطوريتها في تموينها الستراتيجي لم تكن لتستطيع ايصال هذه الموارد بالسرعة الممكنة لولا وجود البواخر التي تعمل على البترول كما ازدادت قوة وحمولة السفن الحربية ومقاومتها بازدياد التصفيح وازداد عدد الأسلحة التي يمكن تركيبها بعد نقص حجم الأماكن التي كانت مخصصة للفحم كما ارتفعت سرعة جميع السفن بعد استخدام البترول بالاضافة الى استخدام مشتقاته الكثيرة العدد والنوع ، وعلى حد قول اللورد كورزون نائب الملك في الهند «كان الحلفاء منطلقين في طريق النصر على بحر من البترول» .

وبعد الحرب زادت الحكومة البريطانية من مساهمتها برأسمال الشركة في عام ١٩١٩ بمبلغ جديد بلغ ثلاثة ملايين جنيه ، وكانت ارباح بريطانيا خيالية من الشركة طيلة نصف قرن يفوق سبعة اضعاف قيمة رأسمالها بالاضافة الى أن البترول لم يتوقف عن التدفق على بريطانيا مساهمةً في رخائها في حين ان اصحاب البترول الحقيقيين لم يكونوا ليحصلوا الا على جزء يسير من هذه الثروة الهائلة ولم تكن بريطانيا تسيطر فقط على الأقاليم الجنوبية كما رأينا في اتفاقها مع روسيا عام ١٩٠٧ كانت تسيطر على جنوب ايران حتى اصفهان في حين أن الروسيا كانت تسيطر بدورها على الجزء الشمالي المترامي حول بحر قزوين .

شهدت هذه الفترة تغيراً جذرياً في ايران حيث استلم الحكم رضا بهلوي بعد عام ١٩٢١ ونصب نفسه شاها على ايران واستطاع أن يعيد القوة للحكم المركزي فبعد ان استغل انشغال روسيا بالثورة البلشفية ابدى استعداده للاعتراف بها ثم وقع معها معاهدة حسن جوار وبذلك ضمن الشاه حدوده الشمالية وفي الجنوب استطاع

بالتآمر مع بريطانيا القضاء على امارة عربستان ويحل محل رؤساء القبائل الأخرى بالتعامل مع الشركة مباشرة عام ١٩٢٥ . وعندما طالبت بريطانيا بقسم من تركة الشيخ خزعل لضمه للعراق الخاضع في ذلك الوقت لبريطانيا رفض رضا شاه بهلوي وظل الموضوع معلقاً .

لم تسر الأمور دائما جيدة بين رضا شاه والشركة فما بين اعوام ١٩٢٩ - ١٩٣٠ كانت ازمة التضخم العالمية ، قد امتدت الى القطاع البترولي فقررت الحكومة البريطانية خفض الحصة الفارسية من الأرباح الصافية ١٦٪ بنسبة ٢٠ الى ١٥٪ ثم بنسبة ٥٪ في العام التالي ولكن البترول كان يشكل بالنسبة لايران المورد الرئيسي للدخل القومي فقد تأثرت الميزانية تأثراً كبيراً ولهذا الغى الشاه من طرف واحد الاتفاقية الخاصة بمنح «امتياز دارسي» وكان رد فعل الحكومة البريطانية عليه الالتجاء الى محكمة العدل الدولية في «لاهاي» ولكن طهران عارضت في ذلك على اساس أن المشكلة بين الطرفين هي مشكلة داخلية بحتة . وبقيت الأمور معلقة حتى نيسان ١٩٣٣ عندما اتفق الطرفان على العودة للمفاوضات واسفرت عن استعادة ايران لحصتها الأصلية من الأرباح ١٩٪ عن طريق الحصول على رسم قدره (٤ شلن) عن كل طن من البترول يصدر الى الخارج بالاضافة الى مدفوعات اخرى تؤدي لها كلما زاد الانتاج المصدر ، وكذلك نص الاتفاق على ضرورة تعويض الحكومة الفارسية عن أي تخفيض يطرأ على قيمة الجنيه الاسترليني وكذلك منحها ٢٠٪ من مجموع الفوائد التي تحصل عليها الشركة عن الحصص العادية من الأسهم على أن لا يقل المبلغ السنوي الذي تؤديه الشركة عن ١,٠٥٠,٠٠٠ ومقابل هذه التنازلات حصلت الشركة على مد صلاحية الامتياز حتى عام ١٩٩٣ بدلاً من عام ١٩٦١ .

وقد بقي هذا الاتفاق سارياً طوال ثمانية عشر عاماً وفي عام ١٩٣٥ بناء على رغبة الشاه غيرت الشركة اسمها الى الشركة البريطانية الايرانية للبترول (انغلو ايرانيان كومباني) .

بعد ظهور البترول في ايران شعرت بريطانيا بأهمية المنطقة من الناحية الاقتصادية فخططت لتستغلها لوحدها اذا أمكن لها وكان امامها العراق الواقع تحت السيطرة التركية وسواحل الجزيرة العربية وجزر الخليج وكانت هذه جميعها تقع تحت

سلطتها السياسية والعسكرية . ولذلك أوعزت للشيوخ في المنطقة بالكتابة الى السلطات البريطانية بالخليج عارضين عليها احتكار مصادر الثروات والمعادن في باطن الأرض وبالفعل فقد كتب شيخ البحرين الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في مايس ۱۹۱۱ الى المقيم السياسي البريطاني يخبره أنه لن يقوم باستخراج البترول شخصياً وانه لن يعطي الحق في الاستخراج لأي جهة كانت الا بموافقة الحكومة البريطانية ، وقد لحقه جميع الشيوخ في تواريخ لاحقة والواقع ان هذه التعهدات ما هي الا قسماً من المعاهدات والاتفاقيات الأبدية التي ربطت بها بريطانيا شعب المنطقة للحفاظ على سيطرتها عليه واستغلال ثرواته وقد عبرت هذه التعهدات عن مدى السيطرة البريطانية الذي لم يكن له حدود والضغط الذي كانت تمارسه السلطة الاستعمارية على هؤلاء الشيوخ الذين لم يكن لديهم حول أو قوة او دولة تستطيع مساعدتهم فيما اذا حاولوا التمرد ، وكانت بريطانيا تحاول اعطاء الصيغة القانونية على وجودها وعلى استغلالها للمصادر الطبيعية في المنطقة واهمها البترول عن طريق الحصول على التعهدات التي كان يقدمها الشيوخ لها ، وبذلك ضمنت لنفسها ثروة هذه المنطقة بعيدا عن كل منافسة سنين طويلة وفي الكويت لم يقتصر منع الأجانب عن استغلال الثروة فحسب بل يرفض الرعايا الانكليز اذا حاولوا القيام بمشاريع استثمارية بترولية دون الحصول على موافقة حكومتهم .

اما في العراق الذي كان تحت الاحتلال التركي فكانت بريطانيا تنظر اليه قبل ظهور البترول في المنطقة كمنطقة نفوذ لا يجوز اهمال مراقبته ولو كان تحت سلطة دولة اخرى بما له من اهمية استراتيجية بالنسبة لوجودها في المنطقة ، وقد حاولت ربط الاقتصاد العراقي بعجلة اقتصاد المنطقة عن طريق القيام باستثمارات اقتصادية ، ولكنها لم تنجح بسبب معارضة الحكام الترك لها وخوفهم من نفوذها ، واخيرا دق ناقوس الخطر الذي كانت تخشاه بريطانيا وذلك اثر محاولات الالمان للوصول الى الخليج عن طريق بناء سكة حديد برلين بغداد بعد أن أعطى لهم الضوء الأخضر من قبل السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان يكن العداء والكراهية للانكليز منذ احتلالهم لمصر وقد حاولت بريطانيا ايقاف المد الألماني نحو الخليج وايقاف التغلغل الالماني في جسم الرجل المريض وقد اوجز احد المعلقين السياسيين على سياسة الانكليز تجاه الرجل المريض «عندما كانت انكلترا تصر على الابقاء على الرجل

المريض «مريضا» كانت تستهدف من ذلك قطع الطريق على الروس والفرنسيين من التدخل في شؤ ون الشرق الأوسط وهل من المعقول ان تسمح لهم او لسواهم بذلك» ومع ذلك فقد ظل الانكليز لفترة طويلة محتارون في معارضة المانيا معارضة فعالة وايقاف تدخلها في شؤ ون تركيا او بالأحرى تقديم العون لها وبين الاتفاق معهم على اقتسام مناطق النفوذ في بلاد الرجل المريض واقتسام الغنائم وخاصة احتال وجود البترول وقد وجدت في شخص الثري الأرمني المعروف غولبنكيان مساعداً كبيراً لها .

في عام ۱۸۸۸ م حصل الألمان من الدولة العثمانية على امتياز بناء خط السكك الحديدية عبر الأناضول في العراق مع حق استغلال الثروات المعدنية لمسافة عشرين كيلومترا على جانبي الخط ، ولكن الأرمني غولبنكيان نبه الدولة العثمانية الى الامكانيات البترولية التي يمكن أن يستفيد منها الألمان في امتياز خطهم الحديدي ، فقامت الدولة العثمانية باستملاك اراضي ولايتي الموصل وبغداد وسحب الامتياز من الألمان الذين نزلوا عند رغبة العثمانيين وطلبوا ان تكون لهم الأفضلية في المستقبل على اية جهة أخرى . وقد قام غولبنكيان بع ذلك بالمساعدة على تأسيس بنك بريطاني في تركيا باسم «البنك الأهلي التركي» وكان هو احد اعضاء مجلس الأدارة فيه ، وفي عام ۱۹۰۲ كلفت تركيا (الشركة الأناضولية للخطوط الحديدية) دويتش بنك بالتنقيب عن البترول في ولاية الموصل مما ادى الى قلق كبير اصاب الانكليز ، وصمموا على منع ذلك واخذوا يمارسون الضغوط على الباب العالي مما أدى الى تراجع المانيا . وقد دخل الأمريكيون الحلبة سنة ۱۹۰۹ عن طريق الأميرال «شستر» الذي حصل على عدة عقود لمد خطوط حديدة وعلى امتياز للتنقيب عن البترول ثم الغيت بعد ان ثبت وجود البترول في المناطق الداخلة ضمن حدود الامتياز . وفي عام ۱۹۱۲ اشتد التزاحم بين اربع فرقاء للحصول على امتيازات في ولاية الموصل التي اثبتت الدلائل وجود البترول فيها وما تحويه من ثروات وهؤ لاء المتنافسون هم دويتش بنك (المانيا) . «مجموعة شل والبريطانيين في شركة النفط التركية» على أن يكون للبنك الأهلي التركي (تمويل بريطاني) نصف الأسهم بينما يقسم الألمان ومجموعة شل النصف الباقي بالتساوي ويحصل غولبنكيان في هذه الحالة على ١٥٪ تحسب من حصته في البنك الأهلي التركي البريطاني الذي ان هو عضوا في مجلس ادارته . وكان

الاجتماع الذي حدد هذه الحصص بتحضير من السيد غولبنكيان ومساعيه ، الى هنا والبريطانيون يملكون نصف المصالح البترولية في العراق او بالأحرى ٣٥٪ منها اذا استثنينا حصة غولبنكيان وقد حدثت خلال هذه الفترة تطورات جديدة في اهمية البترول بالنسبة لبريطانيا . فقد حاول وليم نوكس دارسي بيع مصالحه البترولية لروتشيلد او الأمريكيين فحثته الحكومة البريطانية ألا يفعل ذلك وبعد اكتشاف النفط بكميات تجارية في ايران عام ١٩٠٨ تكونت على الأثر في عام ١٩٠٩ م شركة جديدة تحمل اسم الأنجلو فارسية (التي مر ذكرها) ساهمت فيها شركة نفط بورما وذلك لاستغلال الاكتشاف الجديد وبعد مساعدة الحكومة للشركة المذكورة امتدت اعينها الى العراق فتدخلت الحكومة البريطانية وجعلت البنك الأهلي التركي (البريطاني) يتنازل عن حصته كلها في شركة النفط التركية للشركة الانجلو فارسية وتم اقصاء غولبنكيان ، وتخليصه من حصته البالغة ١٥٪ من المصالح البريطانية لولا أن الألمان ومجموعة شل قد تنازل كل منهما عن ٢,٥٪ من حصته لغولبنكيان تقديرا لجهوده السابقة مع الحكومة التركية ، لقد فضلت بريطانيا ـ بالرغم من رياح الحرب بين الطرفين ـ أن تتعاون مع الفريق الألماني محتفظة لنفسها بالمركز الأول على أن تحتكر كل شيء لنفسها وتتعرض لمناورات المانيا وعدائها وحملاتها وبالرغم من تغير الحكام في تركيا بعد الانقلاب الذي اطاح بالسلطان عبد الحميد من قبل جماعة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ استطاعت بريطانيا الحصول على موافقة الحكام الجدد على التنقيب عن البترول وفي التاسع عشر من اذار وقع في وزارة الخارجية البريطانية اتفاق بترولي بين المانيا وبريطانيا حول حصة كل منهما في شركة البترول التركية فأسهمت بريطانيا عن طريق الشركة الانكليزية الفارسية بنسبة ٥٠٪ والنسبة الباقية وهي ٢٥٪ تركت لشركة رويال دوتس والباقي كان لشركة شل منها ٥٪ لغولبنكيان . وتقدم السفيران البريطاني والألماني بمسودة اتفاقية عام ١٩١٤ الى الحكومة العثمانية للحصول على استغلال النفط في الموصل وبغداد للشركة الجديدة باسم شركة النفط التركية وصدر الامتياز المطلوب . وهكذا كانت الحكومة البريطانية قبل الحرب تسيطر سيطرة تامة على المصالح البترولية في ايران وفي الوقت ذاته على نصف المصالح البترولية في العراق ، وعندما قامت الحرب في آب من ذلك العام سارعت بريطانيا لاحتلال العراق من العثمانيين الذين كانوا متحالفين في الحرب مع المانيا . وباحتلال العراق صادرت بريطانيا الحصة الألمانية في (شركة البترول التركية) فأصبحت بذلك تسيطر

على ٧٥٪ من المصالح البترولية في العراق از على الأصح ٧٢,٥٪ اذا ما احتسبنا حصة غولبنكيان وبقبت مجموعة شل الهولندية تسبطر على ٢٢,٥ ، وفي عام ١٩١٥ تخلى مدير الشركة وصاحب معظم اسهمها عن الجنسية الهولندية وحمل بدلاً منها الجنسية البريطانية ..

كان على بريطانيا بعد ان امنت سيطرتها على شركة البترول التركية ان توافق على اندفاع الألمان نحو الشرق في الوقت الذي وصلت فيه سكة حديد برلين - بغداد الى الموصل . كما أن الأستانة طالبت بحصتها من شركة البترول التركية لكي توقع على الاتفاقية بشكلها النهائي بعد ان وافقت على المشروع في الثامن والعشرين من حزيــران ١٩١٤ ولكن الأمور انقلبت رأسا على عقب فقد اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى وكانت تركيـا والمانيـا في صف وكل من بريطانيـا وفرانسا في الصف الآخر ، وكان من خط بريطانيا في المنطقة أن وقفت تركبا في الجانب الخاسر .

كانت فرصة فريدة لبريطانيا لزيادة نفوذها وسيطرتها على المنطقـة فاحتلـت العراق ووصلت البحـر الابيض المتوسـط عن طريق فلسطـين ، وبـزوال الدولـة العثمانية ، وانهيار المانيا ، واندلاع الثورة الشيوعية في روسيا اصبحـت بريطـانيا اعظم دولة في العالم القديم وحصلت لوحدها على حصة الاسد من الغنائم التـي كسبتها من الدولة العثمانية خاصة ولـم تتـرك لحليفتهـا فرنسـا سوى حصـة زهيدة بالنسبة لبريطانيا فقد وضعت هذه الاخيرة يدهـا على سوريا ولبنـان ، ووعدتهـا بريطانيا بالتخلي لها عن ولاية الموصل ثم اخلفت بوعدها . لقد خرجت بريطانيا من الحرب وهي اشد قوة وبأسا ولـم يعد نفوذها مقتصرا على مياه الخليج وسواحله بل اتسع مجال نفوذها ليعم الجزيرة العربية بما فيها العراق وفلسطين . وقد اخذت تمهد وترسخ اقدامها في المنطقة من خلال ترتيب الاوضاع الـداخلية وعقـد الاتفـاقيات ورسم الحدود حسب ما تمليه عليها مصالحها الخاصة في المنطقة . وبطريقة تسمح لها بالاستمرار بالسيطرة وعملت على ابعاد كل من يظهر العداء والمعارضة نحوها وفي عام ٩١٩ صرح (ادوار ماكي ادجار) رئيس مجموعـة البتـرول البريطـانية « ان الوضع البريطاني بالنسبة للبترول الان مطلق كل ما هو معروف ومحتمل او متوقع من آبار البترول خارج الولايات المتحدة في يد بريطانيا او تحت ادارة بريطـانية او مستثمر باموال بريطـانيا ، وعلى الامـريكيين منـذ الان فصاعـدا ان يشتـروا من الشركات البريطـانية واصبـح العالـم الخارجـي محصنـا ضد هجـوم المصالـح

الاميريكة . . نحن ممسكون بقوة بالذي لا بد ان يصبح حالا (نصيب الاسد) من المواد الخام التي لا يمكن لاي دولة صناعية في العالم ان تستغني عنها » .

مما تقدم ترى عمق المؤامرات والاتفاقيات التي كانت تعقد بين الشركات والحكومات لاستغلال البترول العربي او بالاحرى للاتفاق على استغلال البترول العربي في غفله من الشعب العربي الذي فقد كثيرا من الاموال خلال الفترة الطويلة التي مرت حتى استسلامه لمقدرات اموره بنفسه ، وعوضا من ان تتدفق هده الاموال لصالح شعوب المنطقة التي ظهر فيها البترول تدفق باتجاه اوربا ليزيد من قوتها وجبروتها . ومن بعدها انتقل الى امريكا .

قبل ان تنتهي الحرب عقدت بعض الاتفاقيات بين الحلفاء لتقسيم اراضي الامبراطورية العثمانية وبخاصة منطقة الموصل التي كان يتوقع ظهور البترول فيها ، ومن هذه الاتفاقيات اتفاقية سايكس بيكو التي قسمت المنطقة بين فرنسا وبريطانيا ، وكان توقيع الاتفاقية في ١٦ مايس ١٩١٦ وكان المفروض وضع ولاية الموصل تحت النفوذ الفرنسي ، ولكن دخول الانكليز للعراق واحتلالهم لمنطقة الموصل ووقوعها تحت سيطرتهم قلب الاوضاع رأسا على عقب حيث كان الطمع البريطاني على اشده فاعلنت عن بقائها في منطقة الموصل ، وعندما احتجت فرنسا على هذا الامر تعهدت بريطانيا بمنح فرنسا ٢٥٪ من عائدات البترول في اقليم الموصل اي السيطرة على الحصة الالمانية من الاتفاقية وفي مؤتمر سان ريمو المنعقد في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ اقرت الاتفاقية المذكور . وقد عرفت هذه الاتفاقية باسم اتفاقية (لونغ برنجر) - وفي (١٠) آب ١٩٢٠ تم توقيع معاهدة سيفر التي حددت معالم التسوية بين الحلفاء والاتراك سواء فيما يتعلق بالارض او مشكلة النفط ولكن حكومة الكماليين التركية رفضت الموافقة على هذه الاتفاقية واعتبرتها مضرة بالمصالح التركية واعتبرت ولاية الموصل جزء لا يتجزأ من الاراضي التركية وتم تعديل الاتفاقية المذكورة بمعاهدة لوزان في ٢٤ حزيران ١٩٢٢ والذي نص على انه اذا لم تتفق الدولتان التركية والبريطانية حول الموصل خلال فترة محددة ينبغي ان تعرض القضية على عصبة الامم المتحدة من اجل التوصل الى قرار نهائي وقد حدث ذلك بالفعل ، وبعد مناورات طويلة قررت عصبة الامم في ٢٦ كانون اول ١٩٢٥ ضم ولاية الموصل للعراق وعلى ان يظل العراق تحت الانتداب البريطاني لمدة خمس وعشرين عاما وان يخصص ١٠٪ من انتاج البترول في المنطقة المتنازع عليها لتركيا .

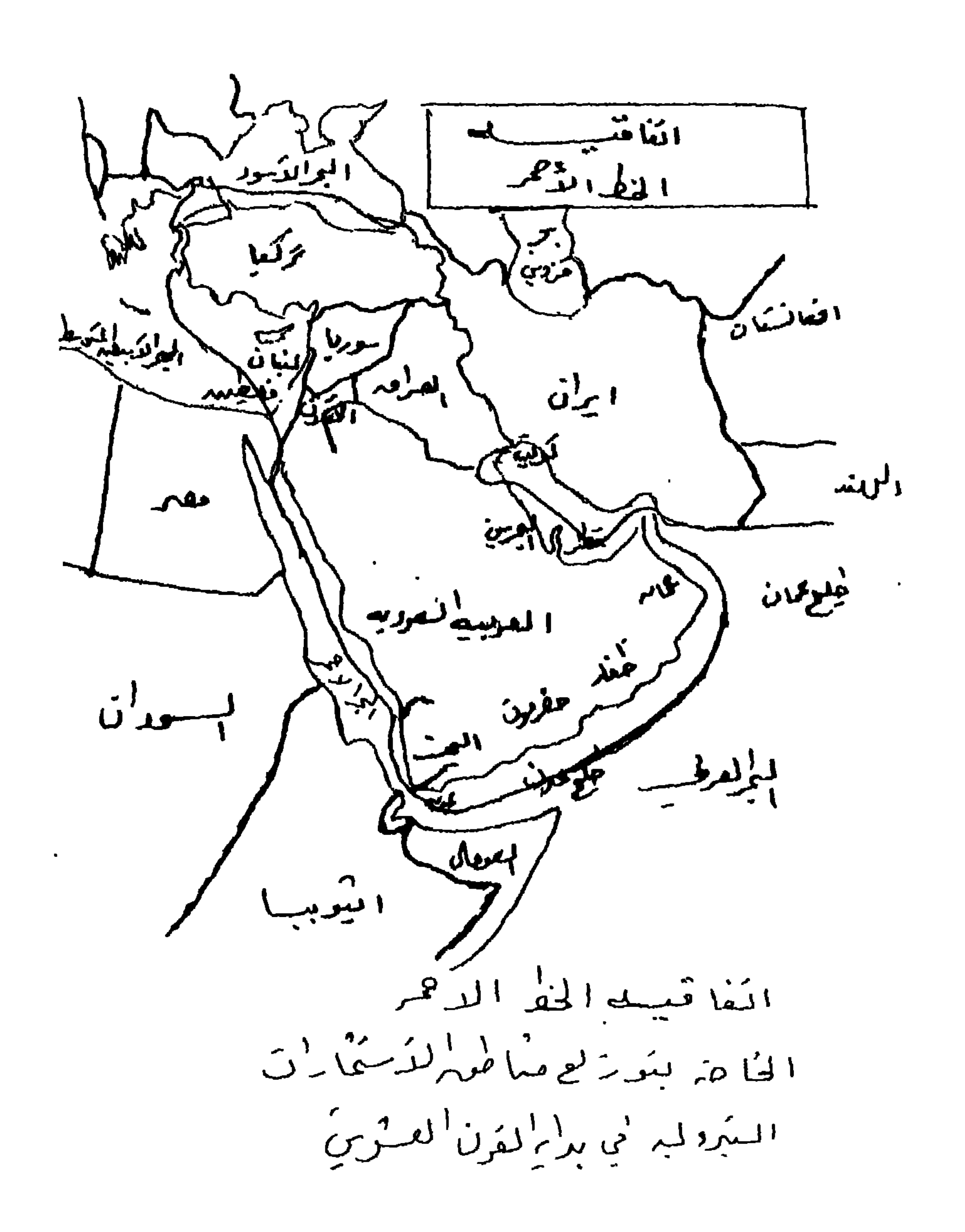
ومن الملاحظ ان كلا من فرنسا وبريطانيا كانتا تتلاعبان في المنطقة حسب رأيهما بدون النظر الى مصالح الشعوب فمن المحتل اذا لم يكن هناك نفط في منطقة الموصل ربما كانت بريطانيا قد تتخلى عنها لتركيا بدون النظر لاصلها العربي ، ولم يكن انضمامها الى العراق وسوريا بشيء هام ما دام انها ستبقى عربية ومما يجدر ذكره ان فرنسا عندما اعطي لها حصة ٢٥٪ من حصة بترول الموصل كان ذلك لقاء سماحها بمرور انابيب النفط عبر سورية وكان من المفروض ان تخصص هذه العائدات لفائدة سورية وليس لفائدة فرنسا التي كانت تستثمر هذا المرفق حتى الاستقلال .

بعد الحرب العالمية الاولى بدأت تظهر في المنطقة قوى دولية جديدة مصالح دولية اخرى في الخليج الى جانب بريطانيا وقد ابتعدت روسيا واستبعدت كليا بعد خروجها من الحرب العالمية الاولى وكشفها لاتفاقيتها السرية مع بريطانيا وفرنسا المعروفة باسم اتفاقية سايكس بيكو التي مر ذكرها . وقد دخلت امريكا الحلبة كشريك جديد في استغلال حقول النفط الفتية نتيجة اسهامها الكبير في نصر الحلفاء خلال الحرب . وقد ارتبط النشاط الامريكي الجديد نحو البترول في الشرق الاوسط بسياسة الباب المفتوح الذي كانت تلتزم به السياسة الامريكية وكانت تطلب كلا من الدولتين المنتدبتين بريطانيا وفرنسا ان تضمن كل منهما لمواطني الدول الاعضاء في عصبة الامم المساواة مع مواطني الدول المنتدبة في مختلف النواحي الاقتصادية والتجارية والصناعة واقتناء الاموال والاملاك الثابتة وحرية المرور وكان هدفها ادخال المصالح البترولية في المنطقة . ولكن الانكليز كانوا في قمة جبروتهم تجاهلوا المطالب الامريكية لمعرفتهم ماذا تستهدف وهي الحصول على نصيب من ثروة المنطقة البترولية ، وقد اعلن اللورد كيرزون المعروف بعجرفته صراحة انه ضد دخول المصالح الامريكية وذكر « بان نصيب بريطانيا من الانتاج العالمي لا يتعدى ٤٪ في حين ان الولايات المتحدة تنتج في داخل حدودها ما مقداره ٧٠٪ في الوقت الذي يستخرج فيه رعايا من حقول المكسيك ما مقداره ١٢٪ من الانتاج العالمي . كما اشار الى القيود التي تفرضها الولايات المتحدة على النشاطات في امريكا الوسطى ، واخيرا تم الاتفاق على اقسام بترول العراق حيث اجتمعت المصالح البريطانية والفرنسية والامريكية والهولندية غولبنكيان على مائدة واحدة عام ١٩٢٢ لاعادة تقسيم حصص النفط وتم الاتفاق على ان تتناول كل واحدة من المصالح الاربعة

٧٥ ,٢٣٪ من اسهم شركة نفط العراق على ان يحتفظ غولبنكيان بحصته البالغة ٥٪ وهي على الشكل التالي :

- مجموعة الشركة الانكليزية - الفارسية (مجموعة دارسي) ٢٣,٧٥ .
- شركة البترول الانكليزية - السكسونية (مجموعة شركة شل والشركة الملكية الهولندية ٢٣,٧٥ .
- الشركة الفرنسية للبترول ٢٣,٧٥٪ .
- الهيئة التعاونية الامريكية لانماء الشرق الادنى ٢٣,٧٥٪
- شركة التنقيب (غولبنكيان) ٥٪ .

وقد اراد الامريكيون ان يبقى الباب مفتوحا في بقية المناطق وكذلك ام غيرهم للمنافسة ولكن الفرنسيين وغولبنكيان اصروا على ان يكون اي امتياز جديد في اراضي الدولة العثمانية المغلوبة من حق جميع الفرقاء حسب معادلة التقسيم في العراق على ان تكون المنافسة حرة ومفتوحة في الاراضي التي لم تكن تخضع للدولة العثمانية . وكانت ثمة مشكلة في تحديد الاراضي التي كانت تخضع للحكومة العثمانية خاصة في المناطق التي من المحتمل وجود البترول فيها كدويلات ومشيخات الخليج والكويت فقد كانت الحكومة العثمانية تعتبر اراض كثيرة تابعة لها ولها السيادة عليها في حين انها لم تكن تمارس عليها اي نفوذ او سلطة واجتمع الفرقاء الجدد في مدينة اوستند عام ١٩٢٨ لتحديد الاراضي التي كانت خاضعة للدولة العثمانية وبدأ ان المؤتمر سيفشل بسبب عدم الاتفاق على خارطة وحدود الدولة العثمانية ويقال ان الارض غولبنكيان هو الذي انقذ الموقف فطلب خارطة كبيرة للشرق الاوسط ووضعها على الطاولة وتناول قلما احمر سميكا ورسم بها خطا عليها وقال « هذه هي الامبراطورية العثمانية كما عرفتها عام ١٩١٤ وانا اعرف الناس بها لانني ولدت فيها وعشت فيها وخدمتها فمن كان منكم يعرفها اكثر مني فليتفضل » وانكب الاعضاء على الخارطة ينظرون فيها الى الخط الاحمر الذي صار شهيرا فيما بعد وتحمل اسمه اتفاقية الخط الاحمر وقد سر الامريكيون عندما وجدوا ان الكويت خارج نطاق الخط الاحمر وهي المكان الذي كانوايعتزمون ان يبحثوا عن النفط فيه كما سر البريطانيون الذين رأوا البحرين وقطر وكل مشيخات الخليج واماراته داخل الخط الاحمر اي ان تلك البلاد كانت تخضع للحكومة العثمانية السابقة في حين كان الانكليز لا يعترفون



اتفاقية الخط الاحمر
الخاصة بتوزيع مناطق الامتيازات
البترولية في بداية القرن العشرين

في ذلك الوقت للاتراك باي سيادة عليها . وبمقتضى هذه الاتفاقية يلتزم الفرقاء بعدم التدخل منفردين بصورة مباشرة او غير مباشرة في انتاج او صناعة البترول في اراضي الدولة العثمانية السابقة باستثناء الكويت الا مع بقية الفرقاء او بعد الحصول على الاقل على موافقتهم ، والواقع ان اتفاقية الخط الاحمر هذه ما هي الا اعادة للاتفاقية التي عقدت في آذار عام ١٩١٤ بين ممثلي المانيا - بريطانيا - البنك القومي التركي مجموعة دارسي الذين كانوا يشكلون اطراف شركة البترول التركية صاحبة اول امتياز في العراق وهكذا ضمنت بريطانيا سيطرتها على كل نشاط بترولي في المنطقة . ويبدو ان هذا الخط على اي حال لم يكن حاسما ولم يستعمل الا حينما كانت الدولتان الكبيرتان بريطانيا وامريكا تريان الحاجة اليه فالامريكيون حصوا على امتياز للتنقيب عن النفط وحدهم في البحرين وكذلك في الاراضي السعودية الواقعة على الخليج وقاسموا البريطانيين نفط الكويت . وكان الامريكيون منافسون اقوياء للانكليز في المنطقة ، وقد عجل بهذا الاتفاق حتى الحرب العالمية الثانية واحترمت نصوصه الشركات المشتركة في شركة بترول العراق ، ولكن بعد عام ١٩٤٦ اصبح حبرا على ورق بعد اعلان الفريق الامريكي في هذه الشركة بانه حل من الاتفاقية وتبعه كافة الفرقاء بغية المشاركة في الاعمال البترولية الواسطة التي بدأت بها الشركة العربية الامريكية للبترول (ارامكو) في المملكة العربية السعودية . وقد حدث ما كانت تخشاه بريطانيا من التفوق الامريكي بعد التحلل من اتفاقية الخط الاحمر . وقد ادى ارتباط الشركات الامريكية السبع التي تؤلف هيئة انماء الشرق الادنى باتفاقية الخط الاحمر الى تعيد نشاطها وساعد الشركتين الامريكيتين الكبيرتين (ستاندر اوف كالفورنيا وستاندر اوف تكساس اللتين لم توقعا على الاتفاقية ، ان تعملا بحرية في الجنوب حيث حصلتا على امتيازات ثمينة في البحرين اولا ثم في المملكة العربية السعودية .

كانت امتيازات الشركة مقتصرة على شمال العراق شرق نهر دجله مع استثناء المنطقة المتنازل عنها والتي هي على الحدود الايرانية العراقية والتي كانت ايران قد تنازلت عنها لتركيا عندما كانت تحتل العراق ثم اعطي لها الامتياز في تلك المنطقة . وفي عام ١٩٣٢ اعطت الحكومة العراقية الامتياز للتنقيب عن البترول في غرب الدجلة وشمال خط العرض ٣٣ الى الشركة البريطانية المسجلة باسم B.O.D وكان يشترك في هذه الشركة مساهمين ايطاليين والمان وبالرغم

المجهود الكبير الذي بذلته الشركة الا انها لم تنجح مما اضطر شركة بترول العراق للسيطرة عليها وقد اعطي امتيازها لشركة بترول الموصل ، وفي ٢٩ ايلول ١٩٣٨ حصلت شركة العراق من الحكومة العراقية على امتياز مدته خمس وسبعون عاما للتنقيب عن البترول في منطقة البصره وعلى اثر ذلك تألفت شركة بترول البصره المنبثقة عن شركة بترول العراق وكان محيط امتيازها واسعا يضم سهول ما بين النهرين ، ولكن البترول لم يتفجر الا في القسم الجنوبي عند شط العرب والخليج العربي . وفي ايلول١٩٤٨ اكتشف البترول في بلدة الزبير بالقرب من البصره ، وفي عام ١٩٥٤ اكتشفت في الرميله بئرا اكثر غزارة من الاول . وقد ربطت حقول البترول التابعة لشركة الموصل في كركوك وعين زاله . . الخ ، بالبحر الابيض المتوسط بانابيب لنقل البترول الى موانىء بانياس (سورية) طرابلس (لبنان) وحيفا (فلسطين) ولكن احتلال اليهود لحيفا اوقف العمل بخط الانابيب المذكور اما المناطق الجنوبية فقد ربطت بالخليج عن طريق ميناء (الفاو) وام قصر وغيرها .

ولم تكتف شركة بترول العراق بمنطقة العراق فقد مدت نشاطها الى قطر حيث كانت شركة الانجلو ايرانيان قد حصلت على حق التنقيب في المنطقة من قبل حاكم قطر وكان ذلك بعد قليل من اكتشاف الامريكيين للبترول في البحرين عام (١٩٣٠) م فقد وافق الحاكم بتاريخ ١٧ مايس ١٩٣٥ على هذا الامتياز وبعد ذلك وبالاتفاق مع شركة نفط العراق تعاونتا على تشكيل شركة للعمليات سميت شركة التنمية البترولية (قطر) . وقد ابتدأت الشركة في عام ١٩٣٧ العمل وكان اول بئر اكتشف هو بئر دخان رقم (١) الذي اكتشف في كانون اول ١٩٣٩ وفي عام ١٩٤٢ وبسبب الحرب اغلقت الشركة جميع حفرياتها وابارها وظل ذلك حتى الى ما بعد الحرب في عام ١٩٤٧ حيث اعيد العمل في الآبار كما سيمر معنا .

خلال هذه الفترة كان هناك اخطبوط آخر يتحين الفرص ليلف باذرعه المنطقة العربية التي لم تثر نهم الاستثمارات البريطانية ، وهذا الاخطبوط هو الاستثمارات الامريكية ممثلة بالشركات البترولية وبدون شك لم يكن احد من سكان المنطقة ليلتفت الى هذا القادم الجديد في الوقت الذي بدأ يخيف ويستثير اهتمام الشركات البريطانية الموجودة في المنطقة ومن ورائها الاستعمار البريطاني المهيمن عليها او بالاحرى صاحب السيادة . لقد استطاعت الاستثمارات البريطانية استيعاب

المنافسة الفرنسية وحتى بعض الشركات الاميركية وقيدتهم باتفاقية الخط الاحمر لتمنع من انتشار الوباء الامريكي لتكون لها المنطقة خالصة لوحدها ولكنها لم تستطع ، وقد استخدم القادمون الجدد نفس الاسلوب البريطاني في المعاملة في وقت ما وحصلوا على السمة الحسنة بالنسبة لما كان البرتغاليون يقومون به من اعمال وهنا ايضا حصل القادمون الجدد على السمعة الحسنة بالعمل الجيد والابتعاد عن السياسة بالاضافة الى حب المغامرة والجرأة والسرعة في اتخاذ القرار وحصلوا على كل شيء ، واخذوا يتصرفون بكل شيء واصبحت ولا تزال المنطقة حيوية وهامة جدا بالنسبة لهم من كافة النواحي الستراتيجية الاقتصادية والعسكرية .

فبعد الحرب العالمية الاولى شعر الامريكيون وبصورة خاصة الشركات المنتجة للبترول بالكميات الهائلة التي احتاجتها الحرب بالاضافة الى زيادة الطلب على المواد البترولية لذلك بدأت تفتش عن مصادر جديدة ليس في الولايات المتحدة فقط بل في خارج الولايات المتحدة ، وبالرغم من وجود حصة امريكية في شركة نفط العراق الا ان الامريكيين لم يكونوا احرارا في هذه الشركة ولم يكن بامكانهم التوسع وبخاصة في المنطقة العربية عن طريق شركة نفط العراق ، لذلك بدأ التفكير في الدخول المباشر الى المنطقة بالرغم مما اقامه الانكليز من حواجز ، ومن هنا بدأت قصة شركة (الارامكو) بالظهور .

وتبدأ القصة مع حصول شركة ستاندرد اويل كومباني اوف كاليفورنيا Socal على امتياز التنقيب عن البترول في البحرين . والشركة المذكورة كانت الوحيدة من بين الشركات الامريكية الكبرى التي كان لها اهتمامات خارج الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الاولى بالاضافة الى انها كانت من كبريات الشركات المنتجة في الولايات المتحدة نفسها . وفي عام ١٩٣٠ كان لها نشاط في ستة بلدان بدون ان تلاقي النجاح المطلوب ، واخيرا وجدت في الميجر النيوزلندي (فرانك هولمز) المعروف بغرابة اطواره ضالتها المنشودة . وكان هذا قد طاف في المنطقة العربية مع بداية العشرينات ووصل البحرين عام ١٩٢٠ على اساس التفتيش عن المياه ، ولكن تفكيره الحقيقي في الواقع كان منصبا على البترول والعمل على الحصول على الامتيازات في المنطقة لصالح شركة بريطانية صغيرة تسمى (استرن اند جنرال سندكيت) . وقد زار ايضا عام ١٩٢٢ مناطق الجزيرة العربية وقابل الملك بعد العزيز آل سعود واتفق معه على التنقيب عن البترول في المنطقة الشرقية

(الاحساء) عام ١٩٢٨ ، مباشرة بعد مؤتمر (العجير) ، وقد منح هذا الامتياز لمدة خمس سنوات غير ان المدة انقضت ولم تستطع الشركة الحصول على البترول ، وبعد ذلك حصل هولمز من البحرين على امتياز للتنقيب عام ١٩٢٥ وقد فشلت كل المحاولات الاولية للعثور على البترول في (الاحساء) لذلك قررت الشركة بيع امتيازاتها في البحرين وعرضتها على الشركات البريطانية التي رفضت لاعتقادها بعدم جدوى المحاولات التي تبذل بسبب تأكدها من عدم وجود البترول في المنطقة وهنا عرض هولمز على الشركات الامريكية مالديه من امتيازات فاشترت شركة (الغولف اويل كربوريشن) امتياز البحرين عام ١٩٢٧ وارسلت خبراءها الجيولوجيين للتأكد من الامر للبحرين . ولكن تعقيدات اساسية ظهرت امام الشركة المذكورة لكونها شريكة في شركة بترول العراق وهي من الشركات الموقعة على اتفاقية الخط الاحمر الانفة الذكر وتقع البحرين ضمن نطاق الاتفاقية لذلك اضطرت هي الاخرى لبيع امتيازها لشركة ستاندر اويل اوف كاليفورنيا
ووقعت الاتفاقية في ٢٧ كانون اول ١٩٢٨ وقد اثار هذا العمل الحكومة والشركات البريطانية وتدخلت لدى شيخ البحرين للتخلي عن الاتفاقية مستندة للاتفاقية الخاصة الابدية المعقودة بينها وبين شيخ البحرين عام ١٩١٤ والتي تمنع الحاكم من القيام باجراء كهذا ، بدون موافقة الحكومة البريطانية واخذت في وضع العراقيل امام الشركة المذكورة التي اشتكت لوزارة الخارجية الامريكية وتدخلت هذه بالامر انتهى بموافقة بريطانيا على الامتياز الممنوح للشركة الامريكية في البحرين بشروط معينة اهمها قيام هذه الشركة بتوظيف البريطانيين في معظم وظائفها العاملة في البحرين وان يكون اتصالها بحاكم البحرين عن طريق موظف بريطاني ترضى عنه الحكومة البريطانية وتم بالفعل تسجيل الشركة في البحرين باسم شركة نفط البحرين (بابكو BABCO) على اساس الشروط التي صاغتها السلطات البريطانية ولكي نكسب الصفة البريطانية صيغت بموجب القانون الكندي لتكون بشكل غير مباشر معتبرة شركة بريطانية .

لم يكن توقيع اتفاقية البترول البحرانية سوى مرحلة عمدت اليها شركة ستاندرد للوصول الى هدفها الحقيقي وهو الحصول على استثمارات في الجزيرة العربية وبالسعودية بالذات ، واقامة العلاقات الوثيقة مع الملك عبد العزيز آل سعود الذي كان في قمة انتصاراته . وقد كلفت الشركة هولمز ليكون وسيطا بينها

وبين العاهل السعودي على اساس ما كان لديه من خبرة في هذا المجال ، ولكن هولمز كان مشغولا بالاتصال مع شيوخ الكويت وقطر للحصول على امتيازات لصالح شركة (الغولف) ولهذا لم يستطع تأمين المقابلة رغم محاولاته المتكررة بناء على النصائح البريطانية للعاهل السعودي والذي كان لا يزال مرتبطا باتفاقية مع بريطانيا تمنعه من اعطاء اي امتياز للتنقيب عن البترول في اراضيه بدون موافقة بريطانية وكان يتقاضى مقابل ذلك خمسة آلاف جنيه استرليني شهريا من الحكومة المذكورة .

مرت سنتان على هذه المحاولة وظهر البترول خلالها في البحرين (حزيران ١٩٣٢) وهنا قررت شركة ستاندرد اويل كومباني اوف كاليفورنيا اعادة المحاولات للاتصال المباشر مع الملك عبد العزيز بدون معونة هولمز متسلحة بما لاقته من نجاح في البحرين . وفي هذا الوقت انذر المكتب الهندي البريطاني هولمز والنقابة العامة الشرقية بعدم التعاون مع شركة ستاندرد وكانت هذه قد قدمت طلبا للملك عن طريق الوزير المفوض السعودي في لندن ، ولم يكن الملك قد سمع من قبل باسم هذه الشركة عندما اكتشف بترول البحرين ، وكان الطلب الذي قدم في خريف عام ١٩٣٠ عبارة عن التماس للسماح للشركة بارسال فريق جيولوجي لدراسة منطقة الاحساء المحتمل وجود البترول فيها رغم فشل المحاولات الاولية التي جرت فيها ولكن الطلب رفض وخلال هذه الفترة كان الامريكين قد حصلوا على سمعة طيبة بسبب اعمالهم الناجحة في البحرين واعطوا الانطباع عن هدفهم الاول والرئيسي الذي يتلخص بالحصول على البترول بعيدا عن التدخل في الشؤ ون الداخلية في البلاد التي يتعاملون معها ، وقد صدف ان وصل السعودية ضابط المخابرات البريطاني سان جون بريدجرفيلبي ليحل محل الكولونيل شكسبير كضابط مخابرات للمنطقة ، وقد استطاع هذا اكتساب ثقة العاهل السعودي الملك عبد العزيز واصبح من مستشاريه الخاصين بعد ان اعتنق الدين الاسلامي واصبح وهابيا وتلقب باسم عبد الله فيلبي . وقد لعب دورا هاما في تاريخ المنطقة وفي خدمة المصالح الغربية بريطانية كانت ام امريكية . وقد بدأت الشركة تجس نبض جون فيلبي وامكانية التعاون معها فقبل ان يقوم بدور المفاوض مع الملك لحساب الشركة . وهنا ارسلت الشركة برقية للملك عن طريق فيلبي تكرر طلبها في ارسال بعثة جيولوجية للقيام بالدراسات الاولية في منطقة الاحساء ، على ان تجري مفاوضات بعد ذلك حسب وجود البترول او عدمه واذا كانت الاوضاع مشجعة للحصول على امتياز

للتنقيب ، وكان فيلبي موجودا في جده ، وكان جواب السعودية بان طلبت ان تكون المفاوضات على الامتيازات قبل القيام باي ابحاث جيولوجية .

بعد ثلاثة شهور كان ممثل الشركة (ستاندرد) السيد لويد هاملتون في طريقه الى جده مع بعثة خبراء على رأسها كارل توتيشل الخبير بشؤ ون التنقيب عن المعادن في السعودية . وفي بداية المفاوضات وجدت الشركة امامها منافسة قوية من شركة بترول العراق وكان رئيسها (لونفريك) موجودا في جده ، وبعد اشهر طويلة من المفاوضات وجدت الشركتان انفسهما متعادلتين في نسبة النجاح في احدى امسيات شهر ايلول عام ١٩٣٣ ـ ولم تقتصر المنافسة التي صادفتها الشركة على شركة بترول العراقي بل ظهر ايضا هولمز لبضعة ايام كمنافس ولكنه لم يلاق التشجيع الكافي فاختفى من الساحة .

في تلك الليلة على الرغم من التردد الظاهر قدم الملك عبد العزيز الذي كان قد تخلص من معاهدة عام ١٩١٥ التي تشبه المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع دول الخليج او بالاحرى امارات الساحل وهي المعروفة بالابدية ، وذلك عندما طلب من بريطانيا الغاءها في عام ١٩٢٥ واصبح حرا يتصرف بموارده الطبيعية بعد انتصاره على الهاشميين واعتراف بريطانيا بملكيته لنجد والحجاز في معاهدة جده . وقد ارسل الملك في تلك الليلة لكل من الممثلين المتنافسين رسالة يشير فيها الى ان الامتياز سيمنح للشركة التي تستفيد بان تدفع فورا مبلغ قدره مائة الف جنيه استرليني ذهبا كسلفةعلى العائدات التي ستستحق فيما بعد اذا اكتشفت البترول وبناء على نصيحة جون فيلبي للملك بان يطلب مبلغا ضخما من المال وكان المبلغ في ذلك الوقت ضخما الى درجة جعلت الشركة البريطانية تتردد بدفع المبلغ بالاضافة الى الاجراءات الروتينية البريطانية البطيئة ، بينما اقدمت الشركة الامريكية واعلنت انها وضعت حسابا باسم الملك السعودي في احدى المصارف قدره خمسون الف جنيه استرليني ذهب اي نصف المبلغ الذي طلبه الملك . بالرغم من الاوضاع المالية السيئة التي كانت سائدة في امريكا واقفال البنوك من قبل الرئيس الامريكي فرانكلين روزفلت بعد الايام الحالكة التي مرت على امريكا ابتداء من عام ١٩٢٧ بالاضافة الى منع تصدير الذهب ونجحت المساومة وربحت ستاندرد اوف كاليفورنيا وتم الاتفاق على كافة النقاط وكتب مسودة الاتفاقية السيد هاملتون ، وفي ٢٩ ايار ١٩٣٣ وقعت الاتفاقية في جده ووقعها الملك عبد العزيز ودخلت في التنفيذ في ١٤ تموز ونشرت في

الجريدة الرسمية للحكومة السعودية وكان الامريكيون متفائلين بوجود الزيت بعكس البريطانيين الذين كانوا متشائمين بسبب الخطأ في الدراسات الجيولوجية لذلك لم تقدم شركة بترول العراق من اصل المائة الف التي طلبها الملك سوى عشرة آلاف جنيه . وفي تشرين الثاني ١٩٣٣ اعطي الامتياز لشركة كالفورنيا آربيان ستاندرد اويل كومباني (الكازوك) التي شكلتها شركة ستاندرد اويل اوف كاليفورنيا . وقد تم تغيير اسم الشركة في كانون ثاني عام ١٩٤٤ لتصبح شركة الزيت العربية الامريكية (آرامكو) (ARAMCO) المشهورة .

وفي عام ١٩٣٦ وحدت شركتا ستاندرد اويل اوف كاليفورنيا وشركة تكساس اويل كومباني حاليا (تيكساكو) مجهودها واعمالها الموجودة مابين جزر الموهواي ومصر وكان لهما نشاط ناجح في جزر الهند الشرقية (حاليا اندونيسيا) وشكلتا شركة كالتكس وهكذا اصبح لشركة (تيكساكو) نصف شركة الزيت (كازوك) .

بعد ظهور الكميات الهائلة من البترول عام ١٩٤٦ في الجزيرة العربية والحاجة الى اموال ضخمة ، ولم تكن (كازوك) لتستطيع تحملها لذلك باعت في نفس العام ٤٠٪ من اسهمها بمبلغ خمسمائة مليون دولار ولكن الكازوك اصبحت تساوي ملياري دولار . ومنذ ذلك التاريخ وحتى سيطرة الحكومة السعودية على النفط اصبح اصحاب (الارامكو) هم ستاندرد اويل اوف كاليفورنيا ولها ٣٠٪ ثم تكساكو ٣٠٪ ستاندرد نيوجرسي ٣٠٪ موبيل اويل ١٠٪ وهكذا اصبحت الارامكو من اكبر المؤسسات البترولية في العالم ، وكانت مدة الامتياز ٦٦ عام بدءا من عام ١٩٣٣ ، واول بئر تفجر في الاحساء كان في اذار عام ١٩٣٨ بعد ان اصاب المنقبون القلق من عدم وجود البترول ، وفي ايلول من السنة نفسها جرت تعبئة اول شحنة من الزيت السعودي الخام وتوجهت نحو البحرين للتكرير في مصفاتها .

من الشركات الضخمة التي وصلت المنطقة الشركة الامريكية (جولف اويل كوربوريشن) Goc وحصلت على امتياز في الكويت مع شركة بريطانية مناصفة وشكلتا شركة نفط الكويت (K.O.C) ومن المعروف ان هولمز كما ذكرنا سابقا قد حصل باسم النقابة العامة الشرقية (ايسترن جنرال سنديكت) على امتياز في الكويت التي لم تكن ضمن اتفاقية الخط الاحمر وقد رفضت الشركات البريطانية مساعدته في حين انه لقي مساعدة قوية من الشركات الامريكية بصورة

خاصة شركة (جولف كربوريشن) وكادت المفاوضات تنجح معه عام ١٩٣١ الا ;

ان الحكومة البريطانية اعلنت معارضتها لدخول الشركة الامريكية ولكل اتفاق من هذا النوع بحجة عدم حصولها على موافقتها والتي تلزمها الاتفاقية المعقودة ما بين امير الكويت وبريطانيا عام ١٩١٣ ، وبعد قليل اي في عام ١٩٣٢ اظهرت الشركة الانجليزية الفارسية التي تملكها الحكومة البريطانية اهتماما فائقا بالكويت وارسلت منقبين عن البترول الى هناك معلنة عن عزمها على الحصول على امتياز للتنقيب عن البترول في الكويت وقد احتجت شركة الجولف الامريكية واشتكت الى وزارة الخارجية الامريكية وقدمت مذكرة شديدة اللهجة الى وزارة الخارجية البريطانية حملها السفير الامريكي في لندن وهو السيد (اندريه ميلون) ولديه اسهم كثيرة في شركة الغولف . ومع ذلك بدأت منافسة شديدة بين الشركتين ولكنهما لم تلبثا ان وحدتا جهودهما جفاظا على مصالحهما المشتركة وقدمتا عرضا مشتركا لشيخ الكويت الشيخ احمد الجابر الصباح للحصول على البترول ، وبالفعل فقد حصلت الشركة التي تمخضت عن المشاركة على امتياز البحث عن البترول في ٢٢ كانون اول عام ١٩٣٣ لمدة خمس وسبعين عاما برأسمال قدره مائتا الف جنيه استرليني . وللمحافظة على الحكومة البريطانية المكتسبة وخاصة تحديد الجنسية ، سجلت شركة بترول الكويت في كندا احدى دول الكومنولث البريطاني واستطاعت الشركة ان تحقق قبل الحرب العالمية الثانية اكتشافا بتروليا بكميات تجارية في حقل (برقان) ثم توقف الانتاج بعد اندلاع نار الحرب ولكن اعمال الحفر استؤنفت في نهاية عام ١٩٤٥ .

وهكذا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ـ التي تعتبر فاصلا تاريخيا في علاقات الاحتكارات الغربية في مناطق انتاج البترول في الخليج ـ الى عام ١٩٤٨ـ ظلت صناعة البترول في منطقة الخليج بما فيها ايران والعراق محتكرة من سبع شركات بترولية منها خمس امريكية وواحدة انجليزية ـ هولندية مشتركة والسباقة انجليزية ولكن بعد عام ١٩٤٨ بدأت تدخل شركات جديدة كما سيمر معنا في الفصل القادم . ولقد اثار ظهور البترول في الخليج والمناطق المحيطة بها انتباه العالم اجمع ، كما سيمر معنا في الفصل القادم وبقدر ما كانت اهميته الستراتيجية الجغرافية هامة جدا اصبحت اهميته الستراتيجية الاقتصادية تفوق كل تصور وادراك ودخلت المنطقة في مرحلة تاريخية جديدة لم تمر على مثلها في تاريخها الطويل جدا .

الفصل الثاني

الامبراطورية البريطانية في الحرب العالمية الاولى واستراتيجيتها العامة في الخليج وما حوله

ـ الاسباب الرئيسية والمباشرة للحرب العالمية الاولى ـ الوضع العام الدولي ـ المطامع الاوروبية في الدولة العثمانية ـ تسرب النفوذ الالماني ـ المحاولات البريطانية للتفاهم مع المانيا لاقتسام الغنائم ـ بريطانيا وفرنسا تتفقان على اقتسام القارة الافريقية ـ تقاسم النفوذ في ايران بين روسيا القيصرية وبريطانيا ـ اندلاع الحرب العالمية الاولى ـ الحرب البحرية ـ الغواصات الالمانية .

ـ الستراتيجية البريطانية للانتصار على المانيا ـ اهمية الخليج العربي بالنسبة لبريطانيا في الحرب العالمية الاولى ـ الوضع العام في العراق قبل الحرب ـ محاولات بريطانية لتخفيف التوتر مع تركيا ـ التحضيرات الاولية البريطانية لاحتلال العراق ـ فرض السيطرة البريطانية الكاملة على المشايخ والحكام ـ المصالح البريطانية في العراق ـ شكوك الاتراك بالنوايا البريطانية نحو العراق ـ دخول الاتراك الحرب ـ الستراتيجية البريطانية تجاه الدولة العثمانية ـ احتلال العراق ـ مشكلة الشعور الديني ـ الثورات المحلية ضد الاحتلال البريطاني ومحاولات الالمان والاتراك استغلالها . اصدقاء بريطانيا في المنطقة ـ العلاقات بين بريطانيا وآل سعود خلال الحرب العالمية الاولى ـ الحرب البريطانية ـ التركية في العراق وتطورها . زوال المنافسة الاوروبية في الخليج وتكريس النفوذ والاحتلال البريطانيين .

الفصل الثاني

الامبراطورية البريطانية في الحرب العالمية الاولى واستراتيجيتها العامة في الخليج وما حوله

لم يكن مقتل ولي عهد النمساوي في مدينة سيراجيفو الواقعة في صربيا سوى الفتيل الذي يشعل النار ، وكما هو معلوم ، فقد كانت جميع الظروف والاسباب مهيأة لاندلاع الحرب العالمية الاولى المدمرة . ولن نستعيد ذكر جميع الاسباب المباشرة وغير المباشرة ولكن لا شك ان مطامع الالمان في خلق امبراطورية استعمارية تنافس الامبراطوريتين الاستعماريتين الفرنسية والبريطانية واحلام الامبراطورة الالماني التي لم تكن لهاحدود كانت احدى الاسباب الرئيسية في سرعة تدهور الموقف في اوروبا والسير بسرعة نحو الحرب . والذي يهمنا هنا هو القول بان احلام الالمان للوصول الى الخليج العربي ، كانت احدى المطامع الرئيسية الالمانية التي ساعدت على اشعال الحرب - فالالمان بسبب تفوق الاسطول البريطاني في البحر ، وجدوا ان فكرة الوصول الى المنطقة عن طريق البر اصبحت سهلة في هذا العصر حيث السكك الحديدة ، قربت كافة المسافات البعيدة ، وكان ان ابتدأ التقارب بينهم وبين الامبراطورية العثمانية اوما كان يعرف (بالرجل المريض) بسبب عدم مجاراتها لروح العصر وتلاقت مصالح الطرفين ، وكانت الدول العثمانية تعتقد بان لا مطامع اقليمية المانية في امبراطوريتها والتعاون معها يؤمن لها القوة العسكرية والفنية التي تساعدها على الوقوف في وجه مطامع الدول الاخرى ، مثل روسيا القيصرية ، وبريطانيا التي احتلت مصر ولها مطامع في العراق واليمن وسيطرتها على البحر الاحمر والعربي ، وتتحين الفرص لتقطيع اوصال الرجل المريض ، اما ايطاليا فقد احتلت ليبيا عام ١٩١٢ وعددا من الجزر العثمانية في شرق البحر الابيض المتوسط المعروفة بجزر الدوديكانيز كما ان الالمان كانوا يعتقدون بامكانية اعادة القوة العسكرية التركية بعد انتصارها المؤقت على ثورات بلاد البلقان كما كان الموقع الستراتيجي للامبراطورية العثمانية واتساع بلادها وتخلفها فرصة ذهبية لاتساع النفوذ الالماني العسكري والاقتصادي .

كانت بريطانيا بالرغم من خشيتها وخوفها من ازدياد النفوذ الالماني في تركيا ، والاندفاع الجديد نحو المحيط الهندي ، وقيامها بوضع العراقيل امام هذا الخطر الجديد الذي اعاد لها ذكرى نابليون ، وبالرغم من المحاولات المستمرة للضغط على تركيا للتخفيف من اعتمادها على المانيا كانت من جهة اخرى تعمل على احتواء هذا المد على حساب تركيا وامبراطوريتها اذا لم يكن من ذلك بد كعادتها في مثل هذه الاحوال ، وعلى العموم فمن الممكن ان لا يتفق الاوروبيون ، عندما تتضارب مصالحهم الخاصة في القارة الاوربية ، ولكن الامر يختلف اذا كان ذلك خارج القارة وعلى حساب الشعوب الاخرى فما اسهل من التسويات ، واسهل منه توزيع الحصص والغنيمة ، وامثال ذلك كثير فقد اتفقت فرنسا وبريطانيا وتمت تسوية الامور بينهما واقتسما القارة الافريقية بعد حادثة (فاشوده) وعندما تضاربت مصالح الروس والبريطانيين في ايران ، ووجدوا ان النزاع بينهم لا يفيد سوى الايرانيين اصحاب البلاد ، فاتفقوا فيما بينهم وتقاسموا البلاد ، حتى ان الانكليز اتفقوا مع الالمان لاستغلال بترول العراق مقابل تخلي الالمان عن محاولاتهم لايصال سكة حديد برلين ببغداد الى مدينة الكويت لتكون المحطة النهائية ، وكأن العراق جزءا من امبراطورية بريطانيا ولا دخل للسكان او على الاقل الاتراك الذين يحكمون البلد ، لذلك ، فقد وقعت الحرب عندما بدأت المصالح تتضارب في اوربا مما ادى الى اندفاع الجيوش الالمانية نحو باريز بشكل عارم لتعيد للاذهان ذكرى حرب ١٨٧٠ ولاول مرة في التاريخ تمتد الحرب الى مختلف انحاء العالم ، وكانت منطقة الخليج احدى المناطق الهامة للاحتكاك بين بريطانيا والدولة العثمانية حليفة المانيا .

في الحقيقة ان القتال في القارة هو الذي كان سيقرر نتيجة الحرب باعتبارها المسرح الرئيسي لها مهما كانت نتائج العمليات في خارج القارة ، ولكن مع ذلك كان لهذه العمليات آثار غير مباشرة على مجرى الحرب وقد حاولت المانيا قطع طرق الامداد البريطانية التي كانت تربطها بمستعمراتها وامبراطوريتها في الهند واستطاعت تكبيد البريطانيين خسائر فادحة جدا كادت ان توقع بريطانيا بمأزق حقيقي لولا دخول امريكا الحرب . وقد استخدمت المانيا الغواصات والطرادات القرصان في مختلف المحيطات للقيام بهذه العملية . كما حاولت ارسال عملائها الى كل مكان لاثارة الشعوب ضد بريطانيا وكان الخليج من جملة هذه المناطق الحساسة ولم يكن يقتصر

تهديد الالمان للمصالح البريطانية في الخليج على العملاء بل كانت هناك القوات العثمانية في العراق بعد دخول هذه في الحرب مع الالمان .

اما الانكليز فكان الهدف الستراتيجي الرئيسي لامبراطوريتهم هو جعل جميع الطرق البحرية مفتوحة امام تدفق الامدادات والمؤ ن والرجال لبريطانيا مهما كان الثمن واحباط كل المؤ امرات الالمانية التي كان العملاء الالمان يقومون بها في الخارج عن طريق الاستيلاء على كل المراكز الالمانية في المستعمرات وغيرها . وكان الخليج ذا اهمية خاصة بالنسبة لبريطانيا بعد ظهور البترول واعتماد الاسطول البريطاني عليه بعد تحوله عن استخدام الفحم ، بالاضافة الى اشرافه على طريق الهند وهو شريان الحياة بالنسبة لبريطانيا ، لذلك لم يكن باستطاعة بريطانيا ان تغفل لحظة واحدة عن هذا الخطر القريب ، وقد رأينا في فصل سابق كيف ان اللورد كيرزون نائب الملك في الهند ووزير الخارجية/ فيما بعد/ يعيد لبترول الخليج الفضل في كل ما احرزه الحلفاء من نصر فالحلفاء كانوا يسيرون على بحر من البترول (كما يقول) لذلك كانت حماية الخليج وحرية المرور فيه والاستقرار في ما حوله من مناطق الشغل الشاغل للموظفين البريطانيين في المنطقة ، وكما اصبح قاعدة انطلاق للقضاء على الدولة العثمانية واخراجها من الحرب باسرع ما يمكن .

عندما اعلنت الحرب ، كانت الاوضاع في الواقع مستتبة في الخليج لبريطانيا ، فقد استطاعت خلال القرن التاسع عشر من الهيمنة على الخليج وابعاد كل نفوذ او تهديد اوربي له . وفي بداية القرن العشرين كانت الامور اكثر استقرارا وثباتا ، فقد سويت الامور بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٤ لصالح بريطانيا كما ان اتفاق عام ١٩٠٧ مع الروس على تقاسم النفوذ في ايران ابعد كل خطر روسي عن الخليج ، ولم تكن هناك قوى محلية ذات بال تستطيع ان تقوم بدور فعال في المنطقة ، ولم يكن هناك سوى تهديد يمكن ان يأتي من العراق بعد ازدياد النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية . فالاتراك على العموم كانوا يسيرون نحو الانحلال من القمة الى مختلف المقاطعات بسبب الاضطرابات المتوالية في الممتلكات التركية في اوروبا ، وكذلك في نظام الحكم حيث ابعد السلطان عبد الحميد وتولي الحكم من قبل جماعة تركيا الفتاة او الاتحاد والترقي .

كان جنوب العراق والجزيرة العربية احدى المناطق الرئيسية للاضطرابات في الدولة العثمانية فمنذ عام ١٩٠٠ م اضطربت الملاحة في اسفل نهر دجلة بسبب غارات بني اسد ثم نشب صراع بين الحكومة التركية وقبائل (ابو محمد) وقد استطاعت الحكومة التركية ايقاع مذبحة مروعة في صفوفهم . وقد فشلت عام ١٩٠٥ كل المحاولات التركية لاخضاع التجمع القبلي المعروف باسم (المنتفق) بزعامة السعدون الذي كان دائم التحدي للباب العالي ، كما حدثت خلافات حادة بين العثمانيين والبريطانيين بشأن تحصين مداخل نهر شط العرب وحول مشاكل الملاحة فيه وفي الانهار العراقية وكذلك كان هناك خلاف حول الحدود مع ايران اي ان المنطقة كانت مجال احتكام بين مختلف القوى المحلية او الاجنبية . وقد بذلت بريطانيا جهودا جبارة لتخفيف حدة التوتر مع الحكومة العثمانية الذي بدأ مع وصول والي بغداد مدحت باشا الذي حاول اعادة النفوذ التركي الى كل من البحرين وقطر والكويت ، والاحساء وعمان وغيرها من المناطق التي كانت بريطانيا تدعي الهيمنة عليها وتطالب بها تركيا باعتبارها جزءا من ممتلكاتها .

فقد اعترف شيخ الكويت عام ١٨٧١ بالحماية التركية ورفع العلم التركي على قصره وطلب من الاتراك الاعتراف باستقلاله فرفض هؤلاء الذين كانوايعتبرونه قائمقاما في نظام الخدمة المدنية التركية ، ولذلك التفت هذا الى الانكليز الذين رفضوا طلبه خوفا من تركيا وكان الانكليز مشغولين في حروب القارة الافريقية وعندما انتهت قبلوا الاعتراف باستقلاله تحت حمايتهم بشرط توقيع الاتفاقية التي كانت قد وقعت من قبل شيخ البحرين والتي وضع فيها نفسه وارضه تحت تصرف الحكومة البريطانية والتي يطلق عليها الاتفاقات الابدية لانها تلزم الشيخ وابنائه من بعده ، فاضطر الشيخ مبارك توقيع الاتفاقية في ٢١ كانون ثاني ١٨٩٩ وبذلك فقدت الكويت حريتها الكاملة وحولت علاقاتها الخارجية لبريطانيا ومع توقيع هذه الاتفاقية ابتدأ تسرب النفوذ البريطاني للعراق . وفي قطر لم تعترف بريطانيا بالمنزلة التي حصلت عليها تركيا في قطر بعد وضع حامية تركية في مدينة الدوحة .

وفي عام ١٩١١ بدأت المفاوضات جادة بين الانكليز والاتراك لحل المشاكل المتعلقة ، وكان هدف الانكليز اخراج الاتراك من قطر مهما كان الثمن والعمل على تخلي تركيا عن ادعاءاتها في السيطرة على قطر ، وكان بين الحجج التي ساقوها للحكومة العثمانية ان لحاكم البحرين حقوقا هامة هناك . وفي شباط ١٩١٣ بينما

كانت المفاوضات دائرة عمل الانكليز بواسطة كوكس على ان يصدر قاسم آل ثاني شيخ قطر المسن قرارا بمنع استيراد الاسلحة بعد الوصول الى تسوية انكليزية تركية . بعد ذلك بشهرين هاجم عبد العزيز آل سعود الاتراك في الهفوف ونجح في اخراجهم من بلاد الحساء .

وفي النهاية تم توقيع اتفاقية لندن في اوائل شهر تموز ١٩١٣م بين بريطانيا والدولة العلية تخص الخليج والمناطق حوله ، وفي هذه الاتفاقية تخلت الحكومة العثمانية عن جميع ادعاءاتها فيما يتعلق بشبه جزيرة قطر . كما اعترفت بخط يمتد الى الجنوب رأسا من الطرف الاقصى للخليج المواجه لجزيرة / الرخوية/ باعتباره خطا يفصل نجد عن شبه جزيرة قطر وقد نص الاصل على المصادقة على الاتفاقة في غضون ثلاثة اشهر غير ان هذه المدة مددت عدة مرات حتى نشوب الحرب بين الطرفين المتعاقدين فحال هذا دون قبولها نهائيا .

وفي عام ١٩١٥ اجلت مراكب الاسطول البريطاني الحامية التركية التي كانت تحتل القصر في الدوحة لمدة تزيد عن اربعين عاما . واشارت الاتفاقية التي عقدت بين الحكومة البريطانية وعبد العزيز آل سعود في كانون اول ١٩١٥ الى شيخ قطر « باعتباره تحت حماية الحكومة البريطانية » وان لم يكن هناك اتفاق رسمي على ذلك لان شيخ قطر في الواقع لم يدخل في علاقات تعاهدية رسمية مع الانكليز مماثلة لتلك التي تربط شيوخ ساحل عمان - الا بعد عام من هذا التاريخ والواقع ان هذه الاتفاقية والمفاوضات التي جرت قبلها هي التي جعلت من بريطانيا طرفا رئيسيا في الخليج باعتراف الاتراك ، وقد وقع ابن سعود عام ١٩١٥ مثل معاهدة البحرين اما سلطان مسقط فقد كان قد وقعها هي وغيرها من المعاهدات في العشرين من آذار (١٨٩٠) وهكذا لم تكن الحرب لتبدأ الا وكانت بريطانيا تسيطر سيطرة فعالة على الخليج وما حوله ، وقد اوجز احد المعلقين السياسيين سياسة الانكليز نحو الدولة العثمانية بما يلي « عندما كانت انكلترا تصر على وجوب الابقاء على الرجل المريض كانت تستهدف من ذلك قطع طريق التدخل في شؤون الشرق الاقصى على الفرنسيين والروس وهل من المعقول ان تسمح لهم او لسواهم بذلك ؟ » .

بالاضافة الى هذه السيطرة اصبحت بريطانيا ذات مصالح هامة جدا بعد ظهور البترول في كل من ايران والعراق وخلال فترة طويلة من الزمن اجرت مسحا كاملا للخليج العربي ورسمت الخرائط له ، ومدت خطوط التلغراف ، ووزعت

ممثليها من المقيمين السياسيين في كل مكان كالملوك الصغار في مختلف العواصم والمدن في المنطقة ، واصبحت تهيمن على كل كبيرة وصغيرة بعد فرضها اتفاقيات مكافحة الرقيق ومنع تجارة الاسلحة واصبحت المنطقة في الواقع منطقة نفوذ بريطانيا لا ينازعها احد ترتبط هي وملوكها الصغار بالملك الكبير المقيم في دلهي (نائب ملك انكلترا وامبراطور الهند) وعندما زار نائب الملك هذا وكان اللورد المتعجرف كيرزون الخليج في عام ۱۹۰۳ كان ينتقل من مكان الى آخر تحيط بموكبه الملكي مظاهر الابهة والعظمة كانه ملك حقيقي متوج .

وبالرغم من مظاهر الود بين البريطانيين والاتراك الا ان هؤلاء الاخيرين كانوا يشكون دائما بنوايا بريطانيا نحوهم ويعلمون بمطامعها في بلادهم وكيف اقتطعت من امبراطوريتهم اجزاء كثيرة غالية مثل عدن ومناطق الخليج ومصر ثم جاء البترول ليزدادوا شكوكا بالنويا البريطانية . فالاتراك منذ احتلال الانكليز لمصر لم يغفروا لهم هذا العمل وبخاصة السلطان عبد الحميد ، ومن بعده زعماء جمعية الاتحاد والترقي وابتدأ ميلهم لالمانيا يزداد على اساس انها لا تطمح في الاراضي التركية او ملحقاتها . وعندما اندلعت الحرب في النصف الثاني من عام ١٩١٤ اعتقد الاتراك انه فرصتهم قد جاءت لاستعادة ما خسروه من ارض بالاضافة الى دخول روسيا الحرب ضد المانيا وكانت عدوتهم التقليدية لذلك لم يتأخر الاتراك كثيرا في دخول الحرب بعد اعتقادهم الجازم بانتصار المانيا التي كانت جيوشها تقترب من العاصمة الفرنسية باريز ، الا ثلاثة اشهر فقط .

كانت حكومة الهند البريطانية خلال هذه الفترة تراقب الوضع في الخليج والعراق مراقبة دقيقة . وكان لدى الانكليز اعتقاد جازم بدخول الاتراك بجانب الالمان ، ولذلك كانت تحضر نفسها على اساس هذا الاحتال ، وكان في نيتها احتلال العراق ان دخلت تركيا الحرب ام لم تدخل نظرا لما يشكله العراق من اهمية عسكرية واقتصادية لها بالاضافة الى حماية آبار البترول وخوفا من روسيا التي يمكن ان تستغل الحرب لاحتلال العراق واخيرا امكانية فتح طريق بري من الخليج الى البحر الابيض المتوسط لامداد جبهات القتال في تلك المنطقة لذلك كانت بريطانيا مستعدة للحرب عندما بدأت في القارة .

كانت الستراتيجية الامبراطورية تستهدف القضاء على الجيوش العثمانية في العراق وسوريا واخراج الدول التركية من الحرب ضمن اسلوبين رئيسين وهما :

اولا : الحرب المباشرة عن طريق التقدم من العراق ومصر نحو قلب الامبراطورية التركية .

ثانيا : الحرب غير المباشرة وذلك باثارة الاقوام التي تتألف فيها امبراطورية العثمانيين وكان العرب يشكلون القومية الكبيرة الرئيسية لذلك اتجهت الانظار اليهم لدفعهم للقتال وحماية الجناح الايسر للقوات البريطانية في العراق والجناح الايمن للقوات البريطانية المتقدمة في مصر بالاضافة الى تطويق ما يمكن ان تثيره دعوة الترك للجهاد ضد الكفار التي كان الترك يهددون بها دائما .

اما الحرب المباشرة فقد كانت القيادة البريطانية تحضر لاحتلال فم الخليج الذي يقع جنوب العراق لتحقيق مخططاتها التي كانت تستهدف اخذ المبادرة ضد عمل محتمل من الجيش العثماني وحماية ابار البترول ، وبالرغم من نصائح المقيم العام البريطاني في الخليج (برسي كوكس) بعدم القيام باي عمل ولو كان وقائيا ضد الاتراك قبل التأكد من دخولهم الحرب خوفا من ان تظهر بريطانيا امام رعاياها من المسلمين الهنود بمظهر المعتدي . الا ان الاعتبارات العسكرية كانت اقوى من ذلك لذلك تم القرار ببدأ العملية واتخذت البحرين كقاعدة رئيسية للتحركات العسكرية ، وللبدء بالعمليات الحربية ضد الجيش العثماني ، وفي شهر تشرين اول عام ١٩١٤ ارسلت حملة استكشافية الى فم الخليج الغاية منها حماية آبار النفط في عربستان والسيطرة على مدخل الخليج واغلاقه اما احتمالات التدخل العثماني ، بالاضافة الى تطمين مشايخ القبائل المتعاونين مع بريطانيا من حمايتها لهم مما يساعد على حصر وتطويق الشعور الديني .

ومشكلة الشعور الديني هذه والتي كانت تقلق بريطانيا ، خوفا من ان تثير دعوة الخلافة للجهاد ضد الكفار شعور المسلمين من رعايا بريطانيا ضدها ، والدعوة للجهاد من الناحية الموضوعية قضية هامة جدا . ولكن الحقيقة ان تأثيرها يختلف من مكان الى آخر وحسب الظروف حتى الشعور نحو تركيا فهو يختلف من مكان الى آخر وبخاصة في هذه الفترة بالذات حيث كانت تركيا تحارب في صف بلاد غير مسلمة ، ومن المؤسف ان نقول ان ديار الاسلام كان اغلبها في تلك الفترة تقع تحت النفوذ او الاحتلال الاوروبي ، ولم تكن للمسلمين سوى دولة واحدة نوعا ما خارجة عن هذا الطوق وهي الدولة العثمانية لذلك كانت مصدر امل للشعوب الاسلامية الواقعة تحت الاستعمار الاوربي فالمسلمون في الهند كانوا يشعرون بالعداء

نحو بريطانيا التي قضت على امبراطوريتهم وسلبتهم سلطتهم ، وكانوا يعتبرون انفسهم تابعين للدولة العثمانية او بالاحرى الخلافة الاسلامية وهي الوحيدة التي يمكنها تقديم المساعدة لهم عند الضرورة . وكان قسم منهم يشعر بالالم لاضطرارهم للوقوف بجانب بريطانيا ضد خليفة المسلمين لصالح امبراطور الهند (البريطاني) غير المسلم . وكان الانكليز يعرفون هذه الحقيقة لذلك كانوا يبعدون كل مايثير الحساسية الدينية لذلك عندما احتل الملك عبد العزيز آل سعود الحجاز اعترف الانكليز باستقلاله فورا وألغوا المعاهدة التي كانت تضعه تحت حمايتها خوفا من ان يقال بان بريطانيا هي حامية الكعبة . مما يثير الهنود المتعصبين ضدها . ولم يغفر الهنود للملك حسين بن علي ثورته ضد الخلافة ووقوفه، بجانب الانكليز ضد الاتراك المسلمين لذلك لما اعلن عن كونه خليفة للمسلمين رفضت بريطانيا الاعتراف بذلك خوفا من المسلمين من رعاياها ، وينطبق هذا الحال على مسلمي شمال افريقيا من عرب وبربر وغيرهم اللذين كانوا تحت السيطرة الفرنسية وكان سكان شرق افريقية من المسلمين يعتبرون انفسهم من رعايا الخليفة العثماني ويدعون له على المنابر . اما في المناطق العربية التي كانت تعاني من الضغط التركي فالامر يختلف كليا فمن هؤلاء العرب من كان يعتبر الخلافة العثمانية عائقا في سبيل الوحدة العربية وهي دولة استعمارية كغيرها يجب الخلاص منها . وكان يمثل هؤلاء العدد الكبير من زعماء العرب وبخاصة في سورية التي كانت تضم في ذلك الوقت سوريا الحالية وفلسطين والاردن ولبنان بالاضافة الى وجود عدد لا بأس به من المسيحيين العرب . وهناك قسم آخر كان يعتبر وجود الخلافة عثمانية كانت اوعربية ضرورة هامة يلتف حولها المسلمون في كل انحاء العالم لذلك لا مجال للقيام ضد تركيا والانفصال عنها فهي دولة مسملة لا يمكن تشبيهها بالدول الاستعمارية وكان يمثل هؤلاء رجال الدين والمصلحين الدينين مثل جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وغيرهم ، اما الطبقات الشعبية فللخلافة على العموم لها رنين خاص في اوساطهم في مختلف البلدان العربية والاسلامية ، ولكن لم يكن لهذه الاوساط الشعبية اي قيمة بسبب ضعفها وتشتتها ومستواها المتدني ، وقد ظل هذا الشعور محتفظ بحيويته حتى استلام المتعصبين الاتراك الحكم في البلاد واخذوا في سياسة التتريك والعمل على القضاء على القوميات التي تتشكل منها امبراطورية العثمانيين وبخاصة العربية والتي كان لها كيان خاص خلال حكم عبد الحميد وجاءت الحرب العالمية الاولى وما

حدث فيها من مظالم ومجاعات مما جعل الناس يعملون ضد الخلافة ويحملون السلاح امامها مما اودى بها للانهيار والدمار وادى بالوقت ذاته الى وقوع البلاد العربية المشرقية تحت السيطرة الاستعمارية البريطانية لذلك يمكن القول بان العنصرين الرئيسيين اللذين كانا يشكلان الخلافة العثمانية كانا ضحية الدسائس الغربية وحماقة الحكام الاتراك وقصر نظرهم واستبدادهم بالامور .

ومع ذلك فبالرغم من كل الاجراءات والاساليب العسكرية التي فرضتها بريطانيا فقد نشبت بعض الثورات ذات الطابع الديني بين الطبقات الشعبية في كل من عربستان وجنوب العراق ، وعندما حاول شيخ الكويت نجدة صديقة امير المحمرة الشيخ خزعل بعد نشوب ثورة الساده ضده باعتباره حليفا للانكليز رفض المتطوعة الكويتيون الذهاب للقتال في المحمرة ، واعتبروا الخروج عن الدولة العثمانية خروجا عن الاسلام . وقد حاول الالمان استغلال الدين ايضا لاذكاء نار الثورة ضد الانكليز ولكنهم فشلوا بالرغم من الاشاعات التي روجوها عن اسلام امبراطورهم غليوم الثاني .

وكان لهما مركزان رئيسيان يديرون منهما حركات عملائهم ، والمركز الاول كان القنصلية الالمانية في بغداد واما الثاني فكان في دار السلام في شرق افريقية عاصمةمستعمرتهم آنذاك تنغانيكا (حالياتنزانيا)، وربما كانت الثورات تعم، في المنطقة لو عرف الاتراك كيف يعملون ويرسلون العملاء من العرب ورجال الدين ويتخلون عن انانيتهم وحب السيطرة ويداعبون امال السكان في المشاركة في السلطة على الاقل في المستويات العالية ، واتبعوا نفس اساليب الانكليز الدهاة ، وبشروا بعهد جديد من التآخي والمساواة في الاسلام ، والواقع ان الالمان في هذه الناحية كانوا اكثر ذكاء من الترك لذلك حاولوا استغلال الثورة العمانية عن طريق عملائهم في شرق افريقيا واتصلوا بزعماء الامامة الثائرين على سلطان مسقط وشجعوهم على القتال ووعدوهم بالمساعدة ، لذلك لم يستجب العمانيون لطلبات التهدئة والمصالحة مع السلطان اعتقادا منهم بانتصار الدولة العثمانية وحليفتها المانيا . ثم اضطروا لذلك ، ويجب ان لا يغرب عن البال ان الثورة لم تنشب لغايات خارجية خاصة وتتعلق بالخلافة رغم استعداد الثوار بالتعاون مع الخلافة ضد الانكليز وضد السلطان لان الثورة في الواقع كانت ثورة داخلية بحته ضد السلطان ، تحركها غايات مذهبية واضحة لاعادة مجد الامامة الاباضية التي قضي عليها سلطان

سقط . لذلك لم يكن من السهل القضاء عليها وكان الانكليز يعرفون خطر مثل هذه الثورة ، وعلى هذا نصح هاردنغ خلال زيارته للخليج عام ١٩١٥ سلطان مسقط للتفاهم مع الثوار وجرهم للهدنة واذى هذا فيما بعد لتوقيع معاهدة السبب عام ١٩٢٠ التي تم الاعتراف بموجبها في وجود الامامة داخل عمان وانقسمت عمان الى سلطنة وامامة كما سيمر معنا .

كان لدى بريطانيا في المنطقة عدد من الاصدقاء عندما بدأت الحرب لاستغلالهم في حربها غير المباشرة ضد الاتراك فقد كان هناك شيخ الكويت وشيخ المحمرة ، وزعماء القبائل العراقية الجنوبية وعبد العزيز آل سعود وكل هؤلاء لهم اتصال مباشر مع الاتراك ، وكان بامكان بريطانيا التكلم مع كل منهم باللغة التي يفهمها قبل استخدام القوة اذا لزم الامر ، ولاعطاء الثقة لهم فقد طلبت من الجميع الاستعداد لتحرير البصره ومهاجمة المراكز التركية المتقدمة ومنع الامدادات عن حامية البصرة كما وعدت شيخ الكويت بالاعتراف بمشيخته مشيخة مستقلة تحت الحماية البريطانية وتعهدها له بالمحافظة على ملكياته الزراعية في البصره واعفائها من الضرائب له ولاولاده من بعده ، اما شيخ المحمرة فلم يعد يتمكن من تقديم المساعدة للانكليز بسبب اعتراض جماعته على قتال الاتراك، اما بالنسبة للقبائل العراقية فعندما وصلت الحملة البريطانية العراق وجه برسي كوكس الذي اصبح الضابط السياسي للحملة على العراق الدعوة للانضمام الى بريطانيا وذلك بتاريخ ٥ تشرين ثاني ١٩١٤ اي في نفس اليوم الذي تم فيه دخول الدولة العثمانية الحرب . وقد حدد برسي اهداف الحملة التي اضطرت اليها بريطانيا بعد دخول الدولة العثمانية الحرب بدفع من المانيا وذلك لحماية التجارة البريطانية واصدقائها في المنطقة . اما ابن سعود فمشاكله مع آل الرشيد الذين كانوا يتلقون المعونة من تركيا الباب الذي يمكن لبريطانيا ان تدخله لدفع ابن سعود للوقوف بجانبها . بالاضافة الى خلافة مع تركيا حول الاحساء التي احتلها عام ١٩١٣ ، وقد حاولت تركيا عندما وجدت نفسها غير قادرة على استرجاع الاحساء الدخول بعلاقات وثيقة مع ابن سعود فاعترفت له باحتلاله الاحساء مقابل حكمها من قبله باسم الدولة العثمانية ووعدته بامداده بالمال والسلاح ولكن لم يتحقق شيء من هذا لان الحرب نشبت بين بريطانيا وتركيا ، وعندما تم توقيع الاتفاقية التي جئنا على ذكرها في البداية بين بريطانيا وتركيا قبل الحرب بفترة قصيرة والتي تم فيها تنظيم العلاقات بين بريطانيا

وتركيا في الجزيرة العربية تناولت المباحثات تخطيط الحدود بين النفوذين البريطاني والتركي اعتبرت الاتفاقية ان الاحساء لا تزال تابعة لتركيا وتقتضي هذه الاتفاقية تقسيم الجزيرة العربية وذلك برسم خط مستقيم بين شبه جزيرة قطر ، يخترق الصحراء ليوصل الى عدن فشمال هذا الخط يكون من نصيب تركيا ويحتوي على الاحساء وعلى نجد ايضا وجنوب هذا الخط يكون من نصيب بريطانيا ولكن نشوب الحرب احبط المؤامرة ضد ابن سعود والتي لم يعرف عنها شيء حتى عام ١٩٣٠ وهناك بعض الخرائط البريطانية القديمة تحمل هذا التقسيم باندلاع نيران الحرب غيرت بريطانيا من تكتيكها نحو ابن سعود فقد اوفد المقيم العام البريطاني برسي كوكس الكولونيل شكسبير الوكيل البريطاني في الكويت الذي كان قد مرعلى الرياض قبل الحرب للتعرف على عبد العزيز آل سعود ولكنه لم يطلعه على المباحثات التي ذكرناها بين بريطانيا وتركيا آنفا اما الان فاصبحت غاية بريطانيا ان تؤلب اعداء الدولةالعثمانية عليها، لذلك ارسل شكسبير من البحرين سريعا الى عبدالعزيز ليمثل بريطانيا في الرياض وفي محاولة لزحزحة ابن سعود عن حياده والحصول منه على ضمانات مفيدة للحلفاء ، وكان كوكس يعتقد باهمية ابن سعود وان بامكانه شل قبائل شمر التي كان يرأسها ابن الرشيد وكذلك قبائل المنتفق ورئيسها عجمي سعدون بدلا من تهديدها الجناح الايسر للجيوش البريطانية عند تقدمها في العراق ، وكان هناك هدف آخر هو الهاء ابن سعود ودفعه للتوسع شمالا عوضا عن التوسع نحو الخليج بالاضافة الى اضعاف شمر حليفه الاتراك ، وقد استطاع شكسبير كسب ثقة العاهل السعودي ، وعندما بدأت الحرب شجع شكسبير ابن سعود على مهاجمة شمر وامده بالمال والسلاح ولكن عبد العزيز هزم في معركة جراب (كانون ثاني ١٩١٥) امام آل الرشيد وقبائل عجمان التي كانت تكن لابن سعود كل عداء . وقد قتل في هذه المعركة شكسبير اثناء اشتراكه في المعركة وكان يحاول ادارة نيران المدفع الوحيد الذي كان لدى عبد العزيز آل سعود . ومنذ ذلك الوقت اخذ ابن سعود يسير بحذر واهملته بريطانيا التي اخفقت في تقدمها في العراق ، كما انها اوكلت مهمة قتال الاتراك الى الحسين شريف مكة ومع ذلك فقد تم لقاء بين عبد العزيز وبرسي كوكس في جزيرة (دارين) المواجهة لميناء القطيف في اواخر عام ١٩١٥ وتم توقيع اتفاقية بين الطرفين على غرار الاتفاقيات المعقودة بين بريطانيا ومشايخ الخليج وقد تعهدت بريطانيا بحماية وضمانة اراضيه وامارته داخل حدود

ترسم بعد انقضاء الحرب مقابل تعهده بان لا يهاجم مشيخات الخليج ، وتعهد كغيره من المشايخ بعدم التنازل او بيع اوتأجير شطر من اراضيه دون موافقة الحكومة البريطانية وان يترك شؤ ونه لبريطانيا الخارجية التي اعطته المال والسلاح . ولا تعرف الاسباب التي ادت الى توقيع عبد العزيز مثل هذه الاتفاقية فهو لم يكن بحالة سيئة ليطلب المعونة من بريطانيا وتباينت الاراء بصدد هذه المعاهدة ولكن الحقيقة هي كما قال حافظ وهبه (تجلى في هذه المعاهدة قصر نظر مستشاري ابن سعود بما يجري في العالم والاستفادة من الفرص) ورغم انضمام عبد العزيز الواضح للانكليز في هذه المعاهدة الا انه في الواقع بقي على الحياد فلم يتعرض للشريف حسين في الحجاز . ولا تعرض للقوة العثمانية في عسير واليمن بل ترك رسلها واموالها تغدو وتروح بين اليمن والشام عبر بلاده وهو مع ذلك محافظ على ود البريطانيين . ولكن حكومة الهند البريطانية رأت انه من واجبها ان تضمن مساعدة ابن سعود لكي تنجح في ميدان الحرب العراقية لذلك ارسلت له سان جون فيلبي الى الرياض وسرعان ما اكتسب ثقة الامير التامة ، وبهذا انقسمت السياسة البريطانية ما بين مدرستي لندن ودلهي فحكومة لندن عن طريق المكتب العربي في القاهرة كانت تدعم لورنس وسياسته في الجزيرة العربية ودعمه للشريف حسين في حين كانت حكومة الهند تدعم ابن سعود عن طريق فيلبي - وربما لو كان العكس ودعمت بريطانيا ابن سعود لتغير وجه المنطقة وظلت بريطانيا مالكة للبترول العربي ولم تستطع امريكا النفوذ منه والواقع او كما يبدو ان ابن سعود لم تكن له اطماع كثيرة في ذلك الوقت اكثر من القضاء على آل الرشيد الذين ينازعونه ملكه فعندما عرضت عليه الخلافة من قبل الانكليز رفضها واحالها للشريف حسين لنسبه (حسب قول ابن سعود) وربما كان ابن سعود اكثر خبرة من غيره بمداخل السياسة البريطانية التي لا يمكن ان تسمح بتوحيد العرب في دولة واحدة لان مثل هذه القوة تهدد مصالحها الحيوية في هذه المنطقة وكان يعرف قوته ومتى يقف .

اما سير الحرب في العراق فلم يكن نزهة للجيش البريطاني الهندي فبعد احتلال البصره واستبسلام خاميتها وتقدمه باتجاه بغداد استطاع الجيش العثماني المؤلف اغلبيته من العرب من محاصرة القائد البريطاني (طاونسند) في كوت العماره واضطره للاستسلام في ٢٩ نيسان ١٩١٦ وكان عدد افراده (١٣٥٠٠ جندي) وبعد هذه الهزيمة ارسل الانكليز جيشا ضخما بقيادة الجنرال مود الذي استطاع

التفوق على العثمانيين بالرغم من مقاومتهم وسقطت بغداد في صباح ١١ آذار ١٩١٧ وثم واصلوا تقدمهم واحتلوا بقية المدن العراقية وضمنوا السيطرة على آبار النفط وبذلك انطوت اخر صفحة من تاريخ بني عثمان في العراق .

اما ايران فبالرغم من اعلان حيادها كانت في الحرب ميدانا حربيا اصطدم فيه الاتراك والروس عند حدودهاالغربية . و في كانون الثاني سنة١٩١٥هاجم الاكراد تبريز ولكن الروس استطاعوا اخراجهم منها في العاشر من الشهر نفسه وفي بحيره وان وارحيه نشبت في خريف سنة ١٩١٧ معارك دامية بين الاكراد واعدائهم القدامى من النساطره النصارى الذين كانوايؤ يدون الروس. وبعدانتصار الجيوش العثمانية في كوت العمارة على الانكليز اندفعت الجيوش التركية داخل ايران وهددت طهران ولكنها اضطرت للانسحاب بامر من حكومتها لحاجتها لها في ميادين اخرى ، وقد حاول عملاء المان اثارة الشعب الايراني ضد الحلفاء ولكن لم ينجحوا النجاح الكامل ولكنهم ازعجوا البريطانيين ازعاجا قويا ، والواقع ان انهيار الجبهة الروسية مكن الفرس في الشمال من التمتع بالحرية كرة اخرى بعد تخلي البلاشفة عن جميع الحقوق التي ورثوها عن العهد القيصري .

واخيرا كانت الحرب فرصة لبريطانيا لتثبت مركزها في المنطقة وبخاصة بعد ان احتلت العراق وسيطرت على ابار النفط ، وقد لعب برسي كوكس دورا كبيرا في ترسيخ هذه السيطرة وفي ٢٣ كانون الثاني ١٩١٧ وجه اللورد كيرزون وزير الخارجية البريطاني آنذاك رسالة الى كوكس تعبر في الواقع عن مدى السيطرة التي اصبحت تمارسها بريطانيا على المنطقة وجاء فيها « لقد جعلت من نفسك ملكا على الخليج وعندما تنتهي الحرب سوف نعزز تلك المملكة ونعمل على ان لا يقوم احد بانتزاع التاج منك » .

والواقع ان بريطانيا لم تعد بعد انتهاء الحرب تخشى من اي منافسة اوربية . فالدولتان المنافستان لها فيما مضى فرنسا وروسيا تخلتا عن هذه المنافسةفقد اصبحت فرنسا حليفة تقليدية لبريطانيا حتى انها اغلقت قنصليتها في مسقطعام ١٩٢٠ واما روسيا فبعد نشوب الثورة الشيوعية وظهور الاتحاد السوفياتي تخلى هذا عن كل ما كان لدى روسيا القيصرية من مطامع وخلا الجو لبريطانيا وفرنسا بعد عودة امريكا للعزلة لتتحكما في العالم حتى الحرب العالمية الثانية ، ولكن هذا العصر الذهبي لم يدم لفرنسا وبريطانيا فقد بدأت الشعوب المستعمرة والتي تحملت قسطا كبيرا من

الحرب وبذلت وتضحيات جمة في سبيل قضية الحلفاء وخاب املها في الحصول على استقلالها من المستعمرين تتململ في كل مكان . كما ان بريطانيا بدأت تعاني من منافس جديد لهافي منطقة الخليج ويتمثل بالاستثمارات الامريكية الضخمة التي اخذت تطرق الابواب بعنف بعد ان كانت بريطانيا ترى فيها منطقة خاصة بها والى الابد لا ينازعها فيها منازع في الوقت الذي باتت فيه خيوط المشاكل الدوليةتتعمق لتتفجر في الحرب العالمية الثانية التي كانت نهاية للامبراطوريات الاستعمارية ، وظهور عالم جديد ومفاهيم جديدة . كما سنرى .

الفصل الثالث

تطور الاوضاع العامة في الخليج وما حوله ما بين الحربين العالميتين والستراتيجية البريطانية في المنطقة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية

نتائج الحرب العالمية الاولى ـ مشاريع تمزيق امبراطورية آل عثمان واتفاقية بطرسبورغ ـ اتفاقية سايكس بيكو ـ مصطفى كمال اتاتورك ومعاهدة لوزان ـ الحلفاء يتخلون عن وعودهم للعرب ـ التجزئة العربية ـ ازدياد النفوذ البريطاني ـ السيطرة على الطريق البحري بين الهند واوربا ـ السياسة البريطانية وازدياد اهمية الخليج بعد ظهور البترول ـ الاوضاع في الخليج ـ التصريح الثنائي ـ البريطاني ـ الفرنسي بعد الحرب العالمية الاولى ـ الاستعمار البريطاني للعراق وتطور نظام الحكم واستقلال العراق ودخوله عصبة الامم ـ النفوذ البريطاني ـ الحرب العالمية الثانية ـ الثورة العراقية واسبابها ـ الستراتيجية البريطانية في المنطقة خلال الحرب ـ التقارب مع السعوديين وتطوره ـ عبد العزيز آل سعود يؤسس دولته والانتصار على الهاشميين ابن الرشيد والادريسي ـ عبد العزيز آل سعود يؤسس حركة الاخوان الوهابيين ـ الاتفاق بين آل سعود والانكليز ـ الانكليز وعمان ـ المحاولات لاعادة الامامة ـ الخلاف بين السلاطين والامامة ـ اتفاقية السيب ـ رضا بهلوي يوحد ايران .

الفصل الثالث

الاستراتيجية البريطانية وتطور الاوضاع في الخليج وما حوله في الفترة ما بين الحربين العالميتين

كانت نتائج الحرب العالمية الاولى التي انتهت عام ١٩١٨ قاسية على الدول المهزومة فقد فقدت المانيا جميع مستعمراتها وقسما من اراضيها واعادت لفرنسا مقاطعتي الالزاس واللورين ، اما امبراطورية النمسا والمجر القديمة فقد فقدت كل مقاطعاتها واصبحت كل واحدة منها دولة صغيرة لا حول لها ولا قوة ، اما الامبراطورية العثمانية فقد زالت من الوجود وكادت معها ان تزول من الوجود القومية التركية نفسها لولا الثورة الكمالية واذا كانت الشعوب التي كانت تؤلف امبراطورية النمسا والمجر قد حصلت على استقلالها وشكلت دولا خاصة بها فالمقاطعات العربية الخاضعة للامبراطورية العثمانية بدلت استعمارا بآخر ولم تستفد شيئا من تحطيم الامبراطورية العثمانية ، والواقع ان الغرب كان يعمل منذ فترة طويلة للحصول على هذه النتيجة وتحطيم الامبراطورية العثمانية التي ارعبت اوربا قرونا طويلة واوقفت زحفها نحو البلاد العربية . اما الدول المنتصرة بريطانيا وفرنسا فقد مدت نفوذهما الى مختلف انحاء العالم وبخاصة بعد عودة امريكا المنتصر الاخر الى عزلتها .

فقبل نهاية الحرب وضعت الاسس لتمزيق اوصال امبرطورية آل عثمان بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية وكان ذلك في بطرسبورغ عندما اجتمع فيها في مايس عام ١٩١٦ (لينينغراد حاليا) كل من وزير خارجية روسيا (سازنوف) والخبير البريطاني في الشؤون الشرقية مارك سايكس والقنصل الفرنسي السابق في بيروت جورج بيكو ولكن هذه الاتفاقية السرية التي عرفت فيابعد باسم اتفاقية سايكس بيكو والتي كشفت النقاب عنها الثورة الشيوعية بعد سقوط الامبراطورية القيصرية . لم تطبق الا بما يخص البلاد العربية وكانت روسيا الامبراطورية ستحصل بدون شك على قسم كبير من الاراضي التركية واطماعها معروفة في مضايق البوسفور والدردنيل . اما بريطانيا وفرنسا فاطماعهما في بلاد الشام والعراق معروفة

منذ القدم ، وقد نصت الاتفاقية على ان تقوم في فلسطين ادارة دولية (تمهيدا لجعلها وطنا قوميا لليهود) وان يكون الجزء الساحلي الواقع الى شمال خط ممتد على محاذاة دمشق وحمص وحماه وحلب منطقة نفوذ فرنسية وان يكون العراق من نصيب بريطانيا ، في حين تنشأ دولة مستقلة او اتحاد عربي في الاراضي السورية الداخلية الواقعة ضمن هاتين المنطقتين وفي ولاية الموصل لا غير . وقد عبرت اتفاقية معاهدة (سفر) التي وقعتها الدولة العثمانية مع الحلفاء بعد الهزيمة في ١٠ آب ١٩٢٠ عما يخص تركيا من اتفاقية سايكس بيكو وقد نصت على منح ازمير والاقسام التابعة لها استقلالا داخليا . وتصبح ارمينيه دولة مستقلة في حين تضم (ترافيا) في الشمال - عدا رقعة ضيقة - الى اليونان اما مضايق البوسفور والدردنيل فتخضعان لرقابة دولية ، وفي الوقت ذاته تم الاتفاق على ان تحصل فرنسا على كليكيه وكردستان الجنوبية ، اما جنوب الاناضول فيعطى لايطاليا حتى منطقة ازمير وكانت ايطاليا قد احتلت الجزر المواجهة لهذا الساحل عام ١٩١٢ .

ولكن الترك لم يرضوا بهذه المعاهدة واستطاع مصطفى كمال هزيمة اليونانيين في معركة سكاريا واحتل استانبول وجميع اجزاء آسيا الصغرى التي انسحبت منها القوات الفرنسية والانكليزية واضطر الحلفاء لتوقيع معاهدة اخرى بعد ان الغيت معاهدة (سيفر) وذلك في لوزان عام ١٩٢٠ وعرفت باسم معاهدة لوزان ، اما العرب الذين كانوا لا يملكون القوة المسلحة الذاتية التي كانت لدى الترك ، اطمأنوا لوعود الحلفاء بريطانيا وفرنسا لتحقيق اهدافهم الوطنية في الوحدة والاستقلال . لذلك عندما تخلى الحلفاء عن وعودهم لم يجدوا لديهم القوة الكافية لتحقيق اهدافهم بالقوة وضاعت منهم الفرصة المناسبة الذهبية بسبب ضعفهم وتواكلهم وتفرقهم . يضاف الى ذلك انهم كانوا هدفا رئيسيا من الاهداف التي ادت الى تحطيم الامبراطورية العثمانية بعد ان تكشفت ارضهم عن الثروات البترولية الهائلة ولموقعهم الجغرافي في قلب القارات القديمة الثلاث عدا عن الرواسب القديمة وادعاءات فرنسا بحماية المسيحيين وقد ذهبت الجهود العربية سدى في اروقة المؤتمرات الدولية التي كانت ستقرر مصيرهم نظرا لضعف قوتهم العسكرية ... واعتمادهم - كعادتهم - على بعض الاصدقاء (او الذين يدعون صداقة العرب) في فرنسا وانكلترا وعلى مثاليات امريكا ، ولو فكروا قليلا وعادوا للوراء ... وا ان اوربا حصلت بسهولة وبمعونتهم - اي العرب على نتيجة طالما سعت اليها

اوربا قرونا طويلة منذ بداية الحروب الصليبية وهي السيطرة على هذه المنطقة العربية واحتلال القدس ، ولم يتورع قادتهم كما هو معروف عن تذكير العرب بالحروب الصليبية وعودتهم للقدس وثأرهم لهزائمهم امام صلاح الدين . لذلك ليس من السهل ان تتخلى عن هذه الفرصة الذهبية . وكان لتوزع الاهواء والخلافات في القيادات العربية اثره الحاسم في النتائج الذي وصل اليها العرب من تجزئه وفقدان السيادة على بلادهم ولم يكتف الحلفاء بريطانيا وفرنسا بتجزئة العالم العربي بل اورثوا له القضايا التي لا يزال يعاني منها كمشكلة فلسطين . وضم لواء الاسكندرون لتركيا وضياع عربستان والواقع ان قواعد التجزئة التي بنى عليها الاستعمار حكمه كانت اشد ما اصاب العرب من بلاء بعد الحرب العالمية الاولى فقد جلبت التجزئة معها عوامل الضعف الدائم رغم حصول العرب على الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية ولكن اصبح عددهم واحدا وعشرين دولة بدلا من دولة واحدة . وهنا يكمن سر ضعفهم حتى الوقت الحاضر .

كان لبريطانيا حصة الاسد في المنطقة بعد سلسلة الاتفاقيات التي عقدت بينها وبين فرنسا فقد امتدت امبراطوريتها الهندية لتصل للبحر الابيض المتوسط بعد ان كان امتدادها يقف عند شبه جزيرة قطر كما كانت الجزيرة العربية خاضعة للنفوذ البريطاني بشكل غير مباشر . وبذلك تحقق حلم بريطانيا في الهيمنة على الطريقين الرئيسين اللذين يصلانها بامبراطوريتها الهندية وكانت بريطانيا من قواعدها في جبل طارق - قناة السويس - عدن - ظفار - والبحرين وسنغافوره وهونغ كونغ تتحكم في كل من آسيا وافريقيا واوستراليا . وبالرغم من خسائرها الحربية اثناء الحرب ومنافسة الاسطول الامريكي ظل الاسطول البريطاني قوة رئيسية في البحار

كانت الستراتيجية البريطانية في المحيط الهندي والخليج او ما يعرف (بشرق السويس) فيما بعد واضحة الاهداف فمن القواعد البحرية كانت بريطانيا تعمل لحماية الطريق الى الهندوهذا مبدأقديم عمل به منذ وصول الانكليزالى هناك، والآن

وبعد ظهور الثروة النفطية في الخليج وما حوله وسيطرة بريطانيا عى منابع البترول اصبح على بريطانيا ان تحمي هذه المنابع وتحمي الطريق اليها وتأمين تدفقها بعد ان ازداد الى حد كبير اعتماد الصناعة عليها واصبح الاسطول البريطاني يسير بطاقتها . وهذايتطلب استقرارالاوضاع في المنطقةوابعاد كل الاخطار والمنافسات الدولية

ومراقبة القوى المحلية واخماد كل حركة يمكن ان تعرقل سيطرتها على موارد البترول مهما كانت اهداف هذه الحركة ثم محاربة الشيوعية . وكان امام بريطانيا منطقة واسعة من ايران الى البحر الاحمر ومن البحر الابيض المتوسط الى البحر العربي لمراقبتها والتحكم فيها .

وبالرغم من ان الخليج كان منذ بداية الحرب وقبلها منطقة مستتبة الا ان وجود البترول ضاعف في حذر بريطانيا ومحاولاتها لتشديد قبضتها بعد الحرب العالمية الاولى . وكانت تحكم الساحل العربي حكما مباشرا عن طريق المعاهدات والاتفاقيات الابدية المعقودة فيما بينها وبين القوى المحلية فيها وكانت المسؤ ولة قن الدفاع عنها وتحمل شؤ ونها الخارجية ولم يكن للقوى المحلية من السيادة الا جزء بسيط يتعلق بالشؤ ون الدينية . وقد استبعد اقتراح قدم من وزارة المستعمرات عام ١٩٩٨ التي اصبحت مسؤ ولة عن حكم المنطقة ضم الكويت وقطر وغيرها من الامارات للادارة البريطانية في العراق . ولكن هذا الاقتراح رفض خوفا من التزاماته المالية ولعدة امور اقتصادية وعسكرية لذلك بقي الوضع على ما كان عليه ، وبسبب الحرب اصبحت البحرين قاعدة بحرية هامة تتحكم في المنطقة اما في الكويت، فقد فقدت بريطانيا صديقا وفيا لها هوالشيخ مبارك الصباح ولم يكن خلفاؤ ه من بعده يتمتعون بهذه الثقةالتي كان يتمتع بهاوعبر بعضهم عن معارضتهم لتمادي بريطانيا في الهيمنة على الكويت وبخاصة اثناء الحرب ، وكان هذا هو السبب في الخلاف الكبير الذي حدث ما بين الشيخ سالم الصباح الذي حكم ما بين ١٩١٧ ـ ١٩٢٢ والادارة البريطانية بالاضافة الى ما كان الشيخ يكنه من عطف نحو تركيا بدافع من الشعور الديني الذي كانت بريطانيا تخشاه كثيرا لذلك حاولت احكام قبضتها على الكويت مفتاح الجزيرة وبوابة العراق ، وحارسة الطريق الى البحر الابيض المتوسط . عن طريق تعيين موظفين بريطانيين للاشراف على واردات وصادرات الكويت بحجة الخوف من تسرب السلاح والغذاء للاتراك بالاضافة الى توظيف موارد الكويت وصادراتها للمجهود الحربي البريطاني في العراق، وقد رفض الشيخ سالم مثل هذا العمل على اساس انه صديق للانكليز وانه يخضع كل ما يدخل او يخرج من الكويت لمصادقة الوكيل البريطاني ، ولكن المقيم السياسي (بل) اصر على موقفه على ايجاد لجنة الاشراف وهدد بقصف الكويت بمدفعية الاسطول وهذا ما كانت تلجأ له وتهدد به كل من يحاول التملص من المراقبة

والسيطرة البريطانية بالاضافة الى التهديدات الدائمة بقطع الموارد النم‍ ء والاخشاب . ولكن المقيم السياسي البريطاني برسي كوكس تدخل بين الطرفين واقنع الشيخ بمطالب المقيم السياسي على ان تكون مهمة اللجنة الانكليزية مؤقتة تنتهي بانتهاء الحرب ، ووعدته بالتعويض عن كل الاضرار التي لحقت بالتجار الكويتيين بسبب الحصر التي تزمع اللجنة فرضه على المنطقة وقد ذاق الناس في الكويت الامرين من هذه اللجنة التي كانت لا تتورع في مهاجمة المنازل والتفتيش عن المواد الضرورية للجيوش البريطانية والتي كانت تصادر وتمنع عن الناس لذلك كان عام ١٩١٨ عاما سيئا على الكويت ، وكان بداية للاحتلال البريطاني الحقيقي لها بعد ان كانت الصلة العائلية لآل الصباح مع بريطانيا هي اساس الحكم .

اما قطر فقد استطاع شيخها الاحتفاظ باستقلاله بسبب المنافسة الدولية حول السيطرة على بلاده وحينما اتفقت بريطانيا والدولة العثمانية في عام ١٩١٣ على تحديد مناطق نفوذهما اعترفا ببقاء قطر رسميا خارج مناطق سيطرتهما بموجب المادة (١١) من الاتفاقية بينهما والتي نصت على ان تتنازل الدول العثمانية عن جميع حقوقها في شبه جزيرة قطر التي سيستمر الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني وخلفاؤه بحكمها قد اعلنت الحكومة البريطانية انها لن تسمح بتدخل شيخ البحرين بشؤون قطر الداخلية او ضمها الى اراضيه ، وقد وقعت الاتفاقية المذكورة في ٩ آذار ١٩١٤ ولكن اندلاع الحرب كما هو معلوم الغى هذه الاتفاقية وفي بداية الحرب ابلغ شيخ قطر من المندوب السامي البريطاني بدخول بريطانيا الحرب وفي عام ١٩١٥ وصل الى الدوحة المعتمد السياسي البريطاني في الكويت ودخل في مفاوضات حادة مع الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني حاكم قطر حول معاهدة جديدة مع بريطانيا ولم توقع هذه المعاهدة وهي معاهدة الحماية الا بعد عام اي في تشرين الثاني عام ١٩١٦ حينما اضطرت قطر للتخلي بموجبها عن شؤونها الدفاعية والخارجية وقد شملت معاهدة ١٩١٦ جميع نصوص المعاهدات الاخرى التي بدأت بريطانيا بتوقيعها مع امارات ساحل عمان منذ عام ١٨٢٠ وهكذا وقعت آخر مشيخة في قبضة بريطانيا ظلت بهذا الشكل حتى الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية اما امارات الساحل العماني اي ساحل الصلح البحري فقد شددت بريطانيا قبضتها على الامارات عن طريق الانذارات التي كانت توجهها من حين الى آخر وساعد على ذلك وجود المراكب

الحربية البريطانية بشكل دائم في الخليج بسبب العمليات الحربية وابعاد خطر الطرادات الالمانية والغواصات من دخول الخليج واعادة السيطرة عليه فصلا عن السلطة القوية التي كانت تمارسها السلطة البريطانية عن طريق قمع النخاسة وتهريب السلاح . . الخ ولم يتغير هذا الوضع بالنسبة لبريطانيا حتى نهاية الحرب الثانية اي بداية الاستقلال فقد كان استمرارا للاوضاع السابقة اما في العراق فكانت الاوضاع فيه مختلفة جدا .

فعندما كانت جيوش الحلفاء تتقدم في البلاد العربية بعد ان مهدت لها قوات الثورة العربية واحتلت بلاد الشام والعراق كانت الامال معقودة على وفائهم بالعهود التي قطعوها والبيانات التي اذاعوها على السكان في خلق الدولة العربية الواحدة ولكن هؤلاء في الوقت الذي كانوا يرددون هذه العهود كانوا يعقدون المؤتمرات ويوقعون على الاتفاقيات السرية التي كانت تعبر في الواقع عن نواياهم السيئة ضد العرب . وكانت آخر الوعود التي اطلقوها في التصريح الثنائي الصادل عن الحكومتين البريطانية والفرنسية في ٨ تشرين الثاني ١٩١٨ وقدجاء في التصريح المذكور « ان الحكومتين الفرنسيه والبريطانية اتفقتا على تأسيس حكومات وطنية للشعوب المحررة التي هضم حقوقها الترك ، وتركنا لها الخيار في تأسيسها حسب رغباتها » ولكن ذلك لم يكن سوى الوسيلة للوصول الى هدفهم الحقيقي . وهو احتلال المنطقة العربية وتوزيعها بينهم ، وهذا ما دعت اليه اتفاقيات سايكس بيكو واتفاقية سان ريمو في ٢٥ نيسان ١٩٢٠ وتم تطبيق موادها فقد اكملت فرنسا احتلال سورية وقضت على الملكة فيها اما بريطانيا فاحتلت العراق والاردن وفلسطين ، ولكن امال الاستعمار في استقرار الاوضاع لم تتحقق فقد نهض الشعب العربي في كل من سوريا والعراق ودخل في نضال طويل ضد الاستعمار حتى تحقق له الاستقلال الكامل بعد الحرب العالمية الثانية وبعد تضحيات جسيمة .

كان العراق كما رأينامن نصيب بريطانيا والتي كانت تطمح باحتلاله منذ مدة طويلة نظرا لموقعه الجغرافي وثرواته البترولية وكان يهمها البقاء فيه اطول مدة ممكنة . ولم تكن تهمها الطريقة فعندما استقرت اقدام الانكليز في العراق نشر القائد البريطاني الجنرال مود منشوراعلى اهالي بغداد . وذكر فيه «بان الجيوش البريطانية دخلت بغداد كمحرره وليس كجيوش محتلة وانما جاءت لحمايتهم من الظلم والغزو

وهي ستضمن حرية التجارة ، وسوف لن تفرض على السكان انظمة اجنبية عليهم فامنيتها الوحيدة ان يتحقق ما تطمع اليه « نفوس فلاسفتكم وكتابكم مرة اخرى » ووعدت الاهالي « بالسعادة والغنى المادي والادبي بفضل نظامات توافق القوانين المقدسة والاطماع القومية » ولكن تصرفات الانكليز في الحكم واسلوبهم في معاملة الشعب العراقي لم تكن كما ذكر الجنرال مودُ وكانت اجراءاتهم تخالف رغباته فقد كان يطمح بالاستقلال وليس بتغير اسلوب استعماري باسلوب اخر استعماري . لذلك بدأت القوى الوطنية تشعر بالنوايات المبيتة لها ، وما كان الانكليز يسعون اليه في السيطرة على العراق واستغلال ثرواته الطبيعية لصالحهم والواقع ان هذين الهدفين كانا دائما وابدا الموجهين لسياسة بريطانيا في العراق بالرغم من التغيرات المتعاقبة في اسلوب الحكم وطرقه الملتوية .

خلال فترة الحرب كان الانكليز يحكمون العراق حكما مباشر عن طريق ادارة عسكرية يحيط بها مجموعة من الخبراء المدنيين المختصين في الشؤ ون العراقية مثل ابرسي كوكس والانسة جروترودبل المعروفة باهتمامها في المنطقة منذ زمن طويل وبدراساتها الآثارية . وكانت الادارة العسكرية عبئا ثقيلا على الشعب العراقي الذي لم يعتد مثل هذه الشدة . حيث ادخلت نظام العمل الاجبارى وقد عبأت الفلاحين للعمل لصالح القوات البريطانية وحظرت كسلطة محتلة تجارةالمواد الغذائية ووجهت جميع الموارد لخدمة وسد حاجات الجيش كما فرض على البدو بدفع الضرائب التى لم يعتادوا على دفعها مما اثار النفوس ضد الحكم البريطاني بالرغم من اغداق الانكليز على شيوخ القبائل الهدايا والعمل على استمالتهم لمؤ ازرتها . واخذت تضغط على الضباط الفارين من الجيش التركي الذين كانوا يطالبون بالاستقلال ونفت عددا كبيرا منهم الى سيلان والهند ومصر . ومنذ الاحتلال كانت هناك نظريتان لحكم العراق في الاوساط السياسية البريطانية فالاولى ترى ان يحكم العراق على حسب اختبارات الحكم في الهند اي الحكم المباشر بمساعدة موظفين هنود ووطنيين مخلصين لانكلترا ، وكان اصحاب هذه الفكرة يقترحون استدعاء جاليات هندية للاقامة في العراق ليكون الحكم عن طريقها كما هو الحال في المستعمرات البريطانية في افريقيا وغيرها حيث يشكل الهنود الطبقة الثانية في الادارة ويصبحون همزة الوصل بين الطبقة الانكليزية الحاكمة والشعب المحكوم ويمكن ان ينجح مثل هذا الاسلوب في بلاد لا يوجد فيها كادر وظيفي ولكن العراق كان لديه هذا

الكادر ، اما المدرسة الثانية التي لم تلاق النجاح في اوساط السياسيين الانكليز فتقول بحكم البلاد عن طريق العراقيين انفسهم ، وهناك امر اخر ساعد على ترجيح فكرة الحكم على الاسلوب الهندي هو ان الموظفين الانكليز في مثل هذا الاسلوب سيتقاضون رواتب ضخمة وقد ارهقت هذه الرواتب الميزانية العراقية فيما بعد ومنذ دخول الانكليز البصره اخذوا في تطبيق الاسلوب الهندي ، وبعد احتلال بغداد حاولوا اقامة نظام اداري فيها على ضوء اختباراتهم في مصر ، وكان اسوأ محاولات الانكليز هو حكم العراق على اساس تجزئتها الى مقاطعات او مناطق يسهل حكمها . على نفس الاسلوب الذي اتبعته فرنسا في تجزئه سوريا الى دويلات صغيرة لخلق نوع من الحكم المبني على الطائفية والذي تعتبره افضل ضمانة لبقاء الاستعمار اطول مدة ممكنة ، وهكذا حاولوا جعل البصرء تحت حكمهم المباشر وحاولوا تغطية ذلك في بغداد بواجهة عربية اي نوع من الادارة العربية اما الموصل فظلت طيلة الحروب وحتى هدنة (مودروس) بيد الاتراك وكانت من حصة فرنسا حسب اتفاقية سايكس بيكو ولكن بعد ذلك ضمت الى العراق وعوضت فرنسا عن ذلك بقسم من عائدات النفط في الموصل وفيما كانت وزارة الخارجية البريطانية بناء على نصائح لورنس تعمل على انشاء دولتين مستقلتين في الجزيرة العربية لولدي الشريف حسين ، عبد الله وزيد ، اعترض الحاكم السياسي البريطاني العام على هذه الفكرة وكان هذا قد خلف السيد بيرسي في ادارة العراق بعد نقل الاخير الى طهران كسفير لبريطانيا فيها وكان يعارض فكرة الحكم المباشر اما المستر (ولسن) الذي خلفه في رئاسة الادارة البريطانية فكان يعمل لبقاء العراق تحت السيطرة البريطانية المباشرة لذلك رفض فكرة الملكية في العراق واجرى استفتاء والذي كانت نتيجته تفضيل السكان على حسب زعمه لبقاء بريطانيا على رأس الحكم مما شجع هذا على اقتراح دستور ينص على ان يكون رأس الدولة المندوب السامي يعاونه موظفون انكليز وعرب وهنود .

مما تقدم ظهر واضحا للوطنيين العراقيين من ان البريطانيين يريدون البقاء وانهم أبدلواحكم الترك بحكم المكتب الهندي وزاد الامر وضوحابعد اعلان الانتداب البريطاني على العراق في ٢٥ نيسان ١٩٢٠ بقرار من الحلفاء المجتمعين في سان ريمو وكان الانتداب نوعا من الاستعمار ولكن بلباس جديد . واقترحه الاستعماري العجوز رئيس حكومة جنوب افريقيا (سمطس) ليكون وسطا بين

فكرتين متناقضتين الاولى اعطاء البلاد المحتلة الاستقلال الكامل او حكم البلاد حكما مباشر فهو على العموم تقنين للاستعمار ، واذا كان الانتداب نظريا هو مسؤ ولية بريطانيا او فرنسا للاخذ بيد الشعوب المنتدبة امام عصبة الامم فهو بالنسبة لهذه الشعوب كان خديعة استعمارية لذلك بدأ الغليان الشعبي في العراق وابتدأت الاجتماعات السياسية وعقدت الندوات المطالبة بالاستقلال الكامل وبدأ خطباء المساجد يحضون الناس على الثورة وهو الامر الذي لم يرق للسلطة البريطانية فقبضت على نفر من الزعماء ونفتهم مرة ثانية خارج العراق . وبالرغم من ان اللجنة التي كلفت برئاسة المستشار العدلي السير (بوشام كارتر) قد توصلت الى قناعة بان حكومة مستقلة يرضى عنها الشعب في ظل الانتداب هي افضل الوسائل لاشاعة الاستقرار بشرط ان تنبثق عن مجلس تأسيسي على غرار المجلس المصري الا ان الحركة الوطنية قد اشتدت ورفضت مقترحات اللجنة الاستشارية . وهنا ادرك الحاكم ان اسلوب الحكم المتبع على ضوء تجارب الحكم في الهند لا يمكن ان ينجح في العراق واقترح استدعاء (برسي كوكس) من طهران لمعالجة الموقف . ولكن الاوضاع كانت تتدهور بسرعة وباستمرار وفي حزيران ١٩٢٠ بدأت الثورة في الرميثة اثر خلاف بين احد الشيوخ القبليين وموظف سياسي بريطاني وتقع هذه في الفرات الادبي وامتدت حتى شملت اغلب العراق ولم تستطع بريطانيا القضاء عليها الا بعد مجهود كبير وكلفت الخزانة البريطانية اربعين مليونا من الجنيهات الاسترلينية وقدم الشعب العراقي حوالي ثمانية آلاف قتيل وخسرت بريطانيا حوالي الفين وخمسمائة من الجنود ، وقد اثار هذا العمل النقمة على الادارة البريطانية حتى في بريطانيا نفسها واستخدمها حزب العمال في حملته الانتخابية وطالب بانسحاب بريطانيا من العراق كما ان مجلس عصبة الامم قرر في ١٧ تشرين ثاني ١٩٢٠ انه غير قادر على مقاومة الرغبة الجارفة للشعب العراقي بانشاء حكومة وطنية يرأسها رئيس عربي . وقد استطاع برسي كوكس بعد وصوله انشاء حكومة وطنية موقتة برئاسة عبد الرحمن الكيلاني نقيب الاشراف الطالبين . ومنذ ذلك الوقت بدأ التفتيش عن شخص ذي مكانة يتولى عرش العراق بعد ان تقرر اقامة مثل هذا العرش ، يمكن لبريطانيا ان تحكم في ظله ، وكان هناك عدد من المرشحين ولكن الظروف ساقت للانكليز الملك فيصل الذي فقد عرشه في دمشق بعد استيلاء الفرنسيين على سوريا فوجدت فيه ضالتها المنشودة . وتمت الموافقة على ذلك في مؤ تمر القاهرة الذي عقد في

١٩ آذار عام ١٩٢١ وضم العتاة الانكليز الاستعماريين برئاسة تشرشل . وهكذا نودي بالملك فيصل ملكا على العراق بعد استفتاء شعبي في ٢٢ آب ١٩٢١ على ان تكون العراق ملكية دستورية ديمقراطية وبذلك دخلت في مرحلة جديدة .

استطاع الملك فيصل قبل استلام الحكم وعند المفاوضات بشأن استلامه عرش العراق ان يقنع الانكليز بابعاد كلمة الانتداب والوصاية وبعد استلامه الحكم اعلن عن نيته في تنظيم العلاقة مع الانكليز عن طريق توقيع اتفاقية بين العراق وبريطانيا وحدث خلاف كبير على بنود هذه المعاهدة فبريطانيا كانت ترى فيها فرصة لتشديد قبضتها على العراق عن طريق المؤسسات الدستورية والدستور نفسه وتربط العراق بشكل مستتر في عجلتها لحماية مصالحها الحيوية وبخاصة الاقتصادية التي اخذت تزداد مع ازدياد عدد آبار البترول في حين كان الوطنيون يرون فيها فرصة للتخلص من السيطرة البريطانية . وقد حاول فيصل التقرب من الوطنيين والاحزاب الجديدة التي ظهرت وعدم توقيع المعاهدة التي رتبتها بريطانيا الا انه اضطر بعد ذلك لتوقيعها بضغط من المقيم السياسي في ١٠ تشرين اول ١٩٢٢ وقد نصت الاتفاقية على احترام الاديان ومشاريع البعثات التبشيرية وحقوق الاجانب والمساواة في المعاهدة والحكومة و التعاون الدولي والدخول في عصبة الامم كما نصت على قبول استشارة البريطانيين في مختلف النواحي وقد استغلت بريطانيا الخلاف القائم بين العراق وتركيا حول الموصل لتجعل من الجمعية التأسيسية تصادق على الاتفاقية وقد عدلت الاتفاقية مرارا تحت الضغوط الشعبية ، وفي عام ١٩٢٨ جرت مشاورات بين فيصل والانكليز لاقناعهم بمساعدة العراق بالدخول في عصبة الامم وقد وعدت الحكومة البريطانية تحقيق ذلك في عام ١٩٣٢ وفي هذه الاثناء استطاعت بريطانيا الحصول على امتياز استثمار البترول ، وكان هذا هو الهدف الرئيسي من مسايرة العراقيين ، ولما تولى حزب العمال في بريطانيا اعلن عن نيته ادخال العراق في عصبة الامم واستعداده لتوقيع معاهدة جديدة مع العراق ومصر وقد نصت المعاهدة الجديدة على استخدام بريطانيا القواعد الجوية العراقية في حالة الحرب ، وهذا ما دعى الاحزاب الوطنية والشعب لمقاطعة المعاهدة والاحتجاج عليها ولكن ضغوط بريطانيا كانت قوية وادى ذلك لمصادقة البرلمان العراقي عليها في ١٦ تشرين من عام ١٩٣٢ وكان العراق قد دخل عصبة الامم في ٣ تشرين ثاني ١٩٣٢ .

بالرغم من دخول العراق عصبة الامم وكان اول دولة عربية تستغل وتنضم الى منظمة دولية ومن ثم تبعتهـا مصر الا ان هذا الاستقـلال كان مقيدا بالمعاهـدة الانكليزية التي تجعل من بريطانيا الحاكم الحقيقي للعراق بسبب وجود العدد الكبير من المستشارين بالاضافة الى ظهـور طبقـة من السياسيين ورجـال المال والاقطـاع ربطت مصالحها بوجود الانكليز . وكانت تتناوب حكم البلاد ، ولكن الشعب لم يكن راضيا وكانت مقاومته تشتـد فلـم تكن تمـر مناسبـة وطنية الا ويحـدث فيهـا اضطرابات تؤدي الى اصطدام بين الحكومة والشعب . وفي ٦ ايلول ١٩٣٣ توفي الملك فيصل في مدينة برن السويسرية فجأة وبظروف غامضة فخلفه ابنـه اليافـع غازي وكان ذا ميول وطنية معادية للانكليز وحدث خلاف كبـير بـين مستشـاريه والمستشارين الانكليز ، حول الحكم وقد اكتسب شعبية كبيرة بعد قضائه على ثورة الاشوريين عندما كان والده في الخارج وفي ٢٦ تشرين الاول ١٩٣٦ قام الفريق بكر صدقي رئيس اركان الجيش العراقي بانقلاب ضد حكومة ياسـين باشـا الهاشمـي الموالية للانكليز واستلم مكانه كرئيس للوزراء السيد حكمت سليمان وكان الفريق بكر صدقي قد اكتسب هو الاخر شعبية بسبب قضائه ايضا على ثورة الاشوريين وقد اغدق الملك عليه الرتب والاوسمة ، ولكن بكر صدقي قتل غيلة بعد فترة وذلك في ١١ آذب ١٩٣٦ عندما كان متجها الى تركيا لحضور المناورات الحربية وعاد اعوان الانكليز للحكم ، وفي ٤ نيسان ١٩٣٩ قتل الملك غازي هو الاخر في حادث سيارة واتهم الشعب العراقي الانكليز بقتله وتولى الحكم مكانه ابنه فيصل الثانـي وكان صغير السن لذلك عين الامير عبد الاله ابن الملك علي ملك الحجاز السابق وصيا على العـرش العراقـي واستلـم رئـاسة الـوزارة السياسي نوري السـعيد المعروف بولائه للانكليز وكانت يد الاستعمار البريطاني تزداد تحكما في العـراق كلما ازداد احتمال قيام حرب عالمية شاملة ثانية . في الوقت الذي كانت فيه شركة نفط العراق تزداد قوة وتأثيرا على مجرى الحياة في العراق وتنطلق الى آفاق اخرى في الخليج (كما رأينا في الباب السابق) وامتدت انابيب البترول الى حيفا في فلسطـين وطـرابلس وبانياس غي لبنان وسورية ، وبسبب تعدد جنسيات اصحاب الشركة بالرغم من السيطرة البريطانية عليها فقد اصبح الوضع في كل من العراق وسورية ولبنان يهم بالاضافة الى بريطانية وفرنسا امـريكا وهولنـدا وابتـدأ تورط امـريكا في اتجاهاتهـا الاستعمارية متتبعة آثار الانكليز والفرنسيين .

عمل الملك فيصل طوال فترة حكمه على تكريس جانب كبير من وقته لاقامة مجتمع مستقر ومندمج ومتحرر سياسيا ليكون نواة لتحقيق مطامعه وطموحه في قيادة العالم العربي وعلى الاخص دول المنطقة المجاورة اي دول منطقة الهلال الخصيب . وارسل مرارا نوري السعيد يعرض هذه الفكرة على رؤساء دول المنطقة سورية ولبنان والاردن ، ولكن الشعب العربي رفض الفكرة رغم نبلها لوجود اشخاص لم يكن يثق بهم كنوري السعيد وغيره في ذلك الوقت مما اساء اليها ونشر الشكوك والاقاويل حولها ، وساعد على الانطباع ، بان الفكرة هي الاخرى ليست الا مشروعا استعماريا تعمل له بريطانيا لغاية في نفسها وليس بقصد توحيد العرب ، والواقع ان بريطانيا لا يمكن ان تساعد في خلق قوة عربية تقف في وجه مخططاتها ولم تكن فرنسا لديها الاستعداد لقبولها ايضا لذلك اقترنت كلمة الهلال الخصيب بالاستعمار . فعندما طلب العراقيون تسليح جيشهم بالاسلحة الحديثة عارضت بريطانيا عن طريق مستشاريها في الجيش هذه الفكرة على اساس ان ما لدى الجيش العراقي من اسلحة كافية للدفاع عنه ولكن الحقيقة ان الانكليز كانوا يخافون من ازدياد قوة الجيش العراقي الذي اصبح كالنواة تتطلع اليها العناصر العربية الداعية للوحدة العربية وزاد تمنع الانكليز بعد تدهور الاوضاع في فلسطين اثر ازدياد النفوذ اليهودي وتطلعهم لخلق دولة اسرائيل التي ساهمت بريطانيا في خلقها مساهمة كاملة وفعالة ، وقد ظلت الاوضاع في العراق بين مد وجزر بين الحركة الوطنية والانكليز وتوابعهم ورفض الانكليز كل تطوير في المعاهدة العراقية - الانكليزية للتخلص من السيطرة البريطانية وظل ذلك حتى الحرب العالمية الثانية وفي ٨ تموز عام ١٩٣٨ تم توقيع ميثاق عدم اعتداء رسمي بميثاق سعد آباد بين ايران وباكستان وافغانستان والعراق وتركيا وقد وجه ليكون حلفا دفاعيا تتعاون فيه الدول المشتركة على صد العدوان على اراضيها بالاضافة الى عدم التدخل في الشؤون الداخلية . وقد اكدت البلاد المذكورة على اهمية الالتزامات والاتفاقيات الثنائية المعقودة بين هذه البلاد كما نص على التعاون الاقتصادي والاجتماعي وبالرغم من ان الميثاق المذكور لم يمارس اي دور ذي اهمية ، الا انه رسم معالم الطريق الى حلف بغداد بعد الحرب العالمية الثانية .

بعد التطورات التي حدثت في الحرب العالمية الثانية وبخاصة على مسرح عمليات الشرق الاوسط وعلى الجبهة الليبية طلبت بريطانيا من العراق تطبيق

المعاهدة العراقية ـ البريطانية والتي كانت بنودها تسمح لبريطانيا باستخدام وسائل النقل والطرقات في العراق وكذلك القواعد الجوية العراقية لصالح الطيران البريطاني ، ولكن الحكومة العراقية رفضت ذلك بالرغم من وجود نوري السعيد على رأس الوزارة العراقية وكان معروفا بصداقته للانكليز واعتقاده باهمية المعاهدة العراقية الانكليزية لضمان امن العراق وكان يسعى لاعلان الحرب على المانيا ، فقد نصح الوزراء نوري السعيد بعدم الارتباط ببريطانيا بعد ان اصبح انتصارها امرا مشكوك فيه بعد هزائمها الاولية في بداية الحرب، ومع ذلك ففي ٧ ايلول ١٩٣٩ اسرع نوري السعيد وقطع العلاقات مع المانيا وسلم الانكليز جميع الرعايا الالمان الموجودين في العراق، وحاول دخول الحرب في ٢٣شباط ١٩٤٠ وارسال قوات عراقية للقتال بجانب الانكليز عند الحاجة وللمرة الثانية رفضت الحكومة العراقية دخول الحرب مما ادى الى استقالة نورى السعيد واستلام السيد رشيد عالي الكيلاني لرئاسة الوزارةعلى ان يصبح نوري السعيد وزيرا للخارجية، الذي لم يوفق ايضا بقطع العلاقات مع ايطاليا . وخلال هذه الفترة ازداد الهياج الوطني ضد المطالب البريطانية وتحت تأثير دعاة الوحدة العربية بدأ الشعب العراقي يحضر نفسه للنضال ضد بريطانيا ، وحدثت اتصالات مع المانيا لمعرفة رأيها في الاماني القومي العربية ، فاذاعت هذه بيانا تعاطف مع امان يالامة العربية واستقلالها مما جعل السفير البريطاني في بغداد يطلب ابعاد رشيد عالي الكيلاني من رئاسة الوزارة وقد تسلم الوزارة مكانه الفريق طه باشا الهاشمي الذي حاول كسب الكتلة القومية والعقداء الاربعة الذين كانوا يسيطرون على الجيش الى جانبه ولكنه فشل وعلى العكس فقد ثار الجيش في الاول من شهر نيسان ١٩٤١ واحتل بغداد بقيادة العقداء الاربعة صلاح الصباغ ورفاقه ـ فاضطر الهاشمي للاستقالة وعين مكانه رشيد عالي الكيلاني و وقامت حكومة الدفاع الوطني واعلنت انها لن تورط البلاد في الدخول في الحرب واعلن رشيد عالي عن تعهده بالحفاظ على المعاهدة العراقية ـ الانكليزية ونظرا لهرب الوصي عبد الاله على العرش (عبد الاله) عين الشريف شرف وصيا على الملك الصغير فيصل الثاني ، وقد حاول رشيد عالي الحصول على موافقة بريطانيا على حكمه ، ولكن السفير البريطاني كان يتلكأ في تقديم اوراق اعتماده واخذ يساوم في موضوع نزول القوات البريطانية في العراق ، وقد وافقت الحكومة العراقية في ١٩ نيسان ١٩٤١ على مرور القوات البريطانية من البصره الى الشمال

ولكن بسرعة دون توقف وقد نزلت القوات البريطانية اثر ذلك في البصره يوم ٢٩ نيسان ١٩٤١ دون احتكاك مع القوات العراقية في منطقة البصره ولكن الاحتكاك حدث في مطار الحبانية القاعدة الجوية البريطانية التي كانت تحت السيطرة البريطانية وازاداد الاحتكاك بين الطرفين خلال شهري نيسان ومايس ١٩٤١ هرب خلالها جميع الزعماء الموالون لبريطانيا بما فيهم نوري السعيد وقد حاول الجيش العراقي محاصرة القاعدة في الحبانية ودخولها ولكنه لم يستطع وطلب المساعدة من المانيا . وقد حاولت هذه مساعدة العراق وارسلت طائراتها لقصف القوات البريطانية واستخدمت لهذه الغاية قواعد في جزيرة رودس وكذلك في سورية بعد السماح لها من قبل السلطات الفرنسية التابعة لحكومة فيشي . ولكن المساعدة الالمانية لم تكن كافية وفعالة لامداد الجيش العراقي الذي كان يحتاج لكل شيء فقد كان الالمان متورطين في مهاجمة الاتحاد السوفياتي وكانت الجبهة الشرقية تمتص كل مواردهم . كل ذلك ساعد القوات البريطانية التي قدمت من الاردن والهند عن طريق الخليج العربي من القضاء على المقاومة الباسلة التي اظهرها الجيش العراقي بالرغم من ضعف اسلحته خاصة الطيران الذي كبد القطعات العراقية المحاصرة للحبانية خسائر فادحة ، وقد لعب عملاء الانكليز الذين انتشروا في مختلف انحاء العراق دورا كبيرا في ضرب الروح المعنوية . وقد دامت هذه الحرب الصغيرة مدة ثلاثين يوما ، ففى نهاية شهر مايس استسلم الجيش العراقي اوبالاحرى توقف عن القتال بسبب النقص في الذخيرة والعتاد اللازم لادامة المعركة ، وقد عاد للبلاد الوصي على العرش عبد الاله ومعه نوري السعيد واعوانهما بعد استتباب الامن وسيطرة الجيش البريطاني على البلاد ، وعلى اثر ذلك اعلن العراق الحرب على المانيا ووضع كل امكانياته وبلاده تحت تصرف الحلفاء في الوقت الذي ابتدأ فيه الضغط الشديد على الحركة الوطنية فاعدم كثيرا من قادتها وهرب قسم آخر الى المانيا . وكانت الخطيئة الكبيرة هي السماح لبريطانيا بانزال قواتها في البصره وارسالهم الى الحبانية للدفاع عنها . كما كانت الخطيئة الثانية هي عدم دراسه الامكانيات التي كانت لدى الثورة والتي لم تكن كافية للانتصار على بريطانيا خاصة ان الموقع الجغرافي للطرق كمسرح خلفي لتجميع الجيوش وتدريبها وتوجيهها نحو الجبهة الليبية حساس جدا بالنسبة لبريطانيا والتي عادت لها امالها في النصر بعد دخول الاتحاد السوفياتي في الحرب . وقد ظل الوضع في العراق متوترا طيلة الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية حتى قيام

الثورة العراقية في الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ والتي انطوت فيها صفحة الاستعمار البريطاني في العراق الى الابد .

كانت الجزيرة العربية هي الاخرى هدفا من الاهداف الرئيسية التي كانت بريطانيا تعمل لوضعها تحت النفوذ البريطاني واستغلالها للحرب ضد الاتراك بعد اندلاع نار الحرب العالمية الاولى يضاف الى ذلك انها وجدت في الحرب الفرصة لابعاد كل تأثير لامرائها وبخاصة السعوديون الذي كانوا يحملون لواء الوهابية عن ساحل الخليج ومشيخاته . وكان الوضع في العراق يختلف عن الوضع في الجزيرة العربية فالعراق كان بلدا محتلا من قبل الاتراك الذين مارسوا حكمهم طيلة مئات السنين ولم تكن البلاد تنضم باي نوع من الاستقلال فكانت تعتبر قطعةمن الدولة العثمانية في حين كانت الجزيرة العربية مستقلة ولم يستطع الاتراك احتلالها بشكل مباشر رغم محاولاتهم المتكررة وان كانوا يدعون السيطرة عليها وممارستهم لعلاقاتها الخارجية . لقد استطاعوا في بعض الاوقات ممارسة نوع من النفوذ على مناطق الاحساء وعلى شبه جزيرة قطر وكذلك الكويت الا ان نجد كانت بعيدة عن الخضوع للاتراك حتى في ايام احتلال ال الرشيد للرياض . لذلك كان لامراء نجد خبرة قديمة في الحكم ولديهم الشعور بالاستقلال عن اي طرف ، لذلك بقدر ما هو سهل النفوذ الى داخلها عن طريق الامراء وبرضاهم بقدر ما هو صعب عن طريق الشعوب التي كانت تكن للاجانب عامة الكراهية ، لذلك وجهت بريطانيا اهتمامها للأمراء فقبل الحرب كانت تعمل للتأكد من عدم تهديدهم لمناطق نفوذها اما في الحرب (العالمية الاولى) فقد وجهت اهتمامها للتعاون معهم وليكونوا عونا لها على الحرب ضد الاتراك كما هي عادة بريطانيا في مثل هذه الحالات حيث تجمع كافة العناصر التي يمكن الاستفادة منها لخدمة قضيتها مما يساعد بسرعة على تدمير خصمها وتخفيف اكثر مايمكن من الخسائر في صفوف جيوشها . وكان دخولها في المعمعة يأتي في الوقت المناسب لتمسك بالدفة وتخطف النصر من حلفائها وتحوله لمصلحتها ولهذا استطاعت تجميع الخصمين آل سعود والشرفاء وتوجيههم لحرب الاتراك .

ورغم كل التضحيات العربية لم يستفد العرب منها وعلى العكس فقد وجدوا انفسهم في براثن الاستعمار البريطاني فجأة وفرضت عليهم بريطانيا ارادتها وقد استغلت ما كان بين العرب والاتراك من خلاف من جهة والطموحات الاستقلالية التي كان يسعى اليها هؤلاء .

كانت المنطقة العربية التي تحتلها حالياً المملكة العربية السعودية وتضم القسم الاكبر من الجزيرة نجد والاحساء والحجاز وعسير وغيرها ، موزعة الولاء بين عبد العزيز آل سعود حيث كان يحكم في نجد والاحساء وفي الحجاز كان الشرفاء من آل عوند ، وفي الشمال من نجد كانت قبائل شمر قد اقامت لها دولة عازلت تحت زعامة آل الرشيد في حايل، وفي عسير كان يحكم الادريسي . وقد تعاون ثلاثة منهم مع الانكليز الا آل الرشيد فكانوا يعتمدون على حلفائهم الاتراك . وكان عبد العزيز آل سعود اقوى هؤلاء الزعماء واكثر استقلالية وبخاصة بعد تأسيسه حركة الاخوان الوهابيين وعملية توطينهم التي ابدتأت عام ١٩١٢ ومع ذلك فكان هو الوحيد الذي يقع في الواقع تحت الحماية البريطانية منذ معاهدة عام ١٩١٥ بينه وبين بريطانيا اما الشرفاء والادريسي فبالرغم من تعاونهم مع بريطانيا خلال الحرب الا انهم لم يكونوا تحت الحماية البريطانية بل كانوا تحت الحماية التركية وتخلصوا منها عن طريق المساعدات البريطانية والتعاون مع بريطانيا في حربها ضد الاتراك والذي يهمنا هو الملك عبد العزيز آل سعود وجماعته نظرا لقربهم من الخليج العربي موضوع هذا الكتاب . ولم يكن في ذلك الوقت يحمل لقب ملك بل كان يطلق عليه امير وكان بالنسبة لجماعة الاخوان الوهابين امام ثم بعد استقلال نجد واحتلال الحجاز اطلق عليه سلطان نجد وملك الحجاز وملحقاتها .

فعندما بدأت الثورة العربية في حزيران ١٩١٦ تخوف الملك عبد العزيز من طموحات الملك حسين الذي كان يعمل لتوحيد العرب تحت زعامته بمساعدة بريطانية بناء على نصيحة لورنس ، في حين كان المسؤولون البريطانيون في الهند يعتقدون وبخاصة برسي كوكس ومساعدة فيلبي باهمية ابن سعود ومن المعلوم ان برسي كوكس كان اكبر شخصية بريطانية ذات نفوذ في المنطقة وتقلب في مناصب عدة في الخليج والعراق وطهران . . الخ وفي المؤتمرات الاستعمارية التي كانت تعقد كانوا يوجهون الانظار لابن سعود واهميته والمساعدة القيمة التي يمكن ان يقدمها لقضية الحلفاء . وكانت علاقات ابن سعود غير جيدة مع الملك حسين ومع شيخ الكويت بالاضافة الى آل الرشيد في شمر وقد دعا ذلك عبد العزيز ليطلب مقابلة برسي كوكس بحجة طلب المعونة من الانكليز لمحاربة ابن الرشيد ولكنه كان يريد معرفة موقف بريطانيا وتدابيرها ازاء الشريف حسين الذي كان قد اعلن عن نفسه ملكا للعرب في تشرين الاول ١٩١٦ ولم يعترف بذلك ابن سعود . وقد اكد كوكس

لعبد العزيز اثناء اجتماعه به في ميناء العقير على ان استقلاله غير مهدد ودعاه لزيارة البصره ، وتم الاتفاق بين الطرفين على اجراء راتب شهري قدره خمسة آلاف جنيه استرليني وكمية من السلاح لمواصلة الحرب ضد الاتراك وآل الرشيد وقطع دابر التهريب الذي نشط بين الخليج من ناحية وبين حائل ودمشق من ناحية اخرى . وقد اعاد كوكس الاتصال بالسعوديين عندما هزم الجيش البريطاني في كوت العمارة حيث وصل الرياض (جون فيلبي) مع بعض العسكريين والمدنيين وتم اللقاء مع عبد العزيز في عام ١٩١٧ ومنذ ذلك الوقت كانت هناك صداقة حميمة بين جون فيلبي وعبد العزيز السعود دامت حتى موت الاخير . وقد عرض فيلبي والوفد المرافق له على ابن سعود الامور التالية :

١ ـ مساعدة بريطانيا لعبد العزيز لمحاربة الاتراك .

٢ ـ العمل على تحسين العلاقات بينه وبين شيخ الكويت وشيخ عجمان الذي عاون آل الرشيد على ابن سعود في صدامه الأخير معهم .

٣ ـ وضع حد للعداء بينه وبين الشريف حسين .

وقد قبل ابن سعود ووافق على البندين الاولين ولكنه رفض الثالث فالخلاف اشتد بين الطرفين على واحة الخرمة وقد رفض الملك حسين ان يعترف بحق ابن سعود فيها عندما استنجد اهلها بعبد العزيز بعد بعد ان غزت قوات تابعة للملك حسين الواحة . وكانت بريطانيا تعمل لتوجيه جهود الطرفين ضد الاتراك وعن طريق الربط بين مساعي السلطات البريطانية في القاهرة التي تتصل بالحسين وبين مساعي السلطات البريطانية في الهند والعراق المتصلة بمشاكل الخليج وامرائه ومكانه .

ولكن الامور على العكس تطورت بين عبد العزيز آل سعود والشريف حسين حيث استطاع ابن سعود توجيه ضربة كبيرة في مايس عام ١٩١٩ لقوات الحسين التي كان يقودها الامير عبد الله ، وتم احتلال (تربه) الواقعة على حدود الحجاز الشرقية ، ورغم تدخل الانكليز وانذارهم ابن سعود باخلاء البلدة واعادتها للحسين الا ان عبد العزيز رفض الانذار ويمكن القول ان هذا الرفض اول رفض عربي للسلطة البريطانية التي كان نفوذها يمتد من الخليج الى القاهرة ، وبدأت العلاقات تفتر ما بين عبد العزيز والانكليز في القاهرة . كما اثار المخاوف لدى الانكليز الذين كانوا يعانون المشاكل في العراق خلال ثورة ١٩٢٠ لذلك وصل برسي

كوكس وقابل ابن سعود في (العقير) لتهدئة الاحوال . ولكن الاجتماع لم تكن له فائدة تذكر ولم يخبر كوكس عبد العزيز بنية بلاده اختيار الملك فيصل الاول كملك للعراق ولكن الامور كانت واضحة على ما يبدو لعبد العزيز بسبب الاشاعات حول استلام الملك فيصل عرش العراق . فقد وجد نفسه محاطا من كل طرف بالاعداء شمر في الشمال ، والحسين في الحجاز ، وهذا فيصل سيكون سيد العراق ، لذلك قرر العمل معتمدا على نفسه وقوته وبسرعة قبل ان تتمكن الأطراف الثلاثة من الاتفاق عليه ، وبدون النظر الى ردود الفعل البريطانية باتجاه ما سيقوم به .

وبعد تسميته من قبل (الاخوان) سلطانا على نجد وملحقاتها ، ابتدأ عبد العزيز بتصفية الرشيد الذين كانوا بحالة من الضعف الشديد فهزيمة الاتراك تركتهم لوحدهم بدون مساعدة بالاضافة الى الخلافات الداخلية حول وراثة الامارة، لذلك كانوا أضعف الجبهات التي امام عبد العزيز لذلك اغتنم ابن سعود فرصة عودة الخلافات بين امراء الاسرة الحاكمة في حايل وهاجم بلادهم وبعد سلسلة من المعارك احتل العاصمة عام ١٩٢١ بعد حصار طويل وازال الاسرة الحاكمة عن طريق المصاهرة بين العائلتين وذابت اسرة آل الرشيد باسره السعود . وبزوال امارة حائل التي ظلت قرابة واحد وتسعين عاما وفق ابن السعود لتوسيع سلطته في اتجاه الشمال واحتل كل نجد واصبحت حدوده تصل الى العراق وسوريا وشرق الاردن ، التي اندفع الاخوان نحوها تدفعهم عزيمة النصر وكادت ان تسقط امارة عبد الله في الاردن بايديهم لولا تدخل القوات الجوية البريطانية الموجودة في الاردن وتصديها لهم مما اضطرهم للتراجع ، ولم يتقدم ابن سعود باتجاه العراق ، ويبدو انه كان يقدر ما للعراق من اهمية لبريطانيا وانه لا بد ان يصطدم معها اذا تقدم نحوها لذلك جرت بين الطرفين اتصالات ادت الى تسوية الحدود بين نجد والعراق وفي معاهدة المحمرة التي عقدت في مايس ١٩٢٢ وعدلت في بروتوكول العقير بضغط من البريطانيين الذين كان يهمهم الحفاظ على سلامة خطوط مواصلاتهم عبر بلاد الهلال الخصيب للوصول الى البحر ، كما سويت الامور مع الكويت بتسوية الحدود بين البلدين وقد نتج عن ذلك خلق حالة من الاستقرار بين ابن سعود وجيرانه الشرقيين ، وتم انشاء منطقتين محايدتين وثبتت هوية بعض القبائل وتم

الحاق قريات الملح ووادي السرحان بنجد كما حصل من انكلترا على الاعتراف به سلطانا على نجد وملحقاتها .

بعد ذلك التفت عبد العزيز الى الحجاز بعد تأييد الاخوان له في مشروعه لاحتلال الحجاز في المؤتمر الذي عقد في تموز عام ١٩٢٤ في الرياض ، وبعد سلسلة من المعارك استطاع عبد العزيز احتلال الحجاز بعد ان غادرها اخر الهاشميين الملك علي الذي خلف والده الى الخارج عن طريق عدن وقد سقطت جده في ٢٣ كانون اول عام ١٩٢٥ . وكانت بريطانيا كعادتها تنتظر نتيجة هذه الحرب لتعترف بالغالب . وكان من الطبيعي ان يكون ابن سعود نظرا لقوته العسكرية بعد ان تخلت عن الحسين وابنه علي بسبب عناد الاول ووقوفه ضد اهدافها في خلق الوطن القومي اليهودي وعندما طلب المساعدة ابلغته بعدم امكانية تدخلها في حرب ذات صفة دينية ولم يحرك ولدا الملك حسين عبد الله وفيصل ساكنا لنجدة والدهم ولا شك ان بريطانيا كانت وراء ذلك .

حاولت بريطانيا ان تتقرب من ابن سعود وتأخذ ثمن وقوفها على الحياد وتفرض بعض الشروط عليه للاعتراف به كملك على الحجاز ونجد ، ولكن عبد العزيز الذي كان في قمة انتصاره رفض ذلك وبعد مفاوضات تمهيدية عام ١٩٢٧ في وادي العقيق قرب المدينة اضطرت لتوقيع معاهدة جدة في ٢٠ مايس ١٩٢٧ واعترفت باستقلال عبد العزيز استقلالا كاملا وقد شملت نصوص المعاهدة تعهد الملك السعودي بتسهيل الحج لرعايا بريطانيا المسلمين من الهنود وعلى احترام كافة المعاهدات والاتفاقيات المعقودة مع امارات ومشيخات الخليج لان بريطانيا كانت تخشى من تفكير عبد العزيز يوما ما باحتلال هذه الامارة لذلك وضعت حمايتها في صلب الاتفاقية كما نصت المعاهدة على التعاون مع بريطانيا من اجل مكافحة تجارة الرقيق وقداحتفظت المملكة السعودية بحق مطالبتها بالعقبة ومعان باعتبارهما بلادا تابعة للحجاز اصلا وهكذا تخلص عبد العزيز بقوته الذاتية من سيطرة بريطانيا واقامة دولته الموحدة بعد احتلاله لعسير واقامة الصلح مع اليمن بعد حروب دامية بين الطرفين .

اما في عمان فبريطانيا عند اندلاع الحرب لم تعد تخشى المنافسة الاوروبية لها في تلك البلاد العريقة التي تشكل وحدة مميزة عن غيرها لوجود المذهب الاباضي فيها وبخاصة بعد تقسيم امبراطورية البوسعيد الى دولتين احداهما افريقية وهي دولة

زنجبار والثانية آسيوية وهي دولة عمان (او مسقط) بناء على نصيحة هاردنغ نائب الملك في الهند عندما اصطدم ورثة سعيد بن سلطان فيما بينهم في نهاية القرن التاسع عشر وقد وقعتا كلتيهما فيما بعد تحت النفوذ البريطاني ، ولكن خوف بريطانيا في الواقع كان يأتي من الداخل اي من الوهابيين بعد عودتهم الى قوتهم على يد عباالعزيز آل سعوذ . وقد جرب هؤلاء مرارا احتلال عمان وضمها الى دولتهم الاولى التي قضى عليها المصريون . وقد نجحوا في بعض المرات اجبار سلاطين مسقط على دفع الجزية . وكان عبد العزيز قد احتل الاحساء واصبح قريبا من عمان وساحل عمان (ساح الصلح البحري) وكانت بريطانيا وتركيا تجريان مباحثات ثنائية لتحديد الحدود بين النفوذ البريطاني والممتلكات التركية عام ١٩١٣ والتي جعلت من ابن سعود حاكما (قومندان) على الاحساء تحت الحماية التركية ويذكر كتاب (عمان والساحل الجنوبي للخليج) ان عبد العزيز كان قد اصدر بيانا في تشرين اول ١٩١٣ في جريدة الدستور الصادرة الى البصره جاء فيه :

«ان الدولة العلية حفظها الله (يقصد الدولة العثمانية) غصبت آبائي هذا اللواء بدون مشروع بحجة دعوة عبد الله آل سعود شقيق والدي ، ومن بعد ان اخذته لم تحسن اليهم صنعا ، وكان والدي يومئذ وليا للعهد بعد والده على امارة نجد التي يدخل فيها اللواء . وما يتبعه وعمان وسواحله ، ولما اشتد الخصام بين سعود وعبد الله آل سعود على الامارة ارسل الاخير مندوبا الى بغداد لمفاوضة واليها في مسألته مع اشقائه وبغي ينتظر من الدولة اسعافه ونجدته لاخماد نار الفتنة المتأججة غير ان الدولة وجدت ان قد آن زمن الاحتلال فوضعت يدها من ذلك الوقت على الأحساء ابعدت امراءها عنها مع انه لم يبدر منهم بادرةتستوجب ماأتته ، وليت الدولةاحتلت ما يداني الأحساء من البلاد كعمان وغيرها التي تركتها هملا ومكنت الدول الاجنبية من ان تقذف فيها نار الفتن لتحصل على ما تنوبه .وتابع البيان . . ثم جاءتني محاضر (مضابط) فيها تواقيع كثير من العلماء والوجوه قائلين ان لم تسعفنا نضطر الى مالا تحمد عقباه . وفي تلك المطاوي سمعت ان الدولة تنازلت عن حقوقها في خليج فارس وسواحله فاستندت حينئذ على ما لي من الحقوق الشرعية في هذا القطر بمنزل اساس فبادرت الى تلبية طلب الاهالي ليكونوا في حرز حريز من فتك ارباب الفساد فيهم وابعاد الاجانب عن ديارهم » وكان عبد العزيز آل سعود يقسم جنده الى اربعة فيالق هي جند عمان وجند الحسا ، وجند القصيم وجند

الرياض وحسب قول الرحالة اليوس موسل الذي طاف بشمال الجزيرة العربية في خلال تلك الفترة اي حوالي عام ١٩١٦ ان عبد العزيز في اواخر عام ١٩١٣ قسم دولته الى اربعة مقاطعات وهي عمان ، الحسا ، القصيم والرياض وهناك امثلة كثيرة على ان عمان لم تكن غائبة عن تفكير عبد العزيز آل سعود في تلك الفترة ولكن الاحداث التي وقعت كاندلاع نيران الحرب العالمية الاولى ومشاكله مع ال الرشيد والشرفاء ومشاكه الداخلية ابعدته لفترة طويلة من تهديد عمان حتى الحرب العالمية الثانية عندما ظهرت مشكلة البريمي والتي سنتطرف اليها فيما بعد . والمهم ان بريطانيا خلال فترة الحرب وما بعدها لم يكن يهمها سوى استقرار الاوضاع في عمان ، والتي كانت مسرحا لحروب اهلية دامية لاعادة الامامة الاباضية فالعمانيون على العموم لا يقرون الحكم الوراثي الذي يتبعه حكام مسقط من البوسعيد لان الحكم في الفقه الاباضي يجب ان يتم عن طريق الانتخاب . لذلك لم يفتر تطلعهم لاعادة الامامة التي لا تصح الصلاة بدونها منذ سقوط امامة عزان بن قيس عام ١٨٧١ تحت اسوار مدينة مطرح وتمت محاولات كثيرة لم يكتب لها النجاح وظل مركز الامامة خاليا فترة طويلة حتى بداية القرن العشرين حيث عاد التفكير لاعادتها يراود اذهان الغلاة الاباضيين. وفي اجتماع عقد في مدينة تنوف الواقعة في سفح الجبل الاخضر ثم انتخاب سالم بن راشد الخروضي اماما لعمان عام ١٩١٣ وكانت اهم الاسباب التي ادت الى ظهور الامامة هو الاتفاق الذي تم بين الفئتين الكبريتين اللتين تقسمان الشعب العماني وهما الغافرية والهناوية بالاضافة الى الاضرار التي لحقت بعمان الداخلية من جراء التدابير التي اتخذتها حكومة السلطان عام ١٩١٢ بتشجيع من الحكومة البريطانية لمنع حركة تهريب الاسلحة والذخيرة التي كافأته عليها مكافأة سخية . وقد استطاعت قوات الامامة السيطرة على عمان الداخلية وعندما اندفعت نحو مسقط ارسل الانكليز جنودهم لحمايتها وانذروا الامام بعدم التقرب من المنطقة . وخلال ذلك توفي السلطان فيصل بن تركي في تشرين اول ١٩١٣ وقد حاول ابنه وخليفته تيمور بن فيصل ان يصل الى تسوية مع الامامة ولكنه فشل رغم الوساطات التي جرت بين الطرفين عن طريق حكام ومشايخ امارات الساحل بايعاز من الانكليز الذين كانوا مشغولين في ذلك الوقت بالحرب العالمية . وكان هذا ايضا سببا في رفض الامامة الوساطة بينهم وبين السلطان وعلى العكس فقد زادهم ذلك جرأة واندفعوا نحو مسقط ومطرح فاصطدموا بالقوات

الهندية البريطانية التي كان يدعمها الاسطول من البحر واجبروا على التراجع . وقد قصف الأسطول ايضا بعض المدن الساحلية الخاضعة للامامة ، ولم تنقطع المناوشات بين الطرفين عندما حاول السلطان استعادة ما فقده وتحريض القبائل على الامامة دون جدوى . وكانت بريطانيا تخشى من تطور الوضع وتدخل عناصر اجنبية وقد رأينا في فصل سابق كيف حاول عملاء المانيا وتركيا الاستفادة من الموقف المتردي لذلك نصح هاردنغ نائب الملك في شباط عام ١٩١٥ السلطان بالاتفاق مع الامام سالم الخروجي لان بريطانيا كانت في وضع لا يمكنها مساعدة السلطان . وجرت اتصالات بين الطرفين طيلة عام ١٩١٥ دون جدوى فالامامة ترفض الاجراءات التي قام بها السلطان من قمع لتجارة الرقيق وتجارة الاسلحة وان السلطان فاشل في تطبيق شريعة الاسلام ويسمح باستيراد الخمور والتبغ واعلن هؤلاء عن معارضتهم لوجود الجنود الانكليز في مسقط ورفضهم لادعاءات الانكليز بسيطرتهم على البحر الذي يجب ان يكون مشاعا للجميع . وقد فشل الاجتماع الذي عقد بين عيسى بن صالح احد الزعماء الكبار المؤيدين للامامة والوكيل السياسي البريطاني في مسقط بتاريخ تشرين اول ١٩١٥ في بلده السيب وكاد الاجتماع ان ينجح ولكن حدث خلاف بين الطرفين عندما رفض «العمانيون» طلب الوكيل السياسي اخلاء مدينة (سمايل) التي تعتبر مفتاح الطريق ما بين الداخل والبحر وانفض الاجتماع دون نتيجة ، وفي هذه الاثناء كان الامام الخروجي يقضي على كافة المعارضين له من رؤساء القبائل ويهيمن على كل جبال ومناطق عمان .

كانت بريطانيا في الواقع تراوغ منتظرة نهاية الحرب لحل القضية العمانية لصالح السلطان الذي يعتبر عماد سلطتها في المنطقة منذ القدم هو وعائلته من البوسعيد وفي الرابع من شهر آذار عام ١٩١٩ ارسل الميجر لانيل هورت القنصل البريطاني في مسقط كتابا الى نائب الامام في (سمايل) للاجتماع به لتحسين العلاقات بين السلطان والامام وانذره بعاقبة الامور اذا لم يقبل « وبخاصة ان بريطانيا التي انهت حرب العراق لصالحها لديها جنود لا عمل لهم الان في العراق وانهم مستعدون للحضور الى عمان واحتلالها » كما هدده بقطع المؤن والارزاق التي تصلهم من الهند وكذلك الحبوب والاقمشة على اساس ان البحر بيد الانكليز بالاضافة الى التهديدات الاخرى ، ومع ذلك فقد رفض الامام التهديد البريطاني وظل على موقفه من التصميم على القضاء على السلطة عميلة الاجانب والانكليز .

وفي عام ١٩٢٠ لقي الامام الخروصي مصرعه على يد رجل من قبيلة آل وهيبه . وخوفا من الفرقة تم انتخاب امام جديد بسرعة وهو الامام محمد بن عبد الله الخليلي (١٩٢٠ - ١٩٥٤) بالرغم من رفضه الامامه ولكنه هدد بالقتل لخروجه عن رأي الجماعة . وكان كبير السن ويشكو ضعفا في عينيه ، ولكنه كان راجح العقل ذكي الفؤاد . وبعد فترة وصلت الى عمان الداخل رسائل القنصل البريطاني وينجنت المقيم في مسقط ، يقترح فيها ايقاف القتال والدخول في مفاوضات جديدة لعقد معاهدة جديدة يتم التوقيع عليها في بلدة السيب وقد تحقق ذلك في ٢٥ ايلول ١٩٢٠ وقد نظمت المعاهدة (او الاتفاقية) العلاقات التجارية بين داخل عمان ومسقط بالاضافة الى اتفاقية تسليم المجرمين الى غير ذلك من الامور التي تتعلق بالنواحي العامة ، ولكنها لم تلتفت الى تحديد حدود مابين السلطنة في مسقط والامامة في عمان الداخلية ، ولكنها اعترفت في الواقع باستقلال الامامة في عمان الداخل في عاصمتها (نزوى) ، وظلت هذه المعاهدة سارية المفعول حتى عام ١٩٥٥ ، و عندما بدأ الانكليز يقومون بالتنقيب عن البترول في داخل عمان ومعارضة الامامة لهم وادى الى هجوم قوات السلطان بمعونة القوات البريطانية على عمان الداخل واحتلالهم لها في نفس العام وما تلاه من قيام الثورة العمانية وظهر ما يعرف فيما بعد بالقضية العمانية .

اما في ايران الجار الكبير غير العربي للخليج فقد شهدت بعد الحرب تطورا جذريا في مختلف نواحي الحياة السياسية والاجتماعية واستطاعت الخلاص من النفوذين البريطاني والروسي بعد ان مرت في ظروف صعبة خلال الحرب وما بعده حتى استلام الشاه الجديد رضا شاه بهلوي من خلافات داخلية كادت ان تقضي على وحدتها . وقد رأينا انها في خلال الحرب كانت مسرح العمليات حربية بالرغم من حيادها وادى الى احتلال الجزء الاكبر من بلادها ، وقد استطاع الروس بالرغم من اتفاقية عام ١٩٠٧ بينهم وبين الانكليز لان يهيمنوا على الحياة الايرانية الى حد القضاء على الحياة الدستورية واحتلال جزء من ايران ، وقد سببت الحياة الدستورية غير المستقرة في ايران الى زيادة الفوضى فبعد انتخاب المجلس الوطني في ١٨ ايلول ١٩٠٦ واعلان الدستور في ٣٠ كانون الاول من نفس العام اصاب الحركة الدستورية الفشل بسبب عدم ملاءمتها للعقلية الايرانية في ظل عائلة حاكمة متفككة ونفوذ اجنبي مزدوج حتى المجلس الوطني الجديد عام ١٩٠٩ ولكن الثورة

الدستورية هذه وزيادة حدة المشاعر القومية ادت الى تغيير اتجاه هدف السياسة الخارجية وحسبتها في قالب وطني على اساس ان المجلس الوطني اصبح لاول مرة في تاريخ ايران المعبر والناطق بلسان الشعب . وقد ادت السياسة الحيادية التي انتهجتها ايران خلال الحرب الى جعلها ساحة قتال لانها تتصف باللاواقعية فبريطانيا وروسيا لم تأتمنا ايران على حيادها خوفا من تدخل اجنبي او حركة داخلية عارمة تسبب للطرفين مشاكل هم في غنى عنها وبخاصة بريطانيا وقد ادى ذلك الى احتلال اجزاء كبيرة من اراضيها .

وقد خرجت ايران من الحرب مضعضعة الاركان مع اقتصاد منهار ولكنها بدأت تشهد تغييرات جذرية في سياستها الخارجية بسبب عوامل كثيرة كان اهمها ظهور الثورة البلشفية في روسيا التي اهت الصداقة البريطانية الروسية واعادت المنافسة التقليدين بين البلدين ورغم ان الثورة البلشفية على لسان لينين اعلنت عن الغائها وتخليها عن مطامعها الاقليمية في ايران كما رأينا الا انها ادخلت اليها المنافسة العقائدية مما زاد في انقساماتها .

وقد استغلت بريطانيا انسحاب روسيا من الحرب لتحتل جميع الاراضي المتروكة ، وقد وجدت بريطانيا فرصتها المناسبة لوضع يدها على ايران وادخالها تحت حمايتها على غرار ما هو موجود في المناطق العربية . وقد استطاع السفير البريطاني برسي كوكس المعروف بدهائه وخبرته ان يفرض على الحكومة الايرانية المستشارين الانكليز وكانوا في الواقع بداية التسلط البريطاني . الا ان ظهور الشعور القومي الايراني ازداد بسرعة بعد ظهور رضا بهلوي الذي تنقل في سلم الحكم من ضابط صغير الى رئيس الوزراء واستطاع ان يعيد للحكومة المركزية هيبتها في مختلف مناطق ايران كما وقضى على جمهورية جيلان الأنفصالية وأبعد النفوذ البريطاني والغى الامتيازات وقضى على ثورات القبائل بعد نضال طويل . وقد استغل التناقضات البريطانية في العلاقات ما بينها وبين مشيخة المحمرة - وكانت عربستان (خوزستان الاهلة بالاكثرية العربية ذات استقلال تضمنه بريطانيا لوقوع البترول في إراضيها . وكانت هناك اتفاقية خاصة بين الطرفين الا ان الشاه الجديد لم يعترف باستقلال عربستان العربية وقضى على امارة المحمرة العربية بعد استسلام شيخها الشيخ خزعل بعد ان تخلت بريطانيا عن مساعدته رغم الاتفاقية التي كانت بينها بعد ان اطمأنت على ثروتها البترولية واخيرا قضى على

العائلة المالكة القاجارية واصبح شاها على ايران بعد تصويت الجمعية الوطنية على ذلك في ١٥ كانون الاول عام ١٩٢٥ وكان لاستتاب الامن والنظام الداخلي اثرهما الفعال على قدرة رضا شاه على تحقيق اهم اهداف سياسته الخارجية وهو التحرر الاقتصادي والسياسي وقد ساعدته الظروف الدولية ايضا بعد عودة المنافسة الدولية بين روسيا وبريطانيا اي بين الشيوعية والرأسمالية فاستغلته لمصلحته القومية وتحقيق اهداف سياسة الخارجية باسلوب جديد كان واضحا في صراعه مع الاتحاد السوفياتي ومنازعاته مع بريطانيا ومحاولاته استغلال المانيا الهتلرية كعنصر ثالث واستطاع عقد اتفاقيات متكافئة مع الطرفين . ولاول مرة في التاريخ الفارسي ومنذ عهد الصفويين تتوحد ايران وتخضع الى حكومة مركزية واحدة قوية وظل الوضع على هذا الشكل حتى الحرب العالمية الثانية .

الفصل الرابع

المنافسة الدولية في الخليج وما حوله في فترة مابين الحربين العالميتين الاولى والثانية

بريطانيا الرابح الاول في الحرب العالمية الاولى ـ اتساع الامبراطورية البريطانية فرنسا تسير في ركاب بريطانيا في المنطقة ـ الثورة الشيوعية وانسحاب روسيا من الحرب . ظهور جمهورية شيوعية في ايران ـ الصدام بين السوفيات وكل من فرنسا وبريطانيا ـ محاولات الاتحاد السوفيابي التقرب من العرب ـ التغيير في سياسة الاتحاد السوفباتي بعد استلام ستالين ـ العلاقات بين السوفيات وايران ـ الاخطار النازية في اوربا ومحاولات التقارب بين الحلفاء والسوفييت ـ بوادر الحرب العالمية الثانية ـ معاهدة عدم الاعتداء بين الروس ـ النشاط الالماني في منطقة الخليج ـ امريكا والعرب .

الفصل الرابع

المنافسة الدوليـــة في الخليـــج وما حوله في فترة ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية

تعتبر بريطانيا الرابح الاكبر في الحرب العالمية الاولى من بين الحلفاء الذين وقفوا ضد المانيا القيصرية رغم خسائرها الفادحة . والنصر عادة يغطي الخسائر مهما كان حجمها . وقد اضافت بريطانيا الى امبراطوريتها الواسعة التي كانت في ذلك الوقت لا تغيب الشمس عن اراضيها ، جميع ما كان لدى الالمان ان لم نقل اكثرها من مستعمرات في افريقيـا ومختلف انحاء العالم ، بينما حصل حلفاؤ ها على قسم صغير من هذه الغنائم كما حصلت على الحصة الالمانية في البترول العراقي . . الخ اما مع الدولة العثمانية التي انتهى دورها في تلك المنطقة الى الابـد فقـد حصلـت على العراق وعلى خيراته الواسعة واحتلت فلسطين وشرق الاردن ووعدت اليهـود بوطن قومي لهم في فلسطين واعلنت حمايتها على مصر التي كانت محتلة من قبلها منذ عام ١٨٨٢ م باسم السلطان العثماني بعد اخماد ثورة عرابي باشا . وقد استتب لها الامر في الخليج ولم يعد لها اي منافس . ولم يعد يقلقهـا في تلك المنطقـة سوى خشونـة ومتطلـب الشركات الامـريكية للحصول على نصيب من ثروات المنطقـة المرتقبة وقد رضيت فرنسا بحصة ٢٣,٥٪ من بتـرول العـراق واحتلالهـا لسورية ولبنان ولكنها تنازلت عن مطالبها في ضم ولاية الموصل . ومنذ عام ١٩٠٤ اتفقت مع بريطانيا على انهاء المشاكل القائمة بينهما ولذلك الغت بعد الحرب قنصليتها في مسقط عام ١٩٢٠ .

اما الروسيا فقد انهت بريطانيا معها المشاكل منذ عام ١٩٠٧ عندما تم الاتفاق على تقسيم مناطق النفوذ . وتعاون الطرفان على قتال الدولة العثمانية وكانت ايران مسرح صدام بين الجيوش التركية والروسية . الا ان الاوضاع بدأت تتغير بعد قيام الثورة الشيوعية في روسيا واستلام الشيوعيـين الحكـم في ١٧ تشرين اول ١٩١٧ وتأسيس جمهوريـة الاتحاد السوفيـاتي الاشتراكيـة والقضاء على عائلة (آل رومانوف) . وقد اعلن الشيوعيون تخليهم عن المطامع الروسية في المنطقة والتي

كان القياصرة يعملون لتحقيقها خاصة الوصول الى المياه الدافئة ولكن القادة الجدد جاءوا بمفاهيم جديدة فقد اعلن الزعيم السوفيتي (لينين) تخلي الاتحاد السوفياتي عن سياسة التوسع الجغرافي ولكن لصالح التوسع العقائدي فقد كانت القناعة لدى الزعماء السوفيات بانه ما دامت الثورة الاشتراكية الكبرى ستعم ارجاء العالم فلا حاجة للتوسع الجغرافي . واعلنوا عن اهدافهم بصراحة انهم يرمون لتشجيع الحركات الثورية في مختلف انحاء العالم بخاصة ضد الامبراطوريتين الفرنسية والبريطانية والدول المتسعمرة الاخرى . وكانت المستعمرات هدفهم الرئيسي باعتبارها النقطة الضعيفة في الكيان الامبراطوري للدولتين . وعلى العموم كان البلاشفة يشتركون مع القياصرة في كره البريطانيين وكان القادة الروس وعلى رأسهم (لينين) قد قاموا بتشكيل ما يعرف بالشيوعية الثالثة في اذار ١٩١٩ المعروفة باسم (الكومنترن) على انقاض الاشتراكية الثانية التي تفتت اثناء الحرب ، وقد دعا السوفيت في عام ١٩٢٠ الى مؤتمر عالمي لشعوب الشرق عقد في مدينة (باكو) الواقعة على بحر قزوين ومن هناك وجهوا نداءاتهم الى شعوب العالم للثورة كما وجهوا انذارا خاص ضد الاستعمارين الفرنسي والبريطاني ، وكان اختيار مدينة باكو الواقعة في منطقة اسلامية ذا مغزى خاصا ولذلك لاعطاء الصبغة الاسلامية على المؤتمر ، وكان له هدفين الاول ابعاد كل فكرة توسعية روسية نحو العالم العربي والهدف الثاني كان لارضاء الجماهير المسلمة في الاتحاد السوفياتي الذي يضم عددا كبيرا من المسلمين يتجاوز عددهم الخمسين مليون والذين كانوا يخشون من العلمانية والشيوعية الجديدة التي هيمنت على الامبراطورية الروسية .

كان على بريطانيا وحتى فرنسا ان تعملا ضد هذا الاتجاه الجديد وتقفا في وجه هذا الاسلوب الذي يمكن ان يحطم امبراطوريتها لما يقدمه من امان ووعود في الحرية والاستقلال بخاصة بريطانيا التي استطاعت حتى ذلك الوقت حماية الهند من الروس بخلق دول عازلة كالافغان وايران والدولة العثمانية بعد وصول هؤلاء الى وسط وجنوب آسيا واحتلالهم المساحات الشاسعة من الاراضي ذات الشعوب المسلمة ، وبالرغم من ان بريطانيا سعت لعقد اتفاقية ١٩٠٧ المعروفة باسم (جراي اسفولكس) التي حددت مناطق النفوذ بينها وبين روسيا في ايران الا انها خافت من بعض الثغرات الموجودة في الاتفاقية والتي تساعد على تمركز الروس في شمال ايران لذلك اغتنمت فرصة الحرب والغت هذه الاتفاقية عام ١٩٢١ خوفا من استغلالها من

قبل الحكم الروسي الجديد فقد تبنى الحكم السوفياتي في بادىء الامر سياسة الشيوعي اليهودي (تروتسكي) والتي ترمي الى خلق الثورات في شتى انحاء العالم . فظهرت دولة شيوعية في منطقة جيلان شمال ايران عام ١٩٢٠ ولكن لم تدم طويلاً وكانت سياسة لينين بعد الحرب مباشرة دفاعية فقد كان الشيوعيون لا يزالون متورطين في الحروب الاهلية المدمرة والتي كان الانكليز خاصة يمدونها بالاسلحة والعتاد وكانت هناك ثورة حادة في صفوف المسلمين الاتراك المقيمين في آسيا الوسطى ولكن بعد تغلب الشيوعيون وهدوء الاحوال عاد الهجوم العقائدي على بريطانيا وفرنسا واحدث ازمات مع كليهما . فقد قطعت العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا في ٢٦ مايس ١٩٢٧ وكذلك في ٣ تشرين اول ١٩٢٩ كما حدثت ازمة بين الاتحاد السوفياتي وفرنسا وترتب عليها طلب فرنسا في ٧ تشرين اول ١٩٢٧ سحب السفير السوفياتي من بلادها . ولكن بعد استلام ستالين الحكم خف تشجيعه للحركات الخارجية ولم يكن ذلك خيانة للمبادىء الشيوعية الا ان ستالين شغل بفرض سلطته داخل الحزب والدولة والقضاء على المعارضة بالاضافة الى تكليف البرامج الاقتصادية في العشرينيات وما تبعها من الخطط الخمسية والتي جعلت اهتمام ستالين بالحركات الشعبية يأتي في المرتبة الثالثة بالاضافة الى ذلك تركيز ستالين على تحويل الاتحاد السوفياتي الى قوة صناعية من الدرجة الاولى . وقد انتابه الخوف ليس فقط من ازدياد قوة هتلر بل ايضا من ازدياد قوة اليابان وايطاليا ومشاريعهما التوسعية وربما اطماعهما في بلاده كما حدث خلال الحرب - وكان ستالين يعرف قدرات بلاده العسكرية في ذلك الوقت اذا ما اراد ان يتحدى البريطانيين في الخليج والمناطق حوله والتي يمكن ان توصل السوفييت للبحر بشكل مباشر . وكانت السيطرة البريطانية والفرنسية المهيمنتان في العالم الغربي كافية لابعاد النفوذ السوفياتي الذي استطاع تشكيل احزاب شيوعية سرية ، ولكنها كانت ضعيفة وغير فعالة بسبب تسرب اليهود إليها وقد تم حصر النشاط الشيوعي في كل من تركيا وايران .

حاول الروس اقامة اتصالات طبيعية وعلاقات دبلوماسية مع الشعوب العربية خاصة المستقل منها واستغلال الاحداث القومية التي كانت تجري في المنطقة ولا سيما في الجزيرة العربية ليعربوا عن نواياهم الحسنة نحو الشعب العربي وقد حاولوا الاتصال بالمملكة العربية السعودية كدولة ناشئة ووصفوا الملك عبد العزيز آل سعود بالرجل الثوري باعتباره الوحيد الذي استطاع توجيه لطمة كبيرة للسياسة

البريطانية بعد تغلبه على الشريف حسين وقضائه على الثورات التي نشبت ضده والتي كانت بريطانيا تباركها ، وكانت موسكو اول عواصم العالم التي اعترفت بقيام دولة الحجاز ونجد وملحقاتها ، وعلى اثر ذلك الموقف بدأت العلاقات الودية تنمو بين السعودية والسوفيات خاصة في المجالات التجارية وابتدأت السفن الروسية تتردد على الموانىء السعودية . كما اخذ السوفيات يسمحون لاعداد قليلة من الحجاج لاداء فريضة الحج وزار السعودية عدد من زعماء المسلمين ، ولكن هذه العلاقة لم تدم طويلا بعد مهادنة الانكليز واعترافهم بدولته ورفض عبد العزيز آل سعود عقد اتفاقية تجارية مع الاتحاد السوفياتي . لذلك بدأت العلاقات بالفتور حتى انقطعت نهائيا ـ لذلك وجه السوفيات انظارهم نحو اليمن وامامها في ذلك الوقت يحيى حميد الدين الذي كان في نزاع مستديم مع الانكليز منذ خروج الاتراك ومطالبته بميناء عدن ومناطق الجنوب باعتبارها قسما من دولته اليمنية ثم وقع الطرفان معاهدة صداقة وتجارة في تشرين ثاني ١٩٢٨ وكانت اول معاهدة توقع بين بلد عربي والاتحاد السوفياتي . وقد لقي هذا الاتصال مع العلام العربي استحسانا بين مسلمي اسيا الوسطى وكان ستالين يسعى لنيل مثل هذا الرضى بشكل جدي . وقد اوفد السوفيات لليمن بعض الاطباء كما كانوا يمدون اليمن بالسلع وبالكروسين والبترول باسعار رخيصة ، وقد نمت العلاقات بين اليمن والسوفيات بشكل كبير خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، اما في الخليج فقد كانت اذاعاتهم موجهة ضد الاستعمار البريطاني وكما ذكرنا فكان ستالين يعتبر بريطانيا عدوته الرئيسية .

ولكن العداء بين بريطانيا والسوفيات لم يدم طويلا بعد التطورات التي حدثت في اوربا وادت عام ١٩٣٩ الى تغيير في ميزان القوى وبدأ الطرفان يحسان بخطر المانيا الجديد واخذ كل منهم يعمل على تغيير سياسته تجاه الاخر نحو التقارب وكانت خشية السوفيات من الالمان اكثر من خشية البريطانيين بسبب ما كانوا يعلمون عن مطامع المانيا في بلادهم والتي عبر عنها هتلر في كتاب كفاحي وابتدأت المساعي لعقد اتفاقية ثلاثية روسية ـ بريطانية ـ فرنسية تجاه الخطر الداهم ، وقبل ان يتم هذا التحالف تغير الموقف فجأة لتعقد بين الالمان والروس معاهدة عدم اعتداء في آب ١٩٣٩ ، وتغيرت الموازين وظهر للجميع كأن ستالين أصبح حليف هتلر العدو القومي والايديولوجي المؤكد للشيوعية ، وكان ذلك مقابل مكاسب اقليمية في اوربا حيث ضمت اقسام واسعة من بولونيا الى الاتحاد السوفياتي . ولم تذكر حتى

الان بالتفصيل الدوافع الحقيقية التي دفعت ستالين بقبول هذه الاتفاقية ولكن هناك اجماع بان ستالين وجد في المعاهدة فرصته لتأخير الصدام مع المانيا فترة كافية للصناعة الروسية من دعم المجهود الحربي الروسي وبالرغم من ان الروس السوفييت كانوا قد أوقفوا كا نشاط تجاه الخليج الا انهم اعلنوا للالمان عند توقيع المعاهدة وأن لهم مصالحهم في المنطقة الواقعة جنوب الخط الممتد ما بين باطوم - وباكو وذلك لقربها من الاتحاد السوفييتي وآبار النفط السوفييتية . وعندما هاجم الالمان عام ١٩٤١ الاتحاد السوفياتي وجه هذا الاخيرة انذارا الى ايران لابعاد الالمان عن بلاده لان السوفيت يعرفون انهم لن يستطيعوا تلقي المعونات الكافية من العتاد والسلاح الا عن طريق ايران اي الموانيء ذات المياه الدافئة .

اما الالمان فقد حاولوا كما رأينا الوصول الى الخليج عن طريق سكة حديد برلين بغداد قبل الحرب العالمية الاولى ، وعندما وجدت بريطانيا انها لا تستطيع الوقوف بوجههم نظرا لمساعدة الدولة العثمانية لهم حاولت الاتفاق معهم بشكل سري على اساس مساندتهم في بناء خطهم الحديدي مقابل تخلي الالمان عن ايصاله (اي الخط الحديدي) الى احد موانيء الخليج ولم يعرف عن هذه الا خلال الحرب العالمية كما اتفق الطرفان على استغلال الموارد البترولية العراقية . وعند اندلاع الحرب لم يقف الالمان مكتوفي الايدي في المنطقةبل حاولوا اثارة القلاقل امام القوات البريطانية ، ان كان في ايران ار الخليج وبخاصة جنوب فارس حيث بلغ حدة الاقصى هناك وقد اتخذ الالمان من قنصليتهم في بغداد (كما رأينا) محور نشاطهم الدبلوماسي في المقاطعات الفارسية والخليج والمحيط الهندي . واكثر من ذلك قاد احد الالمان وهو (الهر وازسماس) عملية فدائية ضد مستودعات النفط في عبدان ونجح في حصار المقيمية البريطانية في بوشهر على الساحل الشرقي من الخليج ، كما استطاع اثارة القبائل العربية في جنوب فارس ومنطقة شط العرب ضد الاستعمار البريطاني والتي تأثرت بحركة الجهاد الديني التي اعلنتها الدولة العثمانية وقد اضطرت حكومة الهند للعمل بسرعة خوفا من انتشار الثورة في مختلف انحاء المنطقة وكونت فرقا محلية بقيادة ضابط انكليزي ومعاونة قوات هندية وفارسية وعربية انحازت للانكليز ولم تساير حركة الجهاد الاسلامي وقد ادت هذه الاجراءات الى شل حركة وازسماس ثم انهارت واستطاعت بريطانيا المحافظة على نفوذها في جنوب فارس والاجزاء الشمالية من الخليج . وقد حاول الالمان الاتصال ايضا بالثورة

العمانية وحسب تأكيدات المصادر البريطانية ان العملاء الالمان هم الذين دفعوا العمانيين للثورة ، والواقع هو ان المشكلة بين سلطان مسقط وزعماء عمان الداخلية ترتبط بشؤ ون دينية بحتة تتعلق بمفهوم الامامة كما رأينا سابقا ومن المحتمل ان يحاول الالمان والاتراك استغلال الثورة ومساعدتها لخلق الاضطرابات امام الانكليز نظرا للعلاقات القديمة التي كانت تعرف في الماضي بتنفانيكا (بدون زنجبار) وكانت زنجبار العمانية تقع امام ساحل تنفانيكا وكانت عمان وزنجبار دولة واحدة قبل فترة قصيرة ، وعندما احتل الانكليز البصره عام ١٩١٥ القوا القبض على وكيل (الونكهاوس) اكبر الشركات الالمانية العاملة في البحرين وبذلك انهي التهديد الالماني في البر كما انهي في البحر بعد القضاء على السفن الحربية الالمانية القرصان في المحيط الهندي .

بعد الحرب ظل الالمان لفترة طويلة بعيدين عن منطقة الخليج حتى ظهور رضا بهلوي وتنصيبه شاها على فارس فبعد اعلان الحكم الشيوعي في روسيا التخلي عن مطامعه في فارس وانسحابه من شمال ايران والقضاء على جمهورية جيلان الشيوعية ، وجدت بريطانيا نفسها هي الاخرى مضطرة لترك ايران ، فبالاضافة الى زوال التهديد الروسي وجدت في حكم الشاه الجديد القوى ما يجعل ايران دولة عازلة Buffer State تخدم مصالحها بشكل غير مباشر لاستطاعتها الوقوف ضد المد الروسي ، وقد امن الاستقرار الذي حققه رضا بهلوي التفاتة الى السياسة الخارجية فعقد اتفاقية عدم اعتداء مع الاتحاد السوفياتي ، كما استغل وضع بريطانيا وحاجتها الملحة لعبور الاجواء الاقليمية الايرانية لاكمال خطها الجوي الى الهند ، فالغى الامتيازات الاستثنائية التي تمتعت بها بريطانيا طيلة قرن من الزمن . كما دخل معها في مفاوضات لزيادة حصته من عائدات البترول الايراني ونجح فيها ، ثم التجأ مرة اخرى الى سياسة ضرب الاطراف المتنافسة ضد بعضها بادخال المانيا في الموضوع حيث منحها امتيازات للنقل الجوي الداخلي، وبعد ذلك اخذت العلاقات الالمانية الايرانية تزداد وتناولت امورا كثيرة وبخاصة تدريب الجيش الايراني الذي كان يرتدي الزي العسكري الالماني ويتبع الاساليب الحربية الالمانية وكان الشاه يريد التخلص من نفوذ كل من روسيا وبريطانيا عن طريق هذا التعاون على اساس ان ليس لالمانيا اية مطامع في ايران . لذلك لما اندلعت الحرب اعلن عن حياد بلاده ، وخلال الفترة القصيرة من الحرب اي ما بين توقيع معاهدة

الصداقة الالمانية السوفياتية والهجوم الالماني على روسيا كان حياد ايران يفيد كلا من الطرفين روسيا وبريطانيا ويجعل من هذا الحياد حاجزا دون الصدام بين الروس في ذل كالوقت والانكليز . ولكن بعد اجتياح الجيوش النازية لروسيا وحاجة الروس للمساعدة العسكرية العاجلة تغيرت الاوضاع واصبح حياد ايران مضرا لقضية الحلفاء نظرا لموقعها الجغرافي الهام كأقرب طريق لايصال المساعدة الروسية بعد الشلل الذي اصاب الموانىء الروسية في البحر الاسود من الاحتلال والقصف الجوي ولم تكن لدى ايران القوة الكافية للحفاظ على حيادها اما القوى العظمى كالسوفينت والانكليز . وقد انذر الروس الشاه (كما رأينا) بعد مرور اربعة ايام فقط على دخولهم الحرب ضد المحور بالنتائج السيئة التي تنتظره اذا ظل على صداقته مع المانيا خوفا من قيام الالمان بعمليات تخريبية وراء الخطوط الروسية التي كانت تتراجع بسرعة وخوفا من تمكن العملاء الالمان من اثارة القلاقل في المقاطعات الروسية الاسلامية وفي الثاني عشر من تموز ١٩٤١ تم الاتفاق بين الاتحاد السوفياتي وبريطانيا على العمل سوية ضد المانيا الهتلرية وتعهدت الاخيرة بتقديم المساعدة للاولى ، وفي التاسع عشر من الشهر نفسه طلبت الدولتان من الحكومة الايرانية اقصاء جميع الالمان من ايران واعتبارهم جواسيس ولكن الشاه لم يستجب للطلب وعندها اجتاحت القوات الهندية الانكليزية من الجنوب ايران لتتلاقى مع الجيش الروسي القادم من الشمال وتم احتلال طهران في الخامس والعشرين من شهر آب . وفي الخامس عشر من شهر ايلول تنازل الشاه عن العرش لولده الشاب محمد رضا شاهبهلوي وغادر البلاد الى جنوب افريقية . وعلى اثر ذلك فرض الطرفان الروسي والبريطاني اتفاقية تعاون على ايران وتم توقيعها في التاسع والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٤٢ وتقتضي الاتفاقية على وضع ايران كل امكانياتها فيما يتعلق بالمواصلات البرية والبحرية والجوية تحت تصرف الحلفاء . وقد نقل خط حديد قزوين الخليج اكثر من خمسة ملايين طن من الاسلحة عبر ايران الى روسيا وقام سلاح الهندسة في جيش الولايات المتحدة بتنظيم هذا الجهد الجبار .

في عام ١٩٤٢ استطاع جاسوس الماني يعرف باسم (ماير) ان يثير قبائل جنوب ايران على الحلفاء في الوقت الذي اوشكت فيه جيوش الرايخ على الوصول الى القوفاز وتهديد ابار البترول الروسية على بحر الخزر ولكن الحلفاء استطاعوا تجميد نشاط الجواسيس الالمان وعملائهم في ايران وبعد تطور الموقف الحربي لصالح

الحلفاء اعلنت ايران رسميا الحرب على المانيا في ايلول سنة ١٩٤٣ ومن ذلك الوقت وقعت أيران تحت السيطرة البريطانية ووريثها الامبراطورية الامريكية الجديدة .
ومنذ بداية الحرب تقريبا وبعد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد الانكليز جرت اتصالات بين العرب والمانيا ومن ثم ايطاليا للتعرف على آراء دول المحور حول المطالب الاستقلالية العربية وكان عن طريق السفارة الالمانية في تركيا وتكررت الاتصالات التي لم تصل في الواقع الى نتيجة واضحة بسبب المطامع الايطالية في البلاد العربية . وكان هتلر يظهر عطفا على العرب ومطالبهم ولكنه كان راعي مطالب حليفه الايطالي موسوليني وكانت ايطالي هي المسؤولة عن علاقات المحور بالبلاد العربية . وعندما بدأ الصدام بين القوات العراقية والانكليزية في العراق استنجدت الحكومة العراقية بالالمان وطلبت المساعدة العسكرية العاجلة ، وبعد موافقة حكومة فيشي الفرنسية على استخدام المطارات السورية من قبل الطائرات الالمانية التي بدات تنقل العتاد الى العراق وفي الوقت ذاته عاد الى العراق السفير الالماني السابق الدكتور (جروبا) عن طريق ايطاليا ، رودوس وحلب ووصل بغداد في ١١ مايس ١٩٤١ ، وامن الاتصال بين الحكومة العراقية والحكومة الالمانية وقد ارسلت المانيا الى رودوس اثنا عشر طائرة مقاتلة وثلاثة عشر قاذفة قنابل لمواجهة القوات البريطانية المتوجهة الى بغدادوقصفتها بالقنابل وتكررت غاراتها يوم ١٥ مايس ١٩٤١ واشتركت ايطاليا في المعركة ولكن على نطاق ضيف في ٢٦ مايس ١٩٤١ ، ولكن المساعدة الالمانية للقوات العراقية جاءت متأخرة واستطاعت القوات البريطانية من القضاء على الثورة وعلى مقاومة الجيش العراقي العنيفة رغم اسلحته الضعيفة وهرب زعماء الثورة بما فيهم رشيد عالي الكيلاني الى الخارج واعدم من بقي منهم واعادت بريطانيا سيطرتها على العراق .

اما امريكا التي اصبحت بعد الحرب العالمية الثانية وريثة الامبراطورية البريطانية في منطقة الشرق الاوسط وحلت محلها وقاسمتها استغلال الموارد البترولية في المنطقة فلم يكن لها اي نشاط يذكر قبل الحرب مع ان علاقتها بالشرق الاوسط كانت قديمة ولكنها دائما كانت تقتصر على النواحي الاقتصادية ، واول اتصال جرى بين امريكا والعرب هو عن طريق عمان حيث تم توقيع معاهدة بين الطرفين عام ١٩٣٣ وكان سلطان عمان هو سعيد بن سلطان المعروف باتصالاته الواسعة مع الدول الاجنبية وقد وقع المعاهدة التي كانت عبارة عن معاهدة موده وتجارة كما جاء في

مقدمتها مع (ادموندرو وبرتس) في القصر السلطاني في مسقط وقد سمحت المعاهدة « لسكان بلدان الامريكية (كـذا) . . رخصة الدخول الى اي بندر من بنادر العالجاه السيد سعيد ابن السيد سلطان حامي مسقط » (هكذا جاء في الاصل) ونصت كذلك على ان اهل يونيت استيد سكان بلدان امريكية اذا ارادوا ان يصلوا الى احد بلدان السلطان لاجل البيع والشراء منهم مرضوحين ، وفي تنزيل اموالهم لبسوا بمعارضين . واذا ارادوا ان يسكنوا فلا عليهم من جهة السكون شيء وتسلوم شيء بل يكونون مثل الطائفة التي هي اقرب في المود » كما استطاعت امريكا اقامة علاقات اقتصادية مع دول الخليج . وعندما حاول شاه ايران اصلاح المالية الايرانية قبل الحرب العالمية الاولى استدعى احد رجال المال الامريكيين وهو السيد شوستر ، ولكن هذا لم ينجح في مهمته بسبب اصطدامه بالروس من جهة وبرجال العهد الفاسدين فاضطر للاستقالة كما قامت بعثة من الخبراء الماليين الامريكان بقيادة (ارثر ملسبف) بتنظيم وتحسين الانظمة المالية والادارية في زمن رضا بهلوي في فترة ما بين الحرمين . وفي مناطق اخرى من البلاد العربية انصب اهتمام امريكا بتشجيع نشاطات البعثات التبشيرية وكـذلك في المجالات الثقافية مثل جامعة بيروت، وخلال الحرب العالمية الاولى وبعدها قوبل رفض الرئيس ولسن للمعاهدات السرية وسياسته في اعطاء حق تقرير المصير للشعوب التي تخلصت من نير الاتراك بالحماس في مختلف شعوب المنطقة ، ومما يذكر ان الولايات المتحدة لم تعلن الحرب على تركيا في الحرب العالمية الاولى ولكن الرئيس ولسن والكونغرس الامريكي ايدا وعد (بلفور) وكان الصهاينة الامريكان وراء حث امريكا على الاشتراك فيالحرب لكي يكسبوا دعمها في خلق دولة اسرائيل . والواقع ان اول تورط سياسي مباشر لامريكا في الشرق الاوسط كان في نهاية الحرب العالمية الاولى عندما حاول الرئيس الامريكي ولسن تطبيق مبادئه المعروفة في حق تقرير المصير لشعوب المنطقة وارسل لجان التحقيق لهذه الغاية وللتصرف على آراء الشعوب كلجنة (النغ ـ كراين) ولجنة (هاربورد) وكان مجال نشاط الاولى البلاد العربية اما الثانية فكان مجال نشاطها (ارمينيا) ، وقوبلت هذه اللجان بالترحيب في تلك المنطقة بسبب السمعة الطيبة التي كانت لامريكا في ذلك الوقت على اساس ان لا طموحات استعمارية تسعى لتحقيقها كما هو الحال بالنسبة لبريطانيا وفرنسا وحتى لكل الدول الاوربية التي كانت تستعمر العالم وقد طالب السكان في ذلك الوقت بانتداب

امريكا عليهم وجعلها وصية اذا كان لا بد من الانتداب وقد عبرت لجنة كراين عن تحفظها الشديد حيال امال الصهاينة في فلسطين . الا ان المرض المميت عاجل الرئيس (ولسن) والاعتقاد السائد انه لم يضطلع على تقارير اللجان المذكورة وقد ادى عودة امريكا للعزلة خلال الفترة ما بين الحربين لتنازلها لبعض الوقت عن امكانية بناء مراكز استراتيجية لها في المنطقة ولكنها لعبت دورا مهما في اقامة دولة اسرائيل وتأييدها للتقسيم . ومع ذلك رغم تسليمها للبريطانيين والفرنسيين السيطرة على المنطقة الا انها دعمت (كما رأينا) مصالحها الاقتصادية عن طريق شركات النفط التي كانت تلاقي المعارضة من الحكومة البريطانية ، وحصلت هذه الشركات على امتيازات رئيسية في منطقة الخليج والعربية السعودية واصبحت تمتلك ربع ممتلكات شركة نفط العراق في قطر والعراق ونصف امتيازات الكويت . . الخ ولكن بعد الحرب العالمية الثانية التي اشتركت فيها بشكل رئيسي وحاسم ازداد تورطها في قضايا الشرق الاوسط حتى الوقت الحاضر . ومما يجدر ذكره ان الامريكان في الواقع ظلوا حتى الحرب العالمية الثانية لا يعرفون عن الشرق الاوسط اكثر من انه مكان لارض المقدسة ثم بدأ هذا الفهم يتغير وبخاصة خلال الحرب العالمية الثانية حيث بدأ الاحتكاك بين الامريكان والعرب وبين الامريكان وايران عندما شاركوا الروس والانكليز في احتلالهم لايران ونظموا خط التموين لروسيا عبر الخليج ومع العرب عندما بدأ التفتيش عن البترول في البلاد العربية . ولكن الذي جعل الشرق الاوسط معروفا بشكل واضح للامريكيين هي القضية الفلسطينية ودعم حكومتهم لدولة الصهاينة اسرائيل .

الفصل الخامس

الخليج العربي وما حوله خلال الحرب العالمية الثانية واستراتيجية الدول المحاربة نحوه

ـ امتداد الحرب العالمية الثانية وشمولها ـ الحرب العالمية الثانية امتداد للحرب العالمية الاولى ـ اعادة الحياة العسكرية الالمانية وظهور هتلر ـ استعادة الاراضي الالمانية ـ الحلفاء يضمنون استقلال بولونيا ـ التعاون الالماني الايطالي ـ التقارب الروسي ـ الالماني . هتلر يهاجم بولونيا ـ اعلان الحرب ـ بداية الحرب العالمية الثانية والاوضاع العامة ـ المحاولات البريطانية للعودة للتعاون مع السوفيات وفشلها ـ استراتيجية دول المحور ونقاط الضعف فيها ـ استراتيجية الحلفاء ونقاط القوة فيها ـ دخول اليابان الحرب ـ ازدياد الاهتمام بمنطقة الشرق الاوسط ـ الامبراطورية الايطالية في الحرب العالمية الثانية وتصفيتها ـ الهجوم الايطالي الاولى غرازيالي يهزم امام ويفل البريطاني ـ الالمان ينزلون في ليبيا ـ رومل والجيش الافريقي ـ افريكاكورس) ـ معركة العلمين واثرها . الوضع في ايران ـ واحتلال الدول الثلاث لها وسقوط رضا بهلوي .

الفصل الخامس

الخليج العربي وما حوله خلال الحرب العالمية الثانية

امتدت الحرب العالمية الثانية بعد دخول كل من ايطاليا واليابان بجانب المانيا لتشمل جميع انحاء العالم ولم يسبق لحرب ما في التاريخ ان اتصفت بهذه الشمولية مطلقا . وكانت المنطقة الواقعة ما بين الهند ومصر وليبيا من جملة المناطق التي شملتها الحرب ولعبت هذه المنطقة التي يطلق عليها حاليا الشرق الاوسط دورا هاما جدا في مجرى الحرب . وكان الخليج العربي يشكل قلب هذه المنطقة الهامة . وكان هدفا من اهداف الحرب عملت قوات المحور للوصول اليه في الوقت الذي كان الحلفاء يعتبرون سقوطه بيد قوات المحور ضربة قاسية يمكن لها ان تغير مجرى الحرب لصالح لقوات المحور وبالتالي تغير مجرى التاريخ اذا نظرنا الى ذلك من الناحية الموضوعية فالحرب العالمية الثانية لم تكن كغيرها من الحروب حتى ولا الحرب العالمية الاولى لان اسبابها المحيطة في التاريخ المعاصر تجمعت خلال الفترة ما بين ١٨١٥ - حتى عام ١٩١٤ التي تميزت بثبات العلاقات العامة في التاريخ الاوربي حيث استقر بشكل مبدئي توزيع المستعمرات والنفوذ والفوائد بين الدول الاوروبية التي انهالت عليها اموال المستعمرات مما جعلها تسير قدما نحو الرقي والحضارة . تبعه جو من القلق والصراع خلال الحرب العالمية الاولى ولكن سلم ١٩١٩ لم يستطع ان يوقف جو القلق هذا مما ادى الى انفجار عام ١٩٣٩ اتسع على نطاق شمل الكرة الارضية والانسانية جمعاء لم يمر مثلها كما ذكرنا ، فالحروب النابليونية هددت اوربا وحتى الحرب العالمية الاولى فقد كان مسرحها الرئيس في اوربا وانتشارها خارج القارة كان حسب وجود المستعمرات الالمانية الموجودة في افريقيا والبحر الباسفيكي في حين كان الهدوء يشمل المحيط الهندي والباسفيكي ايضا اما الحرب العالمية الثانية فقد هزت انحاء العالم حتى القارات القطبية ولم يسلم منها اي محيط وقد جند فيها حوالي ١١٠ ملايين جندي مقابل ٧٣ مليون في الحرب العالمية الاولى ولو حسبنا بداية الحرب منذ الحرب الحبشية لزاد عشرة سنين على المدة الحقيقية لدوام الحرب العالمية الثانية الذي هو حوالي ستة سنوات . والواقع ان الحرب العالمية الثانية ما هي الا امتداد للحرب العالمية الاولى التي يمكن اعتبارها حربا واحدة فالجو الدولي المضطرب الذي انفجر

في سراجيفو وادى الى مقتل ولي عهد النمسا لم ينته في نهاية الحرب العالمية الاولى بل ظل يتفاعل حتى تفجرت الحرب العالمية الثانية ويمكن تشبيه هذه الحرب الطويلة بحرب الثلاثين عام في القرن السابع عشر بالنسبة لطولها ولكن هناك اختلاف كبير بين الحربين فحرب القرن السابع عشر كان حربا محدودة بين بضعة دول وفي محيط القارة الاوروبية ولكن حروب القرن العشرين ما هي الا حرب امم خاصة الحرب الثانية التي امتدت الى كل انحاء العالم . واسباب الحربين العالميتين الاولى والثانية امتداد لبعضهما فهتلر لم يكن سوى صدى لغليوم الذي كان يحلم بحكم العالم وتحطيم الامبراطورية البريطانية لذلك عندما بدأ هتلر بالظهور بسرعة مذهلة واستلامه زعامة المانيا بعد انتخابه مستشارا للرايخ في ٣٠ كانون اول ١٩٣٣ بدأ كثير من المراقبين يتوقعون الصدام الذي لا مفر منه فقد وضع هتلر نصب عينية كهدف رئيسي لسياسة هو تحطيم والغاء معاهدة فرساي . ثم اعلن انسحاب المانيا من عصبة الامم في ١٤ تشرين اول من نفس العام وبدأ تطبيق مخططه الذي اعلن عنه في كتابه المشهور (كفاحي) واعاد الخدمة العسكرية وابتدأت المعامل الالمانية تحول انتاجها الى اسلحة من كل الانواع وفي ١٧ آذار ١٩٣٦ مزق اتفاقية لوكارنو واستغل الفرقة الموجودة بين الفرنسيين والانكليز بسبب الحرب الحبشية فاحتل منطقة الراين وسيطر على مقاطعة (رينانيا) بدون معارضة من فرنسا ، وعدم لا مبالاة بريطانيا التي لم تظهر اي علائم لدعم فرنسا . وكانت الدولتان منذ الحرب العالمية الاولى قد اسكرتهما خمرة النصر واستكانتا للراحة فبدأ الضعف يدب في صفوفهما واهملتا تطوير قواتهما المسلحة وظلتا تجتران انتصاراتهما في الحرب العالمية الاولى وتبنيان عليهما مبادرتهما الستراتيجية والتعبوية في حين كان الالمان يعملون على خلق استراتيجية جديدة مستفيدن من دروس الحرب العالمية الاولى ومن النظريات الجديدة التي طلع بها كل من الجنرال (فوللر) البريطاني والجنرال الفرنسي دغول حول استخدام القوات المدرعة المقبل وتعاون الصفوف وخاصة الثنائي الدبابة - طائرة وفي الوقت ذاته بدأ هتلر يضرب بسرعة مستفيدا من ذهول اعدائه فضم اليه النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبذلك اعاد للاذهان امبراطوريتي المانيا والنمسا والمجر وقد اصبحت كلها تحت حكمه . وقد وقف العالم مبهورا بالحركة النازية (الاشتراكية الوطنية) واصبح هتلر أمل كثير من الشعوب في خلاصها من الاستعمارين الفرنسي والبريطاني . ولم يكن لدى كل من فرنسا وبريطانيا القوة لايقاف هتلر الا اعلانهما

عن ضمانتها العسكريةلبولونيا في ٧ نيسان ١٩٣٩ وكان الاعلان انذاراضعيفاً زاد في جرأة هتلر فالقى معاهدة عدم الاعتداء القائمة بينه وبين بولونيا في ٢٨ نيسان ١٩٣٩ وجمد الاتفاقية البحرية مع بريطانيا وفي ١٢ مايس ١٩٣٩ تم توقيع معاهدة تعاون متكاملة مع موسوليني الدكتاتور الاخر واخذ في شن حرب الاعصاب على بولونيا .

بعد تدهور الموقف الى هذا الحد بين المانيا من جهة وبريطانيا وفرنسا وبولونيا من جهة اخرى اصبح بيد الاتحاد السوفياتي الحل فيما اذا انضم الى احد الطرفين . وكان يراقب الموقف بحذر يشوبه التشاؤم خوفا من الصدام مع المانيا، ولكنه اراد الاستفادة من الموقف بشكل كامل فعندما حاولت عبثا كل من فرنسا وبريطانيا اجراء مباحثات معه تمهيدا لتوقيع معاهدة عدم اعتداء وتعاون وارسلتا بعثة دبلوماسية بهذا الخصوص في ١٠ نيسان ١٩٣٩ طلب الاتحاد السوفياتي اطلاق يده في دول البلطيق ولكن الحلفاء رفضوا ذلك كما رفض البولونيون وجود قوات روسية في بلادهم . وهنا اوقف هتلر عداءه للشيوعية واخذ يحاول التفاوض مع ستالين لتوقيع معاهدة عدم اعتداء لكي يضمن وقوفه على الحياد في حرب طويلة مع الحلفاء من فرنسيين وانكليز وخوفا من الحرب على جبهتين لذلك اعطى الروس كل ما طلبوه منه ثمنا لوقوفهم على الحياد وعلى هذا الاساس وقع الالمان والروس اتفاقيتهم المشهورة في ١٩ آب ١٩٣٩ وهكذا اصبح الالمان احرارا في عملهم ضد القوى الغربية بما فيها بولونيا ، وفي الاول من ايلول ١٩٣٩ ابتدأ الهجوم الالماني على بولونيا بدون اعلان حرب وفي نفس اليوم وجهت كل من بريطانيا وفرنسا انذارا لالمانيا لسحب جيوشها من بولونيا وعندما رفضت ذلك اعلنتا الحرب عليها وقد تبع بريطانيا دول الدومينون البريطاني في ذلك الوقت استراليا ـ نيوزلندا ـ جنوب افريقيا وكندا واعلنت كلها الحرب على المانيا وبذلك امتدت الحرب الى اجزاء كثيرة من العالم في آسيا وافريقيا .

ولم تعلن ايطاليا الحرب على الحلفاء على اساس عدم حاجة الالمان للجيوش الايطالية في تلك المرحلة من الحرب ، وقد تطورت الحرب سريعا بعد انهيار فرنسا واعلان الحرب من قبل ايطاليا على الحلفاء بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٤٠ وبذلك امتدت الى القارة الافريقية ، فالايطاليون كانوا يحتلون كل من ليبيا والحبشة والصومال وارتريا .

حاول الانكليز بعد اندلاع الحرب التقارب مرة ثانية مع الاتحاد السوفياتي الا ان الروس ظلوا على موقفهم من الالمان بالرغم من الانذارات المتكررة من الحلفاء لروسيا بان الالمان يحضرون للوثوب عليها واخيرا في كانون ثاني ١٩٤١ انذرت امريكا روسيا عن طريق سفيرها في واشنطن بان الالمان سيهاجمونهم في حزيران من العام نفسه . لذلك فكر ستالين بحماية حدوده الشرقية وعقد معاهدة عدم اعتداء مع اليابان لمدة عشر سنين بتاريخ ١٠ نيسان وقد صحت انذارات الامريكان فقد بدأ الالمان بتطبيق الخدة (بربروسا) وبدأ الهجوم على روسيا في ٢٢ حزيران وبعد ذلك دخلت اليابان الحرب وبالتالي امريكا ، وهكذا عمت الحرب انحاء العالم .

لم تكن هناك امكانية وضع استراتيجة موحدة لدى دول المحور بسبب البعد الجغرافي بين دولة واخرى لذلك كان لكل منهم مجال عمل خاص به ولم يكن هناك تعاون مفيد بين اطرافه الثلاثة فقد كان مجال عمل الالمان هو اوربا والقضاء على الاتحاد السوفياتي بشكل رئيسي واستغلال موارده الطبيعية لمواصلة الحرب ضد بريطانيا وفرض النظام الجديد الذي دعا اليه هتلر لتطبيقه في مختلف انحاء اوربا والعالم اما ايطاليا فكان مجالها شمال افريقية والشرق الاوسط بعد ان تم احتلال جميع اوربا تقريبا بما فيها البلاد البلقانية . وعندما دخلت اليابان الحرب كان هتلر يعتقد بانه بامكانها اشغال القوات الامريكية من بحرية وجوية وبرية من الاشتراك بشكل فعال ضد المانيا وترك لها حرية العمل في الشرق الاقصى . والواقع ان هتلر كانت لديه القناعة بان اوربا هي التي تقرر النصر وبخاصة القضاء على الاتحاد السوفياتي .

اما استراتيجية الحلفاء او بالاحرى بريطانيا لوحدها بعد هزيمة فرنسا هو الدفاع عن الارض البريطانية والمستعمرات حتى الفترة التي يمكن ان تدخل فيها امريكا بطريقة ما في الحرب كما حدث في الحرب العالمية الاولى . ولكن عندما دخلت امريكا ـ وقد صح ماكان الانكليز يسعون له ـ تغير الموقف كليا فقد تم توحيد استراتيجية العمل بين بريطانيا والولايات المتحدة والصين وتقرر كخطة عامة توجيه الجهد الحربي الرئيسي للحرب في اوربا والقضاء على المانيا ومساعدة الاتحاد السوفياتي والوقوف موقف الدفاع في المحيط الباسفيكي وقد ادى هذا التركيز الى نتائج حاسمة .

اما منطقة الشرق الاوسط بشكل عام ومنطقة الخليج بشكل خاص فقد ازدادت اهميتها بعد دخول الحرب من قبل اليابان والهزائم الكبرى التي لحقت بالاتحاد السوفياتي في بداية الحرب ، فهذه المنطقة اصبحت تتصل اتصالاً مباشرة بجبهات القتال من اطراف ثلاث بعد وصول الالمان الى مرتفعات القوقاز وحرب الصحراء الليبية ثم احتلال اليابانيين لشبه جزيرة الملايو وقاعدة سنغافوره البحرية بالاضافة الى جزر الهند واو اندونيسيا الحالية ، كما اصبحت مركز تجميع وراحة وتدريب للجيوش الحليفة لوجودها قريبة من الجبهات وما تقدمه من خيرات ومواد غذائية وتموينية لهذه الجيوش التي كانت من مختلف الجنسيات من بولونية وفرنسية وبلجيكية ويونانية . . الخ واخيرا وليس آخرا فقد اصبحت نقطة مواصلات بين بريطانيا وفيما بعد امريكا لتموين الاتحاد السوفياتي كما كانت نقطة مواصلات برية وسلكية ولا سلكية بين مختلف القواعد البريطانية ، وفي النهاية تأتي الثروة البترولية التي بدونها لم تعد الجيوش تستطيع خوض المعارك الحديثة . لذلك عملت القيادة البريطانية المسؤولة عن الدفاع عن هذه المنطقة المستحيل لابعاد كل خطر مهما كان نوعه عنها ، وتحركت بسرعة كبيرة بالرغم من انشغالها بالحرب في اوربا او بالاحرى الدفاع عن الجزر البريطانية .

كان التهديد المباشر القوي للمنطقة يأتي من وجود القوات الايطالية الضخمة الموجودة في ليبيا وفي القرن الافريقي والحبشة وارتريا، بعد دخول ايطالي الحرب . وكان الوضع البريطاني سيئا جدا بعد هزيمة القوات الفرنسية وشل القواعد البحرية الفرنسية في شمال افريقية فلم يبق لدى الانكليز من قواعد سوى مالطه وجبل طارق وقناة السويس وكلها كانت في متناول الطيران الايطالي في ايطاليا نفسها وليبيا بالاضافة الى البحرية الايطالية التي كانت احدث عدة واكثر عددا من البحرية البريطانية في البحر الابيض المتوسط ، وكان التفوق العددي في القوات البرية واضحا لصالح القوات الايطالية . ومع ذلك استطاع القائد البريطاني وايفل في ٩ كانون اول ١٩٤٠ من هزيمة الايطاليين الذين كانوا بقيادة الماريشال غرازياني بعد تقدمة في داخل مصر حوالي تسعين كيلومترا وكانت هزيمة ساحقة شتت القوات الايطالية الضخمة رغم تفوقها وتقدم وايفل حوالي اربعمائة كيلومتر في ليبيا ، ويعود هذا النصر لتفوق القيادة البريطانية التي كانت تعمل على اسس الدروس المستقاة من حرب فرنسا يقابلها قيادة ايطاليا من مخلفات الحرب العالمية الأولى وتعيش على

انتصارات وامجاد حروب المستعمرات فغرازياني يعتبر بطلا بالنسبة للايطاليين فهو فاتح ليبيا وقاهر عمر المختار وهو الذي قاد معارك الحبشة وهزم جيش الأمبراطور الاثيوبي هيلا سلاسي حافي الاقدام ، وتشبه هزيمة غرازياني المخجلة هزيمة الجنرال غاملان قاهر الثورة السورية عام ١٩٢٥ امام القادة الالمان الذين كانوا يعملون في عصر غير عصر غاملان. والذي انقضى مع الحرب العالمية الاولى . وقد اضطر الالمان بعد هزيمة الايطاليين النكراء من التدخل في الحرب الليبية لانقاذ ليبيا والجيش الايطالي من الاستسلام ووصل روميل الى افريقيا على رأس جيشه الافريقي (افريكا كورس) وبدا هجوم مباشرة على وايفل في ٢٤ آذار ١٩٤٠ الذي اوصله الى الحدود المصرية ومنذ ذلك الوقت اصبح الايطاليون عبئا على القيادة الالمانية والواقع ان وصول روميل بهذه الديناميكية القوية اخافت الانكليز كثيرا وبدأوا يعدون للدفاع عن مصر والانسحاب اذا لزم الامر للعراق عن طريق سورية ومنها الى الهند ولكن روميل لم يستطع التقدم اكثر من ذلك بسبب خسائره الفادحة وتعب جنوده وعدم امداده بقوات جديدة فالقيادة الالمانية كانت غارقة في حربها المهلكة في الاوحال الروسية . ولا شك ان القيادة الالمانية اضاعت من يدها فرصة ذهبية بعد سقوط فرنسا . فهتلر كان يعتقد بان الجبهة الليبية هي ثانوية ودور الايطاليين يقتصر على منع الانكليز من الوصول الى القواعد الفرنسية في شمال افريقية ، ولم ير هتلر ان طريق السويس وسورية يقود الى بترول الموصل وعبدان . وبالنسبة اليه كان الوصول الى (باكو) وابار بترولها كمن يسيطر على بترول العالم . لذلك لم يقدر اهمية احتلال كل السواحل الافريقية من الدار البيضاء الى السويس والاندفاع نحو الحدود الهندية ويمكن للالمان في ذلك الوقت من تسليح الشعب العربي ومساعدته على توحيد بلاده وجعله يقاتل معه بسبب الكراهية التي كان يكنها الجميع للانكليز والفرنسيين الذين كانوا يستعمرون البلاد العربية ، وبضعة فرق من البانزر كانت لتستطيع القيام بهذه المهمة . وكان بامكان القيادة الالمانية ان تستغني على قوات اكثر قبل حربها مع الاتحاد السوفيتي ولكن بعد هذه الحرب لم يعد بامكانها امداد روميل بالقوات الضرورية لمواصلة تقدمه وتنفيذ المناورة الكبرى للاتصال بالقوات الألمانية القادمة من القفقاس في الوقت الذي بدأت تنهال على القوات الانكليزة في ليبيا الامدادات الهائلة القادمة من امريكا والمستعمرات وانتهت هذه المعارك بعد مدة طويلة من معارك الكر والفر بهزيمة الالمان في العلمين وتراجعهم

حتى تونس واستسلامهم هناك مع القوات الايطالية وبذلك انتهى التهديد من هذا الاتجاه للخليج العربي والمناطق حوله وفي الوقت ذاته كانت القوات الانكليزية والهندية تقضي على امبراطورية الايطاليين في شرق افريقية وتأسر جيوشهم الجرارة بكامل عتادها وسلاحها ، وتم تحرير طريق البحر الاحمر كليا من السيطرة الايطالية . وكانت نتائج هذه المعارك الافريقية والانتصارات التي احرزها الانكليز ذات فائدتين الاولى ان المحور اصيب بهزيمة قوية وكان ذلك ذا مغزى من الناحية المعنوية البريطانية الذين كانوا يقاتلون الالمان لوحدهم قبل دخول امريكا الحرب والفائدة الثانية سمحت انتصارات الحبشة بعودة السيطرة على البحر الاحمر وادى هذا الى تمكن الامريكيين من تموين الجيوش الانكليزية عن طريق بورسودان ويمكن ان نضيف الى ذلك ابعاد كل خطر عن بترول الخليج . كما تم خلال هذه الفترة القضاء على الثورة التي قامت في العراق . واحتلال سورية التي كانت تحت سيطرة حكومة فيشي الفرنسية خوفا من عودة الالمان لاستخدام القواعد الفرنسية فيها ضد الانكليز . ولم يبق في الواقع من مكان خطر في المنطقة سوى ايران وكان موقعها هو المشكلة التي ادت الى سقوطها بيد الحلفاء .

فعندما كانت الجيوش الالمانية تتقدم في السهول الروسية في شهر آب ١٩٤١ كانت امام الانكليز مشكلتان رئيسيتان الاولى كانت تموين روسيا حتى الفترة التي تستطيع الصناعة الروسية سدّ حاجات الجيوش المحاربة والثانية حماية الشرق الاوسط والامبراطورية الهندية وكان تموين الاتحاد السوفياتي هو المهمة العاجلة ولم يكن هناك من مجال سوى وسائط النقل الايرانية وبخاصة الخط الحديدي الذي يصل بين البحر القزويني والخليج العربي رغم طاقته الضعيفة وهو الوحيد الذي يمكن ايصال المواد والعتاد من كل الانواع والقادمة من سورية والعراق والخليج ، وكانت الخطة الروسية تقتضي الدفاع عن بترول (باكو) مهما كان الثمن باهظا وحتى النهاية حتى بعد وصول الالمان الى بحر قزوين من الشواطىء العليا ولم يكن لمثل هذه المقاومة ان تدوم بدون تموين لذلك كان من الضروري وجود جيش انكليزي في ايران يمكنه ان يوقف تقدم الالمان بالتعاون مع الجيش الروسي حتى ولو سقطت حقول باكو فمن الضروري الدفاع عن آبار الموصل وعبدان والبحرين وكلها كانت ضرورية لتموين البحرية البريطانية الحربية والتجارية . ولهذا السبب كانت ايران هي العقدة التي تستطيع حل جميع المشاكل فيما اذا زالت وتخلت عن حيادها ، وهكذا

كان فقد احتلت ايران من قبل الجيوش البريطانية والروسية ، وابتدأ العتاد ومختلف المواد تصل روسيا وبعد ذلك نظم عملية التموين جيش تابع للولايات المتحدة ، وقد ادى تراجع الالمان عن ستالينغراد وتحطيم الجيش السادس الالماني الى ابعاد الخطر نهائيا عن منطقة الشرق الاوسط والهند . واما عن الشرق فقد استطاع الانكليز ايقاف اليابانيين على حدود الهند الشرقية بعد ان احتل هؤلاء بورما ، فاتساع امبراطوريتهم الجديدة لم يعد يمكنهم من مواصلة التقدم بنفس الزخم الذي بدأوا فيه الحرب بالرغم من قلة عدد قواتهم . كما ان الثورة لم تندلع في الهند كما كان يعتقده اليابانيون وبذلك زال الخطر الاخر من الجهة الشرقية وحفظ الانكليز قواعدهم ومصالحهم من الاخطار .

الباب الثامن

الحرب العالمية الثانية ونتائجها واثرها على الاوضاع العامة في المحيط الهندي والخليج

- الفصل الاول : النتائج الرئيسية للحرب العالمية الثانية واثرها على الاوضاع العالمية والتغيير في ميزان القوى
- الفصل الثاني : انهيار الامبراطورية الهندية - البريطانية والانسحاب البريطاني من الهند وفشل سياسة شرق السويس .
- الفصل الثالث : ازدياد اهمية الخليج الاقتصادية بعد الحرب وتطور الحركة الاستقلالية والوحدوية .
- الفصل الرابع : تطور الوجود الامريكي في المحيط الهندي والخليج واستراتيجية التدخل السريع الامريكية .
- الفصل الخامس : تطور الوجود السوفياتي في المحيط الهندي والخليج والستراتيجية البحرية السوفياتية .

الفصل الاول

النتائج الرئيسية للحرب العالمية الثانية واثرها على تغيير الاوضاع العالمية وميزان القوى

ـ اختلاف نتائج الحرب العالمية الثانية عن الاولى ـ تغيير مراكز القوى ـ الخسائر الفادحة التي تكبدتها اوروبا واليابان ـ ظهور القوة السوفييتية والامبراطورية الامريكية ـ تغير خارطة اوروبا والشرق الاقصى ـ خروج الولايات المتحدة من الحرب سليمة القوى ـ سقوط النظام الاستعماري ـ ضعف فرنسا وبريطانيا ـ ظهور الاتحاد الفرنسي والكومنولث البريطاني وفشلهما ـ التغيرات التي حدثت في الشرق الأوسط ـ استقلال البلدان العربية الجامعة العربية ـ الاتحاد السوفياتي ومطالبته باراض تركية وفي المضايق . المساعدة الامريكية لتركيا ـ ظهور الحركات الانفصالية في ايران دولة اذربيجان ودولة مهاباد ـ اخلاء الروس لشمال ايران وسقوط الجمهوريتين الاذربيجانية والكردية واحتلال الجيش الايراني لمناطقهما .

الفصل الاول

النتائج الرئيسية للحرب العالمية الثانية واثرها على تغير الاوضاع العامة وميزان القوى

اختلفت نتائج الحرب العالمية الثانية بابعادها ونتائجها واثرها على مجرى الحياة الدولية عن نتائج الحرب التي سبقتها . ويعود ذلك لاسباب كثيرة اهمها شمولية الحرب وامتدادها لمختلف انحاء العالم لدخول كل من اليابان وامريكا كطرفين رئيسيين في القتال ثم استخدام الاسلحة المتطورة خاصة الطيران الذي كان بامكانه ايصال الدمار الى اي مكان لذلك شملت نتائج الحرب مختلف انحاء العالم . وكانت اول هذه النتائج هو التغيير الذي طرأ على مراكز القوى في العالم فقد زال النفوذ السياسي والعسكري لاوربا عامة وبريطانيا وفرنسا خاصة . وانتقل الثقل الى كل من امريكا والاتحاد السوفياتي . كما سقط النظام الاستعماري الذي كانت كل من بريطانيا وفرنسا تبنيان مجدهما عليه . بعد نمو حركة التحرر العالمي ، فلم تعد الشعوب تقبل الرعاية والوصاية التي تفرضها عليها الدول الاستعمارية وقد ادى هذا الى تغيير جذري في خارطة العالم .

وقد اصيبت كل من اوربا واليابان باضرار فادحة ، فقد دمرت في اوربا اغلب مدنها وعواصمها تدميرا يكاد ان يكون كاملا ، واستخدمت القنابل الذرية لتدمير المدن اليابانية وقد دمرت المصانع والمرافق العامة ومختلف المراكز الاقتصادية والثقافية والسياحة . ولم تقتصر الخسائر على المراكز العسكرية والجيوش المحاربة بل شملت مختلف نواحي الحياة وخسر السكان غير المقاتلين اكثر مما خسره العسكريون بسبب القصف الجوي العنيف الذي لم يكن ليفرق بين السكان المحاربين والقاعدين . وقد فقد الاتحاد السوفياتي لوحده (١٧) مليون قتيل منهم عشرة ملايين من المدنيين . ويعتقد ان المانيا فقدت حوالي خمسة ملايين رجل بما فيهم مليون ومائتي الف من المدنيين . وفقدت بولونيا ١٣,٦٪ من سكانها ، ولم تسلم اغلب دول العالم من الخسائر المادية والبشرية مع تفاوت النسبة ، ورغم خسارة امريكا في القوى البشرية المحاربة الا ان بلادها لم تصب باذى .

لقد احس المنتصرون والمهزومون بعظم الكوارث التي اصابت بلادهم نتيجة هذه الحروب المدمرة وما ادت اليه من نتائج جعلتها اضعف من ان تستطيع العودة الى مركزها التقليدي كموجة لسياسة العالم . واذا كان نفوذ ثلاث دول مهزومةزال بعد أن كانت تعتبر دولاًعظمى عام ١٩٣٨إلا أن بعض الدول المنتصرة ايضا زال نفوذها بسبب الضعف الذي اصابها وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا ثم هولندا وبلجيكا ، ولم تعد هذه الدول تتمكن من الوقوف في وجه العملاقين اللذين ظهرا الاتحاد السوفياتي وامريكا ، ومن اصل خمس امبراطوريات كبرى عام ١٩٣٨ كانت تتحكم في العالم لم يبق منها ولا واحدة فقد زالت كلها من الوجود . وقد سجلت نهاية الحرب العالمية الثانية نهاية التفوق الاوربي عامة والنفوذ الفرنسي البريطاني خاصة ومع انهيار امبراطوريتها انهارت امبراطوريات الهولندية والبلجيكية والاسبانيةوالبرتغالية. وقدحل محلها قوتان جديدتان هما الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ولكن باساليب وافكار جديدة فقد ابتعدتا عن فكرة الاحتلال العسكري المباشر الذي كانت الدول الغربية تلجأ اليه للاحتفاظ بسيطرتها على الشعوب والدول المختلفة فالسوفييت يعتمدون على ايديولوجيتهم في التعاون مع غيرهم بينما تعتمد امبراطورية اليانكي على القوة الاقتصادية واستغلال النظم الديمقراطية .

كل ذلك ادى الى حدوث تغيرات كبيرة في الخارطتين العالمية والاوروبية ففي اوروبا وللمرة الثانية تفقد المانيا قسما من اراضيها فقد جرى تعديل في الحدود بين بولونيا والاتحادالسوفييتي ودفعت الحدود البولونية الى الغرب ووصلت الى نهرالأودر وضمت بروسيا الشرقية الى روسيا مع دول البلطيق الثلاثة التي كانت تابعة لروسيا قبل الحرب العالمية الاولى كما جرى تعديل للحدود بين الاتحاد السوفييتي وكل من رومانيا وفلندا واستعاد في الشرق الأقصى ميناء بورت آرثر ونصف جزيرة سخالين .

أما الولايات المتحدة فبالرغم من نفيها لفكرة احتلالها للجزر التي كانت تابعة لليابان الا انها في الواقع اصبحت تهيمن على كل الجزر اليابانية التي ورثتها هذه من المانيا في الحرب العالمية الاولى ولم يبق لليابان سوى جزرها الاربع الاصلية . واذا كانت مساحة الاراضي التي ضمت للولايات المتحدة قليلة الا انها اصبحت تهيمن عن طريق قواعدها المنتشرة في مختلف انحاء العالم على اراض واسعة جدا تجعل منها

أكبر امبراطورية عرفها التاريخ ، ومن جملة الخاسرين كانت ايطاليا التي فقدت امبراطوريتها في افريقيا فقد اعيد للحبشة استقلالها . وكذلك ليبيا وضمت ارتيريا للحبشة واما الصومال فاعطي له الاستقلال مع وصاية ايطالية لمدة عشر سنوات كما فقدت في البحر الابيض جزر الدوديكانز التي ضمت لليونان . أما انكلترا وفرنسا فقد فقدتا شيئا فشيئا بعد الحرب امبراطوريتهما الواسعتين وظهرت عشرات الدول المستقلة في افريقيا واسيا وامريكا الوسطى . بعد نضال طويل خاضته شعوبهما ضد الاحتلال .

من النتائج الرئيسية للحرب العالمية الثانية سقوط النظام الاستعماري فقد اضعفت الحرب القوى الاستعمارية في الوقت الذي اعطت فيه الفرصة للشعوب المستعمرة لتثبت قوتها ورغبتها في الحياة وعدم قبولها للوصاية والابتزاز والاستثمار . وكانت هزيمة فرنسا في بداية الحرب المؤشر الرئيسي لاضمحلال الامبراطورية الفرنسية العتيقة . وبالرغم من عودة فرنسا كدولة منتصرة تسير في موكب المنتصرين الا انها كانت بحالة ضعف شديد لم تستطع معه الاحتفاظ بمستعمراتها التي استقلت الواحدة تلو الاخرى فهزمت الجيوش اللفرنسية في (ديان ديان ـ فو)واضطرت للانسحاب من الجزائر واقتصر حجمها على الاراضي الفرنسية في القارة وبعض المناطق التي اعتبرت اقاليم فرنسية . وفشلت المحاولات الفرنسية لاقامة ما يعرف بالاتحاد الفرنسي بضم الدول التي استقلت عن فرنسا لكي تتمكن من السيطرة على هذه الدول باساليب اخرى جديدة . واما بريطانيا التي وقفت لوحدها امام جحافل هتلر بعد هزيمة فرنسا فهي الاخرى انهى الحرب سلطانها ونفوذها وجعلها بلدا تابعا لامريكا التي حلت محلها في كل مكان بعد ان كانت امبراطوريتها بما فيها امريكا لا تغيب الشمس عنها يضاف الى ذلك فقدانها لمستعمراتها التي كانت تمونها بالغذاء فالجزر البريطانية لا تستطيع ان تؤمن الغذاء لهذا العدد من ابناء الشعب البريطاني فهي منذ الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر اهملت الزراعة واعتمدت على الصناعة والتجارة ففي فرنسا يوجد (٢١٥) شخص من بين الف شخص يعملون في الزراعة في حين يوجد (٦٥) شخص فقط في بريطانيا من اصل الف شخص يعملون في الزراعة ، لذلك اعتمدت بريطانيا على الخارج وخاصة مستعمراتها لتموينها . وكان ذلك شيء مرهق خلال الحرب فقد فقد الاسطول البريطاني اكثر من ١٢ مليون طن من البواخر مع حمولاتها ليبقى على

التموين متواصلا، وبعد ان فقدت اغلب مستعمراتها في فترةمابعد الحرب خاصة الهند اصبح الوضع التمويني في بريطانيا سيئا ، ولكنها استعادت وضعها الطبيعي بسبب عودة صناعتها وتجارتها للانتعاش مما ساعد على ثبات الاقتصاد البريطاني . وقد حاولت بريطانيا ابقاء الصلة قائمة بينها وبين مستعمراتها عن طريق ما يعرف (بالكومونولث) برابطة الشعوب البريطانية . ولكن هذه المؤسسة بالرغم من بقائها حتى الآن الا انهالم تلعب اي دور حساس في مجرى الحياة الدوليةوهي تضمحل شيئا فشيئا ولم يبق منها سوى اجتماع رمزي سنوي لا قيمة له . لقد حاولت القوى الاستعمارية في بادىء الامر التلكؤ في ترك البلاد المستعمرة الا ان الحركات الوطنية التي ظهرت في مختلف انحاء العالم اجبرتهم على أن يختاروا بين امرين اما ترك البلاد بالقوة او اقامة تعاون مشترك يحل محل السيطرة العسكرية ويبتعد عن الدخول في المشاكل الداخلية تاركا لهذه الشعوب اختيار نظامها الخاص بها واسلوب عيشها وعلى العموم لم تمض سوى فترة من الزمن قصيرة جدا بالنسبة للتاريخ حتى رأينا انه لم يبق شعب من الشعوب الا واختار نظام حياته وحكمه بنفسه .

اما في الشرق الاوسط والبلاد العربية فقد حدثت تغييرات جذرية ابتدأت خلال الحرب ولم ينته الحرب الا والقسم الاكبر من البلاد العربية قد استقل فمصر التي كانت تحكمها بريطانيا منذ عام ١٨٨٢ اصبحت مستقلة بعد عام ١٩٢٢ وتربطها ببريطانيا معاهدة تحد من سيادتها وانفرادها بقرارها استطاعت بعد الحرب ازالة الهيمنة البريطانية ، واما العراق فقد انتهت الوصاية عليه في عام ١٩٣٦ ولكن بريطانيا ظلت تسيطر على العراق عن طريق المعاهدة التي عقدت بين الطرفين ثم انتهت السيطرة البريطانية بعد الحرب بعد نضال طويل . وبالرغم من تأخر استقلال سورية ولبنان الا انه كان كاملا . فعندما دخلت قوات فرنسا الحرة سوريا اعلن الجنرال كاترو ممثلها استقلال سورية ولبنان ولكن لم يتم جلاء القوات الفرنسية الا في عام ١٩٤٥ بعد ثورة شعبية عارمة اضطرت معها الجيوش الفرنسية للانسحاب من سورية ولبنان وبذلك فتحت سورية الباب اما الشعوب المستعمرة للنضال والكفاح للحصول على الاستقلال والتخلص من النير الاستعماري ، اما الوضع في فلسطين ـ التي كانت لا تزال تحت الوصاية البريطانية ـ فقد اصبح حرجا جدا بسبب وعد بلفور وسعي اليهود لتأسيس دولتهم بمعونة الدول الاوروبية في

الوقت الذي كانت فيه الشعوب العربية تبدأ مرحلتها الاستقلالية وفي الخليج وجنوب اليمن ازداد تشبث البريطانيين في المنطقة بسبب ازدياد اهمية الخليج الاقتصادية وكانت عدن احدى القواعد الرئيسية لبريطانيا في المحيط الهندي ولكن الانكليز لم يستطيعوا بعد فترة قصيرة تحمل نفقات الدفاع عن المنطقة وابتدأوا بالتخلي عن مراكزهم لصالح امريكا كما سنرى .

في نهاية الحرب كما رأينا كانت هناك ستة دول عربية متفاوتة التصرف وهي مصر والعربية السعودية - اليمن - العراق - الاردن - سورية لبنان ، وكانت اول مظاهرة الوحدة بين هذه الدول هو العمل على تشكيل الجامعة العربية لايجاد علاقات وثيقة بين هذه الدول التي كرس الاستعمار التجزئة بينها وفكرة الجامعة العربية انطلقت عام ١٩٣٢ على لسان عبد الرحمن عزام اول امين للجامعة الذي كان يقول بان للعرب رسالة حضارية في التاريخ العالمي يجب املاؤ ها فاذا كانوا خلال فترة طويلة من الزمن لم يستطيعوا القيام بهذه المهمة وذلك بسبب الجهل والاستعمار الغربي فمن الضروري اخراج الاوروبيين من البلاد العربية والشروع بالعمل على تربية الشعب تربية وطنية صحيحة ، وبعد عشر سنين عادت الفكرة التي دعمها الانكليز في اجتماع عقد في الاسكندرية في تشرين اول عام ١٩٤٤ حيث تمت الموافقة على مخطط تقدم به النحاس باشارئيس الوزراء المصرية وتم التوقيع عليه في القاهرة في ٢٢ آذار ١٩٤٥ من قبل الدول العربية وقد نص ميثاق الجامعة على العمل على اخراج كافة الجيوش الاجنبية من تراب الوطن العربي والسعي نحو وحدة عربية تضم كافة ارجاء الوطن العربي والوقوف في وجه المؤ امرات التي تحاك لخلق دولة يهودية في فلسطين .

لم تكد تنتهي الحرب حتى بدأ التماس الحاربين حلفاء الامس خاصة في الاماكن التي ترتبط بحدود الاتحاد السوفياتي الذي تشمل حدوده قارتي آسيا واوربا . . ولن نتطرق الى عناصر التماس الاخرى التي ستمر معنا فيما بعد وسنقتصر هنا على الاماكن التي لها تأثير او قريبة من الخليج العربي وهي مشكلة المضائق والمسألة الارمنية واستقلال اذربيجان ودولة مهاباد الكردية .

ففي عام ١٩٢٥ عقدت اتفاقية روسية - تركية حددت العلاقات بين البلدين ولكن في ٢١ آذار عام ١٩٤٥ الغت روسيا (الاتحاد السوفيتي) هذه المعاهدة التي كانت مدتها لخمس وعشرين عاما . وبعد بضعة اسابيع ارسلت روسيا مذكرة في ٨

آب من نفس العام طالبت فيه بالأراضي الواقعة على الحدود بين تركيا وارمينيا وبالغاء القواعد البحرية والجوية في المضائق التركية وفتح المضائق للمرور الحر بما فيها المراكب الحربية للدول المحيطة بالبحر فقط . وقد رفضت تركيا استلام المذكرة واعلن رئيس الوزراء التركي في (١٤) آب « ان سياستنا الخارجية تستند على هدف محدد هو الحفاظ على سيادة تركيا على حدودها » وقد دعم الانكليز والامريكان الاتراك بشكل فعال وارسل الامريكيون البارجة العملاقة (ميسوري) التي وصلت استانبول في ٥ نيسان ١٩٤٦ وفي ١٢ آذار ١٩٤٧ صرح الرئيس ترومان « ان مستقبل تركيا كدولة واقتصاد مزدهر لا يقبل الشك وهو ذو اهمية بالغة لشعوب العالم التي تحب الحرية مثل مستقبل اليونان وقد اضاف بان تركيا بحاجة للمساعدة للدفاع عن المضائق وبناء اقتصادي قوي وبسبب عدم استطاعة بريطانيا القيام بهذه المساعدة فنحن الدولة الوحيدة التي تستطيع مد يد المساعدة . . وهو واثق بان نتائج قرار الولايات المتحدة هذا سيكون له نتائج واسعة » وقد وافق مجلس الكونغرس الامريكي بقسميه في نيسان على ذلك وفي مايس تم الموافقة نهائيا ووضع قيد العمل حيث خصصت مساعدة مالية قدرها (٤٠٠) مليون دولار منها (٢٥٠) مليون دولار لليونان و ١٥٠ مليون لتركيا .

أما المسألة الامنية فقد طالبت روسيا بإعادة مقاطعات قارس واردهان واضرروم على شكل مذكرة قدمت في نيسان ١٩٤٥ وكانت هذه المقاطعات تحت السيطرة الروسية ما بين اعوام ١٩٧٨ - ١٩١٧ وكانت حجة الروس هي ان تركيا استغلت الضعف الروسي المؤقت خلال الحرب الاهلية واقتطعت هذه الأراضي التي تعيش فيها حوالي (٥٠٠) الف شخص لهم الحق بالالتحاق بجمهورية ارمينيا الاشتراكية السوفيتية البالغ عدد سكانها مليون وثلاثمائة الف من السكان وقد رفض الاتراك هنا ايضا المطالب الروسية يدعمهم الانكليز والامريكان . اما المشكلة الثالثة التي يمكن ان تؤثر على منطقة الخليج بشكل مباشر فهي ظهور دولة اذربيجان في شمال ايران . فمن المعلوم ان الدول الثلاث امريكا وروسيا وبريطانيا اتفقت على احتلال ايران لتكون ممرا للمساعدة الامريكية المقدمة للاتحاد السوفياتي بعد الهجوم الالماني وفي ٢٩ حزيران ١٩٤٢ اتفق الروس والامريكان والانكليز على اخلاء ايران بعد ستة اشهر من انتهاء الحرب في مؤتمر الدول الكبار الثلاثة الذي عقد في بوتسدام حدد المؤتمر نهاية الفترة التي يجب ان يتم فيها الاخلاء وهي الثاني من آذار

١٩٤٦ . والواقع ان الروس ابتدأوا باخلاء المنطقة التي كانت تحت سلطتهم في نفس النهار المحدد لانتهاء الاخلاء .

في نفس الوقت تم عقد اتفاقية بين الاتحاد السوفياتي وايران على تأسيس شركة بترول سوفياتية ـ ايرانية حيث تقوم الحكومة الروسية بدعم هذه الشركة لمدة ٢٥ سنة وبحجم ٥١٪ من الاعمال الضرورية . وكان على هذه الشركة التنقيب في شمال البلاد خاصة في منطقة اذربيجان الواقعة على الحدود الروسية الايرانية . وفي نفس الوقت بدأت الاضطرابات في مختلف انحاء ايران ودعا حزب (توده) او الحزب الشيوعي الايراني العمال المغتربين حتى عمال شركة الانكلو ايرانية اضربوا، وفي ازربيجان اعلن عن تشكيل دولة مستقلة ولم تسمح للقوات الحكومية بالمرور في اراضيها وقد استهدفت هذه الاضطرابات خلق العراقيل امام الحكومة الايرانية وتأخير انسحاب القوات الروسية ، الا ان القوات الحكومية استطاعت دخول ازربيجان ما بين ٨ الى ١٨ كانون اول ١٩٤٦ بدون مقاومة كما قضت على دولة مهاباد الكردية في نفس الوقت بعد انسحاب الجيوش السوفيتية من ايران وحدث سوء تفاهم بين حزب توده الشيوعي والاتحاد السوفيتي . اما الاتفاقية البترولية مع الروس فقد رفض البرلمان الايراني المصادقة عليها وظهر ان ايران تريد قطع كل علاقة مع الاتحاد السوفيتي مع بلادها بدعم من الانكليز والامريكان ومنذ ذلك الوقت ابتدأ الامريكيون يركزون مجهوداً كبيراً لحماية ايران والتدخل المباشر بشؤونها .

الفصل الثاني

انهيار الامبراطورية البريطانية والانسحاب البريطاني من شرق السويس والمحيط الهندي والخليج واثره على المنطقة وامنها

- استعادة بريطانيا لممتلكاتها في العالم - استقلال الهند والدول الاسيوية بداية النهاية للامبراطورية البريطانية - الالتزامات البريطانية نحو العالم الغربي في الخليج والمحيط الهندي - الانحسار البريطاني وخروجهم من البحر الابيض المتوسط - الحلول الامريكي - مسرح عمليات المحيط الهندي ومسؤولية بريطانيا - سقوط القلاع البريطانية على طريق الهند - ضعف الاسطول البريطاني - فقدان الانكليز للجيش الهندي -بريطانيا ودور امريكا في المحيط - العقلية الاستعمارية البريطانية - الخوف على البترول من التسرب الشيوعي والدور الامريكي - تطور السياسة البريطانية الدفاعية والعمل على الانسحاب - الكتاب الابيض - الخلاف بين المحافظين والعمال - القواعد العسكرية البريطانية في المحيط الهندي وسواحل افريقيا والهند والبلاد العربية وجزر المحيط - اهمية قاعدة عدن - الكتاب الابيض وسياسة شرق السويس - الضعف البريطاني امام الاحداث - تأميم البترول الايراني ودخول امريكا المنطقة - توزيع المهام بين امريكا وبريطانيا - حلف بغداد - الحلف المركزي - الازمة الاقتصادية البريطانية واثرها على الانسحاب من الخليج - التحولات في الستراتيجية البريطانية وفشلها الانسحاب البريطاني .

الفصل الثاني

انهيار الامبراطورية البريطانية ، والانسحاب البريطاني من شرق السويس

استعادت بريطانيا مع نهاية الحرب العالمية الثانية جميع ما خسرته من ممتلكات في آسيا والتي طردتها منها اليابان ـ كبورما وشبه جزيرة الملايو وغيرها وعادت لها سلطتها في المحيط الهندي وزاد على ذلك استيلاؤ ها على امبراطورية ايطاليا في قرن افريقيا . وكان لديها عندما انتهت الحرب اكثر من مليون ومائة وسبعين الف جندي وبالرغم من احتفالها بالنصر كاول المنتصرين وبالرغم من هذا العدد الضخم من الجنود المدربين خير تدريب ، وجدت انه لم يعد بامكانها ان تحتفظ بهذه الامبراطورية الضخمة التي بدأت تهب عليها رياح الحرية والاستقلال الا بتضحيات جسيمة ، وقد قدر عدد الفرق الضرورية للبقاء في الهند ضد رغبة الشعب الهندي بخمسة وعشرين فرقة عدا مستعمراتها في بقية الدول الاسيوية وافريقيا . في الوقت الذي كان يتعرض فيه الاقتصاد الى هزات مميتة بسبب الخسائر التي مني بها خلال الحرب . وكان على السياسيين والاقتصاديين البريطانيين دراسة الفوائد التي يمكن الحصول عليها من خلال الاحتفاظ بهذه الامبراطورية الضخمة التي لا تغيب عنها الشمس ضد رغبات شعوبها بالمقابل مع المصروفات الضخمة لاعادة توزيع القوات البريطانية وتموينها وحماية قواعدها . والواقع ان مرحلة بداية النهاية لهذه الامبراطورية بدأت مع بداية الحرب وانتهت بانسحاب آخر جندي بريطاني من الخليج . وكان المحيط الهندي الذي شهد مجد بريطانيا خلال قرنين من الزمن ، المسرح الرئيسي لزوال الامبراطورية البريطانية ، ولم يقر البريطانيون بالرغم من واقعيتهم بهذه النتيجة الا بعد عشرين عاما من نهاية الحرب .

خلال هذه الفترة كانت الاهداف السياسية العامة للسياسة البريطانية الدفاعية تستهدف الحفاظ على امن المملكة المتحدة وتمكنها من الوفاء بالتزاماتها في حماية الممتلكات والشعوب الخاضعة لها وراء البحار « حسب قول الوثائق الرسمية البريطانية » والتي تشعر بريطانيا بواجب خاص تجاهها عن طريق المعاهدات الموقعة

بينهما . والتي تساعد على الاسهام في الدفاع عن العالم العربي . وضمن هذه الستراتيجية كان الدفاع عن الخليج العربي خاصة والمحيط الهندي عامة يشكل قطب الرحى في سياسة بريطانيا الدفاعية ضمن الاطار الشامل للتحالف الغربي . وكانت تقع على عاتق بريطانيا مسؤولية الدفاع عن المصالح الغربية المتزايدة في الخليج والوقوف في وجه كل التيارات الشيوعية التي يمكن ان تتعرض لها المنطقة بعد الثورة الشيوعية في روسيا الا ان النفوذ البريطاني في العالم بدأ يتضاءل شيئا فشيئا بعد استقلال المستعمرات وادى هذا الى تضاؤل تأثير بريطانيا في تسيير دفة السياسة العالمية كما كان الحال قبل الحرب حيث كانت بيدها الدفة التي تسير بها سياسة العالم .

كان النفوذ البريطاني في المحيط الهادي والهندي اول ما تحطم في الحرب العالمية الثانية بعد دخول اليابان الحرب ، فقد استطاع اليابانيون تحطيم قوة الاسطول البريطاني في المحيط الهندي والهادي واجبروا بقاياه للالتجاء الى جزر مالديف والاختباء بها طيلة الحرب . وقد ادى سقوط بورما وماليزيا وجزر الهند الشرقية (اندونيسيا) السريع في عام ١٩٤٢ بيد اليابانيين ـ وخاصة فقدهم لقاعدتهم الكبيرة والهامة في سنغافوره الى زوال ثقةاستراليا ونيوزلندا وغيرها من المستوطنات البريطانية في قدرة بريطانيا على حمايتها فاتجهوا نحو امريكا . وفي الحقيقة ان النفوذ البريطاني في المنطقة قد استمر منذ الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية للانحسار لصالح امريكا منذ تبدل النسبة بين اساطيل الدول الموقعة على معاهدة واشنطن البحرية عام ١٩٢١ لصالح امريكا التي حملت مسؤولية الدفاع عن المنطقة ضد الاطماع اليابانية منذ عام ١٩٤٥ وحتى الان ضد الاطماع السوفياتية حسب رأيهم .

اما في البحر الابيض المتوسط فكان لبريطانيا دور تقليدي تلعبه دائما منذ هزيمة نابليون في معركة (ابي قير البحرية) وما تلاها من احتلال لجزر مالطه وقبرص وسيطرتهم على جبل طارق ثم احتلال مصر والسيطرة على قناة السويس ومن هذه القواعد كانت تعمل بريطانيا على فرض نفوذها بواسطة اسطولها الضخم الذي كان يجوب البحر الابيض وقد حاول في الحرب العالمية الاولى احتلال مضايق الدردنيل والبوسفور فلم يتمكن ولكن المهمة الحقيقية لهذا الاسطول وهذه القواعد هي حماية طريق الهند . وقد خسرت البحرية البريطانية خسائر فادحة في الحرب مما اضعف قوة بريطانيا في المنطقة التي وجدت نفسها لا تزال تحتل المركز المسيطر السابق

الـذي يستنـد الى الاحتـلال العسـكري والى سلسلـة من الاحـلاف والاتفـاقيات والمعاهدات العسكرية التي لم تفقد قيمتها ، فتورطت في الحرب الاهلية اليونانية وارسلت جنودها لحماية الحكومة اليونانية وايقاف الثورة الشعبية التي بدأت تنتشر في كل مكان في اليونان ولكن بريطانيا بوضعها الاقتصادي الضعيف لم تستطع مواصلة الحرب فاضطرت مرغمة لطلب مساعدة امريكا بشكل رسمي في ٢٧ شباط ١٩٤٧ التي لبت الطلب بموجب مشروع ترومان واخذت تحل محل بريطانيا في تقديم الدعم للحكومة اليونانية . وبذلك فقدت بريطانيا دورها التاريخي لصالح امريكا التي جزمت امرها على تولي قيادة العالم الغربي في وجه المقاومة السوفياتية ويصف الصحفي السويسري جون شاماخر هذا الانسحاب « بانه عودة بريطانيا التي وقفت لوحدها امام هتلر عام ١٩٤٠ الى بلادها تاركة مركزها السياسي الذي كان لها كقوة عالمية لتقتصر مهمتها على الصناعة والتصدير » ولكن الامبريالية العالمية في الواقع لم تخسر شيئا من نفوذها بزوال النفود البريطاني من البحر المتوسط فقد حلت محل بريطانيا دولة اخرى امبريالية والامر لا يعدو تبادل الدور بين الانكليز والامريكيين .

ولنعود الى المحيط الهندي والخليج العربي وبشكل ادق واوسع المنطقة الواقعة ما بين البحر الابيض المتوسط والقارة الهندية فالموقف يختلف عما كان عليه في مناطق اخرى من العالم بالنسبة لبريطانيا التي كانت تعتبر نفسها صاحبة الحق في هذه المنطقة الواسعة . فدور بريطانيا في المحيط الهندي هو ارث من تراث الماضي العريق عندما كانت سيدة العالم وكان الاسطول البريطاني سيد البحار . وكانت الامبراطورية الهندية ـ البريطانية في ذروة مجدها وسؤ ددها ، وكانت المملكة المتحدة تبعا لذلك مسؤ ولة بشكل مباشر عن الحكم في عدد كبير من البلاد الواقعة الى الشرق من السويس ، عندما كان البريطانيون يسيطرون على طرفي القناة ويحتفظون باكثر من نصف الجيش البريطاني في الهند . وكانت تحمي الطريق اليه سلسلة من القلاع الاستعمارية موجودة في كل مكان تكثر فيه الملاحة البريطانية والممتدة من جبل طارق الى مالطه فقبرص فالسويس ـ عدن ـ سنغافوره ـ وهونغ كونغ ، وكان من المعتقد ان هذه السلسلة من القلاع تمكن بريطانيا الى حد ما من السيطرة سيطرة دائمية على مقدراتها ومصيرها . وذلك بسبب القوة الضخمة الكامنة في هذا الجهاز من القواعد الممتدة في مختلف انحاء العالم . وكان الاسطول الملكي يمثل القوة الضاربة والعصا

الغليظة والطويلة لاخماد كل حركة داخلية او خارجية تهدد النفوذ البريطاني .
وليتمكن الاسطول من تحقيق مهمته بشكل فعال فقد اقيمت لهذه الغاية شبكة ضخمة من محطات التموين بالوقود والغذاء تكمل القواعد المحصنة . بالاضافة الى محطات المواصلات السلكية واللاسلكية التي ترتبط مع مختلف انحاء العالم ، ومن هذه القواعد كانت بريطانيا تفرض نفوذها وهيمنتها على جميع المناطق حولها . مما جعلها قلاعا استعمارية تعددت مهماتها ما بين الحرب والتجارة والضغط على الشعوب وكبت الحريات فيها . ونظرا للحاجة الى البترول لتموين الاسطول فقد اصبح الخليج العربي يحتل الصدارة في الاهمية بالنسبة للامبراطورية لوجود البترول بعد ان تمت عملية تحويل سفن الاسطول الحربي من الاعتماد على الفحم في تسييرها الى الاعتماد على البترول وعندما اخذت الامبراطورية القديمة تتحول الى كيانات مستقلة (دومنيون) خلال فترة ما بين الحربين ترتبط ببعضها برباط هش تحولت القواعد العسكرية من جوية وبحرية الى موانىء ومطارات مدنية بعد انتشار استخدام الطيران التجاري في العالم وازدياد سفن الركاب .

حتى نهاية الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا لا تزال تمتلك جهازا ضخما من هذه القواعد وكانت ذات فائدة كبرى خلال الحرب ولكن بعد الحرب ظلت بريطانيا لفترة لا بأس بها تعتمد عليها وتعتقد بجدواها في تحقيق استراتيجيتها الدفاعية ولكنها بعد خسارتها لنفوذها ولقسم كبير وهام من هذه القواعد تخلت عن مهماتها لامريكا .

حتى عام ١٩٤٥ كانت بريطانيا الوحيدة ولمدة قرنين من الزمن التي لها وجود عسكري في المحيط الهندي والخليج وتعتمد على سلسلة القواعد في افريقية وعدن وفي الخليج كانت لتستخدم قاعدة (الجفير) في البحرين . وفي دبي كانت تعسكر قوة ما يعرف باسم (كشافة عمان) وكان لها قاعدة جوية في مسقط ثم تغيرت الاوضاع كثيرا ان كان في الجزر البريطانية او خارجها فقد اختفت الامبراطورية نفسها بعد خروج بريطانيا من الهند وتركها لقسم كبير من مستعمراتها . ولم يعد للجيش الهندي القديم الذي كان يؤلف القوةالسوقية الضخمة للامبراطورية وجودبعد ان حققت الهند استقلالها في عام ١٩٤٧واختفت ايضا عدة ممتلكات بريطانية سابقة . وتضاءلت مسؤولية بريطانيا الدفاعية فيما وراء البحار الى حد كبير ، كما خففت درجة سيطرتها المستقلة على القضايا الاستراتيجية والعسكرية في مناطق كانت

تتصرف فيها لوحدها فيما مضى ، فباتت الان مرغمة على العمل بالاشتراك مع غيرها او بالتشاور مع حليفاتها على الاقل. ولم يعد في وسع الاسطول الملكي ان يتفاخر بانه سيد البحار ولم تعد المملكة المتحدة تسيطر على طرفي قناة سويس وانتهى زمن استخدامها لعدد من القواعد العسكرية وبصورة مفاجئة ، ووجدت بريطانيا نفسها مضطرة لاستخدام ما تبقى من مواردها بعد الحرب في محاولة لاداء التزاماتها الراهنة فيما اضطرت الى التعهد باشياء جديدة الى حلف الاطلسي والى حليفاتها من الدول الغربية .

ورغم كل الخسارات التي لحقت ببريطانيا ، الا ان العقلية الاستعمارية لدى السياسيين البريطانيين كانت تعتقد بدور بريطانيا وخاصة في هذه المنطقة من العالم ، والتي كانت تعتقد بانها منطقة سهلة القيادة لوجود شعوب متأخرة حسب زعمها . الا ان مقاومة الشعب العربي ان كان في مصر او جنوب اليمن او فلسطين ومقاومة الشعوب الافريقية جعل من المخططين العسكريين البريطانيين ، يضطرون للمرة الاولى للتسليم بالعجز عن المحافظة على النظام الامبراطوري القديم في وجه التطلعات السياسية المتزايدة والعنيفة لشعوب المستعمرات السابقة والى تسليمهم بان الحصول على التسهيلات في الموانىء الجوية والبحرية والحصول على القواعد العسكرية وحقوق المرور في الاجواء لا يمكن تحقيقه الا بموافقة السلطات المحلية في البلد المطلوب ، ولم يعد بامكان بريطانيا بالرغم من كونها كانت تحكم تلك البلاد ان تقوم باي عمل دون ارادة شعوب تلك البلاد وحتى مثل هذه الطلبات كانت تثير الثورة في الشعوب التي كانت لا تزال تخضع لبريطانيا .

• كان الاصرار البريطاني على البقاء في المحيط الهندي عامة والخليج العربي خاصة يستند على حجج كانت ترى فيها بريطانيا اسبابا قاهرة لضرورة وجودها في المنطقة وكانت ترى ان عليها مسؤ وليات والتزامات تجاه امارات ومشيخات الخليج التي كانت ترتبط معها بمعاهدات واتفاقيات قديمة عدا مصالحها الاقتصادية الحيوية التي ارست قواعدها في المنطقة منذ فترة طويلة بالاضافة الى حماية طريق الشرق الاقصى نحو سنغافوره وهونغ كونغ عدا التزاماتها في مساعدة اتحاد ماليزيا المهدد دائما من الداخل بالثورة الشيوعية ومن الخارج من اندونيسيا (سوكارنو) التي كانت ترى في هذا الاتحاد ركيزة استعمارية بريطانية ، وكانت بريطانيا تعتقد بانها افضل من يؤ من مصالح العالم العربي في المنطقة وكانت تعطي لنفسها دور الشرطي

منذ سنين طويلة وكانت استراتيجيتها واستراتيجية الغـرب بشـكل عام في المنطقـة تعمل على ابعاد كل الافـكار الشيوعية القادمـة من الشمال اليهـا ومـا من شك في الاهمية الاستراتيجية الضخمة التي للمحيط الهندي والخليج في مخططات الغـرب وذلك بسبب وجود موارد الزيت المتنـاهية الاهمية لاوربـا الغـربية . وكان زوال النفوذ البريطاني والتفكير به دون ان تحل دولة عالمية كبرى او مجموعة من الـدول تظهر في المنطقة خوفا من التدخل الشيوعي فيهـا يصبـح الكابـوس الـذي يؤ رق مضاجع الحكومة البريطانية ابتداء من نهاية الحرب العالمية الثانية على الاقل حتـى اواسط الخمسينات وتسلط على ساسة حقبة ايدن هذا الكابوس وهو الخوف من ان يقع الزيت في يدي رجـل واحـد او مجموعـة من الـدول عربية او سوفياتية او من كليهما ، والاحتمال الاكبر والمخيف لهم هو تحقيق شكل من اشكال الوحدة السياسية بين العرب تجعل جميع حقول الزيت الرئيسية تحت سيطرة سلطة عربية واحدة ولو صح تحقيق ذلك فالضغط الاقتصادي العسكري سيكون اكثر فعالية على الغرب ، ولا شك ان العدوان الثلاثي على مصر كانت من جملة اهدافه الرئيسية القضاء على الفكرة الوحدوية التي بدأ يبشر بها جمال عبد الناصر . .

كانت امريكا مرتاحة لوجود بريطانيا مسؤ ولة عن الدفاع عن المنطقة وكانت تؤمن بان اي تجمع عسكري يجب ان يكون تحت قيادة بريطانية . وكانت بريطانية تعمل على السير ضمن هذا الهدف بالرغم من ان البترول الموجود في المنطقة لم يكن جميعه بريطاني باكثر من ستين بالمائة من الشركات العاملة في انتاج الزيت في المنطقة هي امريكية بالاضافة الى الشركات اليابانية والايطالية . . الخ .

لكن الهدوء الذي اشاعته بريطانيا في فترة ما قبل الحرب لم يكن بالامـكان تحقيقه خلال فترة ما بعد الحرب وما تلاها فلم يطل الامر حتى ابتدأت الصعوبات تظهر امام بريطانيا من تأميم للبترول في ايران والذي اصاب مصالحها في الصميم . ثم كانت ثورة العراق والاطاحة بالملكية عام ١٩٥٨ وخروجها من قاعدة عدن بعد استقلال اليمن الجنوبي في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٦٧ واضطرارها الى ارسال جيوشها للكويت لحمايتها من عبد الكريم قاسم ١٩٦٣ وتدخلها في الثـورة العمانية لحماية السلطان سعيد بن تيمور ، كل ذلك جعلها تنظر الى المصاريف الباهظة التي كانت تكبدها من قيامها بدور الشرطي لذلك كان لا بد لها من التفكير بالانسحـاب من المنطقة وكان عليها ان تلجأ مرة ثانية الى الولايات المتحدة . خاصة بعد خسارتها

للتسهيلات التي كانت لها في السويس والتي كانت تنظر اليها على انها اساس قوتها العسكرية في الشرق الاوسط . وقد ادت الى اضعاف قدرتها على نشر قواتها في المنطقة نشرا فعالا واصبحت واثقة من ان القوات التي تستطيع توفيرها فيها لا تصلح لاكثر من صراعات محدودة .

حاولت بريطانيا خلال هذه الفترة تطوير سياستها الدفاعية بما يتلاءم مع متطلبات الوضع العام والتوفير اكثر ما يمكن وقد اعاد الكتاب الابيض البريطاني الذي صدر عام ١٩٥٧ تحديد سياسة بريطانيا الدفاعية وذلك نتيجة ارغامها على الانسحاب كلية بعد الكارثة التي منيت بها في مغامرة السويس وقد اكد الكتاب على اهمية افريقية الشرقية والمنطقة الواقعة شرق السويس واعلن الكتاب الابيض تصميم بريطانيا على الوفاء بالتزاماتها الدولية والاستعمارية في الشرقين الاوسط والاقصى عن طريق مجموعة من حاملات الطائرات والجنود ترابط في الظروف العادية في المحيط الهندي وتتعزز بقوات احتياطية ومركزية من القوات التي تنقلها الطائرات والتي ترابط في بريطانيا نفسها وتعمل هذه بالتعاون مع القوات المنسحبة من حاميات المستعمرات السابقة ، وقد تقرر في الوقت نفسه الاحتفاظ بقوات برية وبحرية وجوية محلية في المنطقة ولذا فسرعان ما بادرت السلطات البريطانية الى تطوير منشآت قواعدها العسكرية في كينيا تطويرا كبيرا .

ولا شك ان التحول من القواعد الثابتة الى العمليات المنقولة جوا هو تغير مرحلي في التاريخ العسكري ولولا وجود الطائرات الضخمة ذات الحمولات الكبيرة لما كان قد تم مثل هذا التفكير ولكن هناك مصاعب كثيرة تعترض هذه الطريقة وخاصة لبريطانيا وفي مثل هذه الحالة لان الطريق الطويل بين بريطانيا والمحيط الهندي يمر فوق اجواء بلاد لا تسمح لبريطانيا باستخدامه لذلك فهي مضطرة للمرور حول القارة الافريقية وهذا شيء صعب جدا والطريق الغربي اي من استراليا سهل ولكنه بعيد وقد بينت حملة الكويت ـ عندما هدد عبد الكريم قاسم باحتلالها في التاريخ الذي اعلنت فيه استقلالها ـ بوضوح الصعوبات التي تعترض هذه الطريقة ، وفي عام ١٩٦٢ عادالكتاب الابيض الدفاعي والذي حمل اسم «الخطة الخمسية القادمة » فمضى في هذا التطور في اعادة تحديد سياسة بريطانية الدفاعية في الشرق الاوسط ، والذي يركز على اهمية النفط على الصعيدين العسكري والتجاري

لبريطانيا وان على العالم الغربي ان يحميه ويحافظ عليه مهما كان الثمن حتى ولو ادى الى استخدام القوة واعلن الكتاب الثاني لعام ١٩٦٢ ان المملكة المتحدة هي المسؤولة وستظل مسؤولة عن ضمان الامن والاستقرار في مناطق انتاج الزيت في شبه الجزيرة العربية عن طريق تأمين المعونة العسكرية لتلك الامارات التي تربطها بالمملكة المتحدة معاهدات خاصة او التي تشملها بحمايتها ، وهي تضم كافة الامارات والسلطنات الواقعة على الشاطىء الشرقي لشبه الجزيرة العربية بما فيها دولة الكويت وحملت المملكة المتحدة في الوقت نفسه مسؤولية حماية سلاطين اتحاد الجنوب العربي وامرائه بموجب المعاهدات المعقودة معهم كما حملت مسؤولية الدفاع عن امارات محمية عدن والمسؤولية الدفاعية المباشرة عن مستعمرة عدن نفسها . ويشرح وزير الدفاع البريطاني المستر (واتكينسون) الوسائل التي ستلجأ اليها بريطانيا لتحقيق هذه الاهداف ولا سيما وان من الضروري اجراء تبديل جوهري في السياسة على المدى الطويل طالما ان المفهوم لم يعد يقوم على جيوب منتشرة لقوات المملكة المتحدة توزع في جميع ارجاء العالم بل يعتمد على ثلاث قواعد رئيسية وهي المملكة المتحدة وعدن وسنغافوره حيث لا بد من تركيز القوات البريطانية في المستقبل لنشرها ونقلها حيث تستدعي الضرورة بالطرق البرية والبحرية والجوية ، ومن المهم كما اشار الكتاب الابيض ان التمييز بين القاعدة والحامية اذ ان الحاجة العسكرية لوجود القاعدة فيما وراء البحار تعتمد على الوقت الذي يتطلبه نقل القوات والاسلحة الى المناطق المهددة بالاخطار ، فالقاعدة والحالة هذه مكان تحشد فيه القوات والسفن الحربية والطائرات والمعدات الثقيلة والمؤن وتسهيلات الصيانة والاصلاح لاستخدامها في العمليات العسكرية في اي مكان الذي توجد فيه الحامية ولم يشرح الكتابان اللاحقان لعامي ١٩٦٣ - ١٩٦٤ ولا اية بيانات رسمية اخرى الاسباب التي تدعو الى الافتراض بان سياسات حكومات المحافظين حول قضايا الدفاع عن الشرق الاوسط قد تعرضت لاي تبدل جوهري .

كانت بريطانيا تحتفظ بحامية عسكرية في عدن منذ امد طويل ، ولكن الجهد العسكري الدفاعي البريطاني في منطقة الخليج لم يشرع في الاعتماد على القاعدة العسكرية في عدن ، الا بعد ان اتضح لبريطانيا ان كينيا لن تكون في متناول القوات البريطانية بعد حصولها على استقلالها في شهر كانون اول عام ١٩٦٣ وقد تحولت القيادة العامة للقوات البريطانية في الشرق الاوسط الى عدن لتشمل بصلاحياتها

منطقة تمتد من الكويت وقناة السويس في الشمال الى الساحل الافريقي في الجنوب . وتربض عدن في مركز متوسط بين قارات العالم القديم وافريقيا وآسيا واوروبا لذلك كانت لها اهمية استراتيجية لدى المعسكر الغربي عامة وبريطانيا خاصة واهميتها بالنسبة للعالم الغربي انها كانت تكمل سلسلة القواعد الغربية المحيطة بالاتحاد السوفياتي لقربها منها كما انها كانت القاعدة الامامية واو الباب الامامي للقوات الغربية والامريكية المتجهة لايران عبر افريقيا .

اما بالنسبة لبريطانيا فكات عدن تقف كالحارس الامين تحمي منها مصالحها البترولية في الخليج وتقف ضد كل حركة تحررية في مستعمراتها الافريقية ، وما تبقى لها من ممتلكات في الشرق وقد زادت اهمية (عدن) عندما خفضت بريطانيا نفقات التسليح وتحولت من القواعد الثانية الى القوات التي تنقل جوا والتي اشرنا اليها قبلا . وقد اقامت القوات البريطانية في عدن المعسكرات الضخمة لاستقبال خمسين الف من الجنود القادمين عن طريق الجو من بريطانيا او استراليا . ومن عدن كان القائد البريطاني لمسرح عمليات المحيط الهندي يبسط سلطانه على الشرق الاوسط والجزيرة العربية وعلى القواعد الجوية في الشارقة والبحرين ونظرا لما سيلعبه الطيران في حرب مقبلة فقد كانت القيادة البريطانية برئاسة القائد العام للطيران البريطاني في المنطقة وكانت العادة ان يتولى مثل هذه الامور القادة البحريون . وتتلاقى في عدن ايضا مختلف اتجاهات الخطوط السلكية واللاسلكية بين بريطانيا واملاكها عبر البحار ، وقد قامت بريطانيا حسب قول وزير الدفاع البريطاني جون بروفيومو بتحصينها ضد القنابل الذرية .

ونظرا لازدياد حالة التوتر في الشرق الاقصى والحرب الفيتنامية وازدياد القوة الحربية الصينية فقد ازداد اهتمام بريطانيا بعدن . وقد اصدرت بريطانيا في ٢٣/ ٢/ ١٩٦٥ كتابا ابيضا جديدا عن سياستها الدفاعية اوضحت فيه « انها حولت اهتمامها الدفاعي من اوربا الى المنطقة التي تقع (شرق السويس) حيث تعتبر مساهمة بريطانيا الدفاعية في هذه المنطقة ذات اهمية كبرى . وجاء في الكتاب الابيض هذا ان تخلي بريطانيا عن قواعدها العسكرية في عدن وسنغافوره لا يتفق مع روح المسؤولية التي تتسم بها السياسة البريطانية خاصة وانه لا تزال هناك حاجة الى هذه القواعد لحماية السلاح في المناطق التي توجد فيها هذه القواعد وان كنا نعترف

بانه لا يمكن ابقاء هذه القواعد الا بالاتفاق مع حكومات وشعوب المناطق التي توجد فيها هذه القواعد .

لقد اظهرت مشاكل ايران الداخلية وتأميم البترول بعد ظهور مصدق عام ١٩٥١ ان بريطانيا لا يمكن لوحدها حل كل المشاكل المتعلقة في المنطقة والتي لا توجد مثلها في المناطق العالمية الاخرى تواجه النفوذ الغربي بهذا العنف لذلك عادت للالتجاء الى امريكا التي اصبح لها مصالح واسعة في المنطقة تفوق ما لدى بريطانيا نفسها خاصة في ايران وقد استطاعت امريكا قلب نظام مصدق عام ١٩٥٤ واتت بالجنرال الموالي للملكية (زاهدي) الى الحكم .

في الواقع كانت شعوب المنطقة ترى في وجه بريطانيا الاستعماري بالرغم من وجود كثير من الحكام يتعاونو معهها- العودة الى العهد الاستعماري البغيض الذي لفظ انفاسه منذ زمن طويل ، وكانت امريكا لا تزال تعتقد بهيبة ونفوذ بريطانيا في تأمين مصالحها في المنطقة وكانت المشاركة بينهما حينها اوجدتا سياسة الاحلاف التي ظهرت خلال الحرب الباردة ١٩٤٧ - ١٩٥٣ وظهور حلف الاطلسي وحلف وارسو . . الخ وكانت تريان في استقرار الانظمة الموالية لهما هو الحل الوحيد الذي يمكن ان يبعد النفوذ السوفياتي في المنطقة ، وقد اصبحت هذه الستراتيجية الهدف الرئيسي للغرب خلال الخمسينات وقسم كبير م الستينيات . وقد جرى توزيع المهام بين الامريكان والانكليز عن طريق اقامة نظام دفاعي من دول المنطقة عرف في بادىء الامر باسم حلف بغداد ويضم كلا من تركيا والعراق وايران (بعد مصدق) والباكستان وبريطانيا وقد اتت المبادرة من تركيا ولكن بدون شك بتوجيه من امريكا باعتبار ان تركيا عضو في الحلف الاطلسي وتم التوقيع على معاهدة الحلف الجديد في بغداد في ٢٤ شباط ١٩٥٥ وكان مقره في العاصمة العراقية ، ولكن ثورة عبد الكريم قاسم والاطاحة بالملكية في العراق جعلت من الحلف يفقد احد اعضائه البارزين حيث اعلن عبد الكريم قاسم انسحابه من الحلف وطلب من قيادة الحلف مغادرة العراق حيث انتقلت الى تركيا ، وتمركزت قيادته في انقره وسمي الحلف المركزي

حيث انتقلت الى تركيا ، وتمركزت قيادته في انقره وسمي الحلف المركزي Central treaty organization (السانتو) كما عقدت امريكا مع كل من الباكستان وايران وتركيا اتفاقيات دفاعية ثنائية وبذلك دخلت الحلف بشكل مباشر . وقد نصت الاتفاقيات على الدعم الجوي واقامة القواعد والمساعدة الفنية والعسكرية لهذه الدول

وبذلك فقدت بريطانيا دورها كموجه سياسي وعسكري واصبح دورها ثانويا حتى عام ١٩٦٨ عندما بدأت بالتفكير بالانسحاب من المنطقة واعطائها استقلالها والقاء كافة الاعباء على امريكا التي اخذت لقاء ذلك ثمنا باهظا وهو البترول الايراني الذي خسرته بريطانيا كما سنرى .

حتى عام ١٩٦٨ كانت حكومة العمال البريطانية تعتقد بوجوب بقاء بريطانيا في منطقة الخليج بسبب مصالحها الكبيرة هناك وخاصة البترول الذي اصبح عصب الصناعة الاوروبية وخاصة بريطانيا وكان العمال يعتقدون بانه ما لم يتوفر نوع جديد من المحروقات او مكان آخر تعتمد عليه بريطانيا فالواجب البقاء في الخليج وكان التفتيش على البترول في المياه الاقليمية البريطانية وبحر الشمال قائم على قدم وساق ، ولكن تدهور الاحوال الاقتصادية في بريطانيا . وخاصة عدم التوازن في ميزان المدفوعات والتصخم المتزايد جعل من حكومة العمال تفكر تفكيرا جديا باجراء عملية تقشف كبرى لاعادة الثقة بالاقتصاد البريطاني ، وكان اعادة توزيع القوات البريطانية او سحبها او ايجاد طريقة ما للتخلص من مصروفاتها في شرق قناة السويس هو احد الاهداف الرئيسية للحكومة البريطانية للتغلب على التضخم . وعلى هذا الاساس اعلن هارولد ويلسون رئيس الوزراء البريطاني عزم حكومته على سحب كافة القوات البريطانية في شرق السويس وانهاء الوجود البريطاني مع نهاية عام ١٩٧١ ، وقد لقي تصريحه هذا مقاومة شديدة من حزب المحافظين المعارض الذي كان يهيىء نفسه للحكم . ورغم ذلك اخذت حكومة العمال بتحضير الترتيبات لهذ الانسحاب الذي بدأ بتجميد مصروف القوات البريطانية في شباط ١٩٦٦ عندما اعلن عن تخفيض الاتفاق في شرق السويس ومع ذلك نشرت حكومة العمال في نفس الوقت تقريبا قبل الانتخابات العامةفي ادار ١٩٦٦ تقريراً دفاعيا تحدث عن الدور الفعال للقوات البريطانية خارج اوربا في حفظ السلام والمصالح البريطانية والقيام بدور الرادع ضد نشوب الصراعات المحلية ، وقد جاء في نفس التقرير تمسك بريطانيا والقيام بدور الرادع ضد نشوب الصراعات المحلية ، وقد جاء في نفس التقرير تمسك بريطانيا بمسؤ وليتها الدفاعية الدولية ، وقد اعلن رئيس الوزراء البريطاني عن مشروعات عسكرية بين بريطانيا والولايات المتحدة واوستراليا ونيوزلندا وتستهدف ايجاد تعاون بين هذه القوات او بالاحرى الدول في منطقة شرق السويس وبحر الصين لدعم الخطة الستراتيجية العسكرية الغربية في

المنطقة المذكورة . وفي حزيران عام ١٩٦٧ وافق مجلس العموم البريطاني على سياسة حكومة العمال الرامية الى سحب القوات البريطانية شرق السويس في الفترة ما بين ١٩٧٣ - ١٩٧٥ واخيرا كجزء من خفض الانفاق في بريطانيا ككل بعد تخفيض قيمة الجنية الاسترليني في تشرين الثاني ١٩٦٧ تم تقديم ميعاد الانسحاب في كانون اول ١٩٦٨ بحيث اصبح محددا له ان يتم مع نهاية عام ١٩٧٢ . ولكن البرنامج الانتخابي لحزب المحافظين بحث اقتراحات بقاء اوعودة القوات البريطانية في جنوب شرق آسيا والخليج واعلن هيث بعد فوز المحافظين عزم حكومته على ابقاء الوجود العسكري البريطاني شرق السيوس مناقضا بذلك ما كان ويلسون ينادي به من انتهاء هذا الوجود عام ١٩٧١ . وقد احيا اعتزام حكومة المحافظين ابقاء القوات البريطانية شرقي السيوس المناقشات المتعلقة باستراتيجية شرق السويس وهذه المناقشات لم تكن تدور حول الوجود البريطاني في شرق السيوس فهذا امر مفروغ منه ولكن تدور حول هل من الضروري ان يكون ثمة وجود عسكري بريطاني شرق السويس للحفاظ على المصالح البريطانية ام انه يمكن الاعتماد على ادوات اخرى للقوى السياسية بهذا الصدد ؟ .

والواقع هو انه عندما حولت بريطانيا سياستها الدفاعية شرق السويس من القواعد الثابتة التي كانت تحوي عددا كبيرا من الجند البريطانيين والمعدات والاسلحة تعيش في المنطقة كما هو الحال في قاعدة نيروبي اي انها تستطيع ان تتدخل مباشرة بامكانياتها الخاصة في اية نقطة من نقاط النطاق المحدد في مهمة هذه القاعدة نقول انه عندما حولت سياستها الى الاعتماد على قوات ضاربة موجودة خارج نطاق المنطقة التي يمكن ان تتدخل فيها تنقل بالطائرات الضخمة من اماكن تحشدها ان كان في بريطانيا او اوستراليا الى اماكن القتال بالتعاون مع القوات المحلية التي كانت في يوم من الايام بريطانية ويقودها ضباط بريطانيون ، ولهذا تم تحضير قاعدة عدن الضخمة لاستقبال هذه القوات القادمة من الخارج وقد جهزة هذه القواعد بالمدارج الكبيرة العديدة والمساكن لايواء عدد كبير من الجنود . ويقي هذا التحول في الواقع هو سحب القوات البريطانية لتحقيق مصروفاتها اليومية من المنطقة ولم يبق فيها سوى بعض وحدات السلاح الجوي والبحري وبقي الاعتماد على القوات المحلية التي كانت بريطانيا تصرف عليها في جنوب اليمن والخليج . وهذه القوات ومصروفاتها كانت الهدف من القول لتخفيض النفقات في شرق السويس وكانت

تأمل بريطانيا نقل القوات المحلية الموجودة في الجنوب العربي والمعروفة باسم (الليوي) الى اتحاد الجنوب العربي واما قوة كشافة عمان الموجودة في الخليج فكانت تأمل باحالتها الى حكومة محلية في المنطقة . وهذه القوات جميعها كانت تحت قيادة بريطانية ومسلحة تسليحا بريطانيا اي انها واقعة تحت سلطة وتأثير بريطانيا وقد رأينا كيف استخدمت هذه القوة المشكلة من مرتزقة من البلوش في احتلال واحة البريمي اثر الخلاف بين بريطانيا المحتلة لكل من سلطنة مسقط ومشيخة ابو ظبي والمملكة العربية السعودية وفي مسقط كان الجيش السلطاني المشكل من مرتزقة البلوش ايضا تحت القيادة البريطانية او بالاحرى تحت قيادة ضباط متعاقدون مع الحكومة العمانية للعمل في الجيش . وعلى كل فالخطة البريطانية نفسها التي تعتمد على القوات المحمولة جوا هي نفسها . اخفقت للصعوبات التي اعترضت تنفيذها فكما رأينا لم تعد اي دولة تسمح بمرور القوات البريطانية في اجوائها بالاضافة الى مشكلة تأقلم الجنود القادمين من بريطانيا مباشرة الى المنطقة الحارة كما حدث عندما وصل الجنود البريطانيون اثناء الخلاف الكويتي العراقي من المناطق الباردة الى المناطق الحارة مما جعل معظمهم يقعون فريسة لامراض المناطق الحارة واخيرا فقدت بريطانيا قاعدة عدن بعد استقلال الجنوب في ٣ تشرين ثاني عام ١٩٦٧ بعد ثورته اللاهبة وقد اضطرت بريطانيا للجلاء عنها بعد انضمام قوات (الليوي) المشكلة من القبائل الى الثوار وبذلك فقدت بريطانيا آخر قواعدها المهمة في المنطقة ولم يعد امامها سوى القاعدة البديلة في (ديفوجارسيا) الواقعة في المحيط الهندي والتي اجرتها فيما بعد لامريكا لاقامة قاعدة ضخمة ستهيمن على المحيط الهندي كما سنرى .

كانت القوى الاستعمارية تعارض خروج القوات البريطانية من المنطقة وكانت امريكا نفسها تعمل على ابقاء النفوذ البريطانية ليخفف عنها اعباء انتشارها في مختلف انحاء العالم بالاضافة الى الدول غير الشيوعية في جنوب آسيا ولكن دول المنطقة كانت تعمل الى ابعاد النفوذ والوجود البريطانية من المنطقة جميعها وطالبت هذه الدول بريطانيا بعدم التأخير في انسحابها الى ما بعد التاريخ الذي حدده العمال ، وقد لمس ذلك السير دوغلاس هيوم وزير خارجية بريطانيا المحافظ هذا الوضع نفسه عندما زار المنطقة ولم تشذ في واقع الامر سوى (دبي) لذلك اقتنع دوغلاس هيوم بان على بلاده ان تنسحب في نفس التاريخ الذي حدده العمال وهو نهاية عام ١٩٧٠ .

الفصل الثالث

ازدياد اهمية الخليج السياسية والاقتصادية بعد الحرب وتطور الحركة الاستقلالية والوحدوية

ـ اهمية الطاقة البترولية خلال الحرب ـ محاولات بريطانية للاحتفاظ بالخليج ـ تكريس الانفصال والتجزئة ـ حالة التشرذم ـ الانسحاب البريطاني ـ الموقف السلبي البريطاني من احتلال ايران للجزر العربية الثلاث ـ اوضاع الخليج عند اعلان الانسحاب البريطاني .

ـ استقلال دولة الكويت والخلاف العراقي الكويتي

ـ استقلال البحرين ومشكلة المطالبة الايرانية وتطورها ونهايتها .

ـ اتحاد دولة الامارات العربية وتطوره

ـ استقلال قطر

ـ التطورات الرئيسية في عمان

ـ مجلس التعاون الخليجي واهدافه .

الفصل الثالث

ازدياد اهمية الخليج السياسية والاقتصادية بعد الحرب وتطور الحركة الاستقلالية الوحدوية

كان للحرب العالمية الثانية اثرها الكبير في ازدياد اهمية الخليج خاصة والمحيط الهندي عامة في السياسات والستراتيجيات الدفاعية والهجومية للقوى العظمى فقد تغيرت هذه الاهمية من اعتباره ممراً للتجارة الى مركز لها وسوق ذات قوة شرائية كبرى ومصدر لأهم المواد الخام الستراتيجية في العصر الحديث ألا وهو البترول وقد ظهر واضحاً ان هذه المادة رغم انها لم تكن على ماهي عليه من الاهمية الآن الا أنها لعبت دوراً رئيسياً في مسيرة الحلفاء نحو النصر فقد اعتمدت عليه الاساطيل البحرية الحليفة والقوات المحاربة البرية والجوية اعتماداً كلياً ـ كما حدث في الحرب العالمية الأولى ايضاً خاصة القوات التي كانت تحارب في مسارح عمليات الشرق الأقصى وبورما والشرق الاوسط وكان لدخول امريكا في مختلف العمليات البترولية في المنطقة من تنقيب واكتشاف واستثمار ورؤوس الأموال الضخمة التي وضعت في الاستثمار اثره الكبير في اهتمام الحكومة الامريكية التي هالها ما خسرته من مخزونها البترولي خلال العمليات الحربية وادى بها إلى التفتيش على منابع جديدة للطاقة لايقاف النزيف البترول من بلادها وللاستعاضة به عن بترولها الخاص وقد وجدت ضالتها كما رأينا في الفصول السابقة في بترول الشرق الاوسط ومخزونه الذي لاينضب يضاف إلى ذلك ما حدث من نمو متزايد في الميدان الصناعي لكل من الدول الأوربية الغربية واليابان وازدياد الحاجة للبترول كبديل عن الفحم الحجري لدوام مسيرة الصناعة والزراعة وغيرها .

لقد عملت السياسة البريطانية منذ القدم على تكريس الامارات والمشيخات دون انضوائها ضمن دولة موحدة تستطيع ان تدافع عن نفسها ضد الاخطار المحيطة بها وكانت بريطانيا تعتقد ان في ذلك تهديد لمصالحها الستراتيجية . ولكن بعد تفكيرها بالانسحاب بسبب الضائقة المالية التي كانت تعاني منها حاولت دفع دول الخليج والتي كانت لا تزال تحت السيطرة البريطانية حتى ذلك الوقت

نحو الوحدة والاستقلال ، والاعتقاد السائد ان بريطانيا حاولت مسايرة ـ أو بالأحرى ـ ركوب التيار الاستقلالي الذي بدأ يظهر في الامارات والمشيخات وخوفا من تدخل الجامعة العربية والمساندة العربية التي يمكن ان تقدمها للامارات والمشيخات مما يجعل خروج الانكليز محتما لذلك اعلنت عن انسحابها وعملت على دفع عجلة الاستقلال في المنطقة وعلى ذلك فالانسحاب العسكري البريطاني في الواقع كان يقصد منه خطوة تكتيكية من اجل الحفاظ على المصالح الاقتصادية والستراتيجية البريطانية ولذلك لم تقم باي عمل عندما احتلت ايران الجزر العربية الثلاث في اليوم الاول من اعلان اتحاد دولة الامارات واعتبرت ذلك قضية لا تخصها مع انها كانت حتى ذلك الوقت مسؤولة عن الدفاع عن المنطقة . ولو انها اعلنت عن انسحابها .

كان المتشائمون من الحركة الاستقلالية لدول الخيليج يخشون من ردود الفعل بعد اعلان بريطانيا الانسحاب فالوضع في الخليج كان مائعااذ ليس فقط ان العراق كان يطالب بالكويت ، كانت ايران تطالب بالبحرين وببعض الجزر العربية الاخرى والبحرين كانت تطالب ببعض الجزر القريبة من شبه جزيرة قطر وقطر تطالب ببعض جزر البحرين والسعودية كانت تطالب بواحة البريمي من عمان وابو ظبي كانت تطالب بمنطقة في الجنوب الشرقي كما ان السعودية تطالب بتعديل الحدود مع ابو ظبي . وهكذا فان حالة التشرذم كانت ظاهرة تماما في ساحل الخليج الذي كان يعيش فيه سكان قلائل نسبيا وينبض بثروات هائلة وكانت نتيجة لتكريس المصالح البريطانية وجعلها فوق المصالح الوطنية لشعب المنطقة ولولا هذه المصالح لكانت خارطة الخليج السياسية غير ما هي عليه وقد عملت السياسة البريطانية بالاضافة الى عملية التفتيت والتجزئة المتواصلين الى تجمد ديناميكيتها السياسية وتطورها بحيث باتت غير قادرة على تدبير شؤونها او بالاحرى اوهمت على انها غير قادرة على ادارة شؤونها في مواجهة هزات سياسية واجتماعية داخلية ولكن الاحداث اثبتت عكس ذلك وسار شعب المنطقة نحو استقلاله باقدام ثابتة ودعم استقلاله بالاستفادة من الثروة التي وهبها الله له ليس فقط في تدعيم الاستقلال الداخلي بل تثبيت مراكز سياسية واقتصادية عالمية . رغم قصر الفترة ما بين الاستقلال والآن .

كانت الكويت اول دولة خليجية تحصل على استقلالها بعد الحرب ففي ١٩ حزيران عام ١٩٦١ اكدت الاتفاقية الجديدة المعقودة بين الكويت وبريطانيا على استقلال البلاد استقلالا كاملا في الشؤ ون الداخلية والخارجية وفي ١٦ تموز من نفس العام انضمت الكويت للجامعة العربية كما انضمت في ١٤ مايس ١٩٦٣ للامم المتحدة واصبحت عضوا فيها ولم تكد الكويت تحصل على استقلالها حتى ظهرت مشكلة الحدود مع العراق او بالاحرى مطالبة العراق بضم الكويت اليه باعتبارها ارضا عراقية واميرها يعتبر قائمقاما لمدينة الكويت من قبل السلطة في بغداد فبعد الثورة العراقية والاطاحة بحكم العائلة الهاشمية ومقتل الملك فيصل الثاني وعمه عبد الاله ونوري السعيد وقد جعلها عبد الكريم قاسم قضية وطنية ومطلب شعبي ولم يكن يترك مناسبة الا وتحدث عن هذا الموضوع كما قامت الحكومة العراقية بنشر الكتب والكراسات تدعمها الإسانيد والحجج التي تجعل من الكويت جزءا من العراق لذلك عندما اعلنت كل من الكويت وبريطانيا توقيع اتفاقية بينا نصت على استقلال الكويت التام بتاريخ ١٩ حزيران ١٩٦١ وطلبت في اليوم الثاني الانضمام للجامعة العربية اعترضت الحكومة العراقية على هذه الاتفاقية واصدرت وزارة الخارجية العراقية بيانا سياسيا بتاريخ ٢٦/ ٦/ ١٩٦١ عارضت فيه الاتفاقية وشرحت اسباب معارضتها باعتبار ان الكويت جزء لا يتجزأ من العراق كما ابلغت الامانة العامة لجامعة الدول العربية معارضتها لدخول الكويت في الجامعةوهددت بالانسحاب منها اذا تمت الموافقة على قبول الكويت . وفي الوقت ذاته اخذت في تحريك القوات العراقية وحشدها على الحدود الجنوبية التي تحد الكويت مما دعا الكويت ان تطلب من بريطانيا تنفيذ اتفاقية الدفاع المعقودة فيما بينها وقدمت للجامعة العربية صورا من الكتب المتبادلة بين امير الكويت والسير وليام لوس المقيم السياسي في الخليج نيابة عن حكومة المملكة المتحدة .

وقد تطورت الاحداث بسرعة اثر ما ذكر من حشد القوات العراقية على الحدود لذلك طلبت الحكومة السعودية في ١ تموز ١٩٧١ دعوة مجلس الجامعة العربية للانعقاد وتم ذلك في ٤ تموز ١٩٦١ وفي الوقت ذاته كانت تجري اتصالات بين الامين العام لجامعة الدول العربية وكل من رؤ ساء حكومات العراق والكويت والمملكة العربية السعودية لمنع تطور الاحداث . وعندما طلبت الكويت من بريطانيا تنفيذ الاتفاقية المعقودة بين الطرفين والتي تتعهد فيه بريطانيا بحماية استقلال

الكويت وطالبت بعودة الجيوش البريطانية للكويت . ورغم ان بريطانيا لم تكن مستعدة لمثل هذا العمل بالسرعة الممكنة الا ان تعهد الكويت بدفع مصاريف القوات البريطانية جعل من بريطانيا تسرع في ارسال قواتها الى الكويت ونزلت هذه في الكويت واتجهت نحو الحدود في الوقت ذاته وصلت قوات سعودية الى الكويت بناء على طلب الحكومة الكويتية التي اغلقت الحدود مع العراق وقدمت طلبا مستعجلا لمجلس الامن لعقد دورة خاصة ضد تهديد العراق كما ان الحكومة العراقية هي الاخرى قدمت بدورها طلبا لمجلس الامن لعقد دورة خاصة حول نزول القوات البريطاني في الكويت .

عقد مجلس الامن اوبع جلسات بين الثاني والسابع من تموز ١٩٦١ للبحث في الشكويين ثم وافق على اشراك العراق والكويت في المناقشات وحضورالجلسات وبعد مناقشات حامية قدمت كل من الجمهورية العربية المتحدة وبريطانيا مشروعا جرى الاقتراع عليه وقد استخدم الاتحاد السوفياتي حق الفيتو وطالب بانسحاب القوات البريطانية فورا من الكويت اما المشروع العربي فقد استبعد هو الاخر ولم يوافق عليه المجلس وكان المشروع يطالب بريطانيا بالانسحاب وحل الازمة سلميا بين الدولتين .

بعد فشل مجلس الامن في حل الموضوع ظهر واضحا ان الجامعة العربية هي المكان الوحيد لحل الموضوع لذلك جرت اتصالات بين الامين العام والاطراف المعنية وعقد مجلس الجامعة عدة اجتماعات نوقشت فيها الاقتراحات والاراء وفي يوم ٢٠ تموز ١٩٦١ قرر مجلس الجامعة في اجتماعه الموافقة على ما يلي :

اولا :

أ ـ تلتزم حكومة الكويت بطلب سحب القوات البريطانية من اراضي الكويت في اقرب فرصة ممكنة .

ب ـ تلتزم حكومة الجمهورية العراقية بعدم استخدام القوة في ضم الكويت الى العراق .

ح ـ تأييد كل رغبة يبديها الكويت للوحدة او الاتحاد مع غيره من دول الجامعة العربية طبقا لميثاق الجامعة .

ثانيا :

أ ـ الترحيب بدولة الكويت عضوا في مجلس الجامعة العربية .

ب ـ مساعدة الكويت على الانضمام الى عضوية الامم المتحدة .

ثالثا :

أ ـ تلتزم الجامعة العربية بتقديم المساعدة الفعالة لصيانة استقلال الكويت بناء على طلبها ويعهد المجلس اليا لامين العام باتخاذ الاجراءات اللازمة لوضع القرار موضع التنفيذ العاجل .

وقد وافقت الكويت على تقديم تعهد من قبل اميرها يطلب فيه سحب القوات البريطانية من الكويت حالا حيث تشكل جامعة الدول العربية قوات عربية تقوم فعلا بارسالها الى الكويت لتحل محل القوات الاجنبية . وقد شكلت الجامعة العربية لجنة لدراسة تشكيل هذه القوات ونقلها الى الكويت لتحل محل القوات الاجنبية وطالبت من الحكومات العربية موافاتها بمدى استعدادها للمشاركة في القوات العربية المزمع ارسالها للكويت . وقد وافقت كل من الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) والسودان والسعودية وتونس المشاركة في القوات العربية التي اخذت مواقعها الدفاعية على طول الحدود العراقية بتاريخ ٣ تشرين ١٩٦١ وبعد فترة قصيرة حلت القوات الاردنية محل قوات الجمهورية العربية المتحدة وقد وافقت بريطانيا على سحب قواتها فور وصول القوات العربية اليها لذلك عندما بدأت طلائع القوات العربية تصل الى الكويت اخذت بريطانيا بسحب قواتها بناء على طلب امير دولة الكويت بتاريخ ١٢/٨/١٩٦١ .

لم تحدث بين قوات الجامعة التي كانت بقيادة ضابط سعودي وبين القوات العراقية الموجودة على الحدود اية حوادث ذات اهمية رغم التوتر الشديد الذي كان قائما بين الطرفين والذي كانت تحرض عليه بغداد في اذاعاتها بتوجيه من عبد الكريم قاسم . وقد ظل هذا الوضع حتى ٨ شباط ١٩٦٢ عندما اطاح الشعب العراقي بحكم عبد الكريم قاسم ومجموعته وتولى رئاسة الجمهورية العراقية عبد السلام محمد عارف وبعد ذلك صرح وزير الخارجية العراقية (طالب شبيب) بان العراق سيعود للجامعة العربية واعلن ان كلا من الكويت والعراق جزء من دولة واحدة وارض واحدة والدعوة الى اعتبار الكويت جزء من العراق او اية دولة اخرى امر يقرره شعب الدولتين .

على اثر هذه التصريحات من الحكومة العراقية ومشاعرها الاخوية نحو الشعب العربي في الكويت طالبت الكويت بتخفيض عدد القوات الموجودة في بلادها لذلك

بدأت الدول التي لها قوات هناك بسحب قواتها شيئا فشيئا حتى تم سحبها جميعها وتسلم الجيش الكويتي مسؤولية الدفاع عن بلاده كما عادت الامور الى احوالها الطبيعية بين الكويت والعراق وهكذا انتهت هذه الازمة التي افتعلها عبد الكريم قاسم لابعاد الانظار عن تدهور الوضع في بلاده كما كان تشكيل القوات العربية تحت اشراف الجامعة العربية تجربة ناجحة لخلق قيادة عربية موحدة اذا احتاج الامر في وقت من الاوقات :

رغم ان مشكلة الحدود بين البلدين لا تزال قائمة بين الطرفين الا ان الوئام يسود العلاقات بين الدولتين وفي شهر آب ١٩٧١ صرح وزير الخارجية العراقية على اثر زيارة وزير خارجية الكويت للعراق وزيارته هو للكويت بان مشكلة الحدود بين البلدين لا اهمية لها لكون الدولتين عربيتين واراضيهما جزء من وطن واحد .

اما البحرين فقبل ان تعلن استقلالها تعرضت هي الاخرى للضغط الايراني ففي ٢ تشرين ثاني ١٩٥٧ اعلنت ايران انها الحقت جزر البحرين بها وجعلت منها الولاية الرابعة عشر وعينت لها حاكما ايرانيا واعطت اوامرها لسفاراتها في الخارج بعدم قبول كل جواز يحمل تأشيرة اجنبية للبحرين والواقع انها ليست المرة الاولى التي حاولت فيها ايران لفت الانظار الى ادعاءاتها بملكية ارخبيل البحرين العربي وخلال خمسين عاما قبل التاريخ المذكور لم تترك ايران اية فرصة مناسبة الا واغتنمتها لتجديد مطالبتها بالبحرين ففي عام ١٩١٤ احتجت على تعهد شيوخ البحرين لبريطانيا بعدم تصرفهم في استغلال بترولهم بدون استشارتها وفي عام ١٩٢٨ احتجت لدى عصبة الامم على المادة السادسة من المعاهدة البريطانية ـ السعودية التي اعترفت باستقلال البحرين وقد جاء في المذكرة الايرانية التي قدمت لعصبة الامم ان البحرين جزء من ايران وان بريطانيا اعترفت بذلك في المذكرة التي ارسلها اللورد كرادون احد وزراء خارجية بريطانية بتاريخ ٢٧ نيسان ١٨٦٩ وقد نفت بريطانيا بشدة مثل هذا الادعاء وكأن عروبة البحرين تقررها بريطانيا او ايران وليس شعبها العربي ، وقد اوضحت مذكرة الحكومة البريطانية الجوابية للسفير الايراني نفيها القاطع لكل حق لايران في الجزر من كافة النواحي التاريخية والجغرافية والعرقية .

بين سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤ احتجت ايران مرارا على منح الامتيازات البترولية لبريطانيا بدون علمها وكان اغرب احتجاج لايران لدى ايطاليا عندما قصفت احدى

الغواصات الايطالية سنة ١٩٤١ القاعدة البحرية في البحرين حيث اعتبرت ايران هذا العمل اعتداء على حيادها . وقد تكررت الاحتجاجات في زمن مصدق عام ١٩٥٢ ومن بعده الجنرال زاهدي وقبل الاجتماع الاول لاعضاء حلف بغداد اعلن وزير خارجية ايران في السابع من نيسان ١٩٥٦ في طهران بان البحرين كانت جزءا لا يتجزأ من ايران وتلقى ممثلو ايران الدبلوماسيون تعليمات بالاحتجاج الشديد ضد كل عمل لا يتفق مع السيادة الايرانية على البحرين ولم تقتصر احتجاجات ايران على الكلام بل اوعزت الى كتابها ومؤلفيها بالقيام بالبحوث الطويلة لاثبات حقوقها الشرعية والقانونية في البحرين مثل احتلال الساسانيين لها في الازمنة القديمة ووقوعها في القرنين السابع عشر والثامن عشر تحت نفوذها رغم ان حكامها كانوا عربا وشعبها كان عربيا واعتبر الشاه ان حكامها الحاليون اغتصبوا الجزر كما ان محمد بن خليفة اول مشايخ البحرين اعترف بالسيادة الايرانية ولكن كل هذه الحجج الواهية لم تستند في الواقع على اسس قوية لان البحرين لم تحكم كما وصفنا فى الفصول السابقة من قبل فارس مباشرة وشعبها دائما ينتمي الى اصول عربية سنياً أو شيعياً .

واخيرا اضطر الشاه الى قبول الحقيقة والواقع وطلب اجراء استفتاء في البحرين تحت اشراف الامم المتحدة وهو يقبل بنتائج الاستفتاء . وقد قبلت البحرين مباشرة بهذا الاستفتاء ودعمتها الدول العربية . وفي صباح الثلاثين من اذار وصل البحرين احد كبار موظفي الامم المتحدة ممثلا شخصيا للمستر اوثانت الامين العام للامم المتحدة . وكانت مهمته و اضحة ومحددة وهي التعرف على رغبات اهل البحرين وبعد اجتماعات عديدة وبمختلف الهيئات ومقابلة مئات الاشخاص قدم تقريره للامين العام واجتمع مجلس الامن بعد ذلك مباشرة واصدر وثيقته التاريخية بالاعتراف بعروبة البحرين التي لم يتطرق اليها الشك ولم تكن بحاجة الى استفتاء . . وكان ذلك في ١١ مايس ١٩٧٠ .

في الوقت ذاته كانت البحرين تعمل جاهدة للحصول على استقلالها وتقرير مصيرها بنفسها وبتاريخ ١٤ آب ١٩٧١ اعلن عن استقلال جزر البحرين كدولة مستقلة ذات سيادة وانهاء جميع المعاهدات والاتفاقيات السياسية والعسكرية التي تنظم علاقات التحالف الخاصة بين حكومة البحرين والحكومة البريطانية كما صدر مرسوم اميري رقم (١) لسنة ١٩٧١ بجعل الاسم الرسمي لامارة البحرين وتوابعها دولة البحرين كما اصبح حاكمها يسمى امير دولة البحرين .

بعد اعلان البحرين عن استقلالها اعلنت قطر بدورها عن استقلالها بتاريخ ٣/ ٩/ ١٩٧١ كدولة عربية ذات سيادة وانهاء كافة المعاهدات والارتباطات السياسية والعسكرية مع بريطانيا كما اصدر حاكم قطر القرار رقم (١) لسنة ١٩٧١ بتعديل لقب حاكم قطر الى امير دولة قطر وكذلك لقب نائبه بنائب امير دولة قطر وتسمية الدولة باسم دولة قطر .

اما بقية الخليج فكان الموقف مختلفا عنه في كل من قطر والبحرين بسبب وجود هذا العدد الكبير من الامارات والمشيخات المتداخلة فيما بينها بشكل لا يمكن فصل الواحدة عن الاخرى يضاف الى ذلك امكانياتها الضعيفة في ذلك الوقت واهم شيء هو عدد سكانها القليل . كانت امارة ابو ظبي اكبر الامارات مساحة ومن بعدها دبي بعدد سكانها الكبير نسبيا ثم رأس الخيمة والشارقة والفجيرة وعجمان وام القيوين سبع امارات تعرف حتى ذلك الوقت بامارات الساحل المتصالح او ساحل المندنة او ساحل عمان وكان من الضروري ان يقوم فيما بينها نوع من التعاون شجعته بريطانيا لكي تضمن مصالحها وكان هذا التشجيع هو الذي ادى الى اعلان كل من ابو ظبي ودبي قيام اتحاد فيدرالي في ١٨ شباط ١٩٦٨ فيما بينهما وقد ناشد الامارات الاخرى دخول الاتحاد كما دعا البيان حاكمي قطر والبحرين للتداول حول مستقبل المنطقة والاتفاق على عمل موحد يكفل سلامتها واستقرارها واثر ذلك اقترحت قطر اعلان اتحاد يضم الامارات التسع واثر ذلك اجتمع حكام الامارات التسع في الخامس والعشرين من شباط في دبي ودام اجتماعهم لمدة ثلاثة ايام تم فيها التوقيع على ما يعرف باتفاقية (دبي) التي انشيء بموجبها (اتحاد الامارات العربية) وبدأ العمل بموجب هذه الاتفاقية ابتداء من ٣٠ آذار ١٩٦٨ .

كان الاجتماع الاول للمجلس الاعلى للاتحاد ما بين ٢٥ - ٢٦ مايس وهو المجلس الذي يتكون من الحكام وقد سبق ذلك اجتماع للمستشارين عقد قبل اسبوع من تاريخه في ابو ظبي للاتفاق على ما اذا كان الميثاق الكامل والدائم للاتحاد اي الدستور يجب ان يأتي اولا ام يأتي بناء المؤسسات الاتحادية اولا . وقد فشل الحكام في اجتماعهم الاول حول هذا الموضوع ولم يستقروا على رأي حول اعتبار اتفاقية دبي ميثاقا للاتحاد واخذ بعضهم يطالب بدستور كامل ودائم قبل المضي في انشاء المؤسسات الاتحادية وكانت بريطانيا تراقب تطورات الوضع ولم يكن من رأيها دخول كل من البحرين وقطر في الاتحاد نظرا للتعداد السكاني للبحرين والمستوى

الثقافي المرتفع ثم من قطر التي كانت بريطانيا تعتقد بوجود ارتباطات وثيقةبين قطر والمملكة العربية السعودية وكان تخاف من تأثيرها على الاتحاد باعتبارها دولة كبيرة وقد طرحت بريطانيا الاسلوب الديمقراطي لتتمكن من خلاله الابقاء على اسواقها في المنطقة واستعادة نفوذها السياسي بدون الجيش البريطاني . وكانت ترى بافضلية الاتحاد السباعي على الاتحاد التساعي . واخيرا دخلت الكويت بالوساطة بدفع من المملكة العربية السعودية لازالة اسباب الخلاف الذي بدأ يتفاقم في الاتحاد من كل النواحي وظهرت الخلافات القبلية والسابقة بشكل واضح بالاضافة الى التناحر حول الزعامة وقد نجحت الوساطة الكويتية الى حد ما وتم التفاهم على جدول اعمال للمجلس الاعلى عند استئناف جلساته في اول تموز في ابو ظبي وتم الاتفاق على مشروعات قرارات ثلاثةهي تشكيل المجلس الاتحادي وتعيين اول رئيس للاتحاد واختيار مقره . ومع ذلك فقد ظهر ان امكانية اقامة اتحاد من تسع امارات اصبح متعذرا بسبب الخلافات حول تفسير الاسس التي سيقوم عليهاالاتحاد وعن مكان العاصمة . وقد اعلنت البحرين انها قررت الانسحاب من الاتحاد واعلان استقلالها في ١٤ آب ١٩٧١ وقد شرحت حكومة البحرين في ١٤ آب ١٩٧١ الاسباب التي ادت الى خروجها من الاتحاد وهي عدم الاخذ بوجهة نظرها في المبادىء الاساسية للاتحاد والتي تؤمن بها البحرين وتتلخص في ضرورة وضع دستور حديث يقوم على مبدأ فصل السلطات وتوزيع الاختصاصات بين الاجهزة الحكومية ويوفر للمواطنين الحقوق والحريات السياسية والمدنية ويكفل قيام حكومة مركزية للاتحاد تملك سلطات واسعة في ادارة وتسيير مختلف شؤون حكومة الاتحاد على الصعيد الدولي والداخل بما يضمن تطور وتقدم ورفاهية شعب الاتحاد بمختلف اراضية دون تمييز او تفريق بين المواطنين وهذا كله مع عدم المساس بحقوق المواطنين الدستورية والمتعلقة بمبدأ تمثيلهم في مجلس وطني نيابي ينتخب انتخابا صحيحا على اساس الكثافة السكنية للامارات الاعضاء في الاتحاد كما اوضح بيان حكومة البحرين أن جهودها لوضع هذه المبادىء الاساسية في صلب مشروع الدستور لم توفق . وقد ذكر البيان ان البحرين قبلت بالتعديلات التي اقرتها لجنتي الوساطة السعودية ـ الكويتية والتي رفضها بعض الامارات رغم انها اقل مما كانت تأمل البحرين .

كما اوضح البيان الذي صدر عن حكومة قطر عنداعلان استقلالها الاسباب التي ادت الى انسحابها من الاتحاد وان قطر عملت جهدها في ان يقوم الاتحاد من

الامارات التسع وانها اعدت مشروع اتفاقية دبي التي قام بموجبها الاتحاد كما اعدت خطة عملية لتنفيذ هذه الاتفاقية تنفيذا صحيحا في اقصر وقت ممكن ولكن بعض الامارات الشقيقة فتحت باب المناقشات من جديد بعد ان تم الاتفاق بعد سنتين من النقاش ودام النقاس عاما ثالثا واوضح البيان ان الوساطة ـ السعودية ـ الكويتية لم تنجح في مساعيها لاقامة الاتحاد التساعي بسبب استمرار الخلاف بينهم ثم تلا ذلك في اعلان قطر لاستقلالها الذي اصبح الوسيلة الوحيدة لصيانة ودعم كيان بلدنا والاستمرار في بناء نهضتنا الشاملة في ظل حياة افضل .

وبعد هذه التطورات وانسحاب كل من قطر والبحرين من الاتحاد اعلن في دبي بتاريخ ١٨/ ٧/ ١٩٧١ قيام دولة الامارات العربية المتحدة التي تتشكل من امارات ابوظبي ـ دبي ـ الشارقة ـ ام القيوين ـ عجمان ـ الفجيرة بعد ان انسحبت رأس الخيمة من الاتحاد في اللحظة الاخيرة . وجاء في البيان الذي اعلنه وزير الدولة في ابوظبي بتاريخ ١٨/ ٧/ ١٩٧١ انه بعد الاجتماعات التي عقدها مجلس الحكام ما بين ١٠ ـ ١٨/ ٧/ ١٩٧١ انه بعونه تعالى واستجابة لرغبات شعبنا العربي فقد قررنا نحن حكام امارات ابوظبي ودبي والشارقةوعجمان وام القيوين والفجيرة اقامةدولة اتحادية باسم دولة الامارات العربية المتحدة وقد تم في هذا اليوم المبارك التوقيع على الدستور المؤقت للدولة واذ نزف هذه البشرى السارة الى الشعب العربي الكريم نرجوالله تعالى ان يكون هذا الاتحاد نواة الاتحاد الشامل يضم باقي الاسرة من الامارات الشقيقة التي لم تمكنها ظروفها الحاضرة من التوقيععلى هذا الدستور . ويعتبر هذا البيان المرحلة الاولى للعمليةالتي سار فيها الحكام منذ ان ابتدأ التفكير باقامة اتحاد اثر اعلان بريطانيا عن انسحابها من الخليج في نهاية عام ١٩٧١ وبتاريخ ١٠ شباط١٩٧٢ انضمت او بالاحرى عادت رأس الخيمة الى الاتحاد بعد ان انفصلت عنه في بداية تأسيسه بسبب رفض الاقتراحات التي تقدمت بها لاجراء بعض التعديلات على الدستور الاتحادي واهم هذه التعديلات المطلوبة تخصيص مبلغ كبيرمن المال يعادل ٥٪ من ايرادات الاتحاد ويقارب هذا المبلغ ١٥ مليون جنيه استرليني لكي يتصرف بها حكام الامارات الصغيرة بمعرفتهم خارج حدود اختصاصات مجلس الاتحاد غير ان هذه الاقتراحات رفضت كما رفض طلب رأس الخيمة قطع علاقات دولة الامارات بايران اثر احتلالها للجزر العربية الثلاث .

خلال هذه الفترة حدثت تطورات كثيرة في المنطقة فقد اغتنمت ايران فرصة قيام دولة الاتحاد وانسحاب القوات البريطانية واحتلت الجزر العربية الثلاثة طنب الكبرى وطنب الصغرى ونصف جزيرة ابو موسى والجزيرتان الاوليتان تابعتان لامارة رأس الخيمة واما جزيرة ابو موسى فتابعة للشارقة وكان احتلال ايران لهذه الجزر بتاريخ ٣٠ تشرين ثاني ١٩٧١ وقد حشد شاه ايران لهذه الغاية اسطوله البحري والجوي ولم تلاق هذه القواتالضخمة اية مقاومة تذكر سوى المقاومةالتي ابداها ثلاثة جنود من بينهم نصف ضابط في جزيرة طنب الكبرى . كما حدثت تغيرات جذرية في سلطنة عمان حيث استلم الحكم فيها السلطان قابوس بن سعيد بعد حركة انقلابية قام بها على والده السلطان السابق سعيد بن تيمور في ٢٦ تموز ١٩٧١ وباستلام السلطان الجديد قابوس تطوى صفحة مجهولة من تاريخ عمان . ودعا السلطان المذكوركافة القوى الوطنيةللعودة الى البلادمما ادى الى نهايةالثورة التي كان يقودها الامام غالب في الخمسينات ضد البريطانيين وحليفهم السلطان سعيد بن تيمور ولكن ثوار ظفار ظلوا على ثورتهم . مما ادى الى طلب السلطان قابوس من ايران التدخل ومعاونة الحكومة العمانية للقضاء على هذه الثورة التي بدأت في الستينيات ولكنها كانت تأخذ في الواقع تسميات شتى كان اخرها الاتجاه الماركسي بعد مؤتمر حمرين الذي انعقد في اول ايلول ١٩٦٨ . وعندما بدأت الثورة في ظفار في ٩ حزيران ١٩٦٥ كانت مؤلفة من ثلاثة تنظيمات هي حركة القوميين العرب ، الجنود الظفاريون ، والجمعيةالخيرية الظفاريةوقد اندمجوا في تنظيم واحد عرف في حينه باسم (جبهة تحرير ظفار) وهم الذين حاولوا قتل سعيد بن تيمور عام ١٩٦٦ ولم يتمكنوا منه . وعلى العموم فالظفاريون يعتبرون انفسهم شعب يختلف عن الشعب العماني وهم اقرب الى القبائل اليمنية منهم الى القبائل العمانية ومما يجدر ذكره ان والده السلطان هي من ظفار . وكانت جمهورية اليمن الديمقراطية تقدم المساعدة للثوار وفي عام ١٩٨٣ قامت دولة الكويت بمساعي حميدة لازالة الخلاف بين جمهورية اليمن الديمقراطية وسلطنة عمان بعد ان تخلى اليمنيون عن تقديم المساعدة للثورة في ظفار وجرى اتصال بين الطرفين اسفر عن اتفاق لتطبيع العلاقات بين البلدين .

لم يكن الاستقلال سوى بداية في هموم الخليج ومشاكله والتي تبدأ في المحاولات لاخراج شعبه من التخلف واقامة مجتمع حديث باستغلال الثروة

الضخمة التي بدأت تنهال بشكل مثير لم يسبق لشعب في التاريخ ان وجد نفسه غنيا جدا بعد فقر مدقع دام القرون الطوال ومع ظهور الثروة بدأت الافكار تتجه للمنطقة منها للمعاونة ومنها للاستثمار ومنها للعمل وبعد فترة قصيرة وجدت دول الخليج انفسها امام هجرة واسعة عربية واجنبية وازداد العدد كثيرا حتى فاق اضعاف السكن المحليين واذا كنا نعتبر المهاجرون العرب هناك ضمانة حقيقة لابقاء عروبة الخليج مهما كانت جنسياتهم واتجاهاتهم الا ان الاجانب مهما اظهروا من ولاء لا يمكن الاطمئنان اليهم واذا كانوا حتى الان لم يسفروا عن وجههم الحقيقي الا انهم في كل وقت مستعدون لذلك ومتى توفرت لهم الظروف ولكن اكبر هموم الخليج الصراع بين القوى العظمى خاصة بين القوتين الاعظمين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة فقد تحولت الانظار فجأة للمنطقة بعد الاحداث التي جرت فيها كسقوط الشاه والتدخل السوفياتي في افغانستان . . والخلاف الامريكي الايراني والحرب العراقية ـ الأيرانية وابتدأ الحديث عن امن الخليج فامريكا بدأت بتجميع اسطولها وقواتها التي تطورت الى ما يعرف بقوات التدخل السريع ومن جهته الاتحاد السوفياتي طمأن دول الخليج بانها لن تكون في خطر ولن تخشى شيئا من جهته وهذا ما ستطرق اليه في الفصلين القادمين واما دول المنطقة فلم تكن تقف مكتوفة الايدي وهي صاحبة الحق في الدفاع عن نفسها بعيدا عن اي تدخل اجنبي مهما كان نوعه وتطورت الجهود التي بذلت ليخرج مجلس التعاون لدول الخليج العربي .

في عام ١٩٧٦ قام الملك خالد بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية بجولة شملت الكويت البحرين قطر الامارات العربية المتحدة عمان وقالت الصحف عنها بانها « لدراسة مشاكل هذه الاقطار والتأكيد على ان العربية السعودية هي الشقيقة الكبرى لهذه الدول ولسد اية ثغرة قد ينفذ فيها نفوذ دول غير مرغوب فيها او تتسرب اليها الحركات المتطرفة المناهضة للنظم والاوضاع القائمة » ثم جرت اتصالات مع كل من العراق وايران (الشاه) ولكن تطور الاحداث التي ذكرناها جعل من دول الخليج العربية تقتصر على نفسها وهكذا ظهر مجلس التعاون الذي عقد اول اجتماع له في الرياض بتاريخ ٢٤/ ٢/ ٩٨١ وحضر الاجتماع الاول ست دول خليجية هي البحرين ـ السعودية ـ الامارات العربية المتحدة ـ سلطنة عمان ـ قطر والكويت وتم الاتفاق على انشاء مجلس للتعاون والتنسيق بين الدول المشتركة وهذه اول مرة تشترك عمان في مؤتمرات خليجية او عربية بعدما كان سعيد بن تيمور

يرفض التوجه نحو البلاد العربية فظهره دائما كان لها ووجهه للبحر وقد قرر وزراء الخارجية المجتمعون عقد اجتماع آخر لم في مسقط باذار على ان يسبقه اجتماعات للخبراء خلال شهر شباط لوضع نظام متكامل . وقد صدر عن وزارة خارجية الدول الست المجتمعين بالرياض البيانات التالية :

ـ بيان وقعه وزراء الخارجية .

ـ واعلان انشاء مجلس التعاون وهيكله التنظيمي وتوضيح الاختصاصات والصلاحيات للمجلس وهيئاته .

وقد ركز البيان على العلاقات والسمات والعقيدة المشتركة وتشابه الانظمة ووحدة التراث والتكوين السياسي والاجتماعي والثقافي والحضاري وانهم اتفقوا على انشاء مجلس التعاون بين دول الخليج العربية المذكورة في الرياض وأن الخطوة جاءت تمشيا مع الاهداف القومية للامة العربية وفي نطاق جامعة الدول العربية وربما يخدم القضايا العربية والاسلامية ، وقد تشكل المجلس على الشكل التالي :

١ ـ المجلس الاعلى :- يتألف من رؤ ساء الدول الست وتكون رئاسته دورية بينهم مهمته وضع ا لسياسة العليا ويناقش التوصيات والقوانين واللوائح واعتمادها ويشكل هيئة تتبع له مباشرة هي :

٢ ـ هيئة فض المنازعات تتولى فض المنازعات القائمة اوالتي قد تقع وتكون مرجعا لتفسير النظام الاساسي للمجلس .

٣ ـ المجلس الوزاري :

يشكل من وزراء الخارجية واعطى للمجلس مهمات كثيرة يأتي في رأسها الاجتماع مرة كل شهرين والدورات الطارئة ويضع السياسات والدراسات والتوصيات واعتماد التقارير الدورية .. الخ .

٤ ـ الامانة العامة :

وتتألف من امين عام وامناء مساعدون وادارات وجهاز للمعلومات والقيت عليه مسؤ وليات اعداد الدراسات والتقارير ومتابعة تنفيذ القرارات والميزانية واللوائح المالية والادارية .

وقد اوضحت تصريحات المسؤ ولين في الدول الستة هوية المجلس الجديد فقد صرح وزير خارجية الكويت ان قيام المجلس خطوة على طريق تحقيق الاهداف القومية وفي نطاق ميثاق جامعة الدول العربية والخطوة ليست موجهة ضد احد وقد

نالت تأييد العراق وقال وكيل وزارة خارجية دولة الامارات : «لقد وضع العـراق بالصورة بشكل مسبق ولكنه لم يدع ، التعاون ليس جديدا ولكنه لم يكن منسقا وشاملا . الظروف لا تسمح بالوحدة حاليا لذا فالتعاون هو خطوة اولى ولا يتعارض مع ا لعمـل العربـي ولقـد اقتصر على الـدول الست لتشابـه الانظمـة والتركيبـة الاجتماعية . وقال وزير اعلام البحرين ان الدول الست واقعية اذ ان ظروف المنطقة السياسية لا تشجع على اقامة وحدة بينها وقال وزير الخارجية السعودية « سنعمل على حماية حقول البترول من اعمال التخريب وضد الحركات الداخلية وقال الامير فهد الذي كان في ذلك الوقت وليا لعهد السعودية « ان مجلس التعاون ليس تكتلا او محورا وليس موجها ضد احد والتنسيق السياسي والامني قائـم وموجـود بـين دول الخليج العربية وهو حقيقة ملموسة يعرفها الجميع وبين المجلس لم يفعل ذلك » .

الفصل الرابع

الستراتيجية الامريكية في المحيط الهندي والخليج وتطورها منذ الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر

ـ الوضع العام الامريكي عند نهاية الحرب ـ المفهوم الستراتيجي لكل من امريكا والاتحاد السوفياتي بعد الحرب ـ اثر العزلة الامريكية في عدم تبني استراتيجية عالمية بعد الحرب العالمية الاولى ـ الهجوم الياباني على بيرل هاربر واثره في الستراتيجية الامريكية ـ الحلف الامريكي البريطاني الروسي في الحرب ـ الخلاف في النظرة للاتحاد السوفياتي بين الامريكان والانكليز خلال الحرب وفي نهايته ـ النظرة الامريكية نحو الاتحاد السوفييتي واثرها على الرأي العام الامريكي ـ امريكا تتصدر زعامة العالم الغربي ـ الرئيس ترومان والتخطيط للاستراتيجية الامريكية الجديدة والاسس التي بنيت عليها واهدافها ـ الديمقراطية الامريكية والشعب الامريكي ـ التفوق التكنولوجي الامريكي واثره على الستراتيجية الامريكية ـ التطور الستراتيجي الامريكي ـ سياسة الحصر الامريكية (سياسة الاحتواء) واهدافها ـ مساعدة الشعوب ـ الاقتصاد الامريكي واثره في الستراتيجية الامريكية الجديدة ـ التطور الستراتيجي والنظريات الستراتيجية .

ـ الستراتيجية الامريكية في المحيط الهندي والخليج العربي وتطورها ـ العلاقات القديمة بين امريكا والعرب ـ المصالح القديمة ـ التجارة وبيع الاسلحة ـ البترول واهمية الخليج بالنسبة للسياسة الامريكية ـ النشاط الامريكي في الخليج ومراحله ـ العلاقات بين امريكا والسعودية منذ الحرب العالمية الثانية وخلالها ـ قاعدة الظهران ـ القضية الفلسطينية واثرها على العلاقات العربية السعودية وامريكا حديث بين الرئيس روزفلت والملك عبد العزيز آل سعود ـ اثر البترول في السياسة الامريكية ـ اهمية بترول الشرق الاوسط بالنسبة لحلف الاطلسي ـ ترومان وظهور اسرائيل ـ المصالح الامريكية والشركات البترولية الامريكية .

ـ اهتمام امريكا العسكري ـ سياسة القواعد وتطورها واهدافها ـ انواع القواعد ـ التطور التاريخي للقواعد العسكرية واسس الاعتماد عليها ـ القواعد

الامريكية في البلاد العربية بعد الحرب واهدافها ـ امريكا تحل محل بريطانيا في الخليج ـ املاء الفراغ في الخليج بعد الانسحاب البريطاني ـ تأميم البترول الايراني وتأثيره على الستراتيجية الامريكية ـ سقوط مصدق وعودة الشاه ـ امريكا تسيطر على البترول الايراني .

شاه ايران يعمل لاملاء الفراغ ـ المساعدات الامريكية ـ العلاقة بين شاه ايران واسرائيل وامريكا والاسس التي بنت عليها امريكا سياستها تجاه ايران ـ احتلال الجزر العربية الثلاث ـ سقوط الشاه واثره على الستراتيجية الامريكية في الخليج والمحيط الهندي . التدخل السوفيتي في افغانستان ـ المقاطعة العربية لامريكا واثرها على السياسة البترولية الامريكية ـ مبدأ كارتر وسياسة التخزين ـ مبدأ كارتر والسياسة الستراتيجية الامريكية في المحيط الهندي والخليج واسسها ـ قوات التدخل السريع ـ العودة الى سياسة متطورة للقواعد العسكرية ـ سياسة ريغان والاعتماد على المجابهة ـ القيادة المركزية الامريكية لمنطقة المحيط الهندي واهدافها .



الفصل الرابع

الستـراتيجية الامـريكية في المحيط الهنـدي والخليج ومـا حولـه وتطورها

كانت عودة امريكا لمسرح الاحداث العالمية احدى النتائـج الـرئيسية التـي اسفرت عنها الحرب العالمية الثانية ، وذلك عندما نفضت عن نفسها غبار العزلـة التي لجأت اليها بعد الحرب العالمية الاولى ، وقررت دخول المعترك السياسي العالمي من بابه الواسع ، بعد ان احست بقوتها الجبارة التي لم تملكها دولة من قبل خاصة السلاح الذري ، فقد ارهبت العالم بهذا السلاح الذي قضى على مدينتين يابانيتين وقتلت مئات الالاف في ضربة واحدة كما كانت امريكا اعظـم المنتصرين ، ففـي الوقت الذي كان فيه اعداؤ ها واصدقاؤ ها ينزفون الدماء ، ويقفون مذهولين من الدمار الذي لحق بهم ومدنهم ، كانت خسائرها (اي امريكا) ضعيفة نسبيا من الناحية البشرية ومدنها ظلت سليمة بسبب بعدهـا عن مسـارح العمليات . وقـد اطمأنت لقوتها بعد احتكارها للسلاح النوي لذلك سرحت القسم الاكبر من جيشها العامل ولكن بعد كسر السوفيات لاحتكار السلاح النووي تغيرت الاوضاع بالنسبة لامريكا من جهة ولعلاقتها مع النسوفيات من جهة اخرى .

بعد الحرب ظهر الاتحاد السوفييتي كأكبـر قوة في القـارة الاوروبية واصبـح الوحيد الذي يقف امام النفوذ الامريكي في اوروبـا والعالـم خاصـة ان الاتحـاد السوفيتي لـم يسرح قواته التقليدية بأعدادها الضخمة بل على العكس حدث تطور كبير في قوتها النارية وقدرتها القتالية وعلى هذا الاساس ظهـرت الحرب الباردة، وابتدأ الاستراتيجيون الامريكان يضعون الخطط الستراتيجية السياسية والعسكرية والاقتصادية للسيطرة على العالم وتوجيهه للوقوف ضد الاتحاد السوفييتي الذي كان هو الآخر يخشى من تزايد القوة الامريكية ان كان في اوروبا او العالم وقد ادى ذلك الى سباق التسلح الرهيب الذي لا يزال على اشده خاصة في مجال الاسلحـة ذات التدريب الشامل رغم المحاولات التي جرت لاقامـة توازن في القـوى عن طريق اتفاقيات (سالت) .

وقد رافقت سباق التسلح محاولات في كل الاتجاهات للسيطرة على مناطق النفوذ واكتساب الاصدقاء ، وكان الامريكيون اسرع من خصومهم في مد نفوذ امبراطوريتهم الكبيرة بسبب ظروفهم الملائمة التي هيأتها لهم الحرب العالمية الثانية ، وقد اقتضى فترة طويلة من الاتحاد السوفياتي للخروج من نطاق القارة والامتداد في كل من اسيا وافريقيا واصبح لديه الاساطيل الحربية البحرية في مختلف بحار العالم لاول مرة في التاريخ الروسي . كما اصبح لديهم علاقات قوية مع كثير من بلدان العالم .

وقبل ان نبدأ بالحديث عن الستراتيجية الامريكية في المحيط الهندي والخليج وما حوله من الضروري ان نتعرض للاستراتيجية الامريكية العامة (الشاملة) والاسس التي بنيت عليها واهدافها .

لقد ابعدت العزلة ـ كما رأينا ـ التي فرضتها امريكا على نفسها بعد الحرب العالمية الاولى كل تفكير في تبني استراتيجية عالمية خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية خاصة بها حيال المشاكل العالمية التي كانت تجري على الساحة الدولية وتركت الامور لبريطانيا وفرنسا تحركان السياسة العالمية كما يحلو لهما وبالرغم من وجودالاتحاد السوفياتي كقوة رئيسية في الفترةمابين الحربين الا انه كان منطوياً على نفسه بسبب سياسة ستالين الصلبة وقدانحصر الاهتمام الامريكي في ذلك الوقت بالقضايا الداخلية ومشاكل امريكا اللاتينية فلم تنضم لعصبة الامم ولم تهتم بما كان يجري في اوربا من تغيرات جذرية بعد ظهور النازية والفاشستية وضم النمسا وتشيكوسلوفاكيا والبانيا الى كل من المانيا الهتلرية وايطاليا الموسولينية . وقد ظلت على هذا الحال حتى بداية الحرب العالمية الثانية وهزيمة فرنسا وحتى ذلك الوقت لم يكن ليثيرالشعب الامريكي الاحداث الجارية مطمئناالى بعد بلاده عن مجرى الاحداث ولكن الذي غير الاحوال بشكل كامل وجذري الهجوم الياباني المفاجىء على الاسطول الامريكي في ميناء اللؤلؤ (بيرل هاربر) الواقع في جزير هواي حيث دمرت اغلب الوحدات الامريكية البحرية الضخمة وقد سهل هذا الهجوم مهمة الرئيس الامريكي روزفلت الذي كان يفتش عن حجة امام الشعب الامريكي الذي كان يبعد الدخول في تفكيره ويكتفي بتقديم المساعدة المادية والعسكرية لبريطانيا وحلفائها ، وعلى هذا الاساس دخلت امريكا الحرب وتحالفت

مع الشيوعية الروسية وستالين ايضا ضد العدو المشتركة المانيا واليابان وايطاليا ، وقدمت له اي الاتحاد السوفياتي المساعدات العسكرية الضخمة التي ساعدته في بداية الحرب من امتصاص الصدمة الالمانية القوية - وبالرغم من الافكار الامريكية حول اهداف السياسة الروسية وطموح الاتحاد السوفييتي إلا ان المد الشيوعي حتى ذلك الوقت لم يكن يخيف النظم الرأسمالية في العالم بل كان يقف عدوا للنازية بالرغم من التحالف المؤقت معها وكان روزفلت يكره النازية واساليبها . لذلك لم تكن امريكا لتحس باي خطر يهددها من الاتحاد السوفييتي طيلة الحرب والمهم هو القضاء على القدرة العسكرية النازية التي لعب الروس في تحطيمها الدور الرئيسي وساعدوا على تحطيم العسكرية التوسعية اليابانية اما الانكليز فكانوا دائماً ينظرون ويناقشون ما ستفسر عنه الحرب من تغيير في موازين القوى وكان همهم مراقبة الاتحاد السوفييتي ، وكان تشرشل خاصة يخشى من تعاظم قوته وامتداده الى قلب اوروبا والصين وبعض دول القارة الآسيوية . وعندما دخل الحلفاء المانيا ترك الانكليز الأسلحة بيد الأسرى من الجنود الالمان ترقباً للحوادث التي يمكن ان تحدث وكان بذهنه الهجوم على الروس .

في نهاية الحرب بدأ الروس يعلنون عن مطالب ويريدون تحقيقها فبالاضافة الى مطالبهم ببعض التعديلات في الحدود مع تركيا وفتح المضايق امام الملاحة البحرية طالبوا بالاشتراك بالوصاية السياسية على كل من ارتيريا وليبيا ولكنهم فجأة غيروا سياستهم أما لأسباب ايديولوجية او دولية وانطووا على انفسهم خاصة اثناء الخلافات الداخلية في قمة السلطة السوفيتية والمصاعب التي لاقوها في دول اوروبا الشرقية بالاضافة الى جهودهم لتثبيت نفوذهم في الشرق الاقصى ومساعدة الصين على ربح معركة الحرب الاهلية . لذلك يمكن القول انه من قوة الرئيس روزفلت وحتى عام ١٩٤٦ كانت الولايات المتحدة تتلمس طريقها محاولة وضع استراتيجية سياسية عسكرية خاصة بها بعد ان عقدت العزم بشكل لا مجال فيه للمناقشة بدخول معركة زعامة المعسكر الغربي ولم يكن هنالك بالطبع اي منافس لضعف الحلفاء والفراغ السياسي والخوف من حرب ثالثة بالاضافة الى المطامع الاقتصادية الامريكية .

بعد موت روزفلت واستلام ترومان رئاسة الولايات المتحدة ابتدأ التخطيط الحقيقي لوضع استراتيجية امريكية جديدة ، وكان يعاونه في مهمته (جورج

كيتان) الذي كان يعتبر اعظم الستراتيجيين الامريكيين ، ثم جورج مارشال وزير الخارجية صاحب فكرة مشروع مارشال وقد وضع المخططون نصب اعينهم الاسس الرئيسية التالية :

- حماية الولايات المتحدة ونظام حياتها وديمقراطيتها .
- الوقوف في وجه الاتحاد السوفياتي وحصره .
- حماية الديمقراطيات في العالم .

وعلى العموم فالسياسيون الامريكيون يعتقدون بان بلادهم هي واحة الديمقراطية الحقيقية في العالم وان لديهم رسالة لحماية الديمقراطيات الاخرى ، مع كراهيتهم للنظم الدكتاتورية واساليب القمع والضغط على الشعوب . وكانوا يكرهون الشيوعية باعتبارها تنافي مبادئهم ونظم حياتهم الاجتماعية ، وكراهية الامريكيين للشيوعية ليست نابعة فقط من كراهيتهم للمبدأ الشيوعي وللشيوعية كنظرية ، بل جاءت كراهيتهم للاعتقاد بعدم الفصل بين الشيوعية كمبدأ والاتحاد السوفياتي كدولة ، والواحد منهما يكمل الاخر فالشيوعي بحسب تفكيرهم معناه عميل للاتحاد السوفياتي . والاعتقاد السائد في ذلك الوقت - لدى كثير من الامريكيين بان الحلفاء وخاصة امريكا ، قد تنازلوا خلال الحرب او قدموا تنازلات كبيرة للاتحاد السوفياتي الذي استغل الفرصة ليضم اليه دول البلطيق الشمالية وقسما من بولونيا ورومانيا . . الخ لذلك من الضروري الوقوف بوجه وحصره في حدوده ومنعه من الامتداد اكثر من ذلك ، وايقاف تهديده للدول الصغيرة على شكل ثورات شعبية داخلية كما هو الحال في الحرب الأهلية اليونانية او خلق دول جديدة تدين له بالولاء كجمهوريتي ازربيجان ومهاباد في ايران او التهديد من الخارج كما حدث بالنسبة لتركيا عندما قدم لها الاتحاد السوفييتي طلبا بتعديل الحدود وفتح المضائق للجميع .

لقد ظهرت نظريات استراتيجية مختلفة بعد الحرب وتطورت سريعا حسب انواع الاسلحة التقليدية والنووية ، وتندرج التطورات التي طرأت على الستراتيجية الامريكية منذ عام ١٩٤٥ حتى الان ضمن اطار توازن القوى بين المعسكرين الكبيرين ، ولم تتأثر باية استراتيجية سبقتها لعدم وجود الربط في الاسلحة والتفكير والامكانيات مع ما سبقها من استراتيجيات الامم المختلفة ، وهي تتصف خاصة بصفة التغير المتواصل ، وبسلسلة من التعديلات التي كانت تطرأ عليها كنتيجة

لردود فعل على الاستراتيجية السوفياتية المضـادة ، وقـد بنـى الامـريكيون مختلف مفاهيمهم الستراتيجية على الثقة بتفوقهم التكنولوجي وامكانياتهم الاقتصادية الهائلة التي تسمح لهم بتنويع وتطوير الاسلحة النووية وغيرها من اسلحة التدمير الشامل بشكل متواصل ولكن هذه الثقة لم تنطبق على الواقع بسبب استطاعة السوفيات من اللحاق بالتكنولوجيا الامريكية خاصة في مجال الاسلحة النووية واسلحـة التدمـير الشامل وذلك عندما حصلوا على السـلاح النـووي في ٢٩ آب ١٩٤٩ بتفجيرهـم قنبلتهم الذرية الأولى ثم ما لبثوا ان انجزوا قنبلة هيدروجينية عملياتية في ١٢ آب ١٩٥٣ بينما لم يتمكن الامريكيون من انجاز اول قنبلة هيدروجينية عملياتية الا في اذار من عام ١٩٤٥ . ومع ذلك تظل القدرة الامريكية على التجديد التكنولوجي متقدمة على الاتحاد السوفياتي في بعض النواحي في حين يتفوق الاتحاد السوفييتي في نواحي اخرى رغم انه لا يمتلك قوة اقتصادية تماثل قوته العسكرية المتفوقة . ولن نتعرض بالتفصيل للتطورات الرئيسية التي حدثت للاستـراتيجية الامـريكية منـذ الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر والتي تطـورت من استخـدام الأسلحـة الذرية ضد اليابان الى ظهور استراتيجية الردع ضد الاتحاد السوفييتي والتي تميزت بتفوق القوة الامريكية . واخيرا فترة التعادل بين القوى والتوازن بينهما والذي تمر فيه حالياً .

كانت سياسة الحصر الامريكية او الاحتـواء «Policy of Containment» هي اولى الستراتيجيات السياسة الخارجية الامريكية . وجاءت هذه نتيجة للتخوف من التوسع السوفييتي بعد الفراغ الذي حدث في اوروبا بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة للدمار الذي لحق بها والضعف الأوروبي والعالمي امام القوة السوفيتية المتزايدة وكان خوف الامريكيين من أن يلجأ الاتحاد السوفيتي من استخدام الجيش الأحمر للسيطرة على اوروبا الغربية بعد فرض سيطرته على دول اوروبا الشرقية فلأول مرة يصل السلاف الى منتصف اوروبا ويدفعوا امامهم الجرمان إلى الوراء الذين لم يعد لديهم الامكانيات لايقاف الزحف السلافي الكبير بالاضافة الى حالة الدمار والفقر واليأس التي كان يعيش فيها عدد كبير من الناس والخوف من أن يصبح هؤلاء شيوعيون بسبب الدعاية الواسعة التي كانت تبثها الاحزاب الشيوعية المحلية ضد الامبريالية الامريكية ، وقد ضخمت الدعاية الامريكية المضادة هذه المخاوف كثيراً مما جعل

كثيراً من قاده دول القارة يدفعون بدولهم نحو امريكا التي كانت الوحيدة التي تمتلك الاسلحة الذرية ولديها القوة الاقتصادية الضخمة . فكما ذكرنا سابقاً فقد خرجت سليمة من الحرب ولم تتجاوز خسائرها بالأرواح ثلاثين الف رجل في حين قدم الاتحاد السوفيتي حوالي ٢٢ مليون نسمة ودمرت كافة اراضيه الاوروبية تدميراً كاملاً . واعطى هذا الوضع لواشنطن تفوقاً واقعياً على المستوى العالمي . وكان الردع النووي سياسة الانتقام الشامل هي السائدة لتنفيذ سياسة الحصر التي كان لها اهداف ثلاثة هي :

- مقاومة التوسع السوفييتي ومنعه من ضم اراض جديدة لامبراطوريته حسب رايهم .
- الضغط المستمر على الاتحاد السوفييتي وانذاره الدائم للتخلي عن سياسته التوسعية بالردع النووي .
- تنمية الاقتصاد الأوروبي ورفع مستوى الشعوب الاوروبية ليكون حائلاً ضد تسرب الشيوعية .

وعلى هذا الأساس ظهرت سياسة الاحتفاظ بالقواعد الجوية وزيادتها وتحويلها لضرب الاتحاد السوفييتي وإقامة مشاريع للتنمية كمشروع مارشال وإقامة الأحلاف كالحلف الأطلسي وحلف بغداد وحلف جنوب شرق اسيا وظهور مبادىء ترومان وإيزنهاور . . الخ

في المؤتمر الذي افتتحه الرئيس ترومان في ١٢ آذار ١٩٤٧ للكونغرس الأمريكي اعطى مبرراً ايديولوجياً لمقاومة الشيوعية على انه دفاع عن الحرية والديموقراطية ضد الشيوعية والديكتاتورية . أما الصحفي الأمريكي المشهور (والتر ليبمان) فقد كتب في تلك الفترة حول هذا الموضوع «نحن نعتبر الاتحاد السوفييتي قوة في طريقة التوسع ونحن نأمل أن نوقف هذا التوسع ونحن نعتقد ان لاسلام إلا إذا تخلى الاتحاد السوفييتي عن سياسته التوسعية» على حد قوله . وقد استغلت امريكا الوضع التجاري المنهار في العالم ، ووجود الاقتصاد الامريكي في اوج قوته واندفاعه لتضع هذه الامكانيات الهائلة لخدمة سياستها الخارجية . وأمريكا على العموم لا تفرق بين السياسة الخارجية وتجارتها الخارجية وقد اوضح الرئيس (ترومان) في ١٦ اذار ١٩٤٧ في احدى خطبه بعض الملاحظات التي تحدد بشكل دقيق هذه الناحية فقد قال «نحن عمالقة العالم في الاقتصاد إن كان هذا يسر أو يسيء

لنا أو لاعدائنا و إلينا سيعود تنظيم العلاقات الاقتصادية في المستقبل ، فالعالم ينتظر ويراقب ماذا علينا ان نعمل وعلينا نحن أن نقرر فيما إذا كنا نستطيع قيادة الأمم نحو السلام أو نوقعه في خضم حرب اقتصادية» .

وهكذا بدأت امريكا سياستها الجديدة بعد الحرب باشهار الحرب على الشيوعية في داخل بلادها وخارجها وكل من هو عدو للشيوعية فهو صديقها مهما كان يُكن لها من عداوة وبالرغم من فترات الانفراج والتقارب التي تحدث في بعض الأحيان بين الدولتين العظميين لا زالت أمريكا تعمل بنفس الطريق ، وقد وضعت نظريات وأقرت استراتيجيات واخترعت اسلحة وكلما فشلت فكرة استعيض عنها باخرى. وجرى تطور مخيف مرعب في ميدان الاسلحة النووية والتقليدية وغيرها من اسلحة التدمير الشامل كل ذلك كان يسير بنفس الاتجاه ، ويقابلها من جانب الاتحاد السوفييتي تطور كبير في مختلف المجالات وانتقل من مرحلة الضعف والتفوق الامريكي الى مرحلة المساواة والتعادل أو بالأحرى التوازن في القوى ، وخلال ذلك ظهرت نظريات واستراتيجيات الانتقام الشامل ثم الحرب المحدود والرد المرن ـ والقوة المضادة واستراتيجية الضربة الثانية الى مبدأ (ماكنمارا) ونظريات الجنرال ماكسويل تايلور ولكل منها مساوىء ومحاسن وهي في تغيير دائم طالما هناك عقل إنساني يفكر بقتل اخيه الانسان في سبيل مطامعه ومآربه ، ويعمل على زيادة ما لديه من أسلحة الدمار والفناء ويصرف الأموال لزيادة فعالية الاسلحة وقدرتها التدميرية وزيادة مجالات استخدامها حتى شملت مختلف النواحي مما يثير الفزع والرعب من هول ما ستسببه هذه الأسلحة إذا افلت الزمام واستخدمت هذه الأسلحة التي لن يقتصر خطرها على احد الخصمين . وقد اثر التسابق على التسليح على برامج التنمية في البلدين فبالنسبة للاتحاد السوفييتي يعاني كثيراً من الضائقات الاقتصادية في حين تزداد البطالة في امريكا ويزداد تكاليف الحياة ويرهق المكلف الامريكي بسبب ما يدفعه من ضرائب متصاعدة منهكة . وبعد هذه المقدمة عن الستراتيجية الامريكية العامة والسباق على التسلح سنتطرق الى تطور الوجود الامريكي في المحيط الهندي والخليج .

يعود الاهتمام الامريكي في الخليج العربي والبحر العربي كما رأينا في الفصول السابقة الى ما قبل الحرب العالمية الاولى عندما كانت هناك علاقات تجارية بين امريكا وسلطنة مسقط ومما يجدر ذكره ان الاسلحة كانت احدى السلع الرئيسية التي كانت

تصدرها امريكا مقابل التمر ثم تطورت العلاقة مع الخليج عن طريق البترول بعد الحرب العالمية الاولى عن طريق الشركات البترولية التي استطاعت فرض سياسة الباب المفتوح على سياسة بريطانيا التي كانت تعمل لجعل بترول الخليج لوحدها وحكرا عليها ، وقد نادت هذه الشركات بضرورة التساوي في المعاملة ما بين مواطني مختلف الدول في البلدان الخاضعة للانتداب البريطاني والفرنسي ، وكما رأينا حصلت الشركات الامريكيةعلى ٢٣,٧٥ من شركةنفط العراق ثم حصلت على امتيازات في البحرين والكويت وقطر والمملكة العربية السعودية منها ما كان مناصفة مع شركة النفط الفارسية - الانكليزية ومنها ما كان امتيازا اميركيا خالصا وبالرغم من النفوذ البريطاني فقد استطاعت الشركات الامريكية بدعم من حكومتها خلال الحربين العالميتين الاولى والثانية الحصول على حوالي ٦٠٪ من انتاج نفط الخليج . وقد ظهر تفوق الأمريكيين على البريطانيين بشكل واضح من ناحية الخبرة المكتسبة وروح المغامرة والمهارة في تجارة البترول لذلك اتجهت إليها الانظار بعد الحرب وحصلت هذه الشركات على امتيازات التنقيب في المنطقة المحايدة الواقعة بين الكويت والسعودية عام ١٩٤٨ لشركة الامنويل وحصول شركة (جيتي) عام ١٩٤٩ على امتيازات في المنطقة المحايدة السعودية .

بعد الحرب العالمية الثانية وتغير الاوضاع العالمية وموازين القوى ، وتصميم امريكا للدخول في المعترك السياسي العالمي من بابه الواسع ونبذها لمبدأ العزلة وتصميمها على قيادةالعالم الغربي الضعيف تجاه القوةالسوفياتية المتزايدةكان الخليج العربي خاصة والشرق الاوسط عامة من جملة الاهتمامات الرئيسية للامبراطورية الامريكية الجديدة نظرا لموقع هذه المنطقة الحساس كملتقى للقارات العالمية الثلاث ، وكونه عقدة للمواصلات البحرية والجوية والبرية واقرب طريق ما بين الغرب والشرق الاقصى ، وما تؤمنه المنطقة من امكانيات استراتجية عسكرية نظراً لقربها من الاتحاد السوفيتي بالاضافة الى ثروته البترولية الضخمة التي لم تعد مصدرا للطاقة على الاطلاق فحسب بل انها اصبحت عنصرا اساسيا في انتاج اكثر من ثلاثة آلاف تندرج تحت اسم (الصناعات البتروكياوية) وتشارك بالنصيب الاكبر في صنع حضارة الانسان الحديث ، والولايات المتحدة بالرغم من انها اكبر منتج للبترول الا انها اكبر مستهلك لهذه المادةالحيوية ، ومنذ الحرب العالمية

الاولى ابتدأ اهتمامها بمنابع الطاقة البترولية في الخارج وازداد حسب حاجتها ، وفي عام ١٩٧٠ كان برميلا من كل ثلاثة براميل يستهلكها العالم تستهلك الولايات المتحدة لوحدها وتنتج برميلا من كل اربعة براميل .

يمكن تقسم النشاط الامريكي لاقتصادي والسياسي والعسكري وتطور الوجود الامريكي في المحيط الهندي والخليج وما حوله الى ثلاثة مراحل :

- المرحلة الاولى : وهي التي مرت قبل الانسحاب البريطاني من الخليج وتخليها عن سياسة شرق السويس .
- المرحلة الثانية : وهي التي مرت بعد انسحاب بريطانيا حتى سقوط شاه ايران .
- المرحلة الثالثة : وهي الفترة التي مرت منذ سقوط الشاه حتى الوقت الحاضر .

في المرحلة الاولى كانت بريطانيا تتحمل الاعباء الدفاعية عن المنطقة منذ زمن بعيد كما اسلفنا وخلال الحرب العالمية الثانية نصحت الحكومة البريطانية الامريكان القادمين الجدد باقامة اتصال في الخليج مع المملكة العربية السعودية . وعلى هذا الاساس اعلنت الولايات المتحدة في شهر شباط عام ١٩٤٣ عن ادخال المملكة العربية السعودية في نطاق المساعدات الامريكية بموجب قانون الاعارة والتأجير والذي كان يشمل فقط الدول المحاربة . وكانت المملكة العربية السعودية في ذلك الوقت قلقة من ازدياد التعاون بين بريطانيا والعائلة الهاشمية (اعداء السعوديين في ذلك الوقت) في كل من العراق والاردن خاصة بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني ووقوف الهاشميين الى جانب الحلفاء لذلك كان هناك تفاهم بين البريطانيين والامريكيين لاحتواء السعوديين من قبل الامريكيين ولم تكن المملكة العربية السعودية في ذلك الوقت قد نعمت بمال النفط ولذلك اخذ الامريكيون يقدمون المساعدات الاقتصادية للسعودية خوفا من ظهور اتجاهات موالية للمحور وخاصة المانيا ويبدو ان الامريكيين كانوا يزمعون القيام بمثل هذا العمل بدون نصيحة الانكليز نظرا لما كانوا يشعرون به من خوف على ثروتهم النفطية التي كان الحرب يهددها بالابتلاع . فكانت المملكة العربية السعودية محور اهتمامهم لكونها من مناطق الاحتياطات النفطية المغرية . التي يمكن الاعتماد عليها خلال الفترات القادمة فقد حذر وزير البحرية الامريكي (جيمس فورستال) في آب ١٩٤٥ بانه

خلال السنوات الخمس والعشرين المقبلة ستواجه الولايات المتحدة احتياطات نفطيةمنخفضة انخفاضا حادا. ونظرا لان النفط ومشتقاته هي اساس القدرةعلى خوض حرب حديثة فانني اعتبر هذه المشكلة واحدة من اهم مشاكل الحكومة . ولا يعنيني اي شركة او شركات امريكية سوف تستثمر الاحتياطات العربية (ويقصد السعودية) لكنني اشعر باقصى قدر من اليقين انها يجب ان تكون امريكية » ووزير الدفاع الامريكي هذا كان من اكبر المعارضين في خلق دولة اسرائيل خوفا من العداء العربي وتأثيره على الاستثمارات البترولية الامريكية . وقبل ذلك بشهور اي في ١٤ شباط ١٩٤٥ التقى الرئيس الامريكي السابق فرانكلين روزفلت بالعاهل السعودي عبد العزيز آل سعود على ظهر المدمرة الامريكية (كوينسي) الراسية في مياه البحيرات المرة شمال مدينة السويس وقد جرى البحث حول ثلاثة امور هي النفط وفلسطين والحصول على مكان لاقامة قاعدة حربية جوية في الظهران الواقعة على الخليج العربي وكان الطلب هو منح السلاح الجوي الامريكي حقوقا غير محدودة لاستخدام مطار الظهران وكان الرئيس الامريكي عائدا من مباحثات يالطا ومؤتمر طهران الذي تم فيه تنظيم مستقبل العالم حسب رغبة المنتصرين وقد وافق الملك السعودي على تأجير قاعدة للطيران البريطاني لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد على ان يكون المسؤ ولون عنها سعوديون ويجب ان تعود بكامل موجوداتها للسعودية بعد انتهاء العقد لقاء ذلك كان على امريكا ان تقدم المساعدة العسكرية للجيش السعودي من الاسلحة الموجودة في منطقة اصفهان في ايران وتم الاتفاق على تأسيس شركة النفط العربية ـ الامريكية (ارامكو) وحصولها على امتياز التنقيب والانتاج في الاراضي السعودية وكانت قد بدأت الانتاج على مستوى اقتصادي .

ومما يجدر ذكره ان الملك السعودي حذر الرئيس روزفلت من مغبة الدعم الذي تقدمه امريكا لليهود للحصول على تأسيس دولتهم .ـ ويقال ان روزفلت سأل العاهل السعودي عما يفعله باليهود الموجودين في فلسطين اجاب ابن سعود بكل بساطة « يعودون الى بلادهم التي اتوا منها » ويقال ان روزفلت قال تعلمت من الملك الشيء الكثير عن القضية الفلسطينية اكثر من اي انسان واتفق الطرفان ان لا تقدم امريكا اية مساعدة لليهود ضد العرب والتشاور قبل صياغة السياسية الامريكية تجاه فلسطين وقد ظلت واشنطن تكرر هذا الوعد لثلاث سنين اي ما قبل عام واحد من استلام الرئيس الامريكي هاري ترومان واعترافه بانشاء دولة اسرائيل مع ان

امريكا كانت قد حصلت من السعودية على كل ما ترغبه ويقول مؤلف كتاب العربية السعودية في الثمانينات ويليم ب كوانت « لم يستفد بلد من العلاقة مع العربية السعودية مثلما استفادت الولايات المتحدة » « ولن يكون هناك بلد اكثر اهتماما من الولايات المتحدة بالنسبة لمستقبل العربية السعودية » رغم ان السعودية من الناحية العسكرية كانت تشكل الخط الدفاعي الثاني بالنسبة لحلف بغداد الذي يضم (تركيا - ايرن - العراق - باكستان) في ذلك الوقت .

لقد بدأت علاقة الولايات المتحدة بالشرق الاوسط عن طريق البترول وعن نفس الطريق توطدت العلاقات وقوي نفوذ رجال البترول في امريكا الى درجة مكنتهم من تقديم المساعدات الهائلة للمرشحين لرئاسة الجمهورية الامريكية بما يمكن لهم الفوز وكانوا عونا لايزنهاور عام ١٩٥٣ واكبر دليل على قوة اقطاب البترول الذين تعهدوه بسرعة منذ عام ١٩٤٩ ان ادخل في وزارته سبعة وزراء من كبار رجال البترول - وكان فوستر دالاس وزير الخارجية الامريكية عضوا في شركة (اسو) ومديرا سابقا لمالية روكفلر وقد وصف بانه (بطريرك دين البترول) ولم يكن ايزنهاور يخفي اهمية بترول الشرق الاوسط وفي خطابه الى الكونغرس في كانون ثاني ١٩٥٧ الذي قدم به مشروعه الذي اطلق عليه اسم مبدأ ايزنهاور والذي يعتبر اساس السياسة الامريكية اعلن الرئيس الامريكي « انه من الامور التي تؤكد اهمية الشرق الاوسط القصوى احتواؤه على ثلثي مصادر البترول المعروفة في العالم الا ان هذه المصادر لا تقل اهمية عن حلف الاطلسي ، بل ان الحلف يفقد معناه وهدفه اذا فقدنا مصالحنا في الشرق الاوسط ، وفي الحقيقة ان البترول قد فرض بصماته على خطوط السياسة الامريكية تجاه الشرق الاوسط فبسبب البترول قادت الولايات المتحدة الانقلابات التي تعرضت لها سورية من اجل تمديد خطوط انابيب البترول (التابلاين) القادمة من المملكة العربية السعودية ، وبسبب البترول اشتركت امريكا وباركت انشاء الدولة الصهيونية في قلب الامة العربية عام ١٩٤٨ وقد فلسف هاري ترومان رئيس الولايات المتحدة في ذلك الوقت الوجود الاسرائيلي في المنطقة بقوله « ان اسرائيل قامت في منطقة الشرق الاوسط لكي تتصدى لتيار النعرة الوطنية فاذا لم تستطيع ان تحقق ذلك فلا اقل من ان تجذبه بعيدا عن مصالح البترول الامريكي في الشرق » وهذا ما يحدث حاليا في المنطقة حيث تستهلك اسرائيل كل جهد عربي ان كان يريد التفكير بالوحدة او كان يريد التنمية الاقتصادية ، ومن

اجل البترول سقط مصدق واعيد الشاه ، ومن اجل البترول اشترك الانكليز باخماد ثورة الامامة ضد سعيد بن تيمور واحتلت بريطانيا البريمي وابعد شخبوط . الخ والخوف من سيطرة عربية موحدة على بترول الخليج جزء الخليج وكرست تجزئته ، ورغم ثورة عبد الكريم قاسم وما اتصفت به من عنف واستأصلت الملكية في العراق فان عبد الكريم قاسم لم يجرؤ في ذلك الوقت على تأميم شركة نفط العراق . ومن اجل البترول ضرب عبد الناصر عام ١٩٥٦ . لقد كانت مشاكل البترول في المنطقة مشكلة الجميع في تلك الفترة العصيبة من التاريخ العربي المعاصر .

لقد ابتدأت الاستثمارات النفطية بشكل عام في ايران ثم العراق والسعودية ـ الكويت دولة الامارات العربية المتحدة ـ عمان وابتدأت امريكا استثماراتها بمشاركة اوربية بريطانية هولندية فرنسية في شركة نفط العراق ثم سيطرة امريكية بحتة في بترول المملكة العربية السعودية ثم مشاركة امريكية ـ بريطانية في الكويت وقطر . . الخ وعلى العموم فقد اتجهت الولايات المتحدة نحو بترول الشرق الاوسط عندما اكتشفت انها فقدت مركز الصدارة في السوق البترولية العالمية وان استهلاكها المحلي اوشك ان يزيد على الانتاج وازاء هذا الموقف كسرت الولايات المتحدة طوق العزلة في سياستها الخارجية فاهتمت ببترول المكسيك ثم بالبترول السعودي وبعد سنة ١٩٤٨ اي بعد الحرب العالمية الثانية بدأت امريكا تتعرض لتغيير جذري في وضعها البترولي بعد ان كانت اكبر الدول المنتجة والمصدرة للبترول واصبحت بالكاد دولة متوازنة الانتاج والاستهلاك ثم بدأ الاستهلاك يتزايد ولم يتزايد معه الانتاج ودخلت الولايات المتحدة في قائمة الدول المستوردة و زاد الطلب على البترول بعد تحول اوربا واليابان من استخدام الفحم في مجال الطاقة لتنمية اقتصادياتها التي حطمتها الحرب العالمية بعد تطبيق مشروع مارشال في اوربا وغيرها . ومما يجدر ذكره ان الولايات المتحدة خلال تلك الفترة كانت تعوض عن النقص في البترول ما بين الانتاج المقنن وبين الاستهلاك المتزايد من آبار النفط في امريكا الوسطى واللاتينية وخاصة من فنزويلا ولم تكن تستورد من الشرق الاوسط سوى ٨٪ من جملة الانتاج النفطي ، والسوق الرئيسية لهذا النفط هي اوربا واليابان وكانت الولايات المتحدة هي التي تقوم بعمليات الانتاج والتسويق اي تجارة البترول التي كانت تدر عليها ارباحا طائلة فهذه التجارة تعتبر اكثر المشروعات الاستثمارية كسبا للربح في مختلف المجالات . صحيح ان عددا كبيرا من الشركات الاوروبية تعاقدت مع حكومات

المنطقة للتفتيش عن النفط وانتاجه الا ان السيطرة الامريكية تظهر في كل مكان وفي مختلف مجالات العمل النفطي وتغطي ٦٠٪ من الانتاج البترولي خاصة بعد سقوط مصدق وحصول امريكا على ٤٠٪ من الكونسورتيوم العالمي الجديد الذي شكل لادارة مصالح شركة النفط الانجلوايرانيان . ولا شك ان هناك ارباحا طائلة دخلت خزائن الشركات الامريكية الضخمة التي اصبحت كل واحدة منها دولة كبرى فاوربا تستورد ٨٠٪ تقريبا من احتياجها من الخليج وكذلك اليابان التي تستورد ٩٠٪ وقد قدرت ارباح الشركات الامريكية عام ١٩٦٨ بمبلغ ٢٤١٨ مليون دولار ،' بعد هذه الفترة اخذت تحس امريكا بالقلق من زيادة الاستهلاك واضطرارها للاستيراد فوضعت قوانين ناظمة منذ زمن الرئيس ايزنهاور وتلتها قوانين اخرى في زمن من اتى بعده التي لم تؤ د الى شيء ملموس امام ازدياد الطلب وخاصة خلال الحرب الفيتنامية وكان النقص يعوض من بترول الشرق حتى عام ١٩٧٣ عندما اتخذت الدول العربية قرارا بقطع البترول عن الدول التي تساعد اسرائيل وكانت الولايات المتحدة على قائمة هذه الدول فاحست امريكا مباشرة بتأثير هذه القطيعة لذلك بعد هذا الوقت اخذت في اتباع سياسة جديدة تعتمد عى تخفيض الاعتماد على النفط وتخزين كميات ضخمة كما سنرى .

لم يقصر الاهتمام الامريكي على النواحي الاقتصادية في الخليج وما حوله بل كان له اهتمام قوي من الناحية العسكرية وان كان الوجود الامريكي بحد ذاته كان ضعيفا في الفترة التي عقبت الحرب مباشرة بسبب ان البريطانيين كانوا هم المسؤ ولون عن الدفاع في الخليج ولكن بعد الحرب ونشوب الحرب الباردة ما بين اعوام ١٩٤٧ - ١٩٥٣ وضعف بريطانيا وزوال نفوذها السياسي والاستعماري وفقدانها للقسم الاكبر من مستعمراته وسياسة الحصر الامريكية ضد الاتحاد السوفياتي جعل من الامريكيين يزيدون في وجودهم العسكري ليس في هذه المطقة بل في الوطن العربي ، بسبب موقعه الجغرافي القريب من الاتحاد السوفياتي بالاضافة الى اهميته الاقتصادية . ويقال ان القادة الالمان نصحوا القيادة الامريكية بعد الحرب نتيجة لخبرتهم في قتال الاتحاد السوفياتي . ان يخططوا في حرب مقبلة للوصول الى قلب الاتحاد السوفياتي ليس عن طريق اوربا الطويل والمملوءبالعقبات الصعبة بل عن طريق الشرق الاوسط وبالتحديد عن طريق ايران وتركيا والباكستان لقصر المسافة التي تمكنهم من الوصول بسرعة الى المراكز الستراتيجية والصناعية ما

وراء الاورال وفصل القسم الاوربي من الاتحاد السوفياتي عن القسم الاسيوي ذو القوميات والجنسيات التي يمكنها الانضمام للحلفاء تخلصا من نير الشيوعية . ومن جهة اخرى ابعاد كل خطر سوفياتي عن الشرق الاوسط والخليج وعلى هذا الاساس بدأت محاولات الامريكان بالنفاذ الى المنطقة وتقوية وجودهم العسكري والسياسية وكانت اهداف هذه المجاولات هي :

ـ اقامة سلسلة من القواعد تكمل القواعد الموجودة في اوربا تحيط بالاتحاد السوفياتي ودول اوربا اشيوعية وتستهدف ضرب المراكز الستراتيجية الاقتصادية والعسكرية في قلب وجنوب الاتحاد السوفياتي منها واقامة حزام امني غرب يحوله .

ـ حماية المصالح البترولية من اي تسرب او هجوم سوفياتي .

ـ الوقوف في وجه الحركات الوطنية والقومية وافشال كل مسيرة نحو الوحدة بين اقطار المنطقة وخاصة المنطقة العربية ومنع ظهور اية قوة تستطيع ان تؤثر على المجهود الحربي الامريكي فيها .

وبالرغم من اعتراف الامريكان للانكليز بسؤ وليتهم عن حماية المنطقة والدفاع عن المصالح الغربية فيها الا ان امريكا سعت الى اقامة قواعد عسكرية في بعض انحاء الوطن العربي بما فيها منطقة الخليج . ضمن خطة التقسيم الستراتيجي لمسارح العمليات والتي منها مسرح عمليات المحيط الهندي والذي يضم الهند وسيلان والباكستان وجزر الهند والخليج واليمن وعمان .

وعلى العموم فامريكا ورثت من الحرب قواعد كثيرة منتشرة في مختلف انحاء العالم . فعندما انطلق الغزو الياباني في ٧ كانون اول ١٩٤١ وادى الى دخول امريكا في الحرب كان لا بد من العمل بسرعة ، فاستطاعت الطاقة الصناعية الجبارة التي كانت تملكها الولايات المتحدة صنع عدد مخيف من معدات القتال مختلفة الانواع لم يعرف ان قامت بمثلها دولة ما حتى الاتحاد السوفياتي الذي وصل الى مرحلة متقدمة جدا هو الاخر في هذا المجال ، وقد سارت هذه الخطة مع سياسة بناء عدد كبير من القواعد لتستطيع منها ضرب العدو ان كان في الشرق الأقصى او اوربا واستخدام هذه الطاقة الهائلة من القوة النارية من جهة ، ومن جهة اخرى توقف امتداده الى ابعد مما وصل اليه ولا يهدد امريكا ذاتها بانتظار الهجوم وتكون هذه القواعد المراكز الدفاعية الامامية للدفاع عن القارة الامريكية ذتها خاصة امام التوسع الياباني الذي لم يقف عند حد .

وسياسة الاعتماد على القواعد العسكرية فكرة قديمة اتبعتها مختلف الدول القديمة والحديثة وحتى العرب عندما كانوا يقيمون الرباطات والمدن العسكرية وفي القرن الثامن عشر اقامت بريطانيا قاعدة جبل طارق ، وفي القرن التاسع عشر اقامت قواعد عدن ومالطه وسنغافوره وهونغ كونغ وسبق بريطانيا البرتغاليون والفرنسيون والهولنديون فاقاموا قواعد مختلفة خاصة في المحيط الهندي وقد اشتهرت قواعد هرمز وسيلان ، وممباسا ، وغوا ومسقط . . الخ وكانت هذه القواعد تحوي عددا من الجنود الاوروبين والمحليين وكانت لديهم امكانيات تساعدهم عند الحصار لفترة طويلة بانتظار النجدات ، وفي الوقت ذاته كانت هذه القواعد تهيمن على منطقة واسعة حولها تزداد حسب قوة الجند وامكانياتهم القتالية . والقواعد العسكرية القديمة كانت منفصلة عن بضعها ولا واسطة اتصال بينها خاصة اذا كانت بعيدة عن بعضها . اما القواعد الحالية فهي مرتبطة مع بعضها بوسائط لاسلكية وربما سلكية عالية المستوى ومجهزة بمختلف انواع الرادارات واسلحة الدفاع الجوي ويمكن لهذه الرادارات ان تقوم برصد تحركات العدو حتى ضمن اراضيه والتصنت على مواصلاته ، وفي هذه القواعد الانشاءات الحديثة في باطن الارض وظاهرها ، وتكلفت بعض هذه القواعد مئات الملايين من الدولارات وتحوي بعضها المطارت الضخمة التي تحوي عددا كبيرا من المقاتلات والقاذفات وقواعد اطلاق الصواريخ النووية ، لضرب اهداف بعيدة جدا داخل ترتيب العدو القتالي داخل ارضه وخارجها وهناك القواعد الخاصة بالتصنت ومراقبة الاقمار الصناعية الصديقة والعدوة ومنها ما هو مخصص لتوجيه الصواريخ عابرة القارات والتي يمكن ان تطلق من امريكا نفسها او من الغواصات النووية حاملة الاسلحة الذرية عابرة القارات ، وتكمل هذه القواعد فعالية الاساطيل البحرية الموجودة في المحيطات فبالرغم من ان التكنولوجيا الحديثة زادت في الفعالية القتالية للاساطيل البحرية الا انها ظلت بحاجة الى القواعد البرية .

لقد كانت للقواعد العسكرية اهمية خاصة في مرحلة استراتيجية الردع الشامل التي ابتدعها (دالاس) في وقت احتكار الولايات المتحدةللاسلحة النووية نظرا لان مدى قاذفات القنابل الذرية (ب ٢٩) التي كانت موجودة عقب الحرب العالمية الثانية كان محدودا لذلك اضطرت لانشاء شبكة كاملة من القواعد المحيطة بالاتحاد السوفياتي ، ثم تغير المفهوم بالنسبة للقواعد كما قال الستراتيجي

الفرنسي الجنرال (اندريه بوفر) في كتابه مدخل الاستراتيجية بعد ان تغيرت استراتيجية الرد الشامل وحلول استراتيجية (الرد المرن) محلها وهي الستراتيجية التي قامت بتجديدها الجنرال ماكسويل تايلور وتبناها الرئيس كندي وتعنى هذه الستراتيجية كما يقول بوفر « دراسة كل حال حسب اهميتها وعدم اللجوء الى الرد الشامل الا في آخر المطاف اي انها تحاول ان تكون فعالة في الرد مع الحفاظ على بقاء محدودا ومع ذلك لم تفقد قيمتها فهذه القواعد لها فعاليتها في عمليات القوات الجوية المنقولة بالطائرات من امريكا الى المناطق المضطربة لانها محطات امداد بالوقود لطائراتها ونقاط وثوب وارتكاز تعمل بنفسها فضلا عن دورها في الحرب المحدودة .

جميع هذه القواعد موجودة خارج الاراضي الامريكية وتشكل حلقات متسعة تدريجيا كل منها يحمي الاخرى ومهمته الرئيسية حماية الارض الامريكية من الغارات الجوية التقليدية والنووية والتصدي لكل خطر محتمل وتدميره قبل وقوع وخاصة الهجمات المفاجئة واما اهميتها الهجومية فهي كبيرة ايضا بسبب توزعها في مختلف انحاء العالم وعدم امكانية القضاء عليها من الضربة الاولى المللك فواحدة منها يمكن ان تسبب الخسائر الفادحة للعدو ولو بدأ بالضربة الاولى وقد حدد الجنرال سباتز قائد الطيران الامريكي بعد الحرب عام ١٩٤٦ مهمات هذه القواعد « يجب على الولايات المتحدة ان تمتلك القواعد والقوات الهجومية الجوية التي تستطيع ان تصل الى المراكز العسكرية لاي عدو محتمل ويمكن اقامة (قواعد سياسية) حقيقية في اجزاء كثيرة من العالم حيث توجد المواد الضرورية لادامة الحرب وعلى اراضي الدول الضعيفة لتكسبها كدولة صديقة وكذلك على الدول غير المحمية والتي يمكن ان تقع تحت سيطرة الدول القوية .

وتحت شعار حماية الدول العربية من العدوان الشيوعي والزحف السوفياتي المحتمل فرضت الولايات المتحدة خاصة في الفترة التي اعقبت انشاء الحلف الاطلسي في ٢ نيسان ١٩٤٩ اتفاقيات امن متبادلة مع المملكة العربية السعودية وليبيا وانشئت بمقتضاها قاعدة الظهران الجوية القريبة من مياه الخليج وكانت مهمتها ضرب القواعد السوفياتية في جنوب ووسط روسيا بالقنابل الذرية اما ليبيا فقد فرضت عليها اتفاقية عام ١٩٥١ مدتها ٢٠ عاما اقامت الولايات المتحدة بموجبها قاعدة (الهويلس) الضخمة التي تقع على مقربة من مدينة طرابلس وكان تعتبر اكبر قاعدة عسكرية امريكية خارج الولايات المتحدة وهدفها كان ضرب مناطق روسيا

الاوربية وبلاد اوربا الشرقية الاشتراكية وكانت الولايات المتحدة تستفيد من القواعد التي انشأتها في تونس والمغرب والتي اعيد لفرنسا كما كانت تستفيد من قاعدة عدن الجوية وكذلك من قاعدة البحرين (الجفير) البحرية والتي كان فيها بشكل دائم تقريبا عدد من السفن الحربية الامريكية . وبعد ذلك فقدت امريكا قاعدة (الهويلس) بعد سقوط الملكية في ليبيا وسميت قاعدة عقبة بن نافع ، كما فقدت بريطانيا قواعد كينيا وعدن ولم يبق سوى قاعدة البحرين .

اما المرحلة الثانية من النشاط الامريكي في المنطقة فيعود الى اليوم الذي اعلنت فيه بريطانيا بتاريخ ٦ كانون اول ١٩٦٨ بانها ستنسحب في نهاية عام ١٩٧١ وتخليها في المنطقة عن مسؤ ولياتها تجاه الحلف الاطلسي بعد سلسلة النكسات التي اصابت سياستها في المنطقة كتأميم البترول الايراني عام ١٩٥١ وسقوط الملكية في العراق عام ١٩٥٨ والتي رافقها سقوط حلف بغداد وثورة عمان عام ١٩٥٤ ونجاح ثورة جنوب اليمن وتأسيس اليمن الديمقراطية وقد استغلت امريكا هذا العجز البريطاني لتحصل بعد عودة الشاه وسقوط مصدق بمساعدتها على الحصة الكبرى في بترول ايران بعد تشكيل الكونسورتيوم عام ١٩٥٤ وقد اثار الاعلان البريطاني تساؤلات ومداولات طويلة بين بريطانيا وامريكا وعن القوة التي يمكن ان تحل محل بريطانيا لسد الفراغ الذي تتركه تلك القوات التي كانت تهيمن على المنطقة منذ فترة طويلة خاصة بعد فشل سياسة الاتحادات التي كانت تعمل لاقامتها في المنطقة حيث فشل اتحاد الجنوب العربي واتحاد دول شرق ووسط افريقيا واتحاد روديسيا ونياسالاند ولكنها نجحت في اقامة اتحاد ماليزيا ودفعت بدول الخليج لاقامة اتحاد فيما بينها ، ولكن جميع هذه ا لاتحادات كانت ضعيفة وتعاني من التمزق في صفوفها ، ولا يسمح لها نظامها اللامركزي الواسع لترسيخ قوة ذاتية كبيرة وكانت بريطانية تأمل عن طريق هذه الاتحادات تخفيض النفقات العسكرية في ميزانيتها ، ولكن على اساس بقاء نفوذها والفوائد التي يمكن ان تحققها من الناحية التجارية مع هذه الاتحادات ، لذلك عقدت اتفاقيات فنية واقتصادية مع الاتحادادت التي نجحت بالبقاء ولم تتعهد في هذه الاتفاقيات باي بنود تجعلها تهب لنجدة هذه الاتحادادت عند الخطر في حين ان اتفاقها مع الكويت عام ١٩٦١ اثر الاستقلال نص على ذلك واستنادا الى ذلك نزلت القوات البريطانية في الكويت اثر تهديد عبد الكريم قاسم لها بالاحتلال عند الاعلان عن استقلالها وقد دفعت الكويت مصاريف هذه الحملة

الفاشلة . ومما يجدر ذكره ان امريكا لا ترى الحلول محل بريطانيا بنفس الطريقة او العقلية بل ارادت ان تتستر وراء القوى المحلية وليس وراء اتحادات ضعيفة لحماية مصالحها الحيوية ومصالح الغرب .

كانت الافكار البريطانية والامريكية متقاربة حول املاء الفراغ بعد الانسحاب البريطاني وهو العمل على ايجاد القوى المحلية لتكون البديل الذي يمكن الاعتماد عليه بشكل مطلق بالتعاون مع القوات المحلية التي كانت بريطانيا قد انشأتها كقوات (الليوي) في جنوب اليمن وقوة (كشافة ساحل عمان ، وقد انضمت القوة الاولى (الليوي) للثوار اليمنيين ولم تكن لدى القوة الثانية القدرة على تحقيق قتال صحيح . وكانت امريكا نفسها متورطةفي حزب فيتنام، لذلك تم الاتفاق على الاعتماد على قوة محلية تابعة لدولة من دول المنطقة . وحتى ذلك الوقت كان القرار الرئيسي لبريطانيا ولم يكن لدى الولايات المتحدة خطة واضحة حتى انها لم تدخل حلف بغداد وعندما طرح ايزنهاور نظرية الفراغ في الشرق الاوسط سنة ١٩٥٧ لم يحاول تطبيق مبدئة على منطقة الخليج على اساس ان لا فراغ في المنطقة بوجود بريطانيا ، وكان اهتمام الامريكيين بالطريقة التي يستطيعوا بها الوقوف امام المنافسة القوية التي بدأت تعترضهم في مجال البترول .

اما القوى المحلية التي كان يؤمل بان تسد الفراغ البريطاني فهي العراق - السعودية ايران وقطر والكويت ودولة البحرين والامارات العربية المتحدة وسلطنة عمان . وكانت بريطانيا تأمل ان تستطيع تشكيل وحدات للتدخل السريع تتمركز في بريطانيا لمساعدة الاقطار المعرضة للخطر الشيوعي في المنطقة الا ان فقدانها لقواعدها في قناة السويس وعدن وكينيا جعل من الوصول الى المنطقة صعبا لاضطرار القوات المحمولة جوا للمرور عبر اجواء بلاد ولا تسمح لبريطانيا بالمرور . وقد ظهرت الصعوبات امام الحملة البريطانية التي ارسلت للكويت لحايتها من هجوم عبد الكريم قاسم حيث اقتضي وصولها مدة طويلة . وعندما وصلت مرض اغلبها بسبب التغير المفاجىء في اختلاف الاجواء بين برد بريطانيا وحرارة الخليج واصيب اكثر افرادها بالزحار والامراض المعوية ، ففقدوا قدرتهم القتالية لذلك تخلت بريطانيا كليا عن هذه الفكرة واللجوء الى القوات المحلية . وكان اقواها ايران والعراق والمملكة العربية السعودية وكلها تسير في فلك محاربة الشيوعية في ذلك

الوقت وتكن العداء للاتحاد السوفيتي وقد استبعدت العراق بعد الاطاحة بالملكية في ١٤ تموز ١٩٥٨ وانسحابها من حلف بغداد وانتهى الامر ولـم يعـد يتجـاوب مع السياسة الغربية ، وكان الطرفان اي امريكا وبريطانيا يعتقدان بان للعراق اطماعه في دول الخليج والتقارب بين العرب في هذا المجال خطـر على المصالـح الغربية في المنطقة ، وبما ان الهدف هو حماية الخليج من الشيوعية وبالتالي من الاتحاد السوفياتي وقد اصبح للعراق علاقات جيدة مع الاتحاد السوفياتي وبقيت الدولتان السعـودية وايران وهما المؤ هلتان فكلاهما يحارب الشيوعية وسياسة الطرفين ودية نحو الغرب ، ولكن الخيار بين البلدين كان لصالح ايران ، فالمملكة العربية السعودية بتعدادها القليل من ناحية السكان وسياستها الهادفة التي تميل الى المسالمة بعيدة عن الاطماع غير مقبولة بالاضافة الى مشكلة فلسطين فالدعم الامريكي لاسرائيل لا يزال وسيبقى المشكلة التي تقف امام كل تقارب بين امريكا والعرب ، فامريكا لا يمكن ان تقبل بوحدة العرب وقوتهم لان هذا يهدد اسرائيل ، وهي نعتبر اسرائيل ركيزتها الحقيقية في الوقوف ضد كل تهديد لابار النفط من الخارج او من الداخل ، فقد امتصت كل تفكير بالسيطرة على البترول العربي سيطـرة كاملـة وحيقيقـة من خلال حروبها ومطامعها في الاراضي العربية ولا يهم امريكا ان يتغير وجه المنطقة اذا كان هذا يحقق مصالحها بسبب ازدياد الطلب على البترول ، وما كان يثير امريكا هو التصريحات التي كان يطلقها الزعماء العرب بمافيهم الزعماء السعوديون المعروفون بصداقتهم التقليدية مع امريكا ، وكانت هذه التصريحات تحذر من تمادي دعم امريكا لاسرائيل التي احتلت اراضي عربية ، وقد صرحت الكويت بانها ستوقف الضخ اذا تجـدد القتال بين العرب واليهود . وقد نفذت الدول العربية بما فيها السعودية عام ١٩٧٣ تهديدها وقطعت امداد النفط عن اوربا وامريكا رغم التهديد الامريكي باستخدام القوة في سبيل اعادة تأمين النفط واستمرار تدفقه نحو الغرب ، لذلك لم يكن هناك سوى ايران منذ عهد الشاه [illegible] الامريكية [illegible] اي مانع للتعاون مع اسرائيل الركيزة الثانية [illegible] الخطة الدفاعية الامريكية عن المنطقة ، ومن نافلة القول ان يكون الجواب على من يستغرب وقوف امريكا الواضح بجانب اسرائيل رغم صداقتها مع قسم من الـدول العـربية ، من ان اسرائيل هي قاعدة قوية لامريكا في الشرق العربي وازداد اعتمادها عليها بعد سقوط الشاه فهي لا تطمئن كما رأينا الى القوى العربية مهما اظهرت من ولاء لامريكا .

كانت ايران من كل النواحي ملائمة لتطبيق المخططات الامريكية واعتماد امريكا عليها في تلك المنطقة من العالم خاصة موقعها الجغرافي الذي يتصل بالاتحاد السوفياتي بحدود مشتركة طويلة وقريبة جدا من قلب الاتحاد السوفيتي ، ثم تعدادها البشري الضخم بالنسبة لدول المنطقة رغم كون هذه الدول جميعها من اصول واحدة وتتكلم لغة واحدة الا انها تنتمي الى وحدات سياسية مختلفة وعديدة وذات امكانيات بشرية ضعيفة بسبب تفرقها وعلى العكس من ذلك فايران موحدة داخليا رغم احتوائها على جنسيات وعروق متعددة فقد قضى الشاه السابق محمد رضا بهلوي على الفوضى السياسية فيها ووحدها وربط شعوبها ببعضها واعاد للحكومة المركزية السلطة والقوة ، واخيرا الثروة الضخمة التي تمتلكها بسبب مواردها النفطية الكبيرة والتي تؤمن لها دخلا ممتازا تستطيع به تنفيذ مشاريعها الانمائية والصرف على تسليح جيشها وهذا ما كان يهم امريكا يضاف الى ذلك ارتباط ايران والباكستان وتركيا باتفاقية واحدة

هناك ميزتان تحققها الولايات المتحدة من توثيق علاقاتها بايران فالميزة الاولى سياسية تتمثل في كون ايران اصبحت المرتكز الرئيسي للولايات المتحدة في غرب اسيا بعد ضياع هيبة الولايات المتحدة في باكستان التي جزأت اراضيها اثر حروبها مع الهند عام ١٩٧١ وأثارت ضجة قوية ضد الولايات المتحدة التي لم تنهض لاعانة الباكستان . والميزة الثانية هي اقتصادية وتتمثل في التعهد الايراني للولايات المتحدة بتزويدها بـ ٢٩ مليون برميل من النفط خلال السنوات القادمة وكانت اهمية ذلك بالنسبة للولايات المتحدة كبيرة بعد ان قررت هذه ان ثلث وارداتها من النفط في العقد الحالي سيأتي من الشرق الاوسط فلا عجب بعد ذلك اذا ابدى رئيس الولايات المتحدة نيكسون عناية خاصة بزيارة شاه ايران في قمة مشكلة (وترجيت) وفي اثناء زيارة الشاه لواشنطن خلال شهر حزيران ١٩٧٣ اعلن انه راغب في شراء اسلحة تقدر قيمتها بثلاثة آلاف مليون دولار « وذلك لان ايران هي الحارس الامين على نفط الخليج وقد وصفه نيكسون بانه « يعلب دورا في تحقيق السلام على المستوى العالمي بصفته يشكل حلقة اتصال بين الشرق والغرب ، وهناك ميزة ثالثة هي ان ايران اصبحت عامل ضغط غير مباشر على العرب بين امريكا في الجناح الشرقي من الوطن العربي اما العامل الثاني فكان ولا يزال اسرائيل من الطرف الاخر ، ولقد تلاقت

الرغبتان رغبة الشاه بان يصبح قوة عظمى مهما كان الثمن مع رغبة الامريكيين في خلق قوة محلية تدخل ضمن الاستراتيجية الامريكية العامة وتكون ذات قوة فعالة في مجرى الاحداث . ان امتزاج رغبة قوة اقليمية في الاستراتيجية الامريكية يظهر في التطور الهائل الذي مر على القوات المسلحة الايرانية ، وقد بذلت ايران ما قيمته عشرة مليارات من الدولارات ثمن اسلحة معدات حربية متطورة من الولايات المتحدة وانكلترا لتجهيز القوات المسلحة فانهالت عليها مئات الدبابات والطائرات والسفن الحربية قاذفة الصواريخ وازداد عدد الجيش حتى وصل الى اكثر من ثلاثمائة الف جندي بينهم عشرون الف من المستشارين الامريكيين . وكانت امريكا تأمل من هذا الجيش الضخم ان يكون اداة فعالة ضد اي هجوم خارجي تجاه الخليج وخاصة الجيش السوفياتي وقد بدأت امريكا باشادة قواعد التصنت والاستماع على الحدود السوفياتية . وتشير الرحلة التي قام بها جيمي كارتر في كأنون اول ١٩٧٧ الى النصائح التي قدمها لايران لترسيخ وجودها في الخليج والبحر الاحمر ، وقد لعبت ايران دورا بارزا في احداث الخليج بتشجيع من امريكا فقدمت المساعدة الفعالة لنظام السلطان قابوس بعد رفض الدول العربية مد يد المساعدة له في حربة ضد ثورة ظفار وبدعم من امريكا وتسامح من بريطانيا احتلت ايران الجزر العربية الثلاث طمب الكبرى وطمب الصغرى وابو موسى لتهيمن على الممرات المائية ومضيق هرمز . وللشاه طموحات فكان يسعى لجعل ايران الدولة الخامسة عسكريا في العالم يهدد بجيشه الدول المحيطة الاخرى وخاصة دول الخليج والعراق التي كان له فيها مطامع كبيرة . ولكن الامور لم تكن لتسير كما كان يريد الامريكيون حيث اطيح بالشاه بعد ثورة لاهبة ورغم الجيش الضخم الذي بناه الشاه فقد اضطر لترك ايران وتخلت عنه امريكا بأمل ان تلتف على النظام الايراني الذي خلف الشاه . لذلك لم يجد له مكانا يأوي اليه ومن سخرية القدر ان الرجل الذي كان يكره العرب ويستخف بهم ويساند اسرائيل ويقدم لها البترول لم يجد من يأويه سوى العرب . وقد أثار سقوط الشاه في أيلول ١٩٧٩ مرة ثانية مسألة الأمن في الخليج من جديد . خاصة بعد دخول السوفييت أفغانستان في كانون أول ١٩٧٩ . وكذلك بعد النكسات التي أصابت خطط الدفاع الأمريكي من استيلاء الحكم اليساري لنفستو على مقدرات الأمور في اثيوبيه واتفاقية عدم الاعتداء والتعاون مع اليمن الديمقراطية وبهذا أصبح الوجود الروسي في المنطقة حقيقة واقعة .

وتبدأ الفترة الثالثة من النشاط الأمريكي مع إعلان الرئيس كارتر لضرورة تقوية الوجود الأمريكي لحماية المصالح الأمريكية والعدول عن الاعتماد على القوى المحلية والاعتماد على القوة الذاتية الأمريكية بعد سقوط الشاه والتدخل المباشر عند الحاجة إذا رأت ذلك ضرورياً للحؤول دون وقوع مزيد من الانتكاسات فالمنطقة معروفة بتغيرها السريع ويقال عن الخليج بأنه بحر الرياح المتغيرة ، ويقول رئيس لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ الأمريكي السناتور (جون س . ستينس) سابقاً «إن الخطر الأساسي الذي يهدد مصالحنا يأتي من الشرق الأوسط ، وأضاف «إن الولايات المتحدة تحتاج إلى مزيد من التنظيم والتخطيط من أجل توفير التسهيلات العسكرية في المنطقة . وفي الخطاب الذي ألقاه الرئيس كارتر حول سياسة الاتحاد وجه تحذيراً للجميع «فليكن موقفنا واضحاً جداً أن اية محاولة تقوم بها دولة خارجية للسيطرة على الخليج ستعتبر اعتداء على المصالح الحيوية للولايات المتحدة ومثل هذا الاعتداء سيعد بأنه وسيلة ضرورية بما فيها القوة المسلحة» وقد حدد الرئيس كارتر في خطابه أيضاً ثلاثة تطورات أساسية ذكر انها ساعدت على تكوين شكل التحديات التي تواجه أمريكا داخل المنطقة وهي :

ـ أولاً : النمو المضطرد والمتزايد للقوة العسكرية السوفييتية خارج الاتحاد السوفييتي .

ـ ثانياً : الاعتماد الساحق للديمقراطيات الغربية على الامدادات النفطية من الشرق الأوسط .

ـ ثالثاً : وجود تغيير اجتماعي وديني واقتصادي وسياسي في العديد من دول العالم الثالث وثورة ايران مثال عليه .

ثم ذكر الرئيس الأمريكي «ان لكل من هذه العوامل أهمية في حد ذاته وكل واحد منها يتفاعل مع الآخرين ويجب مواجهتها مجتمعة» وقد بين اهتمام امريكا في هذه المنطقة والذي يستلزم حسب قوله تكراراً لنقطتين جوهريتين تم إبداؤهما بصورة متكررة في مباحثاتنا حول الشرق الأوسط وجنوب غرب آسيا خلال السنتين الماضيين وهما :

أولاً : تجتمع من المصالح الأمريكية المهمة في هذا الجزء من العالم أكثر مما يجتمع منها في أي منطقة أخرى من العالم النامي اليوم وتواجه هذه المصالح المزيد من التحديات اليوم بفعل أعمال الاتحاد السوفييتي .

ثانياً : في واحدة من أسرع مناطق العالم تغييراً ما يهم صانعي السياسة الأمريكية ليس كيفية وقف التغيير ، بل فهم أسبابه وتقرير كيفية العمل مع حكومات المنطقة من أجل توجيههم في وجهات بناءة» .

وعن التهديد السوفييتي يذكر الرئيس كارتر فيقول «انه منذ امد بعيد كانت احدى اهتماماتنا الأولى أن نمنع انشاء وضع معادلنا يستطيع أن يؤثر على وصولنا ويهدد أمن المنطقة ويؤدي إلى مجابهة وفي أعقاب اجتياح السوفييت لأفغانستان أصبح الأمر أشد إلحاحاً ومن المهم أن نحدد طبيعة القضية بالضبط» .

«إن التحديد الذي يثيره العدوان السوفياتي السافر (حسب قول كارتر) من السهل تحديده ففي أفغانستان أصبح التهديد الناجم عن العدوان السوفييتي حقيقة خلال كانون أول ، وبالتطلع إلى المستقبل ؛ وفي حين لا نستطيع أن نكون على يقين بالنسبة لطبيعة النوايا السوفييتية بالضبط يجب علينا أن نأخذ بجدية امكانية حدوث المزيد من التحركات السوفييتية ، وقد عبرت الشعوب في هذه المنطقة منذ أمد طويل عن القلق من أن هدف السوفيات هو الحصول على ممر الى المياه الدافئة عبر بلوخستان أو التحرك الى الخليج بهدف السيطرة على موارد الغرب من النفط . وهنا أيضاً قلق من استمرار عدم وجود سلطة مركزية قوية في إيران يمكن أن يدفع إلى تكرار احتلال السوفييتي من تلك البلاد كما حدث في نهاية الحرب العالمية الثانية ويمكن للقوة المتنامية لحزب (تودة) الشيوعي في ايران ان تسهم في «ظهور» وضع يستطيع الاتحاد السوفييتي أن يستغله» .

وقد عدد الرئيس كارتر الأماكن التي يوجد فيها الاتحاد السوفييتي بشكل نفوذ وليس بشكل جنود كاليمن الديمقراطية كما وفر الاتحاد السوفييتي حسب قول كارتر دعماً مهماً لحكومات ومنظمات تحرير ثم انتقد دخول السوفييتي لأفغانستان بأن سيطرة السوفييت الدائمة على أفغانستان سوف تعزز قدرة السوفييت على دعم التخريب وغيره من أشكال الضغط على الحكومات المتعاقبة في المنطقة .

ثم يقول «إن هدفنا هنا اليوم هو التفكير ملياً في سياسة تلاءم الولايات المتحدة مع الأخذ بعين الاعتبار أهمية مصالحنا والخطر الذي يتعرض له وتعقيد القوى التي تعمل في المنطقة ذاتها وباختصار النقطة التي أود أن تولوها اعتباركم هي سيكون علينا أن نسخر مجموعة واسعة من الموارد وبالتعاون مع أصدقائنا وحلفائنا ، في جهد قومي يرمي إلى حماية مصالحنا، ومساعدة دول في هذه المنطقة على المحافظة على استقلالها وتوجيه التغيير وجهات بناءة . لا يمكن لسياستنا أن تبقى على اتجاه واحد من الحلول ولكنها تستلزم جهداً مكثفاً يبذل مع الوقت يعمق ويوسع مدى دورنا في المنطقة» ويقول أيضاً «نحن مستعدون للعمل مع دول أخرى في المنطقة للمشاركة في إطار عمل تعاوني للأمن يحترم القيم المختلفة والمعتقدات السياسية ، ومع ذلك يعزز استقلال وأمن وازرها الجميع» .

وقد حدد كارتر أسس السياسةالتي ستتبعها حكومته لكبح الضغط السوفياتي (حسب قوله) ورعاية النمو المنتظم ومعالجة القضايا على أساس استراتيجي صلب

- اقتصاد امريكي قوي وأقل اعتماداً على النفط الأجنبي .

- تحالف غربي حيوي، قادر على التعاون بصورة فعالة مع دول الخليج في ملاحقة أهداف مشتركة .

- مقدرة عسكرية امريكية متزايدة على إبراز قوتنا في المنطقة بصورة مصممة لتعزيز الأمن والاستقرار .

- إرادة وطنية للضغط من أجل حل الأسباب الأساسية لعدم الاستقرار في المنطقة وهو النزاع بين اسرائيل والعرب .

. استعداد لاستخدام الموارد من أجل تنمية بقاء واستقلال حكومات وشعوب في المنطقة تسعى للعمل معنا بصورة بناءة من أجل بلوغ أهداف السلام والكرامة الانسانية .

وقد شدد كارتر على أن هذه الخيوط إذا جمعت مع بعضها في استراتيجية يمكن توفير زعامة قوية موطدة العزم ومنفهمة ونجعل من الدول تعمل مع امريكا بشكل وثيق للتغلب على قوى العدوان والكبت والفوضى .

وقد أوضح الرئيس كارتر بأنه ولو أن أمريكا تتحمل عبء كبيراً ، فعليها أن تلعب دوراً بارزاً في المنطقة وتقويه القدرة العسكرية لتعزيز أمن المنطقة وبالتعاون مع الأصدقاء والحلفاء في داخل المنطقة وخارجها كما كان عليه الحال في السابق حيث

لعب البريطانيون دوراً أساسياً في الخليج وفي الخمسينات كان حلف بغداد وفي السبعينات كانت إيران ولكن كل هذه الأمور تغيرت كما أعلن عن تشكيل قوات التدخل السريع. وتحسين القدرة على إمكانية سرعة إيصال هذه القوة لمناطق مضطرة بعيدة وذكر أن الولايات المتحدة زادت من قوتها العسكرية في المحيط الهندي وعززته مبقية على مجموعتي حاملتي طائرات هناك منذ أواخر السنة الماضية وأعلن أنه أصدر أمراً لوحدة برمائية بالانضمام إليها في وقت لاحق وأعلن عن محاولاته للاتصال مع بعض دول المنطقة لاستخدام التسهيلات البحرية والجوية الممكن توفرها في تلك البلدان وفيما يتصل بنشاطات الاسطول الحالية (في ذلك الوقت) يقول كارتر وسنحافظ على قدرتنا الاحتياطية لاستخدام القوة العسكرية الاضافية اللازمة لمساعدة الدول المهددة في المنطقة عندما تدعو الحاجة وسنختار سبلنا بعناية من أجل ضمان الا تخلق الاعمال الامريكية مسؤ وليات سياسية محلية تقلل من فعالية جهدنا العام وقد أقمنا أيضاً علاقات مع عدد من دول المنطقة تقضي بتزويدها بالعتاد العسكري ولا تسهم هذه العلاقات في زيادة قدرات هذه الدول على الدفاع عن النفس وحسب بل تسهم أيضاً في تنمية شعورها بالاستقرار واستعدادها للمشاركة في جهد الأمن المشترك .

وقد شدد كارتر في شرح حالة الاتحاد على سياسة الردع ضد الاتحاد السوفييتي التي تجعله يدفع ثمناً غالياً لعدوانه على أفغانستان واعلن عن فرضه للعقوبات الاقتصادية والعقوبات الأخرى وبعد أن تعرض الرئيس كارتر للثورة الايرانية وقبوله بها ومديده اليها وأنه يحترم الدين الاسلامي وأن أخذ الرهائن خرق للمبادىء والتقاليد الاسلامية وتعرض أيضاً للمفاوضات بين مصر واسرائيل أوضح بأن سياسة أمريكا في الخليج وفي شبه الجزيرة العربية هي تشجيع الحكومات هناك على التعاون في سبيل مصلحة أمن المنطقة ونموها المنتظم وحوارنا حول القضايا الاقتصادية جزء مهم من جهدنا وأوضح أن أمريكا عملت بصورة وثيقة مع بعض حكومات الخليج وعلى الأخص العربية السعودية في جهود تعاونية دبلوماسية واقتصادية وجهود مساعدة أمنية لتقوية دول في المنطقة الأوسع نطاقاً .

ويمكن اختصار سياسة أمريكا في الخليج في عهد كارتر كما يلي :

ـ حماية المصالح الأمريكية والغربية ضد كل تهديد خارجي مهما كان نوعه .

ـ الاعتماد على القوة الذاتية الأمريكية الموجودة في أمريكا لحماية المنطقة .

- تقوية الاقتصاد الامريكي وتخفيف الاعتماد على النفط .
- مد يد المعونة لكل الدول التي تتعاون مع أمريكا .
- تشجيع التعاون بين دول المنطقة وخاصة دول الخليج
- اعطاء الأهمية للمملكة العربية السعودية .
- العودة إلى فكرة القواعد .

لم تختلف سياسة امريكا في عهد كارتر او ما يسمى بمبدأ كارتر عما كانت عليه سياسة الولايات المتحدة في عام ١٩٧٣ ، ففي تقرير للجنة الدراسات الاستراتيجية التابعة لجامعة (جورج تاون) الامريكية عن الاخطار السياسية التي تؤثر على المصالح الغربية عامة والامريكية خاصة في منطقة الخليج بالنقطتين التاليتين :

- الاضطرابات الداخلية التي يمكن ان تثيرها قوى وطنية .
- النزاعات الاقليمية بين دولة والتي لا يمكن السيطرة عليها (كما يحدث حاليا في الحرب العراقية - الايرانية التي لم تستطع كل المداخلات الخارجية ايقافها حتى كتابة هذه السطور لذلك فتوقعات اللجنة كانت صحيحة يضاف اليها الثورة الايرانية الاسلامية التي اطاحت بالشاه والذي كان معتبرا الصديق القوي لامريكا . ومما يجدر ذكره ان تقرير الدراسات هذا نص على ايجاد او خلق انظمة صديقة للولايات المتحدة وقد حددت اللجنة اهم النقاط التي يجب ان تتبعها السياسة الامريكية او بالاحرى اهم النقاط التي يجب ان تستند عليها استراتيجية الولايات المتحدة في المنطقة وهي كما يلي :

- تعزيز النفوذ الامريكي في الدول المعنية ولدى حكوماتها .
- العمل على اقامة تحالفات صديقة تحت هذا الشعار او ذاك مع التركيز على القاعدة الدينية والعقيدة السياسية .
- دعم المراكز الامامية للامبريالية واعطائها دورا هاما في الحراسة .
- الوجود العسكري الامريكي الذي يهدف الى تهديد القوى والحركات المعادية
- ربط المنطقة بشبكة المصالح الاقتصادية للامبريالية العالمية .

احداث عدة حدثت خلال هذه الفترة وغيرت جميع المفاهيم ، ولكن الخطة المتبعة لا زالت هي والتي تستهدف حماية المصالح البترولية واستمرار تدفقها فقد سقط الشاه وتغيرت الاوضاع في اثيوبية وتدخل السوفييت في افغانستان وواجهت

امريكا التحدي في قصة الرهائن وفيما بعد الحرب العراقية الأيرانية .

لقد اثار سقوط الشاه امام امريكا مرة ثانية مشكلة الفراغ الامني ، وبرز في واجهة الاهتمام الدولي والاقليمي . كما احدث تغييرا جذريا في التفكير الامـيركي بعدم الاعتماد على القوى المحلية في حماية الخليج فهذه القوى يمكن ان تصبح بين عشية وضحاها عدوة لامريكا ، لذلك وبحجة تخليص الرهائن الامريكية وابقاء الخليج مفتوحا امام تدفق النفط اخذت امريكا تلوح بعصاها الغليظة التي تحققها لها قواتها الخاصة بالتدخل السريع واخذت تبحث عن القواعد العسكرية في الدول القريبة من الخليج . ثم جاءت احداث افغانستان فزادت امريكا في استغلالها لهذه الحادثة لكي تزيد في تواجدها العسكري وتحقيق هدفها في استغلال ظرف ما للعودة للخليج وسد الفراغ الذي تركه البريطانيين لحماية المنطقة (حسب زعمهم) ثم تاليب الدول الاسلامية ضد السوفييت المحتلين لبلد مسلم . لقد اثارت امريكا موضوع الدخول السوفياتي لافغانستان على عدة مجالات : ففي المجال الاقليمي استغلت البلبلة التي حدثت في المنطقة بقبول الوجود العسكري والتعاون معه فدول الخليج وخاصة المملكة العربية السعودية لا تحبذ مطلقا وجودا عسكريا مكثفا في الخليج خوفا من اثارة السوفييت بسبب قرب حدوده من الخليج اما في المجال الثالث فقد لعبت امريكا على وتر الدين حيث ان السوفييت احتلوا بلدا مسلما وخرقوا الاعراف الدولية . ولن نتطرق الى ردود الفعل السوفيتية وسنذكرها في الفصل القادم اثناء حديثنا عن الاستراتيجية السوفيتية نحو الخليج .

لم تكن فكرة تشكيل القوات الخاصة للتدخل السريع جديدة بحد ذاتها فمنذ فشل فكرة الردع النووي الشامل والاعتماد على الردع المرن والمتتابع ، فقد بدأ التفكير بوضع قوات ذات تشكيل خاص وتدريب خاص على مختلف الظروف والاراضي ، تستطيع التدخل بسرعة منها ما ينقل بالطائرات ومنها ما هو موجود في حاملات الطائرات العملاقة التي تعمل بمجموعات محمية بالمدمرات والغواصات وتكون مجهزة باسلحة صاروخية ومنها ما يحمل رؤوساً نووية تستطيع الوصول الى اي منطقة من مناطق العالم وتستطيع ضرب الاهداف الرئيسية لدى الاتحاد السوفيتي وهي تشكل القاعدة النارية لقوات التدخل السريع . وتستخدم هذه القوات قواعد ارضية وسيطة لتكون قواعد انطلاق واقلمة للوحدات الامريكية القادمة مباشرة من الولايات المتحدة ، وضمن هذا النظام المعقد من القواعد الرئيسية والقواعد

الوسيطة والقواعد المتحركة والتي تتمثل بالقوى البحرية تعمل الولايات المتحدة لايقاف اي اندفاع سوفيتي نحو الخليج وتهديد آبار النفط وايقاف تدفقها نحو اوربا واليابان وامريكا ولا شك ان اسرائيل تدخل ضمن هذا المخطط بما لديها من قوات عالية التدريب ومجهزة باحدث الاسلحة المتطورة التي تحصل عليها من امريكا . ويمكن لهذه القوى في حال تهديد ما الاندفاع بسرعة لاحتلال ابار النفط بالتعاون مع القوات الامريكية القادمة من امريكا او من البحر ، على اساس الثقة الكاملة التي توليها الولايات المتحدة لاسرائيل باعتبارها القوة الوحيدة المضمونة لخدمة المصالح الامريكية والصهيونية العالمية . ومما لا شك فيه ان سقوط الشاه الذي كان يمثل القاعدة الثانية للجسر الامريكي الذي يلف المنطقة جميعها ادى الى ازدياد اعتماد الامريكان على اسرائيل التي تمثل القاعدة الاولى ، ولا يخفى على الامريكيين انه ما دامت هناك مشكلة فلسطينية لا يمكن الاطمئنان الى الشعب العربي في اي جزء من اجزاء الوطن العربي الكبير في ان يكون مواليا لامريكا وليس بالضرورة ان يكون مواليا لروسيا اوغيرها اذا كان عدوا لامريكا وهذا هوما يحاول الصهاينة اثباته من ان العرب اعداء لامريكا واصدقاء للاتحاد السوفيتي وانه لا يستبعد ان يصبحوا شيوعيين ويعارضون كثيرا في تزويد بعض الدول العربية بالسلاح الامريكي الذي سينتقل بالضرورة حسب زعمهم الى ايدي اليساريين العرب الذين يعملون للقضاء على اسرائيل وابعاد النفوذ الامريكي واحلال النفوذ الشيوعي محله في السيطرة على آبار البترول . لذلك عارض الصهاينة واصدقائهم في امريكا تزويد المملكة العربية السعودية بالطائرات الحربية المتطورة والتي تسلح بها اسرائيل وحتى انهم عارضوا في تسليحها بالطائرات الاقل تطورا . وحتى انهم عارضوا في وصول طائرات التجسس والمراقبة (الاواكس) والتي ستبقى في ايدي امريكية وتحت مراقبتها ، والواقع ان الذي يحدد سياسة امريكا في تزويد العرب من اصدقائها هو التوازن بين قوة اسرائيل وقوة العرب مجتمعين ، فشراء بندقية في موريتانيا يجب ان يحسب له حساب في اسرائيل على اساس ان هذه البندقية ستستخدم يوما ما ضد اسرائيل . وثلاثة ملايين يهودي يجب ان يكون لديهم من السلاح والقوة ما يكفي لوقوفهم امام المائة والخمسين مليون عربي . ولكن العرب لم يتفقوا ولا يمكن ان يتفقوا للهجوم على اسرائيل بكامل قوتهم ولو حدث هذا لما وقفت اسرائيل ولا غيرها امام قوتهم ، فبامكان العرب تجنيد اكثر من ثلاثة ملايين جندي واكثر ويستطيعون رغم تفوق

اسرائيل في السلاح هزيمتها ولو انجدتها بريطانيا وامريكا معا ولكن اسرائيل حتى عدديا (عدد الجنود تحت السلاح) متفوقة وتتفوق على كل دولـة عربية على حدة حتى انها في حرب تشرين كانت عدديا متفوقة على كل من سوريا ومصر والعراق بعدد العناصر المقاتلة . لهذه الاسباب جميعها تعتبر اسرائيل عنصرا رئيسيا من عناصر الستراتيجية الامريكية في الشرق الاوسط . لذلك فامن اسرائيل هو جزء من امن الولايات المتحدة الامريكية نفسها اما أمن الدوول العربية فيرتبط بامـن البتـرول ولكن البترول لا يرتبط بامن البلاد العربية فالغرب ومنهم امريكا لا يهمهم من هو المسؤ ول او من هو صاحـب البتـرول بقـدر ما يهمهـم دوام تدفقـه لمصانعهـم ومستودعاتهم .

ومن اجل اتمام الخطة الستراتيجية في الخليج اخذت الولايات المتحدة في اعادة التفكير بتركيز قواعد لها في المنطقة الواقعة ما بين السواحل الافريقية الواقعـة على المحيط الهندي الى عمان واسرائيل ومصر والصومال وجـزر المحيط ، ويعتقـد انهـا ستصرف على هذه القواعد حوالي ٣٠ مليار دولار والتي ستكون حسب قول وكالة (الاسوشيتدبرس) الامريكية « ان هذه القواعد ليست مخصصة لاستيعاب قوى عسكرية كبيرة وملاكات حربية ضخمة كما هو الحال بالنسبة للقواعـد العسكرية الامريكية المنتشرة في اوربا الغربية واليابان . ذلك ان مثل هذه القواعد العسكرية الضخمة عدة وعددا يمكن ان تحرك مشاعر العداء والسخط عنـد شعـوب منطقـة الخليج العربي التي لم يمض على تخلصها من التبعية الاستعمارية سوى مدة وجيزة » وقد نجحت البنتاغون في تعـزيز قاعـدة دييغوغـارسيا البعيدة (٣٥٠٠) كم عن الخليج والواقعة في ارخبيل شاكوس الذي تحكمه بريطانيا وقد طرد سكان الجزيرة جميعهم منها واصبحت خالصة للعسكرية الامريكية وتعتبر من اضخم واقوى المراكز الحربية الامريكية في المحيط الهندي ويتوقع ان تحـوي الصـواريخ ذات الـرؤ وس النووية وقاذفـات قنابـل بعيدة المدى تحمـل قنابـل ذرية . وقـد تم تجـديد عقـود والحصول على التسهيلات البحرية والجوية في كثير من المناطق ، ففي البحرين التي يعود تاريخ الوجود الامريكي فيها الى عام ١٩٤٩ عندما استطاع الامريكان الحصول على تسهيلات لاسطولهم من الانكليز الذين كانوا يديرون شؤ ون البحرين في قاعدة (الجفير) وبعد الانسحاب البريطانـي عام ١٩٧١ وازدياد الوجـود السوفيتـي في المحيط الهندي وحصولهم على تسهيلات في عدن لاسطولهم اعادت امريكا الطلب

من حكومة البحرين المستقلة ، وقد تم الاتفاق بين الحكومتين في ٢٣ كانون اول ١٩٧١ على تمديد وسريان الاتفاقية السابقة ، وفي شهر نيسان ١٩٨٠ تم التوقيع على اتفاقية بين عمان والولايات المتحدة الامريكية يسمح بها للاخيرة باستخدام خمس مناطق عسكرية ، في عمان مقابل تزويد الجيش العماني بالسلاح والحصول على المساندةالامريكية لمواجهة الاخطار الداخلية والخارجية ودعم سياسة السلطان قابوس في المنطقة وقد اقام الامريكيون قاعدتهم الرئيسية في شمال جزيرة مصيرة الواقعة قبالةالساحل العماني مباشرة على انقاض القاعدة الجوية البريطانية السابقة التي كانت مستخدمة خلال الحرب وحتى عام ١٩٧٧ . وتحوي مطارا واسعا يستطيع استقبال اضخم الطائرات ، وقد زودت الجزيرة باسلحة متطورة جدا وتجهيزاتها ومعداتها العسكرية والتقنية معدة لاستخدام مختلف انواع الطائرات الحربية والمدنية واصلاحها ، ويجري تطوير القاعدة لاستقبال قوات التدخل السريع والقاذفان الستراتيجية الضخمة (ب ٥٢) وتقول صحيفة (الديلي نيوز) المعروفة « انه اصبح بامكان واشنطن بعد توسيع قاعدة (مصيرة) الحصول عبر هذه القاعدة على ما تحتاجه قطع اسطولها الحربي المنتشر في مياه الخليج العربي وبحر العرب وباستطاعة القاعدة استقبال طائرات النقل الحربية الضخمة من طرازت (١٤١) ثم نقل حمولتها من القاعدة الى قطع الاسطول المختلفة بواسطة الطائرات الخفيفة والحوامات وقد استخدمت قاعدة المصيرة في شهر نيسان ١٩٨٠ عندما حاولت امريكا انقاذ الرهائن بالقوة وارسلت طائرات الهليكوبتر التي تاهت وصدمت بعضها في الصحراء وادت الى كارثة مروعة دلت على ضعف في التنظيم والسيطرة مستغربان جدا . وقد اتمت امريكا ايضا بناء قاعدة (ثماريد) الجوية الواقعة في اقليم ظفار التابع لعمان وكانت هي الاخرى قاعدة بريطانية استخدمت خلال الحرب العالمية واما مطار السيب الواقع بالقرب من مسقط فتدير لعبة حربية امريكية . ولدى القوات البحرية الامريكية تسهيلات في ميناء مطرح القريب من العاصمة مسقط . وكذلك في ميناء (ريسوت) وهو الاخر في ظفار بالاضافة الى مراكز المراقبة في شبه جزيرة مسندم التي تطل على مضيق هرمز . وقد حصلت امريكا في مناطق اخرى على تسهيلات جوية وبحرية كمطار برنيس في مصر وميناء ممباسا في كينيا الذي يبعد عن هرمز حوالي اربعة آلاف كيلومتر ثم هناك تسهيلات في ميناء بربره الصومالي الذي بناه الروس على ساحل خليج عدن وكذلك في مينائي مقديشو وكسمايوالذي

بناه الامريكان منذ فترة وهناك تسهيلات جوية في مطار هرجيسه الواقع شمال الصومال كما حصل الامريكان على حق بناء مراكز للتصنت في جزيرة ماهي في ارخبيل جزر سيشل ، وقد عبر السناتور ستينس عن مفهوم الستراتيجية الامريكية بقوله « يبدو لي انه لا بد من اعطاء التسهيلات لنا في المحيط الهندي ويجب عمليا ان ننتقل عمليا نحو بنائها ، ويجب ان تشمل تسهيلات بحرية وجوية وبرية وكل ما تحتاجه هناك ويقول ايضا « اننا نواجه تحديا حقيقيا . . يجب ان نتحرك لحماية مصادرنا النفطية يجب ان نحصل على النفط ولذلك يجب ان نجد السبل الكفيلة لحمايته » .

لم يكن اهتمام امريكا في مسألة الفراغ الامني والتفتيش على تثبيت الاوضاع في المنطقة الا طريقة لحماية واستمرار تدفق البترول الى الدول الصناعية بما فيهم امريكا التي بدأت تحس بوطأة الحاجة الى الطاقة حيث تستهلك ٤٠٪ من مجموع الاستهلاك العالمي من النفط بالاضافة الى الاثر الكبير الذي تركه الحظر العربي خلال حرب ١٩٧٣ على الدول الغربية بما فيهم امريكا نفسها وكان ان بدأ التخطيط لمواجهة احتمالات كهذه والدعوة الى تخفيف الاستهلاك والتفتيش على مصادر جديدة وجاءت احداث ايران والتدخل السوفيتي في افغانستان لتزيد الحاجة الى مواجهة كل هذه الامور حسب ماذكر الرئيس كارتر في خطابه امام الكونغرس عن حالة الاتحاد التي جاء ذكرها قبل فترة قصيرة .

لقد كانت حرب تشرين عام ١٩٣٧ بداية مرحلة جديدة في المنطقة العربية وفي العلاقة ما بين الدول المصدرة للبترول والدول المستوردة ومنها امريكا فقد ادى الحظر النفطي الذي فرضته الدول العربية على صادراتها من النفط خلال الحرب الى اثارة انتباه العالم لهذه المنطقة التي تمسك بخناق العالم الرأسمالي . فلم يكن من المتوقع ان تقوم هذه الدويلات حسب التعبير الاوربي بمنع البترول عن اوربا واليابان وامريكا ، فحتى عام ١٩٧٣ كانت امريكا تسيطر سيطرة كاملة على نفط المنطقة بالرغم من التأميم الذي حدث في بعض الدول العربية الاخرى مثل ليبيا التي امت بترولها عام ١٩٦٩ بعد وصول العقيد القذافي الى سدة الحكم كما ان العراق امم مصالح شركة نفط العراق في ١/ ٦/ ٧٢ الا ان بقية الدول العربية ظلت بعيدة عن التأميم حتى حرب ١٩٧٣ فقد اممت الكويت مصالح شركة نفط الكويت في ١/ ١٢/ ١٩٧٥ وأما قطر فقد اممت مصالح شركة نفط قطر في ٧/ ٩/ ١٩٧٩ اما في

المملكة العربية السعودية فقد صرح وزير النفط في ٢٠/ ٢/ ١٩٧٧ بان اتفاقية تملك المملكة العربية السعودية لشركة الارامكو سيكون لها اثر رجعي اعتبارا من كانون ثاني ١٩٧٦ ، وعلى العموم فالعرب حاليا يسيطرون سيطرة تامة على بترولهم .

وفي غمرة الحرب اتخذت الدول العربية المصدرة للنفط (الاوبك العربية) المؤلفة من ابو ظبي - الجزائر - البحرين - ليبيا - مصر - الكويت - العراق - قطر المملكة العربية السعودية - سوريا تضامنا مع مصر وسورية في حربها ضد اسرائيل ، اتخذت هذه الدول اجراءات هامة عندما قررت استخدام سلاح النفط كسلاح ضغط على الدول الغربية التي اظهرت عداوتها للعرب وساعدت اسرائيل وعلى رأسها امريكا ، لتوقف اولا مساعدتها للدولة الدخيل والضغط عليها لاجبارها على الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة التي وضعت يدها عليها في حرب ١٩٦٧ واعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، وكان الاتجاه لرفع الاسعار وتخفيض الانتاج ثم قطعه نهائيا وقد طرحت هذه الامور في المؤتمر الاول الذي عقد في الكويت في ١٦ تشرين اول عام ١٩٧٣ ، وكان المطلوب رفع الاسعار الى ٧٠٪ عن الاسعار الموجودة في ذلك الوقت ولكن هذه الفكرة استبعدت لما تسببه من احراج للدول العربية وتظهر امام العالم كانها عملية ابتزاز غايتها الربح وليس العمل لقضية وطنية عادلة . وكانت الفكرة هي اشعار الغرب باهمية الدول العربية وامكانياتها ، ومدى الفائدة التي تجنى من الصداقة العربية على اساس ان مصالح الغرب مرتبطة بالدول العربية وليس باسرائيل التوسعية ، ولهذا اتخذ قرار بتخفيض جزئي للانتاج البترولي بشكل عام ويكون التخفيض على اساس ٥٪ من الانتاج السابق خلال شهر ايلول ١٩٧٣ على ان يصار الى تخفيض ٥٪ زيادة في اول كل شهر حتى تصبح المقاطعة نهائيا ولم يشمل التخفيض بعض الدول الصديقة كفرنسا . وبما ان امريكا اظهرت بمعونتها لاسرائيل انها اكثر الدول فائدة لاسرائيل فقد اعتبرت دولة غير صديقة للعرب ولهذا فرض عليها .

اكبر تخفيض للنفط الخام والمنتجات التي تستوردها من كل دولة مصدرة وقد تميزت هذه التوصية اثر تدخل المملكة العربية السعودية لاقناعها بتعديل سياستها تجاه العرب وتجاه اسرائيل الا ان هذا لم يتحقق ففي اليوم الثاني في ٩ تشرين اول اعلن الرئيس نيكسون انه طلب من الكونغرس ان يخصص ٢,٢ مليار دولار

لمساعدة اسرائيل تقطع من ميزانية عام ١٩٧٣ وكانت النتيجة ان قررت السعودية في ٢٠ تشرين اول وقف تصدير النفط للولايات المتحدةوبعض الدول الاخرى بعدان سفرت هذه عن وجهها ومسيرتها العدائية للعرب وقد اعتبرت هولندا والبرتغال وجنوب افريقيا وروديسيا الجنوبية دولا معادية لذلك قطع النفطعنها نهائيا . والذي يرى ما قدمته امريكا من مساعدة لاسرائيل خلال هجومها على لبنان وحصارها لبيروت في ايلول لما تساءل عن مدى صداقة امريكا لاسرائيل ومدى اهميتها بالنسبة اليها رغم الفائدة التي تجنيها من علاقتها مع العرب .

كان امام امريكا الخيار في ايقاف مساعدتها لاسرائيل او قطع علاقتها مع العرب والواقع انها بشكل عام فضلت صداقة اسرائيل على صداقتها مع العرب لانها لم تكن تخشى العرب المتفرقين . وقد لعب الدور الرئيسي في هذا الخيار السيد كيسنجر ولا غرو في ذلك فهو يهودي ولا شك انه يكن للشعب العربي كل كراهية . وهو الذي كرس الصداقة الامريكية اليهودية وادخل اسرائيل ضمن الامن الامريكي ، فلا عجب اذا دعاه بعضهم المثبت الحقيقي للكيان الصهيوني .
كانت امام كيسنجر حلول كثيرة لايقاف العرب عند حدهم لئلا يعودوا لتهديد

اسرائيل من جهة وتهديد العالم الغربي (حسب زعمه) بالاختناق من جراء ايقاف وتخفيض الانتاج البترولي وزيادة الاسعار التي كانت تتزايد في المؤتمرات العربية التي عقدت في الكويت والجزائر . وكان الجسر الجوي الذي اقامه الامريكان بين مستودعاتهم في كل من امريكا والمانيا واسرائيل سببا في انقاذ اسرائيل من هزيمة منكرة بعد الخسائر الفادحة التي تكبدتها في الطائرات والدبابات وفقدانها للسيطرة الجوية نتيجة لاعتمادها على سهولة الانتصار على العرب كما حدث في الحروب السابقة وادى ذلك الى تغيير مجرى المعركة وساعد اسرائيل على قلب ميزان القوى لصالحها والعودة لتهديد الارض العربية وكانت حجة كيسنجر هو انه لا يريد للسلاح الامريكي ان يهزم امام السلاح الروسي ، والحقيقة هي ان كيسنجر اراد ان يشعر العرب بشكل لا يقبل الجدل باهمية اسرائيل لامريكا انها ستقف معها مهما كانت الظروف وانها وجدت لتبقى حتى لو قتلت المدنيين ودمرت المدن العربية كما حدث مؤخرا في لبنان فالرئيس ريغان ليس اكثر من كارتر وفورد ونيكسون وغيرهم الرؤساء دعما لاسرائيل بل جميعهم متساوون في ذلك ، ما دام العرب متفرقون

ويخاف بعضهم بعضا وطالما لم تتلق امريكا الصفعة القوية التي تستحقها من قبل العرب .

اما من الناحية الثانية فكانت سياسة النفس الطويل والتلويح باللجوء الى القوة العسكرية هي التي اتبعها كيسنجر في مجال البترول . فقد ألمح في اول عام ١٩٧٤ في مقال كتبه في مجلة بزنيس ويك Business Week «إن الولايات المتحدة لا تستبعد امكانية التدخل العسكري في الشرق الأوسط فيما إذا ظلت الدول العربية الاعضاء في منظمة الأوبك تهدد بخنق العالم الصناعي »، وكانت ردود الفعل العربية على هذا التصريح شديدة فقد أعلن الملك فيصل عن عزمه على تفجير أبار البترول والعودة إلى حياة الصحراء فيما إذا قررت الدول الغربية بما فيهم أمريكا احتلال آبار البترول وقد تبعته تصريحات مماثلة من الدول الخليجية . اضطر كسينجر بعدها في ٥ كانون الثاني ١٩٧٥ ليفسر ما كان يقصده في تصريحه السابق ويؤكد على ضرورة التدخل العسكري ولكن في حالة واحدة وهي الحالة التي تهدد بخنق العالم الصناعي وهذه حالياً حسب قوله ليست هي الحالة . وقد ذكرت مجلة النيوزويك «إن أي هجوم على المملكة العربية السعودية من قبل الولايات المتحدة سيؤدي إلى نسف منشآت الآرامكو التي يبلغ ثمنها ٢٠ مليار دولار وبإمكان الخبراء العرب نسف المنشآت وجعلها غير صالحة لبضع شهرين وليس لمدة شهور» . ويعتقد بعضهم أن الملك فيصل دفع حياته ثمن وقفته الصامدة ضد أمريكا .

لم يكن الأمريكيون في الواقع جديون في تهديداتهم العسكرية فالدول التي يهددها هي بلاد صديقة لهم خاصة المملكة العربية السعودية ويعتقد حسب قول بعض المراقبين أن الموضوع كان يقصد به للأستهلاك الداخلي في أمريكا بعد حادثة (وترجيت) وعدم تدخل أمريكا في انغولا عندما غزتها قوات من كوبا بمعونة الأتحاد السوفيتي . لذلك تم التفكير بالعودة إلى الحلول السياسية عن طريق سياسة النفس الطويل والصمود أمام التهديد العربي وجعله يفقد أهميته بتموين أوروبا والدول المعتبرة عدوة للعرب . وبانتظار أن يدب الخلاف في المواقف العربية التي لا تعرف سياسة النفس الطويلة وتعمل للحلول الوقتية . وبالرغم من الأجراءات التقشفية وتقنين البترول التي اتخذتها الدول الأوروبية وامريكا إلا أنه لم يظهر في الأفق ما يلوح بخضوع أمريكا للتهديد العربي . وبالعكس فقد دخلت كوسيط بين الدول العربية المحاربة واسرائيل وأخذ كسينجر يقوم بمهامه المكوكية وكان أن ابتدأ

التراجع عن قرارات الحظر النفطي رغم فشل مؤتمر جنيف والأرباح الطائلة التي دخلت ميزانيات الدول النفطية التي ربحت خلال ثلاثة عشر عاماً ما يعادل ٤٢,٨ مليار دولار في حين ربحت منذ نهاية حرب تشرين ولمدة عام واحد رغم تخفيض انتاجها نفس المبلغ تقريباً . ورفع الحظر في ١٧ آذار ١٩٧٤ ولا شك أنه لودام لمدة أكثر لأدي إلى نتائج طيبة

رغم كل النجاحات التي حازتها امريكا وتغلبها على مقاطعة الدول العربية البترولية وإبقاءها اسرائيل كأكبر قوةفي المنطقةفقد خرجت بنتائج ذات أبعاد عميقة في سياستها البترولية فقد وجدت نفسها مضطرة لصرف كميات ضخمة من احتياجاتهالمواجهة مصروفاتها ومصروفات الدول الغربيةلذلك بدأ التفكير في مواجهةأمور كهذه في المستقبل وفي الوقت ذاته العمل على استعادةكل الأموال التي خسرتها نتيجة المقاطعة العربية ففي عام ١٩٧٧ بلغ العجز في الميزان التجاري ٢٧ مليار دولار وأربعة أخماس هذا العجز ناتج عن استيراد النفط في ارتفاع الأسعار الرهيب . وقد لجأت أمريكا لتخفيض مصطنع لسعر الدولار من أجل الأضرار بالدول النفطية ومنافستها التجارية الأخرى فقد وصل سعر البرميل أو بالأحرى هبط سعر البرميل من ١٣ دولار إلى (٥) دولارات نتيجة لضعف القوة الشرائية للدولار ، وقد خسرت دول الأوبك والدول العربية البترولية أموالاً طائلة وخاصة السعودية التي تمتلك في ذلك الوقت حوالي ٣٠ مليار دولار كقيمة أسهم في الولايات المتحدة . كما لجأت إلى دفع الدول العربية للتسلح فبلغت صادراتها لدول الخليج والشرق الاوسط عام ١٩٧٦ حوالي ٧٥٣٤,٨ مليون دولار بما فيها ايران والباكستان واسرائيل وكانت مستوردات المملكة العربية السعودية لوحدها حوالي ٢٥٠٢,٥ مليون دولار .

عدا صفقة طائرات الاواكس الاخيرة التي بلغ ثمنها خمسة مليارات دولار حسب بعض التقديرات وسبعة مليارات حسب تقديرات اخرى .

لقد ادى دعم امريكا للدول الاوروبية لصرف كميات هائلة من الاحتياطي الامريكي وعلى هذا الاساس فقد اصدر الكونغرس قانونا عرف باسم قانون احتياطي النفطخول رئيس الجمهورية صلاحيات تخزين كمية من البترول تصل الى مليون برميل الا ان الرئيس فورد وضع خطة للوصول الى تخزين (٥٠٠) مليون

برميل حتى عام ١٩٨٢ بيد أن الرئيس كارتر سارع خلال حكمة في تنفيذ هذه الخطة على اساس ان تنتهي في عام ١٩٨٠-عوضا عن ١٩٨٢ وتخزين ٥٠٠ مليون برميل اخرى حتى عام ١٩٨٥ ومما لا شك فيه ان القسم الاكبر من هذه الكمية سيأتي من البلاد العربية المصدرة للنفط لتخفيف الضغط على الاحتياطي الاميركي في حين يتم الاعتماد على المصروف السنوي من بترول دول خليج المكسيك لكي يبقى في امريكا ما يكفيها سنين طويلة في حالة حدوث ازمات بينما يتم اكتشاف نوع جديد من الطاقة يستعاض بها عن البترول .

بعد سقوط كارتر في الانتخابات الرئاسية الاخيرة وظهور (ريغان) كرئيس للولايات المتحدة مع ما اعلنه في برنامجه الانتخابي من الوقوف في وجه الاتحاد السوفيتي بصلابة للحد من توسيع دائرة نفوذه التي وصلت الى انغولا وموزابيق واثيوبيا في القارة الافريقية ، وسيطرته على الهند الصينية بعد هزيمة امريكا في فيتنام وتوحيد قسميها وسيطرتها على كمبوديا ولاووس وتوقيعه لمعاهدات الدفاع المشترك مع كل من العراق وسوريا . . الخ ، لم يتوقف العمل في تعزيز الوجود العسكري الامريكي في منطقة المحيط الهندي والخليج بل على العكس اخذ بالتسارع حتى وصل الى الاعلان عن تشكيل قيادة جديدة سميت « القيادة المركزية الامريكية » في الثامن من كانون اول عام ١٩٨٢ وستباشر هذه القيادة عملها في الاول من كانون الثاني عام ١٩٨٣ وستضم القيادة الجديدة حسب بلاغ وزارة الدفاع الامريكية قوات عسكرية هي الان جزء من قوة الانتشار السريع المشتركة وسيمتد مجال عملها منطقة جنوب غرب آسيا . وقد ذكر البلاغ « ان هذه القيادة ستخدم بصورة افضل المصالح الامريكية وتعالج بصورة افضل مخاوف دول صديقة في المنطقة وتظهر عزم الولايات المتحدة على الدفاع عن اصدقائنا في المنطقة » وتمتد المنطقة التي تقع ضمن مسؤ ولية هذه القيادة من باكستان الى مصر ومن منطقة الخليج الى قرن افريقيا نزولا الى كينيا ، وقال مسؤ ولون كبار في وزارة الدفاع ان هذه القيادة هي تعبير عن الاهتمام الامريكي في منطقة حيوية للولايات المتحدة وحلفائها الغربيين ، وقد حاول المسؤ ولون الامريكان التشديد على ان القيادة الجديدة لا تعني اكثر من اضفاء المزيد من البروز والظهور على القوات المسلحة الامريكية في المنطقة وقالوا « لسنا نفكر بزيادة وجودنا » كما اعلنت وزارة الدفاع عن تفاصيل المهمات التي ستوكل لهذه القيادة فبالاضافة الى قوات الانتشار السريع ، اذا ارسلت هذه القوات الى جنوب

غرب آسيا فان مسؤ وليات هذه القيادة تشمل « قيادة القوات الامريكية في المنطقة بما في ذلك جهاز طائرات الاواكس في المملكة العربية السعودية والقوة البحرية الموجودة في الخليج ومنطقة البحر الاحمر .

وقد حددت مهمات هذه القيادة بما يلي :

« القيام بدور توفير المعونة الامنية الامريكية في المنطقة » .

« خطط اجلاء غير المقاتلين » .

« كونها هيئة الارتباط العسكرية في المنطقة في اوقات السلم » .

« هيئة التخطيط لتلك المنطقة في اوقات الحرب » .

وعند السؤ ال عن دور القوات البحرية الامريكية في المنطقة « ذكر المسؤ ولون الأمريكان ان القوات البحرية الامريكية في المنطقة ستتابع تمريناتها ومناوراتها العادية وان خطط اجراء مناورات عسكرية مشتركة في المستقبل مع دول هناك لم ينجز بعد ، وقال المسؤ ولون انه في حين ليس بين الولايات ودول المنطقة اتفاقيات دفاعية رسمية فيتوقع لنا « ان ندعى للعون » وفي حالة احتمال وقوع عدوان سوفياتي « وسنستجيب لذلك » وقالوا ايضا ان الولايات المتحدة تأمل ان تفعل منظمة معاهدة شمال الاطلسي المزيد لمشاركة الولايات المتحدة المسؤ وليات والموجبات الدفاعية خارج منطقة الناتو » .

في حين لم يحدد المسؤ ولون في وزارة الدفاع الدول التي تقع في مسؤ ولية القيادة الجديدة قالوا « ان اسرائيل ولبنان وسورية ليسوا في هذه المنطقة وقالوا من الافضل ان تكون هذه البلدان في المنطقة الواقعة تحت ظل القيادة الامريكية في اوربا التي تضم الاسطول الامريكي السادس العامل في البحر الابيض المتوسط ، ونفى المسؤ ولون ان تكون اسرائيل قدابقيت خارج نطاق هذه القيادة لانها كانت ستجعل من الصعب على الدول العربية في المنطقة ان تتعامل مع الولايات المتحدة في قضايا دفاعية « وشدد المسؤ ولون في وزارة الدفاع على التفكير العسكري لا السياسي هو الذي ابقى اسرائيل خارج نطاق هذه القيادة» وقالوا ان وضع اسرائيل يعالج بصورة جيدة وفي ظل القيادة الاوربية » وقالوا ايضا « ان منطقا قاهرا » وضع مصر في منطقة القيادة المركزية الامريكية مشيرين الى ان مصر تتاخم البحر الاحمر حيث تستطيع الولايات المتحدة الوصول الى المرافق المصرية في ميناء رأس « بناس » ويقول بيان وزارة الدفاع الامريكية « انه عندما سئل المسؤ ولون الامريكيون عن

سفن التموين المرابطة في جزر « ديغوجارسيا » في المحيط الهندي قالوا « ان هناك (١٧) سفينة ترابط هناك ولديها تموينات وحدات جاهزة للتركيز في المنطقة » وسيكون مقر القيادة المركزية في قاعدة ماكديل لسلاح الطيران في فلوريدا وهي الان مركز قيادة قوة الانتشار السريع الامريكية . وقال المسؤ ولون ان البنتاغون يريد ان يكون هناك في النهاية مركز قيادة امامية في منطقة القيادة المركزية ، الا ان هذا ليس جزءا من تخطيط قريب المدى ، وقال المسؤ ولون في وزارة الدفاع انه لم يتم بعد اختيار قائد للقيادة الجديدة وقد سبق ان اعلن قرار تحويل قوة الانتشار السريع المشتركة الى قيادة منفصلة « قيادة مركزية » وزير الدفاع الامريكي واينبرغر في ٢٤ نيسان ١٩٨١ » .

وقد ذكرت مصادر مختلفة منها سوفيتية كوكالة تاس « ان القيادة الجديدة ستضم حوالي مائتي واربعين الف من الجنود مجهزون بمختلف انواع الاسلحة ، وقالت المصادر بان القيادة الجديدة ستكون بامرة « الجنرال روبرت بيكستون » قائد قوات التدخل السريع حاليا ، وان القوات الامريكية ستستند على قواعد منتشرة في مصر والصومال وعمان وكينيا وجزر المحيط الهندي .

ومن الشرح لسياسة (ريغان) والتي ادلى بها مساعد وزير الخارجية لشؤ ون الشرق الادنى وجنوب آسيا (نيكولاس فيليبوتس) اهمية منطقة الخليج والدول المحيطة بالخليج « والتي هي ذات اهميةعظمى للتوازن الستراتيجي العالمي ، فما يقع من احداث يؤ ثر على قدرتنا وقدرة حلفائنا على رعاية نظام عالمي تستطيع فيه جميع الشعوب ملاحقة تحقيق امانيها الوطنية متحررة من التدخل الخارجي ، وقد اعلن عن دعمه لاستقلال وسلامة اراضي جميع دول الخليج واوضح ان التطورات التي حدثت في الخليج منها ما هو سلبي ومنها ما هو ايجابي والايجابي كمجلس التعاون الخليجي والتفاهم الموجود بين العراق ومجلس التعاون واما السلبيات فهي الحرب العراقية ـ الايرانية التي تسبب لامريكا القلق المتزايد كما اوضح ان سياسة حكومةريغان في الخليج ستكون ليست شاملة فحسب بل متوازنة مع كل من دول المنطقة .

وقد اوضح فيليبوتيس اهمية الخليج بالنسبة لامريكا من الناحية الاقتصادية فاكثر من ٥٠٪ من موارد العالم النفطية الثابتة تملك نصف النفط الخام الذي يدخل التجارة العالمية ، وشدد على اهمية المنطقة للصادرات الامريكية التي بلغت قيمتها

رغم خروج ايران بـ (١١) مليار دولار اي ٥٪ من صادرات الولايات المتحدة عبر العالم ، وزيادة علي ذلك فميزان المدفوعات الامريكي يستفيد فائدة كبرى من الخدمات التي تقدمها الشركات الامريكية بمشاركتها في التنمية وقد عزى فيليوتيس كما هو الحال بالنسبة لكارتر الى الحوادث التي ادت الى تدهور الاوضاع ـ حسب رأيه ! في الجو الستراتيجي للمنطقة قبل الثورة الايرانية ـ الانقلاب المدعوم من السوفييت في افغانستان ثم الغزو السوفيتي لتلك البلاد وتزايد الوجود السوفيتي في اليمن الجنوبية واثيوبية وقيام التحالف بين ليبيا واليمن الجنوبية واثيوبية والموقف السوفيتي الدولي الاكثر تحفزا على العموم بما له من مضامين استراتيجية بالنسبة للخليج ، وقد اوضح فيليوتيس ان تدخل امريكا في المنطقة يعود الى انها تدرك ضعف دول المنطقة وخاصة دول الخليج امام الضغط السوفيتي وحسب قوله « ان زعماء هذه الدول يدركون ذلك » لذلك جعلت الاحداث الاخيرة الخليج نفسه نقطة مركزية في التوازن الستراتيجي الدولي ثم يقول ان هناك انواعا اخرى من الاخطار على السلام والاستقرار يتعين على الدول الصديقة في المنطقة مواجهتها فان الضغط الذي يمكن للسوفيت ان يوجهوه ضد المنطقة وقدرتنا على رد ذلك الضغط يؤ ثران بشكل كبير على الجو الامني الذي تعالج فيه دول المنطقة المشاكل التي تحصل في المنطقة » واخيرا يستخلص النتيجة وهي التي يصل فيها الى ان الحكومة الامريكية مصممة على تحسين قدرتنا على توجيه قوات عسكرية الى المنطقة كرادع للضغوط الخارجية الموجهة ضد تلك الدول الصديقة واستبعد الدخول بمخالفات واتفاقيات مع دول المنطقة معترفا بوجود الحساسيات لذلك « فاننا لا نسعى للحصول على اية قواعد ولا نسعى لاي فائدة من جانب واحد » والسؤ ال هو هل كانت امريكا تقوم بهذا المجهود الكبير لحماية المنطقة لو لم تكن ذات فائدة اقتصادية هامة لها ولحلفائها .

ومن نصوص المعاهدة التي عقدت بين سلطان مسقط في عام ١٨٣٣ والولايات المتحدة والتي سجلت بداية الوجود الامريكي في المنطقة وما جاء في اعلان وزارة الدفاع عن تشكيل القيادة المركزية الجديدة والتي تسجل قمة النشاط الامريكي ووجوده في المنطقة نجد الفارق والتطور الكبيرين الذين حدثا للعلاقات الامريكية مع شعوب المنطقة ، وقد بدأت باللمس لدخول البيت فاذا هي في الوقت الحاضر تهيمن على البيت واصحاب البيت ولاول مرة تعلن امريكا عن وجودها بهذا

الوضوح بعد ان ظلت فترة طويلة تتستر خلف بريطانيا وخلف عملائها كشاه ايران وهيلاسلاسي واسرائيل .. الخ كما اسفرت بشكل واضح عن وجهها في دعمها لاسرائيل منذ حرب تشرين بعد ان تسترت لفترة طويلة وراء المانيا الغربية وبريطانيا وفرنسا .

لقد اعادت امريكا للاذهان سياسة شرق السويس السيئة الذكر مع فوارق كثيرة املت عليهاالظروف الدولية والتجارب القديمة فحاولت الابتعاد عن كل الاحراجات وخاصة اثارة الشعور القومي والذي كانت تحاول الابتعاد عنه منذ ان اثبتت بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية عجزها عن حماية المنطقة بعد الثورات التي حدثت فيها في جنوب اليمن ، وكينيا ، وعمان .. الخ وقد ابتعدت امريكا عن سياسة الاحلاف وتركيز القواعد الدائمية ، في الوقت الذي استطاعت فيه الحصول على تسهيلات واسعة لطيرانها وبحريتها في موانىء واراضي دول عديدة في المنطقة .

والمنطقة التي تضمها القيادة الجديدة أومسرح العمليات الجديد الذي خلف مسرح عمليات المحيط الهندي حيث كان القائد البريطاني في عدن يمد سيطرته على نفس المنطقة معروف منذ القدم باهميته الجغرافية والاقتصادية والعسكرية وقبل الحرب العالمية الاولى وتصريحات المسؤولين البريطانيين في ذلك الوقت عن اهمية المنطقة بالنسبة لهم لا تختلف عن تصريحات المسؤولين الامريكان حاليا . وتدور اهمية المنطقة في حقيقة الامر حول جانبين رئيسيين الموقع الستراتيجي الذي يمثل اهمية بالغة لاستراتيجيات القوى العظمى ثم الاهمية الاقتصادية خاصة الخليج والتابعة اساسا من كونه مخزن النفط العالمي والمنطقة الوحيدة القادرة حاليا ومستقبلا عن الوفاء بحاجات العالم من الطاقة واهمية المنطقة النفطية لا تنبع فقط من ضخامةحجم الانتاج وضخامة الاحتياطي فيه وانما من مجموعة اخرى من الخصائص التي تميز نفط المنطقة ويبرز في مقدمتها ان معظم آبار البترول تقع على سواحل الخليج العربي بالاضافة الى سهوله و استقلاله الامر الذي يقلل تكاليف الانتاج بالاضافة الى ان اغلب الدول المنتجة للنفط في المنطقة تكاد ان تكون دولاً منتجة للنفط فقط اذ تبلغ نسبة ما تصدره ما يقرب ٨٩٪ من الانتاج بينما تستهلك ١١٪ فقط ومن الناحية الستراتيجية تقع على التخوم الجنوبية للاتحاد السوفياتي وهي كنقطة متوسطة في العالم تهيمن على البحار الستراتيجية العالمية كالبحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر والعربي والخليج العربي وتسيطر على طرق المواصلات الجوية

والبحرية والبرية وعلى المضائق والممرات البحرية كقناة السويس ومضيق باب المندب وخلجان عدن وعمان والعربي ومضيق هرمز وهذه الممرات والخلجان والبحار هي الممر الطبيعي لمئات الملايين من الاطنان البترولية نحو الغرب واليابان . وقد ظلت هدفا للسياسة الروسية منذ زمن طويل وبدخول الجيش السوفيتي لافغانستان اصبح الاتحاد السوفياتي اقرب ما يمكن من البحار الدافئة لم يصل الى مثلها في تاريخه الطويل وتاريخ روسيا القيصرية منذ ان كرس بطرس الاكبر سياسة النفوذ الى البحار المفتوحة رغم أن الصواريخ عابرة القارات والغواصات الذرية ازالت هذه النظرية .

ومما لا شك فيه ان تطور الوجود الامريكي في المحيط الهندي وتشكيل القيادة الجديدة ادخل المنطقة عاملا مؤثرا جديدا وجعلهامنطقة ساخنة زادفي احتمالات الصدام من جهة بين القوتين الرئيسيتين كما زاد عامل الضغط على المنطقة ومهما قيل عن عدم اعتماد امريكا على القواعد الثابتة الا ان القواعد الحالية مهما كان نوعها لا يمكن الا ان تكون عامل ضغط على شعوب المنطقة ويدل استخدام قاعدة قنا القريبة من القاهرة بحوالي (٥٠) كيلومتر من قبل الطيران الامريكي خلال العملية الامريكية الفاشلة للافراج عن الرهائن الامريكيين عام ١٩٨٠ ان هذه القواعد لن تتخلى عن صفتها القديمة بانها ستكون واسطة ضغط وتهديد للشعوب كما كانت عليه القواعد البريطانية . وكان من النتائج الاولية للنمو الامريكي للوجود العسكري تشجيع اسرائيل التي تضرب بعصا امريكا ان قامت بهجومها الاخير على لبنان لابادة الشعب الفلسطيني وتجزئة لبنان والتحكم في المنطقة والنتيجة الثانية هو ان قوات التدخل السريع لن تسمح بتكرار استخدام سلاح النفط مرة ثانية من قبل الدول العربية وستقف امام كل حركة معادية لها ، والتساؤل هل ستنجح سياسة شرق السويس الامريكية الجديدة ام يكون مصيرها الفشل كما حدث بالنسبة لسياسة شرق السويس البريطانية لزوال الاسباب الموجبة لها .

الفصل الخامس

الستراتيجية السوفياتية في المحيط الهندي والخليج بعد الحرب العالمية الثانية وتطورها وجذورها

ـ النتائج الرئيسية للحرب العالمية الثانية ـ ظهور الاتحاد السوفياتي كقوة عملاقة واسبابه ـ ظهور الكتلتين الشرقية والغربية ـ التغير في سياسة الاتحاد السوفياتي بعد الحرب العالمية الثانية ـ تطور طبيعة المركز الستراتيجي للاتحاد السوفياتي على ضوء احتمال انتقال الصراع لامريكا الشمالية . فشل المخططات الامريكية لتطويق الاتحاد السوفياتي وكسر احتكار السلاح الذري . التطور الذي حدث في القوات المسلحة السوفيتية ـ القوى البحرية ـ اهمية الشرق الاوسط والمحيط الهندي بالنسبة للاتحاد السوفياتي ـ التقسيم الاكاديمي السوفيتي للمنطقة ـ الستراتيجية البحرية السوفيتية ـ تطور مهمات القوى البحرية ـ الحديث بين خروتشوف ونيكسون ـ المحاولات للتقرب مع دول المنطقة وطرح مبدأ الحياد ـ العلاقات السوفيتية ـ الايرانية وتطورها ـ العلاقات السوفيتية العربية وتطوزها .

الفصل الخامس

الستراتيجية السوفياتية في المحيط الهندي والخليج بعد الحرب العالمية الثانية وتطورها وجذورها

كان التغيير الذي حدث في مراكز القوى العالمية اهم النتائج التي تمخضت عنها الحرب العالمية الثانية . فقد ادت الخسائر الفادحة التي نزلت بكل من فرنسا وبريطانيا وفقدهما لامبراطوريتهما اثر كبير في ابعادها عن مراكز الصدارة الاولية التي كانت لهما حتى بداية الحرب العالمية الثانية . وحل محلهما كل من الولايات المتحدة الاتحاد السوفيتي واصبحتا القوتان الرئيسيتان او القوتان الاعظمSUPER POWERS في عالمنا المعاصر باي مقياس من مقاييس القوى العالمية ان كان في الماضي او الحاضر .

فقد نفضت امريكا عن نفسها غبار العزلة ودخلت الحرب العالمية الثانية وخرجت منتصرة او بالاحرى اكثر المنتصرين نفوذا وقائدة وتستند على طاقة صناعية جبارة لم يسبق لدولة من قبل ان امتلكتها واهم من ذلك انها لم تتأثر بالحرب كغيرها من الدول ولم تعرف المعاناة التي كانت الدول الاوروبيةتعانيها بسبب

الخراب الذي حل بها فضلا عن امتلاكها السلاح النووي وقوتين جبارتين في الجو والبحر . اما الاتحاد السوفياتي فبالرغم من الخسائر التي لحقت به في الارواح والعتاد والتخريب الذي حل بالقسم الاكبر من اراضيه في القارة الأوربية فقد خرج هو الاخر من الحرب كاقوى دولة اوربية من الناحية العسكرية ويستند الى اكبر قوة بريةتضم حشدا هائلا من المدرعات والمدفعية وقطعات المشاة والخيالة . وبسطنفوذه على ثلثي القارة الاوربية وامتد نفوذه الى الشرق الاقصى فشمل الصين بعد نجاح الثورة الشيوعية وكذلك نصف كوريا . فضلا عن مراكز صناعية ضخمة لم تتأثر بالاحتلال النازي ولاول مرة يصل السلاف الى قلب الشعوب الجرمانية . وبذلك اصبح الاتحاد السوفياتي قوة عملاقة عالمية رغم ضعف اقتصاده الذي انهكته الحرب .

. ومنذ نهاية الحرب او بالاحرى قبل ان تنتهي بخاصةبعد مؤ تمر يالطا واخذت القوتان تعملان كل من جهتها لجذب اكبر عدد من الدول لتنضم الى مسيرتها . كما واجهت كل منهما الاخرى في اكثر من مناسبة بطريق مباشر او غير مباشر في المجر وكوريا وكوبا وفيتنام والشرق الاوسط ، وبذلك ظهرت الكتلتان الرئيسيتان في العالم وهما الكتلة الشرقية بزعامة الاتحاد السوفياتي وتستند بقوتها العسكرية على حلف وارسو وعلى منظمة الكوميكون كقوة اقتصادية والكتلة الغربية بزعامة الولايات المتحدة الامريكية وتستند بقوتها العسكرية على منظمة الحلف الاطلسي وبقوتها الاقتصادية على الصناعة الامريكية والسوق الاوروبية المشتركة . وكان لهذا التقسيم صداه في مختلف انحاء العالم حيث التف قسم من دولة حول الكتلة الشرقية (السوفيتية) والقسم الاخر التف حول الكتلة الغربية (الامريكية ولكن قسما كبيرا من دول العالم رفض الانتماء الى اي من الفريقين وشكل مجموعة عدم الانحياز ويقول ريمون آرون « ان الامريكيين والروس هما اعداء وشركاء اعداء في محاولة كل منهما للوصول الى قيادة العالم . وشركاء فلان ادارة العالم تقتضي من كل منهما ان يلتفت نحو مصالح الطرف الاخر » .

وقد تبوأ الاتحاد السوفياتي مكانته هذه لوجود عوامل كثيرة مساعدة اهمها : .

- تعدد سكاني ضخم يصل لمئات الملايين من السكان .
- سعة في الارض وامتداد جغرافي يصل ما بين البحر البلطيكي والمحيط

الكبير ، ويعتبر الاتحاد السوفياتي اكبر دول العالم مساحة .

- موارد اقتصادية هائلة بما فيها الطاقة البترولية .
- نظام عقائدي موحد تحت قيادة حزب موحد مسيطر .

ومنذ عام ١٩١٧ وبعد قيام الثورة الشيوعية اصبح لدى الاتحاد السوفياتي الخبرة الواسعة بعد التجارب المريرة التي مرت عليه في تثبيت نظام قوي ، عقائديا ، وسياسيا واقتصاديا ، يستلهم حياته من العقيدة الماركسية التي نماها لينين ، والنظام الحالي هو وليد النظرية العلمية اي الماركسية - اللينية - وكانت الاحزاب الشيوعية في العالم في بادىء الامر اقوى الوسائل التي حاول السوفييت الاعتماد عليها في بث روح الثورة العالمية . ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية والفشل الذي اصاب هذه الأحزاب في محاولاتها للتغلب على خصومها واستلامها الحكم عن طريق القوة جعل الاتحاد السوفياتي لا يعتمد كثيرا على هذه الاحزاب في التعامل مع الدول خاصة بعد الغاء الكومنترن في ٢٢ مايس ١٩٤٣ وكذلك منظمة الكومنفورم ١٩٤٧ في شهر ايلول واستبدل فيما بعد اسم الجيش الاحمر بالجيش السوفياتي عام ١٩٢١ . وبذلك اصبح الخلاف العقائدي بين امريكا والاتحاد السوفياتي ليس له تأثير كبير بقدر ما للتنافس بين هاتين الكتلتين الهائلتين على مناطق النفوذ والسيطرة الاقتصادية . ولكن لكل منهما مفهوم خاص في التعامل الدولي ومساعدة الشعوب .

ومنذ امتلاك الامريكيين للقنبلة الذرية شعر الاتحاد السوفياتي بتغيير جذري في طبيعة مركزه الستراتيجي بسبب وجود هذا السلاح الرهيب وانتقال مركز الصراع المحتمل من اوروبا وآسيا الى امريكا الشمالية ، وبات من الواضح انه لم يعد بامكان اية قوة مناوئة للولايات المتحدة ان تستطيع الوقوف في وجهها بالاسلحة التقليدية في حال قيام حرب ثالثة كما بشر بها ستالين في خطاباته ، وبذلك برزت لقادة الكرملين ضرورة تطوير امكانياتهم وقدراتهم الدفاعية والهجومية عبر القارات وعن طريق امتلاك السلاح النووي لمواجهة الستراتيجية الامريكية الجديدة التي تلوح بهذا السلاح الرهيب . وادى ذلك الى البحث عن عقيدة استراتيجية جديدة في مختلف المجالات العسكرية والاقتصادية يتم بموجبها توجيه واستخدام القوى المسلحة في حال الحرب والاستعداد الدائم ومن جهة اخرى الانطلاق خارج اوربا في حال السلم اي الى ما وراء حدود الاتحاد السوفياتي وحلفائه بمفاهيم واسس جديدة

لاكتساب الاصدقاء وفك الحاجر المضروب على الاتحاد السوفياتي سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، من قبل امريكا وحلفائها .

والواقع ان الاتحاد السوياتي استطاع بعد فترة الوقوف امام جميع المخططات والنظريات الستراتيجية التي مرت معنا في الفصل السابق والتي وضعتها امريكا بالتعاون مع حلفائها خاصة بريطانيا لحصره ومنع انتشار نفوذه عن طريق سلسلة من القواعد والاحلاف العسكرية شملت مختلف انحاء العالم خاصة بعد ازالته للتفوق التكنولوجي والاحتكار النووي ووصل الى التوازن في القوى مع تفوق كبير في ميدان الاسلحة التقليدية . وقد استطاع ايجاب حزام امني حوله من دول اوربا الشرقية المحيطة به عن طريق خلق حلف وارسو ويمتد من بحر البلطيق الى الادرياتيكي والاسود ثم الانطلاق الى ماوراء الحدود الى البلاد العربية ودول الشرق الاوسط .

حتى اوائل الستينات اتخذ الاتحاد السوفياتي خطة الدفاع (١٩٤٩ - ١٩٥٧) ورغم حصوله على السلاح النووي الا ان التفوق ظل بيد امريكا حتى بداية الثمانينات . وكان سلوك الاتحاد السوفياتي الدفاعي بسبب التفوق الامريكي وعدم قدرته على ردع الولايات المتحدة اذا ما قامت حرب ثالثة ولكن الاحوال تغيرت بعد ان اصبح الاتحاد السوفياتي بدورة قوة نووية يمكنها ردع الولايات المتحدة او مبادرتها . و قد بلغ كل منهما قدرا كبيرا وعلى مستوى عال من التقنية في مختلف مجالات التسليح والعتاد الحربي لدرجة انه لم يعد بامكان اية قوة ان تفكر بالحرب دون ان تحسب بما سيلحق ببلادها مهما كانت بعيدة من الخسائر الفادحة . ولم يقتصر التنافس على القوى النووية بل تعداه الى الاسلحة التقليدية (الكلاسيكية) وقد استطاع الاتحاد السوفياتي ان يهيىء جيشا مزودا بافضل الاسلحة التقليدية ولديه التفوق من ناحية العدو والعدة وادى هذا الى الخلل في التوازن الستراتيجي تحاول امريكا حاليا تداركه مع حلفائها عن طريق زرع الصواريخ متوسطة المدى في اوربا . ولم يقتصر اهتمام السوفياتي على القوات البرية والجوية بل تعداه الى القوات البحرية رغم صعوبة عملها ومنذ الاربعينات صدر قرار بتشكيل اسطولي البحر الابيض المتوسط واسطول المحيط الهندي . وهكذا اصبحت سياسة الاتحاد السوفياتي تنحصر في تطلعاته كدولة عظمى وزعيمة لكتلة كبيرة من الدول ضمن

استراتيجية عامة تهدف الى الدفاع عن حدود الاتحاد السوفياتي ورعاية مصالحه التي اخذت تنتشر في مختلف انحاء العالم بعد ارتباطه بعدد كبير من الدول في مختلف القارات عن طريق الاتفاقيات الثنائية .

ويشكل الشرق الاوسط بما فيه المحيط الهندي والخليج العربي هدفا استراتيجيا للاتحاد السوفياتي في سياق صراعه مع الولايات المتحدة وحلفائها فالموقف السوفيتي في الشرق الاوسط تسيطر عليه الاهتمامات الستراتيجية بمقدار ما تمارسه الولايات المتحدة والصين من نفوذ هناك ويبقى تقليص النفوذ الامريكي وانهاء حالات الازمات التي قد تلعب الولايات المتحدة دورا فيها وعلى رأس هذه الاهتمامات هو إيجاد « منطقة سلام » في الشرق الاوسط ويجد ذلك تعبيرا في التقسيم الجغرافي في الدوائر الاكاديمية والسياسية السوفيتية بين الـ « سريدني. فوستوك (الشرق الاوسط) الذي يشمل تركيا وايران وافغانستان وبين الـ « بيلزني فوستوك (الشرق الادنى) الذي يغطي العالم العربي وهذا التقسيم قائم على اساس محور الشمال - الجنوب اكثر مما هو قائم على اساس محور الشرق - الغرب . وهم يشيرون الى منطقة الاهتمام السوفيتي الاولى هي البلدان غير العربية وهو ما يفسر الاهتمام الكبير بشأن ايران وافغانستان والحذر المقابل ازاء العالم العربي . فلاول مرة يرسل السوفيت جيوشهم لنجدة نظام في دولة اخرى خارج الكتلة الشيوعية بالرغم من معرفتهم بالاخطار التي ترافق مثل هذا العمل وما يجره عليهم من مشاكل والروس القياصره ومن بعدهم السوفيات لم يكونا في وقت من الاوقات بعيدين عن الـ (سريدني فوستوك) ولا عن الـ (بيزلي فوستوك) . فقد اهتم القياصرة بالمنطقة الاولى لوضعها تحت نفوذهم في سياق محاولاتهم للوصول الى المياه ا لدافئة وجرى صدام كبيربينهم وبين شعوب المنطقة وكذلك مع بريطانيا التي كانت تحتل الهند اما في المنطقة الثانية فكان لدى الروس في ذلك الوقت اهتمامات سياسية ودينية لاعتقادهم بأنهم خلفاءبيزنطة وحماالمذهب الاثوذكسي.المنتشر في المنطقةالمذكورة. وكانت الدولة العثمانية ودولة الفرس تقفان كعوائق صعبة الاجتياز امام الامتداد الروسي . ورغم كل التغيرات التي حدثت من مختلف النواحي السياسية والايديولوجية بعد ظهور الاتحاد السوفاتي الا ان المنطقة ظلت وستظل مجال اهتمام كبير لدى قادة الاتحاد السوفياتي وذلك بسبب :

اولا : وقوعها على الحدود السوفيتية وقربها من قلب الاتحاد السوفياتي الصناعي ومنطقة الـ (سريدني فوستوك) المكان الوحيد الذي يمكن ان يحدث فيه صدام مباشر بين القوات الامريكية والقوات السوفيتية في المنطقة جميعها فيما اذا اندلعت الحرب .

ثانيا : وقوعها على الساحل الهندي وقربها من القارة الافريقية واحتلالها يجعل من السهل الوصول الى افريقيا واثارة الاضطراب والذعر في مخططات الحلف الاطلسي بعد حرمانهم من منتجات القارة السوداء .

ثالثا : ما تحويه اراضي المنطقة بشقيها من ثروات طبيعية خاصة البترول وارتباط هذا البترول بالمخططات الدفاعية لحلف الاطلسي .

وبالرغم من خروج الاتحاد السوفياتي منتصرا في الحرب واستعادته لاراض كثيرة منها يقع على سواحل البحار الا انه لم يسعى لتحقيق احلام القياصرة في ايجاد الموانىء المفتوحة لاساطيله الحربية والتجارية وظلت الموانىء السوفياتية بمجموعها غير حرة العمل خلال فترة طويلة من السنة اما بسبب وجود ممرات اجبارية ومضائق تخضع لدول اخرى كمضائق البوسفور والدردنيل اللذين يصلا ما بين البحر الاسود وبحر ايجه . كما تهيمن الدانمارك على مداخل بحر البلطيك كمضيق (كاتبغات) الذي يصل بين البلطيك وبحر الشمال اما المحيط المتجمد الشمالي والبحر الابيض فيظلا مغلقين في عدد كبير من ايام السنة لتجمد مياههما عدا مينائي (مورمانسك - وبتشنغا) الذان بسبب بعض التيارات الدافئة يظلان مفتوحين خلال الشتاء ولا تتجمد مياههما ، وفيهما اكبر حشد للاسطول البحري الحربي السوفيتي واما موانىء بحر اليابان فهي الاخرى تتجمد خلال فترة طويلة من السنة . والواقع ان الاتحاد السوفيتي سيظل محصورا ضمن حدوده البرية مما يحد من نشاط بحريته العسكرية طالما لا توجد لديه موانىء مفتوحة على العالم ولا يتلاءم ذلك مع تطلعات الاتحاد السوفيتي نحو الخارج ، فمن اجل التوازن جرى تطور كبير في القوى البحريه السوفيتية بعد ان اعيد التفكير باهمية القوى البحرية بسبب حركتها الدائمة وامكانية وصولها بحرية الى اماكن بعيدة بما تحمله من اسلحة ذرية وصواريخ موجهة عابرة القارات . فهي من ناحية تظل بمنأى عن التدمير في الضربة الاولى في حيث تحتفظ بقوتهاللقيام بعمليات الثأر وتدميرالخصم بعد ضربته الاولى فلم يعدهناك مكان آمن في الكرة الارضية لا تصله اسلحة التدمير الشامل التي تقذف من البر او

من البحر وحركة البحرية الدائمة تجعلها بمأمن من الضربات الخطرة والمفاجئة وخاصة الغواصات التي تسير بالطاقة الذرية وتظل شهورا طويلة تحت الماء ودون تموين في المحروقات مستعدة لتدمير الخصم في عقر داره وقد اشارت الانباء الى وجود غواصات سوفيتية عملاقة تحمل عددا كبيرا من الصواريخ حاملة الرؤوس النووية المتعددة الاتجاهات ويشبهها بعضهم بحاملات الطائرات والاهمية في ذلك ان امريكا اصبحت هدفا يمكن ان يطال بعد ان ظلت خلال الحربين العالميتين بعيدة عن الحرب ولم تتأثر بالخسائر التي نزلت في مختلف انحاء العالم خاصة الصناعة . والصناعة الامريكية هي الوحيدة التي خرجت من الحرب سالمة لم تمس وباقصى طاقاتها .

وقد حدث تطور كبير في مهمات الاساطيل البحرية فلم تعد مهمتها الاشتباك فقط في المعارك البحرية ، وقطع خطوط المواصلات وضرب الحصار البحري وضرب الموانىء وحماية القوافل بل اصبحت المراكب الحربية قواعد ومنصات متنقلة للاسلحة الذرية والصاروخية خاصة الغواصات وقد اوكلت للاساطيل البحرية مهمة تدمير الخصم في عقر داره وعلى ارضه ، وتدمير مراكزه الصناعية وقواعده الهجومية بدقة متناهية بعد استخدام الكومبيوتر ونظام التحكم عن بعد Romate Contral ، ويقول (دافيد ريز) في كتابه القوة البحرية السوفيتية (الاسطول المساند المقنع) « اذا كانت السيادة البحرية في الحرب العالمية الاولى قررتها البوارج البحرية في المرتبة الاولى ، وقررتها حاملات الطائرات في الحرب العالمية الثانية فمن المرجح ان الغواصات النووية ستكون سيادة قطع الاسطول اذا ما نشبت الحرب العالمية .

كان لعدم وجود الموانىء المفتوحة امام الاساطيل السوفيتية - التي تحاول اظهار وجودها في مختلف انحاء العالم خاصة المحيط الهندي القريب من سواحل افريقيا وآسيا ومن حدود الاتحاد السوفيتي بعد التطور الكبير الذي حدث في نمو القوة البحرية الامريكية في تلك المنطقة وتشكيل قوات التدخل السريع - اثره في الستراتيجية السوفيتية واضطرارها الى الاعتماد على اسلوبين :

الاول : خلق اساطيل مساعدة للتموين والاعتماد على القواعد العائمة في المحيطات .

الثاني : العمل على ايجاد مراكز تسهيلات في موانيء بعض الدول الديقة .

ففي المجال الأول زاد السوفييت في بناء السفن التجارية والصيد واعمال المساحة وذلك لتخدم الاسطول الحربي المنتشر حيث تؤلف مع بعضها وحدات بحرية متحركة تستطيع الاعتماد على قدراتها الذاتية لمدة طويلة ، ويقول الادميرال الروسي سيرجي «غورشكوف» الذي يلقبه الروس بطروب البحرية السوفيتية الحديثة «ان اساطيل التجارة والصيد والمساحة لاغنى عنها للقوة البحرية فقد صرح علناً في يوم البحرية السوفيتية حزيران ١٩٥٦ بقوله «ان النقل البحري والصيد البحري والبحث العلمي في البحار هي جزء من القوة البحرية السوفيتية» وهكذا تقدم اساطيل التجارة والصيد والمساحة البحرية اكثر من نقل تجاري وبروتين من السمك وبيانات علمية للأقتصاد السوفيتي فهي تلعب بالضرورة دوراً استراتيجياً واسعاً لتحقيق اغراض السوفييت الستراتيجية في السيادة البحرية العالمية وفي الأمتداد بالسياسة الخارجية الى نطاق عالمي اكثر اتساعاً، وقد اشار غورشكوف في سلسلة مقالات له نشرت بين شباط ١٩٧٢ وشباط ١٩٧٣ بعنوان الأساطيل في الحرب والسلم في مجلة (مختارات البحرية) الى ان الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى يجب ان يكون له اسطول قوي يحمي مصالحه التجارية» وقد كان النمو المطرد للاسطول السوفيتي بشكل لم يسبق له مثيل من قبل في تاريخه وازدياده هو في الواقع ازدياد القوة الهجومية للاتحاد السوفيتي باعتبارات الاتحاد السوفيتي من الدول ذات الاكتفاء ولا يمكن اثناء الحرب ان يقطع تموينه التي لاتعتمد على الطرق البحرية بل على طرقاتها الداخلية التي تربطمابين الشرق والغرب في حين انه بالامكان قطع التموين البحري عن اوربا عن طريق اسطول ضخم يستند الى عدد كبيرمن السفن الحربية خاصة الغواصات ، التي ازدادت اهميتها في الحروب القادمة بعد استطاعتها حمل الصواريخ الذرية وتأكيدا على هذه الاهمية هو الحديث الذي دار بين خرتشوف الرئيس السوفيتي السابق ونيكسون الذي كان في ذلك الوقت نائبا لرئيس الولايات المتحدة عام ١٩٥٩ والذي ورد في كتاب : NY— 1968

— E MAZO and. S HESS «NIXON : APOLITICAL PORTRAIT

خروتشوف : الاساطيل البحرية اليوم عديمة القيمة فهي صالحة لمد سمك القرش بالغذاء ان الاتحاد السوفياتي لن يبني بوارج وحاملات طائرات كثيرة .

نيكسون : وماذا عن الغواصات

خروتشوف : نحن نبني غواصات ما امكننا .

نيكسون : الغواصات ممتازة لاطلاع الصواريخ وتزداد فعاليتها في هذا المجال اذا امكن استخدام الوقود الصلب في تشغيلها .

خروتشوف : هذا صحيح ولكن الخبراء السوفيت يعتقدون انه من الافضل اطلاق الصواريخ من اليابس عن الماء .

نيكسون : هذا يعتمد على الموقف الستراتيجي للدولة المعنية .

خروتشوف : اريد ان اكشف سرا اخرا سوف نستخدم الغواصات في تدمير الموانيء واسطول العدو والمناطق العسكرية ، واذا ما حطمنا اسطول العدو نكون قد قطعنا خطوط مواصلاته وهي ذات اهمية كبيرة له لان عدو الاتحاد السوفيتي سوف يكون معتمدا بدرجة كبيرة على المواصلات البحرية .

كما ان مفهوم السوفيت عن القوة البحرية لا يقتصر على الناحية الهجومية فقط بل يتعداه الى المهمة الدفاعية وذلك في رد الاعتداءات عن الاتحاد السوفيتي فعلى طول التاريخ لم تكن هناك قوة تتبوأ مركزيا عالميا دون ان يكون لها اسطول ضخم يحمل تجارتها الى الخارج ويأتيها بالخامات لتي يمكن ان تحتاجها الدولة كما انه مورد هام كبير للدخل القومي ويعتبر الاسطول التجاري السوفياتي الحالي من اضخم الاساطيل العالمية ويرتاد جميع الموانيء في مختلف انحاء العالم ويشكل واسطة اتصال ممتازة بين الشعوب . والسوفيت بعكس من سبقهم الذين كانوا يعتبرون القوة البحرية الروسية مغلولة اليد ولا تستطيع ان تقوم بواجباتها على الوجه الاكمل واغراق الاسطول الروسي في بحر اليابان من قبل الاسطول الياباني حادثة لا ينساها الروس بعد ان حاول هذا الاسطول نجدة ميناء (بورث آرثر المحاصر من قبل اليابانيين وظل في الطريق اكثر من شهرين ليصل للمنطقة بعد ان غادر قواعده في بحر البلطيق ـ يعتبرون القوة البحرية عنصرا رئيسيا من عناصر القوة الرئيسية لمجموع القوات المسلحة ففضلا عن حمايتها للاسطول التجاري اصبحت بعد ان تغيرت مهماتها التقليدية ـ كما ذكرنا ـ اداة جبارة بيد القيادة لتدمير قوى الخصم في البر والبحر وتستطيع عن طريق انتشارها في مختلف انحاء المحيطات مراقبة الصواريخ الموجهة الى الاتحاد السوفيتي ، والانذار المبكر للقيادة لاتخاذ الترتيبات للحيلولة من ايقاعها للخسائر الفادحة .

ويعتمد الاسطول السوفيتي الجديد على قواه الذاتية للتموين بالمحروقات

والمياه والغذاء الموجودة على السفن التجارية المرافقة خاصة خلال الحرب وفي حال السلم هناك اتفاقيات بين الاتحاد السوفيتي وبعض بلدان المحيط الهندي والخليج لتقديم التسهيلات للاساطيل البحرية خاصة امكانية نزول البحارة للميناء او اجراء الاصلاحات الطارئة ، ويعتقد ان العراق قد وقع اتفاقية مع الاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٢ اعطت السفن السوفيتية بعض التسهيلات في مينائي البصره وام قصر وحصلوا على تسهيلات مماثلة في موانىء عدن وعصب وقد استطاع الروس اقامة موانىء عائمة للتموين والمراقبة بالقرب من الممرات والمضائق الهامة في المحيط الهندي كمضيق باب المندب ومضيق مالقا وقرب جزر سيشل .

وقد رافق النشاط البحري السوفيتي في المنطقة نشاط سياسي للتقرب من دولها وطرحت فكرة الحياد على اساس ان معتنقها لا يكون بالضرورة صديقا للاتحاد السوفيتي والمهم ان لا يسمح لامريكا بزرع القواعد المهددة للاتحاد السوفيتي في ارضه او ان ينضم الى احلاف عسكرية معادية ايضا للاتحاد السوفيتي كما استبعد التفكير بالاعتماد على الايديولوجية الشيوعية لوحدها واستعيض عنها بفكرة التعايش السلمي بين الانظمة المختلفة وكان جواب الروس على مبدأ ايزنهاور الذي اقره الكونغرس في ٧ آذار ١٩٥٧ باسم كفالة الامن والاستقرار في الشرق الاوسط ودعم السلام العالمي ، الذي كان في حقيقة الامر محاولة لايقاف النفوذ او ايقاف كل احتمال للانتشار الشيوعي في المنطقة عن طريق التدخل في شؤ ون الدول الواقعة في حدود المنطقة التي يشملها المبدأ المذكور . هو طرح مشروع (شبيلوف) الذي يتلخص في ان يتعهد الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا باحترام سياسة دول الشرق الاوسط واستقلالها وعدم التدخل في شؤ ونها والامتناع عن مدها بالاسلحة وابعادها عن التكتلات العسكرية وتصفية القواعد الاجنبية ومساعدتها على التنمية الاقتصادية . وعندما اعلن عن تشكيل قوات التدخل السريع الامريكية في عام ١٩٨٠ اعلن السوفيت بلسان الرئيس السوفيتي السابق بريجنيف خلال زيارته للهند في نهاية عام ١٩٨٠ تحديدا لسياستهم في منطقة المحيط الهندي وهي :

- عدم اقامة القواعد العسكرية وادخال الاسلحة النووية للمنطقة .
- احترام سياسة دول الخليج وعدم التدخل في شؤ ونها الداخلية واحترام مبدأ عدم الانحياز الذي اختارته بنفسها .
- عدم المساس والسيطرة على الطرق البحرية والتجارية التي تمر في المنطقة وتركها مفتوحة أمام التبادل التجاري ولصالح الجميع .

كانت ايران احدى الدول المحيطة بالاتحاد السوفياتي التي كانت ولا تزال موضع اهتمام السياسة السوفيتية بسبب موقعها الجغرافي وثروتها المعدنية وخاصة الطاقة البترولية التي تعتبر احدى ركائز الصناعة الغربية بسبب اعتماد هؤلاء واليابان بتموينهم البترولي على الخليج بما فيها ايران ، والاتحاد السوفيتي في الوقت الحاضر لا يحتاج الى هذه الكميات من البترول فلديه ما يكفيه ويستطيع ان يمون الدول الاشتراكية الاخرى في اوربا ولكن يظل احتمال وجود حاجة للبترول الخارجي خاصة في حرب قادمة او عند ازدياد الطلب من حلفائه على بتروله . ويضاف الى ذلك امكانية حرمان الغرب من هذه المواد الهامةجدا خاصة اثناء الحرب. كما ان الاتحاد السوفيتي يعلم بان ايران كانت خلال الحربين خاصة الثانية الطريق الوحيد الذي يصل الاتحاد السوفيتي في الخارج وقد وصله عن طريقها حوالي خمسة ملايين طن من العتاد ساعدته في الدفاع عن بلاده امام الغزو النازي حتى الفترةالتي بدأت فيها المصانع الروسية تنتج المعدات الحربية لتسليح جيوشه . ومن ناحية اخرى فايران افضل مكان يمكن تهديد قلب الاتحاد السوفيتي تهديدا مباشرا وكذلك المراكز الصناعية الموجودة ماوراء الاورال وسيبيريا وآسيا الوسطى ورغم ان الاسلحة الصاروخية بعيدة المدى قربت المسافات ولم يعد بالامكان الاختفاء في داخل البلاد كما كان عليه الحال في السابق فكل مركز عسكري او هدف حيوي يمكن ن يدمر بسرعة اذا لم يعتمد على التمويه الدقيق ويمكن ملاحظته من مسافات بعيدة عن طريق الاقمار الصناعية وايران بسبب اتساعها تشكل قاعدة مهمة ضد الاتحاد السوفيتي . وفي الوقت ذاته فايران افضل مكان يمكن للسوفيات من الانفتاح او الوصول منه الى البحار المفتوحة والمياه الدافئة ويمكن ايضا ان تشكل قاعدة انطلاق روسية نحو جنوب البلاد العربية وافريقيا ، تجاريا وعسكريه.والاسطول السوفيتي في المحيط الهندي الذي يزور الموانىء الواقعة على خليج عدن والبحر الاحمر زيارات روتينية يظل بحاجة الى قواعد على سواحل المحيط الهندي خاصة جوية لحمايته من حاملات الطائرات الامريكيةفي اسطول المحيط الهندي الامريكي وكذلك كقواعد تموين خلال العمليات الحربية التي يمكن ان تدور في المنطقة في حرب عالمية ثالثة ، فحتى الان رغم العلاقات السياسية الوثيقة بين كل من اثيوبية وجمهورية اليمن الديمقراطية من جهة والاتحاد السوفيتي من جهة اخرى لا توجد هناك قواعد بحرية وكل ما هنالك تسهيلات للاسطول السوفيتي في هذه الموانىء .

حاول الاتحاد السوفيتي بعد الحرب العالمية الثانية إبعاد إيران عن التأثير الغربي وجعلها ترفض الضغوط الامريكية لاقامة القواعد العسكرية في بلادها والتي تهدد قلب الاتحاد السوفيتي خاصة خلال الفترة التي كان فيها الاحتكار الامريكي للأسلحة الذرية لا يزال قائماً . ورغم أن الاتحاد السوفيتي رفض مساعدة ودعم الحركات الانفصالية في كل من اذربيجان وكردستان عندما أخذت القوات الايرانية بمهاجمة هذه الدويلات والقضاء عليها وانسحب الجيش الأحمر من كافة الأراضي الايرانية التي كان يحتلها خلال الحرب العالمية الثانية الا ان شاه ايران اخذ في الأنحياز والمسير في ركاب السياسة الامريكية التي عرضت عليه المساعدة العسكرية للقضاء على الحركات الانفصالية. وقد اثار انسحاب الجيش الاحمر من شمال ايراني ازمة بين البلدين الى سياسة الخيار وترك الابواب مفتوحة مع تطبيع العلاقات لاغتنام الفرصة الملائمة لاقامة علاقات جيدة مع الطرفين ، وكان ظهور مصدق وتأميم البترول الايراني اكبر الفرص التي اغتنمها الاتحاد السوفيتي للدخول بعلاقات جيدة مع ايران حيث تم دعم مصدق وبدأت وسائل الاعلام السوفيتية والشيوعية بمهاجمة القوى الغربية التي تحاول التدخل في الشؤ ون الايرانية ، ولكن سقوط مصدق وعودة الشاه تحت الحماية الامريكية وبمعونة وكالة المخابرات الامريكية غير الموقف كثيرا مما جعل السوفيت يتجهون نحو العراق الذي كان قد ابعد الملكية وخرج من الحلف المركزي عام ١٩٥٨ . وقد اندفع الشاه في بادىء الامر بعد عودته لمعاداة الاتحاد السوفيتي وانهالت عليه المساعدات الامريكية ليصبح رجل امريكا كما مر معنا في الفصل السابق ، ولكن الشاه بعد ذلك اخذ في التراجع عن مواقفه الصلبة تجاه جيرانه كانذار لامريكا التي بدأت بالابتعاد عن ايران بعد فشل سياسة الحصر التي اتبعتها ضد الاتحاد السوفيتي خلال حكم الرئيس كينيدي واخذت امريكا تضع مخاوف الشاه من السوفيت في مرتبة متأخرة في سلم اولياتها العالمية وتشجيعها للاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية ومعارضة النظم الديكتاتورية والانفاق العسكري وتوريد السلاح مما شجع الشاه في اعادة النظر بارتباطه بالغرب واقتناعه بوجوب تطبيع العلاقات مع السوفيت ليلعب لعبة التوازن الدولي بين البلدين ، ويجعل لنفسه سياسة استقلالية رغم انتمائه الحقيقي لامريكا وفي هذه الفترة حدثت تغييرات هامة في السياسة العالمية منها ظهور الصراع السوفيتي - الصيني واتجاه العلاقات السوفيتية - الامريكية نحو الانفراج بعد سنين طويلة من الحرب الباردة

وقد بدأ الاتفاق على تسوية الحدود والافراج عن الارصدة الذهبية ، واخيرا الغى الاتحاد السوفيتي امتيازات البترول التي كانت تخولهم استغلال بترول شمال ايران

لمدة ٧٠ عاما والتي كانوا قد حصلوا عليها كشرط للانسحاب من ايران . واخيرا عرض الروس المساعدات على ايران وتمويل مشاريع التنمية الصناعية في ايران

بشروط سهلة . وفي كانون ثاني ١٩٦٩ عقدت اتفاقية بين ايران والاتحاد السوفيتي تقضي بتزويد ايران للاتحاد السوفيتي بما قيمته (٦٠٠) مليون دولار من الغاز الطبيعي ابتداء من عام ١٩٧٠ مقابل بناء السوفييت لمصنع للفولاذ في ايران ، والتعهد بتزويدها باسلحة روسية قيمتها (١١٠) مليون دولار وقد جاء هذا التحول نتيجة قرار الحكومة الامريكية ايقاف المعونات الاقتصادية والعسكرية لايران بحجة انها اصبحت دولة متطورة لم تعد بحاجة للمساعدات ، وقد قام الشاه ردا على ذلك بزيارات عدة لبعض الدول الشيوعية ومنها موسكو ما بين اعوام (٦٧ - ٦٨) كما قام رئيس وزرائه (عباس هويدا) بزيارات مماثلة ، تجاهل الاتحاد السوفيتي عند احتلال الشاه للجزر العربية الثلاث وازدياد اللقاءات مع المنظومة الاشتراكية الا ان الشاه لم يغير من علاقاته الوثيقة والمفضلة مع امريكا . لذلك لما اندلعت الثورة الايرانية وقف الاتحاد السوفيتي بجانبها ودعمها ولكن دخول السوفييت لافغانستان الذي ادى الى احتجاج كبير من قبل الحكومة الاسلامية الجديدة يضاف الى ذلك موقف الحكومة الايرانية من الاتجاهات اليسارية وخاصة الاعتقالات التي تمت في صفوف حزب توده والخلاف بين حزب مجاهدي خلق والحكومة كل ذلك ادى الى تقلقل العلاقات بين البلدين ومع ذلك يشدد السوفييت على ان اي تورط امريكي مباشر في ايران سيدفع بالاتحاد السوفيتي الى الرد بسرعة وبشكل مباشر وذلك عن طريق ارسال القوات السوفيتية الى الساحة الايرانية على اساس معاهدة ١٩٢١ التي يعتبرها الاتحاد السوفياتي لا تزال سارية المفعول والتي يحتفظ الاتحاد السوفيتي بحقه في ارسال جنوده الى ايران مثلما فعلت في عام ١٩٤١ وينطبق ذلك متى شعر السوفييت بان مصالحهم مهددة وفي عام ١٩٧٩ اعلنت

الحكومة الايرانية برئاسة مهدي بازركان الغاءها للفقرات المتعلقة بدخول السوفييت لايران من المعاهدة ولكن السوفييت رفضوا ذلك لان المعاهدة لم يتم الغاؤ ها من قبل المجلس النيابي (المجلس) الايراني الذي وافق عليها عام ١٩٢١ بالاضافة الى ان المعاهدة استبدلت دينا متوجبا على ايران تبلغ قيمته الحالية (١٦) مليار دولار لذلك لا يمكن الغاء جزء من المعاهدة وترك الباقي . وعلى العموم يعارض السوفييت ايضا الحرب العراقية - الايرانية ، وهو يرى انها تضعف البلدين وتقدم الحجة للولايات المتحدة للتدخل في المنطقة كما يحدث الان .

والواقع ان موقف موسكو من سياسات ايران الاقليمية اختلف اختلافا بينا باختلاف المرحلتين اللتين مرت بهما العلاقات السوفيتية الايرانية قبل عام ١٩٦٢ وبعده . وكانت موسكو في المرحلة الاولى تعارض سياسات ايران وتؤ يد من تعتبرهم ايران اعداءها ضدها (تأييد موسكو للعراق عام ١٩٥٩ ولمصر عام ١٩٦٠) ثم نجد انها نهجت سياسة المهادنة والتفهم للمصالح والسياسات الايرانية ، وحاولت قدر الامكان ان توفق بين تأييدها لايران من ناحية وتأييدها لسياسة مصر التي كانت ايران تحسب لها حسابا كبيرا من ناحية اخرى . وقد ظهر ذلك في مسائل الحلف الاسلامي وثورة اليمن حيث وقفت بجانب مصر في معارضتها للحلف الاسلامي الذي طبع في ذلك الوقت بالطابع الاستعماري كما وقف السوفييت بجانب مصر في مساندتها للثورة اليمنية وما تلاها من خلاف مع المملكة العربية السعودية .

اما في المسائل التي لم يكن لموسكو او لاصدقائها مصلحة مباشرة فيها فقد اتبعت موسكو بشأنها الخط السابق الذي اشرنا اليه ومصداقا لذلك لم تؤ يد موسكو او تعارض دعوى ايران ضد البحرين وتجاه اتحاد الامارات العربية والحقيقة هي ان ايران (الشاه) استطاعت تحييد موسكو في ذلك الوقت تجاه مشاكل الخليج العربي . وهو موقف يتفق مع المصالح السوفيتية ايضا او على الاقل لا يضربها خاصة بعد محاولات الشاه العقيمة للقيام بالاصلاحات الاجتماعية الداخلية مما يعرف بالثورة البيضاء ، ويظهر من كل ما تقدم مقدار اهتمام السوفييت بما يجري في ايران وكما ذكرنا سابقا فهي الوحيدة من دول المنطقة ترتبط بحدود مباشرة مع الاتحاد السوفيتي .

اما البلاد العربية التي كانت قد ازاحت ـ لتوها ـ قيود الاستعمار عن كاهلها بعد الحرب العالمية مباشرة خاصة سورية والدول الواقعة على البحر الابيض المتوسط فبالرغم من انها ليست ذات حدود مشتركة مع الاتحاد السوفيتي الا انها كانت ولا تزال موضع اهتمام السياسة السوفيتية منذ الحرب فقد قربت الوسائط السريعة من طيران وغيره المسافات بين الدول واصبحت بعض الدول العربية اقرب لقلب الاتحاد السوفيتي الصناعي من موسكو ذاتها يضاف الى ذلك اهميتها الاقتصادية بالنسبة للغرب لوجود الطاقة البترولية .

لقد مر النشاط والوجود السوفيتي في البلاد العربية في مرحلتين رئيسيتين وهما :

ـ اولا : الفترة التي سبقت موت الزعيم السوفيتي ستالين .

ـ ثانيا : وهي الفترة التي مرت بعد موته حتى الوقت الحاضر .

ورغم هذا التقسيم الزمني الا ان سياسة السوفييت في المنطقة الواقعة ما بين ايران ومصر كانت تختلف من دولة الى اخرى وبالتحديد ما بين مجموعة دو للبحر المتوسط وتضم مصر وسوريا والاردن والعراق وفلسطين وكلها كانت دولا مستقلة تعج بالحركات الثورية عدا فلسطين التي احتلتها عناصر اجنبية يهودية صهيونية وما بين شبه الجزيرة العربية والخليج العربي وكلها دويلات صغيرة عدا المملكة العربية السعودية وكانت تلك الدول لا تزال خاضعة للاستعمار الغربي بسبب مخزونها البترولي الضخم وموقعها الستراتيجي .

لقد حاول ستالين في بداية عهده دخول الشرق الاوسط او بالاحرى البلاد العربية باية طريقة كانت وعلى هذا الاساس امد اسرائيل بالاسلحة عن طريق تشيكوسلوفاكيا معتقدا انه بامكان اسرائيل ان تلعب دورا هاما في المنطقة لم تستطع الاحزاب الشيوعية ان تلعبه وهو بذر الثورة التقدمية في مختلف انحاء الوطن العربي على اساس ان اسرائيل او (اليهود الصهاينة) لديها من الافكار الحضارية ما يجعلها تصبح المحرك الاول والقوي في المنطقة والتي يجعلها تسير نحو الحضارة وتؤدي بالضرورة الى تغييرات جذرية في اسلوب الحياة ، والاستفادة من الثروات الطبيعية ، ولكن ستالين شعر بخطئه مباشرة وكان يجهل الاوضاع الاقليمية فوجد ان تعاونه مع اسرائيل قد احرج حتى الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية فاتهمت هذه بالتعاون مع الصهيونية خاصة ان اليهود العرب المحليين كانوا قد اندسوا خلال

الحرب بالاحزاب الشيوعية مما اربكها كما كشفت اسرائيل بعد ذلك عن علاقة وثيقة مع الغرب خاصة الولايات المتحدة وظهر انها ليست سوى امتداد للامبراطورية الامريكية الاستعمارية الجديدة والمنفذ لرغباتها واهدافها ـ كما عرضنا سابقا ـ ومما يجدر ذكره ان الشيوعيين ظلوا لفترة طويلة بعد الحرب يعتبرون حلفاء الصهاينة وصارت كلمة شيوعي مرادفة لكلمة صهيوني حتى ظهور الخلاف بين الاتحاد السوفيتي واسرائيل بعد كشف امرها والخلاف حول هجرة اليهود السوفييت .

في ذلك الوقت انطوى ستالين على نفسه وعلى مشاكله الداخلية وتفكيره في خلق الصناعة الثقيلة وتركيزه على ازالة التفوق التكنولوجي الامريكي رغم انه كان لا يحب تفضيل الاسلحة النووية على الاسلحة التقليدية ، ولكن بعد موت ستالين واستلام مالينكوف الحكم تغيرت الاوضاع كليا فقد القى الرئيس السوفيتي المذكور خطابا في آب عام ١٩٥٣ تعرض فيه الى منطقة الشرق الاوسط بشكل عام واكد على رغبة الاتحاد السوفيتي في اقامة علاقات صداقة مع دوله وشعوبه في شتى الميادين ، وكان النفوذ البريطاني اخذ ينحسر شيئا فشيئا من المنطقة بعد انحسار النفوذ الفرنسي واخذ النفوذ الامريكي يحل محله ، ومن خلال الهجوم على النفوذين كان الاتحاد السوفيتي يحرص على عدم المساس او التعرض للاشخاص من الحكام خاصة منطقة الخليج بل كان يركز هجومه على الوجودين البريطاني والامريكي الجديد الذي اخذ يوقع المنطقة بشباكه واظهر رغبته في مساعدة دول المنطقة غير المستقلة للحصول على استقلالها والتخلص من التبعية الاستعمارية ومن جهة اخرى كان الهجوم على الاحلاف العسكرية هدفا رئيسيا للدعاية السوفيتية بعد ان بدأت الدولتان بريطانيا وامريكا تعملان لخلق هذه الاحلاف في شبه حزام يطوق الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي .

وفي عام ١٩٥٥ يبدأ الوجود السوفيتي الحقيقي في المنطقة بفضل حلف بغداد الذي كان العراق قاعدته الرئيسية فمع الحلف ظهر الخلل في ميزان التسلح الذي كان موجودا في المنطقة حتى تلك اللحظة ، وكان سقوط الحلف بعد الثورة العراقية فرصة كبيرة للاتحاد السوفيتي لمد يد التعاون مع العراق بعد ان ردوا على تسليح الغرب لحلف بغداد والعراق خاصة بتسليح مصر وسوريا ولاول مرة دخل الشرق الاوسط في سباق التسلح ما بين الغرب والشرق ولكن بعد سقوط الحلف ظهر سباق للتسلح جديد بين الدول العربية من جهة واسرائيل من جهة اخرى بمساعدة الولايات

المتحدة التي اتخذت اساليب ملتوية كثيرة لتسليح اسرائيل عن طريق المانيا وبريطانيا وفرنسا ومن ذلك الوقت ترسخت نظرية ابقاء التفوق الصهيوني على الدول العربية مجتمعة من ناحية السلاح والتدريب لدى المسؤ ولين الامريكان وقناعاتهم بوجهات نظر اليهود .

وقد سنحت الفرصة للاتحاد السوفيتي لاثبات وتأكيد وجوده على مسرح الاحداث في المنطقة بشكل فعال بعد العدوان الثلاثي على مصر في حرب السويس ١٩٥٦ نظرا لموقفه الايجابي والمؤ يد للعرب ومنذ ذلك الوقت حتى الوقت الحاضر اصبح الاتحاد السوفيتي يشكل طرفا مهما في الشرق الاوسط باكمله واصبحت المنطقة نفسها ذات اهمية بارزة جدا ضمن نشاط السياسة الخارجية السوفيتية والدليل على ذلك معارضتهم في كانون ثاني ١٩٥٧ الى مبدأ ايزنهاور ورفضه لفكرة املاء الفراغ وقيامه بتحريض الدول العربية ضده وطرحه لمشروع « شبيلوف » ، وقد كانت سياسة الاتحاد السوفيتي في تلك الفترة تلاقي نجاحا كبيرا بعد التحول الذي حدث بعد عام ١٩٥٥ والانتقال من الحرب الباردة الى فكرة التعايش السلمي فخلفاء ستالين ومن بينهم خروتشوف ادركوا الاهمية الاستثنائية للشرق الاوسط في التنافس ما بين النظامين الاشتراكي والرأسمالي ، كما ان الاتحاد السوفيتي ومنذ عام ١٩٥٥ اعتبر ان المواجهة ما بين هذين لعالمين يمكن ان تقع في الشرق الاوسط . وقد قدم الاتحاد السوفيتي للمنطقة اكثر من السلاح حيث طرح فكرة الحياد على شعوبها وقدم المساعدات العسكرية والاقتصادية لكل من مصر وسوريا في بناء سدي اسوان والفرات . وقد فرض على الاحزاب الشيوعية المحلية مساندة الحكومات المحلية مهما كان توجهها . وبالاضافة الى العلاقات الثنائية بين السوفييت ودول المنطقة التي ساعدت على تغيير صورة الاتحاد السوفيتي في المنطقة فقد اظهر في كل ازمة من الازمات التي وقعت في المنطقة انه يساند القضايا العربية خاصة قضية العرب الاولى وهي الاحتلال الصهيوني لفلسطين واجزاء من البلاد العربية وقد لعب دورا كبيرا في جعل المنظومة الاشتراكية العالمية تقف بجنب القضايا العربية ، ومنذ عام ١٩٥٨ استطاع السوفييت ان يعدلوا ميزان القوى في الشرق الاوسط فلم يعد للغرب السيادة لوحده بل اصبح هناك من ينافسه وهي دول المنطقة التي يدعمها السوفيت ورغم كل هذا التقدم في العلاقات لا يزال بعض العرب لا ينسون بان الاتحاد السوفيتي دولة كبرى، وشيوعية وتساعد الاحزاب الشيوعية للوصول الى الحكم ، وقد اتهم من

الصين بانه يتبع في العالم العربي سياسة لا تخدم سوى مصالحه القومية فقط .

منذ عام ١٩٦٧ اكتسب الوطن العربي ثقلا جديدا في السياسة السوفيتية الخارجية فقد اصبح جزءا من سياسة كونية هي سياسة القوة التي كان يعمل لها الاتحاد السوفياتي ليصعد الى مرتبة القوة العظمى والى مرتبة المحاور الوحيد في العالم للولايات المتحدة ولذلك اصبح التقرب من العالم العربي هدفا ثيسيا للاتحاد السوفياتي يعمل لكسب وده وصداقته ومما يجدر ذكره ان الاتحاد السوفياتي عام ١٩٧٢ استطاع الحصول على اتفاقية (سالت واحد) في حزيران ١٩٧٣ وعلى اتفاقية السيطرة على الازمات واصبح قوة عظمى حقيقية وعلى مرتبة واحدة مع الولايات المتحدة في مسؤ وليتهم عن الحياة الدولية بالرغم من خروج مصر عن دائرة التعاون مع الاتحاد السوفيتي في زمن انور السادات .

وعلى العموم فلدى الاتحام السوفياتي اهداف كثيرة يريد ان يحققها على المدى الطويل واهم هذه الاهداف هي :

أولا : تدعيم المراكز التي اكتسبها ان كان في الدول الواقعة على البحر الابيض المتوسط او الدول الواقعة على المحيط الهندي والبحر الاحمر والخليج والتي تشكل همزة الوصل مع مراكز نفوذه في افريقيا وكلما كثر عددها ابتعدت من ان تكون خطرا على الاتحاد السوفيتي عن طريق استغلالها في المخططات الامريكية .

ثانيا : ابراز الاهمية التي يوليها الاتحاد السوفيتي للوطن العربي فيما يتعلق بالثورة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية على المدى الطويل .

ثالثا : العمل على ابعاد كل تخوف من قبل دول المنطقة من التدخل في شؤ ونها الداخلية عن طريق التعاون المتبادل بين الطرفين على اساس المشاركة .

والحقيقة ان النتيجة المبتغاة من كل هذه الاهداف هو تحييد المنطقة لتشكل اطارا من الامن حول حدود الاتحاد السوفيتي يضاف الى ذلك ما يمكن ان يحققه الاتحاد السوفيتي من منافع اقتصادية في بلاد تسير بخطا سريعة نحو النمو . وهناك حقيقة واحدة لا تغيب عن بال احد هي انه كلما ازدادات امريكا دعما لاسرائيل ازداد قبول الاتحاد السوفيتي كصديق حميم للوطن العربي .

اما في منطقة الخليج والجزيرة العربية فبالرغم من ان الاتحاد السوفيتي يمتلك الطاقة البترولية التي تؤمن له حاجته على المدى المنظور الا ان المنطقة تحظى باهتمام كبير من قبله نظرا للموقع الجغرافي القريب جدا من حدوده ، ومن ناحية اخرى

الموارد البترولية الهائلة التي تؤمن للغرب حاجته من الطاقة لتسيير صناعته ، وعلى المدى البعيد يمكن الاعتماد عليها في تموين الاتحاد السوفيتي نفسه عند حدوث نضوب في طاقته البترولية او ازدياد الحاجة لاكثر مما لديه من بترول بسبب الزيادة الكبرى في المجالات الصناعية التي تحتاج للبترول من اجل توليد الطاقة من جهة والتصنيع لمشتقات البترول من جهة اخرى رغم أن هذه الاحتمالات بعيدة جداً بسبب الاحتياط البترولي الضخم الموجود لدى الاتحاد السوفييتي ولا تتشابه الاوضاع في منطقة الخليج والجزيرة العربية مع البلاد الواقعة على البحر الابيض المتوسط من ناحية النظرة السوفيتية لها بسبب النفوذ البريطاني ومن بعده الامريكي في المنطقة والذي لا يزال قويا حتى بعد الاستقلال نظرا لارتباط المصالح لذلك لجأ الاتحاد السوفيتي قبل الاستقلال لتحقيق الفرص في الدخول الى تلك المنطقة عن طريق تقديم المساعدات واظهار النوايا الحسنة ، وعندما بدأت امريكا تبذل جهودها عن طريق بريطانيا لخلق الاحلاف العسكرية بين دول المنطقة والخليج في شبه حزام يلف الحدود السوفيتية بحجة املاء الفراغ اغتنم السوفييت وقوف المنطقة ضد هذه الاحلاف لتظهر هي الاخرى معارضتها واخذ الاتحاد السوفيتي يلوح برغبته في مساعدة الدول العربية اقتصاديا وعسكريا للوقوف في وجه امريكا و بريطانيا . وقد عرض السوفييت على المملكة العربية السعودية تزويدها بالسلاح عندما رفضت هذه شراء صفقة كبيرة من الاسلحة التي تعاقدت عليها في شباط ١٩٥٤ وكانت المملكة العربية السعودية بحاجة لمثل هذا السلاح بعد خلافها مع بريطانيا على واحة البريمي عام ١٩٥٤ حيث اجلت القوات البريطانية (قوات ساحل عمان) القوات السعودية من الواحة في تشرين ١٩٥٤ . الا ان الاتحاد السوفيتي ظل يؤيد المملكة العربية السعودية تأييدا مطلقا في مطالبها بواحة البريمي في جميع المحافل الدولية ، وفي عام ١٩٥٨ ايد الاتحاد السوفياتي قيام الثورة العراقية بزعامة عبد الكريم قاسم ولكن لم يلبث الطرفان ان اختلفا بسبب التضييق الذي اقامه عبد الكريم قاسم على الشيوعيين العراقيين وحملات التصفية الجسدية التي شنها عليهم لذلك اعادت موسكو تقييمها للاحداث وبدأت بالسيرة بتؤدة دون التحيز لدولة على اخرى الا من خلال مصلحة موسكو اي ان تجربة عبد الكريم قاسم جعلت سياسة السوفييت نحو الخليج تتميز بالحذر والتعقل بآن واحد ، وعندما حدثت الازمة العراقية ـ الكويتية لم يتحيز السوفييت لفريق ضد آخر بل شددوا على مهاجمة التدخل البريطاني ونزول

القوات البريطانية في الكويت وعندما سقط عبد الكريم قاسم ، وجد السوفييت الفرصة سانحة لتأييد الكويت وشجب مطالبة قاسم بها وبهذه الخطوة فتح الباب امام اقامة علاقات ديبلوماسية مع الكويت وتم فعلا تبادل السفراء بين البلدين في حزيران ١٩٦٣ ، اما النشاط الاقتصادي بين البلدين فقد بقي مجمدا حتى منتصف ١٩٦٤ وذلك عندما فتحت الكويت اسواقها لاول مرة امام بعض الصادرات السوفيتية الصنع وبعد ان نحي خروتشوف عن منصبه في ذلك العام ايضا اذ اخذت العلاقات الكويتية ـ السوفيتية بالتحسن المضطرد ، وذلك عندما دعت موسكو وفدا كويتيا لزيارة الاتحاد السوفيتي للتباحث مع القادة السوفييت الجدد في امكانية التعاون فيالمجال الاقتصادي والكنولوجي . وفي هذه المناسبة ابدت حكومة الاتحاد السوفيتي رغبتها في انشاء عدد من المشاريع الصناعية وخاصة في مجال بناء مراكب الصيد ومنذ ذلك الوقت والامور بين البلدين تسير بشكل طبيعي .

ومن الامور البديهية تفكير الاتحاد السوفييت ببترول الخليج من ناحية حاجته اليه في المدى البعيد ومن ناحية امكانية حرمان الغرب منه في حالة الحرب . وقد ظهرت اهمية بترول الخليج بشكل عالمي في اواخر عام ١٩٧٣ اي بعد الحرب العربية ـ الاسرائيلية وقطع البترول عن الدول الغربية والولايات المتحدة وقد ظهر بشكل قاطع لم يسبق له مثيل من قبل انه يعتبر خزان الوقود الرئيسي في العالم لذلك لا بد ان يظهر ذلك دائما في صياغات الستراتيجيات العامة والستراتيجية السوفيتية المتعلقة بمنطقة الخليج والمحيط الهندي وقد عمل الاتحاد السوفيتي قبل حرب تشرين وظهور ازمة الطاقة على حث الدول العربية المنتجة للنفط لامساك الامور بوسائلها الخاصة وتحت مراقبتها . ولم يكن الاتحاد السوفيتي في تلك الفترة بحاجة الى البترول بسبب اكتفائه الذاتي وحتى امكانية التصدير للدول الاشتراكية التي تسير في فلكه وكذلك لبعض المستوردين اليابانيين ، لذلك وجه نشاط دعايته على حث الدول العربية المصدرة للنفط على القيام بتأميم الشركات الاجنبية المسيطرة على انتاجه . وزاد من ادعاته بان نفط الشرق الاوسط هو احد العوامل التي ساعدت على استبعاد شعوب المنطقة ، ولا يمكن لهذه الشعوب التحرر المطلق الا اذا استعادت جميع حقوقها من عائدات النفط الضخمة التي تسيطر عليها الشركات الاجنبية » . ولكن بعد ازدياد الطلب على البترول بسبب ازدياد النمو الصناعي في الاتحاد السوفيتي ووجود اكبر المخازن الاحتياطية البترولية بعيدا داخل الاتحاد السوفيتي

اصبح الاتحاد السوفيتي دولة مستهلكة كغيرها من الدول لذلك اوعز الى دول اوربا الشرقية ان تؤمن نفسها بنفسها وهذا ايضا ادى الى ازدياد اهمية بترول الشرق الاوسط في حين اخذت السياسة السوفيتية تبدي رغبتها في شراء حاجتها من البترول من منطقة الخليج كما حدث على لسان وزير البترول السوفيتي (منغريف) عام ١٠٧١ وهكذا اصبحت المنطقة بالنسبة للاتحاد السوفيتي تتعدى اهميتها الجغرافية بل كمصدر للطاقة للاتحاد السوفيتي في المستقبل . ويقول ايغور بليابيف محرر الشؤون الخارجية في مجلة (ليترا تورنايا غازيتا) الأسبوعية حول السياسة السوفييتية تجاه الوطن العربي «أن الاتحاد السوفييتي لا يريد الآن ثورات ولا حتى أصدقاء في العالم العربي بل فقط شركاء موثوقين ويمكن أخذ الهند مثلاً على ذلك» .

والواقع أن الاتحاد السوفييتي صدم كثيراً في سياسته الخارجية مع الدول العربية التي تعتبر صديقة له بسبب ما كان يحدث من تغييرات مناحية في السياسة الخارجية في بعض هذه الدول وخضوع السياسة في كثير من الأحيان إلى مزاجية الأشخاص الذين لديهم سلطة اتخاذ القرار ـ مما يؤدي ـ وقد أدى ذلك الى خسارات فادحة للاتحاد السوفييتي سواء من الناحية الاقتصادية أو النفوذ السياسي ويعرض حتى الزعماء السوفييت للانتقاد . ولا شك أن الحكم الجديد في الاتحاد السوفييتي يعي هذه الحالة وستكون خطواته مدروسة وموزونة خاصة أن الزعيم الجديد (اندروبوف) ليس ببعيد عن السياسة السوفييتية الخارجية وبتفهم دخائلها وأسرارها باعتباره رئيساً سابقاً للمخابرات السوفييتية التي تعتبر من أكبر أجهزة المخابرات في العالم .

فهرس المخططات



فهرس

الأعلام الأماكن

المواقع

س

ي

***
**
*



المراجع

الكتاب	المؤلف
ـ تاريخ الكويت جزئين	الدكتور احمد مصطفى حاكمه
ـ تحفة الاعيان بحرية اهل عمان	ابي بشير محمد بن شيبه بن نور الدين عبد الله بن حميد السالمي
ـ تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان	الامام نور الدين عبد الله حميد السالمي
ـ دليل الخليج : القسم التاريخي والقسم الجغرافي	ج . ج لوريمر
ـ القافلة	كارلتون كون ترجمة برهان دحاني مراجعة احسان عباش
ـ الدول الاسلامية جزئين	
تأليف : ستانلي لين بول مع اضافات وتصحيحات بارتولد	وخليل ادهم وهم (مؤ رخ تركي) ترجمه عن التركية محمد
صبحي فرزات	
	واشرف على ترجمته وعلق عليه محمد احمد دهمان
ـ الحركة الصليبية جزئين .	الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشو
ـ معجزة فوق الرمال	احمد عسة
ـ آسيا والسيطرة الغربية	تأليف ك . م بانيكار ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد
ـ العرب والملاحة في المحيط الهندي	جورج فاضلو حوراني
	ترجمة الدكتور يعقوب بكر
ـ جزيرة العرب	جان جاك بيريي
	ترجمة نجدة هاجر سعيد الغز
ـ الخليج العربي	جان حاك بيريي
	ترجمة نجدة هاجر سعيد الغز
ـ عمان والساحل الجنوبي للخليج العربي	شركة الزيت العربية الامريكية
ـ تاريخ الشعوب الاسلامية	كارل بروكلمان
	ترجمة نبيه امين فارس ـ منير البعلبكي
ـ الستراتيجيتان السوفيتية والامريكية	تالف هنرى باريس
	ترجمة احمد عبد الكريم
	مركز الدراسات العسكرية (دمشق)
ـ الصومال قديما وحديثا جزئين	حمدي السيد سالم
ـ سلطان في عمان	جيمس موريس ترجمه
الستراتيجية القومية لدولة	عبد الرحمن غنيم ـ محمد الشاعر
الا ٠رت العربية المتحدة	
ـ خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق	
الادنى حزئين . .	فيليب حتي
ـ سكان دولة الامارات العربية المتحدة	الدكتورة امل يوسف العلبي الصباح
ـ قطر قصة بناء دولة	حكومة قطر
وثائق الخليج والجزيرة العربية لاعوام	
١٩٧٥ ـ ١٩٧٦	مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية
ـ مختارات في الثقافة القومية	الادارة السياسية للجيش العربي السوري
اضواء على الخليج العربي	

ومسقط وعمان . . — الدكتور ابراهيم الشريفي

ـ لمحات من الخليج — محمد جابر الانصاري

ـ البحرين واهميتها بين الامارات العربية — ابراهيم عبد الكريم محمد

ـ البحرين ترحب بكم — تأليف جيمس بلغريف

ـ الرحلات والكشوف الاثريه
للعصر الحديث في الجزيرة العربية — الدكتور عبد العزيز صالح

ـ الوقائع والنظريات الاقتصادية — تأليف الدكتور احمد السمان

ـ صراع الواحات والنفط — رياض نجيب الريس

ـ مصالح الولايات المتحدة
في الشرق الاوسط — قسم الدراسات
في الجيش العربي السوري

ـ سقوط ايدن — ونستون تشرشل

ـ اهداف الاستعمار في عدن — جيليان كينج
تعريب وتعليق خيري حماد

ـ حول الحركة العربية — محمد عزت دروزه

ـ البترول ومعالم النظام المالي
في الكويت — الدكتور زين العابدين ناصر

ـ الاوضاع السياسية لامارات الخليج
العربي وجنوب الجزيرة — الدكتور السيد نوفل

ـ القبائل والسياسة في شرق الجزيرة
العربية . . — تأليف ج . بترسون : ترجمة حسين علي اللبودي
مراجعة محمد ابو العلا

ـ بغداد — مطبوعات المجمع العربي العراقي

ـ الخليج العربي الجزء الاول — الدكتور محمد علي داوود

ـ تاريخ وثورة — اسد الاشقر جزئين

ـ السياسة بين الامم
والصراع من اجل السلام والسلطان — هانز ج . مورغانتو
ترجمة خيري حماد

ـ دليل الجمهورية العراقية — وزارة الاعلام العراقية

ـ الاستعمار في الخليج العربي — الدكتور صلاح العقاد

ـ زنجبار — الدكتور صلاح العقاد
جمال زكريا قاسم

ـ البترول العربي — مطبوعات جامعة الدول العربية

ـ الامارات السبع على
الساحل الاخضر — احمد قاسم البوريني

ـ عمان قديما وحديثا — محمد علي الزرقا

ـ القوة البحرية السوفيتية (الاسطول المساند المقنع تأليف دافيد ريز ترجمة الدكتور محمد عبد الغني سعودي .

ـ دراسات في التاريخ والسياسة والاقتصاد مجموعة محاضرات للدورة الدبلوماسية اصدار وزارة خارجية حكومة دولة الامارات العربية المتحدة :

(١) مصالح النفط في الخليج العربي — عبد العزيز منصور

(٢) سياسة الاتحاد السوفييتي تجاه العالم العربي — هيلين كارير وانكوص

(٣) موازين القوى في منطقة الشرق الأوسط — جان هوتزنجر

- الخليج العربي في مواجهة التحديات : مجموعة محاضرات للموسمين الثقافيين السابع والثامن ١٩٧٤ - ١٩٧٥

(١) ميزان القوى في منطقة الخليج للاستاذ عبد الله النفيس

(٢) الخليج العربي في مرحلة ما بعد الاستقلال للدكتور احمد رفعت الكاشف

- القادة الالمان يتكلمون : — ترجمة الدكتور يوسف شقرا

- شط العرب وشط البصره والتاريخ : — الدكتور محمد طارق الكاتب

- الخليج العربي في الاستراتيجيات الاستعمارية والبريطانية خاصة — منشورات وزارة الأعلام العراقية

- جوانب القانون الدولي والاسباب السياسية
الخفية لمشكلة الحدود بين الجمهورية العراقية
والامبراطورية الايرانية في شط العرب : — خورشيد شوكت الراوندي

- البترول العربي : — مطبوعات جامعة الدول العربية

- العلاقات الخارجية لايران : تأليف (عن الانكليزية) ش شوبين وس زابيه مراجعة د . عبد الله الأشعل عن مجلة الدراسات الخليج والجزيرة العربية العدد العاشر ١٩٧٧

- سياسة ايران الخارجية ١٥٠٠ - ١٩٤١ : — تأليف روح الله رمضاني
ومراجعة د عدنان البصري مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد السادس عشر السنة الرابعة ١٩٧٨

- تقارير الأمين العام لجامعة الدول العربية خلال العشرين سنة — الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

- نشرات الصندوق القومي الكويتي

- الكتب الشعرية لدول الكويت - قطر - البحرين - دولة الامارات العربية المتحدة - عمان

- تجارة الخليج بين المد والجزر في القرنين الثاني والثالث الهجري — الدكتور عطية القوضي

- الصراع العالمي الثاني (بالفرنسية(؛ مجموعة من الضباط والخبراء

La Deuxieme Conflit mondial

- تاريخ الحرب العالمية الثانية (بالفرنسية) الجنرال شاسان

La deuxieme Guerre mondial

- الأمن في الخليج (بالفرنسية) : ملحم شاؤ ول

La securité dans la Golfe ARABO-PERSIQUE Republic of IRAQ Facts The IRAQI-IRANIAN Frantier

- بيان هارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية الامريكية الأسبق لشؤ ون الشرق الأدنى وجنوب آسيا امام لجنة مجلس النواب الفرعية الخاصة بأوروبا الشرق الاوسط

- خطاب الرئيس كارتر عن سياسة الاتحاد

- تقرير لجنة الدراسات الستراتيجية المتابعة لجامعة جورج تاون في عام ١٩٧٣ عن الأخطار السياسية التي تؤ ثر في المصالح الغربية عامة والامريكية خاصة

- تصريح الرئيس السوفييتي السابق بريجينيف في الهند ١٩٨٠

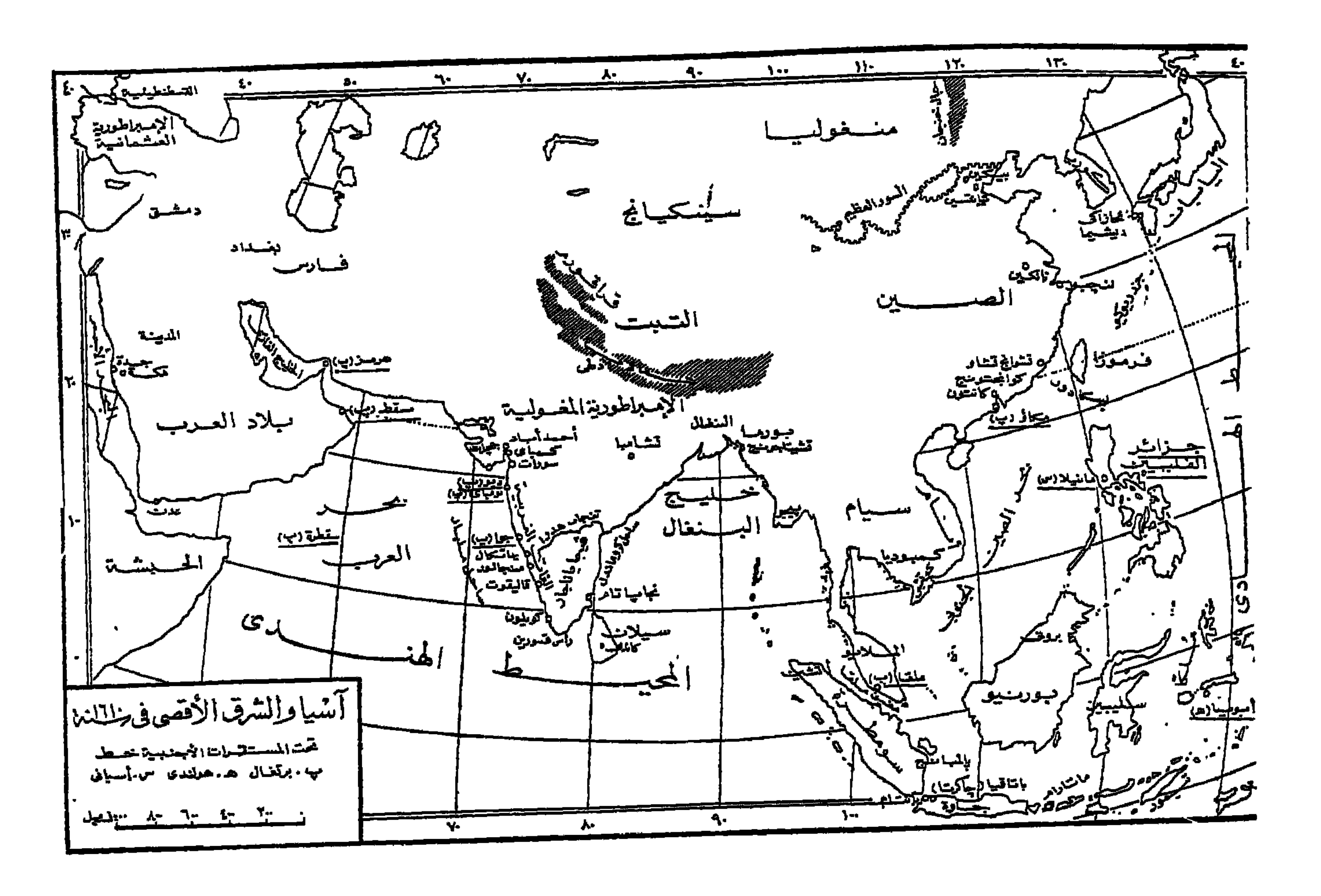
- تصريحات الرئيس ريغن - تصريح فيليوتيس مساعد وزير الخارجية عن سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط

- النشاط الروسي في الخليج العربي ١٨٨٧ - ١٩٠٧ (الدكتور بدر الدين الخصوصي) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد ١٢ سنة ٥

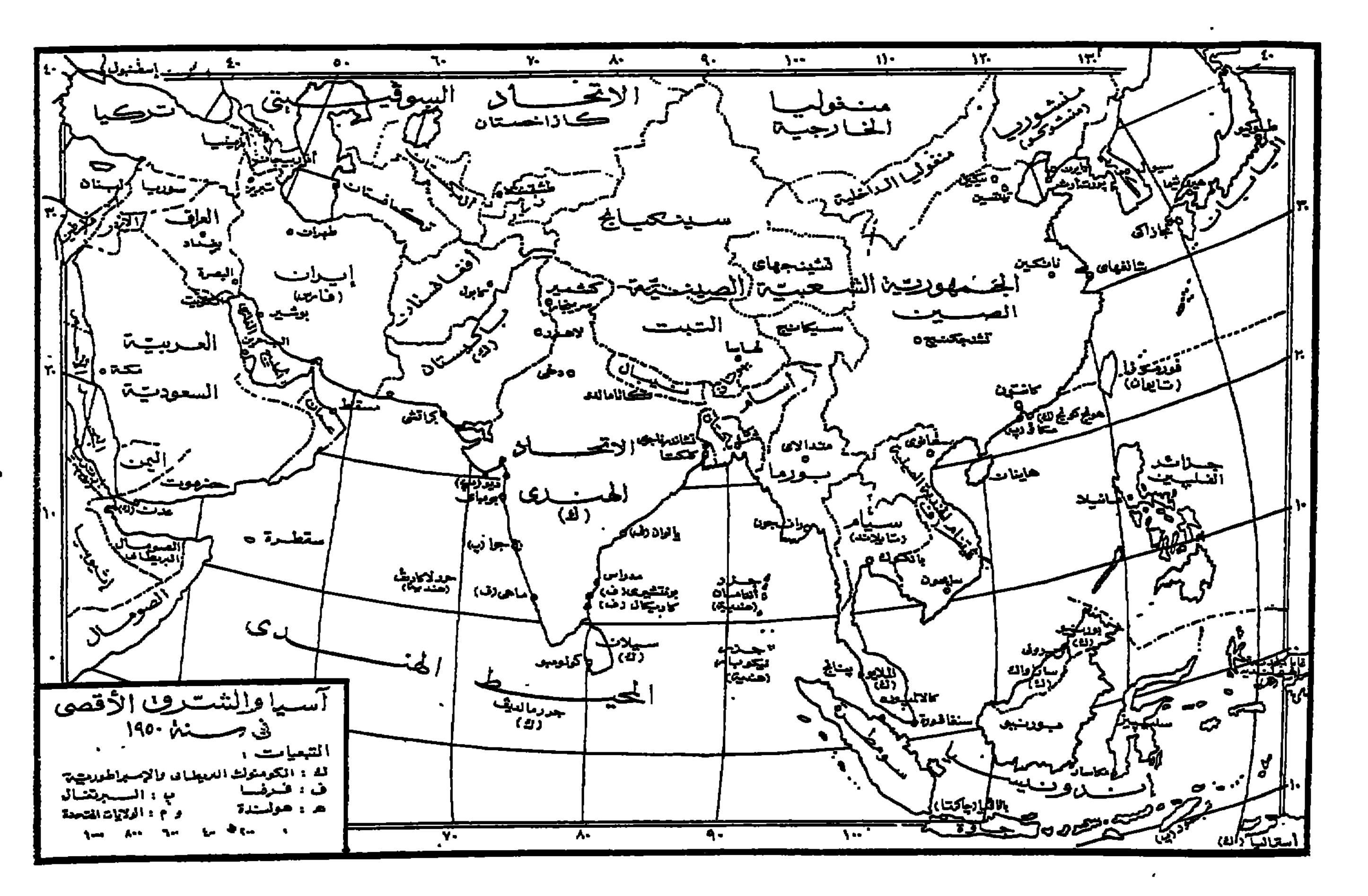
- الاتحاد السوفييتي ومنطقة الخليج الدكتور وليد الشريف
مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد ٥ سنة ٢

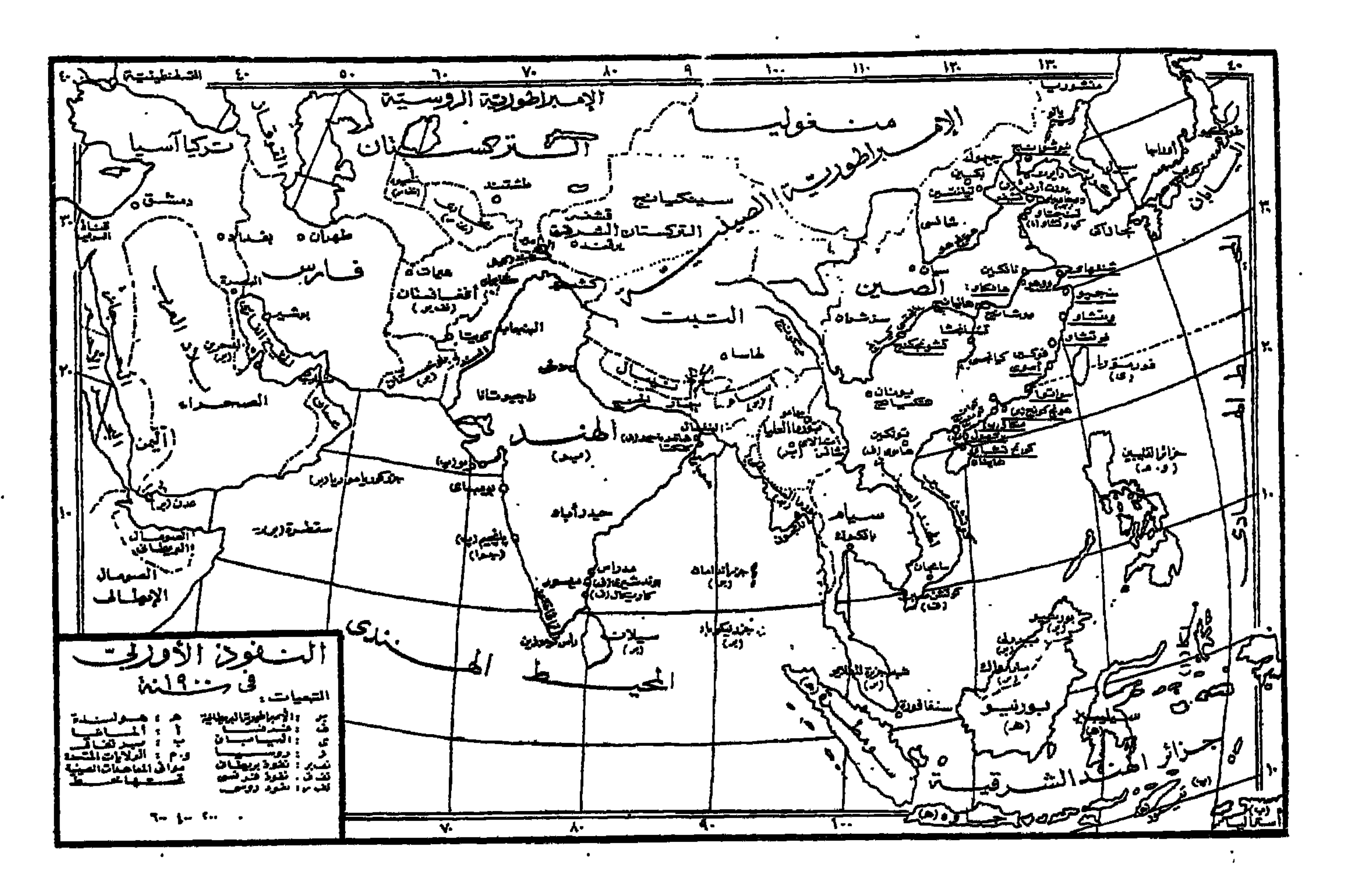
- سياسة بريطانيا في الخليج والكويت في القرن التاسع عشر الدكتوره جاكلين اسماعيل
العدد السادس عشر السنة الرابعة ١٩٧٨

- الستراتيجية البترولية الامريكية والشرق الاوسط صلاح منتصر مجلة السياسة الدولية العدد ٢٢
- السياسة البريطانية بعد هزيمة حزب العمال احمد يوسف احمد مجلة السياسة الدولية العدد (٢٢)
- استراتيجية السلام في الشرق الاوسط مجلة السياسة الدولية العدد ٣٦
- الاستراتيجية الامريكية في العصر النووي الدكتور اسماعيل صبري مقلد مجلة السياسة الدولية العدد (٣)
- الستراتيجية السوفييتية في العصر النووي الدكتور اسماعيل خيري مقلد مجلة السياسة الدولية العدد (٧)
- أمريكا : الوجه والقناع في الشرق الاوسط مجلة الطليعة ملحق للعدد ٩
- العدد السنوي لمجلة جون افريك (بالفرنسية) عام ١٩٨٣
- جريدة الشرق الاوسط ٣/ ٥/ ١٩٨١
- HAND BOOK (ARAMCO)
- دورية شركة النفط ارامكو باللغة الانكليزية ARAMCO
- قافلة الزيت اصدار شركة الزيت العربية
- جريدة اللوموند Le MOND DEPLOMATIQUE N 311-1980
- نشرات وكالات تاس ونوفوستي
- صحف الأهرام - الأخبار - البعث - الثورة ملاحق صحف النهار الصحف المحلية في كل من البحرين - قطر - أبوظبي دولة الامارات العربية المتحدة - العربي - الاسبوع العربي - الهدف - الحوادث - النفط العربي
- الموسوعة البريطانية لعام ١٩٧٥ Encyclopaedia Britannica
- الموسوعة الفرنسية Grand Larousse Encyclopedique
- منشورات سفارات دول الخليج في دمشق
- مجلة الفكر الستراتيجي العربي العدد ٤ سنة ١٩٨٢
- مجلة الفكر العسكري عدد (٤) الادارة السياسية للجيش العربي السوري
- مراجع اخرى مختلفة



آسيا والشرق الأقصى
تحت المستقرات الأجنبية خط
پ. برتغال هـ. هولندي س. أسباني
منغوليا
سينكيانج
التبت
الصين
فارس
بغداد
دمشق
القسطنطينية
الإمبراطورية العثمانية
المدينة
جدة
مكة
بلاد العرب
عدن
الحبشة
بحر العرب
سقطرة (پ)
الإمبراطورية المغولية
أحمد أباد
تشامبا
البنغال
بورما
خليج البنغال
سيام
كمبوديا
سيلان
المحيط الهندي
الخليج الفارسي
هرمز (پ)
مسقط (پ)
ملقا (پ)
سومطرة
بورنيو
جاوة
سلبيس
جزائر الفلبين
مانيلا (س)
فرموزا
اليابان

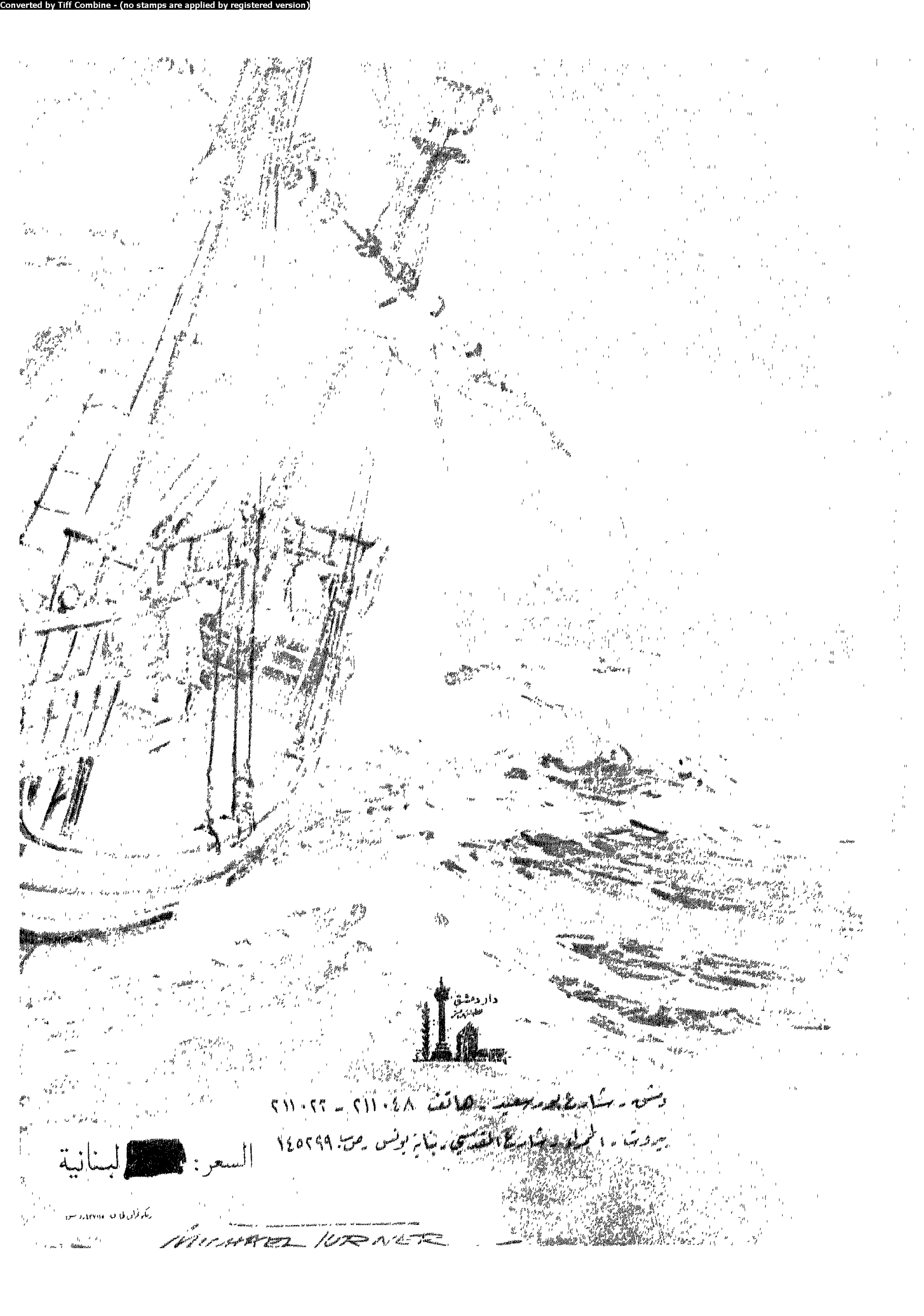

آسيا والشرق الأقصى
في سنة ١٩٥٠
التبعيات :
ك : الكومنولث البريطاني والإمبراطورية
ف : فرنسا
ب : البرتغال
هـ : هولندة
و م : الولايات المتحدة
الاتحاد السوفييتي
كازاخستان
منغوليا الخارجية
منشوريا
تركيا
إيران
أفغانستان
باكستان
العراق
العربية السعودية
اليمن
سينكيانج
الجمهورية الشعبية الصينية
التبت
كشمير
الاتحاد الهندي
بورما
سيام
الصومال
سقطرة
المحيط الهندي
اندونيسيا
جزائر الفلبين
فورموزا (تايوان)
سيلان



النفوذ الأوربى
فى سنة ١٩٠٠
التبعيات :
الإمبراطورية الروسية
منغوليا
الإمبراطورية الصينية
التركستان
تركيا آسيا
فارس
أفغانستان
التركستان الشرقية
الصين
التبت
الهند
اليابان
الصحراء
اليمن
السومال الإيطالى
المحيط الهندى
جزائر الهند الشرقية
بورنيو
سيام
سيلان
دمشق
بغداد
طهران
بومباى
حيدرآباد
مدراس
سقطرة
عدن
لهاسه
طشقند






دار دمشق
دمشق - شارع بور سعيد - هاتف ٢١١٠٤٨ - ٢١١٠٢٢
بيروت - الحمراء - شارع المقدسي - بناية يونس - ص.ب: ١٤٥٢٩٩
السعر: لبنانية